

فى هذا العدد

- التبادل الثقافى العكسى : موضوع ادبى
بقلم : جانوس ريز
ترجمة : أمين محمود الشريف
- فكرة السلام وفكرة الانسانية
بقلم : كلود لوفور
ترجمة : أحمد رضا محمد رضا
- ازمة حضارة
بقلم : أدmond رادار
ترجمة : حسن حسين شكرى
- المصاهرات الزوجية بين الأسر الحاكمة فى الارستقراطية الرومانية
بقلم : دونالد سيم
ترجمة : أمين محمود الشريف
- الهند وأخطار التحليل النفسى
بقلم : تكشمى كابانى وفرنسوا شينييه
ترجمة : موسى بدوى
- علم الاجتماع فى ازمة
بقلم : جيوفانى يوزينو
ترجمة : أحمد رضا محمد رضا
- المصادر الافريقية لحركة الفنون الزنجية بالولايات المتحدة الامريكية
بقلم : ادوارد . أو . آكو
ترجمة : الدكتور حمدى الزيات
- فجر الفكر الاقتصادى فى دول الغرب وروسيا
بقلم أندريه ف . أنيكن
ترجمة : محمد جلال عباس
- التعريف بالكتاب

المقالات المنشورة في مجلة ديوجين التي تعبر بحرية عن أكثر الأفكار تنوعا واختلافا
لا يعتبر الناشر ولا هيئة التحرير مسئولين عنها بأي حال .

التبادل الثقافي العكسي : موضوع أدبي

جانوس ديز

ترتبط عبارة « التيار الثقافي » ارتباطا وثيقا بتاريخ الاستعمار الأوربي . يدلّك على ذلك أن هذه العبارة لم تكن قط سسوى اخضاع الثقافات الوطنية للحضارة الغربية بجميع أشكالها ، على الرغم من الجهود التي بذلت لاضفاء معنى محايد أو ايجابي على هذه العبارة .

وعندما أتحدث هنا عن « التبادل الثقافي العكسي » فأنني أقصد البحث في الحالات التي انعكس فيها اتجاه هذا التبادل ، أى الحالات التي انبهر فيها الغربيون بالثقافات البدائية ، وتأثروا بها . وعندما أتحدث عن حركة التبادل الثقافي نحو الأمام أو العكس ، فأنني لا أعنى بأى حال الاشارة الى سمو احدى الثقافتين على الأخرى ، وإنما أعنى أن تأثر غير الأوربيين بالحضارة الغربية هو القاعدة ، وأن تأثر الغربيين بالثقافات البدائية هو الاستثناء ، كما يتضح ذلك من استقراء تاريخ الحضارة . يضاف الى ذلك أننى سأقتصر على الاستشهاد بعدة أمثلة مستمدة من بداية الغزو الأسباني فى القرن السادس عشر ، ومن الأدب الأفريقى المكتوب باللغات الأوربية فى القرن العشرين .

١

لقد أظهر الأوربيون الذين كشفوا النقاب عن وجود الهنود الحمر فى العالم الجديد رغبة لا شعورية فى اخضاعهم لثقافتهم الغربية . ويصف « تدروف » بحق مسلكهم هذا ازاء الشعوب الوطنية بأنه « ادماج ساذج » . ذلك أن المستعمرين أرادوا أن يجعلوا من الهنود الحمر صورة منهم ، وأن يحملوهم على التشبه بهم فى كل شئ . وتجلت مشاعرهم ، بطبيعة الحال ،

المترجم : أمين محمود الشريف

فى ميلهم الى حمل الهنود على مسايرة عاداتهم وتقاليدهم . ومنذ اللحظة الأولى اقترنت الرغبة فى التطوير الروحى بالغزو المادى .

وترتبط الأمتلة الأولى للتبادل الثقافى - فى كلا الاتجاهين - بغزو « كورتيز » للمكسيك . ذلك أنه استعان فى أثناء زحفه على هذه البلاد بخدمة مترجمين أولهما امرأة هندية اسمها مالنش ، كانت تتكلم اللغة الأزتكىة (نسبة للأزتك وهم أهل البلاد) والمايانية كما كانت تتكلم الأسبانية بطلاقة ، والثانى رجل أسبانى اسمه جيرونيمو دى أجويلار ، الذى نجا من سفينة غرقت تجاه سواحل المكسيك فى ١٥١١ ، وانتحل الثقافة واللغة المايانية (لغة شائعة الاستعمال فى المكسيك وأمريكا الوسطى) . وكانت مالنش هى المثال الأول للمرأة الهندية التى جمعت بين الثقافتين الهندية والأسبانية . ولكن جيرونيمو دى أجويلار لم يلبث أن عاد الى أصله الأسبانى بمجرد أن أتاحت له الفرصة .

ومن الأمتة الأخرى التى تختلف عن ذلك تماما حالة الأسبانى جنزالو جريرو ، الذى نجا من السفينة الغارقة مع أجويلار ، ولكنه انغمس فى الثقافة المايانية من هامة رأسه الى أخمص قدمه الى حد أنه كره العودة الى أبناء وطنه . وبذلك كان أول مثل لما أسميناه « بالتبادل الثقافى العكسى » أى أول أوربى يتأثر بالثقافة البدائية . ويحكى لنا ديجو دى لاندا قصة هذا الرجل فيقول :

« منذ أن تعلم جريرو اللغة المحلية توجه الى بلدة شيكتمال ، حيث استقبله أحد رؤساء الهنود المدعو ناشنكان فأسند اليه الاشراف على شؤون الحرب . وكان جريرو خبيرا بهذا الأمر حتى لقد أحرز انتصارات عديدة على أعداء سيده . وعلم جريرو الهنود الحمر فنون القتال ، وبناء الحصون والقللاع ، وتشبه بالهنود الحمر فى أسلوب حياتهم . فزوجه امرأة هندية ذات مكانة عالية ، وأنجب منها بعض الأطفال . ولهذا السبب لم يحاول الهرب ، كما فعل زميله أجويلار ، بل على العكس طلا جسمه كما يفعل الهنود ، وأسدل شعره ، وثقب أذنيه ، وعلق فيهما قرطين ، كما يفعل الهنود الحمر . وربما عبد الأصنام كما يفعلون !

واندمج جريرو فى الثقافة الهندية ايماء اندماج حتى لقد رفض العودة الى بنى وطنه . ويحكى لنا برنال دياز جواب جريرو عندما طلب اليه العودة الى دين آبائه ، قال :

« لقد جعلونى رئيسا . بل قائدا فى وقت الحرب . اليك عنى ! اننى وشممت وجهى ، وثقبت أذنى ! ماذا يقول الأسبان عنى اذا راونى على هذا الحال ؟ انظر الى أطفالى ، ما أجملهم ! » .

وفى نظرى أن مثال « جريرو » بالغ الدلالة . وسأحاول أن أقتبس منه العناصر الجوهرية التى تساعد على تكوين اطار لتحليل أمثلة أخرى من النساء أو الرجال الذين عبروا الحط الفاصل بين ثقافتهم الأصلية وثقافتهم الجديدة .

١ - أول هذه العناصر هو الصدفة المحضة : سفينة غرقت وألقت بركابها على الساحل . ومن هنا كان عبور هؤلاء الركاب الحط الفاصل بين الثقافتين هو وليد الصدفة المحضة ، لا وليد قرار اتخذ فى حرية تامة .

٢ - ثانى هذه العناصر توافر شرطين للاندماج فى الثقافة الجديدة أو المجتمع الجديد : **أولهما** توافر الرغبة لدى الأجنبى الوافد فى انتحال الثقافة الجديدة ، وفى مقدمتها اللغة . **والثانى** استعداد المجتمع الذى يستقبل هذا الوافد الجديد لتقديم شيء ذو قيمة وذو أهمية يفره بالبقاء فى المجتمع الجديد ، وذلك فى نظير المعرفة التى سوف يقدمها هذا الأجنبى ، وفى نظير الخدمة التى سيقدمها للمجتمع الجديد . وفى حالة بطلنا هذا نجد أن اسمه بالغ الدلالة ، لأن كلمة جريرو ، معناها المحارب ، أى أنه سيقدم للمجتمع الجديد معرفة فنون الحرب وسيمارس فن القتال وحمل السلاح .

٣ - ومتى توافر هذان الشرطان (تعلم اللغة والفائدة الاجتماعية) فإن الأجنبى يستطيع حينئذ أن ينغمس بالتدريج فى الثقافة التى تمنحه حق اللجوء إليها ، حيث يعيش كأحد الهنود . وظاهر أن الأمر يصل فى النهاية الى نقطة « الالعودة » التى تتجلى فى عبارة « اليك عنى ! » حيث يصبح من العار أن يعود هذا الأجنبى الى قومه . تأمل قوله « ماذا يقول الأسباب عنى اذا رأونى على هذه الحال ؟ » . وقد تكون الأسباب الداعية الى ذلك اجتماعية الطابع (تبوؤ مكانة اجتماعية عالية فى المجتمع الجديد) سواء أكان هذا الطابع خاصا أم عاطفيا : (حب المرأة وزوجه وحب الأطفال الذين هم ثمرة هذا الزواج) .

٤ - واستكمالا لدائرة « التبادل الثقافى العكسى » يبدو من المهم أن نفكر فيما عسى أن يحدث لو أتاحت الفرصة للاجئ يوما ما للدودة الى مجتمعه الأصل ، وهذه لحظة مشحونة بالانفعالات الدرامية القوية . ترى متى تحين هذه اللحظة ؟ وأى قرار يتخذه الأوروبى العائد ؟ وكيف يبرر هو هذا القرار ؟ وكيف يتم قبول هذا القرار من جانب الذين يخلعهم وراءه . والذين يعود اليهم ؟ وما هى نتائج هذا القرار ؟

هل ينبغى أن ننظر الى محاربة جريرو لبنى قومه الإسباني . م

مقتله فى النهاية وهم يحاربهم . على أنها حادثة عارضة فى تاريخ الغزو الأسباني . أم ينبغى أن نعتبر هذه النهاية دليلا على صحة ما ذهبنا اليه من اندماج جريرو فى مجتمعه الجديد ؟ وإذا أخذنا بهذا الاعتبار الأخير فهل ينبغى أن نعتبر هذه النهاية بمثابة ادانة مطلقة لجريرو من جانب مجتمعه الأصيل ، ونذيرا بالمصير الذى ينتظر كل من تسول له نفسه أن يلجأ الى مجتمع غير مجتمعه فى القرون القادمة ؟ وعلى كل حال فان هذه الحادثة لا تخلو من العبر والدروس لكلا الجانبين : فقيما يتعلق بالهنود الحمر فان الدرس المستفاد من هذا الحادث هو اعتقادهم أن الأسباب بشر . وليسوا آلهة ، أعنى أنهم أناس قد يتفوقون عليهم فى بعض المجالات كفن الحرب ، أمنا فيما عدا ذلك فلا يختلفون عنهم ، فلمهم من المشاعر مثل ما لهم ، ولهم من الأحاسيس مثل ما لهم . وفيما يتعلق بالأسبان فان الدرس المستفاد من هذا الحادث هو أشد مرارة بلا شك اذا علمنا أن هذا الدرس يدعو الى نبذ ايديولوجية الاستعمار (عقيدة الاستعمار) . ذلك أن ثقافة المجتمع الآخر (البدائي) تبدو فجأة معادلة فى الأساس لثقافتنا نحن . صحيح أن الهنود كانوا أقل قوة من الأسبان من حيث فن الحرب ، ولكن الفرق لم يكن كبيرا ، إذ استطاع الهنود أن يتعلموا هذا الفن بسرعة . وأخيرا فان أوضاع المجتمع الهندى كانت - فيما يبدو - مماثلة لأوضاع المجتمع الأسباني من كل الوجوه : فقد عرض جريرو خدماته على أحد رؤساء الهنود ، وتزوج امرأة ذات منزلة عالية ، ووصل الى درجة رئيس ، بل ترقى الى درجة قائد فى زمن الحرب ، وأنجب أطفالا من زوجته الهندية يمتازون بالجمال .

ويؤكد تدروف ، الذى نقلت عنه هذا المثال ، الطابع الاستثنائي لحالة جريرو حيث يقول :

« على الرغم من وجود أمثلة كثيرة لاندماج بعض الأشخاص فى مجتمعات أخرى (مثل مالنشى) فان مثال جريرو ليس له أهمية تاريخية أو سياسية كبيرة . ذلك أن غيره لم يسر على مثاله . أو ينسج على منواله . ويتضح لنا اليوم أن مثل هذا الحادث ما كان يمكن أن يحدث لأنه لا يتفق بأى حال مع العلاقات الدولية السائدة » .

به أنى أرى أن مثال جريرو ، له أهمية تاريخية وسياسية كبيرة لم تتضح فى الواقع الا فيما بعد . ولذلك أرى أعمالا أخرى فى هذه المرحلة الأولى من الاستعمار الأوروبى يمكن القول بأنها تماثل هذا المثال المتطرف للتبادل الثقافى العكسى . وأنا أشير فى هذا الصدد الى ما أسماه تدروف « بالاندماجات الجزئية المحدودة » وأعنى بذلك المبشرين المسيحيين

الذين اندمجوا فى غمار المجتمع الهندى ، وتشبهوا بالهنود فى أسلوب حياتهم تشجيعا لهم على اعتناق المسيحية . وأخص بالذكر مبشرى طائفه الفرنسيسكان الذين (كما قال تدروف) انتحلوا بسهولة أسلوب الحياة الهندية ، دون أن يتخلوا عن عقائدهم الدينية . وأهدافهم التبشيرية . والواقع أن أحد هذين الأمرين ساعد على تحقيق الآخر ، وأن هذه الحركة الأولى أدت الى اندماج الهنود بشكل أعمق ، بمعنى أن انتحال المبشرين لأسلوب الحياة الهندية شجع الهنود الحمر على استيعاب مبادئ الديانة المسيحية بصورة أعمق . ولكنى أخشى أن نكون هنا ضحية فكرة خاطئة مؤداها أن الغاية الجوهرية هى تنصير الهنود الحمر فى حين أن الثقافة المادية ليست سوى غاية ثانوية . وحينئذ يبدو أن الانتحال المؤقت ، لثقافة خارجية (بدائية) هو مجرد تكتيك وتنازل بسيط من أجل تنصير « الهنود » بصفة عميقة ونهائية .

ولأول مرة يبدو لنا بشكل أوضح موقف ديميجو دى لاندرا ، وهو راحب فرنسيسكانى أيضا ، فقد أمر باحراق الكتب المايانية ، ثم عاد فألف كتبا جديدة عن الثقافة المايانية . ولكن هذا التناقض الظاهرى لا يلبث أن يزول كما قال تدروف عندما نلاحظ أن لاندرا يرفض فى الظاهر أدنى اندماج فى غمار الهنود الحمر ويأمر - خلافا لذلك - بإدماجهم فى الديانة المسيحية ، ولكنه فى الوقت نفسه يهتم بمعرفة كل شئ عن هؤلاء الهنود أى يهتم بدراسة ثقافتهم ! والسؤال الذى يطالنا فى هذا المقام هو : هل يمكن الفصل بين السلطة والمعرفة ؟ أى هل يمكن تحقيق السيطرة على قوم دون معرفة ثقافتهم ؟ ألا ترى معنى أن التصميم على معرفة القوم ودراسة ثقافتهم وانتحال أقوالهم يتضمن نوعا من الاندماج (بل التبادل الثقافى) فى هؤلاء القوم ؟ ألا ترى معنى أننا حين نفعل ذلك إنما نبرهن على الرغبة فى الاندماج فى غيرنا اندماجا تاما ، بحيث يصدق علينا قول الشاعر : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ؟!

٢

وهناك أمثلة أخرى تعزز هذه الفكرة فى الأدب المعاصر الذى يعالج تجربة مماثلة لتجربة الغزو الأسبانى ، على الرغم من حدوث هذه التجربة بعد ذلك الغزو بأربعة قرون . وفى قارة أخرى . عندما أنجبت عن هذا الأدب فنانا أسير الى الروايات التى ألقت منذ ١٩٥٠ حتى يومنا هذا ، تلك الروايات التى تتحدث عن المبشرين البيض الذين ظلوا أجيالا طوالا يحاولون تنصير الزنوج ، قبل أن يتبين لهم فى نهاية الامر أن جهودهم ذهبت

آدراج الرياح ، وأن كلماتهم وتعاليمهم اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ! ولم يستطيع هؤلاء المبشرون أن يغيروا أحدا عن دينه ، وكل الذى تغير هو المبشرون البيض أنفسهم ، الذين أصبحوا أشخاصا آخرين ترى : هل هذا اعتراف بالفشل الذريع ، أم هو التبادل الثقافى المعكوس ؟

أذكر فى هذا الصدد رواية بعنوان « لى بوفر كرسيت دى بومبا » (١٩٥٦) بقلم «ونجوتى» ، ورواية أخرى بعنوان « آن سورسييه أزنجالى » (١٩٧٠) بقلم زينيه فيلومب : كلتا الروايتين تصف الكفاح الشرس والمقيم الذى شنه المبشرون البيض ضد الأخلاق الوتنية والعادات الوحشية ، أو الأخلاق والعادات التى راوها كذلك ، ولكنها أثبتت فى النهاية أنها أقوى من مبادئ الدين المسيحى . وعلى أصحاب النخبة الآباء المسيحيين أن يعترفوا بأنهم لم يصيبوا سوى قدر ضئيل من النجاح لقاء الجهود الكبيرة التى بذلوها ، مع العلم بأنهم لم يصيبوا هذا القدر الضئيل من النجاح الا بفضل القوة العسكرية والبوليسية التابعة للسلطة الاستعمارية . وفى ومسح المرء أن يؤمن - بدون الاغراق فى التحليل النفسى العميق - أن كفاح هؤلاء المبشرين فى هاتين الروايتين الذى يؤلف سلسلة متصلة من الاضطهاد والمقاومة والصناء والرفض على مدى سنوات عديدة ، هو أيضا نوع من التبادل الثقافى العكسى حيث انه استحوذ على عقول هؤلاء المبشرين الى حد الهوس ، بحيث انتابهم الهواجس ، واستبد بهم القلق ، كما هو واضح صراحة فى الروايات ، وحسبك أن تنظر الى الحرب الشيعاء التى شنها الأب درومونت ضد « الأمهات المسافحات » فى رواية « لى بوفر كرسيت » ، أو تدميره للآلات الموسيقية الافريقية . والفرق الأساسى الذى يميز مبشرى القرن العشرين عن المبشرين الأسبان فى القرن السادس عشر يكمن فى أن نواياهم المستترة أصبحت أكثر وضوحا فى عصرنا ، اذ أبرز الكتاب غير الأوربيين فى القرن العشرين تلك العناصر التى ظلت زمنا طويلا محجوبة وراء وراء ستار الايديولوجية الاستعمارية الرسمية . وعلى الرغم من أن القصص القديمة يجب أن تقرأ من بين السطور وأن تفهم غالبا بطريقة مضادة لنوايا كتابها الظاهرية . فان الكتاب الافارقة المعاصرين مصممون على فضح الاكاذيب التى تنطوى عليها التصريحات والاقوال الأوروبية الرسمية . وعلى كتابة التاريخ على الوجه الصحيح .

وعلى الرغم من أن مقاومة الشعوب غير الأوروبية للاندماج فى الحياة والثقافة الأوروبية تزداد قوة باستمرار فان عددا كبيرا ومتزايدا من الفنانين والأدباء والمثقفين الغربيين قد استهونهم الثقافات الأجنبية . ويمكن تحليل الأدب الافريقى المكتوب بالفرنسية فى القرن العشرين فى ضوء فكرة

التبادل الثقافي ، في كلا الاتجاهين . وسأكتفى هنا بإيراد نبذة موجزة من هذا الأدب فأقول :

في وسعنا أن نجد أدبا يتولى العناية لاستعمار افريقيا (تهدئها عسكريا وتنميتها اقتصاديا) . وهذه العناية تركز اهتمامها على الافريقي المثالي المندمج في الثقافة الفرنسية قلبا وقالبا « ١٠٠٪ » . وعندما يتحقق هذا الاندماج (أو التبادل الثقافي) يصبح هذا الافريقي داعيا متعصبا للثقافة الفرنسية . وسأختار مثلا واحدا من بين العديد من الأمثلة ، وهو ما ورد في رواية « مامادوكيت - السنغالي الحديث » (١٩٣٣) بقلم قائد سابق في الجيش الاستعماري هو « نويل مستراتشي » . وهذه هي قصة السنغالي الحديث التي يلخصها المؤلف نفسه في مقدمة كتابه ، قال :

« نشأ مامادو نشأة اسلامية طبقا لتعاليم القرآن . ثم التحق بإحدى المدارس الفرنسية ، برغم معارضة أبويه . وعندما عاد الى أسرته لم يستطع هذا الشاب الزنجي أن ينسجم مع عادات آبائه ، فانخرط في سلك الجيش الفرنسي . وهنا شاهد الإنجليب الفرنسية وتعلمها وحللها وانتهى به الأمر الى الاعتقاد بأن علماء الاسلام غير منصفين في تقديمهم للفرنسيين . ورسخ في نفسه هذا الاعتقاد ، فقرر في النهاية صرف النظر عن تعاليم هؤلاء العلماء . ولما استدعى مامادو لمواصلة الخدمة العسكرية في فرنسا انبهر بما رآه فيها ، وانحاز بكلية الى الثقافة الفرنسية . ولما عاد الى بلاده بعد احالته للتقاعد انتهاز كل فرصة للدفاع عن فرنسا بين مواطنيه » .

هنا نجد ثلاث خطوات للتبادل الثقافي كما يراه المستعمرون :

١ - انسلاخ المواطن من ثقافته القومية ، وحمله على الزراية بها والخط من قدرها ثم رفضها بالكلية .

٢ - صبغه بالثقافة الأجنبية .

٣ - تعصبه للثقافة الجديدة . وترويجها والدعاية القوية لها . ولكن يجب أن لا يغرب عن البال أننا نتحدث هنا عن السنغالي الحديث أي السنغالي المثالي في نظر المستعمرين .

وقد تمسك الجيل الأول من الكتاب الافارقة الذين ألفوا باللغة الفرنسية بهذا المثل الأعلى مع ابداء شيء من التحفظ على النموذج الثقافي الذي فرضه الاستعمار عليهم . ويمكن القول ان كتاب « فورس بوتي » بقلم بكاري دياو (١٩٢٦) يقدح الثناء على فرنسا ، ويصفها بأنها دولة

محبه للخير . ولكن اذا قرأنا هذا الكتاب بامعان تبين لنا أن الحوادث التي يصفها لا يمكن أن تتفق مع هذا القول .

أما الجيل الثاني من الكتاب الأفارقة في هذا القرن ، والذي اتفق ظهوره تقريبا مع ظهور « حركة الزنوجة » (الحركة التي تولت الدفاع عن قضية الزوج) فقد حاول قبل كل شيء الاعلاء من قدر الثقافة الأفريقية ووصفها بأنها معادلة للحضارة الغربية ، بل ان الروايات المناهضة للاستعمار والصادرة في العقد السادس تذهب أبعد من ذلك . ويمكن تصنيفها جميعا تحت عنوان « فشل التبادل الثقافي » . ولو أنك أمعنت النظر في الروايات الثلاث التي ألفها الكاتب السنغالي عبد الله سانجي ، لتبين لك أن أبطال الروايات الثلاثة هجروا أوطانهم ، وتتركوا لجذورهم الأفريقية ، وكانت عاقبة أمرهم خسرا . وتفصيل ذلك أن نينى تلك المرأة الحلاسية (من أب أبيض وأم سوداء) حاولت أن تقلد البيض في أسلوب حياتهم ، ففقدت شرفها ، ثم لقيت حتفها نتيجة ذلك . وأما مودو فطيم ، فقد هرب من قريته الى المدينة الكبيرة ، وقتل زوجته لأنها شوهت وجهه في نوبة من نوبات الغيرة الجنونية . وأما الفتاة ميحونة ، فقد انبهرت بمفاتيح مدينة دكا وأساليلها الأوروبية . وفقدت شرفها أيضا ، وتشوه وجهها قبل أن تعود الى قريتها لتمارس الحياة الأفريقية البسيطة بالقرب من أمها . هذا هو مصير الأبطال الثلاثة في الروايات المذكورة . أما الغلام في رواية « حياة غلام » (١٩٥٦) بقلم فرديناند أوبونو فقد عمل عند البيض قبل أن يقع ضحية لهم . أما ميكا العجوز في رواية « الزنجى العجوز والميدالية » (١٩٥٦) بقلم المؤلف نفسه فلم يتم شفاؤه مما أصابه الا بعد أن تخلى عن البيض . وعاد الى التمسك بقيم آبائه .

ولو أنك أمعنت النظر في الفكرة الرئيسية لهذه الروايات لألفيت أنها تبرز بوضوح عكس القيم السائدة في الروايات التي استمدت وحجها من العصر الاستعماري . وجددير بالذكر أن التمسك بالقيم الغربية يفضي في معظم الحالات الى الهزيمة والمثنية ، وأن العودة الى أفريقيك تبشر بالشفاء والنجاة .

والرواية التي تذهب الى أبعد الحدود في هذه العودة (في مجال التبادل الثقافي العكسي) هي المسماة « رعاية ملك » (١٩٥٤) بقلم كمارا لاي ، وهي تصف تحول رجل أبيض الى العالم الزنجي . وتشبه هذه الرواية من بعض الوجوه ما سبق أن ذكرناه من الأمثلة الأولى للتبادل الثقافي العكسي في عهد الغزو الأسباني :

١ - ففي البداية تحدث كارثة خلاصتها أن البطل الأبيض في الرواية واسمه كلارنس ، يفقد كل أمواله في لعب القمار ولا يجرؤ بعد ذلك على الظهور بين غيره من البيض لأنه أصبح منبوذا بسبب ديونه .

٢ - ولكن هذا الرجل الأبيض يتوق الى تقديم خدماته للآخرين ويود أن يصبح خادما للملك ، ولكنهم يشترطون عليه قبل أن تقبل خدماته أن يقضى فترة طويلة لاعداده لتقبل مبادئ الثقافة الجديدة والاندماج فيها . وفي أثناء هذه الفترة يستخدمه المجتمع الزنجي في تحقيق أغراضه من حيث لا يدرى .

٣ - تم يتم الاندماج الكلى فى هذه الثقافة والحياة الجديدة بالاتصال السرى مع الملك الشاب . وهذا الاتصال هو الهدف النهائي لرحلة كلارنس الطويلة .

وفي هذه الرواية التى تدور حول مصير شخص واحد تذكرنا إجراءات الانتقال من ثقافة الى أخرى بالعلاقات المعقدة بين أوروبا وإفريقيا . وتفصيل ذلك أن كلارنس لا يدرى كيف يسدد ديونه الى صاحب الفندق - وهو رجل من البيض - فيهم على وجهه فى الشوارع دون أن يعرف أين يذهب ، ثم يذكر فجأة اتصاله الأول بقارة إفريقيا :

« لماذا أردت أن أعبر بأى ثمن ذلك الحاجز الكبير من الزيد الهائج الذى يفصل الساحل الإفريقى ؟ أما كان فى وسعى أن أبقى حيث أنا ؟ ولكن أبقى أين ؟ على ظهر السفينة ؟ ان السفن ليست سوى ملاجئ مؤقتة ! ثم قال فى نفسه : كان فى وسعى أن أقفز فى البحر . ولكن ليس هذا بالضبط هو ما فعله ؟ لقد قفز فى البحر عندما وافق على لعب الورق على الرغم من أنه يمتقت القمار !

بيد أن كلارنس لم يقفز فى البحر بالفعل بل سار فى الطريق الطويل ، طريق الاندماج فى الحياة الإفريقية . وعلى امتداد هذا الطريق واجه باستمرار صعوبة فهم الحياة الجديدة (ص ٢٠ ، ص ٣٧) ، وكابد العناء (ص ٣٦) والخوف (ص ٣٩) وأعيد الى مكانه (ص ٨٧) وعوقب (ص ١٢٠) واضطر أن ينسى كل ما تعلمه فى ماضيه « الأبيض » (ص ٢٠) وأن يتعلم قيما جديدة مثل كرم الضيافة (ص ٥٧) وفكرة جديدة عن العدالة (ص ٨١ ، ص ١٦٨ ، ص ١٩١) ، وأصبح كالطفل يقوده أبواه فى شوارع ضواحي المدينة فى مساء يوم الأحد بعد عودته الى المنزل من جولة فى المدينة (ص ٩١) . وفى النهاية أصبح كلارنس رجلا آخر (ص ١٤٣) ولو أن أحدا كان يعرفه من قبل (فى حياته

الماضية) رآه وهو يدخن تحت الجسر ، ويشرب ، ويجلس القرفصاء كالزنوج ويلبس « البومبو » كالسود ، لما عرفه (ص ١٤٤) . ما هي حقيقة هذا التحول ؟ ان أهل أزيانة ... كانوا لا يبالون بالحياة كثيرا . وكذلك كان كلارنس لا يبالى بالحياة (ص ١٥١) . وفي الوقت نفسه كان كلارنس يفهم كيف كان القوم يستعملونه طول الوقت دون أن يشعر . فتحت تأثير الروائح العطرية ، وفي ظلام الليل ، لم يكن يدرك أنهم كانوا يستعملونه « فحلا » (او تيسا مستعارا) لتلقيح كل الجوارى والسراري في جناح الجريم المحق بالقصر الملكي في مدينة نابا . وانتهى به الانسماج التام في الحياة الزنجية الى الاتصال بالملك الشاب ، وهو اتصال يمكن أن يوصف بأنه « سرى » . وعندما ينتهى الاقتراب شيئا فشيئا على هذا النحو بالوصول الى الغاية المرجوة (سواء بدافع حب الاستطلاع أو بدافع الحب) فان التفاهم حينئذ يصبح مرادفا للمعايشة كحياة كلارنس تحت عباءة الملك .

هذا ولتطور تاريخ الأدب الزنجى الافريقى فى هذا القرن نظيره فى الأدب الأوروبى ، ذلك التطور الذى تتبعنا مراحل من الانسماج فى الحضارة الأوربية الى اعادة تقدير الحضارة الافريقية الذى أدى الى استبكار هيمنة الثقافة الغربية . ذلك أن الايمان بتفوق الثقافة الغربية قد اهتز شيئا فشيئا . ويرجع هذا الاهتزاز فى هذا القرن أول ما يرجع الى ظهور الحركة البدائية القائلة بتفوق الحياة البدائية . ويقول جان كلود بلاشير فى تفسير هذه الحركة :

« انها تمنى الايمان بوجود أشكال أولية للثقافة ، وما يصاحب ذلك من الايمان بأن هذه الأشكال المتينة يمكن أن تكون نموذجا يحتذى أو - على الأقل - تهى حلولاً للمشكلات التى تواجه المجتمعات الحديثة . ان الحركة البدائية القائلة بتفوق الحياة النظرية الأولية تدعو الى الايمان بماضى الانسان ، وتمثل تحديا فى وجه التقدم » اهـ .

وقد قام جان كلود بلاشير بدراسة خاصة لما أسماه « الزنجى النموذجى » . وانتهت به دراسته الى « الايمان » بغضائل الحضارات الزنجية ، وقدرتها على تقديم حلول للأزمة الروحية فى أوروبا . وتدور دراسات بلاشير حول كبار أنصار الحركة البدائية الزنجية فى الأدب الفرنسى ، وهم جيوم أبولينير . ويليز سندرار ، وترستان تزارا . ولكن كان المسأل الحاسم هو مسأل بول جوجوان فى المرحلة الأولى من هذه الحركة البدائية فى أواخر القرون التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . اذ نشرت فقرات مقتبسة من يومياته فى جزيرة تاهيتى فى سنة ١٨٩٧

فى « المجلة البيضاء » الشهيرة . وكما يقول بلاشير « ان استمرار وجود رسالة بول جوجوان يمثل بلا شك الحلقة المفقودة بين الحركة البدائية فى القرن الثامن عشر والحركة البدائية فى الثلاثين سنة الأولى فى هذا القرن » .

والى جانب الفنانين والكتاب افتنن الاثنولوجيون (علماء الاجناس البشرية) والانثروبولوجيون (علماء الانسان) بسحر ما يسمى بالثقافات البدائية ، ، وكثيرا ما « عبر هؤلاء الخط » (الخط الفاصل بين ثقافتهم والثقافة الاخرى) . وسأكتفى بذكر أسماء فكتور سيسجالين ، وبيير كلانسر ، وكارلوس كاستنيدا ، وميشيل ليرى ، ومارسيل جريول وكولز ترينال . وقد حاول كل هؤلاء تحليل تجاربهم ، وقدعوا لنا صورة عكسية للعلاقات الاجتماعية العادية بين الشعوب المتحضرة والبدائية ، قالوا فيها :

« ان الرجال البيض من الأجانب والرواد لم يعودوا هم الشخصيات القوية التى تكتب التاريخ كما تشاء . انهم هم أطفال ، وطلبة ، وفقراء ، ومرضى مجتمع سسخى قادو مضيف يرحب بهم ويعلمهم ، ويتعهدهم بالرعاية والعناية حتى يبرأوا من أمراض الحضارات العليا . والحق ان « المتوحشين » هم الشعب المتحضر الحقيقي » اهـ .

وقد ألف الأديب الكوبى اليجو كاربنتر رواية بعنوان « لوس باسوس برديدوس » أوضح فيها بأسلوب أدبى جميل « عبور هذا الخط » . وتصور قصة هذه الرواية حول موسيقار من أمريكا الشمالية أوفدته جأهته الى الغسابة العذراء فى فنزويلا للبحث عن « الآلات الموسيقية البدائية » . وكانت رحلته هذه رحلة كشف بالمعنى المزدوج لهذه الكلمة . ذلك أن البطل ابتعد عن حياته السابقة ، وأخذ يتأمل لا فى القيود التى تثقل كاهل الفرد فقط بل أيضا فى القيود التى تحد من آفاق الحضارة والثقافة ، ثم ان رحلته كانت رحلة فى الزمن اذ أخذ يعود بذهنه الى أيام طفولته وشبابه ، كما أخذ يعود الى ينباع الانسانية فى العصور السحيقة .

وأخذ يقترب فى ارتياده من الطبيعة شيئا فشيئا ومن حالة الوجود الأولى ، فكان مثله كمثل الفلاح الذى عاد الى مزرعة أبيه بعد أن عاش عدة سنوات فى المدينة وأخذ يجهش بالبكاء عندما استنشق النسيم المفعم برائحة الروث . وكان يرافقه فى هذه الرحلة فى تلك الأرض المجهولة روجنه روزاربو وأدلنتادو ، الشخص الوحيد الذى يعرف كيف ينقل بين العالمين : العالم الذى جاء منه والعالم الذى يتجول فيه .

وكان المدرس الذى تعلمه شبيها بالمدرس الذى تعلمه غيره من العديد من الرواد والمبشرين والباحثين . ويلخص هو هذا الدرس فى هذه الكلمات :

« يبدو لى أن الهنود ٠٠٠ فى بيئتهم هم السادة الكمل لثقافتهم . وهم أبعد ما يكون عن هذا الوصف السخيف الذى يوصفون به وهو وصمهم بالوحشية . أما نحن المتحضرين فاننا نحن الدخلاء . والأجانب الجهلاء ، والغرباء الجدد ، الذين قدموا الى مدينة ولدت فى فجر التاريخ (ص ٢٤) » اهـ .

والواقع أن الموسيقار المتجول رغب فى استيطان هذه المدينة « سائنا مونيكا دى لوس فينا دوس » التى أسسها أدولنتادو ، دون أى تفكير فى العودة ، لكى يتسنى له أن يتعلم من جديد كيف يعيش طبقا لنظام آخر من القيم .

ومع ذلك فانه ما كاد يخرج منتصرا من كل المحن التى اضطر ان يواجهها ليتسنى له الوصول الى هذا العالم الجديد (محنة المخاوف الليلية ، ومحنة الزواجر والأعاصير الاستوائية) حتى عاوده الحنين الى العودة . ولم يستطيع التغلب على ما تعود من حب العمل ، فعاد مرة أخرى يتذكر حلما من أيام شبابه ، وهو اعداد لحن موسيقى لقصيدة الشاعر الانجليزى شيللى ، وعنوانها « برومستيروس بعد أن تحرر من قيوده » . وهى القصيدة التى بدا له أنها تصور مستقبل حياته ، وتطابق المفهوم الجديد للموسيقى النابعة من هذه الحياة . ولكن ياله من تناقض ! فما كادت ملكات الابداع تتحرر فى النهاية حتى لم يجد ورقا يدون عليه اللحن الموسيقى ! وهكذا تجده الطائفة التى هبطت لانقاذه ، مستعدة للعودة الى العالم الذى ظن أنه طرحه وراء ظهره !

وهو يدرك السبب فى فشله . ذلك أن العوالم الجديدة يجب ان تجرب ، قبل أن تفسر . انه يعلم أن الانسان يستطيع أن يهرب من زمانه ، ولكنه يعلم أيضا أن الطائفة الوحيدة التى لا تستطيع أن تهرب من زمانها هى طائفة الفنانين المبدعين (ص ٣٧٠) . ليس اذن من الصحيح أنه يستحيل علينا - مادامنا جميعا نشارك فى ابداع الفن . فى هذا العالم - أن نهرب من زماننا لكى نطرح وراء ظهورنا قصتنا وتاريخنا ١٩

وهكذا نصل الى المرحلة الثالثة من موضوعنا . وهي المرحلة التي أحب أن أضع لها عنوانا هو « تأهيل جمعة » . ولاكثر من قرنين ظلت قصة « روبنسن كروزو » التي ألفها الكاتب الانجليزى ديفو هي النموذج الأدبى الذى جسده على أحسن وجه أسطورة تفوق الثقافة الأوروبية ، والذى كان فيه جمعة « المتوحش » هو هدف التبادل الثقافى ، فى دور خادم بالطبع . ولاكثر من عشرين عاما تعرض هذا النموذج لتعديلات عميقة الى حد انعكاس الأدوار ، فأصبح روبنسن كروزو هو الذى يتعلم من جمعة كيف يعيش حياة جديرة بالإنسان . يتضح لنا هذا من الرواية التى ألفها ميشيل تورنييه بعنوان « جمعة » أو « لى لامب دى باسيفيك » ، كما يتضح أيضا فى المقال الذى ألفه الكاتب المذكور ليفسر هذه الرواية ، وفيه يتيح تطور أسطورة روبنسن كروزو التى يرى فيها أحد العناصر الرئيسية فى التكوين الروحى للرجل الغربى . ولكنه يعترف فى الوقت نفسه بأنه مدين للتكنولوجيين والأنثروبولوجيين الذين بدوهم ما كان يخطر بباله أن يتعلم روبنسن كروزو من جمعة . وقد حدد تورنييه موضوع روايته . وأوضح مختلف الصعوبات التى كابدها فى أثناء كتابة التبادل الثقافى والانسلخ الثقافى فى هذه الكلمات ، وهى :

« محور كل آثار الحضارة فى الإنسان الخاضع لتجربة العزلة اللا انسانية الأليمة حتى يصبح كالصحية البيضاء ، ثم خلق عالم جديد على هذه الصحية عن طريق التجربة والخطأ والفحص والاختبار والاكتشاف والإبراهيم والانجذاب والافتتان . ويقوم جمعة بدور المرشد والقابلة فى ولادة هذا الإنسان الجديد . وبهذا أريد أن تكون روايتى ابتدائية تتعلق بالمستقبل ، فى حين أن قصة ديفو تتعلق بالماضى ، وتقتصر على وصف استعادة الحضارة بأى وسيلة ممكنة » اهـ .

وبهذا تصبح إعادة اكتشاف ماضينا المشترك فى ضوء صورة منقحة ومعدلة من روبنسن كروزو وسيلة لتوجيه أسئلة عن مستقبل الإنسانية . ولا شئ يمكن أن يضمن مستقبلنا المشترك سوى فهم أفضل لهذا الماضى من وجهة نظر الموقف الراهن فى العالم الحاضر .

ولكن إعادة تقويم العلاقة بين الغرب وبقية العالم فى الماضى ، لم تقتصر على الأدب ، بل لقد غزت السينما أيضا . ولو أنك قارنت بين النسخ الثلاث من فيلم « التمرد على النعمة » لرأيت أن بذرة الاهتمام فى الفيلم قد تحولت ، ففي نسخة ١٩٦٢ يتركز الاهتمام على مقاومة الطبيعة

غير الانسانية فى ممارسة السلطة . أما الأمل فى حياة حرة خالية من القيود الاجتماعية فانه لا يظهر الا لاما . ولكن فى نسخة ١٩٨٤ تتجه بؤرة الاهتمام الى الأمل فى هذه الحياة الحرة . ذلك أن اللفتانتت كرستيان فلتشر (ميل جيسون) لم يعد يثور ضد كابتن بلاى (أنطونى هوبكنز) لأنه ينازعه فى السلطة ، وانما لأنه وقع فى غرام بنت رئيس تاهيتى . ولذلك يريد أن يبقى فى هذه الجزيرة ليحرب حياة جديدة . وطبقا لقواعد هذا النوع الأدبى تبدو هذه القصة الغرامية جميلة ، لأنها تدفعه الى « عبور الخط » ، وهو أمر لا يقلل بأى حال من جمال عمله . وحتى فى هذه الصورة المخففة للتبادل الثقافى العكسى التى يقدمها لنا الفيلم يبدو واضحا أن آفاق معرفتنا بالعالم قد اتسعت . وأن ايماننا الراسخ بتفوق حضارتنا قد اهتز كثيرا نتيجة لذلك : فاللاجئ الثقافى لم يعد مرتدا ، بل يبدو نموذجا سلوكيا يمكن تحقيقه .

وهكذا نصل الى نهاية رحلة عبرنا فيها أكثر من ثلاثة قرون ، وراينا فيها أن أوروبا لم تقنع ببسط نفوذها الاستعمارى على بقية القارات ، بل عمدت الى فرض ثقافتها عليها ، وادماجها فى حضارتها ، وتجريدها من صفاتها الخاصة . ولكن هذه العملية دخلت مرحلتها الأخيرة لسببين :

أولهما : أن الشعوب غير الأوروبية انتحلت أسلوب الحياة الغربية بخيرها وشرها . محاولة التكيف مع هذه الحياة ومسايرتها .

وثانيهما : أن الأوربيين المعاصرين ساورتهم الشكوك فى تفوق حضارتهم وثقافتهم . وفى هذا الصراع المريب أصبح انتصار أوروبا على بقية العالم أمرا مشكوكا فيه .

وواضح أن الاختيار بين التبادل الثقافى . والتبادل الثقافى العكسى فى غاية الصعوبة . ويتضح ذلك من قصة قصيرة بقلم الأديب الأرجنتى جورج لويس بورجيس ألفها فى سنة ١٩٤٩ .

تبدأ هذه القصة بالجمع بين مصير شخصين يفصلهما من حيث الزمن أكثر من ألف سنة : أولهما محارب اسمه دركتلفت من عهد الغزوات البربرية فى إيطاليا خلال القرنين السادس والسابع الميلادى . وثانيهما امرأة هندية شقراء (من أصل انجليزى) أسرها الهنود الحمر فى سهول الأرجنتين . وقد اقتبس بورجيس الشخصية الأولى من أشعار بنديتو جروتشى ، واقتبس الثانية من ذكريات جدته الانجليزية التى قصت عليه هذه الحكاية . وكان دركتلفت قد جاء مع غيره من المحاربين ليهدم مدينة

رافينا ، ولكنه فى النهاية تخلى عن رجاله ، ليموت حاملا سلاحه دفاعا
عن هذه المدينة ، وأمر بأن تكتب على قبره هذه العبارة :

« لقد فارق أسرته المحبوبة ، وهام بنا حبا ، معتبرا أن رافينا هى
وطنه الثانى » .

ذلك أن در كتلفت أنبهر بمنظر المدينة ، وكان يعرف أنه سوف
يعيش داخل جدرانها كما يعيش الكلب أو الطفل ، وأنه لن يستطيع أن
يفهمها ، ولكنه كان يعرف أيضا أنها أسمى قدرا من آلهته هو !

وقصة هذا الرجل البربرى الذى بهرته الحضارة الرومانية تنفق
تماما مع رؤيتنا التاريخية والشعرية لهذا العالم الذى نعيش فيه .

ومن ناحية أخرى فإن مصير المرأة الشقراء لا يتفق مع عاداتنا
وتقاليدنا . ذلك أن هذه المرأة اختطفها الهنود الحمر وهى طفلة فى أثناء
احدى الغارات ، وتزوجت أحد الرؤساء من الهنود الحمر وأنجبت منه
طفلين . وتحكى جدة المؤلف هذه القصة التى هيجت شجونها ، وقلبها
يفيض بالشفقة والهلح على مصير هذه الفتاة ، وتقول :

« وإعجبيا ! فتاة انجليزية صغيرة تقع فريسة فى يدى هؤلاء
الوحوش ! ولكن هذه الفتاة لا ترفض فحسب العودة الى بلاد الحضارة ،
بل تقول - وهذه هى قيمة المأساة - انها وجدت السعادة فى موقعها
الجديد ، وانها تفضل العودة الى الصحراء ، لا الى أرض الحضارة » ! .

لا شك أننا بحاجة الى عمقية الشعراء لكى ندرك العلاقة بين هاتين
الحالتين اللتين تبعد احدهما عن الأخرى بعد المشرقين : حالة المحارب
البربرى (غير الرومانى) الذى بهرته الحضارة الرومانية ، وحالة الفتاة
الانجليزية الأسيرة التى وقعت فى أيدى المتوحشين ، ومع ذلك فإن رغبة
كامنة استحوذت على فؤاد هذين الشخصين ، رغبة أعق من أن يدركها
العقل ، رغبة انصاع لها كل منهما ، على الرغم من أنه يصعب عليهما
أن يجدا لها مبررا ! لا شك أن هاتين القصتين هما قصة واحدة .
وانهما - يا الهى - وجهان لعملة واحدة .

فكرة السلام وفكرة الانسانية

كلود لوفور Cloude Lefort

فى القول المعاصر يميل للتاكيد على « القيمة المطلقة » للسلام لأن يحل محل المثل الأعلى للسلام العام الشامل الذى صيغ فيما مضى صياغة كاملة . هذه الصيغة ، ان لم يجانبني الصواب ، تحمل دلالة مطلب جديد : كيف يتأتى الحفاظ على المهمة الفلسفية ، والرغبة فى وضع أساس لفكرة السلام التى لا تتعلق فقط باعتبارات ظرفية — مهما كانت الظروف ملحة قهرية ، لأنها تتوقف على معرفة الخطر الذى تهدد به حرب عالمية جديدة شعوبيا بأكملها — وذلك دون الالتجاء الى « البوطوبيا » ، أى الوقوع فى الأوهام التى غذت مشروعات السلام الدائم ؟ ومع ذلك فثمة صعوبات يبدىها لنا الفكر الحديث ، تتعلق بتعريف السلام على أنه قيمة مطلقة . وعلى ذلك يبدو لى من المستحسن أن أدرس بإيجاز تعريف هذا السلام لافتتح لى طريقا فى هذا الموضوع .

تتنمى فكرة القيمة فى مفهومها الفلسفى الى أسلوب حديث فى التفكير . وعيننا نحاول البحث عن أثر لهذه الفكرة فى الفلسفة قبل القرن الماضى . أنها تتضمن الرجوع الى شخص ما ، يستمد من نفسه ، عندما لا يوجد كفيل خارجى — مبدأ التفرقة بين ما هو مرغوب وما ليس بمرغوب ، بين الطيب والردى ، بين الصواب والخطأ ، بين الجميل والقبيح . لا شك أن هناك ما يفرقنا بأن نكتشف فى مذهب كانط ، والتفرقة التى يقيمها بين العقل النظرى والادراك العملى ، المقدمات المنطقية لفكرة القيمة الحديثة . الا أنه يجب أيضا الاقرار بأن القيمة لا تجد هنا مكانها ، لأن « الشخص » عند كانط يجد فى ارادته نفسها علامة لأساس مطلق غير مشروط ، فى حين أن هذا الأساس يتوارى عن المعرفة . وبوجه عام فسادت فكرة معيار لسلوك الانسان قد تآكلت ، بالرجوع الى الطبيعية ، أو العقل ، أو الاله ، فان فكرة القيمة لا يمكن أن تكتسب لها

المترجم : أحمد رضا محمد رضا

معنى . نضيف أن هذه الفكرة هي أيضا غريبة على فلسفات التاريخ ، سواء كانت من النمط الهيجل (نسبة الى هيجل) أو الماركسي . وسواء صور التاريخ على أنه بلوغ الروح غايته من الكمال ، أو على أنه انجاز لدعوة الانسان الاجتماعية في ختام سلسلة من التناقضات التي تنشأ من التقنية المتطورة ، والانتقاسات الطبقية ، ففي كلتا الحالتين تستبعد المعرفة ، باعتبارها معرفة منبثقة من عملية واقعية ، تملك مفتاحها ، تستبعد عسف الفرد « الأنا » . على أنه من الأجدر الاتجاه ناحية « نيتشه » لايضاح الاتجاه الجديد في التفكير بمعارات القيمة ، لأن عمله يتضمن هدما «نهائيا لكل «مقياس » ولنا لم تكن غايته اجراء بحث تاريخي عن فكرة القيمة فاني أكتفي بأن أبدي أن فكرة القيمة انتشرت في القرن التاسع عشر ، ويقدر توسع في فلسفة القرن العشرين ، وفي العلوم الانسانية لكي تدعم من جهة مفهوما جديدا للوجود ، حيثما لا يستطيع مفهوم الوجود الا أن يبحث في حدوده عن المعنى ، وعن اللغز - مفهومها يطلق عليه بعد اسم « الوجودية » ، ومن جهة أخرى نظرية في النسبية التاريخية لرؤى العالم ، أطلق عليها فيما بعد اسم « المذهب التاريخي historicisme » وثالثا نظرية تعدد الثقافات تعددا لا يتجزأ . ولا شك في أن أحدا لم يستجيب لهذا الإحياء الثلاثي ، الوجودي ، والتاريخي ، والاجتماعي بأفضل مما استجاب به ماكس فيبر ، ولو أن ثراء أبحاثه تدل على أنه استطاع في بعض الأحيان الافلات منها . وقد بالغ فيبر في مذهب النسبية بكل أشكاله ناسبا الى الفرد مرة بعد أخرى تصنف القيم (وبخاصة المؤرخ الذي يبنى موضوعه في المعرفة اعتبارا من واقع لا شكل له « متفرقات بحتة ») ، والى كل عصر يشكل مجالا فريدا للفكر والعمل ، وكل ثقافة تستخلص من أساسها الرموز الناتجة من تجربة ما هو مرئي ، وما هو غير مرئي . وعلى ذلك تحصل دراساته دلالة الاهتمام الشديد بإنكار كل مقياس عام للخير والشر ، للحق والباطل ، وحتى الصحيح والكاذب . ولا تصح هذه التفرقة الا بشرط أن تكون تابعة لموضوع المعرفة الذي قلنا منذ هنيهة انه لا يمكن بناؤه الا تبعا لقيم « الشخص » . وإذا كنت أعتقد انه من الصواب الرجوع الى فيبر فذلك لأن هذا الفكر ، باعتباره انسانا ، ليس من دعاة الحروب ، ويوجد في تنوع القيم - التي يدعيها الناس ، والشعوب ، والثقافات - العلمية في اندلاع حرب أبدية . وفي رأيه أن الانسانية ، والشعوب مقضى عليها بالتمزق ، لأنها حسب حملته المشهورة « مسرح لحرب لا تفتقر بين الآلهة » .

وإذا استوضحنا الأعمال المعاصرة لبعض المؤرخين ، والخبراء في علم الانسان ، تبين لنا أن النزعة المأساوية الكلية لدى فيبر قد فقدت

جاذبيتها ، مع الأسف ، لصالح نزعة نسبية غامضة تستبعد التفكير في كل من مبادئه ونتائجها في الممارسة العملية . وبدأ لى منذ وقت بعيد أنه غدى حارج النواثر العلمية مقالا دارجا ، عاميا ، يعتبر أن كل رأى وكل معتقد وكل حكم جيد بشرط أن يثبت أن الذين يجهرون به يؤمنون بقيمته ايمانا صادقا . مقال يمكن تلخيصه في شعار « لكل انسان قيمة » . كذلك فان احترام فكرة هوية الغير ، وتقدم مركزية الذات ، و « النزعة العرقية المركزية » (وبخاصة النزعة الى رفع شأن القومية الأوروبية) ، يمكن تبريرها بالكامل . وبالتالي وضع مبدأ التسامح . يتبين كذلك أن ثمة نسبية مطلقة تضيف شرعية على كل ضروب الغش والتضليل ، وبالأدق ، على كل نظم القهر التى تتذرع بأخلاقيات تشيد بنقاء عرق من الأعراق أو كمال أمة أو اقامة مجتمع بلا طبقات ، ولذلك تهاجم الأفراد والجماعات التى يحكم بأن طبائعها لا تطابق النموذج الصحيح . ولا شك أنه من الضرورى دائما ، التذكير بأن التسامح يحده عدم التسامح العدوانى حيال الغير . ولا جدوى من انتقاد أشكال النظام الشمولى اذا اقتصر على التصريح بالتفضيل الواقعى لنظام من الحريات . ومعنى النسبية لا يمحو شيئا ، انما يعبر عن ضرورة عالمية . وعلان الأمم المتحدة لحقوق الانسان شاهد قوى لهذا الارتباط الأساسى الذى يصعب بالتاكيد بل يستحيل فكه . بين هذا وذاك .

وعلى ذلك تبدو لى فكرة السلام بمثابة قيمة مطلقة تمس جوهر المسألة الفلسفية فى عصرنا الحاضر . ان كلمة « قيمة » هى بمثابة دلالة على استحالة الرجوع منذ الآن الى ضامن معترف به من الجميع ، وهو الطبيعة والعقل والاله والتاريخ ، انها دلالة على وضع تختلط فيه كل أشكال السمو . الا أنه اذا افترضت « قيمة السلام » على أنها مطلقة فانها تتطلب أساسا لا صلة له بأى تفسير نسبي . ولعل هذه هى المهمة التى يتولاها تفكيرنا ، أى التساؤل فى اتجاه هذا الأساس ، وتفحص العلامات التى تتيح لنا أن نستشفها دون أن نتخلص من وضعنا الحالى ، الوضع الذى يرغمنا بالذات على أن لا نعتد على تأكيدات قديمة اصطلمت بشدة بالتجربة الواقعية .

ومع أنى أدرك تمام الادراك مدى تفاهة التوغلات السريعة فى النظريات التى ظهرت فى ماض بعيد - فلكى يتسنى اثبات أصالتها بحسن ابتعاث الجدل الفكرى الذى انبثقت منه هذه النظريات ، وكذا ، وبالأكثر ، استعراض آفاق العالم الذى ظهرت فيه - فانى أخطر بأن أذكر أول كل شئ - مؤلفا ، أعتقد أنه أول مؤلف شكل بعبارات علمانية وسياسية فكرة

السلام ، لا باعتبارها قيمة مطلقة - فهذه الفكرة لم يكن لها وقتئذ وجود - ولكن على أنها خير للبشر كافة : ذلك هو كتاب "monarchie de Dante" الملكية لدانتي . ففي عصر كانت فيه فلورنسا ، وإيطاليا بوجه عام مسرحا لمعارك متواصلة بين أحزاب عديدة ، تكفل دانتي باثبات ضرورة اقامة سلام دائم عن طريق انشاء نظام ملكي عام ، هذا العمل كثيرا ما نسب الى جدل استطال عدة قرون بشأن تقدير حقوق الأباطور والبابا في تمثيل السلطة الالهية في المجال الزمني (الدنيوي) . أراد دانتي أن يعبئ موارد علم اللاهوت والفلسفة اليونانية ، وبخاصة الأرستطالية لصالح ادعاءات الأباطور . ولا جدوى من أن نتناول بالتحليل هذا الجدل والظروف التي كتب فيها دانتي مؤلفه هذا ، فهذا أمر لا يهمننا ، وما يهمنا هو محاولة ربط فكرة السلام بفكرة الانسانية ، وبالأحرى بفكرة ظهور الانسانية ، وتكشفها لمدارك الانسان ، انسانية تطورت من قبل في غضون تشتتها ، وجعل الانسان هويته تلك الهوية التي يعتبرها كل شعب من خصائصه .

دانتي مفكر ، يختلف نظرية سيطرة عالمية وفي الوقت نفسه يبرز فكرة انسانية واحدة عبر تعدد المنشآت الانسانية ، ويا لها من رابطه عجيبه بين حلم الأباطورية وبين اقامة مذهب انساني ، لا شك أنها عجيبه ، ولو كان عندي وقت كاف ، لأظهرت مدى ما حظي به مؤلف « الملكية » فيما بعد من نجاح ، وتأثيره الساحر في نفوس شارل ننت في أسبانيا ، واليزابيث في إنجلترا ، وهنري الثالث وهنري الرابع وفرنسوا الأول في فرنسا ، وكيف تلاحق بوحى منه التصور الأمبريال وفكرة الرسالة الملكية في خدمة الجنس البشري . ولننظر فيما عو جوهرى : الانسانية تدرك أنها كذلك حين تخضع لسلطة واحدة ، وسوف تفوز بما يصور بنيتها حين تسلم لها بنية مليكها ، مثلما تبدو صورة الانسان في المرأة وهي حجة دانتي ، ان لها بالتأكيد أساسا لاهوتيا ، صورة الانسان هي صورة الله ، فقد خلق الانسان شبيها به ، وليس في ذلك ما يخالف في الظاهر تعاليم الكتب المقدسة ، ولكن ما هو حقيقى بالنسبة للمخلوق الكامل الحقيقى أيضا في رأى دانتي بالنسبة لكل الناس الخائفين في الأرض الواسعة وعلى تعاقب الأجيال . ولنذكر فقرة موجزة ، فبعد أن ذكر ما سبق قوله « لنصنع الانسان على صورتنا ، وشبيها لنا » ، وبعد أن لاحظ أن « الكون كله سمة من الطيبة الالهية » ، يضيف الفيلسوف : « وعلى ذلك فالجنس البشرى سعيد وفي أحسن حال حين يكون شبيها بالله في قدرته ، ولكن حين يكون الجنس البشرى أكثر اتحادا يكون أكثر شبيها بالله ، لأن في الله وحده تكون الطيبة الوحدية

الحقيقية ، ولذلك جاء فى الكتاب : (اسمع يا اسرائيل : ربك واحد) .
وعلى ذلك فالجنس البشرى واحد ، وبخاصة حين ينصهر كله فى بدن
واحد ، الأمر الذى لا يمكن أن يكون الا اذا خضع كله لأمر واحد .

ذكرت أن بنية الملك تضى على الانسانية صورة وحدتها . وتبرز
هذه الصورة على أنها هى نفسها الممثل المرئى للاله ، وكما أبدى ايرنست
كانتوروفتش تتجلى طرافة دانتي بأحسن ما تتجلى فى تعريف للانسان
يجمع معيار الاحاطة والشمول بمعيار الامتداد والاتساع ، فالانسان هو
الفرد البشرى ، وهو النوع البشرى ، ولسنا نظن أن السيادة التى
يتصورها دانتي تتضمن تماثل هذا النوع البشرى ، فهو يقر لكل بنية -
بنية الفرد أو الأسرة أو البلدة أو المدينة أو المملكة - بخاصية تميزها .
ويؤكد دانتي - مؤيد أرسطو - أن لكل بنية غايتها الخاصة بها ، مثلها
مثل الابهام واليد والذراع والانسان بتمامه ، ولكنها كلها مهياة لغاية
نهائية شاملة : الجنس البشرى .

وتقرن فكرة البنية الروحية بفكرة البنية العضوية لتمثيل انسانية
متوافقة مع ذاتها ، كاشفة عن الخير الاسمى ، ألا وهو السلام . ومع ذلك
يبدو لنا التفسير الذى يقدمه دانتي عن تطور الانسانية حتى عصره جديرا
بالاهتمام ، فالواقع أنه لا يعرض الملكية العالمية على أنها حل ينتظر اكتشافه
أناس لعلهم أخطأوا اذ عاشوا من قبل وهم يجهلون بعضهم بعضا
ويتقاتلون ، وإنما يعرض تلك الملكية وهى تنبثق من سلسلة من الممارك .
تحكمها فى الظاهر رغبة الأقوى فى الفوز ، ولكن تقودها سرا العناية الالهية
التي تكشف للناس وضعهم الأخير : الا وهو وحدتهم . أما مؤرخ السلام
فانه يستخلص هذه الوحدة من الحرب ، ففي ختام سلسلة من الحروب التى
انتصر فيها على التوالى الأشوريون والمصريون والفرس والمقدونيون وأخيرا
الرومان ، تكشف فضل الأخيرين فى عهد أغسطس صورة عالم يضم
بالفعل كل الناس ، وصار فى الامكان نزول المسيح على الأرض ليتجسد
الانسان كما هو ، ولنتوقف عند هذه الفكرة السريعة ، حيث تضطرب
معاركنا حين نلمح الدلالات الأولى للمذهب هييجل (نسبة للفيلسوف الألمانى
هييجل - المترجم) وأود هنا أن أرفق تفسيرين بهذا المذهب :

أولا : الاستعارات التى يجريها دانتي من أرسطو (من « السياسة »
و « الأخلاق » ، الى « نيكوماك ») تثبت انقطاع صلته بالفلسفة السياسية
الكلاسيكية ، وهذه السياسة كما نعلم كانت متصلة بتخطيط تاريخ
دورى ، ولم تهتم بتصور الظروف التى تقضى بتجنب الحروب ، وكانت
تجهل وجود الجنس البشرى خارج حدود « المدينة » ، وكان هناك سمات

ثلاث تبدو مرتبطة بعضها ببعض ، ولا شك أن سجية الانسان كانت تعتبر وثيقة الصلة بطبيعة المدينة . غير أن فكرة الطبيعة نفسها كانت تتضمن تحديد بنية سياسية بعيدة عن سائر الأبنية ، وصورة الأجنبي تعد دوما صورة عدو محتمل أو فعل ، والواقع أنه اذا تركنا جانبها دعوى الفلاسفة ، نلاحظ أسلوب الحروب التي شنها الأثينيون ، لا ضد المغيرين من البرابرة ، وإنما ضد مدن اغريقية مسالمة ، ومن ثم لا بد لنا من التسليم بأنهم لم يترددوا في الادعاء بلا حياء بحق الأحرى ، دون أن يخافوا استهجان الشعوب ، وقد ترك لنا ثوسبيديس مثالا رائعا لسلوكهم حين وصف غزو ميلوس ، أما دانتى فإنه بالعكس ينشئ فكرا يضع كل مجتمع سياسى فى آفاق انسانية ناشئة ، وفى الوقت نفسه يجعل من البحث عن السلام هدفا أسمى .

وثانيا : فان العلاقة التى يقيمها بين الملكية الامبريالية وبين السلام - مهما كان تصوره لعالم متنوع ولكنه قادر على أن يعرف ذاته فى الزمان والمكان - هذه العلاقة تكشف عن مدى خطورة الضمان الذى يمكن أن يزوده الانسان لمطامح دولة عظمى ، حين يستهدف عملا تخلص من كل عداوة .

ان من يتأمل الجهود التى بذلها منذ القرن السادس عشر فقهاء عظام لتعريف قانون للشعوب ، يميل الى الحكم بأن نظرية دانتى قد قضى عليها ظهور الدول القومية ، غير أنه ربما لا يكون هذا صحيحا كل الصحة ، ذلك أن تلك الجهود ما زالت تشهد باهتمام انساني واردة لتصور وانشاء روابط متناسقة بين المجتمعات السياسية ، ثم اننى سبق أن أشرت الى هذه الظاهرة ، فالدول الأوروبية الجديدة لا تكتفى بأن تستند الى نظرية خاصة بالسيادة ، بمقتضاها يدعى الأمير الذى لا يعلو عليه أى انسان أنه امبراطور فى مملكته ، هذا الأمير الذى يدعى أنه يمثل بسلطته الزمنية الاله ، ويحكم فى « أرض مقبسة » ، ويقود « شعبا مختارا » (أنظر الدراسات البديعة لجوزيف سترابر Joseph Strayer ، هذا الأمير تدفعه رغبة فى بسط سلطانه الى آخر حدود العالم ، انها رغبة قد تغير طبيعة الحرب ، وتلقى الحدود التى كانت تحتويها فى عصر الاقطاع . ويتبدى دون شك بوضوح وحى الأعمال القانونية فى فكرة أن روح الحرب لا يجوز أن تكون بعيدة عن روح السلام ، وأنه بممارسة احداها يجب الاحتفاظ بفرض العودة الى الثانية . ان أعمال جروشيوس ، ويوفندورف ، وبورلاماكي . وفاتيل لا تحمل فقط طابع الواقعية ، أى أنها أسلوب من الاستدلال يعتبر الحرب حقيقة واقعة ، ويميل الى اخضاعها لحد أدنى من القواعد ، هذه الأعمال تقرر أنه لا يجوز أن تهدم الحرب فرص السلام .

وأن الدول المتحاربة يجب أن تعرف وهي في حومة الوعي أنها سوف تعترف مستقبلا باستقلال كل منها كما كانت تعترف بذلك من قبل . هذا اذن تنازل عن المثل الأعلى للسلام الدائم ، ولكن بسبب الرغبة في منع الحرب المستقبلية ، وسوف نتاح لي بعد قليل فرصة العودة الى هذه النقطة ، فالعرف القانوني الكبير يتولى مهمة سن تشريع ضروري للحروب . على أنه يتبدى في أصل هذا المشروع شعور بصالح مشترك ، مختلف عن صالح الدول ، بقي أن فكرة هذا الصالح المشترك ، عند الاقرار بسيادة الدولة ، لا يمكن أن تصير ركيزة لعمل قانوني متين ، ويبدو أن النظرية التي تنشئ السيادة تمنع ذلك ، فالواقع أن تلك التفرقة بين حالة الطبيعة - وفيها يعيش الناس في اضطراب دائم - وبين الحالة المدنية - وفيها وبواسطة عقد مع واحد منهم ، أو عقد ثنائي للوحدة والخضوع ، يتولى الحكم ملك - أقول أن هذه التفرقة تبدو فيها الدولة بوجهين : حائة أو كفيلة بتنفيذ القانون حيال أعضائها . وتتمتع بالاستقلال الطبيعي حيال الدول الأخرى ، ترى اذن ما هي الدرجة التشريعية العليا التي يمكن أن تخضع لها الدولة ، وأية حدود قانونية يمكن أن تصطبغ بها ارادتها في الحرب اذا كانت تتمتع بالسيادة ، وكيف لا يتسنى لها أن تملك السيادة اذا كانت السيادة تتوافق مع تكوين الحالة المدنية ورعايتها ؟

ان استبدال المثل الأعلى للسلام بقانون الحرب مر لا يصير واقعا الا اذا تسبنا أن الدول تمتثل لأهوائها ومصالحها وحدها وأنها لا تشعر بضرورة الامتثال لأية قاعدة تتعارض مع مصالحها ، هذا هو على وجه التقريب ما يقوله روسو ، وفكرته عن السلام (التي عززها مشروع السلام الدائم الذي وصفه برناردن دوسان ببير) يوجهها تصور لحالة الطبيعة التي يعارض بها معارضة جذرية نظرية هوبز ، وبمكس هذا الأخير - الذي يرى روسو أنه يضمن على الانسان الطبيعي سمات الانسان الذي يصوغه المجتمع الحالي ، ويتخيل حربا تشنه الكافة ضد الكافة - ينكر روسو أن في وسع الانسان الطبيعي أن يجد في ظروفه باعثا يحمله على هلاك أقرانه وحتى بافتراض قيام نزاع بين انسان وجاره ، لتنافسهما في ملاحقة غرض واحد ، وكذا بافتراض أن أحدهما قد قتل ، فإن العراك يتوقف بمجرد زوال السبب ، وهكذا يصرح الفيلسوف بأنه « ليس هناك بالرة حرب بين الناس ، فلا حرب الا بين الدول » ، وبالعكس فانه يلاحظ تماسا عالم ، حرم الناس فيه من الاستقلال ، بينما حظيت الدول فيه بالاستقلال ، « عالم يعتصم بهذه الهيئات الضخمة التي تستسلم لنزواتها ، فينعرض لصددمات تزداد شدة كلما تغلبت جموعها على الأفراد » ، ولما كان مهتما هو نفسه بالواقعية ، فانه سجل استقلال الدول استقلالا طبيعيا ، وقرر

أن الدول هي وحدها القادرة على أن تضع حدا لحالة الحرب ، واذ يصرف النظر عن المحاولات التي يبذلها رجال القانون لدعم قانون للشعوب لا يقيد الملوك الا اذا وافقوا عليه ، فان حجته تستند بالعكس على ادراك هؤلاء المتنافسين للخطر الكامن وراء استحالة وضع حد للحرب ، وفي مقابل الوهم يوضع قانون للحرب ، يعرض صورة هادئة سحيقة : ذلك أنه اذا لم يكن الأمن مكفولا بالمرّة ولم يكن الغزو مضمونا في عالم يرى فيه كل انسان عدوا يظهر أمامه دائما ، فان الأمراء محكوم عليهم بأن ينفقوا أموالا لا حدود لها على الوسائل المادية والطاقات البشرية ، وكان في وسعهم استقلالها في وجهة أخرى والتحكم فيها من أجل سعادة دائمة .

ومهما كانت السذاجة التي تبدو لنا شائعة في مشروع اتحاد دولي ينبثق من اتفاق فجائي بالتدخل عن سياسة القوة ، فان المسائل التي طرحها روسو لم تفقد شيئا من حدائتها ، لماذا يكون في محاولة ادخال القانون في الحرب فرصة ما للنجاح اذا ظل احترام هذا القانون خاضعا لمشيئة الملوك ؟ نذكر فضلا عن ذلك أنه ختم كتاباته عن مشروع السلام الدائم « لبرناردن دوسان بيير » بجملة لا تبشر بأمل كبير : « الشيء الوحيد الذي نقترحه (على الملوك) هو قدر كاف من الحكمة لكي يروا ما هو صالح لهم ، وقدر كاف من الشجاعة ليفوزوا بحظ من النجاح والسعادة ، فاذا بقي هذا المشروع رغم كل ذلك دون تنفيذ ، فليس ذلك اذن لأنه مشروع وهمي مستحيل ، اذ أن الناس حمقى ومن الجنون أن يكون الانسان عاقلا وسط مجانين » ، نقول أكثر من ذلك : ان حجة روسو يمكن أن تبدو في زمنه أكثر غرابة مما قد نراه في وقتنا الحاضر ، والواقع أنه يوجد في صميم استدلاله افتراض إبادة مشنكة لزعماء الحركة ، والموضوع يتعلق باحتمال منطقي ، الا أن حالة التطور التقني لوسائل التدمير لا تسمح أبدا بالتحول الى احتمال واقعي ، والظروف الحاضرة تعطي لتفكيره حجة لم يكن معاصروه يتوقعونها .

وعلى أية حال ، وبالإشارة الى ما ذكرناه عن دانتى ، ينبغي التسليم بأن الصلة القائمة بين فكرة السلام وفكرة الانسانية تكتسب هنا معنى جديدا ، وتبعا للتفكير في الانسانية وانتقالها من حالة الطبيعة الى حالة الحضارة يتسنى قياس جنون الحرب ، والفرصة المتاحة لتجنبها ، ومع ذلك لا يهمل روسو فكرة أن الانسانية المتقدمة يمكن أن تتحقق في بنية سياسية ، يشكل أعضاؤها هيئات صغيرة عبر الزمان والكان ، ويستبعد صورة اندماجهم في بنية واحدة ، ويبقى تصدد الدول ، ولا ينضم ترابطها خضوعها لقانون سام ، ولكني أجرو على القول بأنها تقتصر على استبطان تأثيرات الضرورة الطبيعية التي تتحول الى ارادة

الاعتراف المتبادل بينها • ويضاف الى عملية التطور الحضارى عملية تهذيب انشائى ، ليست من قبيل الاندماج . وانما هى بالأحرى من قبيل التسوية العقل .

وتبعاً لالهام مشابه يبدو لنا « مشروع السلام الدائم » الذى كتبته كانط أنه يسجل تقدماً نظرياً كبيراً • ولا شك أنه من المستحيل فى نطاق مقال صغير محاولة تحليل هذا الكتاب ، ولنقتنع بتقديم بعض الملاحظات المفيدة لموضوعنا :

الملاحظة الأولى : يصوغ كانط ، طبقاً للعرف القانونى ست مواد تعين الحدود التى يجب أن تمارس الحرب فى نطاقها • تقول المادة السادسة « يجب أن يبقى أثناء الحرب شيء من الثقة فى حالة العدو المذهبية ، والا فانه لا يمكن عقد أى صلح ، وتنتهى الخلافات بحرب إبادة » • ثم اذ هو يرى أن « الحرب ليست الا وسيلة تفرضها مطالب الطبيعة (حيثما لا توجد محكمة قضائية تفصل بقوة القانون) من أجل الدفاع عن الحق بالقوة » ، فانه يضيف باختصار أنه لا يمكن اعتبار أى طرف « بمثابة عدو ظالم » وأن « القيمة هى التى تقرر الجانب الذى يملك الحق » • هذا تصريح يستحق التنويه به لانه يناقض الصورة الشائعة لكاتب أخلاقى سياسى • ويعود أخيراً من ذلك الى اعلان ما فى حرب الإبادة من خطورة ، بحجة أنه ليس فى مقدور أى زعيم أن يشغل المركز القانونى الأمثل بالنسبة لزعيم آخر ، ومن ثم يتسنى له أن يشن حرباً تأديبية ، « ويترتب على ذلك : أن حرب إبادة يصيب فيها الدمار كلا من الطرفين فى وقت واحد . وفى الوقت نفسه تهدم كل حق ، لا تتيح إقامة سلام دائم الا فى المقبرة الكبرى ، مقبرة الجنس البشرى » • والشئ الغريب المتناقض أن حالة الطبيعة تزود كانط بشرط مراعاتها ، ضماناً لحالة حرب متزنة ، وأسوأ شئ فى نظره أن يتصور المحارب نفسه حائزاً لحق يعلو على النزاع •

الملاحظة الثانية : بعد أن صرح كانط بأن الحالة القانونية ، وهى غير موجودة فى الطبيعة ومن ثم يتعين انشاؤها . فانه يتولى فى القسم الثانى اثبات أن النظام الجمهورى – ويعنى به النظام النيابى – هو الوحيد الذى يمكن أن يقام عليه سلام دائم ، والواقع أنه الوحيد الذى يستجيب « لمبادئ الحرية التى تخص أعضاء مجتمع باعتبارهم أفراداً من البشر » – مبادئ تكفل تبعية الكافة لتشريع واحد – وهو وحده المشتق من فكرة العقد الأولى الذى ينبئ عليه كل تشريع قانونى . والواقع أنه فى مثل هذا النظام لا يصدر القرار باعلان الحرب عن مشيئة الأمير التعسفية ، ولكنه يتطلب موافقة المواطنين الذين يتضح أن فى مقدورهم ، وهم خبرون

بأحوالهم ، أن يقدروا المصائب التي سوف يعانون منها ، وهذه نقطة تستحق أن نتوقف عندها ، فالبرغم من أن التاريخ يثبتنا بأن شعوبنا خاضعة لمثل هذا النظام قد وافقت في ظروف عديدة على شن الحرب وأظهرت بذلك أنها تجهل أسبابها ومخاطرها ، وكذا عواقبها ، فانه يبدو لنا أن رأى كانط يزداد رسوخا في الأذهان ، وإذا كانت قوة للرأى العام - الذى يستنير بحرية الاعلام وتداعى الأفكار - غير كافية وحدها لضمان ارادة السلام عند دولة ، فلا شك فى أن غياب الرأى العام واحتكار السلطة لاصدار القرار (كما نبتين فى النظم الدكتاتورية ، والشمولية بكل أنواعها) يشكل تهديدا خطيرا لحالة السلام .

الملاحظة الثالثة : أن الغرابة الكبرى فى نظرية كانط تكمن دون شك فى التمييز والارتباط بين تصويرين للسلام : تصور أنه فكرة عقلية ، وأنه نتاج غائية الطبيعة ، ويؤكد كانط من جهة (القسم الثانى ، المادة الثانية) أن « الحكمة العليا عند رأس المولة حكمه تشريعية أخلاقية سامية ، تدین الحرب على الإطلاق » ، ومن جهة أخرى (ملحق رقم ١) أن ضمان السلام الدائم يوجد فى الطبيعة « العامل الكبير الذى يخرج الوفاق من قلب النزاع المتفشى بين الناس ورغم ارادتهم » . هذا التصور للطبيعة الذى يستخدمه كانط ، كما يقول لنا ليتجنب فكرة العناية الالهية ، بحثنا على أن نرى أنه يعلن عن فكرة « التاريخ » كما يفهما هيغل ، وبالأصح أن تفكر أن نظريته الخاصة بالغائية الطبيعية تعلن عن نظرية « حيلة العقل » ، وأقول وأنا أبتعد عن تفاصيل الحاجة ان اقامة السلام تبدو كنتيجة لانتشار الناس على وجه الأرض ، وتكوين شبكة من الصلات بينهم - وهى صلات مشروعة نوعا ما - تشهد بضرورة معيشة الناس معا فى وفاق ، ويصرح كانط فى هذا المعنى بأنه : « لما كانت الطبيعة قد دبرت الأمور بحيث يعيش الناس فى كل بقاع الأرض فإنها أرادت أيضا ، بشئ من الاستبداد ، أن يعيش الناس فى كل مكان ، حتى دون أن يفترض هذا الالتزام فكرة ما يجب عليهم بمقتضى قانون أخلاقى ، ولكنها اختارت الحرب لبلوغ هذه الغاية » . ومهما كانت التحفظات التى أبدتها هذه النظرية عن الطبيعة ، نلاحظ أنها تؤيد مطلبها كان روسو يجهله ، ذلك أن روسو يرجع مسألة السلام الى معطيات ثابتة ، بعد أن يتم الخروج من حالة الطبيعة ، وهذه مشكلة لا تبدو قابلة للحل الا بقرار معقول يصدر عن الملوك الذين يهتمون دائما بتجنب جنوب انعدام الأمن ، أما كانط فانه على العكس يصف العملية التى يتأتى للجنس البشرى أن يتعرف بذاته على أنه بشر بحلم الواقع ، فى حيز واقعى وحيد وهو الأرض . ينصل بالتدرج بعضه

بعض في كل بقاع الأرض ، وهذه الحركة الطبيعية التي تجرى بغير علم الأفراد تتجلى لناظره أول كل شيء مكونة لمجتمعات سياسية ، واثانيا ، منتشرة لعلاقاتها في الحرب ، وأخيرا مكونة لأسلوب في المعيشة الدنيوية أو اذا شئنا « المعيشة مشتركة » تحت شارة السلام في جوار كل مجتمع ، ومع الفارق بين مجتمع وآخر . والحركة ، وهي طبيعية ، تتطلب عند كل مرحلة أن تنعكس في شكل قانون : قانون مدني يصاحب تشكيل وحدات سياسية ، وقانون الشعوب الذي يلزم الحروب ، وأخيرا قانون عالمي . ولنوضح أخيرا التفرقة المشككة بصورة قوية بين ما هو من النسق الطبيعي ، وما هو من النهج الأخلاقي : « حين أقول عن الطبيعة انها تريد أن يحدث شيء أو آخر ، فذلك لا يعني أنها تفرض على واجب أن أفعل ذلك (وهذا ليس ممكنا في الواقع الا مع العقل العمل المتحرر من كل اكراه) . ولكنها تؤدي هذا الشيء بنفسها ، سواء اردنا ذلك أم لم نرده . (الملحق الأول للجزء الثاني) ، هذا الكلام يستدعي تفسيرا جديدا لفكرة السلام ، تبعا لرأى كانط حيثما تستحق أن ترتبط بمشروع عمل ، لا يمكن أن ترسخ في مقتضيات « الأنا » المطلقة ، ولكنها تتطلب أن تقوم على تفسير علامات تدل على مستقبل الجنس البشرى ، أو بالأحرى على ارتقاء الانسانية نفسها .

ولنخط خطوة أخرى لاستخلاص مدى فكرة كانط في كتابه مشروع السلام الدائم » ، فمع أن العديد من الشراح أكدوا بحق تأثر كانط بتقاليد رجال القانون الكبيرة ، فانه يبدو لنا أن الفيلسوف قد تخلص من هذه التقاليد في الكتيب الذي نتصدى له ، ويتجلى هذا في فكرة القانون العالمي ، فهذا القانون انبثق في وضع تكون فيه الأرض كلها أهلة بالناس ، ولا كان هذا الأمر معروفا فان الأرض تبدو للناس بمثابة سكن مشترك أو ملك مشترك لهم ، « المسألة هنا لا تتعلق بحب البشر ، وانما بالحق ، فالضيافة تعني اذن حق الأجنبي عند وصوله في اقليم الغير في الا يماطل على أنه عدو » . ما هو اذن هذا الحق ؟ « هو الحق الذي يملكه كل انسان في أن يكون عضوا في المجتمع بمقتضى قانون الملكية المشتركة لسطح الأرض ، ولا يمكن أن يتشمتت الناس الى ما لا نهاية على وجه الأرض لأن الأرض كروية ، من الواجب عليهم اذن كبران أن يحتمل بعضهم بعضا ، ولا يحق لأحدهم أساسا أن يكون موجودا في بقعة من الأرض بدلا من أية بقعة أخرى » ، واذا يهاجم عندئذ سلوك الدول المتحضرة حيال الشعوب الأجنبية « التي تزورها » - ويبين أنها تخلط بين الزيارة وبين الغزو - أى أنه يهاجم الاستعمار ، فانه يختتم الفصل على هذا النحو : « وعلى ذلك ، فلما كانت العلاقات (الوثيقة ، أو الوسيعة)

السائدة فيما بعد ويوجه عام بين شعوب الأرض بحيث أن أى انتهاك للحق فى بقعة ما يشعر به الناس فى كل البقاع فإن ذلك يستتبع أن فكرة قانون عالمى لا تبدو وهمية مبالغا فيها وإنما هو قانون غير مكتوب ، سواء كان من القانون العام أو من قانون الشعوب ، لتحقيق القانون العام للجنس البشرى كافة وبالتالي السلام الدائم الذى لا يأمل أحد فى الدنو دائما منه الا بهذا الشرط » .

ولا يتصور كانط ، (أو هيجل) أن السلام يمكن أن ينتج من اندماج الدول ، ويصرح - ربما وهو يتذكر دانتى - أن فكرة الملكية العالمية فكرة خطيرة للغاية : « مع اتساع سلطة الحكومة تفقد القوانين مزيدا من قوتها ، وبعد اقتلاع جذور الخير يكون طغيان شديد ينتهى الى الفوضى » (القسم الثانى ، الملحق الأول) ، وفى حين لا يجد هيجل كمح للسيادة المطلقة للدول سوى حقيقة واحدة هى « أن الدول تعترف بعضها ببعض ، وبذلك تقرر أنها تعيش بنفسها ولنفسها » (الجزء الأخير عليا - يميز قانونا عالميا مدونا فيما يمكن أن نسميه ألفة اجتماعية نامية من « فلسفة القانون ») فإن كانط - وهو يستبعد فكرة سلطة تشريعية عليا - يميز قانونا عالميا مدونا فيما يمكن أن نسميه ألفة اجتماعية نامية فى النطاق العالمى ، وعلى هذا النحو لا يفتح كانط طريقا يتعين دواما استكشافه ؟

حقيقة يلاحظ ريمون أرون أن الحرب العالمية الأولى سجلت تصدعا فى مفهوم القانون والسلام ، وينوه بأن العرف القانونى كله قد اتجه حتى ذلك الحين الى التصديق على مشروعية الحرب ، لا أن فكرة اعتبار الحرب خارجة على القانون تفرض نفسها منذ ذلك الحين ، ولم يكن هذا هو هدف كانط ، ويبدو لى مذهب هذا الحكم القانونى غريبا على مشروعه ، وتقد مؤلف « الحرب والسلام بين الأمم » لهذا المذهب لا يصيب ما فى « المشروع » من أهمية كبرى ، ويرى أرون بحق أن ميثاق بريان - كيلوج ، وإنشاء عصبة الأمم أثبت أنه لاجدوى من اعتبار الحرب خارجة على القانون . فقد اضطدمت المحاولة بالحقائق الواقعة : احتفاظ الدول باستقلالها الطبيعى ، عدم قبول بعض الدول للوضع الراهن الذى كان المقروض أن يقوم الاتفاق على أساسه ، عجز السلطة الدولية عن استخدام وسائل الإكراه التى لم تكن فضلا عن ذلك تملكها لكى تجبر المخالفين على الإذعان ، أكثر من ذلك أنه تبين لنا أن ايدولوجيا السلام قد شلت الديمقراطيات ، وبخاصة فى فرنسا ، وثبت أن أعضاء عصبة الأمم عاجزون عن تطبيق العقوبات على هتلر وموسوليني حين شرعا فى حرق القانون الدولى ، وقيما يختص بفرنسنا

فانها لم تجرؤ على سد الطريق في وجه هتلر ، في حين أنها تملك قوة تفوق خصمها ، وأخيرا فإن استسلام فرنسا وانجلترا في ميونيخ جعل هتلر وأركان حربه على ثقة بأن انتصاراتهم لن تعترضها أية عقبات ، فإذا استندنا الى هذا التحليل — وهو مقنع في ذاته — فانه يبدو أن الدروس المستخلصة منه تؤكد نظرية أولئك الذين يدركون ما في قوة الدول وسلطانها من عسف لا مفر منه ، ومن ثم يجادلون كما يتجادل الواقعيون ، ولا يتصورون حلا آخر الا في توازن القوى للتغلب على محاولات العدوان ، ويعتمدون فقط على الإرادة اللئوب بأن يستبعد من الحرب الوسائل الكفيلة بتحويلها الى حرب إبادة ، ومن وجهة النظر هذه لا يمكن اعتبار السلام قيمة مطلقة الا تبعا لاعتبارات أخلاقية فحسب .

مثل هذا الاستدلال يتضمن بالفعل عيبا جوهريا ، فالواقع انه حيثما يصطلم بالحد الذي يفرضه اعتبار الدول أنها القوى المحركة الوحيدة الممكنة التعرف عليها على المسرح العالمي — دول يواجه بعضها بعضا في حالة الطبيعة — فانه من المستحيل ابداء أى تعريف للمعتدى وللمعتدى عليه ، على أن اليقين الأخلاقي ليس هو الذى يميز بين المعتدى والمعتدى عليه ، انما الذى يميز بينهما هو الإدراك السليم بالمعنى التقليدى للمصطلح ، في حين أن الجهاز القانونى التقليدى كله غير قادر على وضع تعريف لهما ، ترى على أى إدراك سليم قامت في الحرب العالمية الثانية — على سبيل المثال — فكرة أن النازية والفاشية خرقتا قوانين البشر والشعوب ؟

وبوجه عام ، فإن النقد الذى أجراه ريمون أرون على مشروع اعتبار الحرب خارجة على القانون يبدو صحيحا ، ولكن في حدود تصور معنى لا يحفل الا بالبديل : حالة الطبيعة ، وحالة القانون ، ولا تفهم هذه الأخيرة الا بأنها الحالة المدنية ، وعلى ذلك — وكما تراه بحق لروسو — فإن محاولات رجال القانون اضعفاء المشروعية على الحرب تظل أساليب بلا أساس نظرى ، وهى تنتمى اجمالا الى قواعد اللعب التى يراعونها اللاعبون طالما وجدوها مفيدة ، ولكنهم لا يترددون في مخالفتها ان كانت مصلحتهم أن يخالفوها ، ومهما كان مدى هذه المحاولات — ولنا بالتأكيد أن نعتبرها مفيدة — فانها لا تتعدى حدود البرجماتية (فلسفة الذرائع) ، ولندكر أن هيجل ، رغم أنه لا يمكن اعتباره من أصحاب نظرية السلام ، بحث على تجاوز هذا النطاق ، حين يتحدث عن اعتراف الدول بعضها ببعض في الوقت الذى يجعل من الدولة سلطة مطلقة ، ولقد قلنا ان هذا الاعتراف قد افترض أنه مجرد أمر واقع ، ولكن من الذى لا يرى أنه

ليس مجرد أمر واقع ؟ أو أن رابطة القوة هي التي تجبر في كل لحظة دولة ما أن تعمل حسابا لاستقلال دولة أخرى ؟ أو أن هناك بالفعل اعترافا متبادلا ، أى استبطان دولة لأهداف دولة أخرى ، في مجال رمزي بالضرورة ينبغي تمييزه ؟

نرى ما هو هذا البطلان الرمزي إذا لم يكن هو « الانسانية » ؟ ألا نفهم من ذلك أن الانسانية كيان فريد في ذاته يملو الدول كما تملو كل دولة الأفراد ؟

وما لم نتخلص من مفهوم الانسانية على أنها بنية كلية أو كيان سام يشمل الدول كلها باعتبار أن الدول هيئات كبيرة تضم رعاياها ، فليس هناك احتمال لنظرية تنشئ مفهوما جديدا للقانون ، وبانتزاع الانسانية من هذه الصورة الحيائية ، فإنها تتبدى بمثابة مضمار مادي وروحي في وقت واحد ، ولا يمكن أن تكون أمرا واقعا يتولد فيه وينجذب نحوه كل شكل من أشكال الوجود والتعايش السياسية ، وبهذا الشرط وحده يمكن أن يكون هناك معنى لربط فكرة الانسانية بفكرة القانون . على أننا نلاحظ أن تصور قانون للانسانية يمكن أن يستند الى مفهوم قانون اجتماعي ، فثمة عرف قانوني كبير يقوم على أساس تصور انتقال من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية ، للمع النظرية التي تقول انه لا يوجد قانون الا حينما يتكلم مبدأ الخضوع العام للماهل ، ونحن اذا لا نؤيد هذه الفكرة فان المعرفة الانثروبولوجية - وبالأخص علم الاجتماع ، ومن جهة ، والفيتونولوجية (علم الظواهر) من جهة أخرى - تكشف لنا عن شبكة من العلاقات الأساسية ، فضلا عن تشابك مخلوقات تتصور وتفكر وتعمل في عالمها المشترك تشابكا يقوم على أساس التكوين الرمزي لكل مجتمع . ويبدو لنا القانون الاجتماعي في أشكاله الأكثر بدائية وفي أشكاله الأكثر تطورا أنه لا يمكن أن يختلف في شيء عن النموذج التقليدي الذي أجروا فأقول انه لا يقيم وزنا الا للبعد الرأسي لمجال المجتمع ، كذلك فمن العبث أن ننكر الفكرة القائمة في كل مكان ، فكرة قطب للسيادة ، قطب للسلطة والقانون ، ويخطئ من يرجع الى هذا القطب وحده النظام الاجتماعي ، فالسلطة العليا ليست هي المنشئة الكلية للنظام الاجتماعي ، بل انها جزء منه ، تنبثق منه وتحدده ، وعلى ذلك يجب التسليم بأنه لا توجد فجوة بين عالم الدول وعالم الانسانية ، وأن القانون لا يتوقف عند حدود العولة لأنه لم يستخلص منه أصوله .

ولا يظن أحد أن هذه الملاحظات تبعثنا عن موضوعنا ، انها تعود بنا الى الفكرة التي أجملها كانط عن قانون للانسانية « متبثق ، ومنكشف

اعتبارا من تجربة الحرب ، ومن ثم من تجاوز الناس بعضهم لبعض ، بصورة متزايدة على سطح الأرض المحدودة » . ان رؤية كانط هي نوع من الحدس يثير دهشتنا ، ذلك لأن العالم الذى كان أمام ناظره يبدو لنا ، بالمقابلة بعالمنا ، متعدد الأشكال والثغرات والتناقض ، الا أن تلك القدرة على الحدس ليست قاصرة عليه ، ذلك لأن معظم كبار مفكرى مطلع القرن التاسع عشر مهما كانت عقائدهم - ومنهم على سبيل المثال سان سيمون وشاتوريان فى فرنسا وماركس - يتصورون التواتر الجديد فى تاريخ البشر وتسارعه الهادى متوافقا مع ظهور فضاء محدود حساس بذاته فى كل جزء من أجزائه ، ولعلنا نقول ان الحدس لا يكف عن التجدد الى عصرنا هذا الذى يتمتع بقدرة مذهلة على التخيل ، تسيقها مع ذلك سرعة التغير ، ان كلمات فاليرى التى كانت تبدو فى عام ١٩٣٨ (نظرات فى العالم الحاضر) جديدة كل الجدة فى نظر معاصريه ، لم تعد فى نظرنا سوى مجرد اثبات حانة ، كتب يقول « لقد تم اكتشاف الأرض المعصورة كلها فى وقتنا الحاضر ، وعرفت واقتسمتها الأمم . وانتهى عصر الاراضى المجهولة والأقاليم الحرة والبقاع التى لا يملكها أحد ، ومن ثم عصر التوسع الحر . لم يعد هناك صخر لا يحمل علما ، ولا فراغ على خريطة ، ولا منطقة خارج الجمارك وخارج القوانين ، وليس هناك قبيلة لا تملأ شئونها بعض الاضناير ، ولا توجد رموزها السحرية فى مكاتب العديد من علماء (الانسية) ، لقد بدأ عصر العالم المحدود » . ويضيف : « ان تضامنا جديدا وقويا وفوريا بين المناطق والأحداث هو النتيجة المحسوسة لهذا الحدث العظيم ، وينبغى لنا من - الآن فصاعدا أن ننسب كل الظواهر السياسية الى هذا الظرف العالمى الحديث » . وتحدث أيضا عن « ارتباط وثيق أكثر فأكثر بين تصرفات البشر » . حقا ، لم يحكم فاليرى بأن هذه التجربة الجديدة للعالم موفقة ، بل احتفظ بطابع الروح الاغريقية المولمة بالحدود النهائية ، وفى الفقرة ذاتها يتجلى قلقه : « ليس من الفطنة او الحكمة أو الذكاء القضاء سريعا على هذا التعقد ، ذلك لأنه ليس هناك دوام أو استمرار أو سببية يمكن التعرف عليها فى هذا العالم ، عالم العلاقات والصلات المتضاعفة » .

هذا رأى لا يتسنى تجاهله ، فمن المؤكد أنه كلما اقترب الناس بعضهم من بعض ، تلامسوا بجوانبهم المجرحة ، ولكن هذا ليس الا بعض الحقيقة ، أليس من الأصح أن تكون العلاقات شديدة الخطورة لأنها ليست كثيرة بالقدر الكافى ؟ أليس ذلك لأن التبعية التى تزداد وثاقة بين أعمال البشر لا تجد استجابة لها فى النمو الحقيقى لحقوق الانسان ، وفى انشاء قطاع عام على المستوى العالمى ، حتى يمكن أن تجد الانقسامات تعبيرا آخر

نها خلاف الحرب ؟ أليس أيضا لأن حركة التحات بين المصالح الذاتية (الاقليمية) القديمة التي أصبحت فى نظر الكافة غير قابلة للالغاء تصطدم بمقاومات هائلة ، وتستثير من جانب الطبقات الاجتماعية القائمة وسائل جديدة للبقاء ، واستبعاد كل الذين يمكن أن يظهروا بمثابة (أنداد) رغم اختلاف وضعهم ؟ الواقع أن السلام لا يمكن أن يقوم الا على فكرة أن العلاقات بين الناس هى علاقات بين « أنداد » ، وهذا يعنى القول بأن هذه الفكرة لا تنفصل عن فكرة الحرية ، وأنه من الخداع باسم السلام ضمان كل شكل من أشكال استغلال الشعوب التى ترى نفسها - عن طريق قانون السوق - محرومة من موارد أراضيها ، وخاضعة لدكتاتورية صريحة أو مقنعة . كذلك من الخداع ضمان كل شكل من أشكال النظم الشمولية التى تنكر على الأفراد والقطاعات الحقوق الأولية .

ولما كنا حريصين على ألا نستسلم للوهم والخيال ، وأن نأخذ فى الاعتبار مقتضيات العالم الحاضر ، فينبغى لنا ألا نخلط بين قضية السلام وبين مسألة من غير مبدأ ، وعليها أيضا ونحن حريصون على الحقيقة - ألا نستسلم للنشوة التى يبعثها مشهد المنازعات الجارية ، فالأجدر بنا أن نعترف بأن العواهل (جمع عاهل) لا يقررون وحدهم مصائر الجنس البشرى ، كما افترض روسو ، وأن تقارب الناس بعضهم من بعض تقاربا هادئا يتم بفضل معرفتهم معرفة متبادلة ونامية لعاداتهم وعقلياتهم . وضروب التقدم فى التعليم والتربية ونشر المعلومات وازدهار فكرة حقوق الانسان ليست هذه كلها من قبيل العبث ، بل يمكن أن تؤدى الى نتائج سياسية حاسمة فى اتجاه السلام . ويبقى بالتاكيد سؤال : هل تخيب هذه الآمال ؟ اذا كان لا بد لها أن تخيب ، فمن الأولى - بدلا من أن نسلم مع روسو أنه من الجنون أن يريد الانسان أن يكون عاقلا وسط مجاني أن نسلم بتحفظ مع فرويد بأنه فى الصراع الدائم بين ابروس (اله الحب عند الاغريق - المترجم) وبين غريزة الموت قد ثبت يقينا أن هذه الغريزة هى الأقوى .

كلود لوفور

استاذ بمعهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية

أزمة وحضارة

أدموند رادر

- لم تعد عمليات انتاج السلع وما يحكم تبادلها من قوانين دليلا كافيا لتفسير الواقع الاقتصادى الذى يستشهد به فيما يرتبط بفكرة الأزمة بوجه عام ، اذ أن الدوافع النفسانية والثقافية والأخلاقية المساندة لفاعلية الانتاج ، ترى اليوم على أنها العوامل الأكثر حسما ، على الرغم من أنها عوامل متملصة . وبالتالي لابد من البحث عن الأسس الحاكمة للآزمات الاقتصادية (وهل هي شيء آخر ؟) فى أرض جديدة تدور حول الدوافع الفكرية والمعنوية الأخلاقية ، وشبكات الواجبات التى تتجاوز بمسألة الأزمة حدود المجال الاقتصادى ، وتضمها فى حدود حضارات (١) . ومثل ذلك التوسع فى الحياة الفكرية والسياسية ، وهى عناصر قائمة على الحساسية البحثية (يجب أن نسميها عناصر جمالية ؛ ولكن كيف توظف هذه الكلمة بكل ما تستأمله من ادراك حسي وحيوية ؟) . وهنا تؤدى التحليلات مرة أخرى - شريطة أن تكون بمنابة الأسباب الجوهرية - الى نقل الرسومات المنظورية نفسها من منطقة الى أخرى .

وتؤدى الصلة بين فكرة الأزمة وفكرة الحضارة الى جعل المواجهة بين الفرضيات والمناهج والنتائج على أعظم قدر من التباين ، وبقدر ما تكون الأزمة هى المعنية لايتجاوز الامر التحليلات المحكومة بمقتضيات علمية ، وبقدر ما تكون حالة الحضارة هى المعنية لايتجاوز الأمر التركيبات والأحكام المرتبطة بالقيمة على الدوام، ومع ذلك فان صلة أزمة ما بحضارة ما تفرض نفسها على العقل فى تجربة يومية لمدينة سلام مثل ، ولعنفا يشمل

المترجم : حسن حسين شكرى

(١) J. Bouvier : «Crises économiques» ، الموسوعة العالمية ، باريس سنة ١٩٧٤ ، و P. Mahrer ، «crise économique» ، المرجع نفسه ، الملحق ، مجلدان ، باريس سنة ١٩٨٠ المجلد الثانى .

كل الأمكنة فى جميع الاوقات ، ولذلك لابد من بحث هذه الصلة ، ولا شك فى أن هذا البحث سوف يتوقف بالاتفاق عند مرحلة ايجاز فرضية عمل تنتظر اثبات صحتها .

ولننظر نظرة تكاملية لحالة حضارة ما : فالأزمات التى تعترض حالة الحضارة هذه مهما اختلفت نقاط الهجوم ، ومهما كانت التمزقات جذرية ، تنقش على الأفق نفسه . وبالتالي قد تظهر مبتدئة بالمجال الشامل للتجربة الأنتروبولوجية ، وبملاقة مولده وحيدة للتفسير المرتبط بحالات معينة .

ومن بين الملاحظات العديدة عن الحضارة والمعايير التى تتبع لنا تمييزها تمييزا موضوعيا نجد التعريف الأساسى الذى صاغه أرنولد توينبى يقوله : « بوسعنا تعريف الحضارة بأنها سعى لايجاد مجتمع تستطيع البشرية أن تعيش فيه معا على وفاق » (٢) . ويقدم لنا هذا التعريف البسيط الواضح المعيار الذى نميز به بين الحضارة والثقافة ، أى أنه فى حالة الحضارة تدار بداية الأدوات الثقافية ادارة واعية مع مجال التحرر البشرى ، وهذا التحرر هو الذى يجعل للمجتمع الذى تحرر نفوذا على الثقافات الأخرى ، كما يتميز به مظهر الحضارات .

وبالنسبة لهذا الخط من خطوط تقدم الحضارة تظهر الأزمة بصورة عكسية ، بل تكاد تكون تهديدا مستمرا بالتمزق . والآن فانه لنشوء موقف كهذا لابد أن تكون هناك حالة حضارة . وهذا هو ما حدث فى أثينا القرن الخامس ق.م ، وعبر عنه ثوسيدس لأول مرة ، مع شعوره بشذوذ وضعف عمل الحضارة . واذا ربط بتأمل التاريخ المنظور فى حالة تمامه نجد هذه الفكرة مرة أخرى عند بوليبيوس الذى شسبه بداثلها ، أى النظام والقوضى ، بالدورات المنظورة فى الطبيعة . كما نجدها فى رؤية القديس أوغسطين الموروثة جزئيا من التراث العبرى ، ووصف فيها « مدينة الله » و « مدينة الشيطان » بأنها مراحل حضارة ومراحل أزمة ، وهى فترة أسطورية فاصلة سادت العصور الوسطى ، وأنجبت ميكافيلى . وقدبنى ميكافيلى على نحو غير موفق فكر توسيدس وبوليبيوس الايجابى والنقدى ، وبالتالي يبدو هذان المؤرخان بمثابة وسيطين أصيلين للتصوير الحديث للتاريخ . كما استخدم فكرهما

مونتسكيو ، اذ أتاح له هذا الفكر فهم النمط المنظم للقوانين من ناحية أنه عمل للنظام الذى يحكم القوى السياسية والاجتماعية مثل علم السيرينيتيكا الحقيقى ، ويذكرنا بأن اليونان القدماء قد سموا فن الحكومة نفسه بهذه الكلمة .

وقد طرح نيتشه تفسيراً قيماً للأزمة بلغة عصرية ، وكان بذلك أول محلل لها ، بل كان أشد المحللين راديكالية دون شك . ويقوم تحليله العصرى على نزعة عدمية كاملة وعلى « انقلاب القيم » . وقدم اجابات عن الأزمة الظاهرة للتاريخ الأوروبى مقتفياً خط ثوسيدس الفكرى الذى أعجب بأحكامه على التاريخ بوجه خاص (٣) . ورد جينوس على تمزقات التاريخ بتوكيد لا يستند الا على ارادته وجسارته . وقد تجدد مشهد التاريخ بهذا الفكر ، وساد مع أوزفلد اشينجلر الذى أصر على أن الحضارات تتميز بخصائص معينة ، ومع أرنولد توينبى الذى علمنا أن نفسرها بلغة التحدى .

ومن ناحية أخرى رأى كارل ماركس أن الأزمة ليست غريبة على عملية التحضر وحسب ، بل هى مدمرة أيضاً . هذه نزعة راديكالية لا بد أن نوضحها . انها تعبير عن ثقة نظرية شغلت بها الماركسية فى مرحلة باكراً جداً ، فى اختيارات دون تنازل ، وسوف نناقش ما قامت عليه من منطق عنيد فى مواضع تالية من هذا المقال .

« ان عمليات التقدم فى تاريخ المسائل العقلية ، وبالتالى فى عمليات تقدم التاريخ الاجتماعى .. التى أثارها فى وقت قريب منا georges Duby (٤) ، تعد قراءة منقحة بدرجة أكثر لحركات التاريخ . ولكن هل رأينا بوضوح الى أين يقودنا تقدم التاريخ الجديد ؟ » . ولربما يتيح التراكم المتانى ، المرتب فى منظور شامل ، اكتشاف الدور المنشط للشعراء ، والزعماء ، والمهندسين المعماريين ، والفنانين ، والعلماء الذين شغلوا انفسهم عميقاً بنسج وابتداع تلك التعبيرات التى هى « الكنز المشترك » . لكننا سنفسرها هذه المرة بأنها مستوى جيد ، أى على مستوى الهياكل التوليدية للتعبيرات ، ومستوى نسجها ومستوى القوة الفكرية لأحد حدودها .

(٣) «Ce que Je dois aux Anciens», Le crépuscule des idoles : F.

Nietzsche, اريس ، الجمع القومى للبحوث . سنة ١٦٧٢ ، ج ١ .

(٤) Des So'étés Médiévales : C . Duby .

الدرس الافتتاحى فى كوليج ده فرانس ، باريس ، الجمع القومى للبحوث . سنة ١٩٧١ .

وهكذا منذ عصر توسيديس حتى المؤرخين الجدد ، وهكذا يرتبط مسار فكر ما ، باستثمار حضارة ما ، في صلتها بأزمة ما . والآن ، ودون نبذ الفهم المتكامل الذي تبتغيه هذه المقدمة ، نحب أن نفصل التساؤلات التي تفرز الأزمة الحالية للتاريخ اليوم بطريقة مذهلة . ولنعد اذن الى ما للحضارة من أعمال نبيلة في صلتها بالأزمة . وقد قلنا ان توسيديس هو اول من سماها بهذا الاسم في «خطبة عن أول موتى الحرب» ، بكلمات وردت على لسان سركليس ابان الحرب البلوونيزية (٥) . لقد قامت مدينة أثينا من خلال حركات منتظمة متسمة بالذكاء والاقدام ، وسط مزيج متناقض من الأحداث ، وهي مدركة لما عاشته من مخاطر بسبب نوعياتها . ألم يأت تفوقها من أن الآثينيين كانوا قادرين دائما ، وفي رخاء تام ، ومتسمين باقدام مماثل ؟ أو لم يكن تفوق الآثينيين يتشبهت « برعاية ما هو جميل تجاه غاية الانسجام والأمور العقلية تشبها قويا ؟ » . وصار ما أنتجته أثينا في أعمال الفن والفكر أنموذجا لمدن أخرى ، وكان بذلك وراء ثقافات معينة ، بل مصدر وحي لحضارة عبر عن فكرتها هنا لأول مرة . لقد نشأت أثينا على حساب مغاطرة جسور تعادل ما قدر عليها أن تخوضه من مخاطر لتجتاز الأزمة التي هدت سيطرتها . ومن ثم نقول ، ونعلل ، ان توسيديس عبر عن نفسه بما تمليه غريزة الهلنيين السفة التي تظهرها اللغة اليونانية القديمة . حقا ان كلمة Krisis في هذه اللغة تعين لحظة اتخاذ القرار ، لا لحظة خطر الاضطراب الذي يؤدي الى التمزق أو الى كارثة مشهورة ، لكن الاختيار هو الذي يحدد نهائيا نتيجة الأعمال بطريقة أو أخرى . لقد استبدت باليونان فكرة الشكل المتعرج الدقيق ، والصور الجانبية المحددة ، والهيئات الفاصلة في سلوك أشبه بسلوك الحجار الذي يأبى اجراء أى تصحيح بعد ما ينهى عمله ، في حين نميل نحن الى النظر الى الأزمة نظرة الترقب والقلق ، والشك والتردد ، كما يفعل بول فاليري فيما كتبه باسم «La cris de l'esprit» (أزمة الروح) . ولم يكن ثمة شيء من هذا القبيل عند اليوناني القديم الذي كانت غريزته تملي عليه اتخاذ القرار بالعمل فور ظهور الخطر : كانت الأزمة عنده حكما يصاحبه مصير غير قابل للاستثنا . وتجرى حرب البلوونيز بهذا الأسلوب وعيا بالحقيقة التاريخية ، وجمالا منفردا في الكتابة .

(٥) La guerre du péloponnese : Thucydides. ترجمة .
 Budé . Jacques de Romilly مجموعة . باريس . Les Belles Lettres
 سنة ١٩٥٨ ، الكتاب الثاني ، الرابع والثلاثون - السادس والأربعون (وترشح ترجمتنا هنا) .

وقد افترض بوليبيوس المفهوم الذى صورده ثوسيديس خلال العمل .
ولخص قاعدته النظرية فى كتابه « تاريخ عالم البحر المتوسط من
٢٢٠/٢١٩ الى ١٤٥/١٤٤ ق.م » ، (الكتاب السادس) ؛ الذى خصصه
« للأنماط المتعددة للساتير ، ودورة تتابع نظم الحكم خلال قانون
طبيعى » (٦) . وظهر له أن النظام السياسى ومنه المؤسسات الرومانية
كان من أعظم الصور اللافتة للنظر التى أمدنا بها التاريخ ، وعدها
جديرة بالملاحظة ، وبدا له أن النظام الرومانى كان مرحلة هامة من المراحل
الدالة على تطور الجماعات الاجتماعية - مدنا أو دولا - وتناقض بجلاء
مع المراحل الفوضوية التى تظهر ببعض سماتها للصيقة بها الفكرة
الحديثة للأزمة . وتؤلف هذه السمات دورات رائعة مع النظام
السياسى الرومانى .

وتميزة أخرى من ميزات فكر ميكياڤيل السياسى يجب فهمهما ،
هى القول بأن أساس الحياة الاجتماعية يعد فريسة لعمليات مسخ
مستمرة . يقول هذا فى كتابه « الأمير » ، ويصوره كنظرية فى كتابه
« Florentine Histoire » (التاريخ الفلورنسى) . « فأكبر نتيجة
عادية لما تعرضت له الامبراطوريات من ثورات هى نقلها من النظام الى
الفوضى ، ثم اعادتها الى النظام » . وليس من المسلم به فى أمور البشرية
أنها تتوقف عند نقطة محددة حين تبلغ أوج اكتمالها ، بيد أنها حين
تعجز عن المزيد من العلو تأخذ فى الدنو ، وللسبب نفسه فانها حين
تبلغ أدنى حالات الفوضى لا تستطيع المزيد من التدننى ، فتعلو مرة أخرى .
وبالتالى فانها تسير من خير الى شر ومن شر الى خير على التوالى . ومن
المعروف أن الطرف الفنية تولد الراحة ، وأن الراحة تولد الخمول ، وأن
الخمول يولد الفوضى ، وأن الفوضى تدمر الدول ، ولا يلبث النظام أن
يولد من جديد وسط دمارها ، ثم تولد الطرف الفنية من النظام ، ويولد
المجد والرخاء من الطرف الفنية » (٧) . وهذا أحدث تحليل . فالتاريخ
خاضع لنظام سيبرنتيكى ، النتيجة فيه تؤثر فى السبب ، فالرخاء يحدثه

(★) بوليبيوس : (٢٠٢ - ١٢٠ ق.م) مؤرخ غريقى . ألف كتابه المسمى ذكره
فى ٢٠ جزءا ، لم يصل اليها منها الا الخمسة الأولى كاملة .
(٦) Histoire : polybius مكتب الكواكب السبع . باريس . المجمع القومى
للبحوث سنة ١٩٧٠ .

(٧) N. Machiavelli : «Histoires Florentines» . الأعمال الكاملة .
مكتبة الكواكب السبع ، باريس ، المجمع القومى للبحوث . سنة ١٩٦٤ . ص ١٦٦٨ .

النظام ، ويعيد توحيد الظروف لاسترخاء الطرف الفنية ؛ والفوضى تجعل النظام أمرا محتوما (٨) . بيد أن هناك أمورا كثيرة أخرى . والفوضى هي أساس الحياة الاجتماعية ، وعندنا فكرة من أعظم أفكار ميكافيللي المهمة . والعمل السياسى يجب أن يفهم بالنسبة للنسيج الاجتماعى بأسلوب فهم العمل الفنى ؛ وقد يتيح هذا الفهم معرفة أن أعظم تنظيم مستقر ، ومعترف به على أوسع نطاق ، وأن أعظم حكم ، ونظام راسخ للمؤسسات السياسية ، ليس الا ابتداء لعبرى من البشر عرضة للنقد فى حد ذاته . وعرضة للخطر من كل جانب من جوانبه ، ولا يعدو أن يكون هياكل تنظيمية تحكمية بالغة حدا من الكثرة . ويفسح التنظيم والحكم والنظام مكانا للتبادل الذى يمكن غائية الحضارة نفسها (وببساطة أكثر يمكن التقدم الاجتماعى) من البقاء وسط تذبذبات الأحداث ، لكنه يسبغ عليها الشمول من خلال التنوع الذى يأخذ صورة قادرة على التعايش مع نظم أخرى تحوى عوامل مجهولة كثيرة . ولذلك فما دام الفكر الشمولى الحديث يستند على انفصال أفكار الهيكل التنظيمى والنظام ، حيث يمثل الهيكل التنظيمى طاقم العلاقات المتبادلة المكشوفة ذاتيا ، ويمثل النظام طاقم منطوق على مخاطرة العلاقات المتبادلة المكشوفة الى ما لانهاية التى تشرب الهيكل التنظيمى الذى تحيط به باضطرابات ، حيث تكون الهياكل التنظيمية آخر الأمر قوام كثير من الجماعات المنظمة ، والجماعات الشاذة القابلة للنقد ، والمعرضة للكوارث ؛ لكن العبرة البشرية تحافظ على وجودها باختراعات متعاقبة .

« مجتمع يرقى بذاته من الوحشية الى النظام . ومادامت النزعة البربرية هي عصر الواقع فمن المحتوم أن يكون عصر النظام هو امبراطورية الخيالات ؛ وحيث لا توجد سلطة قادرة على تأسيس نظام يقوم على اكراه أجساد بأجساد وحسب ، فلا بد أن توجد قوى خيالية » . لقد كتب بول فاليرى هذه العبارات فى مقدمته لكتاب مونستكيو «Lettres persanes» (رسائل فارسية) (٩) . كما أمدنا النظام الملكى الفرنسى بدعامة للفكر الأسمى الهادى المؤلف كتاب «De l'esprit des lois»

(٨) «Information et politique chez machiavelli» : E. Radar.

المجلة العامة . Ded . سنة ١٩٨٣ ، بروكسل .

(٩) «Préface aux lettres persanes» : P. Valéry . الأعمال الكاملة

مكتبة الكواكب السبع ، محلمان . باريس ، المجمع القومى للبحوث . سنة ١٩٥٧ ، المجلد الأول ، ص ٥٠٨ .

(روح القوانين) • ويمكن توطيد السيطرة الاجتماعية بالقوانين الحسنة ،
شرط أن تكون مقبولة في الضمائر ، كما هي منقوشة في المراسيم •
كما أن من الضروري أن تنظم القوانين للآخرين بأسلوب تنظيم ميكانيزم
آلية الساعة للحقبة التي تسن فيها باتقال معادلة • وتتطلب ممارسة
السلطة من كل ممثل سياسى أن يصور بالضبط أدوار الطاقم الذى سرعان
ما يصبح أئمن شىء للصالح العام •

وفيما يتعلق بالأمور العامة « Res Publica » يؤسس مونتسكيو
الحياة الاجتماعية على السيطرة الفكرية للقوى السياسية التى تفترض
وجود طبقة متعلمة مهيمنة لديها متسع من الوقت لهذه السيطرة ، لكنها
طبقة تمارس المنافسات فى « شفافية » لدرجة قد تنبثق منها الديمقراطية
فى أى مرحلة ، أو تتولد عنها حفا ؛ ذلك لو قبلنا فكرة الجيل المثقف
النقى ، لكن ليست هذه ميزة للأعمال التى من هذا القبيل التى
تؤسس مثل هذا الأصل ؟

ويوضح كتاب « روح القوانين » الهياكل التنظيمية الفاعلة فى
الحياة الاجتماعية ، مع القراءة المتباعدة • وفى كل مكان ترى القوى التى
تحمل طبيعيا على أنها ضرر شديد ، وفى كل مكان يقترح تبادل معادل
فى بداية التقدير العادل للطاقات التحررية وموقفها العكسى • ويبدأ بهذه
القراءة السياسية سن الدساتير ، وفهمها على أنها ادارة لازمة دائمة •

وحين تناول نيتشه مشكلة الأئمة فى أوروبا التى أوقفت على النزعة
العممية كان التفسير الذى شخصه فى نظره هو وحده مجرد عرض من
أعراض الحضارة التى استسلمت للضعف الذى أمسك بخناقها • وحين
يأتى رجل عبقرى فانه يفرض قيما جديدة ، ويستنبط من نفسه وحده
أسباب رفضه ، بل يفرض « ظروفا » جديدة • وليس العبقري نتاج
عصره بحال ، اذ أن العلاقة بين الرجل الفذ وبين عصره تقوم على الجدل •
ويحدث العبقري أمرا جوهريا يتعدى نقص جوهره ، يتأتى من صفات
بركانية لتفجره • ولا تتطابق ماثرة العقلية العظيمة مع إيماءات وأفكار
أو أعمال الحقبة الزمنية التى يشكلها بإرادته ، مع أن تدخله قد يتلام
عن قرب مع صور المرحلة ، وقد يوجد الاختراع الذى يتعهد فى صورة
علاقة متناقضة ، أو علاقة مأساوية مع الحقبة التى يعيش فيها •

ولاشك أن عمل العبقري سوف يثبت ، اذا اكتمل مجراه فى علاقة
لازمة لعصره ، لكنه لن يكون أبدا على صلة التبعية أو التكافؤ • بل على

العكس يكون فضله هو اعطاء شكل على ما كان ناقصا في سعي متلف على انهاء مالم يكن سينتهى ، بل لما لم يفكر فيه أحد ، لولاه هو . ويظهر العبقرى أشبه بمجموعة عنيفة من الطاقات الكامنة في أرض راکدة : « ولناخذ حالة نابليون . فمن المحتمل أن تكون فرنسا الثورة ، بل قل فرنسا قبل الفترة الثورية ، قد أنتجت بنفسها نتيجة مناقضة تماما للنتيجة التي أوصلها نابليون اليها ، وواقع الأمر أنها أنتجت هذا النمط . وحيث ان نابليون كان شخصا آخر ، وورثا لحضارة أنضج وأرسخ وأقدم من تلك الحضارة التي كانت في عملية انفصال وتلاش في فرنسا ، فقد أصبح هو السيد ٠٠ » . لقد أعطى الرجل العظيم شكلا للمادة الاجتماعية الكامنة في أرض راکدة ٠٠ ، ومازالت هذه الحقبة أكثر شبابا ، وخفة ، وخضرة ، وتعرضا للشك ، بل صبيانية نسبيا .

ويواصل نيتشة حديثه في كتابه «Le crépuscule des idoles»

(أقول الأصنام) (١٠) .

وبعد نيتشة اقترح اشبنجلر ، ثم توينبي ، تأملا للتاريخ المصوغ حول فكرة الاختراع الممدن على أنه شكل مستقل في مواجهة من ينكره . اكتشف اشبنجلر عشرات الحضارات التي أضفى عليها هيكل تنظيميا عضويا أصيلا يتعذر نقص قدره ، وقد تصور سلغا وجود قانون تطور هذه الحضارات فيها ، على أسلوب قانون الوراثة في تصور الجينين . وربما يحكم قانون من القوانين ، أو هذا القانون نفسه ، أفرادا مثلما يحكم سكان مدينة ما مجتمعين . وقد يكشف التاريخ الحق صورة « شكل عام » بتعبيرات متنوعة للثقافات : أساطير ، رموز ، علوم ، فن ، سياسة . « كلما كان الشكل أعمق كان أقوى وأمنع ٠٠٠ ؛ ويستطيع الشخص الذي ينتمي الى هذا الشكل السيطرة عليه بسهولة وحرية تامة ٠٠ مثال ذلك برنس لينى (*) ، ومونسارت ، اللذين يعدان تاريخا عاما لأعلى سلطة . انها الصورة الفوتوغرافية الجامدة التي دبت فيها

«Ma conception du génie» : F. Nietzsche.

(١٠)

المرجح نفسه . ففهره ٢٢ .

(★) لينى ، الأمير شارل جوزيف (١٧٣٥ - ١٨١٤) جندي النمساوى . ولد في بروكسل ، ظهرت براعته في حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣) ، حطم في السلك الدبلوماسى النمساوى في عديد من اللطاعات الأوروبية . عنته كاترين الثانية امبراطورة روسيا (مشيرا) . كانت له رسائل مع شخصيات بارزة منها : كاترين الثانية ، وجوته ، وفردريك الأكبر ، وفولتر ، ولاهارب . (المرجع) .

الحياة ٠٠ « (١١) وحين تتوطد السلطة لانسان ما فانه لايجد مهلة للكف عن استحسان مواهبه اذا كان متفوقا . وبالتالى لايفضل فى « اطلاق تيار للعمل التكاملى » ، أى للعمل المطبوع بحيويته وحيوية أمته . وهذا هو الاختراع ازاء التكيف الحى المحكوم بمصير لاتواجهه أزمة الا من خلال الافتقار الى الايمان ، والى ثقة الشخص فى نفسه ، والى التهذيب المضاد ، والتسيب المتبدل . واذا لم يكن الزمن قد عفى على فكر اشبنجلر الأسطورى العضوى الأرستقراطى فالسبب أنه يشير الى شيء آخر نحس باكتشافه سلفا : تنظيمات حية نابعة من خلية مجتمع عالمى تحكمها سلطات زمنية متباينة ؛ لاتنهض علاقتها التكنولوجية باعطائها أهمية . وليست الأسطورة سوى استعانة بفكر متحرر يتجاوز عوامل التحكم العقلانية فى كل مرة ، لدرجة أنها تحرمها بالحالة الراهنة للمعرفة من الدليل الحدسى المنظم لفن المعمار الداخلى للعمل الذى يتشرب به هذا الفكر . وبالتالى تحفظ مملكة الأسد للعقل ، وتبقى غريزته على نوعيتها للتساؤل والتفسير مع توافر أسباب مألوفة ، حيث لامناص من تفسير ماهو شاذ . ولم تنحرف قوة اشبنجلر عن ذلك البتة . ومن ثم يواصل كتابه « Decline of the West » (انحلال الغرب) تزويدنا بالتساؤلات ، مع أن فرضياته تنسم بالجرأة .

لقد أراد اشبنجلر أن يقرأ قدرا داخل شخصية عضوية لوحدة حضارة : نحن نعرف اليوم أن الجماعات المعقدة ابتداء من الخلية حتى المجتمعات البشرية تتطور مصادفة من تفرعات الى تفرعات ؛ وتعرض كل من هذه التفرعات لمصائر متعددة منذ بداياتها حتى امتدادها الكامل . ومن ميزات المؤرخ توينبى العظيمة فى كتابه « A Study of History » (دراسة التاريخ) أنه أوجب رؤية الاختيار الذى تتأثر به الحضارات فى مادتها ، ذلك هو اختيار الاختراع (١٢) .

وبالتالى يكون المصير الذى جانب فيه اشبنجلر الصواب ، حين اعتقد أنه تصور نمط ومسار الحضارات التى نراها . لأنه لم توجد حضارات الا على حساب أزمات تحدثتها بصورة متعاقبة ، وتلاشت بسببها فى معظم الأحيان . وذلك هو سر القوة المنفردة لكتاب توينبى المتقدم ذكره ، لأنه

(١١) M: Tazerout : ترجمة Le Déclin de L'occident : O. Spengler.

باريس ، الجمع القومى للبحوث ، سنة ١٩٤٨ ، مجلدان ، المجلد الثانى ، ص ٤٠ .

(١٢) Toynbee. المرجع نفسه .

وصف فى كل حضارة من الحضارات الواحدة والعشرين التى درسها عملا بطوليا جمعيا ، عملا لنشاط حمل لحدوده للاختراع فى اللحظة نفسها « لأعظم انحراف فى التوازن » • أو بالأحرى عملا يشبه كثيرا ما يطرأ من تطورات خلال الأزمات والتحديات التى تقهر بالمزيد من المخاطرة وبالتهور اللذين يحتاجان الى تفوق والى اختراع أعظم •

ومن ثم ففى دراسة المجال التاريخى الذى اقترحه توينبى تصور لهذا التطور المتعذر الغاؤه ، الذى هو التاريخ نفسه ، والى أى حد كان أنموذجه مقبولا من الناحية المادية ، كما كشف علم الفيزياء المعاصر • وباستحضار تعذر الغاء المستقبل ، « تمزق الاتساق فى المعادلات من ناحية الزمن » ، وقد وصف Prigogine, Stengers عملية دينامية وحيدة تكشف عن •• « تاريخ يقطع تعاقب التفرعات » (١٣) •

وقد استخدم علم الفيزياء من خلال وجوده كاستعارة لتعيين الظواهر العقلية التى تهرب من التجربة الإيجابية : فى هذه الحالات لا يكون الأمر مسألة تفسيرات ، بل يكون المدى الذى تفضل فيه فرضية على أخرى ، وتوجيه التجارب باتباع منطق ما ، وجد فيه شكل أولى للتماسك •

هل نستطيع الشك فى أنه كان ثمة مراحل للتوازن ، ولحقب اتسمت بالتركيب ، والتوافق ، والسيطرة الواعية على العمليات التى تؤثر فيها ، أم أن هذه الأمور لم تكن سوى دعامة ؟

وفكرة العصور الاجتماعية التى سادها نظام للاستقرار يميزها عن المراحل الفوضوية : أهى مجرد وهم ؟ ان الشك فى البنية الخاطئة لمراحل التوازن أمر مشروع • أما لمسألة بلوغ الذرى ، والعصور الذهبية ، والوصول الى القمم ، فليست الا تصورا أسطوريا ، ومظهرا كاذبا يخفى تحته اضطرابات كامنة • وليس لتلك العصور التى نسميها عصورا « كلاسيكية » أى علاقة بالآزمة فى وقع الأمر ، بل هى عصور قائمة بذاتها لدرجة تدعو الى الاعتقاد فى حذفها رغم وجود تلك العلاقة • وهذه نقطة تجدر دراستها هنا •

وبرى بول فاليرى فى كتابه «La crise de l'esprit»

La Nouvelle alliance : I. Prigogine and I. Stengers, (١٣)

مكتبة العلوم الإنسانية ، باريس ، للجمع القومى للبحوث ، سنة ١٩٧٩ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ •

(أزمة الروح) أن « السلام هو الحالة التي تتجلى فيها العداوة الطبيعية بين البشر في مجال الابداع ، لا في مجال للتدمير ، كما يحدث في أثناء الحرب » (١٤) . ولما كان للمصور والجماعات والثقافات سمات وأعمال لافتة للنظر تتجلى من ثم حالة الحضارة ، وتشتهر بعمل ابداعي أقوى له صلة وثيقة مذهلة بالموضوع . أما الأزمة فانها تخترق نسيج الجسد الاجتماعي والسياسي والشبكة الاقتصادية ، كما تفعل في عصور أخرى ، ومع ذلك تستمر أعمال ابداعية متعددة الأنواع في نسج خيوط جديدة ويجب أن يكون ذلك هو مفتاح « عصور » بركليس ، وأوغسطس ، وسانت لويس ، والنهضة الأوروبية ، ولويس الرابع عشر ، وأمريكا الأوروبية في السنوات من ١٨٧٢ حتى ١٩١٤ ، اللافتة للنظر بما أنتجته من اختراعات جرى تبادلها على الفور .

وهذه هي الحقب التي انتشرت فيها سمات وأعمال معينة بقوة محمولة ، وعبثت في كل الجبهات . فما الداعي للدهشة إذن من القول بأن العصور الذهبية هي مشهد تضاعف المعرفة وتنوعها في التقدم الذي فاق الإدراك الحسي للأزمة الكامنة ؟

وكذلك صنعت منذ ذلك العصر حالة ثقافة رفيعة المستوى ، سوف تسمى حالة حضارة ، فما هو عمل الحضارة ؟ انه الاستجابة الفكرية المنظمة لحالة من الغرضي ، والأزمة ، والتمزق ، واختلال النوازن ، والخطر . أو هو مرحلة عمل مكثف للعبقرية البشرية استجابة لوضع يهدد التوازن القائم بالدمار . ويحتمل بالتالي أن يصاحب الأزمة في مراحل تاريخية أخرى انتاج متزامن لأعمال تحاول التغلب عليها ، أو تعادليها ، الأمر الذي يزيد حجم وعلاقة هذا الانتاج الوثيقة بحركة مفعمة بالخطر ، وبسمات وأعمال ملائمة لتوصيل رسائل الحلول : « لن يوجد غير رمز يطرح للتداول » ، كما يقول : Ferdinand de Saussure (١٥) . ومجمل القول أن مراحل العظمة ، والنزعات الكلاسيكية ، والعصور الذهبية ، وعصور التوازن ، ومراحل تأكيد طرازا ، وسنوات نشاط شعب ما ، قد لا تخلو من أزمة ، لكن

(١٤) « La crise de l'esprit » : P. Vléry . المرجع نفسه . المجلد الأول . سنة ١٩٥٧ ، ص ١٠١٣ .

(١٥) (Les anagramme , Les mots sous les mots : J. Starobinski de Ferdinand de Saussure

مجموعة Le chemin . باريس ، للجمع القومي للبحث سنة ١٩٧١ .

ربما تسود هذه المراحل بديهة مخيفة للسيطرة المأساوية لتناقض لا يقهر ، وتحديات التمزق بطفرة أو مخاطرة ، أو اختراع لارجعة عنه . وبالتالي توجد استجابة فى الساعات الحاسمة تكيف نفسها بدقة مع الأزمة . وبدون التخلص من الأخطار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - التى تستجيب لها بصورة محكمة - قد تقاوم الساعة المطلقة للحضارة حتى ما يسمى « يوتوبيا » ، مع أنها شكل مضاد ، وطريق للتغلب على هذه الأخطار ، والحضارة تواصل مسيرتها . وعلى العقل الذى يبتغى الفهم أن لا يدرس غير الحلول التى أوجدها عبقرى ؛ لأنها النسيج الخالى من العيب على ما يبدو ، وسلسلة متصلة ، وتفسير بالعقل وحده يستبدل بالفوضى . لقد أيقظ غاندى وأقام أمة برسائله الى نبذ العنف ، وسوف تبقى « يوتوبيته » حية مع ما يشوبها من ألوان الخداع ، وجمع ديوجن شتات فرنسا الحرة .

لكن ثمة تحفظ . لأن انتشار مثل هذه السمات قد يعد بديلا للتمزقات والأزمات ، بل مظهرا أوليا لثقافة مشغولة بعملية نموها ، تستحسن رؤية التركيب والتوازن للذين سيتأكدان بأسلوب أمطورى فى معظم الأحيان :

(ان الأقدار على اتفاق مع أحكام المصير ، قال لمفالهم : « لاتتوقفى عن الدوران ٠٠٠ ») (١٦) .

ويشير النشيد الرعوى الرابع لفرجيل بعصر الذهب الذى تفضله الأقدار بناء على أمر الآلهة . فقد احتاج أوغسطس قيصر الذى قام بحركة مضادة للجمهورية الى تبرير حكمه . ولاقى هذا المعنى التنبؤى ترحيبا . ولأمناس من الشك فيما يسمى « عصورا ذهبية » من حيث انها عمل لخدمة أحد الطغاة فى واقع الأمر ، ولخدمة طبقة سائدة بحثا عن قضية عامة تكون ضمانا لها فى كسب الراى العام . ومع ذلك فانه ما ان تظهر المؤسسة الاجتماعية حالة التوازن هذه حتى نجدها تثبت فى الأيديولوجيات السياسية ، وتحددها نزعة شكلية ، ونزعات أكاديمية تجهز لاعادة ظهور أزمة أكثر حدة ، أو أشد خطرا ، لأنها لم تعد قائمة فى الضمائر . كما لاتكون الارادات على أهبة الاستعداد بعد ، وكأنها قد جردت من جوانبها العملية القوية . وتنحطم دائرة الاغراءات والطوارئ التى أكدت

(١٦) Bucoliques : virgil . النشيد الرابع ، الأبيات ٤٦ - ٤٧ ، ترجمة : بول فاليرى ، المرجع نفسه ، المجلد الأول ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

التقدم البطولي حتى تهمل عمليات الابداع • لأن التقدم فى الابداع يحل محل اضطراب أزمة غير خاضعة للسيطرة • وتصيب عمليات التكتل والانفصال والتدمير أكثر حدة ، وقد تبقى بلا حلول • وتعمل وجهة النظر الرسمية المشوهة بالأسطورة على تأخير ادراك الحقائق الجديدة ، ولا توجد بعد قواعد معتدلة ، بل ردود فعل فاشستية قمعية بيروقراطية •

والفكر الاستبدادى لكارل ماركس الذى يبلغ ذروته فى تحليله للأزمة بكتابه «Das Kapital» (رأس المال) ، وتحوى مخطوطاته التى لم تنشر بعض صفحاته الأعظم قوة • حيث يصل الى استنتاج هو أن صراعا طبقيًا محتوما لامناص من حدوثه ، وأن الرأسمالية لامناص من القضاء عليها ، ويرفض رفضا قاطعا أن يتصور مستقبلا يصاحبه تطور متبادل للطبقات المتعادية التى قد تتغلب على متناقضات النظام الرأسمالى • كما يرفض التنبؤ بطبقة عاملة يتاح لها النهوض بوساطة اتحادات العمال ، وتشارك فى المسئوليات الاقتصادية ، حتى تصبح الطبقة الرأسمالية - طوعا أو كرها - أكثر تمقلا فى « شهواتها الجامحة » • الى الثروة والاستغلال » ، بل عد ذلك اضطرابا فى الفكر ، ونفى نتائج تأمله عن الأزمة المحتومة التى سيؤول اليها مصير النظام الرأسمالى : « رأس المال مناقض لنفسه فى العمل » •

فهل يحدونا الأمل ، فى هذا القرن العشرين ، أن تحقق أمريكا الأوربية ، التى نرى فيها موجة طاغية للعلم والأسلوب الفنى والاقتصاد لم يعرف له فى تاريخ البشرية مثيلا من قبل ، تضامنا بين الطبقات المتعادية فى فرصة من فرص التطور نفسه ؟ ان ذلك امر ضرورى لبقاء العلاقة بين البلاد المتقدمة صناعيا والبلاد المتخلفة التى يجب عليها العمل لاعادة تشكيل علاقة الاستغلال التى يشجبها كتاب « رأس المال » ، ولايمكننا التحدث عن « الذكاء والتفوق الحقيقى للطبيعة فيما يتعلق بالمجتمع كله • وباختصار عن الازدهار الكامل للفرد الاجتماعى » (١٧) ان حالة الأزمة تعم كوكب الأرض جميعا ، وليس مؤكدا ألا تزداد سوءا •

ونصل الآن الى منطق الأزمة ، أى زيادة الاختلال المؤدى الى انفصال

(١٧) Oeuvres : K. Marx ، مكتبة الكواكب السابع ، باريس ، المحجج العموم للبحوث ، سنة ١٩٦٨ ، المجلد الثانى ، «Machinisme, science et loisir»
«Economie Créateur» ص ٣٠٤ وما بعدها ، Les crises ، ص ٤٥٩ وما بعدها ،
وايضا «Fragments» ص ١٤٨٤ وما بعدها •

لارجعة فيه للمؤسسات غير المستقرة . ويشبه السير « تجاه أزمة »
سير المرء تجاه مدفع ، أى تبنيه استراتيجية للثورة ، ويتم هذا من
خلال القوى الجديدة التى تقضى على من يعادىها .

وتستبعد استراتيجية الأزمة مبدأ التعايش السلمى ، مع انه أمر
ضرورى لها مهما كان الثمن . كما أن البديل بين الحرية الفكرية ،
والتعايش واستراتيجية الأزمة ، والثورة والحرب شأن آخر معرض
للخطر : السلام ، الحفاظ على أرواح البشر ، والحرية الفكرية ، وتدعيم
الحضارات ، وتأيد تقدمها . ولقد كان تفجر الذكاء والموهبة واضحا
بدرجة لافتة للنظر فى السنوات الأولى للثورة الفرنسية . وفى برلين
خلال العقد الثالث من هذا القرن حتى مجيء النازية ، وفيها كل من
بريخت وأينشتين ؛ وفى إيطاليا حين تولى موسوليني السلطة . كبح
الذكاء والموهبة فى كل مرة ، ثم خنقتهما الحلول الفاشستية التى أنهت
الآزمات . وتفيد مثل هذه التوافقات أن الأزمة تثير فى المرحلة التى تظهر
فيها أفكارا ، وتدعو الذكاء الى الاستجابة من خلال مبتدعات كثيرة . ومن
ذلك يأتى التوقد الفكرى والفنى للعصور التى تصنع الآزمات . ويشمل
« السير تجاه الأزمة » احتمالات من هذا القبيل . بل انه يعادل استراتيجية
الحرب التى تستهدف إبادة العدو . ولا يترك مكانا لاحتمالات معينة تعتمد
على عبقرية البشر ، كما تظهر فى تقدم العلم والتكنولوجيا ، والاهتمام
بالصالح العام لأن الأمر العام هو الذى يمكن من خلاله استعادة الضمير
بغض النظر عن السلوك الطبقي .

ان رسالة مجتمع ما ابتداء من مستوى الثقافة حتى مستوى الحضارة
هى نتيجة أزمة فى خصوصيتها وانتصارها . وبالتالى فالأزمة مرتبطة
بتقدم . حيث تحتشد ثقافة عتيقة بأعمال نموها . وتعد قدراتها على
الاختراع بدلا عن وضع اقليمى وبيئة تحس فيها التأثيرات الأجنبية ،
لكنها لاتنقى ، ولا تمثل تحديات ؛ ولاتتجاوز الأفق . وقد يكون وصف
حالات للحضارة من هذا القبيل وصفا ايكولوجيا : نوع من التركيب بين
الخاصية الاجتماعية والاقتصادية وبين جغرافيتها الخاصة . ان قدم
الثقافات الذى لم ينطلق الى حضارات يكمن كمونا دقيقا فى هذا الاستقلال
الذاتى المركز فى ذاته ؛ وبالتالى فانه يتسم بسماوات نزعة اقليمية معينة
على الدوام .

وعلى العكس تكسب الثقافة التى تدخل عصرها الكلاسيكى لنفسها
تلك الخصائص العقلانية ، والشاملة ، كما يقول اشبنجر ، وتجلب لها

حالة حضارة حين يضع اقتحام الثقافات الأجنبية نفسه موضع التساؤل الكافي ، وكذلك عمليات التوازن التي تكون قد ثبتتها آنذاك . وفي الوقت نفسه ، تجد ذرائعها الخاصة بإبتداع يحل محلها في منطقة للنمو . ويعقب هذا التطور المائل في استمرارية القيم المكتسبة ، لكن بلفة الانفتاح والتركيب ، والتركيب الملحوظ والتطور المشهور .

وحين يعاد فحص عصر كلاسيكي من هذا القبيل لحضارة ما بدءا من أساليبها الفنية حتى أخلاقياتها ، بسبب العامل « الأجنبي » ، نجده يستجيب بهياكل تنظيمية مفتوحة تربط المرحلة الأسمى بالمستويات السابقة بطريقة إيجابية تشبه الخيثر التي تؤثر في الكل تأثيرا استرجاعيا . وكان الأمر هكذا في نهاية العصر الحجري الحديث ، حيث تطورت ثقافة جزر سايكلا دس الى حضارة ، هي الحضارة المينوتية (*) التي تمثلت الاضافات الفينيقية والمصرية في صورة تركيب جديد .

وأيضا في القرن الخامس ق م ، وفلورنسا في عصر آل ميديشي ، وعهد لويس الرابع عشر ، وكلها مراحل واجهت فيها ثقافة ما أزمة بسبب التدخل الأجنبي ، فهيات نفسها لقهر هذا التدخل على الأفق العالمي . ولم يكن هذا الاتفاق شاملا للعالم كله ، بل الاتفاق المطوق للأراضى المكتشفة . ويمكن أن يأخذ التطور مجراه باستمرار القيم المكتسبة . وأن يأخذ مظهرها في العالم كله . وهناك رد جديد يتمثل في رسم منظوري شامل مفتوح لمواجهات لا نهائية ، ولما ينتجه العقل من تطورات . وكانت الثقافة القائمة حتى ذاك الوقت هي الحل لما تواجهه جماعة ما من مشاكل اقليمية ، بل ترقى الى مستوى الحلول التي يمكنها استيعاب جميع الاختلافات دون أن تضعف بالمزج . وربما تنتهي هذه الظاهرة بصورة مثالية - قبل أن تكون هدفا لكوكب الأرض في عصرنا - في أجيال عصر النهضة الغربية . واستطاعت بوساطة الأساليب الفنية ، والطباعة ، والملاحة في أعالي البحار ، واكتشاف القارات ، وترسيخ علم سياسة الدولة ، أن ترتقى الى تلك المستويات العقلانية والعالمية للحضارة التي تضقى عليها - بمجرد ما أن تجريها - سمة « النهضة » .

ولنضرب مثلا شبه معاصر ، وغير متوقع من النظرة الأولى ، بالنسبة لموضوعنا . وهو مثال يرتبط بعمل أدبي بحث للكاتب جيمس جويس . يعد رسما توضيحيا لمشكلات الحضارة وعلاقتها بثقافات متفردة في

(*) نسبة الى مينوس ، وكان لقبا ملكيا يحمله ملوك كريت مثل ما كان ملوك مصر يحملون لقب فرعون (المترجم)

مستواها الذى قلما تحققه ذاتيا وعالميا فى آن واحد . وهذا هو سبب استمرار تأثير عمل جيمس جويس تأثيرا حاسما على الوعي المعاصر ، لأنه يفعل هذا ، قبل كل شئ ، فى منظور خصب ، ربما يكون مفتاحا لما يجب أن يسلك من طرق . لقد رفع جيمس جويس - بلغة الانجلىز الغزاة - الحقائق المعنوية لأيرلندا الدليلة الى ذرى جديدة ، أى الى أبعاد حضارة العصر الحضري والكوكبية . وبهذا الأسلوب ، تكسب الثقافة لنفسها مرتبة الحضارة بالمعنى الذى أدركها به اشبنجر ، أى الثقافة التى يحكمها العقل والقيم ، وهذا هو المعنى العالمى ، وتظهر مرحلة الحضارة بكل ما للكلمة من معنى ، حين تواجه ثقافة ما تحديا وتهديدا من تلك العوامل التى تظهر فى أفقها ، فتجد فى ديناميتها الباطنية القدرة على جمع شتاتها وتمثلها ، دون أن تختفى هى ؛ وتواتيها فرصة الارتفاع على ذاتها ، وعلى ما يواجهها من تحديات وتهديدات ، فترقى الى مستوى التبادلات أو الى آفاق العالم ، بل الى عالمية محددة الموقع تاريخيا . لقد شعر جيمس جويس ، وهو طالب شاب فى دبلن ، بالسخرية تجاه أنصار نهوض اللغة الأيرلندية التى سقطت فى مهاوى الإهمال . وفى رايه أن ذلك نوع من الضعف فى مرحلة تحتاج الى أكبر قدر من القوة ، لقد أراد أيرلندا « معاصرة وطيدة العزم » . وبالتالي وجد أن من واجبه أن يكتب روايات بلغة العدو ، ليؤكد عبقرية أمته . وكان هذا كسبا هائلا لأيرلندا ، حيث دخلت الثقافة الغيلية (*) من خلال مؤلف رواية «Pinnegan's Wake» (يقظة فنجازن) فى مناقشات عصرية للحضارة ، وشاركت فيها بأسلوب رائد : الحضارة هى ثقافة رغبة فى أزمة وحسب ، حتى تقهرها ، وتزداد نموا ، وهذه هى قوانين الحياة ، ويتسرع أكثر تلك هى قوانين العقل . وعلينا أن ننظر الى شكل ذلك « اللامتناهى » الذى يكسو به هوسرل (*) النزعة الانسانية الأوربية (١٨) .

ولنعهد الى النزعة العصرية المفهومة على أنها ادراك لازمة مفتوحة لتاريخ يشق طريقه ، ويبقى هذا التاريخ ليفسر كل جوانبها . وليسست

(*) الغيلية : لغة السلتين فى أيرلندا والمرتفعات الاسكتلندية (الترجم) .

(*) ادمند ، هوسرل : (١٨٥٦ - ١٩٣٨) فيلسوف المانى . مذهبه الظواهرية ، وهو محاولة لدراسة الشعور الذاتى فى علاماته بالأشياء التى يعيشها (الترجم) .

(١٨) «La crise de l'humanité européenne et : E. Husserl de la philosophie», مجلة الميافيزيما والأخلاق . المجلد ٣ ، باريس سنة ١٩٥٠ . متعولة عن Paulet ٢ ، باريس ، ابريل سنة ١٩٦٨ .

النزعة العصرية رفضا للتاريخ من أجل الفائدة الحالية . بل هي الوعي بأن التاريخ لا يفسر ولا يحلل أى شيء ، لكنه مصاحبة تهكميه للحاضر ، كما يرى جويس في روايته « يوليسيس » الأمر الذى يزيده ابهاما . والأمر المثير بدرجة أكثر ، هو أن يرى التاريخ فى ضوء الأحداث الحالية على أنه تعاقب لاستجابات قائمة على المصادفة . والدورات التى تبدو فيه ليست الا المراحل التى بلغ فيها الاختراع ذروته هنا أو هناك ، فى أعمال للحضارة ، ولا تخدم النزعة الكلاسيكية والعصور الذهبية ، وبلوغ الذرى على أنها أوضاع ، بل بكونها توضيحات لقيم العقل البشرى الذى لا بد أن يحظى بالاعتراف به فى كل أزمة .

وعلى الألفى الكوكبى الذى تظهر فيه العقلانية الفنية المنتجة أصبحت أداة التفوق اللا محدود مخاطرة كبرى . وليست هذه العقلانية وحدها التى يعد النظام الرأسمالى أحد أشكالها البارزة من بين الأشكال الأخرى ، ويضع الثقافات فى الأزمة التى يؤثر فيها — بل يؤثر فيها جميعا ، اذا لم يدمرها — على أن هذه العقلانية هى وسيط انفصالها نفسه بدرجة تكون فيها لغايات السلطة أو الربح أسبقية على غايات التحرر البشرى . ولن يكون التغلب على هذه الأزمة بأى الطرق رجعة الى قيم الماضى ، بل نتيجة اختراع لاتحدد صيغته فى مكان محدد . ويمكن لطاقت العقل البشرى أن تتقدم لمواجهة الأزمة باختراع بديل للخطر . وفى بداية أزمة ما لاتكون ثمة صورة لشيء يعينه مختلفة اختلافا شاملا ، تولدها مخاوف أو تراجعات . ويمكن التغلب على هذا بحلول جريئة . ولا بد من مساندة هذه الحلول بنشر الوعي ، وبالتحليلات ، والمشروعات ، والاستراتيجيات التى تقرر الأعمال والوسائل المتسمة بالجسارة فى المقام الأول ، لتكون ردا عليها .

ادمووند راد

(بروكسل)

المصاهرات الزوجية بين الأسر الحاكمة فى الأرسقراطفة الرومانية

دونالد سيم

١

لا شك أن المصاهرات الزوجفة بن الأسر الأرسقراطية الرومانية فى عصر الجمهورية تتطلب دراسة دقفة ومستفضة • ولا يسلم الباحثون فى هذه المصاهرات من الوقوع فى خطر المبالغة أو تبسوط الأمور ، مما فترتب فله نشوب الكفر من المذل واختلاف الآراء • فضاف الى ذلك الملل الناشئ عن البعث فى عصور خالية من الشواهد التاريخية التى تعطى فكرة صحففة عن الشخصففات موضوع الدراسة •

وفمكن فجنب البعث فى هذا الموضوع الواسع والمعقد بصفة الصمت الذى نلتزم به النصوص التاريخية • وصحفف أن الاحتجاج بصمت النصوص احتجاج سلفى وجزئى ، ولكن اذا لجأنا الى هذا الصمت مع الضمانات اللازمة أمكن أن فعطفنا ذلك مؤشرات نذر السبفل • وفؤفد ذلك ما هو معروف فى علم البحث الجنائى من أن الكلاب البولفسفة اذا لاذت بالصمت فى الوقت الذى فجب ففه أن تنبع اعتبر ذلك دلفلا على وجود شئ غرفب مخالف للمعتاد •

ولذلك ففجر بنا أن نبذل المجهود فى دراسة الأسر أو العشائر التى تحاشفت ففما فظهر على مر العصور المصاهرات الزوجفة عن طريق الزواج أو التبنى • ولكننا سنقتصر هنا من باب الفجاز على البحث فى المصاهرات التى تمت بن أبرز الأسر الأرسقراطية القدففة ، أعنى طبقة الأشراف التى احتكرت المناصب والسلطة الرسمية ، الى أن حان الوقت الذى تسمنف ففه لطبقة العامة أن تصل الى منصب القنصلفة فى منتصف القرن الرابع •

المترجم : أمفن محمود الشرفف

يضاف الى ذلك تحفظ آخر ، وهو أن مؤرخي الرومان يعترفون بوجود خمس عشائر رومانية بارزة هي آل اميلوس وآل كلوديوس وآل كورنيلوس وآل فابيوس وآل فاليريوس . وكان لكل بيت من هذه البيوت دوره منذ البداية في تاريخ الجمهورية ، وامتد هذا الدور الى عهد الامبراطورية .

٢

وسندرس في البداية - على سبيل التمهيد وتحديد الموضوع - مثالا من المصاهرات المشهورة في عصر الغزوات الامبراطورية الكبرى . وهذا المثل يتعلق بآل اميلوس والقرع الرئيسي من آل كورنيلوس . وتفصيل ذلك أن سيبيو الشساب الذي حل محل فابيوس المعجوز في الصراع مع هانيبال (قائد قرطاجة) تزوج امرأة من آل اميلوس ، هي شقيقة اميلوس بولس ، فاتح مقدونيا . وعندما أوشكت سلالة سيبيو أفريقانوس أن تنقرض تدخل بولس وقدم أحد أبنائه ليكون ابنا بالتبني . وهو سيبيو اميلوس الذي هدم قرطاجة .

وتكررت هذه المصاهرة ، وإن تمت بعد فترة طويلة ، كما تشير الى ذلك احدي الحقائق العرضية : ذلك أن اميلوس لسبيدوس القنصل الثوري في سنة ٧٨ قدم الى أحد أفراد أسرة سيبيو ولدا ليكون ابنا بالتبني كما قدم أيضا حفيده بولس اميلنيوس لبيدوس ، ابن اخي لبيدوس أحد أعضاء الحكومة الثلاثية ، وأحد الأرستقراطيين الأوائل الذين أيدوا وزيت قيصر في الوقت الذي حدثت فيه معيكة اكتيوم . وتزوج بولس هذا كورنيليا التي تنتمي الى أسرة سيبيو . وهي المرأة التي تكلمت من القبر حسبا جاء في آخر قصيدة للشاعر بروبرس ، وقدمت العزاء لزوجها وولديها .

٣

وعلى عكس ذلك تناما نجد أنه لا يوجد على مدى قرون طويلة أي نسب أو قرابة بين العشائر الثلاث الأخرى ، وهي آل كلوديوس ، وآل فابيوس ، وآل فاليريوس . أكثر من ذلك أن آل كلوديوس يتبعون عن آل اميلوس وسيبيو ، وترجع أقدم حلقة ثابتة بين البيوت الثلاثة الى عهد القيصر أغسطس . ذلك أن ميسلا ابيانوس القنصل في سنة ١٢ ، تبناه فاليريوس ميسلا باسم أبيوس كلوديوس .

وقصارى ما يمكن قوله فى هذا الصدد أن هذه الظاهرة جديدة بالتنبؤ . كما أنها بحاجة الى تفسير ، وإن كان منطقيا على مخاطرة وعرضة للانتقاد . وفى مثل هذه الأمور يجب التزام أقصى قدر من الحذر ، لأن الشواهد التاريخية مبتورة ومتفرقة ، وبخاصة فيما يتعلق بالزوجات . فى القرن الأخير فى عهد الجمهورية لا نجد سوى امرأتين من آل فابيوس .

ويلاحظ أن نجم طبقة الأشراف أخذ فى الأفول ، كما يتضح من قوائم القناصل (جمع قنصل وهو أحد الحاكمين الرئيسيين فى حكومة روما القديمة) . مثال ذلك أنه لم يوجد سوى قنصلين من طبقة الأشراف خلال مدة تسع سنوات (بين ١٢٦ و ١١٦ ق م) . ولم تستطع أسر الأشراف أن تحتفظ بهذا المنصب ، بل اشرف بعضها على الفناء التام . وكذلك لا يوجد أى قنصل من آل فاليريوس ميسلا طوال قرن كامل (من ١٦١ الى ٦١ ق م) كما لا يوجد أى قنصل من آل فابيوس بين ١١٦ و ٤٥ . ولكن الحظ ابتسم فى الوقت نفسه لبعض ذوى القرابة البعيدة : مثال ذلك أن آل فاليريوس فلاسيوس لم نجمهم خلال الفترة التى أقل فيها نجم آل ميسالى . وبعد وفاة سيببىو اميليانوس آل الأمر الى آل ناسيسى الذين انحدروا من سلالة ابن عم افريقانوس الأول . ولكن الأمر لم يدم لهم طويلا اذ توفى أحدهم (فى ١١١ م) وهو يتولى وظيفة قنصل ، واختفى ابنه من المسرح السياسى بعد أن تقلد وظيفة « البرينور » (القاضى عند الرومان) .

وقد أدت عدة أسباب الى هذه النتيجة ، وهى الأخطاء السياسية ، وعدم الحصوبة (العقم) وقلة الأطفال ، وانتشار الأوبئة ، وسوء الأحوال الصحية فى العاصمة . ومع ذلك استمرت الأسر قائمة برغم عدم استمرارها فى الحكم ، ولم تفقد مكانتها الاجتماعية ، واستعاد بعضها محله ، وبخاصة أشهرها وأعرقها فى القدم .

٤

وربما كان من المتوقع أن نعهد الأسر الارستقراطية الى ضم صغوفها وحشد كل طاقاتها لنفاذ خطر اقصائها عن تقاليد الحكم . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . بل حدث عكس ذلك تماما . يضاف الى ذلك أن الأمل كان ضعيفا فى الحصول على تأييد الأسر الأخرى المتدهورة التى تعرضت لذلك المصير . لذلك اتجهت الأسر الارستقراطية الى مصاهرة الأسر القوية والكثيرة النسل من نبلاء طبقة العامة مثل أسرة سيسيليوس متيل التى امتازت

بالنراء وكثرة العدد . وترتب على ذلك أن تقلد منها ستة أشخاص منصب
القتصل خلال خمسة عشر عاما (١٢٣ - ١٠٩) .

يضاف الى ذلك ما تطلبت الحياة العامة من تكاليف في سبيل الوصول
الى مراتب المجد والشرف واستعادة ثروة الأجداد . وكان أيسر السبل
لتحقيق هذا الغرض هو مصاهرة الأصدقاء والموالى الذين جنوا أرباحا
طائلة من غنائم الحروب الرومانية .



وفى هذا القدر كفاية لتكوين صورة عامة للموقف . أما فيما يتعلق
بآل كلوديوس وفابيوس وفاليريوس فيجدر بنا أن نقول كلمة خاصة عن
كل منهم . وتفصيل ذلك أن بعض الأشراف مثل آل اميليوس ويوليوس
كانوا يدعون أنهم من نسل الآلهة أو الملوك أو من نبلاء « لب لا لونج »
أو « تروا » أما آل كلوديوس وفاليريوس فيتضح من أساطيرهم أنهم دخلاء
على مدينة روما إذ جاءوا من اقليم « سابين » ، فى حين أن المهاجرين
المتأخرين من آل كلوديوس قدموا الى روما بعد تأسيس الجمهورية بضع
سنين ، أما آل فابيوس فلا يوجد فى الشواهد التاريخية ما يدل على
أصلهم ، مع العلم بأن هذه الشواهد غير وافية .

واشتهر آل كلوديوس بالفطرسية والكبرياء ، ويزعم أعداؤهم أنهم
اضطهدوا طبقة العامة فى روما ، وهذا زعم باطل لأن آل كلوديوس كانوا
خطباء شعبيين يتوددون الى العامة ويستغلونهم فى الوصول الى الحكم ،
وكانوا يتخذون من العامة موالى لهم ، ويفيظون خصومهم بفطرسيتهم
وكبرياتهم ، ثم ان أصلهم البعيد لم يفض من قدرهم ومكانتهم على الأقل
فى نظر الامبراطور كلوديوس آخر أفراد الأسرة .

ونقول بهذه المناسبة انه بدرت من هذا الامبراطور اشارة عابرة
غير موفقة ، حين زعم أن آل كلوديوس لم يلجأوا قط الى التبنى فى حين
أنه هو نفسه تبنى ولدا اسمه « دوميتيوس هينوبريوس » .



كانت طبقة الأشراف هى قوام الجمهورية الرومانية وزينتها . ولما
تولى الدكتاتور « سيلا » مقاليد السلطة عمل على اعادة النظام القديم .
وكان سيلا ينتمى الى طبقة الأشراف ، وتقلد الشبان الذين اختارهم

وأيدهم منصب القنصلية فى الوقت المناسب فى كل سنة ماعدا ثلاثة منهم من سنة ٦١ الى ٥٥ ، وخلال كل السنوات من سنة ٥٤ الى ٤٩ . ومن هنا ظهرت الأسماء اللامعة العديدة الى أن حلت الكارثة التى عجلت بسقوط بومبى الكبير ، وانهيار الجمهورية أمام نائب القنصل (البروقنصل) فى اقليم الغال (فرنسا الحالية) .

ولم يخف أغسطس قيصر (الذى أسس الامبراطورية بعد سقوط الجمهورية) ميله الى طبقة الأشراف ، ولم يعرف وريثه فى الاسم والسلطة حدا يقف عنده أو عائقا يكبح جماحه عندما أسس ملكية أرستقراطية . وساعده على ذلك الحروب الأهلية التى نشبت فى البلاد ، وشيئا فشيئا نشأ جيل جديد ووصل الى السلطة كما تشهد بذلك سلسلة الشبان الأشراف الذين تقلدوا منصب القنصلية بين سنتي ١٦ و ٧ ، ومن بين هؤلاء الشبان اثنان ينتميان الى عشائر انتشلتها أغسطس قيصر من وهدة الخمول (عدم الشهرة يقال فلان حامل الذكر بمعنى أنه مغمور غير مشهور) أما الباقيون فكانوا ينتمون الى تلباء طبقة العامة ، وقد عزز هؤلاء طبقة الأشراف التى هلك القسم الأكبر منها .

٧

تتجلى أهمية المصاهرات الزوجية فى عهد الجمهورية اذا ألقينا نظرة خاطفة على السياسة التى انتهجها أغسطس قيصر منذ البداية بعد معركة اكتيوم مباشرة ، ولم يكن لقيصر أسلاف عظام لأنه كان حفيد صراف بالبلدية ، ولم يكن له ولد ، بل كانت له بنت واحدة اسمها جوليا ، وكلوديوس مارسيلوس ابن أخته أكتافيا ، وسرعان ما تزوج كلوديوس من جوليا ، ولكن قيصر وهب أيضا أربعة من بنات أخته أكتافيا رزقت بهن فى زيجاتها المتوالية ، وفى سنة ٢٨ زوج قيصر كبراهن المدعوة مارسيليا من ماركوس أجربا ، أما الثلاث الأخريات - وكن يقاربن جوليا فى السن - فقد بلغن سن الزواج بعد ثلاث أو أربع سنوات ، فتزوجت مارسيليا الصغرى من ميسلا أبيانوس الذى توفى فى سنة ١٢م (وربما لم يكن أول زوج لها) . وأما البناتان الأخريان (واسم أبيهما ماركوس انطونيوس) فقد تزوجت كبراهما من دوميتيوس أيبتيوبروس ، وصغراهما من دروسوس .

وليس هذا مقام تفصيل المصاهرات التى تمت بعد ذلك ، ولا التغيرات السياسية التى حدثت قصدا أو عفوا ، ولكن الملك العجوز اضطر فى النهاية - بعد أن شعر بخيبة الأمل فى توريث الحكم لآل بيته

بسبب وفاة الأميرين حفيديه الى أن يتبنى ربيباً له لم يكن يحظى برشاه ، وهو تيوبريوس كلوديوس . صحيح أن تيبريوس هذا كان ينتمى الى آل كلوديوس ، ولكنه لم يكن ينتمى الى السلالة الراقية من هذا البيت وهي سلالة أبيوس كلوديوس .

وفيما يتعلق بتوريث السلطة العليا فإن الاختيار لم يخرج عن دائرة الأسرة ، فقد تردد الاختيار - مثلاً - بين أهينوريوس زوج أنطونيا ، وفابيوس بكسيموس زوج مارسيا بنت عم قيصر ، وإذا لم يتم هذا الاختيار فقد كان من الممكن أن يتحول مؤقتاً الى سلالة اميليوس لبيدي ، وهو اختيار له مزاياه الظاهرة .

وقد سبقت الإشارة الى بولس الشهير وزوجته كورنيليا التي كانت في الواقع الأخت غير الشقيقة لجوليا ابنة قيصر . وكان لبولس هذا ولدان أحدهما اسمه ل . بولس الذي تزوج جوليا الثانية حفيدة قيصر ، وكلاهما تقرر اقصاؤه عن الحكم والقضاء عليه بعد أن تولى تيبريوس قيصر مقاليد الحكم (في سنة ٢) . أما الآخر فهو ماركوس لبيدوس الذي لقب « بالمتفطرس » في حكاية مشهورة على لسان الحاكم الأوتوقراطي (الحاكم الفرد ، المستبد) وهو يحتضر ، ذكر فيها رأيه في بعض الأشخاص ، وقد زوج الامبراطور كاليجولا أخته دروسيلة من ابن ماركوس هذا ، ووعده بوراثته الحكم .

٨

مما يدل على الاستمرارية بين الجمهورية والامبراطورية تشابه الأسماء والأشكال في كلا النظامين ، ووحدة الشعارات والكلمات كما يقول المؤرخ الروماني تاسيتوس ، والواقع أن الحكم الأوتوقراطي (الفردي) في عهد الامبراطورية كان حكماً قانونياً مبنياً على تفويض مجلس الشيوخ الشعبي سلطاته للامبراطور (أو التنازل عن هذه السلطات) .

وهناك عنصران مختلفان للاستمرارية يفسران ويكملان هذا التعويض أو انتقال السلطة من مجلس الشيوخ الى الأباطرة : أولهما أن الأباطرة كانوا فيما يبدو آخر الأسر الحاكمة بعد بومبي وقيصر وأنطونيوس . وكانوا زعماء أحزاب ملكية « كما وصفهم بذلك أحد المؤرخين الأغارقة » . وثانيهما أن أغسطس قيصر عمل على استمرار الممارسات التي كانت

سائدة بين الطبقة الأرستقراطية وعرف كيف يستعمل الى جانبه الأسماء الشهيرة والنابهة في هذه الطبقة .

ونتيجة لذلك كانت الأسرة الحاكمة بمثابة ضربة موجة لا الى الخصوم المنافسين المشتبه فيهم فقط (لأن أبناء سلا ، وكراسوس ، وبومبي اتهموا آل قيصر وآل كلوديوس بأنهم من السوقة المغتصبين للسلطة) ، بل أيضا الى معظم أعضاء الفريق القابض على زمام السلطة . بيد أن لحمة النسب مع آل قيصر لم تكن هي السبب الأساسي الذي عجل بالقضاء على كثير من عائلات الأشراف ، بل كان السبب في ذلك يرجع الى شيوع عادة الترف بين هذه الأسر منذ معركة اكتيوم كما قال تاسيتوس ، يضاف الى ذلك الاسراف في الانفاق رغبة في التظاهر والتفاخر مما أدى الى استنزاف ثروتهم . أما مصير آل فاليريوس فقد كان يختلف عن ذلك ، بدليل المصير المحزن الذي حل بفاليريا ميسالينا زوجة كلوديوس قيصر ، وفي الوقت نفسه باينة ابن عمها ميسالا أبيانوس . ولكن ميسالا كرفينوس الذي كان مفخرة روما على عهد أغسطس تحاشى تزويج أولاده من الأسر الارستقراطية ، وكان آخر قنصل من سلالة يتلقى اعانة من نيرون .

٩

يكفى هذا القدر من الكلام عن الملكية الأرستقراطية التي انتهت بانتهاء عهد نيرون ، سليل ماركوس أنطونيوس ، وأهينو بريوس ، العدو للدود لكل من بومبي وقيصر . وقد اختار كورنيلوس تاسيتوس (وهو روماني من الولايات الغربية) لكتاب له بعنوان « الجوليات » موضوع تدهور وسقوط روما ، وتضمن هذا التاريخ فصولا عن الأسرة الحاكمة . والحرية الأرستقراطية والأسر القديمة .

وسرعان ما تولت السلطة طبقة ادارية تتألف من موالى وأتباع آل قيصر . وبعد أن تولى السلطة لفترة قصيرة ثلاثة من المطالبين بالعرش ، قام حكام الأقاليم وقادة الجيش بتنصيب فلافيوس فسباسيان امبراطورا في ٦٩ م وتولى الحكم لفترة قصيرة ، ثم حدث انقلاب مقنع في خريف ٩٧ م تولى على أثره الامبراطور تراجان مقاليد الحكم ، وهو أول امبراطور من الأقاليم ، وكان ينتمي الى طبقة اجتماعية أرقى من طبقة فسباسيان ، اذ كان من أبناء أحد القناصل المشهورين . كما كان من أفراد طبقة الأشراف الحديثة .

وهكذا وصلت أرستقراطية جديدة الى أوج المجد بظهور الأسرة الامبراطورية الثالثة أسرة « الأباطرة الأنطونين » . وتعد هذه الأسرة مر حيث تكوينها وعناصرها حدثا قديما متكررا أضفى عليه الزمن صبغة القداسة . وهذا الحدث هو مجموعة الأسر التي تربطها حمة النسب وصلة القربى والمصاهرة ، وتتكون هذه الأسر من الصفوة المختارة في جنوب أسبانيا (الأندلس) وأواسط فرنسا . وقد عبأت هذه الأسر ثروتها وطاقاتها في سبيل هدف واحد ، وتشابهت من وجوه عديدة ، وإن اختلفت في أصولها البعيدة ، اذ ينتمى شيوخ الأندلس (السناتور) الى اليهود الايطاليين القدماء ، والجنود والتجار الذين استعمروا البلاد ، واستقروا فيها ، وكونوا على مر الزمن طبقة من الملاك ، في حين أن أرستقراطية « الغال ناربونيز » تتكون من سلالة محلية ، تشهد أسماؤها الرومانية بحصولها على حق الرعوية الذي حولهم ايام نواب القناصل في العهد الأخير من الجمهورية . والواقع أن مستعمرتي « نيم » و « فيين » كانتا بذلك اسبق من المستعمرات الرومانية مثل نربون وآزل .

ويبدو لأول وهلة أن الحكام الأنطونين الأربعة (وهم تراجان . وهديران ، وانطونينوس بيوس ، وماركوس أوريليوس) كانت تغلب عليهم الصبغة الأسبانية . اذ كان موطن تراجان وهديران هو مستعمرة ايتاليكا ، وهي مستوطنة قديمة بالقرب من اشبيلية . وكان موطن آل أناي (الأسلاف المذكور لماركوس) في مدينة أخرى بالولاية نفسها .

ولكن يجب أن لا ننسى الزيجات الغنية : ذلك أن تراجان تزوج بومبيا بلوتينا من مدينة « نيم » ، ولم ينجب منها ذرية ولا أحدا يخلقه . ولكن أنطونينوس بيوس كان من أهل نيم من جهة جديه : وهما أوريليوس فلفوس ، وأريوس أنطونينوس (تولى كل منهما منصب القنصلية مرتين) . وكانت جدة ماركوس أوريليوس لأمه هي دوميشيا لوسيلا وكانت واثرة غنية أيضا من تلك المدينة .

١٠

أكدنا في هذا المقال استمرار الأوضاع الاجتماعية خلال التقلبات التي طرأت على النظام السياسي ، وحين عرضنا لذكر طبقة الأشراف والنبلاء الرومانيين أوردنا خلاصة موجزة عن بعض البيوت البارزة في هذه الطبقة ، ومن بينها ثلاث تمتاز بسمات خاصة ، ومن المناسب - بلا شك - أن نتحدث عن السمات العامة التي تشترك فيها الطبقة الحاكمة

جميعا إما كان أصلها ، ولما كنا قد بدأنا المقال بتأكيد أهمية الظواهر السلبيه ناسب أن نقارن بين الأرستقراطية الرومانية والأرستقراطية الأوربية من القرن الخامس عشر الى القرن الثامن عشر ، ذلك أنه يوجد بعض أوجه الشبه بينهما برغم اختلافهما فى الأدوار والسلوك فى ظل الملكية ، ويمكن تحديده أوجه الشبه والاختلاف بإيجاز شديد فيما يلى :

فى روما استغنت أمة مارست الحروب عن ارتداء الزى الحسكرى الموحد فى المدينة ، وحظرت الجمهورية اللجوء الى « المبارزة » (معركة بالأسلحة الفتاكة بين شخصين فى حضور بعض الشهود لحسم النزاع بينهما بسبب اهانة وجهت من أحدهما الى الآخر) . ولما كان النزوع الى العدوان والغيرة على الشرف والعرض من سمات أعضاء الطبقات العليا فقد اضطروا الى أن يحسموا منازعاتهم بالكلام والاقتناع والمرافعة فى قضاياهم أمام المحاكم والمجلس الأعلى . ومن هنا أصبحت الخطابة وفن الاقناع شرطاً للنجاح ، وكان على طلاب المناصب والساعين الى مراتب الشرف والمجد أن يجتازوا مراحل معينة محفوفة بالصعوبات ، بغية استبعاد تميز الأكفاء ، وكان من شأن القواعد التى تشترط بلوغ سن معينة أن تحد من تطلعات الشباب ، وأدى هذا الى تحقيق مبدأ « المساواة بين القلة المختارة » .

وفى حين جنح الرومان الى التفاخر بالأنساب والتباهى بالمراتب والمقامات الرفيعة فإنهم لم يصروا على « نقاء الدم » ، فكان أى رجل من آل اميلْيوس لا يفقد شيئاً من حقوقه اذا انتسب بالتبنى الى آل كورنيليوس أو فابيوس ، وقد تساهل الأرستقراطيون الرومان فى مسألة العلاقات الجنسية ، وتفاوضوا عن الكثير من المحاذير فى هذا المجال ، وتستروا على النتائج المترتبة على ذلك ، ولم يكن أى زواج نال يكفل الشرعية ، وكان أولاد الزنا ينسبون الى الآباء الذين أنجبوهم ، بيد أن روما لم تجز تعيين أولاد الرنا فى الوظائف العليا أو فى مناصب قادة الجيش والدوقات والأساقفة والكاردينالات كما هو الحال فى بعض المجتمعات الأوربية .

ولم تعرف روما أى نوع من الطبقات الكهنوتية المستقلة ، وكان القسيس يتولى القضاء ، ووضعت الحكومة الدين فى مكانه الصحيح ، واتخذته وسيلة للتأثير فى الجماهير أو تخويفهم على حد قول بوليبى أحه الساسة الأجانب مبدياً موافقته على ذلك .

وكان الشعب الامبراطورى مولعاً بمظاهر الأبهة ، وإقامة الاحتفالات ، وتنظيم المواكب . وتشجيع الجناز ، ولكن الشعب لم يهتم بشعائر النسب والنباله ، وإنما اهتم بتماثيل الأسلاف وشجرات الأنساب ، وأخيرا

لم يعترف الرومان بحق البكر فى الارث كله ، ولا بالألقاب المترتبة على ملكية العقارات أو القرابة ، أو الزواج ، ولكن مثل هذه الألقاب تغيرت أو اختلفت أو تراكت ، فى حين أن طريقة الرومان فى التسمية كانت بسيطة وثابتة ، وكانت الأقدمية المكتسبة فى خدمة الجمهورية تحدد رتبة السناتور (عضو مجلس الشيوخ) .

هكذا كانت الأرستقراطية الرومانية التى استطاعت خلال ٥٣ عاما (تحديد بوليبي) أن تهزم قرطاجة وأن تحطم الممالك وتبسط سيطرتها على العالم .

خاتمة

إذا بدأ لنا أن نعقد مقارنة تاريخية بين المجتمع الارستقراطي في روما وغيره من المجتمعات الارستقراطية وجب علينا أن نتحاشى الوقوع فى الأخطار التى تجرنا اليها مثل هذه المقارنات . والطريق السوى لتتحاشى هذا المحذور هو عقد المقارنة بين المجتمع الارستقراطي في روما ومجتمع ارستقراطي آخر فى العصر الحديث ، هو المجتمع الارستقراطي فى مدينة (بوستون) الأمريكية ، ذلك المجتمع الذى تكون فى القرن التاسع عشر ، ومن بين الأسر التى قامت فى هذه المدينة أسرة « كابوت » وأسرة « لويل » اللتان ورد ذكرهما فى هذه الرباعية الشعرية :

هذه هى مدينة بوستون القديمة الطيبة
موطن الفول ، والقند (سمك البكالاه)
حيث يتساجى آل لويل مع آل كابوت
وحيث يتساجى آل كابوت مع الله وحده

ويرجع تاريخ هاتين الأسرتين الى العصور الحديثة ، بالقياس الى أسره « ونشروب » وأسرة « سولتونستال » (وهى الأسرة الوحيدة التى تحمل الدروع) ، وقد زادت ثروة هذه الأسر الناجمة عن التجارة الخارجية بفضل ممارسة الصناعة والأعمال المصرفية .

يضاف الى ذلك أن التعليم أدى الى توثيق العلاقات بين هذه الأسر ، اذ امتلكت جامعة مشتركة (هارفارد) بكل معنى الكلمة ، وظلت تهيمن على هذه الجامعة زمنا طويلا حيث التحقت تسعة أجيال منها بجامعة هارفارد بين سنة ١٦٥٩ وسنة ١٩٣٩ .

وشاعت المصاهرة بين الأسر فى المدينة ، وجرت على نمط متكرر ، مثال ذلك أن أربعة من كل سبعة من أسرة كابوت تزوجوا من أسرة هيجنسن (من رجال البنوك ذوى الشهرة الفاتقة) ، وأن ثلاثة من كل ستة من أسرة بيبودى تزوجوا من أسرة لورنس ، وكانت المنافسة بين الأسر حادة وظاهرة ، ولكنها لم تؤد الى تجنب المصاهرة على النحو الذى لاحظناه بين بعض الأسر الرومانية ، بيد أن أحدا من أسرة سولتونستال لم يتزوج أحدا من أسرة لويل .

دونالد سيم

كلية والفنن اكسفورد

الهند وأخطار التحليل النفسي

ككشسمى كابانى وفرنسوا شينيه

جاء فى كتاب ظهر مؤخرًا (١) أن الهند تعتبر — من حيث ما يعرف عنها من وفرة فى عدد سكانها من النساء الأمر الذى جعل منها ما يعبر عنه بكلمة « شاكى » SAKTI « أى ما معناه المجتمع الأنثوى — واحداً من آخر مواقع « الأمومة » الحصينة فى العالم . ولو أن هناك حقاً حضارة تختص بالأمومة ، بصرف النظر عن القوانين الشخصية والمدنية ، لكانت حضارة الهند — حيث يترعرع حب الأم لأبنائها ويزدهر وتثبت جذوره فى حرارة التكافل — هى العنصر العاطفى الساحر الجميل ، الذى يلقي بظلاله على الحياة كلها فيها ، ويطبعها بطابع الحب والتآلف العفوى . لقد تشربت الهند المعجزة التى انطوى عليها هذا الحب الجارف المطلق الذى تجسد فى ملايين لاتصى من الأمهات اللاتى ينشرن نوعاً من الأمن العاطفى السعيد ، تشربته فى روحها من الحياة كلها قطرة بعد قطرة . وفيما حول هذا البيت السعيد الكبير انتظمت المجموعة التى تتكون منها الشخصية الهندوسية ، واتسق المضمون الرئيسى للحضارة الهندوسية ، التى تقسم بطابع من التماسك الفذ العجيب . وعندما كانت الشخصية الهندوسية تتكون وتبنى نفسها انطلاقاً من هذه « الوحدة الثنائية » ، فإنها كانت بالضرورة فى حاجة الى محور يدور حوله أو يتجه اليه قطبها المزدوج ، أى قطب التلاحم والانفصال (٢) ، ان هذه هى النظرية العامة التى طلع بها س . كاكار — S. KAKAR الذى يزعم —

المترجم : موسى بلوى

(١) المؤلف هو : سوهمبر كاكار — Sudher Kaker ، والكتاب عنوانه (مودا Moksa) أى العالم الداخلى — الطفولة والمجتمع فى الهند . ترجمه عن الانجليز كلود دافنييه ، وكنت مقدمة كاترين كليمان . ص ٢٤٩ فى النسخة الانجليزية وص ٢١١ فى النسخة الفرنسية .

(٢) ص ٧٠ — ص ٢٤ .

وهو يستند في نظريته على نتائج التحليل النفسي العلاجي لعدد من الأفراد الهندوس ، وعلى الشواهد التي تجمعت مما تمثله المخيلة الجماعية في هذه البلاد (مثل الفلكلور والأساطير وغيرها) - بأنه قد توصل الى الكشف عن منبع تطور الكائن الفرد من حيث مثله الأعلى في الخلاص (MOKSA) في طفولته المبكرة ، وبصفة خاصة في المرحلة التي يستبد به فيها عنفوان الرغبة اللاشعورية لاستعادة فترة وجود « الأم الحنون » الحافلة بالعطف والحنان (٣) .

من هنا كان التساؤل ، من وجهة نظر هذا الفيلسوف المعنى بدراسة الحضارة الهندية والمتبع للطرق المختلفة في التحليل النفسي ، أمن الممكن والمشروع أن تقام صلة بين مذهب التحليل النفسي وبين الحضارة الهندية .

ان تحت أيدينا برهانا عن مشروعية هذا الادعاء فيما يقول به اثنان من علماء البحث في أصول الجنس البشري وتطوره وأعراقه ومعتقداته مما له علاقة بالتحليل النفسي ، وهما « أ . كاردنير A. KARDINER » و « ر . لينتون R. LINTON » . فقد لاحظ الأول بتحليله للعلاقة بين فترة الطفولة وبين نماذج من السلوك في ثقافة سكان جزيرة ألور ALOR ، وهي إحدى جزر السند ، أن الطفل الذي تهمله أمه لكي تعمل أجيرة في الحقول فيحرم من رضعة من ثديها يصل به الأمر الى أن تتكون لديه عقدة الشعور بالحرمان والانطواء على النفس ، والحدق على العالم بأسره . وباختصار فإن افتقار الطفل في هذه الجزيرة الى مفهوم عطف الأم يمكن أن يضيف عليه صفة خاصة ، هي أن يتكون لديه المعنى الدائم للرفض .

ذلك أن أساليب التربية التي خضع لها هذا الطفل ، وأنظمة التغذية والتعليم الأولى التي اتبعت معه ، هي التي لونت الى هذا الحد رؤيته للعالم ، فلم يعد معقولا أنه يستطيع فيما بعد أن يعرف شيئا عن ذلك الحب الذي يشبه العبادة لأمه القديسة ، أو حتى للسيدة العذراء (٤) ، وهو الذي كان رضاعه يتأخر دوما ، أو يؤجل الى وقت آخر . والواقع أن كل شيء يمضي في طريقه ، كما لو أن تلك « المؤسسات الأولية » التي تكلف بالرعاية التي يتقبلها الطفل أو يرفضها ، وكما لو أن طريقة

(٣) م . كاتار - موكشا - ص ١٢٩ ، ص ٨٥ .

(٤) أ . كاردنير « الحدود السيكولوجية للمجتمع » ١٩٤٥ ، ص ٢٣٣ .

تغذية الرضيع واستعباده ، وأنظمة التربية والتعليم الأساسية ، والوضع داخل الأسرة الكبيرة العدد وغير ذلك ، كما لو أن كل هذه قد استمرت واستطالت حتى وصلت الى مرحلة « المؤسسات الثانوية » ابتداء من الفلكلور والأساطير والطقوس الدينية ، الى أساليب التفكير نفسها . ويقول « س . كاكار » فى هذا الصدد ان الوجود الدائم للاستقطاب السحري على النفس ، وخصوبة أسطورة الشعر فى الهند ، انما يجيثان من الأهمية الثقافية بمكان فى التطور الفكرى من النوع الأولى (٥) .

التكافل بين الأم والطفل

ونجد ، على العكس من ذلك ، ان الأثر الذى لا يطفن اليه احد للتكافل المستمر والممتد بين الأم ووليدها ، وهو أثر بالغ العمق مع ذلك فى صميم النفس الهندوسية ، تجعله نزعة التدين المنتشرة فى هذه البلاد يتجه بشكل تلقائى نحو صورة « الأمومة » ، مثلما تبدو الرؤية الربانية وتتحلى فيها قبل أى شئ آخر فى العبادة التى تتجه بأشكال شتى نحو الآلهة الكبرى (٦) . من هنا لا غرابة فيما صنعه أحد زعماء الدين ممن يعرفون باسم « فيفكاناندا VIVEKANANDA » ، ورد ذكره خلال تتبع المؤلف فى تعمق كبير لموضوع « المشكلة الفردية للذكر » ، فقد عمد الى وضع آكليل من الزهور خلال رحلة له فى أوروبا عند قدمى أحد تماثيل السيدة العذراء فى كنيسة صغيرة فى جبال سويسرا وهو يهتف وفقا لما رواه أحد تلامذته قائلا : « انها أم هى الأخرى » . وكما تقول صحيفة « لاليتا شاهزرتاما LALITA SAHASRANAMA » فانه ما من ثقافة أخرى غير الثقافة الهندية قد وجدت على هذه الصورة دور الخلاص الذى قامت به السيدة العذراء ، الذى تمد وحدته الشاملة المشاعر الحية والذاخرة بالطبيعة المتدفقة . ومما لاشك فيه ان هذا النوع من النساء من الطبقة الوسطى - زوجات كن أو أمهات - هو الذى تدين له الهند لكونها قد أجبرت خطر النزعات الانتحارية التى تهدد الحضارة العصرية فى الغرب ، وقاومت طويلا آثارها . ان الشخصية الهندوسية النفسية والاجتماعية التى قامت بنيتها فى عمق نتيجة للعلاقة بين الأم والطفل لا يمكن أن تفوض س . كاكار بالادعاء بأن الهدف من الخلاص يتغذى على

(٥) ص ١٥٨ - ص ١١٠ .

(٦) ص ١٥٨/١٥١ - ١٠٧/١٠٤ .

(٧) ص ٢٦٩ - ص ٢٦٠ .

الرغبة الطفولية في النوبان والارتداد الى كنف « الأم الصالحة » • اول كل شيء لأن التفسير النفسى لآى تجربة دينية لا يلقى مضمونها الميتافيزيقى ، وأى حقيقة لا يمكن أن تكون زائفة لمجرد أنى قد كشفت عن الطريقة الآلية التى تربطنى بها •

وبغير التنكر للتطلع المنتشر والذافع عن أمنية الارتداد الى خفقان الرضاع من ثدى الأم وحرارة صدرها فان الهدف من الخلاص هو على وجه خاص تعبير عن التماس حالة من التكامل الشقيف فى المشاعر ، وهو تكامل يحصل عليه المرء بنوع من التكثيف والتركيز ، وامتلاك الشيء الكثير •

ان الطفل هو بلا شك « أبو الانسان » كما قال وورد زورث WORDSWORTH ثم رده من بعده فرويد • ولاشك كذلك أن اللاشعور عند الانسان قد سجل فى تلافيفه ذلك الفردوس الرائع ، الواقع خارج الزمان والمكان ، والحافل بالنعيم داخل الرحم • الا أنه لا يترتب على كون الانسان قد مر بالطفولة قبل أن يصبح رجلا أن يصبح ذلك ضرورة ماسة لا يستطيع الفكك منها قط • والواقع أن التماس الخلاص يعبر بشكل جوهرى عن النفور من فكرة العودة صغيرا فى صدر أم جديد ، ففىما بين مرحلة الوجود داخل الرحم وبين الخلاص يوجد عدم اتساق أساسى ، يحول دون أى رجعة من الثانى الى الأول •

هل هى عودة الى الرحم ؟

واذا كان الانسان يحاول على وجه التحديد أن لا يولد من جديد وتكون غايته هى الوصول الى الكائن الكامل ، فكيف يمكن تشبيه تطلعه الى الخلاص بالحاجة فى التماس الارتداد الى الرحم ؟ ان صورة الانغماس فى المحيط (أ) لا تعبر عن التحام ارتدادى خادع ، اذ أن طريق الخلاص لا يرتد سلبيا الى حالة ما هو غير متميز أو الى حالة الابهام الأولى التى كان عليها ، فهذا الطريق — على العكس من ذلك — هو مسار البشرية وعملها المتواصل المذهل فى الترتيب التفاضلى الذى يجرى فى مرحلة الطفولة المبكرة ، بمساعدة صيرورة واعية لتطور تبسيطى ، أى بالانتقال التطورى مما هو مركب الى ما هو بسيط ، ومن المتميز الى غير المتميز • أفليس

(أ) Chandogyo-Upanisad - المجلد السادس - ١٠ - ٢/١ ، موندكا ، الجزء

الثالث •

اذن مما له مغزى ان يعدس • كاكار الى الخلط (٩) بين ديمومة التطورات.
النفسية للاشعورية وانزلاقه الى ناحية من الزمن (١٠) ، وبين ما يقال.
له « وراء الزمن » الذى هو الا بدية المحددة التى تشبه تماما الوداع
الأبدى ؟ •

وفيما يتعلق بالسوسنة المغلفة داخل الفكرة التى يعبر عنها بكلمة.
« سامشارا (SAMSARA) » نفسها (أى أن يكون الانسان محكوما عليه
الى مالا نهاية له بالتكرار الذى يتعين على وجه التحديد أن يتولى الخلاص.
سحقه) ينبغى التزام الحذر من الخلط بين ذلك وبين الاكراه على التكرار ،
الذى يعبر من ناحية عن جمود المادة الحية فى شكل اتجاه الى الحفاظ
على التجارب وتكرارها ، ومن ناحية أخرى عن مقاومة التغيير الناتج عن
نوع من الاجراء المنظم ذى الاتجاه الارتدادى •

الثقافة الهندية والتحليل النفسى

يبدو لنا أن الثقافة الهندية قد تلاهمت بصورة رائعة مع بحث.
نفسى تحليلي ، من حيث ان « النفس » الهندية قد عرفت كيف تحافظ
على الآثار الحية للقيم التقليدية الضاربة فى القدم ، كحفاظتها على
الأساطير والطقوس • وينحو كل هذا المضمون المستتر الى اظهار نفسه
من خلال الحياة اليومية العادية •

الا أنه ينبغى - قبل تناول مثل هذا البحث - التزود بمجموعة من
المعارف ، التى تتيح بصورة أفضل فهم تصورات الاشعور فى النصوص
الهندية (١٢) ، كما يتعين بصيغة خاصة أن يقول المرء لنفسه سلفا :
ان المقابلة ليست هى التماثل •

ان الانطباعات التى جمعت نتيجة للتحليل النفسى العلاجى لعدد
من « المرضى » الهندوس ، قد كشفت فى جلاء - وان كان ذلك على مستوى
مفردات اللغة فحسب (١٣) - كم هى فطرية فى الطبيعة الهندية الصميعة
عناصر الثقافة الحكيمة المستقاة من النصوص السنسكريتية القديمة ،

(٩) نفس المصدر ص ٨٤ - ص ٤٦ •

(١٠) يقول فرويد : « يحفظ الاشعور بالأشياء كما لو كانت فى مقبرة فرعونية • »

(١٢) يقوم « كاباني » حاليا بجمع هذه النصوص تمهيدا لنشرها •

(١٣) انظر ص ٨٧ ، ص ٤٩ -

فلسفية كانت أو غير ذلك ، ومن خصائص هذه النصوص صياغة عدد من النظريات النفسية المتضمنة نداء باطنيا يقول بأن الانسان مدعو للعمل الاجتماعي أو الديني ، وبلون هذه النظريات لا يمكن أن تكون هناك دراسة جادة في علم البحث في أصول الانسان والجنس البشرى بصفة عامة . ولقد نلاحظ الى جانب ذلك أنه بممارسة التحليل النفسي في الثقافة الهندية لا يكتفى المؤلف بأن يقدم لنا « العالم الداخلي » لنخبة مختارة من « عدد من الأفراد المتماثلين » (١٤) ، أى من « هندوس ينتمون الى طبقات شعبية مختلفة » (١٥) ظل اللا شعور لديهم مستغرقا في تقليد يرجع الى زمن بعيد انتقل اليهم بشكل طبيعي عبر الأجيال المتعاقبة ، ولكنه استحضرننا بالطريقة نفسها وأسلمنا « عالمه هو الخاص » (١٦) .

أما القارئ المعنى بالشؤون الهندية ، الذى تشتد به الرغبة لوضع ثقته فى « ولف يأخذ فى كتاباته بالتحليل النفسى أكثر من كونه متبحرا فى الشؤون الهندية أو الفلسفية ، والذى يكون عادة متفتحا ازاء الأسلوب التحليل الذى يجد فيه عددا من الصفحات الرائعة تتبدى فيها الخصوبة من خلال التفاصيل الحقيقية التى نحلها فى فصلين متتاليين من الكتاب ، هذا القارئ لا يستطيع طوال الفصل الثانى الذى عنوانه « المفهوم الهندوسى للعالم » أن يتخلص من شعور عميق بالأسى ، سببه الأخطاء الكثيرة والتشبيهات المتعجلة . ولكى يوضح كاكاز « الانتماء الى الهند » ومدى عمقه لدى الهنود اضطر اضطرارا الى تناول المعارف الفلسفية الأساسية فى الهند ، ومنها « موكشا MOKSA » و « دهارما DHARMA » ، و « كارمان KARMAN » وغيرها ، كما اضطر أن يخوض فى موضوع « اليوجا » والتحليل النفسى .

الطبيعة الحقيقية للخلاص

فى نصوص « أوبانيشاد فيديك »

يقصر المؤلف على قوله : « اننى لا أتحدث هنا عن الفلسفة الهندوسية التى تستخدم مفاهيم تجريدية وعقلانية لا يستسيغها غير نخبة مختارة من الكهنة وشراح الكتب الدينية المقدسة » (١٧) ، لكى يصف بهذه الجملة

(١٤) ص ٣١ ، ص ٤

(١٥) ص ٣٦ ، ص ٨

(١٦) ص ٤٢ - ٦٦ ، ص ١٢ - ٣٤

(١٧) المصدر نفسه ص ٤٥

وحدھا ذلك « الهدف الاسمى للانسان » وهو ما يعبرون عنه بعبارة « باراما پورو شارتا PARAMA - PURUSARTHA » ، أى الخلاص (موکشا - Moksa) وذلك فى النص الرئيسى من كتاب « برھاد - آرانياکا - أوبانیشاد BRHAD - ARANYAKA - UPANISAD » الجزء الرابع ، ٣ ، ٢١ ، الذى يشير من خلال مقارنة مشهورة الى الحالة التى تعتبر بلا ازدواجية (١٨) . الا أن الترجمة (١٩) التى يسوقها س . كاكار لهذه العبارة لاتمت بصلة الى النص السنسكرىتى ، الى جانب أننا نجد فى الجزء الأخير اضافة لا يوردها النص على الاطلاق . وفيما يلى الترجمة المذكورة :

« انها بالنسبة للانسان الذى يفت فى سبات عميق حالة ما وراء الرغبة فيه ، بعد أن تخلص من الشر ، ولم يعد يداخله الخوف . فهو فى هذه الحالة مثله كمثل رجل فى أحضان امرأته المحبوبة اذ لا يعود يدرك شيئاً عما هو فى الخارج أو فى الداخل . وكذلك هذا الشخص الذى عانى المعرفة نفسها لا يعود يدرك شيئاً عما هو فى الداخل أو فى الخارج . ذلك أنها بالنسبة له حالة لا ألم فيها ولا عذاب ، حيث تجد الرغبة ما يشبعها ، وحيث لا رغبة الا فى الذات ، وحيث لا رغبة على الاطلاق » .

والواقع أن هذا النص يبدو خاصاً بال اللحظة التى يعتمد فيها « أوبانیشاد UPANISAD » الى وصف حالات الأرق ، والنوم المشوب بالأحلام ، والتماس العميق الذى لا أحلام فيه . والحالة الأخيرة هى التى يسود فيها الصفاء الكامل (سامبرا سانا SAMPRASADA)

ان كل هذه التعاليم قد صدرت عن « ياجنا فالکيا YAJANALKYA » سعيها والتماسها للخلاص (فيموکشایا VIMOKASA) ، الذى مذاقه هو « السعادة الكبرى PARAMA-ANANDA » .

والخلاص كما يستفاد من الوصف الذى جاء عنه فى نصوص أوبانیشاد - وقد كان يتعلق فى جوهره بالفلسفة المجوسية أو بالمعرفة المطلقة (جنانا JNANA) - ليس فى الامكان تشبيهه بتجربة

شعرية أو فنية ، حيث يتناول التعبير عن البعد العاطفى فى طبيعتنا ،
انما الأمر خاص بتجربة صوفية يتعذر وصفها ، لأنها تتجاوز الفكر
وتتخطى لغة التعبير ، فهى الحدس المباشر للكائن ، أو هى استنبصاره .
أو الرؤية المفاجئة التى لا تعتمد على خبرة سابقة ، فتجعله يدرك فى لحظة
ما سوف يقع فى المستقبل ، وهو غارق فى صمته وشفافيته •

يضاف الى ذلك أن مجرد تأويل ذلك بأنه حالة « اندماج » فى المثل .
الأعلى (موکشا MOKSA) لا يكفى لتبيان مدى اختلاف المدارس
والمذاهب التى تمثلها الـ « فيدانتا VEDANTA » وتنوعها (٢٦) •
وإذا نحن تعمقنا فى معانى « البيانات العظمى » أو ما يقال لها « ماها فاكيا
MAHA-VAKYA (٢٧) وفيها عبارات مثل : « أنا البراهمانى » .
(آهام براهما سمي AHAM BRAHMASMI) ، و « أنت ذاك » (تات ،
تفام آزى TAT TVAMASI) (٢٨) نرى أن « سانكارا SANKARA » ،
يصف الخلاص بأنه انجاز من قبل حالة اللا ازدواجية (آدفاتيا ADVAITA) .
وهو لا ينوقف عن ترديد القول بأن : « من يعرف البراهمانى الأكبر يصبح
هو نفسه براهمانيا » (٢٩) •

وحتى بالنسبة لـ « رامانوجا RAMANUJA » الذى يفسح مكانا
فى كتاباته للورع الحار والعفو الالهى فانه يرى أن مجرد التأويل بحالة
« الاندماج » يعتبر شيئا بالغ البساطة ، إذ أنه متى بلغ الخلاص أجله
ظلت شخصية المتعبد ثابتة الى الأبد فى اتحادها ، دون أن تنمحى
أو تزول •

القطب الآخر : شامخيا يوجا

وعلى هذه الوتيرة فإن س • كاكار بالتجائه الى تفضيل تقديم صور

(٢٦) كانت الـ « دارشانانا Darsana » ومنها الـ « شامخايا SAMKHYA »
يوجا هى التى أثرت أكثر من غيرها حتى يومنا هذا بمنهجها الذى يرجع الى «الأوبانيشاد»
فى الفكر الهندى . وكبار الملحقين الخمسة فى هذا الصدد هم : سانكارا ، ورامانوجا ،
ونيمباركا . ومادهافا . وفالايا •

(٢٧) يار BAU ١ ، ٤ ، ١٠ •

(٢٨) جامعة شيكاغو - الجزء السادس ٨ ، ٧ •

(٢٩) موندাকা أوبانيشاد - الجزء الثالث ٢ ، ٩ •

الاستغراق والذوبان يكون قد حكم على نفسه بعدم معرفة القطب الآخر.
 في التأمل الهندى ، وهو المعروف باسم « شامخيا يوجا »
 SAMKHAYA QOGA الذى يصف: خلاص في عبارات تدل على الانعزالية
 (كما يقال) KAIVALYA (٣٠) ، وليس في عبارات تشير الى اتحاد
 او اندماج . ذلك أن الذين ينتمون الى تعاليم ال « راجا يوجا »
 RAJA-YOGA انما يتخذ كل منهم لنفسه نموذجا يقال له
 « يوروشا » PURUSA ومعناه « الرجل » الذى هو الذكر الاول
 (PUMS) (٣١) المستقل بذاته ، والخامل ، والعقيم ، أى أنه مجرد
 ذات ، ومجرد وجود (٣٢) ، وعلى العكس من ذلك تماما فان الطبيعة
 التلقائية العادية « براكرتى » PRAKRTI ، التى هى متطورة ومثمرة ،
 أى أنها هى الكيان الأثنوى على أفضل ما يكون ، هذه الطبيعة غير مدركة
 لما تفعل (آسيتانا) ACETANA (٣٣) ، أما دورها الذى تقوم به
 فهو مقصور على عرض مشهد العالم على الرجل (PURUSA) .
 الذى هو مجرد مشاهد (٣٤) . وان الهدف النهائى للشامخيا التقليدية
 هو العمل عن طريق المعرفة الشاملة بالمبادئ الخمسة والعشرين (بانكا -
 فيمشا تياتا) (٣٥) ، وعدم الربط بين البور وشا والبراكرتى .
 اتباع اليوجا سوترا الا أن يستخدموا الوسائل العملية والمعنوية ،
 والنفسية والجسدية والعقلية للوصول الى هذا الفصل . فالاندماج اذن
 شىء آخر ، وكذلك الانعزال ، الذى يجرد الروح ، التى هى رقيق من
 حيث المظهر: فى تلقائيتها . هذه « الانعزالية » التى يستنفذ فيها الخلاص ،
 كما يقول مذهب الشامخيا يوجا ، اليسنت تعنى أن الحيوية تقوم على
 الدعوة الى أن تتجاوز نفسها فى تلقائية روحية ، حيث تنحية النفس
 وتركها لنفسها تتحول الى توافق للنفس مع النفس ؟

« سميتا » و « سا »

واذا كان الأمر يتصل بمقارنة ، يقيمها المؤلف بين سيكولوجية

(٣٠) شامخيا كاريكا ٦٨ - يوجا سوترا الجزء الثالث ٥٠ . ٥٥ الجزء الرابع ٣٤ .

(٣١) س. ك. ١١ .

(٣٢) س. ك. ١٩ الجزء الرابع ٣٤ .

(٣٣) س. ك. ١١ .

(٣٤) انظر س. ك. ٥٨ . ٦٥ . ٦٦ .

(٣٥) تعليق « جاودا بادا » على س. ك. ٤٤ .

اليوجا والتحليل النفسى (٣٦) ، فيتعين استطلاع التعرجات البارزة الناتجة عن المقابلات الاعتبائية التى تؤكد معرفة تقريبية بالمذاهب موضوع النظر . وليس هناك ما هو أخطر من أن تعقد بدون حذر مقابلة ، على سبيل المثال ، بين الرمزىن اللذين ابتدعهما « فرويد » وهما «CITTA» و «CA» (٣٧) . ورغم الاحتياط التمهيدى الذى يحيط به المؤلف نفسه (٣٨) فإن من يقرأ له يتعرض للوقوع فى عدم التمييز بين أحد هذين الرمزىن والآخر . الواقع أن الرمز الأول وهو «CITTA» يتضمن الفاعليات النفسية ، الواضحة والمبهمة ، الشعورية واللاشعورية . ورمز «CITTA» فى قاموس اليوجا - سوترا « باتانجالى » PATANJALI يقابل « العضو الداخلى » ANTAH-KARANA الذى يتكون من « بودهى » BUDDHI و « آهامكارا » AHAMKARA و « ماناس » MANAS . ولف « بودهى » يعنى الخاصية العقلية لاتخاذ القرار والتمييز بين الأشياء ، وتعبير ال « آهامكارا » يقصد به مركز «الأنانية والأثرة ، وتعبير « ماناس » يراد به مجموع الحواس ، لذا ندرك أن «CITTA» تجمع درجات « النفس » الفرويدية الثلاث : انفعال ، خوقى ، أنا . أو إذا تكلمنا بلسة ال « جونا » GUNA لا تكون « RAJAS » « القدر » (٣٩) وحدها حيث يفور ويتفاعل الشكلا « راجا » « Raga » و « تاما » TAMAS . بل هناك فى الجزء الأسفى ، بالتوافق مع الكائن ، نورشفاغ (ساتفا SATTVA) . وبالمثل فإن ال «CITTA» ، وهى وعاء كل من ال « سامسكارا » وال « فازانا » للحياة السابقة وللحياة الحاضرة ، وتحدد الحياة القادمة ، وتغطى مجالا أفسح بكثير من الرمز الفرويدى .

ويرسم المؤلف وهو مستمر فى نطاق اليوجا سوترا خطأ موازيا بين أسلوب « البراتياهارا » PRATYAHARA وأسلوب الرابطة الجيدة للملاج بالتحليل النفسى (٤٠) . ان تعبیر « براتياهارا » الذى يترجمه بجسارة : « تجمع نمو » ، إنما يحدد بدقة أكثر « انكماش الحواس » . ولقد يمكن الاتفاق معه على أن الانسان الذى ينفصل بصوره مؤقتة عن

(٣٦) ص ٥٣ . يتعين ايشاح أن رقة اليوجا منذ البداية تختلف جذريا عن التحليل النفسى لأن اليوجا لا تنفى مريضا ، فهى تفترض أساسا أن الانسان سليم وفى حالة جيدة .

(٣٧) ص ٥٤ ، ٥٧ .

(٣٨) ص ٥٥ .

(٣٩) ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٤٠) ص ٥٨ - ص ٦٥ .

البيئة الخارجية يحدث عنده تدفق من الصور . اذ أنه عند هذه المرحلة من فنون اليوجا لا تكون الروح قد تركزت بعد . ومع ذلك فلقد يتعين الإشارة الى أن قصيدة التدرين تختلف كل منها عن الأخرى اختلافا تاما . ان هذا الانفصال بالنسبة للمبتدىء فى اليوجا هو المحطة الأولى فى التركيز ، أما بالنسبة لمن يجرى له التحليل فهو الوسيلة لبلوغ مستوى تدفق الصور أو استحواذ المشاعر عليه .

ويلج المؤلف كذلك كثيرا على المرحلة اللاحقة لـ « الرايا يوجا » التى خصصت لـجمل Citta « وحيدة الاتجاه » (٤١) . انها المرحلة المتسمة بثبوت الروح (دهارانا DHARANA) فى نقطة واحدة (ايكاجراتا EKAGRATA) . وهى تتضح من وصف اليوجا الشهير : « اليوجا هى وقف تغيرات الفكر » (٤٢) أو أيضا : « اليوجا هى وضع الفكر فى شكل مستقر تماما » (٤٣) ، وهدفها الأخير ليس هو تحويل الـ «Citta» (٤٤) فقط وانما اسكانها أيضا ، لأنها تقف فى جانب الطبيعة (براكرتى PRAKRTI) . وهنا يكون التناقض فى غاية الوضوح مع التحليل النفسى : ان CA يتكلم ! اما « الانعزال » فلا يمكن الحصول عليه الا بتعظيم واحراق الافتراضات اللاشعورية ، التى هى « جراثيم » « بيجا Bija » لتجسيديات جديدة . من هنا كانت أهمية الـ « اساميرا جناتا سامادهى » التى يصل فيها تابع اليوجا لحالة اللاشعور باللاشعور . هذه الـ « سامادهى » وحرفيا « بدون معرفة الشئ » تسمى أيضا « سامادهى بنير جراثيم NIRBIJA-SAMADHI » .

كوندالينى يوجا

عندما يعالج المؤلف الفيزيولوجيا الدقيقة لـ « الكوندالينى يوجا » فانه يقع فى أخطاء فى غاية الوضوح - وان كانت عارضة - اذ أنه وضع الـ «Citta» فى الـ « مولادهارا كاركا » (٤٥) ، التى هى فى الواقع

(٤١) ص ٥٥ - ٥٦ - ٥٨ .

(٤٢) يوجا - سوترا - الجزء الأول - ٢ .

(٤٣) يوجا - سوترا - الجزء الأول - ١ .

(٤٤) ص ٥٩ ، ص ٢٥ .

(٤٥) ص ٥٧ - ص ٢٤ .

مقرا الـ « كونداليني » وتتحكم في الجنس ، على حين أن الـ « CITTA » بشكلها الثلاثي (يودهي وأعامكارا وماناس) مقرها في « الكاكرا » السادسة ، وهي « آجنا كاكرا » اذ لا يمكن تنزيل الـ « CITTA » الى الـ « ليبيدو LIBIDO » وهي الطاقة الحيوية الشبقية في جوهرها وتمثل فيها غريزة الحياة . رغم أنها تحتويها .

وفضلا عن ذلك فإن يمكن العثور في مناخ اليوجا على هذا الجو المأساوي والرومانسي الذي هو محل البحث .

ان التحليل يعني على وجه التأكيد « فك أجزاء الشيء » ، وجعله في حالة سيولة بعد أن كان في حالة جمود ، وذلك بالنزول به نحو الأصل الذي كان عليه ، بحيث يصبح نسيجه الرمزي لمعانيه الدينية أكثر شفافية . ان س . كاكرا يعود الى هذه النظرة انطلاقا من الكشف الذي توصلت اليه عالمة النمسية « ميلاني كلاين KLEIN » من وجود فجوة بين الشيء الحسن والشيء السيئ ، تساوي الحدين أو قانون اجتماع الضدين ، وبتأثيره قدر لصورة « الأم الصالحة » في الهند ان تتغير الى « الأم السيئة » البشعة (كالي ٠٠ على سبيل المثال) . والواقع أن الكون الحي المقدس في الهند يتخذ بصفة خاصة طابع القرب ، مما يجعله حسن الطالع حيناً ، وجالبا للشر حيناً آخر ، وفقا للتقلبات التي تحكم التصورات التخيلية الخادعة التي كشفت عنها هذه عالمة .

اللينجا ٠٠ شجرة ودعامة مقسمة

غير أنه مثلما كانت تاويلات « كلاين » الخاصة بمرحلة الصبا عن « كرزنا KRSNA » وأسطورة « يوتانا PUTANA » مقنعة (فيما عدا التشبيه القابل للجدل بين كرزنا وديونيس) (٤٧) فكذلك يبدو تفسير قصة « اللينجا LINGA » بأنها استعادة للثقة بالنفس بعد « الأحداث البالغة الحساسية في الطفولة المبكرة » (٤٨) في صورة المغامرة الفريدة في نوعها ، انها تعمد الى تبسيط الأحداث ، مادامت لاتعترف بشعور القداسة والعبء الكبير الذي يقع على المتعبد أمام اللينجا . ولقد يجوز فضلا عن ذلك القول بأن الأصل في هذا الحجر المقام أنه لم يكن

(٤٧) ص ١٩٧ - ١٩٨ (١٤٢ - ١٤٣) .

(٤٨) ص ٢١٣ - ٢١٥ (١٥٦ - ١٥٨) .

يرمز على الإطلاق الى « عضو الذكورة » ، كما كان اتباع فرويد السطحيون يعتقدون لفترة طويلة ، وانما الى الشجرة المقدسة التي تعبد في شكل دعامة مقدسة ، كنوع من المحور المينافيزيقي الذي يعثر عليه في الثقافات المتباينة ، ومصدر لـ « العقد » أو أيضا السرة العضوية التي يتكون منها الكائن المرئي انطلاقا من الكائن غير المرئي . فهذا الحجر القائم ، الذي يستخدم رمزا جسديا بدائيا ، أصبح يستخدم فيما بعد كرمز جنسى . وبصفة عامة ، فان الطريقة المستخدمة اذا كانت تناسب بادرة « كرزنا » قابلة للتجريح ومخيبة للأمل في حالة « سيفا » الذي هو اله الفريزة الجنسية والزهد في الوقت نفسه ، ولو أن المؤلف قد لاحظ « التناقض بين الزهد الذي يلتزم به هذا الاله وبين الفريزة الجنسية التي يرمز اليها » لما استطاع حله الا على المستوى الشفهي .

الرضيع والأم

وهكذا تعرض علينا صورة مؤثرة ومخلصة للعلاقات التي تقوم بين الرضيع والأم . فهذا الانسان الصغير يتفرد - كما هو معروف - بانعدام اساليب التكيف المعدة سلفا ، ويتميز بطول فترة اعتماده على الشخص الكبير الذي تفرض عليه طفولته ومرحلة ما قبل نضجه . ان كلا من الثقافة الهندوكية والثقافة الغربية تستخدم لاحتياجاتها الفسيولوجية الأساسية طرقا للاشباع ونماذج من الردود تتعارض هذه مع تلك تعارضا جذريا . ويسترعى النظر تناقض تجربة الطفولة الهندوكية مع صورة الطفل المعروفة في الغرب ، ابتداء من القديس أوجستان حتى فرويد . ففي مقابل البراة العضوية السعيدة للطفل الهندوسي ، الذي تتيج له فترة اعتماده الطويلة على الغير أن يتدخل حتى دخوله الجامعة الأبوية ، نرى الصورة القاتمة لكائن متالم يائس ، عاجز عن أن يكفى نفسه بنفسه ، مستسلم بكليته للاحتياجات ومتاعب الحياة العضوية ، معرض لأحوال النمو ، وكله آنين وحسرة وغضب ، حامل على كاهله مجموعة من الغرائز التي تدعو الى الرعب والهلع . ان الطفل الذي لم يكبر بعد وهو بالتالي معرض للشعور بأنه محروم من كل عون رباني ، يكون في رأى القديس أوجستان فريسة لنوع من الخبث الحقيقي الذي يغذى لديه الشبق الشهواني والبغضاء . وليس من شك في أن هذا الموقف الذي يتخذه أوجستان ليس موقفا جامعا مانعا ، إذ تلتطف منه الصورة التقليدية للطفل الذي تشمله « الرعاية » المسيحية ، كما كان الحال بالنسبة للطفل يسوع . الا أنه عندما يهتف رجل مثل القديس أوجستان في كتاب « الاعترافات Confessions » قائلا : « ألا من

يذكرني بخطيئة طفولتي ؟ » (٥١) فان الحنين الى مرحلة طفولة مبكرة
كاملة لاثقتاً تتابع الهندوسى البالغ .

وفى مقابل الالتزام الهندوسى باحاطة الطفل بالسعادة مهما كان
التمن وشموله بالعناية والاهتمام بأقصى ما يكون (٥٢) ، تبرز امامنا
الحاجة التى لا ترحم ، التى ينقاد لها فرويد ، فى عمل تربوى محوره
الجوهري رفع عتبة الشعور بالاحتمال الى حد الكبت والحرام ، ويقول
فرويد فى مرارة ان الكرب والكدر هما الاجراء التربوى الوحيد ، مادام
صحيحاً ان الممنوع يضافى فى رأيه قيمة حضارية ، اذ ان البناء الحضارى
يستند على وجه اليقين على مبدأ الزهد فى الفرائز (٥٣) .

وليسوف يحتفظ الهندوسى طوال حياته بهذه المزية ، بفضل مثل هذا
التكافل ، الذى ينطوى على سلامة أصيلة للمشاعر والاحاسيس ،
ولن يتهدد الهندوسى البالغ أى فقدان للروح نتيجة استنزاف الحواس ،
المصحوب بالارهاق والحيرة التى تجعل الانسان يضل عن وجهته . واذا
كان « العصاب النفسى » فى آخر تحليل له هو عذاب الروح الذى لم يمتو
على معناه (٥٤) كما جاء فى عبارة جميلة ليونج JUNG فان تنعم
المرء ذات يوم « بأم صالحة » يقى الهندوسى البالغ من مثل هذا الفقر
الروحي . ذلك أن حرارة القلب التى استمتع بها تبعد عنه كل شعور
بالآلم ، مهما كانت تقلبات قدره ومصيره الذى قد يسببه له « فطام
الحواس » ، والفرق اللانهاى للمعانى الذى كان « نتيحة » فى القرن
الماتى يراه يبرز لدى الانسان الغربى المريض « بالعدمية » وهى أثقل
خفيف فى الوجود .

عند هذا الحد يقدر المدى الذى يبقى فيه مفهوم التحليل النفسى ،
الذى يتغلق على نفسه ، شريكا وضالعا فى شطر جنسى ، حيث الشبق
مرتبط ارتباطا وثيقا وعقديا بالفريزة الجنسية . ويمضى كل شئ ،
كما لو أن المؤلف وقد وصل الى مرحلة النضج يتطلع الى طرد وإزاحة
التسلط المنهجي الذى كان يشرف عليه فى سنوات تكوينه الأولى فى

(٥١) المجلد الاول - الجزء السابع - ص ١١ .

(٥٢) ص ٢٦١ .

(٥٣) عن هذا الموضوع انظر كتاب (تناعب الحضارة) الفصل الاول .

(٥٤) ن- ج- يونج - الشفاء السيكولوجى ١٩٥٢ - ص ١٨١ - ١٨٢ .

الغرب . ومع ذلك فإن الارتياح في أن نوعا من اليقينية (مذهب فلسفى قائل بأن قوى الانسان العقلية قادرة على بلوغ الحقيقة اذا هو اعتمد على هذه القوى بطريقة منهجية) يحوم فى نفسه خلال تأويله وتفسيره ، سرعان ما ينحيا س . كاكار جانبا (٥٥) . ان تأويل المؤلف ، الذى يجد مرسى له فى النصوص « التانترية » (٥٦) . (وهى مذهب هندوسى بوذى قديم) يحدث ما يسمى بنوع من « الاختزال التانترى » .

ان الحاجز العقل الذى استخلصه س . كاكار من التحليل النفسى أو من أسلوب « اريكسون » ERIKSON السيكولوجى (٥٧) قد تبدى فى نهاية الأمر وبه الكثير من عوامل الهبوط والبطان نتيجة لضف بعض التحليلات التى أوحى بها ، مما لا يؤهل لمحاولة الاقتراب من المطلق . فهو غير صالح لمعاودة امتلاك الحيوية للقيام بمبادرة ميتافيزيقية تنفصل عن كل نزعة طبيعية وتجتث كل أنواع العبودية من الوضع البشرى ، تمهيدا لتحقيق « العبور » الثابت من النسبى الى المطلق ، عن طريق التقشف الزائد ، والادراك الروحى الذى يحرر الانسان ، والورع المتسم بالحب . ومن المؤكد أن وصف تجربة الطفولة وحده لا يكفي لرسم بيان واضح « معنى » القدر الانسانى اذا كان المقصود بكلمة « معنى » الجمع بين علم الكائن والقيمة . ومن السذاجة الاعتقاد بأن تقرير « الوقائع » بحالتها الأولية يمكن أن تناسس عليه صحة وصلاحيه تفسير ما للمصير النهائى الذى قدر للانسان . ان الرقيب لا يختار الملامح البارزة وفقا لبعض المبادئ فحسب ، وانما هو لا يستطيع تقييم النعيم العاطفى الذى شهدته مرحلة الطفولة الا اذا تحدد ارتباطها فى الاقتصاد الشامل للمصير الانسانى . فكيف يمكن الحصول على نقويم لهذا المصير فى أبعاده الأخروية والا اذا رفعناه لذروة عالية يستطيع منها التعرف عليه . أخيرا كوحدة واحدة لاتقبل التقسيم ؟ ولأن الانسان فى نقاش مستمر مع نفسه أو مع الآخرين ، ولأن القدر على الانسان أن يتخلص من طفولته كلما تكيف مع مرحلة البلوغ ، فانه يستطيع الاضطلاع بناضيه دون أن يكون عبدا له ، إذ أن الآثار الباقية لديه عن طفولته تضى طابعها على شخصيته . ولكن بغير أن تتسلط عليها أو تعرقها ، وترتبا على ذلك فإن تجربة الطفولة لاتفسر كل شئ ، ولا يمكن لشئ أن يتخلص

(٥٥) ص ٢٠٨ - ١٤٩ .

(٥٦) انظر على سبيل المثال ص ٥٦ - ٥٧ .

(٥٧) انظر ص ٨١ كتاب اريكسون (Childhood and Society) ١٩٥٠ .

من ضرورة الاختيار الأخلاقي الميتافيزيقي الذي يدل على قرار فيما يتعلق
بمعنى الكائن .

ان هناك كذلك ضسوءا قد ألقى على « البعد الجماعى للهوية
الهندوسية » (٥٨) التي استبانت بوضوح فى نظرية « اريكسون » ،
وبصفة خاصة « فان التعميق المتبادل لنفس الفرد والثقافة (٥٩) يجعل
فى الامكان اعادة رسم تطور الكائن الفرد للانسان المتدرج المرتبة » (٦٠) .
وبالنظر الى أن الواقع النفسى له دائما وجهان : وجه غريزى ووجه ثقافى ،
فمن المستحيل التفكير فى احدى الفرائز بغير أن ندخل فى وصفها الاتجاه
الذى تسجله عليها خلال المراحل المختلفة التي تمرى النفس من المدولات
والمصادر الثقافية المترسبة التي تصور الأساطير مساراتها ، ذلك أن
الأساطير تكشف المعانى المحركة للبنية النفسية للفرد أو أيديولوجية
التنظيم الاجتماعى . وكما أنها راسية بعمق فى جهاز ما قبل الإدراك وتعتبر
جزءا لا يتجزأ من كل تجربة فردية ، فان مجموعة المعتقدات والمواقف
والقيم المشتركة مع مفاهيم الموكشا دهارما كارمان (KARMAN) ترسم نوعا
من شبه الواقع (٦١) ؛ ومما لا شك فيه أنه قد يكون ملائما أكثر -
تمهيدا لوصف مثل هذا التصوير الثقافى الذى يصلح ليكون قاسما أعظم
مشتركا للشخصيات الهندوسية وفيه تقع بؤرة التكامل الثقافى - الحديث
عن « جهاز اسقاط الواقع » من أجل استرجاع التعبير الموفق الذى صدر
عن « أ . كاردنر » وبعض الأمريكين المعنيين بالثقافة ؛ اذ أطلقوا عليه
تسميته « a projective reality system » . وربما كان « جهاز اسقاط
الواقع » هذا - والذى لا وجه لاعتراض عليه ولو أنه يحدد منطقا غير
«درك للحياة الاجتماعية - هو الذى تدبى له نفس الفرد والمؤسسات
الثقافية فى أنها لا تشكل فى الواقع سوى استمرارية واحدة ، يتبادل
فى داخلها كل من المجال النفسى الفردى والمجال الثقافى بعد أن أصبحا
متشابهين ، دون أى طارىء تجريبى ولكن ببعض الظواهر الخفية من
التأثير المتبادل . يبقى بعد ذلك أن مفهوم الشخصية الأساسية ، من
حيث نجاحها فى استخلاص هذا الوسط ذى الطابع الاشتراكى الذى
يمثل القاسم المشترك الأعظم الذى يفرضه الانتماء الى وحدة ثقافية ، هذا
المفهوم ربما لا تكون له قيمة الا باعتباره المكان الذى تجرى فيه هذه

(٥٨) المذكور الاول - ص ٢٨٢ .

(٥٩) ص ٢٤٥ .

(٦٠) ص ١٨٦ .

العمليات • وإذا كان هذا المفهوم يأخذ علما بأجهزة التقويم فإن الاقتراب الثقافي يبدو غير قادر على فهم سفر التكوين ويخفق في أن يتطابق كلية مع الواقع الملموس • وعلى غرار الاقتراب الوثيق من فرويد فإن هذا الاقتراب الثقافي ينطوى بدوره على بعض الانتقاصات ، مادام يحال في آخر الأمر الى « المؤسسات الأولية » • وفضلا عن ذلك يكون من الملائم اظهار الفروق الدقيقة في بعض التفسيرات الاجتماعية الوسطى التي يتحكم فيها مفهوم الشخصية الأساسية • وهكذا فإن العالم المتخصص في الشؤون الهندية • سواء كان سيكولوجيا أو فيلسوفا ، والذي يهيب نفسه لهدف إعادة تصحيح التصوير المتكامل عن الثقافة الهندوسية – ربما كان يتعين عليه الامتناع عن أى محاولة لاتخاذ قرار موضوعي •

التغيير الحديث والثقافة الهندية

إن الهند المعاصرة لاترك نفسها لكى تستحوذ عليها القوى التي تسعى الى تمزيقها أو المدمرة في الحضارة الحديثة • وليس الأمر لأن مظاهر التغيير الثقافي تعرض الهند للفرق في خضم الفوضى المتشعبة ، وإنما ما يخشى منه هو أن يترتب على بعض التحولات التي أوجدها في أيامنا هذه التطور التقني وحركة التأقلم الاجتماعي والثقافي واختلاط الشعوب أن تتوقف هذه العملية المستمرة والمتناسقة للتعزيز المتبادل بين النفس والثقافة ، محدثة بذلك ما يثير الاضطراب بشكل خطر في النشاط النفسي الفعال الذي تقوم به المنظمة الاجتماعية • وليس من المشكوك فيه أن النماذج الجديدة للسلوك التي يفرضها سياق التغيير الاجتماعي لاتتفق تماما مع البنية الشخصية التي استقرت بالفعل في المجتمع الهندوسي • وإذا كان صحيحا أن واحدا من أتباع مذهب « فيفكاناندا VIVEKANANDA » قد استطاع العثور على مخرج لها من خلال دوره كزعيم موهوب ، وإن لم يعثر على حل للتناقضات التي أوجدها الخبرة في الاختيار بين أحد حدى البرهان النفسي لقضية التحديث ، فإن الفرد الهندوسي المعاصر – الذى أعفى تقليديا من كل مسئولية شخصية ازاء الحركة ، ولكنه يواجه الآن بالحاجة الى عملية إعادة ضبط لنماذج سلوكه الحالية – يشعر بأنه في حالة انعدام أمن متزايدة من حيث انه محروم من حد الأمن الانفعالي الذي كانت الثقافة التقليدية توفره له • وكما أن مقاومة التغيير واحدة من الخصائص الجوهرية في التكوينات اللاشعورية فإن مشكلة المقاومة المصاحبة التي

تحول أو تحد من التعديل البنوي في الشخصية الهندوسية تطرح
نفسها بصورة حادة • ان صلاحيتها الدستورية التي تحول دون إعادة
تفسير وضبط النماذج القائمة تجعل في الامكان توضيح بعض ردود الفعل
المدافعة عن الراديكالية السياسية التي صارت الهند هذه الأيام
مسرحا لها •

لاكشامى كابانى

جامعة باريس

وفرانسوا شينييه

علم الاجتماع فى أزمة

جيوڤانى بوزنيو Giovanni Busino

الموضوع الذى أعرض معالجته بإيجاز هو بالتأكيد موضوع صعب ومعقد ، ولكنه بالأخص حافل بالخلافات فى فلسفة العلوم ، وفى تعقيدات التفسير ، ويجب - محاولة لتجنب هذه الفخاخ - وضع بعض الحدود الأولية والتذكير ببعض بديهات التحليل الاجتماعى .

لا ينكر أحد أن علم الاجتماع ، منذ ظهوره على مسرح الفكر فى المجتمعات الصناعية الأوروبية ، قد أكد دوما نزعة العلمية بصورة نساملة ومطلقة فى الكثير من الأحيان ، وطالب بحق وصف وتفسير التقنيات التى تتيح للمجتمعات الانسانية أن تفكر وتحكى وتعمل وتنتج . وتستنسخ كل الروابط الاجتماعية ، تبعا لعمليات ظاهرة أحيانا وخفية أحيانا أخرى ، وباختصار أكد علم الاجتماع منذ فجر تاريخه أن العالم الاجتماعى يمكن تماما تفسيره رغم تنوعه وتباينه الظاهرين ، وأنه من الأوفق فى دراسة المجتمعات تطبيق نفس النماذج الإدراكية التى يستخدمها العلم . وحدة العلم هى الضمان لمعرفة صحيحة وموضوعية وصالحة للكافة ، ومن ثم لم يكن لعلم الاجتماع الا أن يختار القواعد المنهجية للعمليات التحليلية والبراهين الاستنتاجية والاستقرائية ، وبالأجمال لنموذج العقلانية التى نراها مستخدمة بنجاح فى الرياضيات .

لقد اعتقد علماء الاجتماع اعتقادا راسخا لزم من طويل أن هذا المذهب الطبيعى المنهاجى (كل العلوم تملك منهجا فريدا) سوف يكشف عن خفايا العلم ، ويكفل لهم وضوح الظواهر الاجتماعية ، ويضمن فى الوقت نفسه مشروعية علمهم .

المترجم : أحمد رضا محمد رضا

وهكذا فإن العلم ، وهو عقيدة عامة ووسيلة أكيدة لاكتساب اليقين يصبح بمثابة الحماية العليا ضد التناقضات والمنازعات -

كان العلم فى نظر الأسلاف المؤسسين اجراء يضمن صحة الوصف والبرهان ، ويصحح الفروض والنظريات ، وهو قيمة فى الوقت نفسه وبنوع خاص ، بل هو نموذج الحقيقة نفسها -

كان الاختيار ، وبالأحرى الاختيار الوجودى لصوبولوجيا (علم اجتماع) علمية فى نظر فرجسون الى كونت ، وباريتو الى دوركايم ، وفيبير ، يتبدى بمثابة عرض لأزمة المجتمعات التقليدية ، واضعاف وظائف الدين فى تنظيم أقدار الأفراد والجماعات وفى التكامل الاجتماعى (١) - وعلماء الاجتماع هؤلاء يفترضون ، بالفطرة أكثر منها بالفكر أن العلم يجمع ويهذب وظائف الدين ، بل يجعلها أيضا أكثر نجاحا ، حقا ان علماء الاجتماع هؤلاء ، وبالأخص بارينو وفيبير (وبأسلوب آخر ميشيل ، وسيميل) لم يخطئوا فى خصوص التأثيرات النافعة أضروب التقدم العلمى ، ومع ذلك لم يتصور أى منهم أن مصير علم الاجتماع يمكن أن يتحقق تبعا لمسار آخر خلاف مسار العلم نفسه -

هذا الاختيار لعلم الاجتماع كعلم للدراسة منهجية والمعرفة المنظمة والمراجعة فى نمط تصورى معنى ، كان من الضرورى أن يتضمن فى الوقت نفسه انضماما صادقا ومطلقا لمفهوم العقل باعتباره مجموعة من القواعد الضرورية والكافية للمعرفة ، والتعريف ان لم يكن بالموضوعات الاجتماعية ، فعلى الأقل بمراجعتها ، ولم يحدث شيء من ذلك - ومن الجانب الآخر للاختيار الظاهر ، كان لكل عالم اجتماع ممارسة خاصة بالعقل العلمى ، فأحيانا كان هذا العقل « العلمى » مجرد قانون استكشافى ، بل انه ملكة سيكولوجية تزود الانسان بملكات ادراكية معينة ، وأحيانا بمثابة الأساس التام للأشياء أو علة وجودها ، وأخيرا بمثابة طريقة العثور على الحقيقة أو البراهين - ولم يكن هذا كل شيء ، ففي رأى أدولف كتيليه وفردريك لوبلاى مثلا أن الرجوع الى العقل العلمى له هدف آخر هو التذكير بوزن الحقيقة وتكوينها الهش ، ومن ثم الالتزام بقبول ما هو موجود ، واحترام العرف ، فى حين أن هذا الرجوع كما يراه الكثيرون يزودنا بأداة لقياس الوضع الحاضر والأسباب الباعثة على تجاوزه -

وفى هذه الظروف يكون من العبث البحث فى تاريخ علم الاجتماع عن نظرية صورية للعقل أو مذهب يحدد قواعد العقلانية الصوبولوجية

أما النظريات المادية فإنها بالعكس كثيرة ، وهي نظريات تنسب العقل إلى حقيقة ما على أنها مبدأ مفروض بصفة أولية ، كالطبيعة والتاريخ . وحتى كونت ، وسبنسر اللذين يقابلان بصراحة المعرفة العقلانية بالمعرفة التجريبية ، فإنهما لا يفصلان أبدا نظريتهما في العلم عن التاريخ والطبيعة . والآباء المؤسسون لا يفعلون أحسن من ذلك ، ومن ثم كان تأرجحهم المستمر من الغاية النقدية إلى الوضع التحفظي ، وتردداتهم بين المقتضيات الأخلاقية والتعبيرية والضرورات الإدراكية ، بين هدف التخطيط الاجتماعي والعزم الاستبطاني المشتق من وضع خاص في الزمن ، بين التطلع إلى تغيير النظام الاجتماعي وحالة الفضول الفكري البحت لدى من يكشف الستار عن لغز الحداثة الكبير (٢) .

حين أعيد قراءة علماء الاجتماع القدامى ، ينتابني دائما شعور بأن العقلانية - وبخاصة عند الألمان والإيطاليين والفرنسيين - ليست موفقا بفدر ما هي اعتقاد ويقين بأن أنوار العلم تضيء التجربة الاجتماعية ، وهكذا تتكشف شيئا فشيئا أسرار الحياة في المجتمع .

لم لا نقول هذا ؟

إذا قابلنا تحولات العقل الاجتماعي بتاريخ تحولات مفهوم العقل كما حللها هوسرل ولوكاك ثم هورخيمر (٣) ، تبين لنا بوضوح ضعفنا الفكري ، فبينما حاول العلم الأوروبي انتزاع العقل من مجال الاحتمال بواسطة عملية استقصائية حقيقية تستهدف إثبات كل ما فيه من انحراف وضلال ، فإن علم الاجتماع يتعجل عمليات الاختصار . ويستنير فرديناند تونيز في عام ١٨٨٧ الانقسام الذي لا يمكن علاجه (٤) ، فهو إذ يواجه «الجمنشافات» «Gemeinschaft» «بالجسيلشافات» «Gesellschaft» وينسب إلى هذه الأخيرة - وهي شكل حديث للنظام الاجتماعي - احتكار العقل والعقلانية ، فإن تونيز يربط العقل والعقلانية بشكل من أشكال النظام الاجتماعي وبعصر تاريخي معين ، فالمجتمع - في مقابل الجماعة - يختلط بالعقل المجرد ، ويختلط العقل المجرد بالعلم . ومع أن تونيز يقول بصراحة أن التاريخ له معنى إيجابي يتجلى عند تحول المجتمع التقليدي إلى مجتمع صناعي ، فإنه مع ذلك ينسب تفكك المجتمع التقليدي وهدمه - وهو الذي يتمتع بقيمة إيجابية أو مجازية وواقعية - ينسبه إلى العلم وتجريداته . وفي المجتمع الحديث يحل المجازي محل التعبيري والصوري ، والمهمة محل الأفراد . والمعروف أن مثل هذه الدعوى قد دعمها جورج سيميل الذي جعل من المال في مستهل هذا القرن رمزا للتعلق في مقابل التخلي ، والفكر في مقابل الشعور . وينتهي سيميل

سنة ١٩١٠ ، في *es Hauptprobleme der Philosophie* ، الى نيلز العقل ،
وآنف نظرية عن المعرفة ، وفيها الشعور والارادة والاستبصار (الحس)
والحساسية هي وحدها التي تشغل مكانا محمدا ، وبعد ذلك يقطع صلتها
بعلم الاجتماع ، ولهذا السبب فان علماء الاجتماع يقرأون كتاباته فقط
اعتبارا من الخمسينات (٥) .

وقبل ذلك ببضع سنين ، في عام ١٩٠٢ كان فيرنر سوهبات في
كتابه : *Der moderne Kapitalismus* قد حول العنانيه الى خاصيه
تفنيه ، وأسلوب منهاجي يضمن تكافؤ الوسائل للوصول الى التحكم في
الطبيعة والغايات (٦) . والراسماليه ، على المستوى الاقتصادي والاجتماعي
هي التي تحقق بالكامل مثل هذا التكافؤ ، وعلى هذا المسار - ولكن بمزيد
من الدقه وحدة الذهن - يجعل ماكس فيبر من الراسماليه الشكل
الأكثر فعالية ، ومنطقا لعمليات عقلنة الروابط الاجتماعية في المجتمعات
الحديثة ، ومن ذلك الحين ، أصبحت طرق علماء الاجتماع مختلفة كثيرا
عن الطرق التي اتبعها ديكرات وكانط وفيششت وهوسرل وأخيرا
فنجنستين ، فبابتعادهم عن الفلسفة صار في مقدورهم بمزيد من
السهولة تحويل العقل والعقلانية والتعقل الى أداة تنتج أبواب المستقبل
الناريخي للمجتمعات الحديثة وتجعل منها عاملا لتفسير الراسماليه
ومتتقاتها ، ونتائج هذا التحول عكسية : فالعقلانية العلمية بهذه
الصورة قد اقتصر على استخدام الوسائل والاجراءات المناسبة لتحقيق
غايات معينة ، ويظل هذا الفكر - وهو شكل غائي من أشكال المعرفة -
هذا الفكر الذي يحصى يظل أساسا فكريا آليا .

وعلماء الاجتماع ، وهم يمزجون الذرائعية بالبرجماتية ، والاسمية
بالواقعية ، والوضعية بالماركسية ، ويقابلون الإدراك والتفسير بالشرح
وما هو فردي بما هو اجتماعي ، فانهم لا يدتوون القلق ينتابهم حيال
ما هو غير عقلاني وغير وضعي ، ذلك لأنهم سوف يعالجون هذه الأمور بكل
الوسائل العلمية .

ويبدى باريتو في هذا الخصوص قدرة جريئة على التخيل ، فالعلاء
سواهم تمامه الرئيسي ، يضعه في فئة كبيرة يقابلها فئة أخرى : «المعقول»
ويقول أنه عمل منطقي ، و « غير المعقول » ويقول انه عمل لا منطقي (٧) .

أما الأعمال المنطقية فانها تشكل « العمليات التي ترتبط منطقيا
بأنرض منها ، ليس فقط بالنسبة للشخص الذي يؤديها ، ولكن أيضا

النسبة للذين عندهم معلومات أكثر اتساعاً ، أما سائر الأعمال ، فيقال بالطبع أنها « لا منطقية » ، ويوضح بارينو أن هذا لا يعنى أنها « مخالفة للمنطق » ، من ذلك أن « اللامنتطقى » هو مجال المنازعات والانفعالات والمؤثرات والتصورات والمشاعر والغرائز . ويجعل العلم فى الامكان صياغتها صياغة مقالية (استدلالية منطقية) ، ويكشف عن تفوقها فى السلوك والتصرفات . ويعد اساليب لتنظيم المواقف والأفعال دون التمكن من ارجاع هذه الى أسبابها الحقيقية ، وتصرفات البشر هى أساسا لا منطقية ، ولكن فى مقدور العلم أن يكشف ما فيها من منطق مخبوء ومدفون ومستتر .

ولا يعمل فرويد شيئا خلاف ذلك ، مع عقلنة الدلالات ، والاكرام الدفاعى ، والتكوين الارتكاسى . ويبقى اذن « اللامنتطقى » وهو متغير متخلف ، يبقى بمثابة تخلف وانحراف ومقاومة وهامشية (حدية) وكبت وبدائية الخ .

ان التمييز بين البواقى والانحرافات ، بين الأعمال والقيم ، بين موضوع المعرفة وصاحبها ، والحياد بالنسبة للغايات والقيم ، وتحديد علم الأخلاق ، والإبعاد المعيارية والتعبيرية ، كل هذه تخلق وهما بأن فى الامكان الأخذ فى الاعتبار العوامل الاجتماعية ، من الناحيتين الموضوعية والعلمية ، ويبقى الثمن الذى يدفع نظير هذا السراب فادحا : فالمعقل ينزل الى مرتبة عامل من العوامل المكونة لمعصر تاريخى ونظام اقتصادى واجتماعى ، ويختزل الى مجموعة معارف المنطقة الرياضية الخاصة بالطبيعة ، فيسمح بالتكهن اعتبارا من الحقائق السابق ملاحظتها ونتائج الملاحظات التى يتعين اجراؤها ، وعلاقة الوسيلة بالفاية تفوق القيم والحكم والمعنى .

ونحن لم تقترب قط فى الممارسة اليومية للبحث الاجتماعى من النماذج الحالية للعلوم التجريبية والتحليلية ، كما أن المعرفة الاجتماعية تنتج فقط معلومات منحرفة ، كل ذلك أمر معروف ، ولكنه يعتبر ذا أهمية غير جوهرية .

والمذاهب الأحدث عهدا ، من علم الأحياء الاجتماعى الى علم الاقتصاد الجديد ، ومن الماركسية الجديدة الى البنيوية الجديدة . الا تكمل فى الواقع مفهوم العقلانية باعتبارها مواءمة الوسائل للأهداف المقصودة ؟ تصور نظرية وظيفة المنفعة الشخصية شخصا قادرا على اجراء اختيارات كاملة فى عالم متكامل . ولكنه خال من المعانى ، أما نظرية العقلانية

المحددة ، بامسلوب سيمون . فانها تعد ممثلا له قدرات تقييم محدودة ، ولكنه بطريق التلمس يجرى اختيارات للتكيف والبقاء ، حتى النظرية التى تطرح مبدأ أن العقلانية تتأثر بالانفعال - وهى طاقة قابلة لتوجيه انتباه الانسان الى مشكلات خاصة فى لحظات معينة - حتى هذه النظرية نعتبر الحدث والاحاسيس وثيقة الصلة بالموضوع حينما تتيح اهتمام الانسان باطلاق حركة التكيف التطورى (٨) . ومع ذلك فان هذه العقلانية الاجتماعية هى عقلانية آلية لأنها تكيفية ، وهى تكيفية لأنها آلية حقا ، ان النماذج التطورية الاخيرة لا تتطلب الكمال الشامل ، ولا الهدف النهائي ، ولكن هل هو تقدم حقيقى أن « يقترح » الانسان الاتجاهات التى يمكن أن تجرى فيها العمليات العقلانية ؟ اننا نبقى هكذا فى مجال « العقل الآلى » القادر على اكتشاف مسائل جزئية ونوعية ، ولكن لا نعرف كيف نختار ونرتب بالتدرج بصورة ملائمة المقاصد والاهداف ، وكيف نسوى الخلافات الناشئة من تعارض القيم والهدف النهائي الذى يتعين الاتجاه اليه . ان انعدام اليقين فى مضمار البحوث، والاستحالة التى كنا الى الآن نعانيها لنحصر أوضاع التفاعلات (بين افراد) وننظمها ، رغم الجهود التى يبذلها اصحاب نظريات الاختيار والبنائيات السيئة ، تذكرنا دائما بأن العقلانية التى تخضع العناصر الإدراكية لتحقيق الأهداف المتباعدة التى لا يهتم بها العلم ، هذه العقلانية تبقى اعتقادا يبدى افتراضات بمعرفة علمية ، انها ليست سوى محاولة بسيطة لأن يعتبر من قبيل العلم تبرير معتقدات معينة وقيم مميزة لمجتمع او ثقافة معينة (٩) .

لم يعد علم الاجتماع - وبالذات لأنه أجرى اختزالا ذرائعيا فى الربط بين المعرفة والعمل ، وبالذات لأنه فصل بلا روية ما هو ادراكى عما هو معيارى وعما هو تعبىرى ، ولأنه لم يعط أى تفوق للكائن فى علم الأنطولوجيا ، وللدراك فى نظرية المعرفة ، وللقيم والمعانى والتعبيرات الرمزية - لم يعد علما ولا ضميرا للمجتمع ، لهذا السبب نتكلم عن أزمة علم الاجتماع ، فتساءل عن مهمة الأخصائى الاجتماعى ، ومهما كان الأمر ، فهناك شئ يبدو مؤكدا : أن العجز الإدراكى لعلم الاجتماع ، الذى هو فى الآونة الحاضر آفة خطيرة ، يخشى أن يصير حتميا اذا لم نعمل بسرعة شديدة على تغيير عاداتنا الفكرية حتى تكون ملائمة .

ترى ماذا نستطيع أن نعمله لنخرج من هذه الأزمة الطويلة
القاسية ؟

كتب برودل متهمًا في خطاب استلمه أحد مراسليه قبل وفاته ببضعة أسابيع ، كتب يقول : افترض أن علم الاجتماع أسلوب خاص لمعقولية المجتمعات الحديثة الصناعية ، ومعرفة خاصة مدرجة في سياق تاريخي معين . ولنفرض أن ملاءمة ومشروعية هذا الأسلوب من المعرفة يصدران عن هذا الطرف التاريخي ، وأدخل علم الاجتماع في التاريخ ، فسوف تخرج هذا العلم من الهزال الذي هو فيه في الوقت الحاضر .

ويبدو لي أن ارتباط علم الاجتماع بالتاريخ بصورة مبهمة حقيقية ظاهرة للعيان ، ومع ذلك أتذكر في أن بمقدور التاريخ أن يخرج كلية من هذه الأزمة التي كتب عنها المأسوف عليه الفيلسوف أوجين جودنر *Avin Gunder* صفحات تتميز بنفاذ البصيرة بصورة نادرة (١٠) . فالواقع أنه إذا كان علم الاجتماع ينتمي - كما اعتقد مع برودل (١١) *Braudel* - إلى نمط معين من المجتمع ، ويبني المجتمع اعتبارًا من تصور ما ، وكانت الكلمات التي تستعمل لوصف الحقيقة الاجتماعية تسهم أيضًا في انتاجها وتنظيمها ، فكيف إذن يتأتى لهذا الفرع من المعرفة أن يحل ويشرح شرحًا موضوعيًا ، من الخارج تقريبًا ما أسهم في بناؤه ، بغض النظر عن فكر الذات العارفة ؟ إذا كان عمل علم الاجتماع (التمييز ، التعريف ، التصنيف ، التسمية) يلصق من الخارج على ما سبق حصره نظامًا مزودًا بمعنى ، فما هو النظام العلمي الفلسفي للفتات التي يتحقق بواسطتها أو بالفعل تصور المعاني ونسبتها ؟ لقد أثبتت مذاهب الإدراكية ، والتأويلية ، والمنهجية السلالية ، والنظرية الراسخة ، والنزعة البنيوية اللاحقة . أثبتت (١٢) بطرق متباينة بالتأكيد الصعوبات في انشاء معرفة عالمية على أحداث معينة ، ومزج المعاني الخاصة بلغات معينة في مجموعة متماسكة .

وعلى ذلك فما العمل ؟ هل ينبغي الاكتفاء بتفادي مشكلات اللغة المتعلقة بالملاحظة ، والاستقراء ، وبأسلوب بوبر أن يستبدل بالاستدلال التفتيد (النقض ، الدحض) . أي طريقة التجربة والخطأ ؟ هل ينبغي ، إذا لزم الأمر ، وتبعًا لاقتراح هوسرل *Husserl* اختراع أساليب خلاف الأساليب التي تتبعها العلوم المسماة بالوضعية ؟ أو أننا مفضي علينا بالنزاع الأبله بين علم الاجتماع العلمي وعلم الاجتماع الأولي بين المذهب الكمي والمذهب الكيفي ، بين العلمانية والمساءلة الجمالية ، بين النسبية المطلقة وكثرة التفسيرات وبين الحشو والتلاعب بالألفاظ ؟ ليس عندي حل اقترحه ، ولكنني أرى أن الوضع الراهن لا يحتمل ، ويجب الخروج من المازق ، فلنحاول ذلك على الأقل . بادئين بالتمييز بين العقل والبرهان .

العقل Raison قدرة وقيمة ، انه أسلوب تكوين الفرد الاجتماعي ويعطى هذا الأخير « امكانية أن يجد ويعمل لنفسه شيئا له معنى في المدلول الاجتماعي القائم » (كامسترريادس Castoriadis) انه تكيف اجتماعي وإيمان بهذا التكيف ، ويتعين بأن في وسع الانسان أن يعرف ويحكم ويتصرف طبقا لمبادئ ، ويطبق أحكاما منسقة (تحليلية ، تركيبية . وافتراضية) على الأفعال ، ومنذ أيام الاغريق الى يومنا هذا ، تنوع تاريخ هذا العقل وتضاعف . وعرف تحولات وأزمات ، وولد فلسفة « الانوار » ، وكذا التحليل النفسي ونظريات الارتباط باعتباره قدرة منتجة للعلاقات الاجتماعية ، وكذا مذهب « فطرية » الأبنية العقلية . هذا التاريخ ، تاريخ العقل ، أعطى بين ما أعطاه ، مهمة للبروليتاريا (الطبقة الكادحة) ، وأساسا لنظريات التحرير اللاهوتية . هذا العقل ، باعتباره قدرة ، جزء مكمل للانسان « العاقل » homo Sapiens تجلي أكثر فاعل ، وهو دائما بمثابة قيمة في صيرورة حضارتنا . على أن تطور علم الانسان (الانثروبولوجيا) الأساسي بالمعنى الذي يقصده مورن Morin (١٤) هو وحده الذي يمكنه أن يساعدنا على فهم كيف ولماذا يتكون (الأنا) مع الغيرو بهم . ولماذا تعد الجماعات البشرية معان ودلالات ، وتقومها (أى تقيمها) ، واعتبارا من هذه التقويمات تبنى الواقع الاجتماعي وتحوله وتفرضه وتخضع له مثل هذه الانثروبولوجيا الأساسية يمكن أن تزودنا بنظرية عن « الأنا » الحقيقي ، وإعادة العرف الفلسفي الذي تهدم منذ السبعينات بإعلان فناء الانسان » .

اما البرهان *raisonnement* فانه بالعكس من ذلك اختصاص ، انه موقف يتمثل في استخدام المعايير الشكلية التي تكفل الصلات والقرارات ، وتداول عمليات الاستدلال ، أو الدليل (الحجة) ، وإجراء عمليات الاستقراء ، والاستنباط . والتماثل . وبلوغ النتائج .

وتبدو لي أعمال جان بياجيه Jean Piaget (١٥) بشأن نشأة الذكاء عند الطفل أنها أنجح محاولة لايضاح كيف يتكون عند الأشخاص ذوي ثقافة معينة القدرة على إجراء استدلالات « وأفكار مجردة اعتبارا من تناسقات داخلية » ، هذه القدرة ، وهي توازن مثالي « ملازمة لكل نشاط واع » ، ونتاج جماعي ، يعرفها بياجيه بأنها « خضوع لمبادئ المناقض » . واعتراف بضرورة البرهان نفسه » .

على أنه بالرغم من بياجيه ، وتقدم الدراسات في الذكاء الاصطناعي والقصدية والغائية (١٦) ، ورغم أعمال فودور Fodor

وجوسون ليرو Johnson-Laird (١٧) ، وفي مجال البرهان الاحصائي
وأعمال كاهنمان Kahneman وتفيرسكي Tversky (١٨) . فانا لم
نعرف بعد بنية البرهان ومختلف تنظيماته ، اننا نعرف بعض الشيء عن
منطق الاستنباط ، ولكننا نعرف القليل جدا عن سائر أشكال البرهان ،
وبخاصة البراهين الاستقرائية .

وعلى الرغم من بوبر (١٩) ، وكارناب Carnap (٢٠) وجودمان
Goodman (٢١) لم تزل قواعد هذا اللغز - لغز الاستقراء - غامضة
يقول البعض انه لا وجود لها ، ولقد كشف جان بليز جريز
Jean Blaise Griz عن بعض آليات العمليات الجدلية كالتخطيط
وجعلنا نستشعر بأية شروط تنظم موضوع العرض (أو البيان)
تخطيطا يصدقه الوجه اليه . ومع ذلك فان جريز نفسه يجعل من امكانية
قبول الايضاحات والبيانات وتلقيها - حيث نشأت قبل مضمون الجدل
وخارجه - يجعل منها شرطا ضروريا لصحة الجدل . (٢٢)

والترفة بين العقل والبرهان تسمح في المرحلة الحالية لأبحاثنا
أن نرى بأى أسلوب آلى يتدمج فى العالم كل كائن حى جديد ، وينتج
موضوعات اجتماعية بفضل تفاعله مع البيئة ، وبأية كيفية يلحق التطور
فى سلوك كائن اجتماعى تجاه الكائنات الاجتماعية الأخرى فى النشاط
التمازجى نفسه ، وهو غالبا ما يكون رمزيا ، لأن فعاليته بين الأشخاص
مكفولة بعلامات مقبولة ومنقولة بواسطة ثقافة ما . (٢٣)

العقل هو الطريقة التى بفضلها تتجلى العلاقة بين الجسم والوسط
وبواسطته يمكن ظهور موضوعات لا وجود لها بغيره . العقل هو الذى
يخلق موضوعات اجتماعية ، ويضفى عليها معنى ، ويدعمها بانشاء
مؤسسات .

أما البرهان فانه تشكيل عمليات يتسنى لنا اجراؤها اعتبارا من
هذه الموضوعات نفسها التى أعدت من قبل بمقتضى تلك الصفة التى
يختص بها الجنس البشرى ، والتى يسميها كاستوريارس « الخيال
المطلق » أو امكانية اصطناع معان اعتبارا من لا شيء تقريبا .

وإذا كان العقل وظيفة للجنس البشرى تكفل الوحدة العميقة فيما
وراء مظاهر الثقافات المتغيرة ، ففي وسعنا أن نؤكد أن المقتضيات الشكلية
والبراهين المتعلقة باللغات الصورية والطبيعية ، والنظم الشكلية تميز
العكس الثقافة الوجيدة التى تبسط لنفسها مشكلة العلاقات بين العقل
والبراهين . بأن تجعل العقل بصراحة جزءا من البراهين .

والمصاعب الكبرى في علم الاجتماع تصدر عن تلك « النقاثة الناشئة من قبل » كما يقول جريز . فالواقع أن علم الاجتماع - بعكس فروع أخرى من المعرفة التي تطبع المتعضيات الشكلية - لا يتأتى له أن يعزل الأمور السابق اعدادها ، ويتستر على مجال لصالح مجال آخر ، ولا يتيسر لعلم الاجتماع أن يجعل في نظم صورية الموضوعات التي خلقها بواعث أخرى ذات دلالة ، لأنه لا يملك أساسا جوهريا ليجسد اتراقات بين معنى الأحداث البشرية ومعاني البيانات النظرية الصادرة بشأنها (التي لها دائما صلاحية داخلية) ، يضاف الى ذلك التعقيدات الناشئة من العلاقات الغامضة المتبادلة بين التوضع العلمي والمنفعة الاجتماعية . بين نقد توجيهات العمل والطلب الاجتماعي للابضاح .

كيف يمكن اذن تذليل هذه الصعوبات ؟ ذلك بتحليل الممارسات الاجتماعية وجمع الانتقادات الموجهة اليها ومحاولة اكتشاف أساليب !تكوين والتسائج والوظيفة الاجتماعية والالفة الاجتماعية ، وذلك على مستوى اصطناع موضوعات اجتماعية ، وقد يتاح لنا بهذه الكيفية بعض الفرص لنذكر ما يوجه الأفهام ويجدها ، ويضفي الشرعية على المصادر والبديهيات ، والافتراضات . وثمة علم عبر التاريخ ، متصل بمختلف الثقافات يمكن أن يوضح هذه الثقافات القائمة من قبل ، والضرورية ، حتى لتعميم نظرته « الحاجة » لجريز ومدرسته ، ولكن أيضا الادراك السابق للتصرف الاتصالي ، والتفاهم اللغوي كما شرحهما يورجن هابرماس Juergen Habermas في كتاباته الأخيرة . (٢٤)

ان الارتجاجات والدوامات والاستبصارات وفن الوصل والتطعيم واستشفاف البراعم الجيدة في علوم ومعارف متروكة ومهملة ، كما تقدمها لنا كتب ادجار مورن ، تبدو لي بمثابة التقدمات الضرورية لبعث حيوية العلوم الاجتماعية - (٢٥)

الامر كذلك بالنسبة لأعمال لوى ديمون (٢٦) Louis Dumont . فنظريته ، نظرية المقارنة ، التي ينبغي بالتأكيد تحسین صياغتها وتعميمها ، تعطينا من الآن بيانات ثمينة عن المشكلات الصادرة من أن الاطار المعنوي لعلم الاجتماع مشتق من وضع تاريخي خاص ، ومن أنه لا يوجد في علم الاجتماع أية وحدة متميزة ، وأن العناصر الأولى هي مجموعات منظمة ومصطنعة يحكم مكوناتها صلات مترابطة ، وليس لها معنى الا بانتمائها لهذه المجموعات المبنية (٢٧) .

اننى اصوغ هنا بضعة مشروعات ، بينما كان من الأولى أن أعرض بضعة نتائج محددة ، ولكن هل يتسنى لى أن أفعل شيئاً آخر فى لحظة تفككت فيها مجتمع علم الاجتماع وشاعت الفوضى فى معارفه ، وكادت تقائيد المعرفة الناشئة على أنها ادراك وعلم للناس الذين يعيشون فى مجتمع تستنفذ ؟ هل من الأفضل الاحتفاظ بذكرى تقليد ما ونقله حين نعرف أنه ضرورى لنا للتحكم فى التحولات والانحرافات والسراب فى مجتمعاتنا الحالية ؟

وحيال الأخطار الناشئة من استخدام الطاقة النووية فى كوكبنا ، ونمو البيروقراطية فى كل صلاتنا الاجتماعية ، وتجاوزات العقلائية العلمية ، وحيال ما تبين لنا من أن العلم الحديث كله يستهدف – كما كانت الميتافيزيقا فيما مضى – تنظيم العالم واخضاعه والنزول بالانسان والطبيعة الى مستوى اشياء قابلة للتلاعب بها وتداولها ، وحيال تحول عالم منظم بأكمله وخال أكثر فاكثراً من المعانى تحول خبارج الروح النفعية ، وحيال خراب الطبيعة الذى يهدد امكانيات بناء جنسنا البشرى على قيد الحياة ، ماذا فى استطاعتنا نحن علماء الاجتماع أن نفعله ؟

أعتقد أن فى وسعنا أن نعيش مع تطورات العلم والتقنية بكيفية أقل خطراً ، حيثما نستطيع أن نحافظ فى صورة حية نشيطة – الى جانب الفكر الذى يحصى وينتمى الى العلوم الآلية – على فكر يتأمل ويتبصر ، كما قال مستر ايكهارت •

فى مقدور علم الاجتماع أن يسهم فى هذا الشأن ، وفى مقدور علم اجتماع تأمل واستبطانى – كأداة تحرر من الحاضر تنشُد تنظيم شكل واحد محتمل من أشكال الحياة ، وبمثابة الحقيقة الوحيدة • وفكر يتأمل ويتبصر – فى مقدوره أن يتيح لنا أن نتفهم حقيقة الحضارات الأخرى وأساليب المعيشة الأخرى فى هذا العالم ، وأن يتيح لنا مجالاً للمناقشة ، وأن يستشف فى سائر الثقافات بدائل لحياتنا الحاضرة •

جيوفانى بوزينو

جامعة لوزان ،

وجامعة جنيف

- (1) R.A. NISBET, *The Sociological Tradition*, New York, Basic Books, 1966 (tr. fr. *La Tradition sociologique*, Paris, Puf, 1984) ; F. PAUL-LEVY, «A la fondation de la sociologie : l'idéologie primitive», *L'homme*, nos 97-98, janvier-juin 1986, XXVI (1-2), p. 269-286.
- (2) J. HABERMAS, *Theorie und Praxis*, Frankfurt a. M., Suhrkamp, 1971, 4e éd. (tr. fr. *Théorie et pratique* Paris, Payot 1975).
und die transzendente Phänomenologie, Den Haag, Nijhoff, 1959
- (3) E. HUSSERL *Die Krisis der europäischen wissenschaften* (tr. fr. *La Crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale*, Paris, Gallimard 1976); G. LUKAS, *Die Zerstörung der Vernunft* (avec une nouvelle préface), NeuWied, Luchterhand 1962, Oeuvres, vol. 9 (tr. fr. *La Destruction de la raison*, Paris, L'Arche 1958-1959, 2 vol.) ; M. HORKHEIMER, *Zur Kritik der instrumentellen Vernunft*, Frankfurt a. M., Fischer 1967 (tr. fr. *Eclipse de la Raison*, Paris, Payot, 1974).
- (4) A. BELLEBAUM, Ferdinand Tönnies, in *Klassiker des Sozialischen Denkens*, Vol. 1 : Von Comte bis Durkheim, Dirk KASLER éd., Munich, Beck, 1976, p. 232-266 et p. 487-493.
- (5) Cf. H. J. DAHME et O. RAMMSTEDT éd., *George Simmel und die Moderne*, Frankfurt a. M., Suhrkamp, 1984, mais également P.E. SCHNABEL, *Die Soziologische George Simmel und die Moderne Gesamtkonzeption*, George Simmel, Eine wissenschaftshistorische und wissenschaftstheoretische Untersuchung, Frankfurt a. M., Fischer 1974. En français voir : G. SIMMEL, *Sociologie et épistémologie de l'histoire*, Une étude d'épistémologie, Introduction et traduction de l'allemand par R. Boudon, Paris, Puf 1984.
- (6) F. RIZZO, Werner Sombart, Naples, Liguori 1974 ; F. Rapaecci *Judaïsme et capitalisme*, Essai sur la controverse entre Max Weber et Sombart, Paris, Puf 1982.
- (7) G. BUSINO, *Introduction à une histoire de la sociologie de Pareto*, Genève, Droz 1983.
- (8) H. A. SIMON, *Reason in Human Affairs*, Stanford, Cal., Stanford U.P. 1983. Cf. aussi B. WILSON éd., *Rationality*, Oxford, Blackwell 1979; M. HOLLIS and S. LUKES éd., *Rationality and Relativism*, Oxford Blackwell 1982 ; I.C. JARVIE, *Rationality and Relativism*, in *Search of a Philosophy and History of Anthropology* Londres, Routledge and Kegan Paul 1984.
- (9) G. BUSINO, *L'individualisme méthodologique* Lausanne, IASUL 1984.
- (10) A.W. GOULDNER, *The Coming Crisis of Western Sociology*, New York, Basic Books 1970 et, du même, *For Sociology. Renewal and Critique in Sociology Today*, Harmondsworth, Penguin Books 1975
- (11) F. BRAUDEL, *Écrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion 1969.

(12) A. GIDDENS, *New Rules of Sociological Method, A positive Critique of Interpretative Sociology*, Londres, Hutchinson 1976 ; R.A. WALLACE and A. WOLF, *Contemporary Sociological Theory*, Paris Seuil 1975 ; ID., *Les Carrefours du labyrinthe*, Paris, Seuil 1978 ; ID., *Domaine de l'homme*, Paris, Seuil 1986 .

(14) E. NORI, *Science avec conscience*, Paris, Fayard 1982; ID., *Sociologie*, Paris, Fayard 1984.

(15) J. PIAGET, *Etudes sociologiques*, Genève, Droz 1977.

(16) H.L. DREYFUS, *L'Intelligence artificielle, Mythes et réalités*, Paris Flammarion 1984 ; J. SEARLE, *L'Intentionnalité*, Paris, Minuit 1985 ; G. CELLERIER, «La genèse historique de la cybernétique ou la téléconomie est-elle une catégorie de l'entendement ?», *Revue européenne des sciences sociales*, XIV, 1976, nos 38-39, p. 273-290.

(17) J.A. FODOR, *The Language of Thought*, Cambridge, Mass., Harvard U.P. 1975; P.N. JOHNSON-LAIRD and P.C. WASON eds., *Thinking, Reading in Cognitive Science*, Cambridge, Cambridge U.P. 1977, et surtout *Mental Models*, Cambridge, Cambridge U.P. 1984.

(18) D. KAHNEMAN et alii, *Judgement under Uncertainty, Heuristics and Biases*, Cambridge Cambridge U.P. 1982.

19. K. POPPER, *The Logic of Scientific Discovery*, New York, Harper and Row 1968 (tr. fr. *La logique de la découverte scientifique*, Paris, Payot 1982); ID., *Conjectures and Refutations, The Growth of Scientific Knowledge*, New York Harper and Row 1968. Cf. aussi P. JACOB, *De Vienne à Cambridge, L'héritage du positivisme logique de nos jours*, Paris, Gallimard 1980, spéc. les p. 121-176.

(20) J. HINTIKKA éd., *Rudolf Carnap, Logical Empiricism : Materials and Perspectives*, Dordrecht, Reidel 1975 et P.A. SCHILPP éd., *The Philosophy of Rudolf Carnap*, La Salle, Ill., Open Court 1963.

(21) G. GOODMAN, *Fact, Fiction and Forecast*, Indianapolis, Hackett 1979; ID., *Ways of Worldmaking*, Brighton, Harvester 198. Et aussi : P. JACOB, op. cit., p. 177-195.

(22) J.B. GRIZE, *De la logique à l'argumentation*, Genève Droz 1982. Pour certains prolongements de cette problématique voir : R.J. FALMAGNE éd., *Reasoning : Representation and Process*, Hillsdale, N.J., Erlbaum 1975; R.M. FARR and S. MOSCOVICI eds., *Social Representations*, Paris, Ed. de la Maison des sciences de l'homme 1984.

(23) G. BUSINO, *Les Théories de la socialisation*, Lausanne, IASUL 1985.

(24) J. HABERMAS, *Theorie des kommunikativen Handelns*, Vol. 1 : *Handlungsrationalität und gesellschaftliche Rationalisierung*; vol. II : *Zur Kritik der funktionalistischen Vernunft*, Frankfurt a. M., Suhrkamp 1981.

(25) Cf. notamment E. MORIN, *La méthode III, La connais-*

(26) L. DUMONT, *Homo hierarchicus, Le système des castes, La naissance de la connaissance, Livre premier, Anthropologie de la connaissance*, Paris, Seuil 1985.

et ses implications, Paris Gallimard 1979; ID., *Homo aequalis*, Genève et épaouissement de l'idéologie économique, Paris, Gallimard 1977; ID., Essais sur l'individualisme. Une perspective anthropologiques sur l'idéologie moderne, Paris, Seuil 1983.

(27) Cf. G. BERTHOUD et G. BUSINO (éds), *L'expolaration de la modernité. La démarche de Louis Dumont*, Genève, Droz 1984; G. BUSINO, "Pour une" autre «théorie de la comparaison», *Revue européenne des sciences sociales*, XXIV, 1986, no 72, p. 209-216.

(28) Lire à ce propos le volume *Ordre et désordre. Textes des conférences et des ateliers organisés par les vingt-neuvièmes Rencontres internationales de Genève*, 1983, Neuchâtel, La Baconnière

المصادر الأخرى حركة الفنون الزنيجية بالولايات المتحدة الأمريكية

ادوارد • م • آكو

لقد أصبحت العلاقات الأدبية بين البعث الجديد للذاتية السوداء، في الولايات المتحدة الأمريكية (أو ما يسمى هارلم الجديدة) وبين الحركة الزنيجية الإفريقية معروفة جيدا • فنحن نعلم أن شخصيات أدبية إفريقية مثل سنجور ، وداماس وسيزار ، كانوا قراءا ملتهمين للانتساج الأدبي للأمريكيين السود المنشور في مجلات مثل «فرصة» و «العالم الزنجي» (*) • وقد كان غذاءهم الفكرى مستمدا من قصائد لانجستون هيوج ، وكلود ماكاي ، وكونتى كلين ، وجان تومر ، بمجرد ظهورها على صفحات هذه المجلات • وقد ظهرت بعض قصائد هؤلاء الأمريكيين السود فى مطبوعات باريس الخاصة بالسود مثل مجلات « القارات » و « البرقية الإفريقية » و « صيحة الزنوج » وكذلك فى مجلات « عالم السود » و « دفاع شرعى » • وينتمى ذلك بالطبع الى التاريخ الأدبى المعاصر (١) • وعلينا أن نحى

ترجمة : الدكتور جهدى الزيات

(*) تم تقديم نسخة أول من هذا المقال فى أبريل ١٩٨٥ الى جامعة الينوى بالولايات المتحدة الأمريكية •

(١) ميرسر أ. كوك مؤلف كتاب « لقاءات أدبية بين إفريقيا والهند الغربية والأمريكيين السود » ضمن سلسلة الكتاب الأسود فى أمريكا ، دار نشر لويد براون ، لوسى أنجلوس عام ١٩٧٣ صفحة ١٢٦ - ١٤٠ ، وادوارد أ. آكو صاحب رسالة دكتوراه بجامعة الينوى عام ١٩٨٢ (غير مطبوعة) بعنوان « نهضة هارلم والحركة الزنيجية ، علاقات أدبية وآثار متبادلة » ، وعمويل أ. أسبن مؤلف « تأثير العالم الجديد على الأدب الإفريقى الحديث » ضمن سلسلة دراسات الأدب القارن ، ربيع عام ١٩٧٧ ، صفحة ٧٤ - ٩٣ ، وكريستوف ديل فى بحث مقدم الى جمعية الأدب الإفريقى فى فلوريدا بعنوان « ثلاثة ليون داماس بالنهضة الزنيجية » فى ١٢ - ١٤ أبريل عام ١٩٨٠ ، وإيرين دويس جاكسون فى مقالها بعنوان « ظاهرة النهضة الزنيجية وآثارها » فى سلسلة دراسات أدبية باللغة الفرنسية «

فى هذا المجال دور المترجمين كوسطاء أدبيين فى نقل الثقافة على ضفتى المحيط الأطلنطى ، وأذكر فى هذا المقام أشخاصا مثل بوليت ناردال ، وادوارد جونز ، ولويس أخيل ، وميرسير كوك ، من بين العديدين (٢) .

وإذا كانت رياح الشرق الاستوائية قد هبت من الغرب الى الشرق خلال أعوام العشرينات من هذا القرن ، وذلك ما بين أمريكا السوداء وإفريقيا أو جزر الكاريبى ، فلقد حاول بعض المؤلفين الادعاء بأن هدم الرياح « الفكرية » قد عكست اتجاهها خلال أعوام الستينات أوائل السبعينات ، وقد ظهر ذلك جليا فى كتابات البعض ، مثل أوفواتى كودجو فى بحث بعنوان « المثلث العقائدى ، التأثيرات العقائدية المتبادلة بين هنود الغرب الأفريقيين ، والأمريكيين الأفريقيين ، والأفريقيين » ويشير روبرت ج . فايسبورج فى مقال ممتاز تحت عنوان « الاحساس الإفريقى لدى أمريكا السوداء » (٣) ، وبعبارات جذابة - ازدياد الحماس لمعرفة كل ما يخص إفريقيا من جانب المواطنين الأمريكين السود .

وعلى كل حال فإن كلا من المؤلفين السابقين ، لم يعلق أهمية كبرى على تأثير القيم الجمالية الإفريقية والحركة الزنجية على نهضة هارلم الجديدة . وإذا لم يمكننا أن نخصص فصلا بذاته للملاحظات التى ستذكر فيما بعد ، فإنه يمكن اعتبارها على الأقل شرحا هامشيا فى سلسلة دراسات تدور حول التأثير الأدبى المتبادل بين إفريقيا السوداء والأوساط الأمريكية الإفريقية الأصل .

= لما وراء البحار ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٢١ - ٣١ ، وادوارد أ. جونز كاتب مقال « الكتاب السود من المحدثين بالقرنمية فى الثلاثينات وميلاد المدرسة الزنجية » فى مجلة CLE بتاريخ ١٤ سبتمبر عام ١٩٧٠ ، صفحة ١٨ - ٣٤ ، وشارلز لارسون فى مقال بعنوان « الملاحظات الأدبية بين إفريقيا وأمريكا السوداء ، تشابه أساسى » وللنشر فى مجلة المختار الزنجية ، مجلد ١٩ ، ديسمبر ١٩٦٩ ، صفحة ٣٥ - ٤٢ ، ونجانديويس صاحب المقال « دور الأمريكين السود فى الأدب الإفريقى الزنجى » مجلة الكونغو - إفريقيا مجلد ١١ ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٣٣٧ - ٣٤٤ .

(٢) مازلنا ننتظر المعلالة التى توضح دور ميرسير أ. كوك كوسيط بين نهضة هارلم والحركة الزنجية فى أمريكا من جانب ، والحركة الزنجية مع حركة الفنون السوداء من جانب آخر .

(٣) روبرت ج. فايسبورج فى كتابه « الضمير الأسود للعبء عن إفريقيا » فى سلسلة إفريقيا والأفريقيين والأمريكين السود ، دار نشر جرين وود ، وست بورت ، كونكتكت ، عام ١٩٧٣ .

ويجب أن نلاحظ أولا أنه بعد فترة ازدهار في السنوات العشرين من هذا القرن تميزت بحركة جارفي ، يبدو أن الحساس حول افريقيا قد هبط الى أدنى درجة في منتصف الخمسينات . ففي إحدى استطلاعات الرأي التي قادتها مجلة ايبوني اتضح أن افريقيا تحتل المركز الأخير في الأهمية بين الموضوعات المقترحة على القراء لبدء الرأي . ثم تغير موقف الأمريكيين للسود بعد أقل من عشر سنوات ، وكان ذلك التغير نتيجة للوضع الاجتماعي والسياسي على الساحة الأمريكية من جهة وبسبب تطور الأحداث السياسية في افريقيا من جهة أخرى .

وجدير بالذكر أن خطة مارينال وإعلان مذهب ترومان ، عام ١٩٤٧ قد تزامنا مع بداية الحرب الباردة التي تحدت معالمها بقوة خلال اثنتين من الحروب الساخنة ، الأولى هي حرب كوريا التي استمرت من عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٥٢ ، والأخرى هي حرت فيتنام واستمرت من عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٣ ، وفي ظل المناخ السياسي السائد خلال الحرب الباردة فإن كل نقد متعمق للحياة الأمريكية ، في إطار من الثورة ، كان يعتبر بمثابة خيانة عظمى ، ومن هنا ظهرت عمليات مطاردة المارقين . والقوائم السوداء ، وحلف اليمين على احترام الدستور ، وكذلك قضايا التجسس ، وذلك يعني سيادة القيم المحافظة في المجتمع ، وفي هذه الفترة كانت الصحافة تكيل المديح للطريقة الأمريكية في الحياة ، وزيادة معدل الدخل السنوي ، وتمتدح حسنات شبكة الطرق السريعة ، والأسواق المغطاة الفخمة المقامة في الضواحي الراقية في محيط المدن الكبرى ، والتي تبدو بمثابة واجهات عرض للحرية الفردية ، وجنة للمستهلك الحامل لبطاقة ائتمان .

وقد ظهر واضحا اعتبارا من منتصف الستينيات أن حقيقة النسيج الاجتماعي تخفي وراءها انقسامات عميقة ومشاكل اجتماعية خطيرة . وعند هذه النقطة كان المحللون يفترضون أن الطبقة المتوسطة ذات العيش الميسور ، التي ارتضت مصيرها (ونحن هنا نتحدث عن البيض) إذا كانت تعاني من شيء ما فإن هذا الشيء ، هو أزمة روحية سببها وفرة الاستهلاك ، وهو ما أطلق عليه عالم اجتماع سويدي عام ١٩٤٤ لقب « المازق الأمريكي » أو الفشل الكبير للديموقراطية ، وتقصد به التمييز العنصري (واللامساواة بين الأجناس) ، الذي لم يهتز له الوجدان الشعبي آنذاك .

ويبدو أن مصير السود في الولايات الجنوبية ومدن الشمال الكبيرة . وهم من القاطنين في الأحياء القذرة والمنعزلة ، هذا المصير لم يعكس صفو

الضيمير الأمريكى الجماعى الا عندما قامت الحركات الأولى من أجل الاعتراف بالحقوق المدنية للسود فى نهاية خمسين عاما من هذا القرن ، وتمثلت هذه الحركات فى المظاهرات وحملات المقاطعة التى نظمها القس مارتن لوثركنج (٤) .

وقد حاول السود بشدة منذ أن أعلن ميثاق التحرر من العبودية عام ١٨٦٣ أن ينضموا للتيار العام للأمة الأمريكية ، غير أنه كلما أصروا على محاولاتهم تعددت العقبات فى طريقهم نحو اللحاق بهذا التيار . ومع اجتماع عوامل عدة مثل البطالة المتفشية لدى الشباب ، والاستغلال الفاحش من جانب ملاك المساكن غير الصحية حيث يتزاحم السكان السود ، وكذلك القسوة البوليسية ، بات الاعتقاد قويا بأن قوانين المساواة المدنية لن ترى النور أو تدخل حيز التنفيذ . وبدأت حدة الغضب تتزايد لدى السود ، وبالرغم من أن الجمعية الوطنية لتقدم الملونين قد أعلنت شعارها « كلنا أحرار » بحلول عام ١٩٦٣ ، الا أنه فى الحقيقة ، فإن الحرية قد تغيبت عن اللقاء بالسود فى هذا الميثاق .

وبدأت سلسلة من الاغتيالات لقادة السود ، وبسبباسة للشخصيات المشتهية فى تعاطفها مع السود ، مما أدى الى زيادة مخاوف هؤلاء الذين أحسوا أن الأقدار دفتهم كى يصبحوا غرباء فى أوطانهم ، ويمكن أن نخص من بين هؤلاء الضحايا جون كيندى (عام ١٩٦٣) ، ومالكوم اكسى (عام ١٩٦٥) ، ومارتن لوثركنج (عام ١٩٦٧) ، وقد تغيل الكثيرون . أن وفاة رائد حركة الاحتجاج السلمى هو بمثابة علاقة أكيدة على استنكار أمريكا للمسيرة السلمية نحو المساواة المدنية . ومع اندلاع الغضب نزل بعض الشباب من السود الى الشوارع ، حيث أحرقوا عدة ضواحي سكنية ، وبدأ للكثيرين من المسود أن مصيرهم المؤكد هو الابادة ، وإذا رغبوا فى الحياة كمجموعة عرقية متميزة فعليهم بالتعاون مع كل الجماعات البشرية التى يلفظها المجتمع الأبيض فى العالم (٥) .

(٤) أسجل اعترافى بالجليل نحو آلان اشتريجر ، الذى استقيمه منه بعض افكار هذه الفترة والفترة السابقة لها . ولزيد من المعلومات فهناك كتابه « خلفية ثقافية » فى سلسلة مرشد هارفارد للكتابة الأمريكية الحديثة ، (الناشر دافيل هوفمان كامبرج - ماسشوستوس) عام ١٩٧٩ ، صفحة ١ - ٥٠ ، دار نشر جامعة هارفارد .

(٥) ويليام ك. تاب فى كتابه « الاقتصاد السياسى والقرية الزنوجية » نيويورك ، عام ١٩٧٤ صفحة ٢١ - ٣٤ . يستخدم تاب نموذج المستعمرة الافريقية لكى يصف حال الأمريكيين السود كمشعب يزرع تحت نير المستعمرين البيض ، فمثل غالبية دول العالم الثالث ، الدخل السنوى للفرد منخفض ، معدل النمو السكانى مرتفع ، كما أنهم يعتمدون =

ومع توالى الأحداث بدأ البعض يضع نفسه فى خدمة التضال ضد الاستعمار أكثر مما يضعها فى خدمة قضيته الأصلية (الحقوق المدنية) (٦) . وكان لزاما على السود فى هذا التضال استعمارية البيض أن يقوموا بتوحيد فصائلهم فى قوة واحدة من أجل دحض قوى التسلط لدى البيض التى طالما فرضت وصايتها عليهم ، وبذلك لم يكن هناك مجال للانصواء تحت تيار الأمة الأمريكية ، والاجابة حينئذ هى الانفصال ، ففى خلال اجتماع لمؤتمر القوة السوداء فى نيويورك بولاية نيوجيرسى صوت المجتمعون لصالح دولتين منفصلتين ، احدهما للسود ، والاخرى للبيض .

ويعزى جانب من هذا الاندفاع ونفاذ الصبر المتزايد من جانب السود الأمريكيين الى استغلال الدول الافريقية حديثة العهد وظهورها على الساحة الدولية . وعندما زار كوامى نكروما الولايات المتحدة عام ١٩٥٧ ، قبل اعلان استقلال غانا بقليل ، فانه استقبل بحماس فى هارلم وفى الحي الشرقى فى شيكاغو ، وحدث نفس الشيء مع سيكوتورى القادم من غينيا فى عام ١٩٥٩ ، وكذلك مع باتريس لومومبا فيما بعد ، وقد نال هذا الأخير شعبية طاغية بين طلبة جامعة هاوارد عندما أثارهم بتصريحاته ومنها « (٧) لقد شيد الافريقيون أمريكا ، وأنه بفضل السود أصبحت أمريكا قوة عظمى ، وإذا كان الافريقيون قادرين على ذلك فى العالم الجديد فعليهم بفعله فى قارتهم الأصلية » . ولهذا لم يكن مستغربا ، فى ظل هذه الظروف ، أن يشعر الأمريكيون السود بفضة فى القلب عندما اغتيل لومومبا عام ١٩٦١ ، واعتبروا ذلك مشابها لما كان يجرى لهم من عمليات الشنق السريعة على ضفاف المسيسيبى أو فى ولاية آلاباما . وبدأ الكثيرون فى التفكير فى نظام جديد لحياتهم فى أمريكا . وفى مراجعة علاقاتهم بأفريقيا والشعوب الافريقية .

وكان العنصر الأساسى الذى لفت الانتباه وأثار خيال الأمريكيين السود بدون شك ، هو كفاح الماو ماو فى كينيا ، فقد توصل شعب كينيا

== كلية من الوجهة الاقتصادية على الأسواق الخارجية ، والمشروعات ينقصها رأس المال والمibre الفعالة . ويحتك الأجانب معظم الشركات . ومعظم المناصب الرئيسية فى أيدي غرباء فاديين من أماكن بعيدة . وليس لدى الأمريكيين السود أى سلطة تصديرية سوى الأيدي العاملة غير المدربة -

(٦) كتاب جون هوب فرانكلن يحتوى على مناقشات مهمة لهذه الفترة . ويسمى « من العبودية الى الحرية » عن تاريخ الأمريكيين السود . نيويورك . عام ١٩٦٧ .

(٧) مسود فى مجلة ايبونى ، مقال فاريسبورج ، صفحة ١٥ .

خلال نضاله ضده الاستعمار البريطاني الى الاستنتاج بأن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتحريرهم من الاستعمار ، وعندما قارن الأمريكيون السود مجهوداتهم بما يقوم به اخوانهم في كينيا ، فانهم أدسوا بالضعف والخور : فكل هذه التظاهرات من أجل الحرية والاضرابات والمسيرات الى واشنطن كانت عديمة الفاعلية ، وعندما كان مارتن لوتر كنج يبشر بأن تقديم آلام ومعاملة السود قربانا على مذبح الحرية ، على أمل أن ينتهى ذلك الى نيل حقوقهم رغما عن الأعداء ، فان ذلك كان يقابل بالشك فى كل مكان ، وكان لزاما على السود الأمريكيين التأسى بما فعلته كينيا ، ألا وهو اتباع طريقة الكفاح المسلح (٨) .

وهكذا أصبح اسم « ماوماو » مرادفا للكفاح المسلح لدى الأمريكيين السود فى أعوام الستينات من هذا القرن . وفى خطاب القاه مالكوم اكس فى ديسمبر عام ١٩٦٤ فى هارلم قال ان ماوماو أصبحت بالنسبة له رمزا للوطنية الافريقية ، وللكفاح فى سبيل الحرية ، وأنها تمثل ما يجب فعله تماما فى آلاباما ، وجورجيا ، وحتى فى مدينة نيويورك (٩) . ثم ظهر كتاب فرانز فانون بعنوان « عبء الأرض » الذى ترجم للانجليزية عام ١٩٦٣ ، ليعضد نظرية هؤلاء الذين اعتقلوا أن السلاح وحده هو القادر على تصحيح موقفهم ، وعلى حد قولهم فقد أدت القسوة والعنف الى ظروف الاضهاد التى يعيشونها (أى السود) حاليا ، ولذلك فان العنف المضاد وحده هو القادر على اصلاح هذا الخلل . ويعترف كل من هوى نيوتن وبوبى سيل من منظمة الفهود السوداء ، بالفضل الفكرى لفانون حيث يقولان « ان الأحاسيس والأفكار والعواطف التى مزقنا طلت مبعثرة وغير منسجمة ، حتى اللحظة التى قرأنا فيها كتاب فانون ، وحينئذ اتضحت لنا أشياء كثيرة ، وأصبح موقفنا أكثر تحديدا ، وهو ما سمح لنا بتشكيل منظمة سياسية » (١٠) .

(٨) مصطلح « ماوماو » استعمل فى الولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٥٢ ، بواسطة مجلة نيوزويك ، نوفمبر ١٩٥٢ ، صفحة ٤٤ ، وظهر بعد ذلك بمعنى « ينشر الرعب » فى قاموس هاربر ، عام ١٩٧١ ، صفحة ١٠٧ ، وكذلك لدى قاموس الإفريقيات وتأثير إفريقيا الوسطى على اللغة الإنجليزية ، تأليف جيرالد مـ داجليش ، والنشور بواسطة دار نشر جرين وود عام ١٩٨٢ .

(٩) مجلة ايبونى / صفحة ١٤ .

(١٠) منشور فى « الحضارة الفرنسية المعاصرة » ، فصل بعنوان « فرانز فانون وعلاجه بايديولوجية الأمريكيين السود فى فترة الستينات » بقلم ميشلين ريس . ربيع عام ١٩٨١ الجزء الخامس ، رقم ٣ صفحة ٣٧٥ .

وقد أشار ستوكلي كارمايكل ، أحد المفكرين في حركة القوة السوداء ، الى أهمية أفكار قانون حيث يذكر في كتاباته « ان قانون بالنسبة للكثيرين من السود بالولايات المتحدة الأمريكية في طريقه لأن يصبح أحد هؤلاء الذين نستمد منهم جانبا كبيرا من طاقتنا الروحية » (١١) .

وكلما زاد تباعد السود عن المجتمع الأمريكي نلاحظ كما يقول جون هنريك كلارك مجهودا كبيرا لاستعادة الميراث الافريقي المفقود (١٢) . وهنا بدأ تمييز بين صنفين من الزنوج ، هؤلاء الذين بدأ أنهم لا يستطيعون ، أو لا يريدون التخلص من عقلية العبيد القديمة ، وأولئك الفخورون بماضي افريقيا وبانتمائهم للجماعة الزنوجية السوداء ، وانتشرت في الجامعات بدعة النوادي والجمعيات « الافريقية » . ثم حاول الطلبة وبطريقة غير سلمية أحيانا المطالبة بدراسة مقررات ذات علاقة بافريقيا وذلك لاعادة التوازن مع نظام التعليم الرسمي المفروض على السود ، وبالنسبة للكثيرين فان بقاء الشخصية العرقية السوداء في أمريكا مرتبط بصحوة الوعي في افريقيا وبصحوة الثقافة الافريقية ، وبدأ البعض في دراسة اللغة السواحلية ، وذهب آخرون الى المطالبة بتدريس هذه اللغة في المدارس الثانوية (١٣) ، واستلهم المؤلفون الشباب في هذه الفترة - وهم الذين أصبحوا فيما بعد نواة لحركة للفنون الزنوجية - استلهموا أفكارهم من هؤلاء الذين وضعوا مواهبهم الخلاقة في خدمة النضال لتحرير اخوانهم ، فكان طبيعيا أن يستديروا نحو افريقيا ليجتثوا فيها عن المؤلفين الرواد للحركة الزنوجية ، وذلك ليقوموا بنفس دور الكاتب في المجتمع الافريقي التقليدي ، وقد ساعد هؤلاء الكتاب الجدد على ذلك ظهور عدة مؤلفات حول افريقية ، صادرة عن الكثير من الجامعات والمدارس التي وضعت برامج

(١١) كتاب ستوكلي كارمايكل « ستوكلي يتكلم » القوة السوداء ، والوحدة الافريقية ،

نيويورك ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٣٦ .

(١٢) عنوان مقال لجون هنريك كلارك في كتاب « النار السوداء » مجموعة الكتاب الأمريكيين من اصل افريقي - النانرون هم لي راجونز ولاري نيل ، نيويورك ، دار نشر ويليام مورو ، عام ١٩٦٨ . ويختتم كلارك مقاله بفقرة جاءت في كتاب جون فاندركوك « أي جنس يمكن تمثيله برجل ، فطالما أنه لا يستغل مواهبه ، ولا يفتخر بماضيه ، ولا يميز بذكرياته ، فليس له أمل في تحقيق ذاته بشكل كامل » ص ١٨ .

(١٣) مجلة ايبوي ، صفحة ١٨ ، خلال المسلة الانتخابية عام ١٩٦٨ ، اصرح دونالد ريد تغيير اسم منطقة شرق بالتو في كاليفورنيا الى نيروبي ، منملا بان غياب الاسماء الافريقية عن الخريطة الجغرافية الأمريكية سيرك اعتقادا بان الأمريكيين الحقيقيين هم من اصل اوروبي ، أي اعتبار أن المواطنين من الأصل الافريقي ، أمريكيون غير حقيقيين أو دخلاء . ولكن الاقتراح لم ينفذ اطلاقا .

عديدة للدراسات الافريقية ، وقد نال المرجع التقليدى ، الذى ألفه الألماني-
 أخصائى الشؤون الافريقية جان هاينز جان تحت اسم « الثقافة الافريقية
 الحديثة » ، ونال نجاحا كبيرا واسع المدى ، بعد طبعته عام ١٩٦١ .
 وخاصة بعد اختياره « كتاب العام » بواسطة مجلة المكتبات ، ويقول
 مؤلفه فى الفصل الخامس حول طبيعة ووظيفة الادب والثقافة الافريقية :
 ان السحر ما هو الا سحر الكلمات ، سواء كانت تمويذة أو طقوسا خاصة ،
 وسواء كانت لجلب النعمة أو النعمة ، فمن خلال كلمة معينة يستطيع
 الرجل أن يفرض سيطرته على الأشياء (١٤) ، ويتحكم الرجل بقدرته
 اللغوية طبقا للفلسفة الافريقية فى الأشياء ، فيمكن أن يغير طبيعتها حسب
 رغبته ، ويجعلها تعمل من أجله ، أو يطوعها لارادته ، ولكن السيطرة على
 الكلمات يعد نوعا من ممارسة السحر ، وممارسة السحر بالكلمات هي
 كتابة الشعر » (١٥) .

وإذا تركنا كتاب جان هاينز جانبا ، فسوف نجد كتبا أخرى مترجمة
 ساعدت على تعريف هؤلاء الكتاب الشبان (رواد حركة الفنون الزنجية
 فيما بعد) بالثقافة الافريقية ، وبرؤيتها الخاصة للعالم ، ومن هذه الكتب
 نجد « العودة الى الوطن » تأليف ايميه سيزار عام ١٩٦٨ ، و « فصل من
 السنة فى الكونفو » عام ١٩٦٨ ، وكذلك « مأساة الملك كريستوف »
 المصادر عام ١٩٦٩ لنفس المؤلف الأول ، وهناك أيضا كتاب نومان شابرو
 « الذاتية الزنجية وعلاقتها بالشعر القادم من افريقيا وبحر الكاريبى »
 فى عام ١٩٧٠ ، ونجد كذلك لسيزار « مقالة حول الاستعمار » المنشور
 عام ١٩٧٠ ، وكتاب ماري كولينز « الشعراء السود المتحدثين بالفرنسية » ،
 ونستطيع أن نذكر ذلك الكتاب الذى نال التقرير ، والذى ألفته ايلين
 كونروى كينيرى ويدعى « القصائد الزنجية » مجموعة أشعار مترجمة عن
 الفرنسية « فى عام ١٩٧٥ . وجدير بالملاحظة هنا ، أن مؤلفات جان
 هاينز ، وسيزار كانت تظهر تحت رعاية دار نشر جروف فى نيويورك ،
 التى لعبت دورا مماثلا لما لعبته دار نشر ريدر فى باريس فى العشرينات ،

(١٤) كتاب جان هاينز جان « الثقافة الافريقية الحديثة » ، دار نشر جروف . عام

١٩٦١ ، صفحة ١٣٢ .

(١٥) نفس المرجع السابق ، بعض الأفكار المشورة هنا يرجع الفضل فيها الى مفال
 جيمس ارنولد الرائع « استقبال الأمريكيتين السود لسيزار » حوار صعب فى الولايات
 المتحدة الأمريكية » ، وكذلك مجموعة « سيزار ٧٠ » ، تأليف م و م . نجال ، الذى نشر
 فى باريس فى دار مطبوعات سيلكس عام ١٩٨٤ صفحة ١٤١ . وكذلك مقالة نوماس .
 أ . حال ، فى نفس المجموعة وبمنون « سيزار فى عالم أمريكا الشمالية الأبيض » .

حيث قامت بجهود ملحوظة لتعريف قراء الفرنسية في افريقيا وبحر الكاريبي بأعمال المؤلفين الأمريكيين السود (١٦) *

وبدأ الكتاب الأمريكيون السود الشبان البحث عن كيفية الاستفادة من تجاربهم المكتسبة من خلال قراءاتهم في اثراء محاولاتهم الأدبية الخاصة. ويبدو هذا واضحا على وجه الخصوص للمفكرين النظريين للحركة ، ويقول هوايت فولر الذى ساعد على ظهور العديد من الشعراء الشبان في هذه الفترة « لم يكن لوليم شيكسبير علاقة بالروح الثورية التى انتشرت بشدة فى أحياء السود » (١٧) * وقد لاحظ جون أونيل أن السبب يعود ، ولو جزئيا ، الى صعوبة ارتباط السود بكيانهم الذاتى تحت اطياف الأمة الأمريكية أو القيم الغربية ، تماما مثلما هو صعب على الدجاجة أن تكتشف أنها تنتمى الى فصيلة « جالينيسيا » بينما هى منزوعة الريش وتلفحها

(١٦) وهكذا نشرت النسخة الفرنسية للقصة الشهيرة « باتجو » التى كتبها كلود ساكاي ونشرت في دار نشر ريدر عام ١٩٢٩ . ويجب أن نتحدث كذلك عن الدور الهام لبعض المجلات مثل « النصبة الافريقية » التى تنشرها الجمعية الأمريكية للثقافة الافريقية ، ومجلة ماسشوستس التى تساهم بمقالاتها النقدية فى التعريف بالأدب الافريقى فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولنذكر هذه المقالات التى ظهرت فى « للنصبة الافريقية » ، مجلد ١ ، رقم ١ ، صيف ١٩٦٥ ، مقالة من تأليف جيمس ايفى بعنوان « زنجية الرئيس ليوبولد سنجور » من صفحة ١٣٩ الى ١٤١ ، وفى مجلد ١ ، رقم ٤ ، ربيع ١٩٦٦ ، مقالة بقلم ليوبولد سنجور بعنوان « الوظيفة والمعنى للمهرجان الزنجى العالمى الاول » من صفحة ٥ الى ١٠ ، ومن صفحة ١١ الى ٢٠ مقالة بقلم لانجستون هيو ج « عارلم والظاهرة الزنجية فى المسرحيات » ، وفى صفحة ٥٦ الى ٧٤ مقالة بقلم توماس ميلون « أصوات جديده للشعر الافريقى بالفرنسية » وينشر ميرسير كوك كذلك مقالا بعنوان « شعر ليوبولد سنجور » من صفحة ١٢٤ الى ١٣٦ ، الجزء الثانى ، رقم ١ صيف ١٩٦٦ ، وكذلك ايلين كونروى كينيدى لها مقال بعنوان « أربعة شعراء افريقيين » من صفحة ١٠٣ الى ١٠٧ ، الجزء الثانى ، رقم ٣ ، شتاء ١٩٦٧ ، ومقال لميرسير كوك بعنوان « زيارة الرئيس سنجور ، قصة المئذنة الخمس » من صفحة ٧٤ - ٨٦ ، ومقال للكاتب نواى جاريت بعنوان « الزعيم الروحى للظاهرة الزنجية ، تحية الى دينيه مارن » من صفحة ١١٦ الى ١١٩ الجزء الثانى رقم ٤ ، ربيع عام ١٩٦٧ ، ومقال لميرسير كوك بعنوان « شعر ليون داماس » من صفحة ١٢٩ الى ١٣٢ ، وكتب اميل ستيدر مقالا بعنوان « مدخل الى الشعر الزنجى باللغسة الفرنسية » من صفحة ١٣٢ الى ١٣٤ ، وفى سلسلة الوجود الافريقى التى تصدر فى باريس ، كتب توماس كاسيرير بحثا بعنوان « نظرة شاملة لأعمال عبد الله سيدى » عام ١٩٦٥ ، وكذلك كتب ألب باهل كوتوم « غناء البجيرة » فى نفس السلسلة ، عام ١٩٦٥ الجزء الثالث رقم ١ ، وأخيرا أ. س. جرئش فى مقال بعنوان « التكوين الثقافى للكاتب فى افريقيا الواقعة تحت الاستعمار الفرنسى » ، صيف عام ١٩٦٧ من صفحة ٣٤ الى ٤٣ .

(١٧) هويت فولر فى كتابه « نحو جماليات أدبية سوداء » ، نيويورك دار نشر ريل داي ، عام ١٩٧١ ، صفحة ٩ .

نار الشواء • اذن السود هم شعب افريقي (١٨) ، ويجب أن يكون الهامهم مستوحى من التقاليد التي حددها رون كارنجا بقوله « لقد أعلن ليوبولد سنجور أن كل فن افريقي يحتوى على ثلاث خصائص مشتركة : وظيفة يؤديها وانتشار جماعى ثم ارتباط بقضية ، وحيث أن ذلك يتطابق مع تقاليدنا ، فاننا يجب أن نستلهمه كقاعدة نقيم عليها بنيانا يتجاوب مع حاجتنا الحاضرة » (١٩) •

وقد كتب أحمد الحمصى ، وكوفى وانجارا فى مقدمة كتابهما الجامع « فنون زنجية ، موسوعة لأدب السود » ما نقرأ فيما يلى :

« هذا هو الفناء والصلاة ، وهذه هي التعاويذ والطبول تدق للمحاربين ، ومعها أنسام العاشقين تطل من روح باتريس لومومبا ، وكوامى نكروما ، وسيكوتورى ، المكتشفين والأنبياء ، تقدم لكم جوهر الأرواح ، كما تقدم لكم هذه الحقيقة ، وهي أننا نحن البداية ونحن النهاية » •

« أيها الاله الحى مولونجو ، هانحن نقدم لك ابداعات روحنا ، تضحية منا ، وحتى تمنحنا القوة كى نحارب بسلاحنا معركة التحرير ، وحتى تمنحنا أخيرا السلام فى السماوات ، ومرة ثانية سلاما وسلاما » •

وتثير هذه القصيدة حربا أدبية ، يظهر فيها مدى ارتباط المؤلفين بقضيتهم ، وقد لاحظ وودى كنج أن كثيرا من كتاب هذه الحركة يشعرون بهذا الاحساس الذى وضعه فرانز فانون بأنه المرحلة النائية من معركة تحرير الشعب الراسخ فى قيود الاستعمار ، فالمرحلة الأولى هي الهضم ، والثانية هي التحضير للكفاح ، والثالثة هي المرحلة الصعبة حيث « بدلا من اضعاف الاحترام على عمليات تهدئة الجماهير ، يثور الكاتب ، ويجعل من نفسه الموقف للشعوب النائمة ، عندما يضع نفسه فى صورة الكاتب المقاتل ، وخلال هذه الفترة وجد الكثيرون ، رجالا ونساء ، من الذين لم يحلموا يوما بكتابة عمل أدبى ، وجدوا أنفسهم وسط ظروف استثنائية حركت فيهم الدافع للكتابة الى ذويهم ، والبحث عن اللغة التى تغزو

(١٨) جون أرنيل « فنون سوداء - ملحوظات » صفحة ٤٧ •

(١٩) رون كارنجا « الوطنية الثقافية السوداء » ، ٣٣ •

(٢٠) أحمد الحمصى وهارون كوفى دانجارا فى « موسوعة أدبية عن الأدباء السود » ، منشورات وترويت للفنون السوداء ، عام ١٩٦٩ ، صفحة ١٣ ، وكانت المادة فى هذه الفترة أن يتخذ الكتاب الأمريكيين السود أسماء افريقية وأن تسمل كتاباتهم ألفاظا من اللغة السواحلية •

القلوب ، وتصبح متحدة باسم حقيقة جديدة تتحرك على ساحة الحياة » (٢١) .

وهكذا يدعى الشعراء الافريقيون أنهم بقوة الكلمة يستطيعون تدمير العالم بحالته الحالية ، وبناءه من جديد على الصورة التي يرغبونها . وتجد نفس المضمون في العبارات التالية للامام أميرى بركة « اننا نحن السحرة السود ، والسحر الأسود هو ما يتقطر داخل الغرف السوداء للقلب ، فالوجوه الشاحبة تصبح دائما شاحبة وبهضاء كاللوت ، ولا يمكن لضوء النهار أن ينفذها ، لاننا نسيطر على الليل » (٢٢) . وخلال أعوام العشرينات ، وإذا نحننا جانبا حقيقة انتشار قصائد الأمريكيين السود في باريس ، فإن عددا من هؤلاء المؤلفين توجه الى باريس ، والتقى بعدد من الكتاب الشبان القادمين من افريقيا ، ومن بين هؤلاء المؤلفين نذكر كلودماكاي ، ولانجستون هيوج ، وكونتى كلين ، والشاب آلان لوك .

ثم في خلال أعوام الستينات والسبعينات ، عكست الرياح الثقافية اتجاهها لتتجه عبر الأطلنطي ، من الشرق الى الغرب (من افريقيا الى أمريكا) ، حيث ذهب كل من سيزار ، وسنجور ، وداماس في زيارات مشهورة الى الولايات المتحدة . وقد خص الأخيران الكتاب السود الشباب بالتشجيع والنصيحة . زار ليوبولد سنجور الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٦ (٢٣) ، بينما زارها سيزار عام ١٩٦٨ وهو في طريقه الى جزر المارتينيك ، ومن المحتمل أن يكون داماس هو أكثرهم تأثيرا وذلك لأنه قضى الأعوام الأخيرة من حياته في الولايات المتحدة ، فقد استقر هناك في عام ١٩٧٠ ، وتم تعيينه عام ١٩٧١ في كلية المدينة الفيدرالية ، ثم احتل كرسي « أستاذ متميز لأدب السود » في جامعة هاوارد ، وظل مرتبطا بهذه الجامعة مثل سابقتها ، حتى موته عام ١٩٧٨ ، وقد ساعد ايلين كونزوي كينيدي خلال اقامته ، في وضع مؤلفها الموسوعي حول تراجيم

(٢١) كتاب ودي كنج « الأرواح السوداء ، مهرجان الشعراء السود الجدد في أمريكا نيويورك . دار نشر واليوم هاوس عام ١٩٧٢ ، صفحة ١٧ .

(٢٢) كتاب ليروا جوتز « مقالات اجتماعية » نيويورك . دار نشر ويليام مور ، عام ١٩٦٦ ، صفحة ٢٥٢ . ولاري نيل وهو أحد المفكرين النظريين الأساسيين للحركة ودد اشار بأن ليروا جوتز (أميرى بركة) هو أول من استخدم لفظ « فنون سوداء » . بمعنى ايجابى ، وفكرة أن سلطة الكلمة تستطيع تغيير العالم بما هو عليه وذلك لبنائه من جديد على الصورة التي يتناماها الشعب الأسود ، ويبدو ذلك في قصائد بركة بمنسوان « فن اسود » و « فناء والدى الأسود » .

(٢٣) مقالة ميسير كوك حول رحلة الرئيس سنجور ، والمذكرة في هامش رقم ١٦ .

الشعراء السود المنشور عام ١٩٧٥ ، وأخيرا يجب أن نذكر بصفة خاصة أن داماس كان مستشارا روحيا لمجموعة من الشعراء السود الشبان في هذه الفترة ، ولقد حياهم بعضهم في الكتاب المؤلف والمهدى الى ذكراه ، مثل جيون جوردان الذي يتحدث عن والده الغنى والسياسي ، وكذلك جين كورتز فقد كان بالنسبة لها أخا ومعلما . كما قال عنه هاكي مادهاوتى أنه كان يعرف كل فرد شخصيا ، وأنه قرأ وشجع كل الشعراء وكذلك نجد نفس التقدير لدى ايوجين ردموند ، ولارى (٢٤) ، وكما قال دانييل راسين عنه « ان داماس لم يكن يريد أكثر من رد الجميل الى اخوانه الأمريكيين ، الذي طالما تعلم منهم في أعوام الثلاثينات من هذا القرن » (٢٥) .

وهكذا أصبحت الدائرة مغلقة ، فقد ترك المؤلفون السود خلال عصر النهضة الأولى في هارلم الأمريكية أفكارا على الحركة الفكرية الزنجية في افريقية ، ثم جاء دور كتاب افريقية فيما بعد ، ليؤثروا وبشدة على حركة الفنون السوداء الأمريكية الحديثة . ونلاحظ أنه يوجد تشابه كبير بين المشاكل التي يواجهها الافريقيون والأمريكيون السود وسكان جزر الأنتيل السود ، ومن المرجح ألا يتوقف تبادل الأفكار وطرق التعبير بين هذه الجماعات السوداء في الأعوام القادمة ، وذلك للمطالبة بحقوقهم الفردية والجماعية ، وهذا ما يعبر عنه جيدا لانجستون هيوج حيث يقول :

« اننا أولاد عم ، أنا وأنت » .

أنت القادم من جزر الأنتيل

وأنا من غانا

نحن أولاد عم ، أنا وأنت

أنت القادم من الولايات المتحدة .

وأنا الافريقي

اننا كلنا اخوة ، أنا وأنت » (٢٦) .

ادوارد . أ . آكو

جامعة ياوندى

-
- (٢٤) مقالة باسم « الانسان ليون داماس ، في ذكراه » مجلة الاتجاهات الجديدة مجلد رقم ٣ ، يوليو ١٩٧٨ ، صفحة ١١٣ .
- (٢٥) كتاب دانييل راسين « ليون داماس ، رائد الحركة الزنجية (١٩١٢ - ١٩٧٨) الطبعة الجامعية - واشنطن عام ١٩٧٦ - صفحة ٢٧ .
- (٢٦) لانجستون هيوج ، قصائد مختارة ، نيويورك . مجلة Vinanges عام ١٩٧٤ ، صفحة ٢٧٥ ، ٢٦٦ .

فجر الفكر الاقتصادي في دول الغرب وروسيا

أندريه ف . أنيكن

١

يرتبط تطور علم الاقتصاد ارتباطا وثيقا بالبنية الرأسمالية . ولئن كان مفكرو العصور القديمة والعصور الوسطى قد صاغوا عددا من الأفكار والآراء في هذا المجال فإن علم الاقتصاد بالمفهوم الحديث للكلمة لم يبدأ بالفعل إلا خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وهو الوقت الذي تطورت فيه مناهج البحث في العلوم الطبيعية ، وأنشئت فيه أولى الأكاديميات والجمعيات العلمية (في دول مثل إنجلترا وفرنسا وروسيا وروسيا) . وارتبطت المراحل الأولى من بداية تطور علم الاقتصاد بتلك التطورات ، فضلا عن أن الاقتصاديين الأوائل قد ركزوا اهتماماتهم بصفة عامة على المشكلات الفعلية التي تواجه الدولة والاحتياجات الفعلية لها . ولما كانت البنية كانت سائدة في نظم الدولة في أوروبا آنذاك هي نظام الحكم الملكي المطلق كان الاقتصاديون الأوائل من المستشارين الذين يقومون بالدراسات ويقدمون التقارير للسلطة الحاكمة يضمونها العديد من المقترحات السياسية والاقتصادية . ومن ثم سيكون حديثنا عن مشاهير الاقتصاديين الذين ظهروا في القرنين السابع عشر والثامن عشر على أنهم « رجال مقترحات » .

ولقد استطاع الموهوبون القادرون من بينهم أن يدركوا أن مصلحة الدولة أهم بكثير من مصالح السلطة ، ولكن مؤلفاتهم اتجهت في الواجهة المضادة للتناقضات الرئيسية ، فما كان يهم السلطات أولا وقبل كل شيء هو الضرائب وكيفية إيجاد دخول أو موارد جديدة . وأما في توعية الضرورات الاجتماعية وجه الاقتصاديون كل بحوثهم نحو هذا الهدف دون

المترجم : محمد جلال عباس

أن يروا بوضوح أن أضمن وسيلة لتحقيقه هي تطوير الرأسمالية التي تعتبر ضرورة لمواجهة النظام الاقطاعي الذي يستند عليه النظام الملكي ، وهكذا سوف نرى أن مصير مؤسسى علم الاقتصاد كان مصيرا سيئا بل كان في أغلب الأحيان مصيرا مأساويا .

بدأ علم الاقتصاد فى الأزمنة الحديثة على أنه اقتصاد سياسى . ويكشف لنا ذلك عن توجهات هذا العلم الجديد نحو مشاكل اقتصاديات الدولة ، فعبارة اقتصاد سياسى فى حد ذاتها قد استخدمت لأول مرة كعنوان لكتاب من تأليف الكاتب الدرامى والاقتصادى الفرنسى أنطوان دى مونتشرستان Antoine de Montchrstein نشر عام ١٦١٥ ، غير أن هذا العلم الجديد لم يكتسب أول شكل محدد له الا فى مؤلفات العالم الانجليزى وليام بيتى William Petty (١٦٢٣ - ١٦٨٧) ، كما ظهرت فى أواخر القرن السابع عشر أيضا مؤلفات الفرنسى بييردى بويسجلبرت Pierre Boisguilbert (١٦٤٦ - ١٧١٤) . ونذكر هنا ملاحظة عابرة هي أن كارل ماركس اعتبر هذين العالمين مؤسسين لعلم الاقتصاد السياسى الكلاسيكى فى كل من إنجلترا وفرنسا . ولقد قام الكثيرون بدراسة حياتهما وأفكارهما . وفى عرضنا لهذين العالمين فى هذا المقال رأينا أن تناول الى جانبهما شخصية مرموقة هي شخصية ايفان تيخوتوفيتش بوسوتشكوف Ivan Tikhonovitch Passochkov الذى يعتبر مؤسس علم الاقتصاد فى روسيا . وكان بوسوتشكوف (١٦٥٢ - ١٧٢٦) مزارعا ومستثمرا وفكرا وكاتبا عاصر كلا من بيتى وبويسجلبرت . وان كان أقل منهما سنا ، كما أنه لم يكن له أى احتكاك بهما بل لم يقرأ أيا من كتاباتهما . والمثل يقال عن بويسجلبرت ، فانه - على حد علمنا - لم يكن له علم بوجود بيتى الذى كتب قبله بعشرات السنين . ويمكننا أن نرجع عزلة هؤلاء الكتاب بعضهم عن بعض الى الأحوال التى كانت سائدة فى ذلك العصر والى الطبيعة النوعية لأنشطتهم .

أصدر بوسوتشكوف أعماله بعد أن اكتمل نضجها فى عهد بطرس الأول أو بطرس الأكبر الذى تميز بأنه عصر تحول حيث بدأت روسيا خطوات الاقتراب من مستوى غرب أوروبا فى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية . لذلك امتلأت أفكار بوسوتشكوف بطابع هذا التطور رغم أنه لم يسافر الى غرب أوروبا ولم يتعلم أى لغة أجنبية بل انه كان فى بعض الأحيان ينتقد الكثير من عناصر التغريب ويرفض الأخذ بالتوجهات الأوروبية التى كانت تسير نحوها روسيا آنذاك ، ذلك أن روسيا كانت فى بداية القرن السابع عشر متخلفة فى أوضاعها الاقتصادية

والاجتماعية كثيرا عن غرب أوروبا ، وأخذت الرأسمالية فيها شكلا مغايرا يتناسب مع ما كان سائدا فيها من نظام رق الأرض الذى امتد خلال القرن الثامن عشر وازداد تصفا . بيد أننا نجد فى آراء وأعمال بوسوتشكوف الكثير من النقاط التى يشترك فيها مع معاصريه الغربيين ، كما أن بعض معالم شخصيته تقدم لنا مادة غنية لمقارنته بشخصية كل من الاقتصادى الانجليزى والفرنسى حيث نجده أحيانا مناقضا لهما . وعلى أى الأحوال فإن كلا منهم كان مجبرا أو مضطرا للتعبير عن روح أمته والعصر الذى يعيش فيه .

كان كتاب الفقر والثروة هو أهم مؤلفات بوسوتشكوف ، كتبه حوالى عام ١٧٢٤ وظل طوال حياته فى صورته المخطوطة ، ولم يكن هذا الكتاب معروفا الا فى دائرة محدودة فى أوساط العلماء ورجال الحكم . وتدلنا الوثائق التى وصلت الينا على أن لومونوسوف M. V. Lomonosov أكبر علماء الاقتصاد فى روسيا فى القرن الثامن عشر كان على علم ودراية شخصية بهذا الكتاب الذى لم يطبع حتى عام ١٨٤٢ فى الوقت الذى كانت فيه بعض الكتب الأخرى الأصغر من مؤلفات بوسوتشكوف قد طبعت . واكتشف بوجودين M. P. Pogodin المخطوطة وظهرت منذ البداية كل أنواع الشكوك الغريبة التى يخبرنا بها هذا المؤرخ حيث يذكرنا بالتناقضات التى أثرت حول أصالة مؤلفات شكسبير حتى ان البعض قد ظن أن مؤلف هذا الكتاب لا يمكن أن يكون مزارعا لا علم له بالأسرار ، ولكن محتوى الكتاب يؤكد أن مؤلفه كان شخصا أكثر تعلima وأكثر استنارة من ذلك . بيد أن المؤرخ بوجودين يثبت أن كل تلك الافتراضات ليس لها سند قوى ، وفى نهاية النقاش حول الكتاب اعترفه بأن بوسوتشكوف هو المؤلف الفعلى .

طبعت بعض مؤلفات بوسوتشكوف الأخرى التى تتناول موضوعات فى الدين والفلسفة الأخلاقية وغيرها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، غير أن أهمية تلك المؤلفات قليلة بالنسبة لنا لموضوع علم الاقتصاد . ثم ظهرت المجموعة الكاملة من مؤلفات بوسوتشكوف فى روسيا ثم فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية (الاتحاد السوفيتى) ، ولكن الكتابات حول هذا الموضوع ناقصة فى الغرب ، فلم ينشر الا واحد من كتب بوسوتشكوف فى ألمانيا عام ١٨٩١ (١) . كما أن معظم دوائر

١٠٨
١٠٩ بروكنر : ايفان بوسوتشكوف : افكار ومواقف فى روسيا فى عصر بطرس
الأكبر لينينج ١٨٤٨
A. B. Buckner, Iwan Possochkow, Ideen und Zustand in Russland zur
Zeit Peterdes Grossen, Leipzig, 1848.
وتوضيح أيضا بالروسية

المعارف الغربية تغفله تماما ، فلم يذكر فى دائرة المعارف الأمريكية سوى اسمه وعنوان الكتاب فى المقال المخصص عن الاتحاد السوفيتى ونص على أنه أول كتاب روسى يتناول موضوعات اقتصادية ، وأن كتابه يعتبر بصورة خاطئة تنبؤا بأفكار وآراء آدم سميث فى المجال الاقتصادى (٢) ، وهى نقطة سنعود إليها فيما بعد . ولكن علينا هنا أن نذكر حقيقة هامة عن بوسوتشكوف الذى تميز بأسلوبه الأدبى هى أن دراسته اليوم لا تقتصر على المؤرخين والاقتصاديين بل يتناولها أيضا اللغويون وفقهاء اللغة . فقدمت رسالة جامعية عن لغة بوسوتشكوف عام ١٩٧٣ فى جامعة مونستر بالمانيا الغربية (٣) ، وكذلك جاء ذكره فى كثير من الكتب التى تناولت عصر بطرس الأكبر وعهده بصور مختلفة .

وتعتبر مؤلفات بوسوتشكوف وبصفة خاصة كتاب الفقر والثروة مصدرا له أهميته الرئيسية بالنسبة لعصر بطرس الأول ، فقد استخدمها المؤرخ الروسى القديم كليتشوفسكى V.O. Klinchevskij وبخاصة هذا الكتاب بتوسع كبير فى أقسام كتابه مسيرة التاريخ الروسى التى خصصها لعصر بطرس الأول (الأكبر) والاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والمالية التى نفذها ذلك القيصر المصلح .

وعلى حد علمنا لم تكن شخصيته أو أفكاره موضع مقارنة بشخصية أو أفكار بيتى أو بويسجلبرت الا أننا سنحاول هنا تحليل بعض الأفكار الاقتصادية لهؤلاء المفكرين الثلاثة من زاوية جديدة باستخدام الفترة المعاصرة كمرجع للموضوع .

٢

كانت الأفكار المادية والتجريبية لكل من فرانسيس بيكون وتوماس هوبز هى المبادئ الفلسفية التى انبنى عليها الاقتصاد السياسى فى القرن السابع عشر ، واعترف بيتى فى كتاباته بأنه مدين الى حد كبير لأفكار بيكون ، وأنه من الأتباع المباشرين للفيلسوف هوبز . ففى خلال العقد الخامس من القرن السابع عشر كان بيتى يعمل سكرتيرا خاصة لهذا

(٢) دائرة المعارف الأمريكية Encyclopedia Americana الجزء ٢٧ نيويورك ١٩٤٩ ، ص ٢٩١ الى ص ٢٩٣ .

(٣) شنايدر : لغة بوسوتشكوف ، مونستر ، ١٩٧٣ .
R. Schneider, Die Sprache Pasoskovs, Munster, 1973.

الفيلسوف في مقره بباريس حيث كان يقيم آنذاك ، وذكر بيتي في
 شيخوخته أنه كان يدرس مع هوبز رسالة أندريه فيسالي André Vosale
 عن الدورة الدموية في جسم الانسان ، وأنه أصبح طبيعيا ومارس مهنة
 الطب بنجاح لسنتين عديدة كما هو معروف . ويعتبر ذلك من الظواهر
 المميزة للعصر ، اذ كثيرا ما نثر على اسماء بعض الاقتصاديين الأوائل ضمن
 قوائم اسماء أطباء العصر ، ومن أشهرهم بعد بيتي العلامة فرانسوا كوزينى
 François Quesny (١٦٩٤ - ١٧٧٤) الذى يعتبر مؤسسا للمدرسة
 الفيزيوقراطية في الاقتصاد وأحد الذين أكملوا أعمال بويسجلبرت .

ينتمى وليام بيتي لأسرة من الحرفيين وبذلك فقد صنع نفسه بنفسه .
 وأحرز النجاح بفضل قدراته وطاقاته الذاتية ، فاستطاع أن يحصل على
 ملكية مساحة كبيرة من الأرض استحق بمقتضاها لقب النبالة . وشارك
 بدور معين مع حكومة ايرلندا التى قضى فيها نصف حياته . ثم قضى
 النصف الآخر من حياته فى بلاط تشارلز الثانى ثم جيمس الثانى فى
 لندن . وهو الى جانب ذلك من مؤسسى الجمعية الملكية ، وبذلك شارك
 فى التطويرات الهامة التى حدثت فى العلوم الطبيعية فى تلك الفترة .
 ولقد بدأ جهدا طموحا فى سبيل احرار مكانة سياسية يكون له من
 خلالها قدرة التأثير ليطبق آراءه الاقتصادية تطبيقا عمليا ، ولكن هذه
 المحاولات باءت بالفشل ، وشوهد بيتي فى أواخر حياته رجلا بادى الحزن
 مفعما بالمرارة لأنه حاول فرض مقترحاته ولكن الاقوياء استطاعوا استبعادهم
 واحباط جهوده بقسوة شديدة .

ورغم ذلك فإن كتاباته التى نشرت فى حياته أو بعد مماته ومسودات
 أعماله ومذكراته ومراسلاته بل انطباعات معاصريه التى نقلوها الينا كلها
 تثبت لنا أنه مفكر جريء غير عادى ، له ابتكاراته التى لا تنتهى ونصواته
 واحساساته المليئة بالطرافة . ولكن كثرة الأرقام والحسابات فى كتاباته
 جعلتها حقا صنعة على القارىء العادى . فمن بين كتاباته بحث فى الضرائب
 نشر عام ١٦٦٢ يتضمن أول مؤلفاته الكبرى . وفى هذا الكتاب نجد عبارة
 معينة يبدو أنها أفلتت منه هى قوله : « ان أول شئ نحتاج اليه هو أن
 نحسب . . . » (٤) . ولقد أصبحت هذه العبارة فيما بعد شعنارا ومبدأ
 شخصيا له . وفى كتابه الذى ألفه فى العقد الثامن من القرن السابع
 عشر بعنوان الحساب السياسى ، ونشر لأول مرة فى العقد العاشر من ذلك

(٤) وليام بيتي : الأعمال الاقتصادية والإحصائية الكاملة - موسكو سنة ١٩٢٠

ص ٧٤ .
 W. Petty, Ekonomitschskie i Statisticheskie Roboty.

القرن ذكر بالفعل مبرراته عن دور الاحصائيات والمناهج الكمية وأهميتها
فى دراسة للظاهرة الاجتماعية ودافع دفاعاً شديداً عن أهمية ذلك الدور .
، يعتبر كتاب الحساب السياسى هذا صورة تقليدية لاستخدام الاحصائيات
والبيانات السكانية أو الديموجرافية .

وتميز بيتى بمواهب غير عادية فى الرياضيات ، ورغم أنه حدد
نفسه فى كتاباته فى اطار العمليات الحسابية الأربعة إلا أن حساباته
تميزت بالأصالة ، بل كانت توحى بوجود تناقض ظاهرى . وكان كذلك.
رائداً فى مجال المقارنات الاقتصادية الدولية التى تعتبر من الأمور ذات
الأهمية فى يومنا هذا ، ومنها أنه كشف عن حقيقة هامة هى أن سكان
فرنسا يبلغون ثلاثة عشر مثلاً لسكان هولندا وأن فرنسا بها من الأراضى
الزراعية ما يزيد على ثمانية أمثال أراضى هولندا الزراعية ، ولكن فرنسا
تعتبر أغنى وأقوى اقتصادياً بنسبة ثلاثة أمثال هولندا فقط (٥) .

ومن بين المقترحات التى قدمها بيتى للحكومة الانجليزية نجد أن
بعض آرائه تمتاز بالأصالة والتقدمية بالنسبة لعصره ، مثال ذلك اقتراحه
بإنشاء مكتب مركزى للاحصائيات (ورشح نفسه لإدارته) ، واقتراحه
بعمل خطة لتدريب العمال على مهن معينة بحيث توضع الخطة على أساس
المتطلبات الاقتصادية ، واقترح كذلك تقسيم الأراضى الى وحدات بلدية
أو بلديات ، وكان ذلك بعد الحريق الكبير الذى وقع فى لندن عام ١٦٦٦ ،
وذلك لضمان إعادة بناء المدينة على أساس من التخطيط وغيره من
الاعتبارات . وبالإضافة الى ذلك كانت له آراء ساذجة ومبالغ فيها ، ولكنها
مع ذلك تنم عن شخصيته الفذة ، مثل اقتراحه بإقامة نظام تعدد الأزواج
للمرأة خلال سبى خصوصيتها بقصد تحقيق أقصى زيادة سكانية ممكنة فى
أيرلندا .

ومن بين معادلاته وحساباته أنه يعبر فى تناوله لكل أنواع الآراء
المثليزية عن استطاعته أن يجمعها معا فى نسق نظرى واحد بأقل جهد
ممكن . ولقد صاغ بصفة خاصة صورة شديدة الوضوح لعصره هى نظرية
المنفعة المحسوبة فى ضوء مقدار العمل اللازم لتحقيقها أو إنتاجها ، وعلى
أساس هذه النظرية طرح سؤالا عن العوامل الدقيقة التى تحدد ثمن
السلعة . وظن كارل ماركس الذى كان على دراية بمؤلفات بيتى ويقدرها
تقديراً كبيراً أن بيتى قد شرح بذلك مبادئ نظرية النقود بطريقة تفوق
بها كثيراً على آراء معاصريه الذين يبارونه فى علمهم ، كما أن بيتى عرض

قبل ظهور آدم سميث بقرن من الزمان على الأقل الأهمية الكبرى لتقسيم العمل في التطور الاقتصادي .

وخلال القرن السابع عشر كانت نظرية المركاتالية *Merchantilism* أو النظرية التجارية هي النظرية السائدة في مجال الفكر الاقتصادي ، وهي نظرية تنبئ على المبادئ الأساسية التي بمقتضاها تمارس الدولة دورا فعالا في السياسة الاقتصادية وتحقيق التوازن التجاري . ولقد قبل بيتي الى حد كبير مبادئ هذه النظرية ولكنه لم يستطع أن يسايرها تماما ، اذ أنه من حيث النظرية الاقتصادية والسياسة الاقتصادية يعتبر من أوائل ممثلي الاتجاه الجديد وتقصد به علم الاقتصاد السياسي الكلاسيكي . ورغم أن آدم سميث كان بالمقارنة مع بيتي يعد من المحافظين فإن هذا الاقتصادي الاسكتلندي العظيم يعتبر بحق وارثا أصيلا لأراء بيتي (٦) .

وفي تناولنا فيما يلى لتطور الفكر الاقتصادي في روسيا من المفيد ان نستطلع المظاهر المبكرة لأراء بيتي وانطباقها على هذه الدولة . ظهر تمييز « الحساب السياسي » كما عرف اسم بيتي لأول مرة في روسيا خلال العقدين السابع والثامن من القرن الثامن عشر من خلال ترجمة مؤلفات الاحصائي السياسي الألماني الذي يسمى أحيانا باسم كاميراليستين *Kameralisten*

وأدى ربط الآراء مع مؤلفات بيتي في الديموجرافيا أو الدراسات السكانية الى التفكير في لومونوسوف *Lomonosov* الذي يعتبر لأول مؤلف علمي في هذا المجال وله كتاب بعنوان : « وفي سبيل الحفاظ على سكان روسيا وزيادتهم » (١٧٦١) وهو أول الكتب في هذا الموضوع أيضا . ولم يكن لومونوسوف يعرف شيئا عن مؤلفات بيتي ، ولكن من المؤكد أنه درس مؤلفات العلماء الألمان التي ظهرت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ممن يعرفون مؤلفات بيتي . ولكن على أى الأحوال هناك عدد من أوجه التشابه بين لومونوسوف وبيتى حول المشاكل السكانية ، أولا وجود نظرة أو اتجاه تفاؤلى باعتبار أن السكان يمثلون

(٦) لسنا بحاجة ملحة هنا لذكر كل المؤلفات التي تناولت وليام بيتي ، ولكننا نحيل القارئ هنا الى كتاب ألفه كاتب هذه السطور ونشر بالروسية والانجليزية والفرنسية كذلك تحت عنوان : شباب علم « المفكرين الاقتصاديين قبل ماركس » موسكو سنة ١٩٧٥ .

A. Anikine, The Youth of a Science, «Economic Thinkers before Marx», Moscow, 1975.

الثروة الرئيسية للأمة ، وثانيها أن مبادئ العلوم الطبيعية كانت الأساس الذي استخدمه كل منهما في دراسة العمليات والتطورات السكانية . وهناك ثالثا الأسلوب الواضح والبليغ الذي أتبعه كل منهما . ومما يثير الدهشة حقا أن مخطط لومونوسوف في البحوث الاقتصادية والاجتماعية التي وصلت الى أيدينا ضمن مؤلفاته عن السكان ما هي الا آثار من مشروعات بيتي .

هذا ، ولم يبدأ اهتمام الكتاب الروس بآراء بيتي السياسية الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبخاصة فيما يتصل بعلاقة تلك الآراء بنظريات آدم سميث ، وريكادو ، وماركس . يظهر هذا الاهتمام واضحا لأول مرة في مؤلفات الاقتصادي الروسي زيبير N. I. Ziber الذي نشر كتابه عن الاقتصاد السياسي في كييف عام ١٨٧١ . ويبدو أن زيبير كان أيضا أول من تحدث عن بيير بويسجلبرت . وذكر زيبير هذين الاقتصاديين (بيتي وبويسجلبرت) في معرض تناوله للأشكال الأولى لنظرية القيمة .

٣

يمثل بويسجلبرت بصفاته نوعية الموظف المدني القضائي التي تنطبق على أوائل الاقتصاديين الفرنسيين ، وهي النوعية التي ينتمي اليها اقتصاديو القرن الثامن عشر مثل فينسانت دي جورتاي Vincent de Gournay وجاك تورجو Jaque Turgot وغيرهما . ولد بيير دي باسانت دي بويسجلبرت Pierre de Pesant de Boisguillebert عام ١٦٤٦ في روين لأسرة نورماندية من طبقة النبلاء ، وشغل مناصب قضائية وإدارية عالية في روين سنتين عديدة اكتسب لنفسه خلالها سمعة ومكانة طيبة . وربما تراءى للناظر من الخارج انه كان باستطاعة بويسجلبرت أن يكون أكثر نجاحا في حياته لو أنه لم يستخدم الاصرار والعناد في محاولة تطبيق مقترحاته الاقتصادية فان ذلك قد جعل الآخرين يعتبرونها ضربا من الجنون . وفي مواصلة لهذه الطريقة انتهى به الأمر الى معاداة وزراء لويس الرابع عشر الذي كان يحكم البلاد في أواخر القرن السابع عشر . غير أن الكثير من معاصريه وبخاصة دون سانت سيمون ومارشال فويان قد تركا لنا أوصافا تدل على أنهم كانوا يحترمونه ويعطفون عليه . كان بويسجلبرت في واقع الأمر عنيدا وغير اجتماعي ، ولكن هذه الصفات الشخصية لم تطف على إيمانه بالأخلاقيات الرفيعة ، فقد تجاوز عن مصالحه الشخصية ، ولم يكن يخشى الدخول في صراعات

مع الأقوياء في مسبيل الدفاع عن آرائه التي كان يرى أن الغرض منها هو انقاذ فرنسا من الضياع الاقتصادي والأزمة وتحسين حياة الناس وأحوال المزارعين . ويبدو أن الفضل يرجع إليه في ذلك القول المشهور الذي أصبح له دور اجتماعي وسياسي كبير في حياة فرنسا : « فلاحون فقراء يعني دولة فقيرة ، وفلاحون أغنياء يعني دولة غنية » . ومما يثير الدهشة هنا أنه في الوقت نفسه تقريبا عبر إيفان بوسوتشكوف عن هذه الفكرة بمثل هذه العبارات تقريبا رغم اختلاف الظروف التي كان يعيش فيها كل منهما .

كانت مشاعر بويسجلبرت تجاه الشعب غامضة ، إذ لاحظ أحد الروس العظام الذين درسوا تلك الفترة وكتبوا عنها : « أنه لم يكن يجب الشعب حبا حقيقيا لأنه لم يكن رجلا شعبيا أو عاطفيا ، ولذا فإن قدرات الجماهير كما رآها آثارت في نفسه ازدراء شديدا لهم » . بيد أن نظراته الأرستقراطية المتعالية وازدراءه للفقراء والجماهير غير المتعلمة سارت جنباً إلى جنب مع فهمه لأهمية دور الجماهير في الحياة الاقتصادية « (٧) » .

ولقد عرض بويسجلبرت آراءه في المؤلفات العديدة التي نشرها فيما بين عام ١٦٩٥ وعام ١٧٠٧ ، وكذلك في رسائله التي لم تنشر حتى القرن التاسع عشر . وفي عام ١٧٠٧ أبعد لمدة من الزمن عن وظيفته ونقل إلى وظيفة بمحافظة بعيدة لأنه نشر نقداً لاذعاً وإدانة جريئة للحكومة . ولكن سرعان ما تراجع عن ذلك واستطاع أن يعود إلى روين ويحتفظ بآرائه لنفسه . وفي هذا الصدد ذكر عنه المؤلف الأمريكي روبرتس H.V.D. Roberts ملاحظات في كتابه الذي كتبه عنه فقال أنه مثل كوبرتيق وجاليليو كان يعتبر نفسه داعية لفكر جديد ، غير أن هذا لم يكن السبب في أنه لم يطمع أن يجعل نفسه بتاج الشهداء . ولم يتمكن مع ذلك من أن يقتنع بأن من يمتلئ السلطة قد يأتي عليه اليوم الذي يقبل فيه الصيغ التي كان يدعو إليها ببساطة « (٨) » .

ويلاحظ في مقترحات بويسجلبرت أن العناصر المالية والاقتصادية والاجتماعية مترابطة ترابطاً وثيقاً ، فمثلاً اقترح أن تجرى إصلاحات جذرية

(٧) سافين : عصر لويس الرابع عشر ، A. N. Savine, Vjek Ljoudovika. موسكو ١٩٣٠ ص ٢٢٥ .

(٨) روبرتس : بويسجلبرت ، اقتصادي عصر لويس الرابع عشر ، نيويورك ١٩٣٥ ص ٨٧ .

H.V.D. Roberts: Boisgillbert, Economist of the Reign of Louis XII.

في الضرائب وأن تقام نظم تقدمية تفرض الضرائب وتجيئها ، وتتضمن هذه الاقتراحات ضرورة ازدياد نسبة الضرائب كلما زادت الدخول ، فكان اقتراحا جريئاً بالنسبة لنظام الضرائب الفرنسي المعمول به في ذلك الوقت الذي كان على عكس ذلك تماماً رجحاً في طبيعته ، إذ كان يعفى بعض الطبقات مثل النبلاء ورجال الدين من دفع الضرائب المباشرة . وطالب بويسجلبرت أيضاً بالقضاء على الكثير من العقبات التي تقف في وجه التجارة الداخلية والتي كانت تميز النظام الاقطاعي في فرنسا ، ومن خلال تلك الاجراءات المقترحة كان يتوقع أن يحقق توسعاً في السوق الداخلية وأن يطور تقسيم العمل ، ويزيد في تداول السلع والنقد ، وهدفه من وراء كل ذلك هو تحقيق الحرية الكاملة في تجارة الحبوب بما يشجع على مواصلة هذا الانتاج . ولكي يتقدم ويتحسن الاقتصاد بصورة أفضل رأى أن ظروف المنافسة الحرة تساعد التجارة على تحقيق المنفعة الفعلية في موقع السوق .

ويعتبر ارتباط فكرة الموضع الأمثل للأسعار بفكرة النسبية الاقتصادية من المبادئ التي أضافها بويسجلبرت لنظرية القيمة وللإقتصاد السياسي بصفة عامة . ويعتبر هذا من المباحث المميزة له كما تميز بيتي عن تيار أصحاب النظرية التجارية التي كانت طابع الفكر الاقتصادي في تلك الفترة . فلقد فصل بويسجلبرت نفسه عن التجار بين باصراره على فكرة الحرية الاقتصادية ، وتمسكه بتنفيذ اجراءات الإصلاح الاقتصادي بصورة موضوعية . وتنقسم الأفكار الاقتصادية على أصناف عبارة « دعه يعمل - دعه يسير » التي تعبر عن جوهر السياسة الاقتصادية التي ارتبطت بالعلم الجديد . وتنسب هذه العبارة اما لأحد كبار التجار في عهد لويس الرابع عشر وهو فرانسوا ليجميت François Lagendre أو للوكيل التجاري فينسننت جوريت Vincant gouriet (صديق توريوت) . ولو أن بويسجلبرت لم يكن هو مبتكر هذه العبارة الا انها جاءت آنذاك مساندة لطريقة تفكيره ، حيث انه استخدم عبارات مشابهة لها تماما .

ومات بويسجلبرت عام ١٧١٤ تقريباً مع بداية تجربة جون لو John Law الذي كان على مثاله من رجال المقترحات المبكرة ولكن توافرت له الى جانب ذلك فرصة نادرة ليطبق بعضاً من آرائه الجريئة . وفي ذلك الوقت (بداية النصف الثاني من العقد الثالث من القرن الثامن عشر) ، كان بوسوتشكوف يؤلف في أجزاء كتابه الذي أعده ليقدمه للقيصر المصلح .

استخدم المؤرخ الروسى الكلاسيكى كليوشينسكى كتاب بوسوتشكوف مرجعا له فى تحليله للأحداث الرئيسية التى وقعت فى عهد بطرس الأكبر . وقد قال معلقا على أحد مقترحات بوسوتشكوف : « لو أن القيصر الأكبر قرأ هذه السطور الموجهة له شخصيا لرضى عنها كل الأرضى » (٩) . وأما المؤرخون الآخرون الذين درسوا مؤلفات بوسوتشكوف وعلى رأسهم المؤرخ كافنجاوس V. V. Kafengaus فقد أوضحوا أن القيصر لم يطلع على مخطوطات بوسوتشكوف وبالتالى لم يكن لعبقرية هذا المؤلف أى تأثير فى عهده . وكان بليخانوف G. V. Plekhanov محقا تماما فيما قاله عن بوسوتشكوف كرجل اقتصاد فإن كل معاصرية ، وإن كانت آراء هؤلاء المعاصرين تحولت الى حقائق فى حين بقيت آروء العبقرية مسطرة فى الورق فقط . ويعتقد بليخانوف أن وضع بوسوتشكوف كمزارع سمح له بأن يرى مؤلفات الآخرين الذين كانوا جميعا من الطبقة الارستقراطية ولم ير هؤلاء المؤلفون أو بالأحرى لم يرغبوا فى رؤية ما كتبه بوسوتشكوف (١٠) .

بدأ تطور ذلك النوع من الكتابات - كما يذكر المؤلف - أناس متعلمون أوصوا فى كتاباتهم بتطبيق اجراءات معينة فى المجالات السياسية والاقتصادية فى عهد بطرس الأول ، وكان من الطبيعى أن تؤدى المطالب المباشرة والحاجات الملحة التى تواجه الدولة الى فرض سياسات خاصة وتطبيقها ، غير أننا لانعرف بالتحديد الحالات التى اتخذت فيها قرارات بناء على مشروعات من ذلك النوع الذى قدمه هؤلاء المؤلفون .

وتتلخص الخطوط العامة لسياسة القيصر الاقتصادية فى زيادة الوظائف الاقتصادية التى تتولاها الدولة ، وتحقيق المركزية ، وتنظيم الحياة الاقتصادية ، مع تكثيف الجهود فى التطوير الصناعى والمواصلات والنقل البحرى والتجارة الداخلية ، وتأكيد حقوق الملاك على أراضيهم مع تطوير الزراعة فى اطار نظام رقيق الأرض ، وتطبيق الحماية بالنسبة

(٩) كليوشينسكى : مسية التاريخ الروسى ، الجزء الرابع - موسكو ١٩٣٧ -

ص ١١٧ .

V. O. Kliuchevskij; Kours Rosskoj Istorii.

(١٠) بليخانوف : تاريخ الفكر الاجتماعى الروسى ، الجزء ٢١ من مجموعة الأعمال .

موسكو / ليننجراد ص ١٣٥ - ١٣٦ .

G. B. Plekhanov, Istorija Rosskoj Obščestvennoj Mysli.

للتجارة الخارجية ، وتكوين اسطول تجارى وطنى ، والاتجاه الى تحقيق التوازن فى التبادل عن طريق التوازن التجارى وادخال المعادن الثمينة الى البلاد .

كان بطرس الأول يهدف من وراء ذلك الى تحقيق التقارب بين روسيا وغرب أوروبا ، فكان من الطبيعى أن يطبق سياسة اقتصادية من النوع الأوروبى وبخاصة تلك التى تصل بتطبيق مذهب التجارة الى شكله الناضج نضجا كاملا . بيد أن المبادئ العامة لمذهب التجارة يقتضى أن يكون لكل دولة خط تطورى معين ، وتختلف روسيا فى ذلك عن غيرها من دول أوروبا بأكثر مما تختلف دول أوروبا المتجاورة بعضها عن البعض ، فالتطور الرأسمالى الذى كان هدفا أساسيا من أهداف بطرس الأول ونتيجة حتمية للاصطلاحات التى أدخلها اتخذ فى روسيا شكلا غير عادى وصل الى الحد الذى احتفظ معه بالعلاقات القطاعية ، وعبودية الأرض . وفضلا عن ذلك فإن سرعة إيقاع الإصلاح ومدى عمق المهام المفروضة تتطلب قيام اجراءات شديدة وقاسية . ففى تطبيق مذهب التجارة فى روسيا كانت المشكلات الزراعية تحتل مركزا أعظم بكثير من المركز الذى احتلته تلك المشكلات فى جهات أخرى . كذلك لم يتواجد فى روسيا نظام المشاركة أو نظام الشركات فى كل المجالات والأغراض التطبيقية بل لم يتطور ذلك النظام رغم محاولات القيصر ادخال بعض القواعد الأوربية المطبقة فى هذا المجال .

وتعتبر المراسيم والأوامر القيصرية التى أصدرها بطرس الأول ووثائقه ومراسلاته فى حد ذاتها آثارا ذات أهمية كبيرة فى مجال التفكير الاقتصادى الاجتماعى الذى ساد فى ذلك العصر . كما أن الأيديولوجية البطرسية ، واستخدام السلطة السياسية لفرض التطور الاقتصادى ، وإعادة تنظيم ميزانية الدولة وزيادة الدخل ، وتمويل النفقات العسكرية ، كانت كلها من المسائل ذات الأهمية العظمى . ولكى يبرر القيصر الإصلاحات والتغييرات التى يريد بها كان يتحدث دائما عن التزامات الدولة وواجبها أن تهتم بالمصالح العام والمصالح القومية ، وفى هذا الصدد نورد النص التالى من أقوال العنصر كمثال :

«والآن نعلن ، من أجل رخاء رعايانا ، أننا نولى أكبر اهتمام لتطوير أحوال وطبقة المهن والحرف ، ومن خلال ذلك سوف تتحسن كل أحوالنا

وتتطور لنصبح أغنياء » (١١) •

هذا ، ويبدو أن هناك ثلاثة عناصر كانت تهيمن على كل أنشطة
وأفكار بطرس الأكبر (الأول) وأفكار من ينفذون إرادته هي :

١ - التركيز على دور الدولة ونشاطها •

٢ - تبرير كل ما تقوم به الدولة بأنه للصالح العام •

٣ - الإشارة الى الأوضاع فى أوروبا الغربية وضرورة التوصل الى
مثلا •

هكذا كانت نتائج الإصلاحات القيصرية ضخمة وطويلة الأمد ، ولكن
تحويل روسيا الى النمط الأوروبى ظل فى كثير من جوانبه سطحيا أو من
جانب واحد ، اذ كان من السهل تبني بدعة ليس الشعر المستعار ولكن
دون أن تفكر الرؤوس التى تلبسها بطريقة جديدة ، ذلك أن الحياة
القومية والفكر الوطنى فى روسيا قد حافظت على الشكل الذى اكتسب
على مدى القرون • ومن خلال التمازج بين اتجاهين المحافظة على القديم
وادخال أو تبني التغير تولد الكتاب الأصيل الذى ألفه بوسوتشكوف •



كان هناك خلاف وبحث دائر حول تاريخ ميلاد إيفان تيخونوفتش
بوسوتشكوف Ivan Tikhonovich Possochkov ولكن انتهى الأمر
الى أن بوسوتشكوف ولد عام ١٦٥٢ فى قرية امبراطورية (من أهلاك أسرة
روماتوف) تسمى بوكروفسكوى - روبتسوف Pokrov, koji
Roabtsov فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم موسكو •
ولا يعرف شيء عن طفولته أو تعليمه ، ولكن من المؤكد أنه نما وشب
وعاش وسط الشعب الروسى وبخاصة مزارعى منطقة موسكو وغيرهم من
الطبقات العاملة والتجار وصغار الموظفين وصغار رجال الدين المجاورين
لطبقة الزراع •

(١١) نقلا عن : تاريخ الفكر الاقتصادى الروسى . الجزء الأول - القسم الأول .
موسكو ١٩٥٥ ص ٢٦٦ •

Istorija Rossijskoj Ekonomitshekoj Mysli.

وتميز بوسوتشكوف بأنه متعدد القدرات ، فقد كان حرفيا ومبتكرا موهوبا (قام بتطوير بعض الأسلحة النارية ، وصنع مطبعة لصك العملات المعدنية) (١٢) ، كما كان مستثمرا ورجل أعمال نشيطا ، فضلا عن علمه باللاهوت . وكان يتميز بأنه رجل دعاية بارع عرف كيف يعرض بوضوح المصالح الاقتصادية والسياسية للتجار والصناع ، وقد ظهرت هذه القدرة حينما بلغ الخمسين من عمره في الوقت الذي كانت فيه خبراته عن الحياة المحيطة به قد اتسعت كثيرا .

وهناك مصدران رئيسيان لسيرة هذا الكاتب هما مؤلفاته الخاصة وملفات الشرطة السرية التي طالما كانت له معاملات معها بسبب حب استطلاع وجراته في الكتابة .

اعتاد خلال العقد الأخير من القرن السابع عشر أن يقيم فترات متفرقة في دير سانت أندرو (الذي يقع الآن داخل زمام مدينة موسكو على الرتبة العالية التي تطل على نهر موسكوفا) فينزل ضيفا على ابراهيم كبير رهبان الدير . وكانت صلته مع كبير الرهبان قد بدأت حينما طلب الراهب المقرب لبطرس الأكبر في شبابه من بوسوتشكوف عمل نموذج طباعي لصك نقود بقصد اهدائه للقيصر ، وكانت قد تكونت حول هذا الراهب ابراهيم مجموعة من المتعلمين ، والكتبة من كل وزارات موسكو (وهم الفئة المتوسطة من الموظفين) ، وبعض البرجوازيين . وكانت هذه المجموعة تجتمع لتناقش الأحداث السياسية في وقت كان فيه هو ورفاقه لا يقرون الكثير من تصرفات بطرس ، وأخذوا يعارضون بعض التجديدات ، وانتقدوا أيضا النفقات الباهظة على الوظائف المدنية وافتقار العدالة في المحاكم . وفي أواخر عام ١٦٩٦ قدم ابراهيم دراسة جزئية أدان فيها تلك المثالب وغيرها ، وانتقد سلوك القيصر نفسه ، فلم يمض وقت طويل حتى قبض عليه وبدأ التحقيق معه لاكتشاف شركائه ورفاقه . وفي ذلك الوقت ظهر لأول مرة اسم ايفان بوسوتشكوف وأخيه رومانى ضمن عدد آخر من الأسماء التي كشف عنها التحقيق .

قدم ايفان بوسوتشكوف للمحاكمة ولكنه استطاع أن يدافع عن نفسه ويقنع المحكمة ببراءته . ويرى كتاب سيرة بوسوتشكوف أنه استطاع أن يفلت من هذه الأزمة لأن القيصر شخصيا كان يعرف عنه أنه شبح الحرفيين وأنه مخترع موهوب .

(١٢) كان وليام بيتي أيضا من المبكرين وبخاصة في قطاع بناء السفن .

أما بالنسبة لرفقة أبراهام وبوسوتشكوف فانها كانت بمثابة المدرسة السياسية والأدبية ، فسرعان ما ظهر أول مؤلفاته ودراساته الموجهة الى الحكومة ورسائله الى ممثل السلطة متضمنة مقترحاته ومبررات التحسينات التى يجب أن تدخلها حكومة البلاد فى الشؤون العسكرية والمالية .

هذا ، ولم يصل الى أيدينا تقرير الإصلاحات المالية الذى قدمه فيما بين عامى ١٦٩٩ و ١٧٠٠ ، وكان تقريره عن سلوك الجيوش (سنة ١٧٠٠) هو أول أعماله التى وصلت إلينا ، وذكر أحد كتّاب السير عن هذا الكتاب « أن مؤلفى الكتب العسكرية قد دهشوا من آراء بوسوتشكوف عن الفنون الحربية ، إذ كانت آراء سابقة لزمانها » (١٣) . فعلى سبيل المثال انتقد استخدام المدفعية ضد التشكيلات المتقاربة ، وأوصى بتدريب الجنود على الأعمال الفردية فى تشكيلات متفرقة .

وفى وثيقة ترجع الى عام ١٧٤٠ نجده مسجلا كرئيس للأختام فى دار الأسلحة (والمخازن) ، وفى ذلك الوقت كان يعمل كمستثمر ، وحاول الحصول على امتياز منجم للكبريت (فى الوقت الذى بدأت فيه الحرب ضد السويد وكانت هناك حاجة ملحة الى امدادات الكبريت لعمل البارود) . كذلك حاول الحصول على ترخيص بعمل أوراق اللعب وحق بيعها ولكنه فشل فى ذلك . أما فى عمله كموظف مدنى فقد نقل من دار الأسلحة الى انتاج الكحوليات (التى كانت من احتكارات الدولة) حيث عين رئيسا لمصانع الكحوليات فى مدينة نوفجورود .

والى جانب وظيفته المدنية أيضا قام بأعمال أخرى لنفسه فى التجارة والصناعة ، واشترى بعض الأراضى بما عليها من مزارعين . وأصبح بذلك مالكا وواحدا من المالكين لعبيد الأرض . وامتلك كذلك عددا من المنازل فى نوفجورود وبطرسبرج ، ومع ذلك قدرت ثروته قرب نهاية حياته بوضع آلاف من الروبلات ، ومات وكانت عليه ديون وضرائب مستحقة السداد .

كان كل همه أن يكتب ، فاتم فى عام ١٧٠٩ كتابه الكبير .

(١٣) بافلوسيلفتشكى فى كتابه عن بوسوتشكوف فى قاموس السير الروسية الجزء ١٤ ، سانت بطرسبرج ، ١٩٠٥ ، ص ٦١٨ .

P. Pavlo Silvil'skij; «Passochkova», Roussikij Biografil'chekij Slovar.

« المرأة الواضحة » الذى خصصه للدفاع عن المذهب الأورثوذكسى الذى تعتنقه الدولة وتوجهه ضد الكفار أو معتنقى العقائد القديمة . وهاجم فيه أيضا الحركة اللوثرية . ويعتبر بوسوتشكوف بحق رجل القرن الذى عاش فيه ، اذ كانت فكرة التسامع الدينى فى نظره فكرة غريبة ، والهرطقة أو الفسق أو البدع كلها أمور تستحق فى نظره أقصى العقوبات دون هراة . ولقد اختفى هذا الكتاب الذى أثبت فيه بوسوتشكوف كل معارفه العميقة باللاهوت والتاريخ الدينى وظل مختفيا زمنا فى الأوساط الأكليريكية ثم نسى تماما ، ولم ينشر حتى عام ١٨٦٣ .

وفى عام ١٧١٩ كتب بوسوتشكوف كتابا كبيرا آخر بعنوان : « وصايا الأب لأبنة » نشر عام ١٨٧٣ ، فيه عرض للمبادئ الأخلاقية والقواعد السلوكية النابعة من المسيحية والتقاليد الأورثوذكسية مع تبريرات لتلك المبادئ والقواعد ، ولكن تنعكس فيه صورة العصر بدقة ووضوح فيزدونا بمادة قيمة عن صفات مجتمع القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (١٤) .

وبعد الانتهاء من كتاب الوصايا عاود الرجل العجوز (الذى بلغ آنذاك السبعين) الى الكتابة ، فسطر مؤلفه العظيم : كتاب الفقر والنزوة ، وهو كتاب موسوعى يتناول السياسة والاقتصاد والقانون والعسكرية والمشاكل المختلفة والأخلاقيات والديانة كلها فى ايجاز يجمع خبرات حياة كاملة . وأتم هذا الكتاب فى فبراير عام ١٧٢٤ وأوكل الى بعض رجال البلاط توصيله الى القيصر ، ولكن القيصر مات فى يناير ١٧٢٥ .

وحدث فى خلال صيف عام ١٧٢٥ أن سافر بوسوتشكوف من نوفجورود الى بطرسبرج ليحصل على ترخيص بفتح مصنع منسوجات ، ولكن قبض عليه هناك وسجن فى قلعة بطرس وبول حيث قضى نفيه فى فبراير ١٧٢٦ . ولا تساعد الوثائق التى وصلت الى أيدينا على أن تحدد السبب الحقيقى فى القبض عليه والتحقيق معه والاعتراف الذى أودعه السجن ، فكل ما يمكن أن نقرأه عن ذلك نجده فى احدى الوثائق السرية التى تنص على : «أن رجلا من طبقة التجار يسمى ايفان بوسوتشكوف حجز فى السجن بسبب قضية سرية هامة من قضايا الدولة » (١٥) .

(١٤) المرجع السابق ص ٦١٠ .

(١٥) كافانجاوس : بوسوتشكوف : « حياته وأعماله » - موسكو - ليننجراد -

مطبوعات الأكاديمية الروسية للعلوم سنة ١٩٥٠ ، ص ١٣٧ .

B. B. Kafangaus, I. T. Poussochkov, Ghizn i dejatal'nost.

ولقد توصل كافانجاس بعد تحليله لكل المعلومات والبيانات التاريخية المتوافرة لعامي ١٧٢٥ و ١٧٢٦ الى نتيجة هامة هي : « أن أمر بوسوتشكوف اختلط عليهم في قضية فبودتشى ابانوفسكى أسقف نوفجورود الذى اتهم بالتعدى على الأمباطورة كاترين الأولى (ارملة بطرس الأكبر) وفي جرائم أخرى متعددة . والمعروف أن أحد القضاة سأل أحد المتهمين في معرض القضية عن حياته لنسخة من مخطوطة كتاب بوسوتشكوف المأخوذة من مكتبة الأسقف . والحقيقة التي رثيت في الموضوع من زاوية معينة هي أن هذا الكتاب الجريء هو الذى أثار شكوك السلطة التي كانت على علم بعلاقة بوسوتشكوف بالأسقف . وهاجمه معظم الذين درسوا حياته وأعماله وبسبب هذا الكتاب حتى قبل أن يصل كافانجاس الى هذه النتيجة . »

٦

أدى ظهور الطبعة الأولى من كتاب بوسوتشكوف (عام ١٨٢٤) الى لغت الأنظار الى التشابه في عنوانه مع كتاب آدم سميث : « بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم » . فبرى البعض أن الأمر لم يكن مصادفة ، فكلاهما يؤثر بأسلوب واضح المشكلة الرئيسية في علم الاقتصاد السياسى التى تتمثل فى التساؤل عن الميكانيكية الاجتماعية لزيادة الثروة وتطور القوى المنتجة . ولكن هناك وجهة نظر أخرى ترى أن من السداجة بمكان . لهذا السبب بعينه ، أن يعتبر بوسوتشكوف سابقا لأدم سميث ، أو حتى موحيا له بالفكرة . إذ يجب أن لا ننسى أن آدم سميث هو منشئ الاقتصاد البرجوازى ، فى حين لم تكن الأحوال السائدة فى روسيا تسمح بتكوين مثل هذا النوع من الاقتصاد .

ويتكون كتاب بوسوتشكوف من تسعة فصول فى نحو مئتين وخمسين صفحة فى طبعته الجديدة . وتوجد المشاكل الاقتصادية متناثرة فيه ، فقد يعثر عليها فى أماكن من الكتاب لانتوقع وجوها فيها . بيد أن هناك بعض الفصول التى تختص بتناول هذه المشاكل تناولاً مباشراً مثل الفصل الرابع عن طبقة التجار . والفصل السابع عن المزارعين ، والفصل الثامن عن مشاكل الأرض . والفصل التاسع عن مصالح القيصر حيث يتناول اقتصاد ومالية الدولة . نشر هذا الكتاب فى روسيا أربع مرات آخرها طبعة عام ١٩٥١ مع تقديم وتعليقات كافانجاس وهى الطبعة التى نرجع إليها هنا . وكما هو الوضع بالنسبة لمؤلفات كل من بيتى وبويسجلبرت فإن كتاب بوسوتشكوف قد

استلقت الأنظار واجتذبت اهتمام القراء ، وذلك على الرغم من أن عدم التخصص دفع الناشر الى وضع الكثير من التعليقات وشرح للمصطلحات من وقت لآخر خلال الكتاب .

أراد بوسوتشكوف أن يقدم كتابه الى بطرس الأول مع رسالة شخصية يلخص فيها أن الغرض الرئيسى منه هو شرح أصول الفقر وأسبابه وكيف أن الثروة يمكن أن تنمو وتزداد لتحقيق الرخاء للدولة . ونظرا لمعرفة بوسوتشكوف بمواضع اهتمامات القوى الحاكمة فقد وعد كما وعد غيره من مخططي الغرب بأن تطبيق برامجه سوف تكون له نتائج مباشرة على زيادة إيرادات الدولة . وأنهى مقدمة الكتاب بتنبؤ حذر فيه من تأمر أعدائه من الفيورين والحاquدين اذا وقع كتابه الملء بالأمانة والاخلاص فى أيديهم ، والتمس حماية القيصر له منهم .

أى نوع من الإصلاحات يمكن أن يقترح على صاحب السلطة الذي طبع هو الآخر على فكرة الإصلاح ؟ سؤال ليس من السهل الاجابة عليه . فاولا كانت أفكار بوسوتشكوف تسير اتجاهات الجهود التي يبذلها بطرس الأكبر ، ولكنها كانت تستهدف المصالح المباشرة للتجار والصناع ، ولهذا السبب كانت آراؤه تقدمية وأكثر ديمقراطية من مفاهيم القيصر وقراراته .

كانت بعض الاجراءات التي اقترحها بوسوتشكوف تهدف الى تصحيح المفاسد العديدة ، لا تلك التي ترجع الى الأزمنة القديمة فقط بل أيضا تلك التي تكاثرت فى بعض المناطق فى ظل اصلاحات القيصر .

واتخذ بوسوتشكوف فى مواضع أخرى مواقف محافظة بل رجعية أحيانا ، ذلك أنه تمسك بكونه رجلا ينتمى الى قرن سابق ويصعب عليه تفهم وقبول الاتجاهات الجديدة كلها ، فبتشده فى أمور الدين أثبت أنه وطنى متعصب عنيد فى وطنيته وأنه نصير لتنظيمات معقدة ومزعقة تتضمن الكثير من العناصر المتعلقة بالقطاع الاقتصادى والحياة اليومية للشعب الروسى .

وتنتهى أهم مقترحاته بطبيعته الى الفئة الأولى ، فكان كتابه كله مليئا بالحماسة الوطنية والاهتمام برخاء بلده ، وعلى الرغم من أنه كان مؤمنا بالنظام الملكى فقد كان يعانى فى داخله من أجل الشعب الروسى ، ومن أجل المزارعين الذين كانوا يمتلئون آنذاك الأغلبية العظمى من السكان الذين خرج هو من وسطهم .

لم يكن بوسوتشكوف فى حقيقة الأمر معاديا لنظام السخرة أو رق الأرض ، ولكنه اقترح معالجته ببعض عناصر الإنسانية وتدعيمه ببعض العقلانية الاقتصادية فقال فى ذلك « لا يعتبر ملاك الأرض ملاكا أبدين للمزارعين ، ولهذا السبب (Pomiechtchiki) لا يعاملونهم معاملة حسنة . ولكن السيد الحقيقى لهم هو السلطة التى تحكم كل روسيا ، فالملاك لا يملكون المزارعين الا لفترة محدودة ، ولهذا السبب يجب أن لا يحطموهم ، ويجب أن تحميهم قوانين القيصر حتى يصبحوا أمناء غير تعساء ، فالمزارعون كثرة هم ثروة يملكها القيصر » (١٦)

ويؤسس بوسوتشكوف فكره هنا على أساس مبادئ قديمة تعطى ملاك الأرض نوعا من حق الوصاية على المزارعين الذين عينتهم الدولة أو صيأ عليهم ، ولا تعطيه هذه الوصاية حقوقا فقط بل تلزمهم أيضا بواجبات نحو الدولة ونحو المزارعين أنفسهم . واقترح كذلك قانونا: يحد من التزام المزارعين نحو الملاك ، ويفصل المزارعين عن ملاكهم ، وفى حقيقة الأمر يعطيهم ذلك حق تملك الأرض مدى الحياة ، وقد توقع لو نفذ هذا الاجراء أن تتحقق الزيادة المنشودة فى انتاجية الأرض .

ومن أجل الاستخدام العقلانى أو المتعقل للقوى العاملة وخاصة بالنسبة للعمل الموسمى اقترح توسيع قاعدة نظام الضرائب المباشرة التى تسدد نقدا Obrok وهو يختلف عن نظام العمل الاجبارى فى مزارع الملاك (barchtchina) بما يقدمه من ميزات مشجعة ، وأوصى أيضا بتحرير المزارعين من العمل فى الأرض وتشجيع استخدامهم فى الصناعة والتجارة مما يؤدى الى اخضاعهم لنظام الضرائب المباشرة النقدية التى تناسب تناسبا طرديا مع العمل الذى يقوم به العامل شحنا لهمهم ودفعها لهم للاهتمام بنتائج عملهم . ولا بد من أن نعترف بعامة أن آراء بوسوتشكوف حول فوائد العمل بدون راتب (ولكن فى حدود معينة) واعتماد الأجور على مقدار العمل الذى يؤديه العمال كانت ظاهرة منتشرة فى عهده وفى ظروف عصره .

أما عن مقترحاته الخاصة بالتجارة والصناعة فانها تقدم لنا المبرر الذى يجعلنا نضع بوسوتشكوف فى موضعه بتيار مذهب التجارية فى

(١٦) بوسوتشكوف : كتاب الفقر والثروة ، مطبوعات أكاديمية العلوم الروسية سنة ١٩٥١ ، ص ٨ .

I. T. Possochkov, Kniga o skoudnsti i bogatstrje.

التفكير والسياسة الاقتصادية ، فهو يكشف لنا عن ضرورة تطوير التجارة والصناعة باستخدام أساليب خاصة للتنظيم والحماية من جانب الدولة . وناقش أهمية طبقة التجار وأهمية التجارة ، واقتراح انشاء شركات للتجارة الخارجية . وتحدث عن الرغبة فى تقليل السلع المستوردة ، وعدم قبول الطريقة التى يتم بها تصدير المواد الخام ، وضرورة تطوير بنية الصناعات الوطنية لتتجه البلاد الى تصدير سلع مصنعة ، الى غير ذلك من أمور . وكانت مناقشاته لجميع هذه الأمور ذات طابع ينتمى الى مذهب التجارية (١٧) .

ويبدو أن تقويم بوسوتشكوف بأنه من أنصار التجارية تقويم صحيح ، بيد أن مردوكوفيتش ينتقد ذلك الى حد أنه يذكر أن بوسوتشكوف لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر من المنتمين لمذهب التجارة . ولكن اذا نظرنا الى ظروف العصر وظروف البلاد وجدنا أن الاتجاه نحو التجارة لدى بوسوتشكوف كان أمرا عاديا بل حتميا . أما عن اختلافه فى بعض النقاط مع أنصار التجارة الأوربيين فهو موضوع آخر . فالعنصر الأساسى هو أن بوسوتشكوف فكر فى طرح أسئلة عن المصادر الداخلية للثروة أو بمعنى آخر عن تطور القوى الانتاجية أو المنتجة ، وفضلا عن ذلك كان يميز بين الثروة المادية وغير المادية للأمة ، وهذه فى حد ذاتها نقطة كبيرة الأهمية اذا ما قومناها فى ضوء المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى تواجهنا اليوم . ففى قوله « والأكثر أهمية من الثروة المادية فى حقيقة الأمر هو الحقيقة المطلقة » (١٩) ، فكلمة الحقيقة المطلقة هنا تحمل فى طياتها فكرة حلم بتحقيق يوتوبيا أو مدينة فاضلة يسود فى زمانها وأوضاع عصرها جو من الأخلاق الرفيعة الادارة الجيدة ؛ والأمان الشخصى ، وتتهيأ فيها لكل فرد فرصة التعليم الأساسى وتحصيل المعارف .

وعلى مثال الاقتصاديين الآخرين الذين ظهوروا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر تختفى عند بوسوتشكوف بعض عناصر نظريته الاقتصادية فى معرض تفصيله للعناصر الدقيقة وعرضه للمشاكل التطبيقية بحيث تصبح تعبيرات تفتقر فى أغلب الأحيان الى الوضوح . ففيما يختص بالعوامل التى تحكم فى تحديد ثمن السلعة مثلا كانت له

(١٧) راجع كتاب تاريخ الفكر الاقتصادى الروسى الجزء الأول ص ٣٣٩ .

(١٩) بوسوتشكوف ، الكتاب السابق الإشارة اليه ، ص ١٤ .

وجهتها نظر ، تقى تناوله لأضرار تصدير المواد الخام والفوائد التي تعود من تحويلها أو تصنيعها محليا يوضح لنا بطريقة فيها شئ من التفصيل أن ثمن السلعة يتحدد على أساس تكاليف الإنتاج ، ونظرا لأن النفقات التي يدفعها المصنعون ثمنا للكتان والقنب مضافا إليها أجور التصنيع أقل منها في خارج البلاد أصبح من الممكن : « بأسعارها الحالية أى الأسعار التي يحصلها الأجانب أن يباع النسيج بأسعار أفضل » أو بمعنى آخر يقصد اللعب على هامش المنافسة بالاستفادة من ارتفاع أسعار المنتجات الأجنبية . غير أن بوسوتشكوف في ميله بصفة عامة الى الاعتماد على أساليب الادارة السلطوية يقترح في فقرة أخرى فرض أسعار موحدة بمعرفة السلطة على جميع التجار من أجل تجنب المنافسة الضارة ، ولكن ذلك ينطبق على السوق الداخلية فقط ، أما بالنسبة للمشتريين الأجانب فقد أوصى بأن يقيم التجار الروس نظام أسعار موحدا واحتكاريا لبضائعهم ، على أن تحدد هذه الأسعار على أساس مزدوج : اقتصادى سياسى . فمن الناحية الاقتصادية « يمكننا أن نعيش بدون سلعهم في حين أنهم هم لا يستطيعون احتمال العيش بدون سلعنا لمدة عشر سنوات » أما من الناحية السياسية فللملكية الحاكمة الحق في إصدار القرار . فإن قرارها يرفع أسعار سلعتنا أو خفضها يقبل كقرار صحيح دون مناقشة » (٢٠) ، ويبدو أن بوسوتشكوف اعتبر أن الأجانب سوف يشترون السلع بالأسعار التي يحددها القيصر من قبيل احترام النظام الملكى الحاكم فى روسيا .

ولقد رأى بوسوتشكوف بوضوح الصلة القائمة باعتماد زيادة الثروة على انتاجية العمل ، وبذلك وضوح المبدأ الذى يحتم أن العمل لابد أن يأتى بالربح ، وهو شئ أكثر من أجر العامل ، ويعتمد هذا الربح على انتاجية العمل (٢١) . أما بالنسبة للدولة ككل فإن الربح يعتمد على مدى امكانية استخدام كل شخص قادر على العمل والانتاج . وهاجم بوسوتشكوف الكسسل ، وأوصى باتخاذ بعض الاجراءات لمواجهة شر

(٢٠) للرجع السابق ص ١٤٧ - ١٢٢ - ١٢٥ .

(٢١) ديرولييوف : أثر الثقافة الشعبية فى تطور الادب الروسى ، مجموعة اعمال فلسفية مختارة ، الجزء الأول - موسكو سنة ١٩٤٥ - ص ١٠٥ .
N. A. Dobrolubov, Stepe-i Dutchastija nardnostirazitli,
Izbanje filosofskie proizvedenija.

الكسل . وأوصى أيضا - كما لاحظنا سابقا - بأن تتبّع كل الوسائل الممكنة من التشجيع المادى لحفز العمال على العمل ورفع انتاجيتهم .

أدت افتراضات واقتراحات بوسوتشكوف الى اثاره دهشة القراء الأوائل الذين أطلعوا على كتاباته ، فبعد نشرها بقليل قرأها الناقد المشهور والفيلسوف دوبروليوبوف N. A. Dobrolubov ذو الاتجاهات الثورية الديمقراطية فوصفها بأنها ظاهرة غير عادية فى الثقافة المكتوبة على عهد بطرس الأكبر ، ووصف المؤلف بالشجاعة ، وقال انه قد علم نفسه بنفسه فوصل بذلك الى درجة استطاع معها أن يناقش موضوعات الاقتصاد وهو العلم الذى أصبح « تاج العلوم الاجتماعية » فى منتصف القرن التاسع عشر .

ان كتاب بوسوتشكوف هذا يعتبر بحق اثرا أدبيا ، فهو مليء بالملاحظات الحية والعبارات والصيغ القوية المؤثرة ، والسخرية الشعبية اللاذعة . ولغته قوية كأفكاره حتى ان ليوتولستوى الذى كان من القراء المهتمين بكتابات ، بوسوتشكوف ومن المعجبين به كانت لديه خطة فى أواخر العقد السابع وأوائل العقد الثامن من القرن التاسع عشر أن يكتب رواية عن عصر بطرس الأكبر ، ومن الشخصيات الرئيسية فى هذه الرواية بوسوتشكوف الذى ظهر فى المخطط العام للرواية على أنه الرجل المتعلم . ولانعرف شيئا عن شكل وملامح وتقاطيع بوسوتشكوف ، ولكن تولوستوى تصوره رجلا قصيرا قوى البنية أحمر الشعر ذا لحية صغيرة ، ووجهه كثير الندوب (٢٢) .

٧

يقال فى أغلب الأحيان أن مولد الاقتصاد السياسى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ارتبط ارتباطا مباشرا بمشاكل الأموال والنقود ، ولقد ناقش المفكرون الثلاثة الذين تناولناهم هنا هذا الموضوع فأسهموا بالكثير من العناصر فى نظرية النقود .

وأولهم وليام بيتى فقد وضع بعض الأسس لنظرية النقود فى

(٢٢) ليو تولستوى . الأعمال الكاملة . L. N. Tolstoy, Polan, Sebr, Soch.

الجزء ١٧ موسكو سنة ١٩٣٦ - ص ٢١١ .

الاقتصاد السياسى الكلاسيكى ، فتحدث عن النقود على أنها سلعة من السلع تؤدي دورها كقيمة عامة ، مثلها فى ذلك مثل أنواع السلع الأخرى إذ أن لها قيمة ذاتية تنشأ نتيجة العمل ، ومع ذلك تتحدد قيمة استهلاكها تحديدا كميًا بالفرق بين تكاليف العمل اللازم لاستخراج المعادن الثمينة والعمل فى مجالات أخرى للإنتاج . ذلك أن الكمية المطلوبة للتداول من النقود تتحدد بناء على كمية التجارة وما يدفع بصورة مطلقة نظير كمية السلع المنتجة والأسعار وعدد دورات تداول الوحدات النقدية فى العمليات المختلفة (معدل الدورة النقدية) . فالنقود المعدنية ذات القيمة الكاملة (أى النقود الحقيقية) يمكن استبدالها بعملات ورقية يصدرها البنك ، ويصف بيتى النقود بأنها « شسحم الجسد السياسى » مشيرا بذلك الى أن العملات هى بمثابة الشسحم ضرورية لتسيير الآلة الاقتصادية بما يجعلها تعمل بطريقة سليمة .

ويتناول بويسجلبرت المسألة من وجهة نظر مختلفة تماما . فحينما يذكر أن عدم الانضباط فى ميكانيكية أو آلية الاقتصاد إنما يشير الى ظواهر معينة تنبئ بأزمات اقتصادية مقبلة يرجع بذلك أصل الأزمات الى طبيعة النقود . ونظرا لأن النقود لا تمثل فى حد ذاتها سلعة استهلاكية فقد بدا له أنها عنصر صناعى فيه ضعف كامن ، ولكن مع ذلك اكتسب سلطة غير طبيعية على الناس . ويعتبر بويسجلبرت صاحب فكرة ميزت الاقتصاد السياسى الفرنسى عن غيره ، ولئن كانت تلك الفكرة ذات طابع يوتوبى فإنها ذات أهمية كبيرة تتمثل فى أن الاقتصاد يجب أن يتحرر من سلطة النقود . ويمكننا تتبع هذه الفكرة حتى نصل الى جوزيف برودهون Joseph Proudhon (١٨٠٩ - ١٨٦٥) وهو مفكر آخر أصيل ولكنه ينتمى الى عصر آخر .

وهنا نجد أن بوسوتشكوف يمثل أيضا تيارا مختلفا فى فكرته ونظراته للنقود عن فكرة ونظرة بيتى وبويسجلبرت . فلقد كان أول رؤى يشرح ببساطة ووضوح نادر نظرية الاسمية nominalism (وهى نظرية تحكم الدولة فى النقود أو النظرية الوثاقية) . فالحقيقة الرئيسية التى تميز النقود فى رأيه هى أنها تحمل خاتم الدولة ، وعليها تعتمد القدرة الشرائية بحكم وضعها القانونى المستند الى سلطة الدولة . وليس المهم هو وزن أو نقاوة المعدن المستخدم فى النقود ، ولكن المهم هو القيمة الاسمية للنقود ، وتتحدد هذه القيمة أيضا بمعرفة السلطة السياسية . والجدل الرئيسى الذى يدور حول هذه الفكرة هو أنه من

الممكن ، فى اطار حدود معينة ، أن يتم تداول نقود معينة مصنوعة من معدن رخيص أو حتى نقود ورقية ، وهذه النظرية هى التى تسمى تاريخيا نظرية الاسمية **nominalism** اشتقاقا من كلمة اسم **nomen** .

ومن المؤكد أن بوسوتشكوف لم يكن يعلم شيئا عن تجربة جون لو John Law ومن ثم فإن آراءه فى هذا الموضوع كآرائه فى غيرها من الموضوعات آراء أصيلة . وقد أدى اقتراحه بصك نقود بمعدن عادى مطبوع عليها قيمة عالية الى الأغراض التى أدت اليها عملة رجل المالية الاسكتلندى لتوفير دخل للخزانة وبذلك وفر المزيد من الايرادات النقدية للبلاد .

وبالروح المؤمنة بالنظام الملكى كتب بوسوتشكوف يقول : ان كلمة القيصر لها من القوة ما يمكنها من اصدار أمر بصك قطعة نقود من النحاس وزن زلطة Zolotnik (٦٤ جم) لتداولها بقيمة تساوى روبلا كاملا . وفى نص آخر تناول الموضوع بطريقة أكثر نفعية (براجماتية) دون فتح مجال كبير للجدل ، وذلك باقتراحه استخدام وزن زلطة من النحاس لصك عملات تساوى كوباك Kopek (أى عشر روبل) وهى قيمة أكبر من قيمة النحاس بكثير بل وأكثر من القيمة الاسمية المحددة للزلطة النحاس التى كانت تصك فى ذلك الوقت .

ومن جهة أخرى عارض بوسوتشكوف بشدة احداث تغييرات طفيفة فى قيمة النقد كما عارض عملية خلط النحاس بالفضة أو خلط الفضة بالذهب ، وكان مقتنعا بالفكرة القائلة بأن العملات الروسية يجب أن تعمل من معدن نقى كمنقاوة العقيدة الأورثوذكسية ، أو صك عملات رخيصة من النحاس الخالص ولكن بقيمة شرائية عالية . وأشار بأن يقتصد فى استخدام الفضة (وهى المعدن الأكثر استخداما فى صك النقود على عهد بطرس الأكبر ، وكان يستورد من الخارج) كما رأى صك كميات قليلة من العملات الذهبية وذلك لضرورتها فى اظهار مكانة الدولة فى الخارج .

وانتهت نظرية النقود عند بوسوتشكوف مثل كل آرائه الأخرى بتطبيقات دقيقة محسوبة ، فبتطبيق تلك الاقتراحات قدر أن الايرادات التى سوف تحققها الخزانة بصك قطع العشرة كوباك بالنحاس تبلغ ٣٧٠ روبلا من كل رطل من النحاس وستبلغ جملة الايرادات من صك عشرة آلاف رطل من المعدن ١٨٨٤٠٠٠ روبل وهو مبلغ ضخم بالنسبة

لجملة إيرادات الدولة في عهد بطرس الأكبر وكانت أقل من ثمانية ملايين روبل (٢٣) •

والعنصر الغريب هنا هو أن بوسوتشكوف لم يعط أهمية كبيرة لمسألة جذب المعادن الثمينة إلى داخل البلاد • وهذا يدعو إلى التساؤل : هل كان من المهم ادخال الذهب والفضة إذا ما كان بالإمكان تحقيق التداول النقدي وضبطه باستخدام النحاس ؟ رأى بوسوتشكوف أن الهدف الرئيسي من السياسة الاقتصادية هو تطوير الصناعة والبدء في إنتاج سلع جديدة ، وكان هذا الاتجاه بالنسبة لعصره اتجاها تقدميا في نظر أنصار مذهب التجارية • أما عن توهم نظام نقدي يكون دوره الاقتصادي الرئيسي هو زيادة كمية العملات المعدنية المتداولة فقد كان أمرا غريبا على أسلوب وتفكير بوسوتشكوف •

ولعل من الأمور الهامة هنا أن لا نفعل حقيقة هامة هي أن هذا المؤلف لم يقترح استخدام النحاس كنوع من العملة السائدة جنبا إلى جنب مع صكات الذهب والفضة ، بل انه قصد استخدام نقود نحاسية ذات قيمة فعلية أقل ، وغير قابلة للاستبدال بمعادن ثمينة أن تكون تلك النقود أساسا لدورة التداول الاقتصادي ، فنقوده النحاسية إذن يمكن أن تكون على مثال النقود الورقية التي تستخدمها حاليا ، فهي العملة الوحيدة المتداولة وصلتها مع الذهب مفقودة تماما • وتعتمد القوة الشرائية لمثل هذه النقود أو العملات على أنها تصدر بكميات محددة على أساس الائتمان أو الثقة في بنك الدولة ، وهذا بالضبط ما أراده بوسوتشكوف كقاعدة لتداول العملات المعدنية المصنوعة من النحاس الخفيف •

لكن القرن الثامن عشر كان مختلفا عن القرن العشرين ، فالنقود التي تخلق من القيمة الذاتية وليست لها قيمة حقيقية في السوق تستخدم كأساس للنظام النقدي لم يكن ممكنا في ذلك العصر ، فلم يستخدم النحاس إلا في نهاية القرن كمعدن تصك به النقود ، وكانت الحكومات أيضا مضطرة إلى صك عملات نحاسية تحتوي على قيمة حقيقية لقطع العملات أو قريبة منها • وبالإضافة لذلك كانت النقود توزن ، فمثلا البلياتاك Piatok وهي تساوي ٥ كوباك كانت تزن $\frac{1}{4}$ رطل ، أي أكثر من عشرة جرامات لا جرامين كما سبق أن اقترح بوسوتشكوف •

(٢٣) بوسوتشكوف : الكتاب السابق الإشارة إليه ص ٢٤١ ، انظر أيضا كافنجاه : الكتاب السابق الإشارة إليه ص ٩٩ •

وفي عام ١٧٤٨ حينما قررت الخزنة استخدام نفود نحاسية كى تدفع مبلغ ألفى روبل قيمة الجائزة التى قررها القيصر للشاعر لومونوسوف على أعماله الشعرية اقتضى الأمر وضعها فى شحنتين كبيرتين . ويمكننا أن نتصور هنا مشاعر السرور والسعادة التى تملأ نفس الشاعر عندما تصل إليه هاتان الشحنتان وما يتطلبه الأمر من مكان لتخزينهما .

وفى ختام البحث نذكر باختصار حادثة عرضية ان لم تكن لها صلة مباشرة بأعمال بوسوتشكوف لها طرافتها فى تاريخ روسيا الاقتصادى وعلاقاتها الثقافية مع أوروبا فى ذلك الوقت . فى عام ١٧٢٠ بعد أن نجح نظام « لو » ثم سقط ظهر شاب روسى ارسنقراطى هو الأمير شتشرباتوف I.A. Chatcherbатов كان قد أرسل للدراسة بالخارج فترجم من الفرنسية الى الروسية كتاب الاقتصادى جون لو عن النقود والتجارة وأرسل الترجمة الى القيصر . وبخلاف ما حدث لمخطوطة بوسوتشكوف أظهر القيصر اهتماما بالفا بهذا العمل رغم صعوبة أسلوب المترجم (حيث لم تكن اللغة الروسية آنذاك قد تطورت الى الحد الذى يجعلها تستوعب مصطلحات الموضوع المعقد لهذا الكتاب) ، وربما أتى ذلك اذهتمام لأن القيصر نفسه قد تذكر الأيام التى أقامها فى باريس حينما كان لو فى أوج عظمته .

ونتيجة لهذا الاهتمام أمر القيصر بتوجيه الدعوة الى الاقتصادى جون لو الذى أصبح فى ذلك الوقت بعد سقوط نظامه من المهاجرين ، ليقوم فى روسيا ويعمل فى حكومة القيصر ، وعرضت عليه شروط مغرية بالحضور ، فكانت أمامه فرصة ليكون مديرا لشركة التجار الروس للتجارة مع بروسيا . وكان القيصر - الذى كان مغرما بالأرقام - يهتم بتقدير ما يمكن أن تضيفه تلك الشركة من دخل لايرادات الدولة ، ووجد انها قد تصل الى نحو مليون روبل سنويا ، وحفظت هذه الوثيقة فى المحفوظات (٢٤) .

ولئن لم تذكر المصادر الروسية أى شئ عما كان متوقعا أن يقوم به « لو » من انشاء بنك واصدار عملات ورقية فى روسيا الا أن الكتب

(٢٤) بيكارسكى : العلم والأدب فى روسيا فى ظل بطرس الأكبر -
P. Pekarskij, Naouka i literaturav Rossi pri petra velikom.

الجزء الأول - سانت بطرسبرج سنة ١٨٦٢ . من ص ٢٤٣ الى ٢٤٧ .

الفرنسية عبرت عن الفكرة بأن ذلك هو الحل المنتظر » (٢٥) •

وعلى أى الأحوال لم تكن روسيا مستعدة آنذاك لتقبل فكرة البنوك
أو فكرة العملات الورقية • ولم تظهر تلك الفكرة الا بعد نصف قرن فى
عهد كاترين الثانية •

أما بالنسبة لدعوة جون لو فقد رفض الاقتراح الذى قدم اليه ،
ولكن ذلك الرفض كان لأسباب أخرى ، فربما كان جون لو يأمل فى
العودة الى فرنسا ليواصل نشاطه فى السيطرة على الدولة •

أندريه • ف • أنيكن

(أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتى)

(٢٥) ليمونتى تاريخ ريجانس P.E. Lemonty, Histoire dela Régance
الجزء الأول ، باريس ١٨٣٢ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ •

انظر أيضا كتاب داريدان : جون لو أبو التضخم المالى •

J. Daridan, John Law, Père de L'Inflation.

باريس سنة ١٩٣٨ : ص ١٠٧ و ١٠٨ •

التعريف بالكتاب

سير رونالد سيم Str Ronald Syme

ولد عام ١٩٠٣ فى نيوزيلاندة ، أستاذ التاريخ القديم فى جامعة اكسفورد من عام ١٩٤٩ الى عام ١٩٧٠ ، الأمين العام والرئيس السابق للمجلس النوبلى للفلسفة والدراسات الانسانية ، عضو الأكاديمية البريطانية ، عضو مشارك فى المعهد الفرنسى . قام بكتابة عدة مؤلفات عن دراسة العقائد الرومانية والتاريخ الأوجنتى .

كلود لوفور Claude Lefort

ولد عام ١٩٢٤ ، أستاذ فى مدرسة الدراسات العليا فى العلوم الاجتماع ، تلميذ ميرلو بونتي Merleau-Ponty حيث قام بنشر مؤلفاته بعد وفاته ، كتب عديدا من المقالات والكتب عن الفينومينولوجيا (علم الظاهرات) والفلسفة السياسية ، وعلم الاجتماع ، والأنثروبولوجيا (علم الانسان) . ويميل فى أحدث كتبه الى التوسع فى نظرية الديمقراطية الحديثة .

ادموند رادار Sdmond Radar

أستاذ فى المعهد العالى لفن العمارة بسانت لوس بروكسل ، أسهم بالكتابة فى مجالات بلجيكية مختلفة عن الفن والتاريخ . ألف كتبا عديدة فى مجال تخصصه .

جانوس ريز Janos Riesz

ولد عام ١٩٤١ فى بورايست ، له دراسات فى الأدب والفلسفة فى هايدلبرج وروما وبون ، قام بالتدريس فى ميتر (١٩٦٨ - ١٩٧٠) وفى مينز وبيروت حيث تولى منصب أستاذ كرسى الفيلولوجيا (فقه اللغة التاريخية المقارن) الرومانية والأدب المقارن . ومجال تخصصه هو الأدب الأفريقى فى اللغات الأوروبية والعلاقات الأدبية بين أوروبا والعالم الثالث .

لاكشمي كاباني Lakshmi Kapani

دكتوراه من جامعة باريس ٤ - السوربون ، أستاذة مساعدة للفلسفة
الهندية في جامعة باريس ١٠ . ناثير . تغطي في تدريسها كل النواحي
الرئيسية في الثقافة الهندية .

فرانسوا شينييه François Chenet

درس في دار المعلمين ، دكتوراه في الفلسفة وأستاذ في المرحلة
الأولى العليا ومحاضر في جامعة باريس ٤ .

جيوفاني بوزينو Giovani Busino

ولد عام ١٩٣٢ ، أستاذ علم الاجتماع العام في جامعة لوزان وعلم
الاجتماع التاريخي في جامعة جنيف . ألف كتباً كثيرة في النظرية
الاجتماعية والابستولوجيا وتاريخ التحليل السيكلوجي ، رئيس تحرير
Oeuvres complètes de Váfredo Parfeto (ثم نشر ٢٨ مجلداً منذ
عام ١٩٦٣) .

ادوارد أو . آكو Edward O. Ako

ولد عام ١٩٥١ في الكاميرون ، درس في جامعة الليئوى ، يقوم
بتدريس الادب الأمريكى والنظرية الادبية في ياوندى ، وقد أكمل لثوه
عاما كمدرس مقيم على منحة فولبرايت في جامعة بنسلفانيا .

اندرية ف . انيكين Andrei V. Anikin

ولد عام ١٩٢٧ . عضو معهد الاقتصاد الدولى والعلاقات الدولية في
الاتحاد السوفيتى وأكاديمية العلوم ، أستاذ في جامعة لومونوزوف
بموسكو . نشر كتباً كثيرة باللغة الروسية ترجمت الى لغات مختلفة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٣٨٥

في هذا العدد

- غرس الجماليات الحضارية
بقلم : أرنولد بيرلينيت
ترجمة : سعاد عبد الرسول حسن
- الأقطام الصغيرة والبحر :
الملاحه المبكرة في البحر الأبيض المتوسط
بقلم : جيرانييل كامبس
ترجمة : محمد جلال عباس
- منهج لدراسة الحياة البشرية
بقلم : د . كيم روجرز
ترجمة : الدكتور حسن صبحي بكري
- الفلسفة المقارنة : ما هي وماذا ينبغي أن تكون ؟
بقلم : داليا كريشنا
ترجمة : محمد عزب
- الثقافة الجماهيرية والثقافة العالمية
"أمركة" الثقافة وسياسة الحماية الثقافية
بقلم : جريجوري كلاين
ترجمة : أمين محمود الشريف
- المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر
كوسيط لحركة التنوير
بقلم : هانز أوارخت جومبريخت
ترجمة : أحمد رضا محمد رضا
- تمثيل - مياراة في أدب القصص الخيالي
نموذج نقدي
بقلم : سوراب . راث
ترجمة : حسن حسين شكرى
- التعريف بالكتاب

المقالات المنشورة في مجلة ديوجين السقي تعبر بحرية عن أكثر الأفكار تنوعا واختلافا
لا يعتبر الناشر ولا هيئة التحرير مسئولين عنها بأي حال من الأحوال .

غرس الجماليات الحضرية

أرنولد بيرلينغ

(١)

تعد المدينة ، وخاصة المدينة الصناعية، بالنسبة لغالبية الناس نقیضا للجماليات . وقد تضم المدينة بين جنباتها أقساما لها سحرها الخاص ، إلا أن الشاحنات والسيارات قد ألحقت الهزيمة بشوارعها وجعلت المشاة ينطلقون مهرولين أمامها كما يفر المهزوم أمام المنتصر. وتبدو الحدائق وكثتها وأحاط عابرة وسط صحراء من خرسانة وأسفلت . وتظل ضوضاء الماكينات والالكترونيات والفر وناطحات السحاب الضخمة والعربات المتحركة - هي الملامح الطاغية للتجربة الحضرية. وتبتلع الثقافة الشاملة والهياكل الشاملة كل سمة شخصية أو خاصة . بل لقد أصبح المستقر البشري مهددا وتحيطه الأخطار.

ليست هذه صورة مبالغ فيها ، ولكنها صورة وصفية واقعية للبيئة الحضرية التي يمر بتجربتها كل من يعيش في المراكز الصناعية الكبرى في العالم ، وبدرجة أقل كل من يعيش في مدن الأقاليم الأقل اتساعا . وما لا شك فيه أن المراكز الحضرية تقدم مكاسب هامة في مقدمتها قدرة تلك التجمعات من الثروة والسكان علي أن تحيا حياة ثقافية غنية في مجالها وتربتها . ولكن هناك علي الجانب الآخر تضحيات يقرها في الغالب أولئك الذين لا يقدمون هذه التضحيات ولكنهم أناس تمكنهم قدرتهم السياسية والمالية من تحصين أنفسهم ضد كثير من الموبقات الحضرية وأن يهربوا من حين لآخر من أجل فترة راحة - الي أماكن الممتدة والرفقة.

غير أن مكاسب الحياة المدنية ليست في حاجة للمطالبة بتضحيات بشرية ، فليس هناك مبدأ ضروري يتحكم في الحضارة الصناعية التي تطالب بالتضحية بالرفقة والممتدة والجمال في سبيل التقدم المادي. فكل من المدينة والحضارة تتبع من فكرة الجماعة ومازالت المدينة في الواجهة بأن العالم الكلاسيكي هو المكان الذي يشعر فيه الناس باتسائيتهم .

الترجم : سعاد عبد الرسول حسن

ولكن ما هي المدينة الانسانية أو المدنية الملائمة للانسانية ؟ ماهي شروط التجريد التي تجعل البيئة تساهم في حياة السكان؟ وكيف يمكن لهذه الشروط أن تؤثر علي نوعية تجمعتهم؟

في اعتقادي أننا نتفهم هذه الشروط بطريقة أفضل من خلال فكرة الوعي الارياكي ، وتعني بذلك الوعي الحسي لشخص ذي ضمير ، وهو وعي له صداه في أروقة تاريخ محصلة ثقافة ما ، أو في تاريخ التفاعل الاجتماعي لحياة الجماعة والأنشطة الشخصية . ويقع مثل هذا الوعي في مكان الوسط بالنسبة لفكرة الجماليات ، وتلقو أهمية كل ما هو جميل أو يبعث علي الرضا . حيث يشتمل علي كل مجال التجريد الارياكي الجوهرية باعتبارها مركز القيمة .

وفي ضوء هذا المفهوم تقع الجماليات في مركز المحور بالنسبة لكيونة البشر ، وتمتلك البيئة الحضورية الامكانية العظمي لتحقيقها . كيف يمكن ذلك ؟

عند محاولة سير أغوار التساؤل يصبح من الأهمية بمكان أن نعرف ما الذي نعنيه بكلمة مدينة ، لأن هذا اللفظ نفسه يمكن أن ينطبق بصورة مماثلة علي الأماكن القديمة التي يقطنها عدة آلاف قليلة من السكان ، وكذلك علي حشود العواصم الحضورية التي تضم عدة ملايين . فاللفظ لا شك تسبي ، فالتغيرات الكيفية في طبيعة المنظمة العضوية والحياة الاجتماعية تحدث بتوافق مع التغيرات الكمية . وقد تحقق أغراضنا بطريقة أفضل ، وتصبح أكثر شمولاً لو اعتبرنا المدينة تجمعا للناس والبياكل يمثل هذا الحجم ، وهذا التشابك الذي لا يصبح فيه صلة ترابط بين نسبها بعضها البعض الآخر ، بل أنها تتخطي أنشطة الحياة اليومية لمعلم سكانها.

وبينما هناك مدن في الشرق وفي الصين علي وجه الخصوص تكون في الغالب مخططة مسبقاً فإن ذلك لا يحدث كثيراً في الغرب حيث كان من المألوف حتي مطلع هذا القرن أن تنمو المدن بطريقة التكاثر . وفي الحالتين عندما يتم التخطيط يكون لمواجهة احتياجات خاصة تكون سياسية أو حزبية أو دينية بصفة خاصة .. فالمستعمرات التجارية والحاميات الحربية تتطلب التنسيق والنظام حتي تعمل بصورة كافية في حين أن المدن المقتسة تمثل بطريقة نمطية بعض الأشكال الرياضية التي تمثل الكون . وتقودنا أمثلة تلك المدن الي مدينة نوقراطيس في مصر في القرن السابع قبل الميلاد والي المدينة الدينية بيرسيبوليس في فارس في القرن السادس في حين أن هناك دليلاً علي المدن المخططة يأخذنا الي أبعد من ذلك الي مدينة المعبد في سقارة في مصر التي يرجع تاريخها الي ٢٧٠٠ عام قبل الميلاد .

وهناك العديد من التخطيط العضوي المتنوع الذي وضع لأغراض مختلفة . فالحجرات المستطيلة الشكل لقضاء الصين وبعد ذلك التخطيط المائلي في آسيا الصغرى كان يسهل الأنشطة التجارية والرقابة السياسية ، وبينما كان تنظيم المدن المثالية دائرية أحياناً ، وهي خطة كان من الممكن أن تكون نافعة لأغراض الدفاع ، فإنه كان له أيضاً طبيعة جذب قوية ورمزية كنوع من التعبير عن النظام الكوني . وهذه الاحتياجات الخاصة تفرض متطلبات تحدد طريقة تنظيم المدن بهدف تحقيق هذه للمتطلبات وإضفاء طابعها وخلق حالة ونوعية الحياة داخلها (١) . وتوقع ذلك فبينما هناك ظروف خاصة قادت الي بناء مدن مخططة فقد ظهرت أماكن للإقامة داخل هذه المدن من مثل هذا الترتيب ، ولم تلق جموع السكان الريفيين التي تعيش في المدن والقرى الا القليل من المساعدة من قبل تلك التنظيمات

(1) Lewis Mumford, The City in History, New York, Harcourt, Brace & World, 1961, pp. 124, 191-193; Yi-Pu Tuan, Topophilia, Englewood Cliffs, Prentice-Hall, 1974, ch. 11. esp. p. 152.

المُرشدة . ومع ذلك فإن نمو معظم المدن بطريقة بطيئة في المرحلة السابقة على التكنولوجيا الصناعية قد أعطى الفرصة للعمل المثالي سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي على الأقل بالنسبة لسكني البرجوازيين . وكانت القرارات تميل لأن تكون قرارات طويلة المدى . وبينما لم تكن هناك مراجعات بيروقراطية فقد كان يسود احساس بالوقت باعتباره تجريبيًا وثابتًا والمستقبل باعتباره لا يقاس بالسنوات . وكان التتابع البطيء والمنظم للسنوات مع ارتباطه بالقبضة المحكمة للتقاليد يعمل في توازن وتناقص ليخرج ما تعجب به وندرسه اليوم من عمارة وتنظيم . ولقد كان كل ما هو غير مناسب يزول ويحوي بعد مشاورات طويلة أو بفضل تقلبات الطقس أو المناخ . وكل ما كان يستطیع أن يثبت نفسه في ظل هذه الظروف كان يستمر في البقاء . ومع ذلك فإن هناك العديد من التراكيب الحضرية التي تكسبت على مر السنين في عملية تراكمية نتج عنها بيئات عضوية ثقافية كل منها ذات درجة عالية من التكامل والذاتية الواضحة.

أثنا نشعر بالكثير من حب الاستطلاع والطرافة في القرى والمدن القديمة في أجزاء عديدة من العالم . إن هناك شعورًا قويًا بتناغم الزمن والمكان وينبع الحركة المتولدة عنهما . إن هناك احساسًا بالذاتية بالمكان الذي ينتمي اليه الناس ويكون له طابع مميز يستطيع الزائر الماهر أن يدرسه ويحس به . أما بالنسبة للأشجار الهرمة فإن هناك وعيًا بالعلاقة بين الماضي والمكان . وتمتلك تلك التجمعات الحضرية الخاصة الثمنية للاستمرارية الانسانية . وليس من المستغرب أن تكون هذه هي الصفات التي تعرف عليها وحاول الحفاظ عليها في المراكز القديمة في أكثر المدن حداثة حيث يعمل الكثير الي طمس المعالم من خلال التنمية والمكسب الشخصي أو استغلال عنصر المعيارية.

(٢)

ومع ذلك فما زال هناك الكثير الذي نلحظه غير الوقت والتاريخ فخيرتنا الادراكية بالمدن تجعلنا ننظر اليها علي انها أماكن تموج بالنشاط مع وجود أعداد كبيرة من الناس الذين تشغلهم مجالات واسعة من الأنشطة ، وهؤلاء يشكلون الصفة الحضرية المحورية . وبعض المدن يمكن أن يطلق عليها مدن المشاة حيث يتزاحم الناس في الطرقات معظم أوقات النهار وأحيانًا أثناء الليل ، ويكون الناتج خليطًا من النشاط والضجة . ولعل من أهم العوامل التي تساعد علي فهم جماليات المدينة هذه الصفات الحسية التي تولد في المدن . وهذه الصفات متنوعة ووفيرة، وهي ليست صفات بعيدة فقط ولكن أيضا شمسية وحركية وسمعية . وينتج عن الأماكن الحضرية احساس ووفرة، وهي ليست صفات بعيدة فقط ولكن أيضا الاحباط . وهذه البيئات الحسية يمكن أن تكون أماكن خصبة تساعد علي ظهور ثقافات ابداعية ، وقد تكون نوعًا من الجبهة الشديدة الاضطراب تقضي علي أي نوع من الحساسية الادراكية وتشتتة .

وهكذا فإن المدينة مهما كانت هي في النهاية بيئة جمالية وهي كأي بيئة بشرية تعد نتاجًا لسل بشري . مع سرعة مرور الزمن ومع الوعي الادراكي الذاتي ومع النورس المستفادة من النور المائل المائل أمامنا استطعنا أن نتحقق من أية عمليات تشكيل وإعادة تشكيل هذه البيئة لا يمكن اغفالها من أجل بعض المكاسب أو من أجل عوامل سياسية ، كما أنها لا يمكن أن تترك للحركة الجيولوجية لعصر ما قبل الصناعة أو التخطيط الرياضي للعل المتأمل . كيف إذن يمكن لملاحم التصميم الحضري أن تشكل بطرق تكون حرية بأن تخلق بيئة غنية في قيمها واهتماماتها الجمالية ؟ وكيف يمكن التنسيق بين عناصر التجربة الحضرية من أجل ايجاد حالة من الوعي الادراكي يمكن أن تشجع الصفات الانتاجية والصوبية لحياة شاملة وتطلع للمعرفة واهتمام ورغبة في البحث والاستكشاف والتعجب ؟ وبطريقة أكثر خصوصية كيف يمكن أن نولد الظروف في مدينة نشأت في الماضي بطرق معتمدة غالبًا علي الصلابة

والطرق العشوائية؟ والطرف التي تشجع التطور الإدراكي والنشاط البدني والرضا والانتاج البشري؟.

لقد كان للتطور غير الموجه في الماضي خاصيته العبقورية. لقد كانت المدينة نوماً من الخلق الاجتماعي الذي يتشكل محكوماً بنظم الطقس والوظيفة والوقت . ولقد نتج عن هذا التطور اساليب ونظم وهيكل دارجة تمكس وتوجه في الوقت نفسه الانماط الاجتماعية وروح الثقافات الاقلية . ومع ذلك فقد استطاعت التكنولوجيا الصناعية أن تحدث تفككا في معطم هذه القيم . فقد كانت مواد البناء تنقل بالسفن الي أماكن تعد هذه المواد بالنسبة لها غريبة وغير مألوفة ، فطاشات السحاب المكسوة بالرخام كانت ترتفع في مناطق رملية أو جرانيتية ، ويقام المنازل المتحركة تحت بساطين باسقة . وفي الولايات المتحدة يوجد المنزل الريفي بجوار المستعمرات السكنية كنتيجة للتطور الذي حدث في الشواحي في طول وعرض البلاد . وهناك تصميمات متشابهة وضعت في ظروف مختلفة متماها مع التجاهل التام لنماذج المناخ المحلي مما ترتب عليه تزويدها بنظم قوية للتدفئة وتكييف الهواء لتعويض هذا التجاهل . ولقد أدت المعيارية والتوزيع الجماعي الي استهلاك السلع الاستهلاكية الباهظة التكاليف الي نفس الأسواق في نفس الشوارع الرئيسية لكي تجهز في نفس المطابخ في المنازل المطورة مع تجاهل الاقليم وجغرافية المكان والموسم والمناخ بل حتي جنسية السكان .

وكان قدرا قد أساب الناس . فنحن كشخصيات فردية نرث أنظمتنا بأماكن مميزة أصبحت أيضا كسلع موحدة يمكن نقلها وحملها ونقلها بسهولة من مكان الي آخر . لقد أصبحت أفكارنا ووجداننا وحتى احتياجاتنا مصممة لكي تقابل متطلبات السوق الجماعية . لقد أصبح من الصعب أن نعرف كيف تتولد نماذج سلوكنا سواء تلك المتعلقة بالعمل أو الجنس أو الأسرة أو العائلات أو الترفيه . ذلك لأن أنماطا جديدة من التفكير والعمل قد أفسدتها وسائل الاعلام بصورة سريعة بحيث أفقدتها ثقافتنا وأمانة رعبها تجاه الظروف التي ظهرت في ظلها لأول مرة . لقد أصبحت إذن نمشبه البيئة التي نعيش فيها . بل في الحقيقة لقد أصبحت نحن البيئة نفسها. ولم يعد النقد الماركسي المتعلق بالعزلة منطقيا . وقد لا يكون هذا التحليل منطقيا عندما يستطيع الناس أن يميزوا بعيدا عن انهم وأعمالهم وأشكالهم الانتاجية والاجتماعية وبيولوجياتهم . ولكن عندما تستوعبنا هذه الأشياء كلية وعندما نتحد معها بحيث نصبح مجمعا بيئيا اجتماعيا وثقافيا فإن شيئا لن يبدو غريبا بالنسبة لنا . بل أن عملية التكيف تتفعل داخلنا حتى العظام ، ونصبح نحن وعالمنا شيئا واحدا . ولقد كان ذلك في حقبة تاريخية متقدمة بعد حالة متقاعسة من الانجاز المتبادل بين الشخص والمكان ، ولكن في عصرنا الذي يتميز بالتكنولوجيا الصناعية والإلكترونية فإن ذلك يمثل حالة من التعتيم وبالتالي اختفاء العنصر الانساني الفردي . إن التطور غير الموجه للمدينة العضوية الاجتماعية له ضحاياها .

وعلى الرغم من عدم الرضا الذي يسببه فقد الذاتية الفردية فإنها في الحقيقة ليست نتيجة التصنيع الشامل والثقافة التجارية الشاملة . فهذه الوحدة بين الشمس والمكان العضوي الاجتماعي هي ملاحظة من جانب علماء الأجناس والجغرافيين حول الثقافات الانسانية بصفة عامة . أما تعرفنا عليها الآن فهو نوع من الربط بين أقصى درجة ضغطت فيها الحساسية الانسانية في ظل الظروف الراسنة والتناقض القائم بين هذا الموقف والأسطورة العصرية التي تقول بانفصال الفرد عن النظام الاجتماعي . ويمكن العنصر الأشكالي أن لا في حقيقة هذه الوحدة ولكن في خاصيتها .

وهناك أيضا تناقض في التجربة النوعية للمدينة الحديثة . والارتباط الشديد بين عناصر الانتعاش من ناحية وعناصر الصد أو عدم المضيافية من جهة أخرى يجعل من الصعب تكوين قيمة المدينة . لقد كانت الميتة دائما مكانا حيويا بالنسبة للثقافة البشرية (وإننا استعمل هذه الكلمة بمعناها

الأنثروبولوجي) - والمدينة الآن بحجمها وتشابكها الذي يفوق كثيرا الفترات السابقة ويطالبها المتفرد أصبحت أكثر بريقا -

إن المدينة الحديثة تمد قلب الكيان الاجتماعي . وهي القوة المحورية لنشاط أي مجتمع . وهي المكان الذي يفرز فيه المجتمع أشكاله وقراء الأكثر وضوحا وليس فقط نماذج التجارة والمقسيمة والاجتماعية والتغيرات التي تحدث فيه بل أيضا أشكاله الإبراهيمية .

هذه الأشكال لا تظهر فقط في الهياكل التي تشكل المدينة العضوية ولكنها تظهر أيضا بطريقت أكثر عمقا في كل من تنظيمات هيكلها العضوية بل الأهم هنا في بيئتها السسية . وتعد العمارة والحدائق والخطة العضوية للمدينة وخاصة تراكيبها من الأحاسيس البصرية والسمعية والحركية والنموذج الاجتماعي لبيئة شعب ما . وفي عبارة أخرى فإن المدينة تعد بمثابة متحف وليس نهاية من الانجازات الماضية قلمت من جنوبها ومن روابها مع الأنشطة التي نبتت منها ، بل إنها تعد مجموعة مشتركة وغير معدلة للعالم الاجتماعي للثقافة المعاصرة . ومن الواضح أن واجهات المتاجر ما هي إلا حاويات متحفية تضم الفن والصناعات الإنسانية لمجتمع ما ، كما أن المتاجر تعد بمثابة التجمعات الخاصة لهذه المجموعات . ومع ذلك فإنه يتحتم علينا أن ننظر إلى أبعد من ذلك ، إلى التعرف على الشوارع التجارية كاسواق خلية والأحياء التسويقية كناطق تسويقية للسكان المحليين والأجانب . فهذه الأسواق تمثل معرضا حضريا يقدم إثارة اللون والحركة وأصوات ثقافة حية وبيئة ادراكية نوعية فنية .

ويحمل مثل هذا النشاط الاجتماعي المكثف على وجهه مشكلات وعجائب المدينة . ونحن نتحدث هنا فقط عن الظروف النوعية للمعيشة الحضرية الحديثة ، غير أن هناك جوانب أخرى أقل حظا . وكثير من هذه الجوانب يكون مألوفيا لمعظم المدن الصناعية في العالم ، كما أنه يختلف من حيث الدرجة ، في حين أن هناك جوانب أخرى أكثر خصوصية بالنسبة لماكن معينة . وعلى الرغم من أن هذه الجوانب قد تكون معروفة جيدا ولا يمكن تجنبها بأي حال من الأحوال فإنها لا تقل أهمية بل لقد تبيث على الأسف . إن احتلال الشاحنات وعربات الأتوبيس وعربات الركوب للمدينة أدى إلى تدنيس بربرى لأي مكان يمكن أن يرتاده الانسان خارج المنزل . لقد تحولت الشوارع الحضرية إلى أماكن ضارة جدا بالصحة ، كما أنها لا تبعث على الشعور بالأمن . وكثيرا ما يتحطم الغرض الذي من أجله أنشئت هذه الشوارع ، وهو سرعة الحركة بطريقة انمكاسية لتعطيم الذات . أما الميادين الحضرية فقد تحولت إلى أماكن لانتظار السيارات . أما واجهات المنازل التي تصل إلى مستوى الشارع فقد أخفتها العربات الواقفة في أماكن الانتظار . أما تلوث الهواء الذي لا مهرب منه بما له من أضرار مباشرة فقد تناوله الكثير من تعليقات الصحافة والقليل من التشريعات . أما الماكينات المولدة للدخان فقد بقيت ظاهرة للعيان وأصبحت معظم المدن تغلفها سحابة سرطانية تشبه عيش التراب . ولما كانت الضوضاء غير مرئية وغير محسوسة وبالتالي لا يمكن تسجيلها في صور فقد تم تجاهلها بطبيعة الحال . ومع ذلك فإن الأصوات المحيطة لا يمكن الهروب منها سواء داخل المنازل أو خارجها . ولم يعد الأمر يقتصر على المحيط الذي تخلقه وسائل المواصلات وما تسببه من انساخات الأسطح (والذي يجب أن يضاف إليه آلات جز العشب الموجودة دائما في الضواحي) . كما أن هناك أيضا الأصوات التي تحطم الأصوات البشرية بداهة من خلال استيعاب تلك الأصوات ، ونعني بها صوت المهمة الصامتة من مكيفات الهواء وأنظمة التهوية وأزيز أضواء الفلورسنت . وقد يطلق علي هذه الظروف الإدراكية أنها ظروف ضاغطة أو أنها نوع من الضغط البيئي ، وقد يأخذ ذلك أشكالا عديدة . فهناك الضغط المعماري الذي تسببه حشود ناطحات السحاب التي تبعث علي الرعب ، أو الميادين العامة العارية التي تعد في حد ذاتها

تضاد جدليا يثير الاهتمام . أو قد يأتي الضغط بصفة عامة من المحيط المادي غير الربح ، وهناك ضغط حراري ناتج من صعوبة تكييف مستوى الحرارة في المباني العامة ومكاتب المؤسسات وحجرات الفنادق . ويلغذ الضغط الاجتماعي اشكالا عديدة تتراوح بين الأصوات العالية وأصوات الرايدير المججلة الي الخوف المستمد من الجريمة . ونحن نعانى في معظم الأحوال من ضغط الأعباء النفسية الزائدة التي لا مهرب منها . وربما تكون الحالة الأكثر في هذا المجال الطرق تحت الأرضية في مدينة نيويورك حيث يوجد أقدم وأكبر نظام تحت الأرض للسكك الحديدية وهي تمد اليوم أكبر سجن جماعي للابتكار الصناعي يوجد في هوة صحيفة تحت الأرض.

(٣)

وهكذا فإن الإدراك الحضري قد يأخذ أشكالا عديدة ففي بعض الأحوال يكون محفزا للحياة ، وفي أحوال أخرى يصبح عاملا ضاغطا . إنه خليط غني وأحيانا شديد الوفرة من الأفكار الانراكية التي يكون بعضها ايجابيا بالنسبة لنا ويكون بعضها الآخر سلبييا . ومع ذلك ففي أزمنة وأماكن أخرى وكانت المدينة بمثابة بيئة متناسقة ، وليس معنى ذلك أنها كانت خالية من الصعاب والمخاوف ولكن كانت تبدو في أحسن حالاتها حيث تتدخل القوي التي تتيح فرصا مثمرة للإبداع والانجاز . ومن أمثلة هذه المدن : أثينا في عهد بيريكليس ، ولندن في العهد الاليزابيثي (اذا غضضنا الطرف عن انخفاض درجة النظافة) ، و"البندقية" في عصر النهضة ، و"انتويرب" في القرن السادس عشر ، وكويتو في عصور "الهيان" . وربما يعد عقد صلح كامل بين القوي المتعارضة هدفا يستحيل تحقيقه بالكامل، ومما لا شك فيه أن المدينة لها تاريخها الذي تبدو فيه إسقاطات مثالية منذ أفلاطون وتوماس مور حتي القرن التاسع عشر وجماعات اليوتوبيا في العصر الحاضر . ومع ذلك فقد نما نوع من التشابه بين سمات المدينة وسمات الجماعة منذ الأزمنة الكلاسيكية حتي اليوم عندما كانت المدينة تعمل لا كغابة فوضوية أو ميدان للمعركة تتصارع فيه قوي تعمل وفق قواعد قانونية أو قواعد خارجة علي القانون ، ولكن كبيئة مادية واجتماعية يعمل فيها الأفراد والجماعات في اطار التقاء القوي المختلفة لتحقيق انجاز مشترك ، وربما كانت تلك هي الحالة السائدة قبل محاولة الدولة الحديثة الغوص في الأعماق واستيعاب السمات الاقليمية والتقاليد كما تخرجها في أكثر الجماعات قوة . وقد ظهر ذلك قبل ما حدث من تقويم التكنولوجيا العلمية الحديثة تلك التغيرات السريعة والهدامة الي نسج الحياة الحضرية التي أخذت مع تطور السمة العالية تحمل التوحيد القياسي للمنتجات والمؤسسات والناس أنفسهم الي مدي أصبح ينذر بعواقب وخيمة . ويسير ذلك جنبا الي جنب مع الطابع العالمي.

فإذا كان الإدراك بمعناه الواسع هو محور التجربة فكيف يمكننا إذن أن نتفهم التجربة البيئية في ضوء ما تعنيه هذه التجربة ؟ وبالتأكيد ليس باعتبارها نوعا من الاستقبال السلبي للمحفز الخارجي . وقد أسلم هذا الميراث من الفلسفة التجريدية القياد خلال قرن ونصف مضيا تحت تأثير التطورات العلمية والفلسفية التي أكدت على المساعدة النشطة لتجربتنا التي نقوم بها كمدرسين وفاعلين . وتعد الماركسية والبراجماتية وعلم نفس الجشطalts والفلسفة الوجودية مصادر فكرية أسهمت في تحويل هذا الإدراك الذي ما زال غير مكتمل .

وقد ساعدت هذه التطورات علي أن نتعرف لا علي تأثيرها التشكيلي في العملية الإدراكية فقط . ولكن أيضا علي صعوبة تعريف حد فاصل بين حضورنا الانساني وبين البيئة وبين انفسنا كلجساد واهية وبين الظروف التي نعمل ونعيش في اطارها . ولقد بدأنا نتحقق من أن البيئة ليست مكانا غريبا يوجد خارجنا ولكنها شئ ملتحم مع اجسادنا ونواتنا . إن وضعنا بالنسبة لبيئتنا يشبه الموجات الصغيرة المتحدة المركز التي تنتج عندما يلقي شئ ما في مياه راكدة ، فالبيئة بالنسبة لنا تحوط بنا من كل جانب كقاعدة تحتل فيها مركز الوسط . وكما تستخدم وسائل البناء الدارجة المواد المحلية والتصميمات الوطنية التي تلأذ علي مدي فترات طويلة أشكالا تتناسب مع المناظر الطبيعية وتنتمي اليها ، نفعل نحن أيضا الشئ نفسه حيث نلتحم مع جوانب المناظر الطبيعية المضربة ونلأذ منها توزيع الألوان والخطوط الخارجية وتجاوب مع مجاميعها وملتحم مع حركتها . وهناك دائما ضغط يدفع نحو التوافق بين الشخص والمكان ولكنه لا يكون دائما ارتباطا سميذا . والكثيرون منا يشبهون المحبين المخفئين الذين ذكروا في رسائل افلاطون ، فنحن نبعث لا عن إعادة تجميع أوصالنا المقطوعة ولكن معن الأماكن التي ستمكنا في النهاية ، وتجعلنا كلا واحد مرة أخرى . وبعض الناس ممن يسعدهم الحظ ليسوا في حاجة للبحث بعيدا ، وهناك غالبية من الناس يجب أن تبحث علي نطاق واسع ، وهناك قليل من الناس يمكنهم أن يشكلوا الأماكن لتناسب مع انفسهم .

وتحتوي هذه الأماكن بالضرورة أناسا آخرين ، فنحن حيوانات اجتماعية ، والجماعة التي ينتمي اليها الآخرون تكون امكانية الوصول اليها أكثر كما أنها تكون أكثر في البيئة الحضرية . والمدينة كهيئة تعد أماكنها أكثر قربا لنا من أي أماكن أخرى . وتعد البيئة الانسانية الأكثر تلوفا هي تلك البيئة التي تعتبر نتاجا لوسيط بشري، وعلي الرغم من أن المناظر الطبيعية هي

طبيعة بشرية يؤثر عليها عمل الانسان بدما من الحفرة التي تكسوها والأمطار التي تسقط عليها حتي مناخها وسطح ارضها فإن المناظر الطبيعية الحضرية تعد المناظر الطبيعية الانسانية الأكثر تفوقا . فرغم أن العصا قد تشير الي ملامح رئيسية علي سطح الأرض مثل

التلال العظيمة ومجاري المياه فإن المدينة هي ابتكار الانسان . وهناك قدرة عظيمة مقننة تبدو في الطريقة التي صاغ بها الحيوان البشري الكتل والقضاء الواسع وكيف أثر علي الطقس وعلي شكل الرياح وكيف مارس قوي الفناء علي انواع وأعداد السكان بدما من الحشرات والطيور وحتى الحيوانات المستتمة والليفة بما فيها الانسان . ولكن ما يهمنا هنا هو البيئة الأخلاقية أكثر من البيئة المادية ، ومناخ القيم والأعمال المعيارية التي تعرف المجتمع الانساني، بل نحن نهتم بالبيئة الجمالية أكثر من البيئة الأخلاقية ولي الأحاسيس النومية التي تنشط وتوجه الادراك . ومهما كانت المدينة فإنها ستظل البيئة الجمالية المتميزة .

كيف تظهر هذه البيئة الجمالية نفسها ؟ إنها تظهر نفسها بالتأكيد فيما وراء الملامح المادية والتخطيط . فالمدينة عالم ادراكي ، عالم يتشكل فيه المجال النومي للادراك الحسي ويتم فيه توجيه التقائنا بهذا المجال . فهذا اقليم يزخر بالناس والأماكن تم ابتكاره بالكامل من خلال العنصر البشري . ويساعد حجم ومكان المباني ونظام ولامح الأماكن الداخلية وعرض واتجاهات الشوارع وأماكن الميادين والحدائق علي خلق القاعدة المادية التي تعدد فرص حركة الناس وتطويف تفاعلهم . ولا يمكن أن نعتبر ذلك مجرد تنظيمات مادية ولكنها نوع من الحضور المادي الذي يحسه الجسد والحواس ويشعر به اذا كان مرحبا أو عدائيا منفرا أو ولداً وضائعا أو باعثا علي الراحة ، كما يشعر بما بين هذه الأحوال المتناقضة من فروق دقيقة . وينطبق نفس الشيء علي الجوانب الإدراكية الأخرى للحياة الحضرية . فالطرق التي تشكل الضوء والظلال حسب وضع الهياكل والأنسجة والألوان التي تعطيها الأسطح ، وكذلك مواد الطرق والمباني واختيار الرسوم ، كلها جوانب نومية للبيئة لها مثل أهمية تشكيل البيئة الحضرية . وتلعب الأصوات دورا مشابها فالملن لها أصواتها المميزة التي لا تكون ظاهرة ولكنها تكون محسوسة وتحدث بمثل التنوع كبقية الملامح النوعية للبيئة والأصوات الصناعية وضوضاء المواصلات والراديو وأجهزة التسجيل والأصوات البشرية وتساهم جميعها في نسج سمعي ثلاثي الأبعاد يكون ثقيل ومتصفا بخرق الحوايط الصلبة ويحتوي كل شيء في عالمه .

وهكذا تشكل الجساليات الحضرية العالم الإدراكي للمدينة والطرق التي تتم فيها تجربة الحياة في المدينة من خلال نوع من الإدراك الحسي من جانب الأشخاص باعتبارهم كائنات

عضوية ادراكية وقادرة علي التفكير . وتتصهر المعاني الثقافية والتاريخية مع المدركات الحسية لتشكيل نوعا من الوسيط السائل الحساسية . وأنا استخدم لفظ "السياسية" بمعناه المزيج حيث اشير الي كل من المشاعر والمعاني حيث يرتبط الادراك والدلالات في تكامل تجريبنا .

وفوق ذلك وكما اشرت من قبل فإن البعد الأخلاقي يكن هنا لأنه بينما يكون الادراك محايدا بطبيعة توبية فإنه لا يكون كذلك من وجهة النظر الاخلاقية ، فالكلمة والمكان موجودان وتقترن بطبيعة تنظيمهما وتحليل تشكيلاتهما الموضوعية التي تشبه تلك التي نقرنها بالعلم . ولكن حيشما يوجد الناس تظهر القيم الانسانية وتصبح تلك القيم بالضرورة اهتماما محوريا . وكشرط للاحرك والعمل البشري فان البيئة تعكس نوعا من التأثير لا يكون محايدا . والتتبع للانسانتي يكون ممكنا هنا بلا شك ، ولكن يمكننا في الوقت نفسه أن نفرق بين تلك البيئات التي توسع مدارك سكانها وتلك التي تسهل علي انفلاتها واعاققتها وبين تلك التي توسع النشاط الانساني وتلك التي تنسعه وتثبطه . وليس هناك أي غموض حقيقي هنا ولكن نوع من الخلط فقط . وتسني محاولة الغاء العنصر الادراكي البشري في التخطيط باعتباره شخصا وغير محسوس ومتغيرا جوهري جميع القرارات والافعال وتعني اشباع الحاجات البشرية بما فيها تلك التي تعتبر حاجيات بشرية غريزية .

البيئات انن هي نتاج بشري ، وأكبر دليل علي ذلك البيئة الحضرية ، وتصطبغ البيئة بالقيم الانسانية في شمس . طريقة تشكيلها لطروف المعيشة وتوجيهها لأنماط السلوك ونوعية ومميزات التجارب التي تحتويها .

ومع ذلك فالبيئة الحديثة تعد خليطا كثيفا وغنيا جدا من النشاط الادراكي الذي قد يساعد بعضه علي تجربتها وفتح السبل أمامنا وقد يهددنا بعضه الآخر ويسهل علي انكارنا . فهل يمكننا أن نتعيد استلاك تسمية الاسور بالنسبة للجماليات الانسانية التي كانت تسود المدينة قبل العصر الصناعي وتعيدنا مرة أخرى للعالم الحضري في المستقبل ؟ وكيف يمكننا أن نضع الملامح الذاتية لبيئة انسانية نسجية ونوجهها نحو ضايات استمائية ؟ .

لقد فشلت كثير من التطورات الحديثة في هذا المجال . فقد نتج عن الاهداف السياسية

والاقتصادية بيئات تجاهلت كثيرا المدركات غير الملموسة ومحور التجربة الانسانية . وقد أدى ذلك الي وجود بيئات مزيفة ، بيئات تخدع العين وتوهنا بأماكن حقيقية بدلا من الأماكن الأصلية التي تشبع الحاجات البشرية.

ما هي البيئة المزيفة ؟ اننا نعاني في مجتمعاتنا الصناعية التجارية الحديثة من بيئات تحيط بنا ومن سطوح ومضامين تقدم صورا لأشياء ملموسة وهي تقشل بذلك في اطفاء ظمئنا ولهفتنا للوجود في مكان نشعر فيه بالراحة والانتماء . ويبدو هذا الزيف أكثر صخبا في الاسكان المتطور بما في ذلك التطورات التي تتسم بالذخ حيث تقدم لنا خططا شاملة وواجهات منومة قياسية مع تصميمات داخلية لا توجد علاقة بين بعضها والبعض الآخر ولا علاقة بينها وبين الموقع والتاريخ وشخصيات الناس الذين يسكنون هذه المنازل . وقد أصبحت هذه هي الصفة العامة لمناطق الضواحي في العالم الصناعي حيث توجد مناطق تتسم بالتنافر مع نظام الأشياء . وربما يكون الشيء الأكثر وضوحا هو أن هذه البيئات التي قد تكون مصدرا للفرح أو أن تكون مقيمة أو تبعث علي التقليل من قيمة الأشياء وتكون دائما بيئات مخادعة وزائفة ، هي ظروف يتصلها الناس دون أي وعي في الغالب بكثرة هذه الظروف ودون علم بانها تتعارض مع انسانيتنا وتخلق نوعا من التعاسة والاحباط العام . فهل يمكن أن تستغرب أن يؤدي مثل هذا الوضع الي سلوك عدواني أو نوع من عدم الانتماء ؟ إن تفهم أهمية هذه الظروف البيئية يساعد علي شرح الأشكال الواضحة للعنف الحضري والأشكال الهائلة لليأس التي تسود مناطق الضواحي .

ومن ناحية أخرى فإن فكرة البيئة المزيفة تسمح لنا بأن نتبين الجانب الآخر الذي يبدو فيه ما يجب أن تكون عليه البيئة الانسانية . مثل هذه البيئة التي يمكن أن تحل محل أو تلغي هذه المشاعر وروود الفعل الهدامة وتشجعنا على توجيه طاقاتها في طرق خلاقة وفعالة ، هذه البيئة يجب أن تقوم علي معرفة أن البيئة لا تقع حولنا ولكنها مستمرة ومتكاملة مع نواتنا . هذه الفكرة يجب أن تحل محل فكرة البيئة باعتبارها شيئا خارجيا ومتباعدة ، تلك الفكرة التي تعتبر المصدر النظري للبيئة المزيفة

(٤)

كيف يمكننا أن نميز مكانا يتسم بالصق ونعني نوع البيئة المصادقة حيث لا ينتمي الناس فقط بل يفهمهم شعور بالراحة والترابط العاطفي والفاعلية ؟ أين يمكن أن نجد مثل هذا المكان؟ ربما يكون من الممكن أن نلمح بيئة حقيقية تكون جزءا من المكان الذي نعيش فيه وكذلك الناس الذين يعيشون فيه ، في تلك المدن التي لم تعرف العصر الصناعي والتي استطاعت أن تعيش قرنين من التغير التحويلي نون أن تفقد طابعها الشخصي ، وقد يمكننا أن نحس بعض صفات هذه البيئة في تلك المدن التي كانت قائمة خلال القرن التاسع عشر والتي لم تستسلم بكل ما تجعله من صفات انسانية وجاذبية من أجل مصالح التصنيع . ومرة أخرى يمكننا أن نرى علامات بيئة صادقة في الأحياء القديمة الموجودة في العواصم الحديثة . ومن الممكن من خلال الاسقاطات الخيالية للمدن المثالية تصوير الملامح غير الموجودة ولكن التي يمكن أن تكون مرغوبة في المستقبل .

ويحاول الناس الآن أن يصلوا الي مثل تلك الأماكن وهم غير متأكدين أين يمكنهم أن يجدها أو ماذا يمكن أن يبحثوا عنه ويقر الاهتمام السائد للحفاظ على المباني والأحياء التاريخية وترميمها القيم البيئية التي تمثلها الأماكن التي تنتمي للماضي بالنسبة لنا . وبينما قد يضيف ذلك لمسة رومانسية علي الماضي فإن الوضع هنا يتجاوز أكثر من مجرد الحنين الي الماضي . إن هناك اعترافا بأن التاريخ الاجتماعي يرتبط بأماكن خاصة وأن الأماكن لا تتفصل عن الناس والأحداث . وقيمة ذلك تبدو بصفة خاصة مع استمرار الصفات الانسانية في التواري بعيدا ، ولأن معظم المباني الحديثة مستمرة في الاتجاه السائد نحو مزج العنصر الأثري مع النمطية والعمومية التي لا يمكن أن تكون سببا في المظهر البراق للأساليب الفنية العالية . هذا هو الوضع السائد بدءا من أوروبا الشرقية وحتى العالم الغربي . وتعد محاولة العمارة الحديثة إعادة إبراز الصفات الشخصية للأماكن القديمة جهدا موجه لتحقيق هذه الغاية من خلال ربط العديد من التفاصيل مع التضمين التاريخي غير المباشر . ويقدم هذا التوليف بين القيم المتعارضة نوعا من المصنوعات التي تضم ملامح مميزة من التاريخ المعماري

وإيس من المكان الذي يعطي لنفسه خاصيته الصادقة .

ومع ذلك فإن التمسك بالماضي مهما كان الشكل الذي يأخذه يعد في النهاية تهرباً .
المثل من وراءه بطروفي اجتماعية لم تعد تنتمي إليها . إننا في حاجة إلى أن نشعر بتاريخنا
ياحساسنا بهذا التاريخ من حولنا ، ولكتنا لا نستطيع أن نبقى على أحياء أو مدن على حالها
دون تغير من غير تحويلها إلى متاحف لا حياة فيها من خلال نوع من التخطيط المعماري كما
هو الحال في مدينة روتينبرج أوب ديرتوير ومدينة "أيلم سبرج" ومدينة "فيرجينيا" وغيرها من
المدن المشابهة . كما أننا لا نستطيع أيضاً أن نقوم بتصنيع مكان لسكني البشر من خلال
مجرد تقليد الأساليب القديمة . مثل هذه الجهود ما هي إلا محاولة للتمسك بقيم هامة ، إلا أننا
نواجه صعوبات جسام عند ترجمة هذه القيم إلى أشكال يمكن أن تعمل في مجتمعات التكنس
السكاني التي ظهرت في مرحلة ما بعد التصنيع . هل هناك إذن من وسيلة لكي نستعيد ونحفظ
الفريدة والنسب النوعية والجماليات الانسانية في المدينة القديمة ؟ .

إننا نقول ببساطة أن مجرد الاحتفاظ بالسماط الخارجية ليس هو الحل . وإذا أخذنا
الميدان كمثال نجد أن الساحات قد اختلفت من مناطق المدينة الواسعة وأصبح الميدان
الحضري مكاناً لوقوف العربات كما هو الحال في الميدان الكبير في بروكسل الذي أصبح
دائرة للمرور أو ميدان الكونكورد في باريس الذي صار مركزاً للتأمل في العقابير وكذلك
حديقة ميدان واشنطن في نيويورك . ومع ذلك فإن الميدان التقليدي لم يكن دائماً مكاناً
لممارسة النشاط البشري إلا بطريقة هامشية . فكانت المقاعد الخشبية الطويلة موجودة على
حواجز وحواف الفراغات لكي يجلس عليها الناس . وكانت هذه المقاعد مصممة كأشكال بصرية
يمكن تقويمها من على مسافات أو كأشكال لها جاذبية من حيث النظام الهندسي . ولقد كان
الاستثناء العظيم يتمثل في أشهر وأنجح الميادين على الإطلاق وتعني به ميدان سان ماركو في
فينيسيا الذي ظل قروناً عديدة مكاناً نموذجياً للحياة الاجتماعية ، وكانت الميادين القديمة
والجديدة على السواء تتنافس معه .

وتعد النافورة أحد الأمثلة التقليدية القوية للتصميم الحضري وقد ظلت محتفظة بأهميتها
الانسانية . وقد ظلت النافورة باعتبارها أقدم المراكز الاجتماعية محتفظة بقوة جذبها حيث
تسحب الناس من حلقاء المرور ليقفوا عند حوافها أو في داخلها . ولقد ظلت النافورة تمثل
قوة سحرية بالنسبة لنا منذ كانت تتمثل في البداية في بئر القرية التي عين ومساقط المياه في

قلب المراكز الثقافية الحدية.

أما الأصوات الحضرية فهي كما أشرنا غير ظاهرة ولكنها منتشرة مثل أي سمة أخرى من سمات المدينة . فمعدن البدايات الأولى للمجتمع البشري ظهر تاريخ الأصوات الاجتماعية لجذب انتباه طلبة العلم فقط (٢) . ومن الممكن أن تستخدم الأصوات الحضرية لتشير الي تغييرات واحتياجات التصميم الحضري الانساني بطريقة أفضل من استخدام أي سمات بيئية أخرى .

وتبدو الأصوات الطبيعية أقل وضوحا في المدينة . لقد كانت هذه الأصوات موجودة قبل أن يقطن الناس في أي مكان خاص ، كما أنها صاحبهم في مكانهم تلك الأماكن ونعني بتلك الأصوات اندفاع الرياح وصوت سقوط المطر وصياح الطيور وربما صوت المياه الجارية. ومع أن هذه الأصوات تنتمي الي الطبيعة فقد تآثرت بهيكل المدينة . فالمدن تخلق الرياح ، ويمكننا أن نسمع صوت مرور الرياح بين الأشجار وحول أركان المباني وأثناء هبوطها في الشوارع التي تشبه الأخاديد والتي تحيط بناطحات السحاب . وتؤثر الأشجار والحدائق والشوارع والمباني جميعها علي ظهور الطيور كما أنها تشجع وجود البعض وتعمل علي اختفاء البعض الآخر . وتعد المصافير الانجليزية وطائر الزرزور والعمام من أكثر الطيور التي استطاعت أن تتغلب علي الظروف وتعيش في الولايات المتحدة والمطر مجموعة من النغمات التي تجعل هياكل المدينة بمثابة ألواح تصدر عنها أصوات أو عزف يصدر عنها رجع الصدى نتيجة لعزف الأمطار عليها ، وتعني بهذه الهياكل أسقف السيارات والشبابيك وأسقف المنازل . وحتى حفر الطريق تصدر عنه أغنياته المميزة ، وقد تتدفق مجاري المياه والأنهار عبر المدينة ولكن الأولى تنفر من مصادر تحت الأرض في حين أن الأخيرة لا يصدر عنها عادة غير أصوات قليلة ، غير أن شوارع المدينة تخلق لنفسها البرك والمستنقعات الخاصة بها والناطقة عن الأمطار الشديدة التي تصدر عنها أصوات تصاحبنا أثناء سيرنا أو أثناء قيادة السيارة . وعلى الرغم من أننا لا نقرن الأصوات الطبيعية مع المدن في العادة فإن هذه الأصوات تكون حاضرة ولها أهميتها .

CF. R. Murray Schafer, The tuning of the world, New York, Knopf, 1977. (٢)

وتبدأ الأصوات العضوية أكثر وضوحاً : مثل صياح الباعة في الشوارع وأصوات المحادثات بين الناس وصوت لعب الأطفال ونداءات الآباء وهمهمات أو صخب التجمعات وأصوات الحيوانات مثل نباح الكلاب ومواء القطط وصهيل الخيل . هذه أصوات مباشرة صادرة عن الحياة نفسها . ومهما كان المعنى الذي تنقله فهي تقدم الدليل على أن الأحياء لهم حضور تشييط.

ومع ذلك فمثل هذه الأصوات المباشرة الصادرة من الحياة تتطلب عليها في معظم الأحيان أصوات الماكينات . فالشاحنات وحافلات الركاب والقطارات والدراجات والطائرات وآلات البناء تملأ الهواء بالضوضاء وأبخرة العادم التي لا يمكن الهروب منها والتي تفرض وجودها وتلوث المكان . وهناك الاجراس والصفارات وصوت الأبواق والعجلات والاطارات عند الارتطام بالرصيف . كل هذا يساهم في خلق مجموعة من الأصوات النشاز المفلقة بالقطران في الأماكن الغضاء التي تحيط بالصوت البشري وتهزمه .

وأخيراً فإن هناك الأصوات الجديدة التي تنتمي لعصر الالكترونيات مثل الأبواق والميكروفونات ونظم التحدث الي الجماهير والراديو وأجهزة التسجيل وأجهزة التلفزيون . هذه الأصوات يتزايد حضورها . هذه الأصوات تعطي انطباعاً مزيفاً بأنها أصوات أشخاص أكثر منها أصوات ماكينات أو أصوات غير شخصية . هل ستشكل هذه الأصوات المحيط السمعي لمدينة المستقبل ، وهل ستكون هذه الأصوات مستمرة وضاغطة بحيث تعطينا الوجود البشري الذي لا يخفي وراءه شيئاً غير أجزاء وأسلاك الآليات الالكترونية ؟ .

كيف يمكننا أن نعيد الحضور الانساني في الصوت ؟ هل يمكننا أن نخلق مناخاً سمعياً يستطيع فيه الصوت أن يعيد تأكيد مبادئه بحيث يصبح ما نسمعه هو الأصوات المباشرة للناس لا للماكينات أو نظم التحدث ؟ ويصبح البعد السمعي للبيئة الإدراكية قادراً على الاختراق كما هو قادر على الانتشار . وإذا ما استطعنا أن نضمن أجسادنا فيما نفهمه من خلال البيئة فإنه يتحتم علينا أن نتعرف على أن الصوت ليس له حضور عضوي أكثر من الغضاء أو الكتلة وأن توجيه أشكاله ونسبه يعد بالمثل جزءاً من تصميم البيئة .

تشير هذه المناقشة الي بعض السمات الجوهرية للجماليات الحضرية . فالبيادين والتأفورات والأصوات ما هي الا جوانب للبيئة الحضرية التي يقدم تاريخها الطويل وأهميتها

المترابطة مفاتيح الجماليات المعاصرة للمدينة . وتعد الأماكن الفضاء التي تحتاج الي الوجود البشري لاستكمال حقومات وجودها وأماكن التجمعات الاجتماعية وأصوات أنشطة الناس من بين مكوناتها الجوهرية . ولما كانت الأصوات غير مرتبطة بمكان واحد ولكنها تتشعب بعيدا في جميع الاتجاهات فإن تجربة المدينة لا تعد مقابلا لشيء منعزل ومنفصل يمكن أن نعيش بمعزل عنه ، ولكنها مفهوم ادراكي وعالم حسي ملئ بالمعاني والارتباطات التي ندخل فيها ونشارك فيها . وربما يمكننا أن نفكر في المدينة باعتبارها وسيطا دائما الكثافة المتغيرة لا يمثل فيه الناس غير مكون واحد بين مكونات عديدة . وتمثل الأبنية والشوارع والميادين والحدائق والعربات والأصوات ودرجة الحرارة والروائح والرطوبة والرياح واللون جزءا من كتالوج طويل لأشياء ادراكية وصفات مرتبطة مع الحضور الانساني النشط الذي يشكل البيئة الحية التي نطلق عليها اسم المدينة . وفي ظل هذا المفهوم قد تصبح المدينة مثلا لكل الفنان . وتصبح جماليات المدينة بطريقة صارخة ومؤكدة خلافا لأي حالة أخرى هي جماليات الانشغال فهي حالة من النشاط الادراكي والتجاوب الذي يستجيب حساسيات الشخص بحيث يصبح هناك استمرارية لا انفصال واندماج لا هزلة أو تباعد . ويصبح كل شيء مكملا للآخر . وتصبح المدينة مكملة لسكانها ويصبح السكان مكملين للمدينة^(٣)

ليس هذا من ضرب المديح للمدينة . فالتمازج الشكلي بين الشخص والمكان الذي يعد مركزيا بالنسبة للعملية الحضرية يعتبر عملية كثيفة ومعقدة تقارن في الغالب مع مسرحية تؤدي على المسرح العالمي^(٤) . وربما يكون تتابع الأحداث اللانهائي الذي يشكل هذا المسرح الحضري يتسم بالطابع التراجيدي أكثر منه بالطابع الفكاهي . ومع ذلك فإن هذا المسرح لا يشبه المسرح التقليدي من حيث أنه مسرح بلا نظارة ولكنه مسرح يعمل فيه مشاركون في العمل .

(٣) مقالي " المشاركة الحسابية والبيئة الحضرية في المصادر الحضرية .

٤٠١ (صيف عام ١٩٨٤) ٣٧ - ٤٢

(٤) انظر J. B. Jackson تقريرا وفيما عن استخدام المسرح واستعارات الدراما لوصف البيئة المحيطة خلال

القرنين السادس عشر والسابع عشر "بيئة المحيطة باعتبارها مسرحا" البيئة المحيطة ٣٣ رقم (١) (١٩٧٩) ٣-٢

كذلك يختلف المسرح الحضري عن المسرح التقليدي في أن مكان الأحداث غير محدد كما أن المكان والزمان غير منظمين . وعندما نتعرف على تلك الخصائص يكون من الممكن أن نتفهم الطابع الجمالي للحياة الحضرية وكيف تتطلب هذه الحياة جهد الفنان والفيلسوف ، الأول ليقودنا في الظروف التي تسيير التجربة في ظلها ، والثاني لكي يساعدنا في توجيه تلك الظروف نحو الهدف أو الانجاز البشري .

ويعود التعرف على الأهمية البشرية من الأهمية بمكان هنا . ولكن تطوير البيئة الحضرية ليس سهلاً أو بسيطاً . فنحن لا يمكن أن نوافق على العقلية الهندسية التي تنظر إلى كل المشاكل باعتبارها مشكلات فنية لها إجابات تكنولوجية . ففي أعماق المشكلات تكمن صعوبات بشرية . وهذه تتطلب حلاً نلخذ في اعتبارها تأثيرها على نوعية التجربة الإنسانية . وفوق ذلك فإن الصفات الجمالية للمدينة يجب أن لا يتم التفكير فيها باعتبارها سمات تجميلية مفروضة من الخارج على هيكل حضري مشكل بالفعل أو سطح لامع يضاف إلى شيء مكتمل من الناحية العملية . كذلك لا يمكن أن نلخذ الجماليات الحضرية فقط باعتبارها مكوناً منفصلاً عن خطة شاملة ودون النظر إلى الظروف الخاصة للاستيطان أو الجغرافيا أو الثقافة أو التاريخ أو خصائص المناخ السياسي والاجتماعي أو نزوات الناس المعنيين .

ولعل الاستعارة الزراعية التي استخدمتها في عنوان هذه المقالة قد استخدمت من صمد . فهي توحى بالحاجة إلى غرس البيئة الحضرية بما فيها البعد الجمالي الذي يعد جزءاً من كل مكان بحيث تقدم الظروف التي يمكن أن يتطور الناس في ظلها ويزدهروا . وتتطلب البيئات الإنسانية وقتاً لكي تنمو ، وقد تظهر من بين الاحتياجات والظروف والتقاليد المحلية . ولعل ما كان ينظر إليه باعتباره نمواً حضرياً تلقائياً ذا نسب ومجال يتمشي مع الحجم البشري والنشاط البشري الذي يكمله يتحتم علينا الآن أن نخفاه بعناية ونجزه بسرعة . ولكن نفس المبادئ العضوية تكون منطقية . ويحتاج التخطيط في ظل تلك الظروف إلى يستأنى يكون ذا موهبة . وعلى درجة من الحساسية ويستطيع أن يتفهم أن أحداث توازن المتناقضات بين مكونات بيئة ما يجب رعايته وتغذيته بجعله متجاوباً مع الصفات المميزة لكل هذه المتناقضات ومع التداخل الحادث فيما بينها ومع العشوائية الكامنة في عملية معقدة ومؤقتة . هذا هو التبادل الجوهري بين الناس والمكان، وتوجد جماليات البيئة في الارتباط الانراكي بينهم . ولعل القدرة على غرس الجانب الوظيفي والجانب الجمالي باعتبارهما جانبين غير منفصلين لنفس

النمو الحضري هو الذي يجعل التخطيط فنا ويجعل المخطط فنانا . فهل هناك عمل أكثر من هذا عمقا أو مجالا أكثر أهمية ^(٥) .

أرنولد بيرلنت
(جامعة لونغ أيلاند)

(٥) هناك ملاحظة سابقة تتمحور عن جوانب مختلفة للجماليات الحضرية

أنظر أرنولد بيرلنت

Urban " Aethetic Paradigms for an ecology", Diogenes, 103 (Fall (1978) 1-28 .

الأغنام الصغيرة والبحر

الملاحه المبكرة في البحر الأبيض المتوسط

جيراثيل كامبس

حينما نذكر الأغنام والبحر تبدو لنا الصلة بسيطة للغاية بين الأغنام كتوع وبين عالم بحر تيشس . وربما نجد لذلك مبرراً إذا تذكرنا عنواننا من عناوين قصص هيمنجواي مثل "أغنام بانورج" التي اندفعت بغريزتها الي القاء نفسها في البحر وراء قائدها . وربما اتجهنا أيضا الي تبرير تلك الصلة عن طريق ما تؤدي اليه الرياح من حدوث تموجات خفيفة علي سطح البحر الأبيض المتوسط تشبه تجاعيد الصوف علي أجسام الأغنام .. ولكن ما فائدة كل هذه التصورات ؟. الأفضل من ذلك هو أن أصرح بالإشارة الي واقعية العنوان ، ذلك أنني أقصد بالفعل مناقشة موضوع الأغنام ، والصغيرة منها خاصة ، في علاقتها برحلات البحر ، أو باختصار سوف أحاول التوصل الي أن استثناس الأغنام انما يرتبط ارتباطا وثيقا بالملاحه المبكرة في البحر الأبيض المتوسط وبخاصة في حوضه الغربي .

لم يمض زمن طويل علي بدء علماء ما قبل التاريخ ، الذين اعتبروا أنفسهم بسطاء وغير معقدين القيام بأعمال الدراسة ، والتنقيب لحل تلك المشكلة بطريقة وضعية مؤكدة . كان من أول نتائج ذلك الكفاح الطويل الذي استمر خلال القرن التاسع عشر قبول فكرة وجود انسان قديم وتطوره ، فاقاموا بذلك العديد من الافتراضات القاطعة التي اعتمدت علي البيانات التي كان

المترجم : محمد جلال عباس

يعتقد انها علمية . ولكنها كانت في حقيقة أمرها تنصف بالمنطقية وسوف نلاحظ أن أحد تلك الافتراضات قد ربط بين العصر الحجري الحديث وأصل استئناس الحيوان ، وافترض آخر بأن استقرار الانسان والزراعة و ظهور الفخار ، كلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعصر الحجري الحديث ، حيث ان ذلك العصر كان بمثابة العصر الذهبي الذي شهد تغيرا في أحوال الانسان . فالانسان ، ذك الكائن الذي يستغنى ويستهلك من الطبيعة ، والذي كان مجرد صياد وجامع للأثمار وهدام للطبيعة ، أصبح راعيا وزارعا ومنتجا . ومما يستحق الذكر هنا أن الفلسفة الماركسية طالما أكدت علي ثورة العصر الحجري الحديث وأعلنت انها هي اولي الثورات التي سيتتابع حدوث أمثالها في المستقبل .

ومن الخطأ أن نعتقد أن ذلك التحول كانت له جوانب اقتصادية فحسب . بدت واضحة في تحسن الأحوال المعيشية . والحصول علي غذاء أفضل وحنوث نمو سكاني ، بل أن المجتمع والعقل وحياة الروح قد تغيرت جميعها بسرعة ماثلة ويصورة جذرية تماما ممكنا حدث في الجوانب الاقتصادية ، فمن الآن ننسوي الي حد ما للعصر الحجري الحديث . وكانت أعقاب العصر الحجري القديم أو فترة العصر المسبني البسيط هي المرحلة التي امتدت فشغلت الفترة من الألف الثامنة الي الألف السابعة قبل الميلاد وحقق الإنسان خلالها أعظم التغيرات الجذرية التي أنجزها في تاريخه ، غير ان تلك التغيرات بدلا من أن تكون تغيرات طبيعية كسابقتها كانت في هذه الفترة تغيرات في مبال أسلوب الحياة وحياة المجتمع .

ومن بين الافتراضات النظرية التي تبني سليمة من الناحية المنطقية ومقبولة بصفة عامة . ما يؤكد اصول وشكل الثورة . أو التغيرات الجذرية فمن الصفات البارزة المميزة للعصر الحجري الحديث أن التحول الاقتصادي قد جاء نتيجة طبيعية لتفانم طريقة الحياة الاستنزافية . إذ أن ظهور الزراعة وتطورها أجبر الانسان علي البقاء بجوار الحقول كي يقوم بإعداد التربة للزراعة ثم يقوم بعملية بذر الحبوب ثم مراقبة نمو النبات وأخيرا جني المحصول . وكان من نتائج انتاج كميات وفيرة من الطعام عدم الحاجة للتنقل للحصول علي الطعام النادر كما كان عليه الوضع فيما سبق . وكذلك أصبحت القبائل التي أحضرها الانسان لسيطرة الجساعة توفر اللوم والبلود اللازمة لسد حاجة الانسان متي قبل أن يتطور الأمر ويستخدم الانسان الصوف ومنتجات الألبان . ونظرا لأن الانسان لم يعد بحاجة الي كثير من التنقل والتجوال ليلقي بجانب الحقول فقد أخذ ينظم بيئته بطريقة أكثر استقرارا ودواما ، فبدلا من اللجوء الي مأوي يتغير كل يوم أو إقامة أكواخ تتغير أو يتنقل بها مع فصول السنة

كما كان يفعل أسلافه في العصر الحجري القديم ، أخذ يصمم ملوي دائم ذا حجم مناسب وأكثر احتمالا لطروف الأجواء الطبيعية ، وهكذا أحلت المنازل محل الأكواخ .

ولأن المنتج من الحبوب يحتاج الي حماية فإن ذلك المنزل لم يعد مجرد مكان يأوي اليه بل أصبح يضم ضمن بنائه العناصر المادية اللازمة لتنظيم ذي أساس اجتماعي أسري يكون لكل فرد بداخله مكان خاص وحور يؤديه . ويرجع الفضل في حدوث النمو السكاني كذلك الي التحسينات والتعديلات التي أدخلت علي اسلوب الحياة . فلم تعد هناك جماعات صغيرة من الصيادين تتجول بحثا عن الصيد في أماكن شاسعة حول الأماكن التي يتوون اليها بل أصبحت التجمعات كبيرة تضم الكثير من الأفراد الذين استقروا في مناطق محددة ، وأصبح من النادر أن نجد في مخلفات العصر الحجري الحديث منزلا منعزلا ، بل وجدنا القرى التي يبدو أن انشائها كان نتيجة مباشرة للتنظيم الاقتصادي الجديد .

وقد تواصل وضع التطورات التي صاحبت وأعقبت ذلك التغير المحسوس في قائمة تنبني علي المفهوم القديم الذي يرجع كل التطورات الي اصول اقتصادية . فبناء علي هذا المفهوم الماركسي تعتبر كل التطورات الثقافية نتيجة للتغيرات التي حدثت في المجال الاقتصادي ، علي أن هناك فكرة أخرى يتمسك بها غوردون تشايلد مؤداه أن ذلك النظام الاقتصادي الجديد قد تم ابتكاره أو بالأحرى فرضه علي الانسان نتيجة للضغط الطبيعية التي وقعت في مكان ما بالشرق ، وأن النظام انتشر من ذلك المكان الشرقي الي سائر الجهات التي يسكنها الانسان في العالم .

لم يعد هذا المفهوم القديم مطبقا اليوم نتيجة لظهور مدرسة جديدة حررت نفسها من التفكير التقليدي وأصبحت تفكر في ضوء النتائج المنظورة للموسسة التي توصلت اليها البحوث الأثرية في الشرق خلال العشرين سنة الأخيرة . فقد قامت حفريات عديدة مثل حفريات بيرو J. Perrot في عين الملاحه ، وحفريات كولفين J. Cauvin في تل المريبط ، وحفريات كونتنسون J. Contenson في تل أسوار و تل رماح . قدمت لنا كل تلك الحفريات وغيرها اثباتات مؤكدة ومقبولة علي أن الانسان أنشأ قرى ليعيش فيها معيشة دائمة قبل أن يعدل من استراتيجيه غذائه بالتحول الي فلاحه الأرض ورعي الحيوانات . ونتيجة لهذه المعلومات تغيرت الصيغة التقليدية القديمة الي العكس وأصبحت الصيغة الجديدة هي أن تحول الانسان للزراعة كان نتيجة لاستقراره المكاني ، وعلي هذا الأساس يصبح التغير الاقتصادي نتيجة للتغير

الثقافي . هذا ولم يكن الجفاف هو السبب الذي أدى الي تسهيل استئناس الحيوانات كما يتصور غوردون تشايلد ، ولم تكن فلاحه الأرض هي السبب في استقرار الانسان في مكان واحد ، بل أصبح العكس هو الصحيح ، ففي ضوء المعطيات الجديدة كان الاستقرار الذي هو ظاهرة ثقافية اجتماعية هو الذي أدى الي التقليل من تحرك الانسان من مكان الي مكان ، فنشجمه ذلك بالتالي علي السيطرة علي الحيوانات والاحتفاظ بجواره بأنواع الحيوانات التي استأنسها فيما بعد . وعلي البحث عن أنواع النباتات التي اختار من بينها المحبوب ذات القيمة الغذائية (١) .

أصبحت الفكرة القائلة بأن الشرق له قصب السبق كأصل مؤكد لكل ما حدث من تقدم اقتصادي ثقافي موضع التساؤل والجدل . ذلك أن الاعتقاد الذي كان سائدا هو أن أشغال السيراميك ، التي تعتبر أحد المعايير التي يقاس بها العصر الحجري الحديث، نشأت أصلا في سوريا في الفترة ما بين الألف السادسة قبل الميلاد ، وأن فترة من الزمن قد انقضت قبل أن تنتشر تلك التقنية في انحاء الشرق الأوسط وأقطار البحر المتوسط ابتداء من عام ٦٠٠٠ ق.م . فلم يعد يشارالي هذا الافتراض علي أنه من الإثباتات الهامة علي صحة المصدر الشرقي للسيراميك ، فقد أصبحنا اليوم نعلم تماما أن السيراميك ابتكر في فترات مختلفة في أماكن متعددة منفصلة (مثل أمريكا الوسطي) أو متباعدة (مثل اليابان ، والشرق الأدنى ، والصحراء الكبرى) . وبذلك أصبح من الصعب الاعتقاد بأن هذه التقنية التي ظهرت أول ما ظهرت في الشرق الأدنى قد انتقلت منه بصورتها الي كل تلك المناطق . وعلي حد معارفنا الحاضرة لم يعثر علي أقدم أشكال الفخار لا في سوريا ولا في الأناضول بل في جنوب

(١) هذه الأفكار وبرت في كتاب كواين بعنوان القرى الأولى في سوريا والاسطخ في الفترة من الألف التاسعة الي الألف

الثامنة قبل الميلاد .

J. Cauvin, les premiers villages de Syrie - Palestine du IX au VIII

millénaire avant J.C., Maison de l'Orient méditerranéen, Lyon

1978

السمراء الكبرى (في تجلجال بهضبة آير التي يرجع تاريخها الي ٤٧٠٠ قدم بمقياس التاريخ المبني علي دراسة اشعاع النظير الكربون١٤) (٧)

لماذا لا ينطبق ذلك علي التقنيات الأخرى للمسح الجبري الحديث ؟ ألم يبتكر الهنود الأمريكيون خلال ما قبل العصر الكلاسيكي زراعة الذرة والفول والحماطم ، وغيرها من المنتجات الزراعية دون أن يستعيروها أو ينقلوها من الشرق الأدنى ؟ وفصلا عن ذلك فإن الهنود الأمريكيون قد استأنسوا أيضا حيوان اللاما .

ولنعد الي الأضغان ، فمن المهم بادئ ذي بدء أن نتذكر أن العلاقة قد قامت بين الإنسان والحيوان منذ العصور الجبري الوسيط ووصلت قرب نهاية ذلك العصر الي درجة من التعقيد جعلت خبراء علم الحيوان يواجهون صعوبة كبيرة في التمييز بين ما كان مستأنسا منها وما كان برياً . وهناك ظاهرة أكثر إثارة للدهشة هي العكس . فلم يؤد استئناس المواليد من صفار تلك الحيوانات الي تعديل كاف أو إعادة تشكيل للحيوان ، فكلما اقتربنا من فترة بداية الاستئناس زالت صعوبة التمييز بين الحيوان المستأنس والحيوان البري الذي أخذ منه الحيوان المستأنس . وهي حقيقة يجب ألا ننقلها .

(٧) امصلاص التاريخ الكربوني ١٤ (C. 14 Chronology) يعني التاريخ الذي يتم تحديده بقياس الاشعاع الكربوني للنظير ١٤ الذي تحويه العينات ، وتحدد المعامل والمشتريات هذا التاريخ بالنسبة لما قبل الحاضر (ق ح) وهو في الواقع ما قبل عام ١٩٥٠ . والواقع أن هذه التواريخ ليست مضبوطة تماما ، ولكي نتمسك علي التواريخ وفقا للتقويم فلا بد من تصحيحها أو كما يظن المختصون عمل المعايرة (Calibrate) وذلك بأن نتمثل في الاختيار تحديد التاريخ بواسطة عمر الأشجار deadrochronology . ويتجنب أي تضاعف في التفسير استخدما في هذه الدراسة الاشارة الي كل من التقويم الزمني قبل الميلاد (ق م) وقبل الحاضر (ق ح) بالمعيار أن أيا منهما لا يرتبط بالتواريخ المطلقة للفترة التي نبحثها هنا والتي هي قبل ذلك بكثير . ويشاء علي ذلك فإن أيا ميته يكون تاريخها الكربوني ٦٢٠٠ + ١٦٠٠ ق ح أو ٢٢٥٠ ق م قابل في تقويم التنتائج انزمية ما بين عام ٥٣٦٠ ، ٤٩٢٥ ق م . ولما كانت المعايرة بالمعز الفجري لا يمكن أن تتجاوز عام ٧٢٤٠ ق م أي قبل الحاضر فمن الأفضل الاستمرار في استخدام التاريخ التقليدي بالزمن الكربوني (ك ١٤) كي نتجنب أي موع من انشط .

حاول البعض التعلب علي هذه المسوية باستخدام الاحصاءات ، فنظرا لسهولة تحديد عمر الهيكل العظمي عن طريق فحص الأسنان أو تقدير درجة صلابة الفسيفساء أصبح من الممكن حمل منحني يبين أعمار الحيوانات المذبحة التي عثر علي بقاياها في مختلف طبقات الطائر وبغارة ذلك بمنحني أعمار حيوانات الصيد . فإذا ما ظهر أن نسبة الحيوانات الصغيرة غير المكتملة النمو أكبر فإن ذلك يدل علي وجود الستثناس . واعتمد التأكيد من وجود الستثناس في منطقة زواي شامي شانيدر في جبال زاجروس خلال الألف العاشرة قبل الميلاد علي هذه النظرية. بيد أن هذا الدليل أصبح اليوم موضع تساؤل ، فليس من شك في أن مسألة أصول الأغنام المستأنسة أصبحت مسألة مطروحة ومتكررة في الكثير من البحوث . ومن الواضح أنها مسألة تلقي اهتماما عظيما لأنها تمس العناصر البنائية للعصر الحجري الحديث ، غير أنه من الضروري تناولها بكون أخفاء أي بيانات ومع التجرد من أي تعصبات أو أفكار مسبقة ، كما أنه من الضروري تحديد التساؤل حولها في إطار الزمان والمكان معا .

وبع اختيار أبقدر المحيطة بالحواس الغربي لبحر الأبيض المتوسط يمكننا أن نحدد هنا عمر البحث ت بسيت تلوومون تساؤلات ثلاثة رئيسية هي :

— هل يوجد في غرب البحر المتوسط، أو بمعنى آخر في جنوب غرب أوروبا والجزر وشمال إفريقيا ، أي أنواع من الأغنام الأسلية قد تكون مصدرا للمستأنسة ؟ .

— هل هناك امكانية لافتراض وجود رعي أبقام قبل الألف السابعة قبل الميلاد وهي الفترة التي بدأ فيها تنظيم التبادل واحتمالات قيامه في كل أنحاء المناطق المحيطة بالبحر ؟ .

-- ما هو شكل الأبقام التي تواجدت خلال العصر الحجري الحديث ؟

أقدم الأغنام في القرب :

غير الكثير من الكتاب في فترات مختلفة عن رأي يقول بأن الأغنام الأوربية المستأنسة قد يكون لها أصل محلي^(٢) ، ويستند هذا الرأي علي وجود نوع بري من الأغنام هو أكثر الأنواع ملائمة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط علي وجه الخصوص . حقا إن بعض بقايا الأغنام البرية اكتشفت في بعض مواقع العصر الحجري القديم ، ولكن رغم وجود مثل هذه المواقع فإن عددها والبقايا العظيمة فيها بصفة عامة نادرة بدرجة لا تسمح بالتمييز الدقيق . وربما وجدنا من هذه المواقع التي ترجع الي العصر الحجري القديم نحو عشرة مواقع إلا أن أربعة منها تنتمي الي العصر الجليدي الأول (ريس Riss) وهي الموجودة في كل من كوان دي لارجو ، ولونيل فييي ، ولازرايت ، وكهف الأوبزفانتار ، وهناك موقع آخر يرجع الي الفترة بين الجليدية المسماة فورم ١ في بيش دي لازي ، واثنان يرجعان الي الفترة بين الجليدية فورم ٢

(٢) انظر المراجع التالية :

- م باراي دى . دي فيتاناف : كهف الملاحظة في موناكو

- M. Boule and L. de Villeneuve, La Crotte de l'Observation a Monaco-Archives de L'Institut de Paleontologie Humaine, I, Paris Masson, 1927

- ب دوكوس : طبقات مصر المعادن في شاترليف في مارييتوي : الثدييات ومسألة الاستئناس في فرنسا

P. Ducos, "Le Gisement de Chateaufort Les Marligieres. Les mammiferes et les d'anthropologies prehis-problems de la domestication en France. "Bulletin de Museetore francais. t. II, 1985 P. 119-133 .

- نلس الكاب: بعض الوثائق القصصة ببداية الاستئناس في فرنسا

- Id. "Quelques documents sur les debuts de la domestication en France "La Prehistoire Francaise, to II, 1976, P 165-171

- ج . موراى : بداية الزراعة الأوربية : دراسة في الدلائل التاريخية والقبائلية حتي آلاف الثانية قبل الميلاد

- J. Murray, The First European Agriculture, A study of the Astrological and Botanical Evidence until two thousand B.C. Edinburgh University Press, 1970.

- ج . كورتين : الحيوانات المستأنسة في العصر الحجري الحديث في بروفانس

- J. Courin, "Les animeaux domestiques du Neolitique provencal", L'elevage en Mediterranee occidentale, Aix-en-Provence, CNRS, 1977, P. 67-

في مغارة ليستالو ومغارة مونتاريت ، وثلاثة ترجع الي العصر الجليدي الأخير في بلام دي جالوس . وأيري ياجس أو محمية ياجس والورجيس . وفي معظم هذه الحالات أمكن تمييز نوعية الحيوانات فقط ، ولكن وجود أغنام برية خلال العصر الحجري القديم أمر محتمل ولكنه غير مؤكد ، كما أن الأماكن التي حدها بويلين يشك في وجود الأغنام البرية فيها^(٤) ، ولا بد أن نضيف أنه لا توجد وصفات تسمح لنا بتحديد علاقة مؤكدة بين تلك الأغنام البرية والنوع المستأنس المعروف بأغنام أريس (Ovis Aries). ولنا أيضا تحفظات علي النتائج التي توصل اليها باولي والذي يقول :

" إن الأغنام المستأنسة مولدة من اصول متعددة ، وأن الفصائل المتعددة ربما تكونت محليا في البلاد التي كانت الأصول البرية تعيش فيها ^(٥) ". وبناء علي هذه الطريقة من التبرير قد نتأكد لدينا فكرة الأصول المحلية للخيول المستأنسة في مناطقنا نظرا لأن الحصان البري كان منتشر الوجود خلال حقبة البليستوسين العليا أو ربما وجد منذ بداية حقبة الهولوسين .

ومن بين أنواع الأغنام التي يحتمل وجودها خلال العصر الحجري القديم لم يتبق الا فصيلة الموقلون المعروفة باسم أغنام موسيمون (Ovis Musimon) من جزيرتي كورسيكا وسردينيا . أما الحيوانات الأخرى التي تصمي خطأ بالموقلون ذات الباقة (Amnotragus Lervia) التي توجد في شمال افريقيا فانها لا تنتمي الي فصائل الأغنام ، ولا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال أصول للأغنام المستأنسة ، ورغم أنه كانت هناك تسمية انجليزية خاطئة لها بأنها أغنام البرير فانها في الحقيقة أقرب ما تكون الي الماعز التي تسمي اموتراجوس وهي النوع الوحيد في تلك المناطق ، ونجدها في المغرب تعيش في مثل الظروف البيئية التي تعيش فيها ماعز الأيبكس (Copro Iboex) أو تيس الجبل الأوروي .

(٤) ف. ب. بويلين : باليتولوجيا الأضام او بداية رمي الأضام

- F. Doplin, " Paleontologie du mouton", Les dibuts de l'eleavage du mouton, colloque d'ethnozobologie, Alfortville, 1977, P. 9-10

M. Boule and J. de Villeneuve

(٥) م باولي وج دي فيلينيف

السابق الإشارة اليه ص ٤٩

ولعل أغنام المولون الوحيدة التي مازالت موجودة في الغرب هي فصيلة أغنام موسيسون التي لها مثل الصفات الوراثية (٤٤ كروموزم) التي تتصف بها أغنام المولون الآسيوية أو الأغنام الشرقية (Ovis orientatis) ، التي تولدت منها الأغنام المستأنسة المعروفة باسم أغنام أريس . ولقد كان موضوع الدراسة التي قام بها أخيرا بولن وهيني عن أغنام موسيسون هذه وتوصلا فيها الي أن المولون^(٦) هي أصلا أغنام مستأنسة أدخل عليها الانسان عناصر معينة جعلتها تعود الي الحالة البرية ، أو بمعنى آخر قد لا تنرجع أغنام المولون عن كونها أصلا أغناما مستأنسة نقلت الي الأفعال وتركت فيها . وظاهرة العودة الي الحالة البرية ظاهرة معروفة وكثيرا ما تتكرر في الجزر المهجورة أو التي يفل ارتيادها وينطبق ذلك غالبا علي الماعز البري الذي يرجع أصلا الي نوع كان مستأنسا وتركه بعض البحارة عمدا عن قصد محقق أو لبعد النظر تحسبا للعودة . فلم يكن قريبا إذن أن يجد روبنسون كروزي في جزيرته بعضا من تلك الماعز . وتستبر هذه المبررات التي أوردها لين وهيني قوية لأنها تعتمد علي أنه لم يعثر في جزيرة كورسيكا علي أي حفريات تشير الي وجود هذا النوع ، فلم يعثر فيها الا علي انواع من الثدييات الأرضية أكبرها حجما الفأر الشبيه بالآرنب المعروف باسم لوجوميس أو برولاجوس السرديني (PROLAGOS SARDUS) . أما الثدييات الموجودة الآن في الجزيرة فقد أدخلها الانسان عن قصد أو غير قصد أثناء أسفاره العديدة بين كورسيكا وأرض القارة^(٧)

(٦) ف . بولن و ج . د هيني : ملاحظات عن أصل الأغنام في كورسيكا

- F. Poplin and J. D. Vigne, "Observations sur l'origine des ovins. Corse", Congrès préhistorique de France, 21 session, Montauban-Cohors, 1979, p. 238, 248

(٧) ج . د هيني : الثدييات الأرضية غير المنجحة في مصر ما بعد الجليد في كورسيكا وملاحظتها بالانسان

- J. V. Vigne, Les mammifères terrestres du Post-glaciaire de corse, et leurs rapport avec l'homme; étude paleo ethnozoologique fone sur les essemments, Thesis, Paris VI 1983, 3٤

لئن بدا هذا البحث غريبا في مجاله فإنه يتفق تمام الاتفاق مع الملاحظات الخاصة بالحياة الحيوانية في الجزر الأخرى الكبيرة الموجودة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي وتستثني جزيرة صقلية التي اتصلت أرضها بالقارة عدة مرات خلال الزمن الجيولوجي الرابع. أما عن الثدييات الأرضية التي وجدت في جزر الباليرو وفي سردينيا فقد يرجع وجودها الي تدخل الإنسان كما هو الحال في جزيرة كورسيكا .

بيد أن هذا البحث ينقسمه البيانات المحددة من الحياة الحيوانية في أراض مثل كورسيكا حيث تسود تربة حمضية لا تسمح بالاحتفاظ بالعظام . وبالإضافة الي ذلك هناك مثال خاص دقيق هو أن بقايا الأغنام والخنازير التي وجدت في الطبقة الثامنة عشرة من ستار أراجوينا سينولا Araguina-Sennola التي يطلق عليها اسم بونيفاتشيو Bonifacio فإنها ترجع الي تاريخ ٦٥٧ ق م \pm ١٥٠ ق م وهي طبقة سابقة لطبقات العصر الحجري الحديث^(٨)، ولا نجد لهذه الظاهرة إلا أحد تفسيرين :

- إما أن تكون العظام التي بها آثار حريق ظاهرة تؤكد أنها كانت جزءا من طعام السكان في عصر ما قبل الحجري الحديث ممن كانوا يعيشون في ذلك السفح ، وأنها من مخلفات حيوانات مستأنسة من الأغنام والخنازير ، وفي هذه الحالة ربما كانت هذه المخلفات تمثل أقدم دليل علي الاستئناس المبكر الذي يسبق بوضع آلاف السنين مؤشرات استئناس الأغنام في الغرب

- . والا فإن تلك العظام هي مخلفات فصيلة المفلون والخنازير البرية . وفي هذه الحالة تصبح الفرضية التي ترفض أن الأنواع المستأنسة قد عانت الي حالتها البرية علي اعتبار انها تدل علي ارجاع ادخال الأغنام والخنازير الي زمن أسبق بكثير قد يرجع بالتاريخ الي ما قبل تعمير كورسيكا بالسكان .

(٨) ف . ديلانفرانشي وم . س . وامن : ارجوئيلسنولا : عشر أعوام من دراسات ما قبل التاريخ في بينيفاتشيو

- F. de Lanfranchi and M.-Cl Weiss, "Arguina-Sennola. Dixannees de fouilles prehistorique a Benefacio, Archeologia Corsa, Nr. 2, 1977.

علي أن هناك تقسيما آخر ربما يقلل من صعوبة التفسيرين السابقين ، هو أن تلك البقايا العظمية التي وجدت في الطبقة الثامنة عشرة قد أتت الي هذه الطبقة نتيجة التداخل من الطبقة السابعة عشرة التي تطوها وحتى ترجع الي أوائل العصر الحجري الحديث .

أما هـ . بواي الذي قام بعمل البحوث الحضرية في المستوى الثاني (ب) من نفس هذه الطبقة فانه لم يذكر أي إشارة تدل علي وجود مخلفات عظمية ، بل الأكثر من ذلك أنه لم يتحدث عن العثور علي أي آثار لعظام^(٩) . وأود أن اضيف هنا أن حفائر بيرولاجوس المتعددة في نفس الموقع يمكن أن تكون سببا في تداخل العظام التي ترجع الي العصر الحجري الحديث في الطبقات التي تقع تحتها .

فهل لدينا في أجزاء القارة الأخرى - خلاف مثال أغنام موفلون في كورسيكا - آثار تدل علي وجود أغنام برية في أي وقت من الأوقات التي استأنس الانسان خلالها الحيوان مما قد يسهل علينا اقتراض أن الأغنام المستأنسة ترجع الي أصول محلية ؟ الاجابة علي هذا التساؤل بالنقي .

ولنتظر الي وضع الأغنام التي وجدت آثارها وسط مخلفات العصر الحجري الوسيط ، ففي بريتاني ، وبالتحديد في موقع تيفياك^(١٠) ، لم يعثر الا علي أسنان أغنام ، وهي حالة وحيدة لا يمكن أن تعتبر برهانا مقبولا . فهل كانت تلك الفترة من أواخر العصر الحجري الوسيط (الآلاف الخامسة قبل الميلاد) ، علي أحسن الافتراضات ، معاصرة ملائذ العصر الحجري الحديث في حوض البحر الأبيض المتوسط التي أدخلت فيها الأغنام الي جنوب فرنسا ؟ .

(٩) هـ . بواي " الهياكل العظمية النسائية في مقابر العصر الحجري الوسيط في بيفانتشور "

- H. Duda, "Le squelette du sujet féminin de la sepulture preneolithique de Bonifacio (Corse)", Cahiers d'anthropologie, Laboratoire d'anatomie de Saints Peres, Paris 1975.

(١٠) م . وسانت من بيكرادوم . بواي وهـ . فـ . فالزان : تيفيال : "مدينة الغني من العصر الحجري الوسيط "

في مورتيهان

M. and St. J. Pequart, M. Boule and H. V. Vallois

"Tevie, station. necropole-mesolithique du Morbihan", Archiv de l'Institut de paleontologie humaine, 18, Masson, Paris.

تطبيق هذه الملاحظات عن الشك في المخلفات والاعتقاد في حداثة الرواسب التي تحتويها
عن المخلفات الأخرى التي عثر عليها في منطقة المحيط الأطلسي قيل مواقع كاييسودا
أرموريكا في البرتغال ^(١١) ، كوزلندي جرامات ، وفارتينييت ، وكلاهما في منطقة اللوت
والجارون ، وروفيجيكاك أو روفيانياك في اللورديني .

تبدو الأمور أكثر تعقيدا في مناطق البحر الأبيض المتوسط منها في مناطق ساحل
الأطلسي ، ذلك أن الأغنام التي كان يعتقد أنها استؤنست ظهرت في أربعة أماكن ترجع الي
ما قبل العصر الحجري الحديث هي شاتونيف لي مارتيجوي (عند مصب نهر الرون)
وجراماري (في فوكلون) ، وكهف الغزال وستارلورني (في أودي) ، ومن الصعب الآن قبول فكرة
ضم موضعي منطقة بوفانس الي هذه الأماكن .

نحن نعلم تماما أهمية الستار العظيم في منطقة شاتونيف لي مارتيجوي الذي أسهم
اسكالون دي فونتون (M. Escalon de Fonton) في عمل تتابع طبقي له يبدأ من
أواسط العصر الحجري الوسيط الي أواسط العصر الحجري الحديث . ولقد عثر كاتب هذه
السطور علي آثار أغنام في طبقات كاسيلنوفيان تنتمي الي ثقافة محلية ترجع الي العصر
الحجري الوسيط وتسبق مباشرة مطلع العصر الحجري الحديث . وباستخدام بيانات هذه
الحفريات استطاع ديوكوس أن يقرر وجود نوع محلي من الأغنام البرية أو المستأنسة من هذا
النوع البري في ذلك العصر ^(١٢) . ثم قام بالعمل في الموقع الآخر فيما بعد ، وهناك يمتد

(١١) 1.1. مانديس كوريا : الأبحاث الجنية في مويج

A. A. Mendes Correa, les nouvelles fouilles a Muge "XV Congres internationale d'anthropologie et d'archeologie prehistorique, I., p. 257-272

(١٢) ج. روسوت - لاروك : ثقافة العصر الحجري الحديث وأرائقه في لكرتين

J. Roussot-Larroque, "Neolithisation et Neolithique dncien d'Aquitaine"

(١٣) ب. ديوكوس : أغنام شاتونيف لي مارتيجوي ، الرمي في البحر المتوسط الغربي

- P. Ducos, "Le mouton de Chateaufneuf les - Martigues", L'elevage

حفريات حديثة بدأت عملها عام ١٩٧٩ تحت قيادة كورتان^(١٤) فدخلت تعديلات كثيرة على هذه البيانات .

وأهم ما فيها أنه لم يعثر على آثار أغنام في طبقات كاسيلنوفيان، وحتى من البقعة البالغة التي تمت فيها الحفريات لم يلاحظ وجود أي علامات لـ ٧٧٠ ذات أهمية عن الفترة الأخيرة من العصر الحجري الوسيط . ويؤكد النتائج التقريبي السالف الذكر صحة التسلسل الزمني الذي يحدد الجزء الأخير من الفترة الكاسلنوفية فيما بين ٧٦٣ ± ١٥٠ ق ح أو عام ٥٦٨ ق م و ٦٧٢ ± ١٤٠ ق ح أو ٤٧٧ ق م . كما يحدد البداية البدائية للعصر الحجري الحديث فيما بين ٦٩٠ ± ١٠٠ ق ح أو ٤٩٥ ق م و ٦٢٠ ± ١٠٠ ق ح أو ٤٢٥ ق م . وحتى لو كانت الحفريات الأخيرة عام ١٩٧٠ قد أكدت أن الأغنام قد وجدت في الفترة الكاسلنوفية فعلينا أن لا ننسى ما كان يمثل الحيوان بالنسبة لاقتصاد الجماعة وغذائها . فالأغنام كانت تمثل ٢ ٪ فقط من اللحوم التي تستهلكها أي جماعة في تلك الفترة في شاتونيف . بينما كانت الأرانب تمثل ٩٥ ٪ من غذائها . وتغير الوضع في بداية العصر الحجري الحديث فأصبحت الأغنام تمثل ٢٧,٦ ٪ والأرانب ١٥,٣ ٪ من لحوم الغذاء . وفي الطبقات التي تمثل تطور فترة البداية هذه أصبحت لحوم الأغنام تمثل ٦١,٨ ٪ وانخفضت نسبة الأرانب إلى ٣,٩ ٪ وهكذا يبدو لنا بوضوح أن وجود أغنام كاسلنوفيا في أول الأمر كان رغبة في الاستطلاع أكثر من كونه عنصرا أساسيا في الاقتصاد الغذائي^(١٥)

(١٤) ج. كورتان و ج. إيفين وي توماريت "مراجعة التسلسل التاريخي، المطلق مع الدقائق لم، مرقم شاة تبت لم،

ماريتجوي عند مصب الريف"

- J. Courtin, J. Evain, V. Thommeret, "Revision de la stratigraphie et de la chronologie absolue du site de chaumeuf - les Murtigues (Bouches du Rhône)", l'Anthropologie, t. 89, 1985, n. 543-556

(١٥) ب. ديكيس - المرجع السابق الإشارة إليه سنة ١٩٧٧

وقد وجدت الأغنام أيضا في جراماري ، وهو موقع مقترح في ميثاميس (Methamis) بمنطقة فويكوز، إلا أن التسلسل التاريخي عن هذا الموقع غير مؤكد وقيه الكثير من التناقض (١٦) . ولعل ذلك يرجع الي ما تعرض له سطح الأرض من تغيرات لأنها غير محمية مما يجعل المثال غير قابل للتطبيق .

هذا ولم تقدم لنا الحفريات التي تمت في تكوينات ما قبل الكمبري بمواقع لانجوك أي دليل علي وجود بقايا للأغنام ترجع الي عصر أقدم . وكنتيجة لأعمال الحفائر التي قام بها كل من جوملين وجيبديس (١٧) أصبح كهف الغزال وستار دورني معروفين ونلاحظ فيها بعض الحفائق ، فبقايا الأغنام في كهف الغزال متواجدة في مثلث العصر الحجري الوسيط ، وترجع الي بداية الألف السادسة قبل الميلاد (٧٧٦٠ ± ٧٥ ق ح أو ٥٨١٠ ق م) وكانت الأغنام في ذلك الوقت تمثل ٢٠٪ من الأنواع الشائعة ، وفي دورني توجد ظاهرة مماثلة فتظهر الأغنام في الطبقة الثامنة التي تأتي أيضا في نهاية مثلث صناعات العصر الحجري الوسيط ، وتمثل الأغنام فيها ٢٨٪ من الأنواع الشائعة في الغذاء ، وتقل هذه النسبة في الطبقة السابعة التي يرجع تاريخها الي ٦٨٥٠ ± ١٠٠ ق ح أو ٤٩٠٠ ق م

بناء علي ذلك تكون بقايا الأغنام التي عثر عليها في حفائر اقليم اودي التي ترجع الي ما قبل العصر الحجري الحديث معاصرة للأغنام المستأنسة التي وجدت في طبقات العصر الحجري الحديث في مواقع حفائر بازي بجزيرة كورسيكا (٧٧٠٠ ± ١٥٠ ق ح أو ٥٧٥٠ ق م) وفي برايا أماري في جنوب إيطاليا (٧٥٥٠ ± ٨٥ ق ح أو ٥٩٠٥ ق م) وكولافوسكا في اسبانيا (٧٦٤٠ ± ٧٠ ق ح أو ٥٦٩٠ ق م ، وغيرها من المناطق .

(١٦) د . براجن المستوطنة العصر الحجري الوسيط في جراماري بميثاميس - دراسة الحياة الحيوانية .

- Poalain, "Le camp mesolithique de Gramari a Methamis (Vaucluse)

(١٧) د . جيبديس " بداية الرعي في وادي اودي "

- D. Geddes, Les debuts de l'elevage dans la vallee de l'Aude", Bulletin de la socie te prehistorique francaise, t. 78, 1981, p. 370-378

ويمكننا القول باختصار أنه من الثابت أن الأغنام قد ظهرت بصورة مباشرة في الأقاليم البحر سطية بفرنّا في نهاية العصر البوريالي (Boreal) . ولم يكن ذلك بحال من الأحوال قبل ٦٠٠٠ ق م . ومن المحتمل أنها سبقت انخال تقنية السيراميك . هذا رغم أن الطبقات النادرة التي تنتمي الي العصر الحجري الوسيط وتحتوي علي بقايا الأغنام تبين معاصرة لأوائل العصر الحجري الحديث بما يحتويه من مصنوعات فخارية سواء الناعمة منها أو المخزقة أو التي عليها طبعات غائرة أو محفورة

وعليّا أن نأخذ في اعتبارنا أيضا عنصرّا له أهميته التي لم تقدر بدرجة كافية ، ذلك أنه في أثناء الألف السابعة والسادسة قبل الميلاد لم تكن مياه البحر قد بلغت مستوياتها الحالي ، وبالتالي فإن المواقع التي كانت موجودة علي امتداد الشاطئ آنذاك أصبحت اليوم مغمورة تحت المياه . ولا يتم اكتشاف مثل هذه المواقع الا بالصنفة المجردة كما حدث في موقع ليوكات - كوريج Leucate-Correge التي جاء ذكرها في أحد المطبوعات الحديثة^(١٨) . بيد أنه من المحتمل العثور في بعض هذه المواقع المغمورة علي بعض الآثار التي تدل علي تقنيات ومصنوعات العصر الحجري الحديث التي اكتسبت عن طريق الترحال بالبحر .

وعلي حد علمنا لم تظهر مشكلة وجود أغنام العصر الحجري الوسيط في أي مكان آخر من الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، فالأغنام في كل من إيطاليا وأسبانيا تعتبر من الحيوانات المستأنسة ذات الأهمية . ولقد كشف بويريمان عن أن الأغنام المستأنسة ظهرت في اسبانيا خلال العصر الحجري الحديث فقط ، وأن هذه الحقيقة مؤكدة تماما مثل استخدام السيراميك وزراعة الحبوب في ذلك العصر^(١٩) ولكن افتراض استئناس الماعز الذي أثبتني علي وجود بقاياها في طبقات ترجع الي أواخر العصر الحجري القديم فسي كولافوسكا (٧٥١٠ ق م) يحتاج الي اثبات ، إذ أن كثرة وجود عظام الماعز ربما يكون مؤشرا علي أنه كان صيدا

(١٨) ج . جويلين و ا . فرايزيس و ر . مونتجاردان وغيرهم : ليوكات كوريج أحد المواطن الغارقة لأغنام الكاربينيالي في

العصر الحجري الحديث .

- J. Guilaine, A. Preises, R. Montjardin et al., Leucate-Coirrege, habitationoye du Neolithique cardial, Toulouse-Sete, 1984

(١٩) هـ . بويريمان : الرعي في اسبانيا في العصر الحجري الحديث

- H. P. Uerpmann, Elevage neolithique en Espagne", L'elevage en Mediterranee occidentale, Aix-en-Provence, CNRS, P. 87-94 .

الشكل ١ - الكباش ' الكروية الرأس ' من المنقوشات الحجرية في جبال أطلس الصحراوية ١ - في حجرات سيدي
 بريك ٢ - جلمود الأبيض ٣ - برعالم تظهر فيها التلمسة الجانية مع شريط النقر مزخرفة أو بدون زخارف ملحق
 حول الرقبة أو الظهر وزخرفة المصود اللقري

مفضلا (٢٠) مثله في ذلك مثل ظبي البابل الذي وجدت بقاياها ضمن آثار الكبسيين الذين يرجع اليهم الفضل في استئناس هذا الحيوان .

وحقيقة الأمر أن الحفريات القليلة التي تمت حديثا في شمال إفريقيا لا توفر إلا معلومات قليلة عن العصر الحجري الحديث في حوض البحر الأبيض المتوسط القديم ، بيد أن هناك بعض الحقائق ذات الأهمية التي كشفت عنها تلك الحفائر هي :

- أن الأغنام وجدت منذ بداية العصر الحجري الحديث في منطقة طنجة حيث وجدت مخلفاتها في كهوف الخريل^(٢١) ومغارة الصافية ، ومغارة الخيل ، ومغارة العالية^(٢٢)

- عدم وجود أو علي الأقل ندرة الأغنام في طبقات العصر الحجري الحديث ، وكذلك ندرة مشغولات السيراميك المحفورة أو المطبوعة في تلك الطبقات من حفريات كهوف وهران .

هكذا كان ظهور الأغنام في هذا الساحل مرتبطا بوصول السيراميك خلال العصر الحجري الحديث ، كما أن تلك الأغنام كانت ترجع الي أصول خارجية . ولقد ظهرت في المناطق الداخلية الشاسعة حضارة مزدهرة هي الحضارة الكبسية قبل ذلك ببضع آلاف من السنين ، وهناك اكتشفت تلك الثقافة الكبسية التي تبو أنها أحدث من تلك التي اكتشفت في

(٢٠) س . أولاريادي جوتي واستييفينسكال را . و ا . بيل "استئناس في البيئة القديمة في كهف فوسكا (كاستيلون)"

- C. Ollariadi Gusi, J. Estevez Escalera & E. Yll, "Domestication Y. Paleo-ambiente de la Eoval Fasca (Castellon), Le Neolithique ancien mediterranean, Colloque international de prehistoire de Montpeblier, 1982, P. 107- 120

(٢١) ١ . جاليس : كهوف الخريل في أشاكار بمحافظة طنجة

- A0 Jodin, "Les grottes d'El Kharil a Achakar, province de Tangier, Bulletin d'archeologie marocaine, t. III, 1958-1959, P. 249-313

(٢٢) ١ . جيلمان " ما قبل التاريخ المتأخر لطنجة"

- A. Gillman, "A later Prehistory of tangier, Moraco", American School of Prehistoric Research, Bulletin No 29, 1975

قلب الصحراء الكبرى . وبعد الألف الخامسة قبل الميلاد أصبح استئناس الماعز والأغنام ظاهرة موثقة ومؤكدة (في كهف كابييلتي أو خانقة بني محمد الطاهر : ٦٨٠٠ + ٢٥٠٠ ق ح أو ٤٨٥٠ ق م) (٢٣)

والحضارة الكبسية التي ترجع الي العصر الحجري الحديث ميزة خاصة تتمثل في أنها خلقت لنا علي السفوح الصلصالية لجبال أطلس الصحراء كثيرا من الرسوم التي تدل علي وجود الأنواع القديمة من الأغنام مصورة بخواصمها الحيوانية تصويرا جيدا ، وموضحة بصورة واقعية يمكن منها تحديد فصيلاتها بسهولة .

كانت جميع أشكال الصور موضحة بأمانة وبقة جعلت من السهل التعرف علي فصيلة أو أكثر من أغنام الصوف من فصيلة لونجيب *Ovis Longipes* أو أغنام فيتزنجر الطويلة القرون التي اختفت من المغرب ولكنها مازالت موجودة في نطاق الساحل الممتد من موريتانيا الي تشاد (٢٤) . أما الأغنام القصيرة الشعر فأنها تماثل فصيلة كانت مستأنسة منذ عهد قديم جدا وظلت موجودة في مصر حتي عصر الدولة الوسطي ، وهي التي تسمي أغنام منديس (أو فصيلة الأغنام المصرية القديمة *Ovis paleoegyptiaca*)، ويتميز عن تلك التي وجدت في كهوف جبال الأطلس بأن قرونها ذات علامات حلزونية جانبية ، وهي صفة ما زالت موجودة في بعض فصائل أغنام نطاق الساحل (ويخاصة التي ترعاها قبائل الفولاني

(٢٣) ص . روبيت ، الاقتصاد الري السابِق لقرابة في شرق الجزائر

- C Roubet, *Economic Pastorale preagrecole en Algerie orientale, Le Neolithique de trandition capsienne*, CNRS, Paris, 1978

(٢٤) ج دوتروسولي . الري في النيجر

- G. Doutresoulle, *L'élevage au Niger, 1924, Ltd., L'élevage au Soudan Français*, 1952

الشكل ٢ - مشغولات السيراميك الكاريدالية في الطائر غرب البحر الأبيض المتوسط

وتعرف باسم سامبوران (Samboran) . ولعل اللغة البالفة التي تميز زخرفة قرون الكباش الكروية ، وكذلك تزيينها بالريش والأصابع ، ووجود الأطواق والأغطية ، لا تؤكد فقط أنها كانت مستأنسة ، بل ان ذلك كله يعتبر أيضا دليلا يؤكد ما كان لهذه الأغنام من أهمية شعائرية (٢٥) .

وعلى الرغم من أن أغنام جبال أطلس الصحراء لم تظهر في نقوش الجدران التي وجدت في تاسيلي إلا في مرحلة تالية على ذلك بقليل فإنها كانت كسائر الأغنام المستأنسة من فصائل ترجع إلى أصول من الشرق الأدنى خلاف تلك التي كانت موجودة في مناطق التل المجاورة أو في الأقطار البحر وسطية الأخرى . ويبدو أنها دخلت إلى هناك من مصر عبر القارة حيث كان هناك طريق قديم يمر بجنوب بركة التي سرت ثم ينزل في منطقة الأعشاب في المغرب . ولقد ظل هذا الطريق طوال عصور ما قبل التاريخ وخلال العصور التاريخية الأولى هو طريق الغزوات الآتية من الشرق . وهناك طرق متعامدة عليه تمتد من الشمال إلى الجنوب تصله بغرب البحر المتوسط وأشباه الجزر الأوربية . ومن الطريف أن يكتشف في تاريخ أغنام المغرب ذلك الاندماج الذي يعتبر ظاهرة خاصة تميز إقليم البربر (٢٦) .

(٢٥) ج . كامبس : حضارات ما قبل التاريخ بإفريقيا الشمالية والصحراء

- G. Camps, Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Doin, Paris, 1974, Id, "Le belier a spherioide des gravures rupestres de l'Afrique du Nord", Eneyclopedia berbère, édition provisoire, cahier No 22, Oct., 1978

(٢٦) ج . كامبس : أصول البربر : دراسة لأثار والشعائر الجنائزية فيما قبل التاريخ

G. Camps, Aux origines Berberic. Monument et rites Funéraires protohistorique, A.M.G., Paris 1961, ID., "Berberes aux mœurs de l'histoire", Toulouse, 1980

فهل كانت أغنام شمال البحر الأبيض المتوسط لها مثل هذه الصفات الظاهرية ؟ إن من الصعب تأكيد ذلك ، لأنها لم تصور في رسوم ولكننا قد نعتقد أن الأغنام التي استؤنست مبكرا لم يكن لها ذلك الغطاء الصوفي الغزير الذي يشبه ما كان يتدثر به أوليوس ورفاقه أثناء هروبيهم من غضب بوليقيموس . فلا يد أن تلك الأغنام القديمة كان لها شعر قصير خشن ، وربما كانت الأغنام التي وجدت في أوربا مثل فصيلة الموللون الكورسيكية أكثر تطورا من أغنام افريقية إذ أن شعورها لم تكن تنمو بل كانت تتساقط كما يحدث في الفصائل التي ترتفع الي متسوي الأنجورا مما لم يساعد علي انتظام نمو الغطاء الصوفي الذي يمكن أن يستخدم كصوف الغزل^(٣٧) . ولم تفريني صورة مثل تلك الأغنام أراها في الطبيعة البكر وأجسامها خالية من الصوف ، ويكرات المغزل تختفي تماما من مواقع حفائر العصر الحجري الحديث ، فلا نجد تلك الآلة الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق توضع في نهاية المغزل لتلف حولها الخيوط التي تسحب من المادة الصوفية التي جرت من ظهور الأغنام ١.

الملاحظة المبكرة

في كل هذه الدراسات الميدانية التي ظهرت فيها الأغنام المستأنسة في الغرب افترضنا أنها جاءت عن طريق البحر لأنه أقرب تفسير يتفق مع المنطق ويصبح من الضروري الآن أن نورد المناقشات التي دارت حول هذا الموضوع لتقديم هذه الفرضية وبحث الظروف التي أدت الي انخافها بصورة أكثر تفصيلا .

من الأمور الهامة بادئ ذي بدء اننا نلاحظ في اقدم الحفائر التي عثر فيها علي اثار الأغنام القديمة أنها توجد في المناطق الساحلية أو القريبة من البحر ، وهي بذلك تقع في النطاق الذي انتشرت فيه مشغولات السيراميك الأصلية التي لا شك أنها جاءت عن طريق البحر . تؤدي بنا هذه الملاحظة الأولية الي أن نستبعد الي حد ما فكرة الأصل القاري لهذه الأغنام ومجيئها من مضبة الأناضول والبلقان حيث أنها استؤنست هناك وكان السكان

(٣٧) ج . روجيت تطور أساليب جز شعر الأغنام ، بداية رعي الأغنام

- J. Rouget, "L'évolution de caracteres de la toison du mouton",
Les debuts de l'élevage du mouton, Colloque d'ethnozootecnic Al
fortville, 1977, p. 25-32

يرصنها منذ آلاف السابعة قبل الميلاد . علي ذلك لا يمكن أن نعتبر اقليم نهرالدانوب في
 مصر الحجري الحديث كمنطقة ادخلت فيها أوائل الأغنام المستأنسة . وبالتالي فإن الأغنام
 المخروطية الشكل تماثل تماما فصيلة أغنام المولتون (الأغنام الشرقية *Ovis orientalis*)
 أتت من هضبة ايران وجبال زاغروس ، وهذا يجعل الأغنام القديمة ترجع الي أصل شرقي ،
 وبذلك ذلك عدم وجود فصائل محلية من تلك الأغنام في الغرب . ولكن يتبادر هنا سؤال : هل
 كان سكان حوض البحر الأبيض المتوسط يعرفون الملاحه من زمن مبكر يرجع الي حوالي
 ٦٠٠٠ ق م ؟ قد نندهش إذا ما تتبعنا مدي قدم الملاحه علي امتداد سواحل البحر الأبيض
 المتوسط . وبين الجزر والقارة فريما تكون رغبة الانسان أو حاجته للسفر بالبحر قد ظهرت منذ
 زمن مبكر جدا ولو لجرد القيام بصيد الأسماك وحيوانات البحر ، وهو ما أظهرته العديد من
 الرسوم التي خلفها المجلتين . ولكن أسماك السالمون وبعض الحيتان في الحقيقة من بين
 الأحياء المائية التي تسبح من البحر مصعدة الي داخل مجاري الأنهار مما ينعدم معه الدلائل
 علي قيام ملاحه حقيقية في البحر خلال العصر الحجري القديم ، علي الأقل في أوروبا ، لأن
 ذلك لا ينطبق علي جهات أخرى من العالم . مثال ذلك لا يمكننا أن نتصور استيطان استراليا
 منذ ٣٥ ألف عام نون أن يقوم هؤلاء المستوطنون الأوائل بعبور خلجان تورس التي تعتبر معرا
 مائيا واسعا لدرجة جعلت الحيوانات الكيسية (الكفوف) تعيش وحدها نون منافس لها من
 الثدييات المشيمية.

ولعل من المسلم به أن كلمة ملاحه لا تنطبق الا علي الأسفار البحرية ذات الأهمية الخاصة.
 فإذا ما نظرنا الي منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط نجد أن عبور مضيق ماسينا (الذي
 يبلغ اتساعه الآن ثلاثة كيلومترات) لا يمكن أن يعتبر من قبيل الملاحه . بالإضافة الي ذلك لا
 يعتبر عبور المضائق البحرية في أي مكان من العالم دليلا في نظر معارضي فكرة وجود ملاحه
 في عصور ما قبل التاريخ ، لانهم يحاولون تفسير وجود تشابه علي جانبي المرات علي
 أساس النظرية التي تفسر وجود اختراعات متشابهة بأنها مصادفة تأتي نتيجة لتشابه
 الضغوط البيئية . ولئن كانت نظرية الحتمية في تفسير تشابه صناعات وثقافات ما قبل
 التاريخ قد أصبحت غير مقبولة الا أن زيارات الجزر أو حتي الاستيطان فيها يعتبر أحسن
 اثبات علي قيام الملاحه منذ أن انفصلت تلك الجزر عن القارة خلال عصر البليستوسين ، كما
 أن انتشار مشغولات السيراميك الأصلية وتجارة الزجاج البركاني (الاوليسيدون) يعتبر دليلا
 آخر علي قيام الملاحه .

ظهرت صناعات السيراميك في ثقافات الشعوب المحيطة بالحوض العربي للبحر الأبيض
 المتوسط منذ ستة آلاف عام قبل الميلاد ، وربما قبل ذلك ، كما نشأت أساليب معينة في

زخرفة أقدم أنواع الفخار مما جعلها تحمل اسم الفخار الكارديالي وكانت زخرفة هذا النوع من الفخار تتم بضغط ظهر محارة بحرية مكرنة تسمى كارديوم (Cardium) أو طرف محارة مروحية لها أسنان كالمشط تسمى بيكتن (Pecten) علي سطح الطين قبل أن يجف ويحرق . ولذا أطلق علي هذا الفخار اسم الفخار الكارديالي اشتقاقا من أسم المحارة . ويبدو في توزيع هذا النوع من مصنوعات السيراميك أنه يوجد بكثرة علي طول الشريط الساحلي الممتد من منطقة اليكانتي حتي جنوبه، ويقل انتشاره في البرتغال والأندلس وشبه جزيرة ايطاليا ، ثم يظهر مرة أخرى بكثرة حول البحر الأدرياتي وفي بعض الجزر المواجهة لساحل دلتا و إيبيريا . وجزيرة كورسيكا غنية بهذا النوع من السيراميك الكارديالي حيث عثر علي كميات كبيرة منه في أكثر من اثني عشر موقعا موزعة في سائر أنحاء الجزيرة . ولقد وجد نوع آخر من السيراميك يطلق عليه اسم السيراميك التيراني في كل من سردينيا وقوسكانيا (في بينزا) . ووجدت الزخارف الكارديالية أيضا في صقلية علي بعض الزهريات من النوع الذي يسمى أستيتيللو ، وكذلك عثر علي مخلفات فخارية بها تقليد للزخارف الكارديالية ملعت دون استخدام المحارة في أحد مواقع مجموعة جزر مالملة (مفارة دالام) . ولم يعثر علي آثار بها مشغولات فخار كارديالي لا في جزر الباليرو ولا في الساحل الجزائري والتونسي ، مما يدل علي أن ظهور مثل هذا النوع من صناعات الفخار وأماكن أخرى لا يمكن أن يعزى الي الابتكار الذاتي . ويفسر ذلك بأن محار الكارديوم موجود بكثرة علي طول ساحل شمال إفريقيا كله ملغما يوجد في السواحل الأوربية . فلو أن إنسان العصر الحجري الحديث كان قد اتجه بدافع ذاتي غامض الي استخدام هذا في المحار في زخرفة أوانيهِ الفخارية ، فلا بد أن يكون ذلك قد حدث في كل مكان وجد فيه ذلك المحار . بالاضافة الي ذلك هناك نحو عشرة مواقع عثر فيها علي مصنوعات سيراميك كارديالي في اقصى شمال المغرب حول مضيق جبل طارق والمنطقة الشمالية من تلمسان ، لا شك أن وجودها يرجع الي المعرفة بهذه التقنية في صناعات السيراميك نتيجة لقربها من الثقافات الكارديالي في اسبانيا(٢٨) وفي جميع المواقع التي عثر فيها علي بقايا مشغولات السيراميك الكارديالي باستثناء اقدم طبقات أبوايا (في رأس نينيجاتا) عثر أيضا علي آثار أواني مستأنسة ، وينطبق ذلك علي كل مواقع الحفريات في كل من الجزر والقارة علي حد سواء .

(٢٨) ج . كامبس : الملاحية بين أوروبا والشمال الأوربي خلال العصر الحجري الحديث وعصر النحاس

- G. Camps, "Les relations entre l'Europe et l'Afrique du Nord pendant le Néolithique et le Chalcolithique, "Praehistorica Francisco Jurda oblata Salamanca, 1984, p 187-205.

وتعتبر تجارة الزجاج البركاني دليلاً آخر على وجود ملاحه في عصور ما قبل التاريخ، وإن كان استخدام كلمة تجارة هنا فيه شيء من المبالغة بالنسبة للكميات القليلة التي نقلت من هذه الأحجار واستخداماتها في أماكن عديدة . والأوبسيديون (obsidian) أو الزجاج البركاني هو نوع من الصخور البركانية . أو هو بالأحرى زجاج طبيعي يسهل النقش عليه (٢٩) ، وله خواص مميزة في سهولة تقطيعه وتشكيله ، وبالتالي فإن هذا الحجر أو الصخر كان من المواد المفضلة لدى صناع ما قبل التاريخ . ففي بحر إيجه كان الزجاج البركاني الموجود بولارة في جزيرة ميلوس يصدر منذ نحو أحد عشر ألف سنة إلى جزر البليويونيز (فرنسي أارجيف) . أما في الحوض الغربي للبحر المتوسط فقد كان مصدره كل الجزر الموجودة في

(٢٩) قائمة المراجع التي تناولت تجارة الأوبسيديون متعددة نذكر منها على وجه الخصوص :

- ج . كورتان : مشكلة الأوبسيديون في العصر الحجري الحديث بمنطقة ميدي في فرنسا
J. Courtin, "Le problem de l'obsidienne dans le Neolithique du midi de la France", Hommage a Fernand Benoit I, Revue des Etudes Ligures, t. 33, 1972 p.m. 93-109.
- هالام وس. أ. وارين وس. ريفورد : الأوبسيديون في غرب البحر للشرق - دراسة على القطع النيزدي وتحليل الأغيار الشوكية .
- R. Hallam, S. E. Warren, C. Renfrew, Obsedian in Western Mediterranean, Proceedings of the Prehistoric Society, Vol. 42, 1976, p. 85-110.
- ج كاميس : الملاحه في فرنسا خلال العصر الحجري الحديث وعصر البرونز
- G. Camps, "La navigation en France au Neolithique et a l'age du bronze", La Prehistoire Francaise, CNRS, Paris, 1976, t 2, p. 192-201.
- س . بيرس : عشرة آلاف عام من الملاحه البحر وسطية
- C. Perles, Des Navigateurs mediterranees il y a 10,000 ans, La Research Nr. 96, 1979, p. 82-83
- و . ويليامز ثورب وس. أ. وارين ول. ه. ه. بارفيلد : مصادر وتوزيع الأوبسيديون الأثري في إيطاليا الشمالية
- O. William Thorpe, S. E. Warren, L. H. Barfield, "The Sources and the Distribution of Archeological obsidian in Northern Italy", Preistoria alpina, vol 15, 1979, p. 73-92.
- و . ويليامز ثورب وس. أ. وارين وج. كورتان : مصادر وتوزيع الأوبسيديون الأثري من جنوب فرنسا
- O. William Thorpe, S. E. Warren, J. Courtin, "The Distribution and Sources of Archeological Obidian from Southern France", Journal of Archeological Science, t. 11, 1984, p. 135-146

البحر الشيراني ، ومنها مواقع مونت آركي في جزيرة سردينيا . وجزيرة بالمارولا (في أرخبيل بيوتين) لبياري أهدى جزر أبوليا وسانتيليريا في مضيق صقلية . وفي أواسط العصر الحجري الحديث وربما قبل ذلك ، كان الزجاج البركاني ينقل من جزيرتي سردينيا وإيباري لاستخدامه في مناطق بروفانس ولانجدول . بل في أماكن أبعد من ذلك مثل قطلونيا . كما أن الحجارة المأخوذة من سانتيليريا كانت تستخدم في تونس وشرق الجزائر التي كانت تحصل علي امداداتها أيضا من ليباري . وقد عثر علي آلة قطع سليكونية من صخور هذه الجزيرة في تيبيسا بالجزائر . ولئن كانت تلك المواقع هي أقصى ما وصلت اليه هذه التجارة فإن الزجاج البركاني استخدم أيضا منذ أوائل العصر الحجري الحديث بكثرة في شبه جزيرة إيطاليا وفي كورسيكا وحتى في جزيرة لامبينوسا التي تبعد نحو ١٤٥ كيلومترا عن انتيليريا . وكانت سفن ليجوريا آنذاك قد بدأت تزور سواحل لانجدولك حاملة مشغولات السيراميك ذات الطبقات الزخرفية . وأدخلت فيها الكثير من الأدوات المصنوعة من الزجاج البركاني التي جلبت أصلا الي جزيرة ايوليا (عثر عليها في حفائر موقع يورتيانجس التي ترجع الي ٦٤٣٥ ± ١٢٥ ق ح أو ٤٤٨٥ ق م)

ومثلما كان يحدث في بحر ايجه كان الزجاج البركاني ينقل من الجزر الي القارة منذ زمن سابق للعصر الحجري الحديث ، وقد لوحظ ذلك في موقع مثل ارماديلوستيفانين في ليجوريا حيث عثر عليه في الطبقة الخامسة من حفائر العصر الحجري الوسيط ، ويرجع تاريخه الكريوني الي ٨٤٠٠ ± ١٠٠ ق م أو ٦٤٥٠ ق م . حيث عثر في هذه الطبقة علي مكشط وعدد من الشظايا القاطعة من هذا الزجاج البركاني ، ربما أتت من جزر ليباري (٣٠)

أما الدلائل الثالث علي قيام ملاحه في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال عصور ما قبل التاريخ فهو تعمير بعض جزر معينة بالسكان . فلم نعد نري أن مثل تلك الجزر قد عبرت خلال عصر البرونز وهنا لا بد أن نستبعد الجزر الساحلية التي تقع قرب القارة والتي كان الكثير منها ملحقا بالأرض الأصلية القريبة منها حينما بدأت حركة الملاحة المبكرة ، فانفصالها آنذاك

(٣٠) انظر المرجع السابق تأليف : ويليامز تروپ وس ١٠ - وارين ول - جارفيد (سنة ١٩٧٩)

لم يكن قد اكتمل ، وكذلك الحال بالنسبة لصقلية فانها تعتبر الي حد بعيد امتدادا لشبه الجزيرة ، وبذلك فهي حالة خاصة لانها عمرت بالسكان منذ البداية مع تكوين خليج ماسينا خلال الفترات المتتالية فيما بين العصور الجليدية ، فليس من الغريب أن يكتشف مع المصنوعات الأماوية والموسستيرية أمثلة من نقوش الجدران التي ترجع الي العصر الحجري القديم ، وما يستتبع ذلك الوضع من العثور علي ثروة متنوعة من مخلفات المصنوعات التي ترجع الي أعقاب العصور الجليدية.

وهناك وضع آخر علي عكس هذا تماما يظهر في جزر الباليرو وهي مجموعة جزر كبيرة في البحر الأبيض المتوسط تبعد عن الساحل ، وإن كانت إحداها وهي جزيرة إيبزا تظهر للعيان بمجرد الابتعاد من رأس ناو (Cabo de la Nao) . والظاهرة المتمثلة هنا هي أن الحياة الحيوانية في هذه الجزر كانت متميزة بشكل واضح كوجود بعض أنواع من الحيوانات مثل *Myotragus balearicus* ظلت بها حتي وصول الإنسان الذي جاء متلخرا كثيرا.

وفيما بين هذين التقيضين توجد مجموعتان من الجزر ، إحداهما متنوعة الخواص ولكنهما مهمة في دراستنا هذه ، وهي تتكون من حلقة الجزر المتناثرة التي تحيط بصقلية بما فيها جزر أيوليا ، وجزر إيجاديا وسانتيليريا ، وأرخبيل مالطة ، والتي تشوب جزر بيلاجيا ، أما المجموعة الثانية فتتمثل في الكتلتين الأرضيتين اللتين تكونان جزيرتي كورسيكا وسردينيا .

وسوف نتناول هذه الجزر بالدراسة علي الترتيب بدءا من الجزر القريبة من صقلية ثم جزر الباليرو وأخيرا وحدة كورسيكا وسردينيا لنبحث في معرض الدراسة عن أقدم الآثار التي تنل علي الاستيطان البشري لنصل من ذلك الي تحديد الخواص المميزة لكل من هذه الجزر أو الأرخبيلات .

مالطة

يتكون أرخبيل مالطة من جزيرتين هما مالطة وجوزو وعدد من الجزر الصغيرة والكتل الصخرية الكبيرة مثل كوميتو . ويبعد أرخبيل مالطة عن جزيرة صقلية بنحو مئة كيلومتر ، ومن

ثم فقد كان معمورا بالسكان منذ بداية العصر الحجري الحديث^(٣١) ويوجد بها فخار من نوع السيلتينالو الصقلي كما عثر فيها علي مصنوعات سيراميك فيها تقليد للسيراميك الكارديالي . وأقدم تاريخ سجل في هذه الجزر حتي الآن باستخدام تحليل النظير ١٤ (التحليل الكربوني) هو في احدي طبقات حفريات اسكوريا الذي احتوي مشغولات سيراميك بها أختام زخرفية ترجع الي الفترة الزمنية التي تعرف باسم غار داهام (٤١٩٠ ± ١٦٠ ق م) . ولكن هناك ما يدعو الي الاعتقاد بأن استيطان هذه الجزر أو علي الأقل زيارتها يرجع الي أزمنة سابقة علي ذلك بكثير . وعلي أي الأحوال ليعتبر هذا دليلا مؤكدا علي أن الأبقار والخنازير والماشية كانت تربي هنا ، كما كان القمح والشعير والعدس من المحاصيل التي تزرع بها منذ العصر الحجري الحديث .

وفي خلال تلك الفترة وصل الي مالطة زجاج بركاني من ليباري (احدي جزر أرخبيل أيوليا) . وبدأت أواسط العصر الحجري الحديث (مرحلة اسكوريا الرماوية ثم مرحلة اسكوريا الحمراء) منذ الألف الرابعة قبل الميلاد وهي الفترة التي قويت فيها العلاقات مع جزيرة صقلية ، وفي نهاية هذه الفترة حدث تحول واضح ، فقد أقيمت المعابد باستخدام الكتل الحجرية الضخمة (في مرحلة ماجار ومرحلة تاركسيان خلال النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد) . ويعتبر هذا التطور الفني انجازا واضحا يؤكد الحقيقة القائلة بأن الماطليين أصحاب الحضارة التراكسيانية لم يكونوا علي علم باستخدام المعادن الا حينما دخلت الجزيرة في بداية الألف الثانية قبل الميلاد . وليس من شك في أن الذين أدخلوها هم الغزاة الذين هدموا المعابد حوالي عام ١٩٨٠ ق م .

جزر بالاچيا

لئن كان أرخبيل مالطة معروفا فإن ذلك لا ينطبق علي الأرخبيل الذي يضم الجزر الصغيرة المعروفة باسم بالاچيا الواقعة فيما بين مالطة وتونس . وأهم ظاهرة في هذه الجزر هي اكتشاف مستوطنات ترجع الي أوائل العصر الحجري الحديث في لامبيدوسا^(٣٢) . ويمكن

(٣١) ج . د . ايفانز : آثار ما قبل التاريخ في جزر مالطة

- J. D. Evans, "The Prehistoric Antiquities of the Malta Islands", Athlone Press London, 1971

(٣٢) ج . رادي : طبقة رواسب العصر الحجري الحديث في جزيرة لامبيدوسا

- G. Radi, "Tracce di un insediamento neolitico nell'isola di Lampedusa", Atti dello Società toscana di Scienze naturali, Pisa, 1972

ربط هذا الاكتشاف بثقافة ستانتيتالو في صقلية (الآلاف الخامسة والرابعة قبل الميلاد) ، وفي الوقت نفسه كان الزجاج البركاني الذي يرد من بانتيلاريا على مسافة ١٤٥ كيلومترا مستخدما في هذه الجزر . وتعتبر لامبيوسا جزيرة منعزلة اذ تبعد ١٦٥ كيلومترا عن مالطه ونحو ١٢٥ كيلومترا عن ساحل تونس ، وهي بذلك أكثر جزر البحر الأبيض المتوسط مزالة ، ولكنها كانت واحدة من أوائل الجزر التي وصل إليها الإنسان زائرا .

جزر بانتيلاريا

تقع بانتيلاريا في أحد المواقع الحرجة من البحر الأبيض المتوسط ، فهي في مضيق صقلية ، وتقع بالنسبة لها في جنوبها الغربي ، وتبعد سبعين كيلومترا عن داس بوز ونحو مئة كيلومتر عن رأس جرانيتولا . وفي هذه الجزيرة البركانية أكبر مستودع من الزجاج البركاني الذي كان الطلب عليه كثيرا في ذلك الوقت . ولا يعرف بالتحديد تاريخ الاستيطان الأول لهذه الجزيرة ، ولكن بانتيلاريا كانت بالفعل ل تصدر الزجاج البركاني منذ أوائل العصر الحجري الحديث الي أربعة اتجاهات هي : لامبالوسا ، ومالطه ، وصقلية ، وتونس . فقد عثر في كهف حمده قرب مانتكار في تونس على قطع من الزجاج البركاني ترجع الي أواسط الآلف السادسة قبل الميلاد فيما بين 7440 ± 120 ق ح أو 5490 ± 50 ق م و 7110 ± 120 ق ح أو 5610 ، كما عثر في موقع آخر قرب حرجلة على الساحل على شظايا من الزجاج البركاني ترجع الي أواسط العصر الحجري الحديث (5270 ± 140 ق ح أو 3320 ق م)

جزر إيوليا

الي جانب العلاقات القديمة مع صقلية وكالابريا فان لجزر إيوليا أيضا قيمة أثرية ترجع الي اتجارها في الزجاج البركاني الذي يتخذ خاصة من ليباري التي تعد أكبر هذه الجزر . فلقد كشفت دراسة أقدم الطبقات الحفرية في المناطق المرتفعة من الجزيرة^(٣٣) عن وجود صلات وثيقة مع صقلية منذ أن سكنها الإنسان ، كما وجدت بها مخلفات من أنواع سيراميك سيكتينالو عليها زخارف مطبوعة على بعضها باستخدام محار كارديم ، وفي بعض الطبقات الأحدث وجدت أوان فخارية مطلية طلاما جميلا وتتكون زخارفها من شرائط حمراء وبضام

(٣٣) لـ. برنالبو بريا : سبق صقلية على اليونان

L. Bernalbo Brea, Sicilia prima dei Greci, Milan, 1958

م. كافالير : دراسة عمرو ما قبل التاريخ في أرخبيل إيوليا

M. Cavalier, "Ricerche preistoriche nell'archipelago caliano", Rivista di scienze preistoriche, t. 1979, p. 45-137

كما عثر علي أنواع السيراميك التي ترجع الي أصول شرقية ويوجد منها في شبه جزيرة إيطاليا التي انتشرت منها الي كل من صقلية وجزر أيوليا . وابتداء من الألف السادسة قبل الميلاد ، إن لم يكن قبل ذلك ، كانت جزيرة ليباري تصدر الزجاج البركاني الي كل من صقلية ومالطة وكالابريا (كهف مانونا في باريا أماري ، ٧٥٥٥ ± ٨٥ ق ح أو ٥٦٠٥ ق م) .

بيد أن هذه التجارة شهدت انتشارا أوسع منذ الألف الخامسة قبل الميلاد حيث وصل الزجاج البركاني من ليباري الي يورثيراني (في هاروات) . وخلال الألف الرابعة قبل الميلاد كان يصل الي كل الأتحاء حيث وجد في حفائر موقع شازيين في منطقة فوكوز ، وكذا في حفائر جوتيه التي ترجع الي ثقافة العصر الحجري الحديث وفي مخلفات الحضارة الكبسية قرب تيبيسا بشرق الجزائر . وأخيرا شهدت الحضارة التي ازدهرت في أرخبيل أيوليا تضاملا في أهميتها في لواخر عصر البرونز لاتعدام الطلب علي الزجاج البركاني (الأوليسيون) .

جزر أيوليا

لا يمكن فصل دراسة جزر أيوليا عن صقلية فهي شبيهة بالجزر الكبيرة في أنها كانت مسكونة منذ العصر الحجري القديم ، ويدل علي ذلك وجود نقوش علي الجدران في كهف ليناز ، وتمثل صور خيول أبقار وغزلان مع أشخاص يلبسون الأقنعة^(٧٤) . وبناء علي التقديرات التاريخية المتعددة لطبقات الحفائر الأثرية وربطها بهذه الرسوم الفنية يمكن القول بأن هذه الجزر كانت معمورة منذ الألف العاشرة قبل الميلاد . ويؤكد ذلك بعض الدلائل المني علي مقارنة الأنماط الفنية ، ومن المؤكد أيضا أن هذه الجزر كانت آنذاك متصلة بجزيرة صقلية.

(٧٤) جزر يوزي "تقن ما قبل التاريخ في إيطاليا"

1974 - P. Graziosi, L'Art preistorica in Italia, Sansoni, Florence.

جزر الباليرو

نتيجة العزلة الكبيرة التي تتميز بها جزر الباليرو فإن تحديد تاريخ سكانها يكون أصعب بكثير من تحديد زمن السكاني الأولي في مجموعات الجزر الأخرى ، القريبة من صقلية . فبناء على المعلومات المتوافرة لدينا وأحدث البيانات يمكننا القول بأن جزيرة ماجوركا قد عمرت في أواخر عصر النحاس (٣٥) ويتأكد ذلك من التواريخ التي حددت لأثار المواقع (موقع كاباني دي سانكوتكسترا ١٨٠٠ ± ٨٠ ق م وموقع كهف لوس موينوس ١٨٤٠ ± ٨٠ ق م) ويؤكدده أيضا المنشآت القديمة المبنية على طراز نوقيتا ، وكذا مصنوعات السيراميك ذات الأشكال الناقوسية . بيد أن الزيارات السابقة على هذا العصر لهذه الجزر مؤكدة أيضا ويقسرها وجود بقايا هياكل بشرية في كهف موليتا بجزيرة ماجوركا عثر عليها في طبقات حفائر ميتراجوس بالاريكوس ، وهي ترجع إلى ٧١٣٠ ± ١٠٠ ق ح أو ١٨٠٠ ق م . وإسوة العظ لم يعثر على أي مخلفات من صنع الإنسان مع تلك البقايا ، ومع ذلك فإننا نعرف تماما أن مواقع أخرى منعزلة تماما مثل جزيرتي بانتيلاريا ولامبانوزا قد وصلت إليها زيارات بشرية في مثل ذلك التاريخ . ولو أننا استبعدنا إمكان استيطان جزر الباليرو في الألف السادسة قبل الميلاد فإننا سوف نلاحظ أنه في ذلك الكهف وعلى عمق متر ونصف من السطح وجدت عظام بشرية ترجع إلى ٥٤٣٠ ± ١١٠ ق ح أو ٢٩٨٠ ق م ، وفي جزيرة ماجوركا تم تقدير التاريخ الكربوني لإحدى طبقات جرف سون ماتجي فوجد أنه يرجع ٥٧٥٠ ± ١٥٠ ق ح أو ٣٨٠٠ ق م ، عثر على مكشط مع الكربون ، وكان هذا هو الأثر الوحيد الذي يمثل تواجد الإنسان هنا . يؤدي بنا هذان التاريخان إلى اعتبار أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد أقدم تاريخ لاستيطان جزر الباليرو . ومن الغريب أيضا أن نلاحظ أن هذه الجزر لم تعرف صناعة السيراميك حتي عصر النحاس . وذلك لأن جزيرة ماجوركا مثلها مثل جزيرة كورسيكا تقدم لنا الدليل على أن

(٣٥) ١ و ٥ هـ . والدين : بيته ما قبل التاريخ والثالثة في جزر الباليرو : حفائر ودراسات في بعض الكهوف

والنفساء والمستوطنات

W. H. Waldren, "Balearic Prehistoric Ecology and Culture, The Excavation and Study of Certain Caves, Rock Shelters and Settlements", B.A.R. International Series, No. 149, 1982

الإنسان قد غامر وخرج الي البحر قبل أن يعرف فن صناعة الفخار أو علي الأقل لو أن يهتم بتلك الصناعة التي كانت معروفة آنذاك في جهات أخرى ولون أن يدرك ضرورتها لبعض استخداماته . وما زالت الصعوبة قائمة امام عدم معرفة الفخار في جزر الباليو حتي قرب سنة ٢٠٠٠ ق م . ويبدو كما لو أن تلك الجزر قد عانت الي العزلة بعد استيطانها وحرمت من كل الاتصالات البحرية لمدة طويلة تقرب من ألفي عام . حقا أنه من الصعب أن نتصور ذلك ، ولكن من الصعب أيضا أن نتصور عدم اكتشاف آثار السيراميك في أزمنة مبكرة عن ذلك لو فرضنا انها كانت معروفة لدي سكان تلك الجزر .

كورسيكا وسردينيا

تمثل جزيرتا كورسيكا وسردينيا نمطا وحالة خاصة ، فاذا أخذنا في اعتبارنا أن مضيق بونيفاسيو يمكن عبوره اما مباشرة أو عريق لافيزي ومادالينا فتصبح الجزيرتان بمثابة وحدة واحدة ، وانهما انفصلتا عن القارة منذ البليستوسين . ويرجع اعتبارهما نمطا أو حالة خاصة فان ذلك يرجع الي تمييزهما المبكر الذي يرجع الي الألف السابعة قبل الميلاد إن لم يكن قد تم تمييزهما قبل ذلك . وهناك أربعة مواقع في كورسيكا تقدم لنا الدليل علي تواجد الإنسان قبل العصر الحجري الحديث في كل من كهف سكريتا وكهف ستريت ، وكلاهما قرب سانت فلورنت في الجزء الشمالي من الجزيرة وشوراشيا جيهو قرب ليفاي ، وأرجونا سينولا علي خليج بونيفاسيو في الجنوب . ويرجع تاريخ الطبقة التي ترجع الي ما قبل العصر الحجري الحديث في حفائر شوراشيا جيهو الي ما بين ٨٥٦٠ ± ١٧٠ ق م أو ٦٦١٠ ق م و ٨٢٠٠ ± ١٨٠ ق م أو ٦٣٥٠ ق م . أما طبقة الحفائر في أرجونا سينولا فإنها أيضا مما قبل العصر الحجري الحديث وتاريخها ٧٥٢٠ ± ١٥٠ ق م أو ٦٥٧٠ ق م ، وهي واقعة فوق منطقة جبانة ترجع الي تاريخ أقدم عثر فيها علي هيكل عظمي لآنتي محفوظ بصورة جيدة يعتبر أقدم ما عثر عليه من آثار ما قبل التاريخ في كورسيكا . وفي أحد المواقع في جزيرة سردينيا نجد حفائر كوربيدو والتي وجدت تحت مخلفات تنتمي بوضوح الي العصر الحجري الحديث (من فخار وحيوانات مستأنسة) . وفي احدي طبقات هذه الحفريات عثر علي عظام محروقة لأغنام من قصيلة بروجاجوس ترجع الي تاريخ ٩١٢٠ + ٢٨٠ ق م أو ٧١٧٠ ق م فلا يقتصر الأمر بالنسبة لهاتين الجزيرتين علي أن بهما دليلا علي تواجد الإنسان من زمن سابق للعصر الحجري الحديث فحسب ، بل إن فيهما أيضا دلائل ومخلفات من أوائل العصر الحجري الحديث في بازي يرجع تاريخها الي ٧٥٢٠ ± ١٥٠ ق م أو ٥٧٥٠ ق م وفي شوراشيا جيهو يرجع تاريخها الي

هكذا يعمل عليها أن نعو. الوضع الخاص لجزيرتي كورسيكا وسردينيا الي قريبا من القارة . فمسافة البعد عن القارة كانت أقل من ٥٠ كيلومترا في الوقت الذي كانت فيه جزيرة البا علي شكل شبه جزيرة ممتدة من ساحل توسكانيا . ويجب أن لا يدهشنا قدرة الانسان آنذاك علي عبور تلك المسافة علي لوح مسطح أو زورق منحوت في جذع شجرة ، فلا تحتاج هنا الي أن نتذكر وجود الزجاج البركاني الوارد من جزيرة ميلوس في حفريات طبقات أمالي العصر الحجري القديم (أي أواخره) في موقع فرانشييتي ، وفي موقع أرماديلوسيتيفانين في ليجوريا . وحتى فيما قيل ذلك لا ندهش اذا تذكرنا أن عبور مضيق نورس الذي يبلغ اتساعه الآن ١٧٠ كيلومترا قد عبره الاستراليون الذين أصبحوا محطين لدرجة تسميتهم بالآستراليين الأصليين .

علي ذلك لايد أن نقبل - كفضية مسلمة - أن الانسان حتي قيل أن يعرف تشكيل الفخار وحرقة لم يتردد في أن يعامد بركوب البحر . فهل حدث آنذاك أن ظهرت الأغنام المستأنسة في الوقت الذي كان فيه أقدم تبادل عبر البحر الأبيض المتوسط مازال في بدايته . ولم يكن قد اتخذ بعد شكله الفعلي ؟ وهل تم ذلك عن طريق سلسلة من الاتصالات الملاحية كانت تتم علي مراحل قصيرة انتقالا من جزيرة الي أخرى ؟ يبدو لنا أن ذلك ممكن ، خاصة اذا ما تذكرنا وجود أغنام كاستاليونوا في شاتونيف لي مارتيجوي ، والعثور علي بقايا أغنام في الطبقة الثامنة عشرة من حفائر أرجوينايسينولا . ولكن هذه المجموعة من الآثار ، وكذلك آثار أغنام جراماري التي ترجع الي العصر الحجري الوسيط ، مازالت موضع جدال . في الوقت نفسه نجد أن هناك صلة قائمة ومؤكدة بين الأغنام البرية والفخار القديم في جميع المواقع باستثناء موقع أو اثنين في رأس نافيجاتا . أما بالنسبة للأغنام التي ترجع الي العصر الحجري الوسيط والتي عثر عليها في منطقة ماودي (في موقع نورني ، وكهف الغزال) فانها معاصرة لأوائل الأغنام التي ترجع الي العصر الحجري الحديث ، بل يبو أنها مولدة عنها .

وربما ندهشنا أيضا انتشار الأغنام عن طريق البحر ، فمن الصعب أن نتصور أماكن حمل الحيوانات في الزوارق الخفيفة ، ولكن لماذا نتمسك بهذه النظرة المحبودة ونتمسك لفكرتنا عن أن قدرة إنسان ما قبل التاريخ كانت محدودة فتقتصر تصوراتنا علي استخدامه الزوارق الخفيفة ، فقط ؟ حقا إن الملاحة للوصول الي جزيرة لامبالوسا أو بانتيلاريا أو أبينيزا تحتاج

الي معرفة وخبرة ممتازة في اجتياز البحار حتي مع وجود قوارب اكبر من الزوارق الخفيفة والمحفورة في جنوح الأشجار ولم نعثر مع الأسف علي أي آثار تدل علي وجود أي قوارب كبيرة . لم نعثر الا علي عوامات قليلة مصنوعة من جنوح الأشجار كانت تستخدم في الأنهار وفي المصببات الخليجية والخلجان واقدما ما اكتشف أخيرا في نوبين علي نهر السين وقدر تاريخها بالاشعاع الكربوني ١٤ في الألف التاسعة أو الثامنة قبل الميلاد . ولم نعرف شيئا عن استخدام قوارب طويلة ذات قاطس عميق تسير بالمجاديف أو الشراع إل من الرسوم التي عثرنا عليها في بحر إيجة . وكان المصريون آنذاك يعرفون بناء القوارب من ألواح خشبية مثبتة مع بعضها بالتمشيق وتتكون نقوشات مقدماتها ومؤخراتها وجوانبها من كتل مصنوعة من أحواد البوص .

ومع الساعات القليلة أو الأيام القليلة التي كانت تتطلبها الملاحة خلال الألف السابعة والسادسة قبل الميلاد لم يكن أصعب مما نتصور أن تحتل القوارب قليلا من قرب المياه أو سلال الفاكهة وأكياس الحوم المسخنة ، أو ربما عدد قليل من صغار الأغنام كذلك حتي الصغيرة منها من السلع ذات القيمة الكبيرة التي كانت تقدم كهدايا لقبائل العصر الحجري الوسيط التي كانت آنذاك علي استعداد للتأثر بجماليات ثقافة العصر الحجري الحديث .

ولا يعوزنا سوى أن نتصور الدهشة التي غمرت برابرة الغرب حينما قدمت لهم لهوم الانعام دون اضطرار الي سيدها ، فربما ساعدنا هذا التصور علي أن نتفهم السرعة الكبيرة التي انتقلت بها الأغنام عن طريق البحر .

جبرائيل كامبس

(جامعة يريفان)

منهج لدراسة الحياة البشرية

و . كيم روجرز

إذا كانت الحقيقة - داخل حدود الحياة البشرية - هي - كما قال فيكو (Vico) هي ما يصنع ، فإن واجب دارس الحياة البشرية يمكن أن يكون ، وينبغي أن يكون ، الكشف عما صنعه الكائنات البشرية عن أي نوع من الصناعات هم يكونون ، وأي أنواع الانتاج تسمح به ظروفهم .

ينبغي أن تبذل عناية خاصة للطرق المتنوعة التي تعيش بها الكائنات البشرية علي نحو ما يكشف عنه البحث في مجالات مثل علم الانسان (anthropology) ، وعلم الآثار (archaeology) ، والتاريخ (history) ، وكذلك علم النفس الاكلينيكي (clinical psychology) . وكما تبين الناشط البشرية ، علي اختلافها الكبير ، وفي ظروف متشابهة أيضا ، أن الكائنات البشرية يمكنها أن تختبر ، وأن تفعل أشياء كثيرة لا تفعلها ، لذا ينبغي للمرء أن يكشف أيضا من الطرق التي بها تفرض قيود أو رقابة علي صنع حياتها كأفراد . وكأعضاء في هيئات اجتماعية مختلفة اختلافا تاريخيا واجتماعيا .

ترجمة : الدكتور حسن صبحي بكري

وعلي خلاف إجراءات ديلثي Dilthey التي تستلزم الكشف ثانية في العالم عن تشعب البناء العقلاني العام للكائنات البشرية (١) فإن الحياة البشرية الواقعية ينبغي أن تعامل علي أنها "مرايا" تتعكس منها الطرق التي يتبعها الفرد ، وهيئته الاجتماعية عندما يعملان ويختبران في ظروفهما ، فنري منها العلاقات الحيرية رؤية وأشعة ومحددة تماما ، كما تري العلاقات الأخرى - الأثل منها صلة - رؤية أكثر عمقا ، وعلي مسافة بعيدة . إن السبيل الوحيد لفهم حياة بشرية خاصة أو حياة هيئة اجتماعية خاصة تستلزم فحصها من خلال كثير من مثل هذه "المرايا" - ولكن لما كان عددها غير مهم فإن « الصور Images » الناتجة لا يمكن البتة تركيبها لتكون بناء كاملا ومترابا عقلانيا . إن الحياة البشرية لا تمثلها صيغة شعولية يكون لكل عنصر فيها مواقع مقرر منطقيا وصلة لا تتغير بجميع العناصر الأخرى ، ولكنها يجب أن تري في ضوء صلات تاريخية متنوعة خاصة بأعمال وخبرات من الماضي والحاضر والمستقبل فيما يتعلق بظروف يمكن بها أن تتغير .

هل يلزم هذا الأمر المرء بشكل من الأشكال النسبية (relativism) ؟ إن هذا لسؤال يثير قضية خيالية ، لأن طريقة فهم النسبية وأطلاقيتها (absolutism) المترابطة وغير القابلة للانفصال قائمتان علي امتداد زائف لوقف تجريدي صحيح نحو الواقع (reality) . وكلاهما يقبل انفصال الذات عن العالم مما لا يحدث الا في التجريد وكأن به تمييز واقعي ، مع قبول نظرية تشابه خاصة بالحقيقة التي تفترض مثل هذا التمييز . ولما كانا قائمتين علي هذه المقدمة المنطقية الزائفة ، وذلك لا يساعدنا علي فهم أي شيء البتة فإن كلا هذين المصطلحين وطرق الحكم التي يشيران إليها ينبغي لنا أن نسقطها من قاموسنا الفلسفي والطبي .

فإذا خالصنا الي أن مجرد التحكمية (arbitrariness) أمر غير مقبول من الناحية المنهجية (methodologically) ، فكيف ينبغي للمرء أن يقرر حدوده ؟ أي كيف ينبغي للمرء عندما يدرس عادات فرد من الأفراد ، أو أعراف هيئة اجتماعية أن يقرر ما ينتمي أولا ينتمي لبحث ، كيف يقرر في أثناء دراسته للأحداث متى تبدأ هذه الأحداث أو متى تنتهي ؟ ما الأمور المرشدة أو القواعد التي ينبغي تطبيقها هنا ؟ ألا ينبغي أن ندخل أنفسنا في مصطلحات قيمنا مما يجلب النظام والحدود لتساؤلات المرء ؟ وسواء كان هذا حقا أو لا فإن الذي يريشدنا دائما في اقرار ما يجب أن نعلمه هو الشيء المهم لنا في ظروفنا نحن . ولما لم

يكن ثمة بديل واقعي فإن المرء عندما يقرر حدود موضوعه ينبغي أن يبدأ بتوضيح دوره هو باعتباره المنظم لمواده .

من المسلم به علي نطاق واسع اليوم في الدراسات البشرية أن المرء يستخدم لغة هيئته الاجتماعية ووسيلة المعرفة الخاصة بها كي يحصل علي المعلومات المتعلقة بموضوعه ، أي أنه لما كان الترتيب الاجتماعي (socialization) هو الوسيلة (medium) التي يمكن بها أن تدرس الكائنات البشرية الأخرى والهيئات الاجتماعية البشرية بآية حال ، فإن ذلك يجب أن تشمله دراساته . ومع ذلك فعندما يبدأ المرء في أن يدرس الكائنات البشرية فإن منهجه ينبغي أن يؤدي به الي أن يسأل أسئلة لا عن طريقة الاتصال عند تلك الكائنات البشرية فقط بل عن الكائن البشري الذي تستخدمه أيضا ، ويجب أن يكون البيان الذي يعطيه المرء بيانا يسمح للآخرين بأن يكونوا قادرين علي اعطاء بيانات مختلفة عن بيانه .

وقد يقابل المرء هذه الطريقة العكسية لتفهم مواد الدراسات البشرية بطريقة اتباع هامرل Huserl ، وقد عبر جورويتش Gurwitsch^(٢) عن هذه الطريقة أحسن تعبير ، وهو الذي كان يرى أن دراسة كل موقف ثقافي تقتضي ضمنا أعمالا شعورية تجعل من العالم الثقافي المعين لجامعة تاريخية اجتماعية ندا مرتبطا بها ، ولذلك فمهمة علم الظواهر (phenomenology) هي البحث والكشف عن هذه الأعمال الشعورية . ويقرر ما تتطور العوالم الثقافية في استمرارية تاريخية مع بعض بقدر ما يؤدي هذا الأمر الي دراسة التطور التاريخي للشعور^(٣) .

ولكن جورويتش يؤكد ذلك قائلا «> من وجهة النظر التاريخية ليس ثمة حق لاصطاء أي عالم هي خاص امتياز من الامتيازات >> وعلى الرغم من الفوارق الموجودة بين العوالم الثقافية وبالتالي بين أشكال الحياة الشعورية المرتبطة بها ، فهي جميعا . كما يرى تغييرات داخل اطار لا يتغير كما يحدده البناء الشامل والوجودي للشعور . إن ما يهم في هذا السياق الحالي، كما يؤكد مرة ثانية ، هو الإشارة الي الشعور باعتباره الوسيط الوحيد والشامل للدخول .

ومع ذلك فإن من الأمور المريبة ، إن لم يكن ذلك من قبيل الاختزالية Redwctionism

غير المبررة أن تنهم أعمال كائن بشري وخبراته علي أنها « أعمال شعورية » act of Consciousness فقط . وإلي جانب ذلك فإن لجوء علم الظواهر المبهم إلي الشعور كوسيط للدخول إلي العالم يفترض ضمنا أن الآخرين أشياء يجب علي المرء أن يأتي اليها . ولكن الشعور ليس بقسروي بهذا المعني لان الآخرين يقدمون معا الي الحياة مع المرء نفسه ، وهم علي نحو ما قريبون إلي المرء كقرب المرء نفسه لان المرء لا يكون ألبتة منفصلا تماما عن الآخرين حتي المات .

ليس « شعور » بل الحياة البشرية هي في الحقيقة الواقع الأساسي عند الكائنات البشرية لأن ذلك الامر ، خارج ذاته وداخله ، لا يمكن فهمه أو معرفته . فإذا كان علي كائن بشري أن يفهم نفسه أو أي شيء آخر فإن من المسلم به أن حياته – وهذا بالمفهوم السيري [biographical] وليس بالمفهوم البيولوجي [biological] هي الحقائق الأساسية الرئيسية . إنها لذات أهمية قصوي لا لان الحياة البشرية تكون [أو لا تكون] مختلفة عن حياة الأشياء الواقعية الاخرى ، بل لان الحياة البشرية هي مفتاح فهم كل ما يتبقي . إن كل شيء يفهمه الكائن البشري موجود في حياته ، كعنصر أساسي منه .

إن الحياة عند الكائن البشري – كما قال أورتيجا Ortega – « هي مسألة ما نفعل وما يحدث لنا » ومسألة « التعامل مع العالم ، والتوجه اليه ، والعمل فيه ، والانشغال به » إذن سوف تبحث الدراسات البشرية الفرد الحقيقي والاعمال المشتركة للكائنات البشرية وخبرتهم في الظروف التي يعملون ذلك بشئتها ، لا يدرس المرء التطور التاريخي للشعور ، بل النتائج التاريخية لاعمال الكائنات البشرية ، خبراتها في ظروفها .

ولا يمكن إن يكون صحيحا أيضا أن لا يخصص امتياز – من وجهة نظر تاريخية – لعالم حياة خاص ، لانه عند كل جماعة تاريخية اجتماعية ، وكل فرد كذلك ، يكون ماضيها ذا افضلية جوهرية علي حاضرها . إن الكائنات البشرية تكس ماضيها ، وتعمله معها . ويجب عليها أن تختبر حياة بشرية في الحاضر في ضوء هذا الماضي تماما [الذي منه تنطلق نحو المستقبل] .

ويمكن تشبيه تقدم المرء بهذه الطريقة بذلك التقدم الذي يميز سير المرء في طريق غابة طولها خمسة أميال حيث سيعرف المرء أنه يجتاز الميل الرابع لأنه قد اجتاز الميل الأول والثاني، والثالث، وبالإضافة إلى ذلك فإنه بعد رؤية تلك الأماكن الأخرى في وقت سابق فإن المكان الذي يكون فيه الآن يراه مختلفا عما إذا كانت رحلته قد بدأت في هذا المكان ، لأن المعنى الذي سيكتسبه يتغير دائما على طول الطريق بسبب تلك العملية التي تسمى [خيرة الحياة] التي ينحصر اختلافها الرئيسي في أن المرء قد مر بتلك الأماكن الأخرى وأنه قد رآها من قبل .

ولما لم يكن بد من معرفة صلة الماضي بالحاضر والمستقبل فهل يمكن معرفة الأحداث الماضية معرفة صحيحة ؟ فإذا أمكن المرء - وهو ما لا يكون ممكنا - أن يضع جانبها فهم المؤرخ لذاته ولعصره ، فما زال الجواب بالنفي . لا مفر من المفارقة [anachronism] التاريخية ، لأن المرء عندما يعود إلى الأحداث السابقة تكون الأحداث اللاحقة قد حدثت من قبل ، وبذلك لا يمكن بالقول بالماضي كما كان . ولا يستطيع المرء البتة أن يفهم الماضي كما كان لأن المرء يعرف الكثير بدرجة مفرطة ، فيعرف المرء ما لم يعرفه أولئك الذين يرغب في تفسير حياتهم ، أي ما كانوا يرغبون في اختياره ، وماذا كانت نتيجة ، وما كان يتبع ذلك وعلى هذا النحو - وعلى سبيل الوهم والتناقض - تكون نظرة المرء إلى الماضي محددة لأنه لا يبحث إلا عن تلك البدائل السابق اختيارها والتي يمكن المرء - من وجهة نظره الحالية - أن ينسبها إلى تلك النتيجة .

هل يمكن تفسير الأحداث الماضية؟ أي هل يستطيع المرء أن يكشف أسباب الأحداث الماضية ؟ كلا ، لأن التاريخ لا يمكن تمثيله كسلسلة طويلة واحدة . إن البحث عن الأسباب في التاريخ ينيق من [النتائج] التي لم يكن في الامكان تحديدها أمام اختيارات الأفراد الضالعين لأن هذه [النتائج] كانت عواقب اختياراتهم من بين عدة أزمان مستقبلية ممكنة . ولا يستطيع المرء البتة أن يعرف قدرًا كافيًا يعرف به السبب في أن تلك كانت الاختيارات التي قروها لأن على المرء أن يعرف أيضا تلك الامكانات الأخرى . ماذا كان يمكنهم أن يفعلوه ، ولكنهم لم يفعلوا . وما هي صلة اختياراتهم وتلك الامكانات بعواقب القرارات السابقة والامكانات المستتة المرتبطة بهذه إلى الأبد [adinfinitum] وعلاقة على ذلك لما كانت هذه الاعمال - وهي المختارة من بين عدة أزمان مستقبلية ممكنة - موجهة إلى هدف فإن الاعمال السابقة في حد ذاتها لا تقرر الاعمال التالية . إن الأعمال التي يتلو الواحد منها الآخر لا تعتبر بذلك

أنها مترابطة بالمصادفة . فالأحداث التاريخية توصف - علي وجه أكثر ملاءمة - بأنها مترابطة بطريقة إبداعية . مثلها في ذلك مثل أنغام موسيقية في قطعة مرتجلة ، كما يوجد مثلا في موسيقى ال "جاز" Jazz .

قد كان لدراسة " الطبيعة Nature أي العلوم الطب Ntural Science أثر بارز في جميع صور البحث في فترتنا التاريخية . وتتبع العلوم الطبيعية من اقتناع ذي أساس متين علي ما يبدو فحواه أن بعض نواحي عالم الأشياء الحسية منتظم في انسلق ، وخاضع لسلوك يمكن التنبؤ به ومتكرر دوريا وهي " الطبيعة " Nautre إن " الطبيعة " هي تفسيرنا لهذه الأشياء . أي حل إرثاته بعض الكائنات البشرية ، بدما - علي وجه الاحتمال - ببعض مستعمري " أيونيا Ionia " من الأفريق في القرن السادس قبل الميلاد . حل لمشكلات معينة وضعتها أعمالهم في ظروفهم . إن العلوم الطبيعية قد أثبتت أنها عون كبير لنا ، ولكنها يمكنها أن تصير أيديولوجية إذا ما احتيرنا التجريد الذي تدرسه [أي الطبيعة] شامل للواقع بأسره.

إن الطريقة التي اتخذتها العلوم الطبيعية للحصول علي معرفة من الطبيعة في " أن تفسرها " . وإن التفسير يستبدل بالشئ المباشر شيئا آخر - كما يدي - أكثر وضوحا . لقد حاول العلماء - من طريق التنظير - أي وضع النظريات - البحث عن واقع مستتر خلف عالم خبرة كل يوم [لقد كان التنظير علي هذا النحو نوعا من البناء النموذجي] . تتكون النظريات من مفاهيم تكون إذن مترابطة في شكل قضايا أو أحكام تتعلق بأمور وعلاقتها بعضها ببعض الآخر وبها يفسر المرء النواحي المنتظمة لعالم الأشياء الحسية ، ويتألف هذا الأمر اليوم عادة من نسبة "النتائج" [effects] إلي "الأسباب" . [causes] بلغة "القوانين" إن نور " القوانين laws " في البحث العلمي هو تقديم قواعد عامة ليستخدعها العلماء في الحصول علي حقائق معينة . أي إنها " تحكم " govern الطريقة التي يبلغ بها المرء معرفة طمية بالواقع . وأن هذه " القوانين " تبررها فاعليتها وانها ذات شرعية صلية [operational Valedity] .

إن الحقائق التي تنشدها العلوم الطبيعية هي تلك الأنواع من التغيرات في العلاقة التي يمكن التنبؤ بحولتها علي وجه الدقة . وعلاوة علي ذلك فإن الحقائق - وهي التي حد ما ذات استقلالية - يسبق اختيارها بفضل تطابقها مع المفاهيم المستعملة في النظرية العلمية .

وليس ثمة فجوة تفصل بين الحقائق والنظرية ، إنما المسألة استكمال أو عدم استكمال سلسلة تجريبية أنتجت نظريا بحقائق تثبت تجريبيا . ومع ذلك فإن العلاقة الجدلية dealectcal بين النظرية والملاحظات التجريبية تكون محفوظة . ولذلك يتطلب البحث العلمي أن يكونا عرضة للمراجعة النقدية بصفة مستمرة ، أي أن العلوم الطبيعية ذات تقنية مركبة فيها - buelt en mechanism للتصحيح الذاتي self - correcteo لنظرياتها وحقائقها .

إن الطريق الذي تسلكه العلوم الطبيعية اليوم كان غالبا طريق البحث عن القوانين التي قد كانت تحكم سلوك نسبة معينة من أناس معينين علي مدي فترة من الزمن قائمة علي التحليل الاحصائي statiscal analysies وليس البحث عن "قوانين" تمكن من التنبؤات بنتائج التفاعلات المستقبلية future interactions ومع ذلك لا تستطيع "القوانين" كوسيلة لدراسة حياة الهيئة الاجتماعية - تلك "القوانين" التي تعتمد صحتها علي استقرار الهيئة الاجتماعية أن تساعدنا علي فهم التغير الاجتماعي أو الاستمرار أكثر من الاحتكام الي "القوانين" من النوع الآخر .

لا تستطيع أية معالجة طبيعية [natwralistic] علي نحو صارم لأية مجموعة تاريخية اجتماعية أن تجعل الديناميكا dynamics المستمرة أمرا مفهوما ، تلك الديناميكا التي تصبح بها متحولة الي مجموعة مختلفة ، ولا أن تفسر كيف كان في الامكان أن تنشأ من شكل آخر من أشكال الحياة الجماعية في المقام الاول ولكنها لا تستطيع أن تفسر مصابر القوة لاعراف جماعة من الجماعات أو لماذا هي مستمرة . وصيغة القول أنها تخفي الحقائق الطارئة من الوجهة التاريخية ، أي حقائق تغيراتها وحقائق استمرارها . وبفضلا عن ذلك فإن هذه "القوانين" يمكن الاحتكام اليها أيضا من الوجهة الايديولوجية من أجل تبرير مقاومة تلك الجماعة للتغيير التاريخي .

ولكي يفهم المرء حياة البشر عليه أن يكف عن الزعم بأنها شئ طبيعي وأن يسلم بالطبيعة التاريخية لنظام حياة البشر الذي يدرك به الكائن البشري الواقعي أو الهيئة الاجتماعية امكانات ظرف خاص بطريقة محددة معينة . وسواء ابتكرت صور جديدة من الحياة البشرية أو استمرت صورها القديمة فإنها يجب أن تفهم في ضوء علاقتها بتاريخها .

قال "أورتيجا" : إن الحياة البشرية هي ما نفعله حول ما هو حادث لنا ، وعلي هذا

النحو تكون حياتي هي " ذاتي وظروفي " myself and my circumstance بالمثل وصف " لو كسلول uexkull العمل Action ، والادراك [perception] بأنهما مترابطان في عالمي الحيوان والكائنات البشرية . ومع ذلك ينبغي للمرء أن يدرك ادراكا واضحاً بأنه بلغة ما يستطيع كائن بشري أن يفعل ، لو ما يفعل حول ما يحدث له يصبح هذا الامر من ظروفه هو ، تلك الظروف التي تناسبه حينئذ تناسباً جيداً أو تناسباً رديئاً بوصفه فاعلاً [Actor] .

إن عمل أي كائن بشري وظروفه يكونان محددين وغير محددين معاً ، أي أن عمله يمكن أن يرتبط بظروفه داخل حدود علاقات ممكنة كثيرة . وإن الدور الذي يمثله كل منهما لا يصبح محدداً إلا بقدر ما يوجد لدخل حياة فردية خاصة باعتباره نظاماً . وبهذه الطريقة لا يصبح ذلك النظام محدداً إلا بواسطة العلاقات الخاصة بين الاعمال والظروف .

إن المعيشة هي ذلك النظام القابل للتعديل والخاص بالتفاعلات بين الكائن البشري وظروفه حيث ترتب تمذجة أعماله وتمذجة ظروفه بطريقة نشيطة وتفضيلية وهو لا يحتاج إلى أي نظام خاص وإن كان يبدو وأنه قد يمتلك بضع أفضليات فطرية [innate] ولكن كثيراً من الاضطراب يبدو خطراً يهدد الكائن البشري [إذ بدت لنا أعمال أي كائن بشري أو ظروفه مضطربة فإننا نقول عنها إنها " فقرة wild ، وأن " القفر wilderness " يظل دائماً عند أطراف الحياة البشرية] .

ولما كانت الكائنات البشرية تستطيع أن تفعل ، وتقدر أن تدرك أكثر بكثير مما هي في واقع الأمر تفعل وتدرك ، كان علي المرء أن يسلم تسليماً مناسباً بنماذجها المفضلة في العمل والادراك كما قد بين " جولشتاين Goldstein " فإن هذه النماذج المفضلة قيود مفروضة على أعمال الكائن البشري ، وعلى ظروفه التي يبتكرها أو يكتسبها عن طريق اشتراك في حياة هيئته الاجتماعية الخاصة . إن هذه الطرق المفضلة في تمذجة أعمال الكائنات البشرية وخبراتهم الفردية والجماعية هي التي ينبغي أن تكون موضوع الدراسات البشرية .

ينبغي للمرء أن يبحث في ماضي أي فرد من الافراد أو ماضي أي هيئة من الهيئات الاجتماعية عن نماذج مفضلة للاتصال والخبرات ، وأن يبحث في الحاضر عن تلك النماذج التي وجدت في الماضي ، وحيث تتداخل النتائج يكون ثمة هدف للدراسات البشرية ، أي أن

النموذج المفضل هو الذي يستمر . وحيث تتوقف عن التداخل يكون ثمة غرض آخر للدراسات البشرية : أي تحول النموذج المفضل أو المفضل أو تغييره . وإن الشيء الأخير وحده لا يدعو الي الفهم ، لان الاستمرار يحتاج الي الفهم أيضا . وإن الاستمرار وكذلك التغيير في الحياة البشرية ينبغي أن يتخذ قضية مسلمة ، بل يجب أن يكون لهما تفسير .

إن العوامل الرئيسية المؤثرة في الاستمرار تتضمن الدور الذي تمثله - كضوابط - الاشياء المصنوعة الحالية ، والادوات ، والمؤسسات والمناظر مما يجسد مهارات معينة ، ومواقف ، ومعتقدات ، وقيم ، وغير ذلك . وينبغي للمرء أن يلحظ أن دراسة الكلمات التي يستخدمها أعضاء هيئة اجتماعية معينة يمكن أن تكون أداة قيمة يستطيع بها المرء أن يفهم ويقدّر ناحية من نواحي الحياة البشرية حدثت في الماضي ، لأنه غالبا يمكن أن يوجد في لغتها [كما يوجد في قوانينها] شيء من الاجداد البعيدين [Atavistic] بشكل حقيقي . ومع ذلك يجب أيضا علي المرء أن يتذكر أنه بعد اختفاء الاسباب الاصلية لظهور كلمة من الكلمات أو نشاط من الأنشطة أو عرف من الاعراف بعد اختفائها بزمان طويل فإن هذه قد تستمر ، ولكنها بعد تغيير لوظيفتها أو معناها أو بعد أن توقفت عن أن يكون لها معنى أيضا، تكون مفهومة .

إن دراسة المرء للتمذجات [patterns] الفردية والعامة التي تفضلها الكائنات البشرية - تمذجات علاقاتها الحيوية ، وترتيب أعمالها وخبراتها مع البعض الآخر ، وظروفها - هذه الدراسة ينبغي أن تبدأ - كما قلنا آنفا - بفحص حياة فرد خاصة ، أو حياة هيئة اجتماعية خاصة تنعكس فيها هذه الأمور ، ولكن التقدم في الدراسات البشرية يعتمد علي قدرة المرء علي صوغ التعميمات من ادراكه للشيء الفريد [The unique] وينبغي لدارس الحياة البشرية عندما يصوغ التعميمات أن يسير مثل رسام الخرائط الذي يعمل في منطقة غير مرسومة ، علي الرغم من أن الرحالة ربما وطلوها تماما ، لكي يعين حدودها ، ومظاهرها الرئيسية ، ويضع العلامات التي قد تهدي بها الكائنات البشرية الاخرى فيما بعد، برؤيتها علاقات كل منها بالبعض الآخر ، كلما تحركت هذه الكائنات في المنطقة للاستقرار فيها وتنمية مواردها .

أي إن المرء يعمم عندما يتخذ نمذجات [patterns] مفضلة لأعمال وخبرات فردية أو عامة لتكون - نقاط أصل points of origin " لكي يربط بينها بواسطة

وصف متكامل أو تخطيط [Schema] ، ويدون تمثيل الظهور الكامل لجميع نماذج الاعمال والخبرات هذه بخصوصياتها والمميزات والاستثناءات التي تتبعها مع ذلك بوصفها وقائع تاريخية . لا يمكن أن تتكرر ، وفريدة ، فإن هذا الوصف أو التخطيط ، مع ذلك ، يظهر إمكانية ارتباط بعضها ببعض الآخر . ولما كان تخطيط هذه النماذج المفصلة للاعمال والخبرات يعتمد علي إمكانية ترابطها الواضح كالأجزاء لنظام يمكن تعديله في حياة الكائن الحي الخاصة ، فإن ذلك يقوم حينئذ بدور حاسم ، بخصوصه تكون التفاصيل مشتتة عليها في التخطيط [Schema] .

وأخيرا فعندما يربط المرء بين عدد من الأوصاف (schemata) حتي يستبين منها أوجه الشبه وأوجه الاختلاف قد يشتق من المقارنة بينها أوصافا محلية أكثر تعميما ، أو مألوية أيضا عن الطرق التي تتبعها الكائنات البشرية في صنع حياتها الفردية أو الجماعية .

وإنه لأمر عظيم الأهمية أنه عندما يصف المرء بعامة نوعا من الارتباط بين النماذج المفصلة في موادته ينبغي له أن يدرك متى تستعمل الاستعارات ، وأن يتأمل بعناية أي نوع تكون هذه الاستعارات ، لأنها سيكون لها أثر حاسم -- وإن لم يكن غالبا أن يكون مسلما به -- في نوع الارتباطات والاختلافات المنشودة . وعلي وجه التخصيص فعندما يتعين وصف نظام الحياة البشرية المنتجة تاريخيا فإن من الواجب تجنب استخدام أي نوع من الاستعارات المشتقة بيولوجيا ، وأيضا مثل هذه الصور [images] التي تبدو ساذجة مثل "النمو" growth و"التطور" development أو الانحدار decline وبدلا من ذلك ينبغي للمرء ألا يستعمل سوى هذه الصور التي تبين تفاعلات الكائنات البشرية بعضها مع بعض أو تبين ظروفها .

وعلي الرغم من أن كل وصف موجز [Schema] يخلص اليه المرء عن طريق وصف تعميمي للاحية من فواحي حياة بعض الكائنات البشرية علي الرغم من ذلك ، يكون هذا الوصف الموجز شيئا ينتجه دأرس الحياة البشرية . لذلك يجب علي المرء أن يقاوم دائما إغراء رؤية ما ينتج عن عمله علي أنه كان حاضرا من قبل كما هو في حياة تلك الكائنات البشرية . إن صفة الوصف الموجز تنحصر في الخصب والفترة علي التعميم التي لكل من النماذج المفصلة الخاصة للعمل والخبرة التي يري اعتبارها " نقطة الاصل point of origina " أي أن عدد وتنوع النماذج الإضافية للعمل والخبرة التي أقامها الوصف الموجز علي هذه

يساعد علي الربط أو المقارنة بين بعضها والبعض الآخر .

والكي الخاص ما ذكرت فإن المنهج الذي اقترحه لدراسة الحياة البشرية الأركان الأربعة التالية :

١- الانعكاسية Reflexivity :

أي أن يتخذ المرء من حيويا بشرية واقعية متنوعة يعاملها علي انها "مرايا" تنعكس فيها بوضوح تقريبا طرق الفرد وهيئته الاجتماعية في العمل والاختبار في ظروفهما ، وكذلك أن يوضح المرء أيضا دوره بوصفه منظما لهذه المواد حتي يقرر ما يحتاج الي معرفته علي وجه التحديد - أي ما هي حدوده الموضوعية thematic والزمنية الخاصة لموضوعاته - بلغة ما هو مهم له في ظروفه هو نفسه .

٢ - الانتماء التاريخي Historicallity ، أو ادراكه القابلية للتعديل في ترتيب حياة الفرد والحياة الاجتماعية ، أي ملاحظة ملاقات الفرد أو الهيئة الاجتماعية بماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها ، والنتائج التاريخ لأعمالها وخبراتها فيما يتعلق بطروف قد تتغير بذلك ، وكذلك مراعاة ما يؤثر فيها مما نسميه «خبرتها بالحياة» exper-ence of life وتراكم ما ضيها الذي به يتغير المعني الذي سيكون للماضي والحاضر والمستقبل عن طريق وجودهما في تلك الأزمات السابقة .

٣ - ادراكه الأفضلية في نماذج أعمال الكائنات البشرية وخبراتهم : أي بحث الطرق المفضلة التي بها تتمذج patterning مختلف الكائنات البشرية أمالها وخبراتها في حياتها الفردية والجماعية ، وبالتحديد البحث في حاضرها عن نماذج موجودة في الماضي لكي تبلغ - علي هذا النحو - ادراكا للنموذج المفضل الذي يستمر ، وإدراكا لتحول أو تغيير النموذج المفضل .

٤ - الإيجاز الوصفي schematizing أي تعميم generalization النماذج المفضلة لعمل الكائن البشري وخبرته : أي معاملة النماذج المفضلة للأعمال

والخبرات عند الفرد أو الهيئة الاجتماعية علي أنها نقاط الاصل "points of origin" ليربطها عن طريق وصف متكامل أو موجز وصفي يعتمد علي علاقتها الواضحة بعضها ببعض (أي الواضحة لدي الباحث) كلجزء من النظام القابل للتعديل الخاص بحياة بشرية خاصة ، وكذلك تجميع أوصاف موجزة schemata حتي تري أوجه التشابه فيها والاختلاف ، ويعبر عنها بواسطة أوصاف موجزة أكثر عمومية أيضا . ويتبني للمرء أن يلحظ أيضا الحاجة الي تغيير هذه الأوصاف الموجزة إذ أن بعض هذه النماذج المفضلة المترابطة علي هذا النحو تتغير علي مدي التاريخ أو يبطل استعمالها ، أو تبتكر لها نماذج جديدة.

إن منهج العلوم الطبيعية ، وعلم الظواهر المجهـم -transcendental phenomenology يتفصلان عن الحياة البشرية ، أحدهما يتفصل عن التاريخ ، والآخر من أعمال الكائنات البشرية التي قيد الحياة وإن المنهج الذي أجملته أنفا -علي عكس ذلك - يعمل من الممكن دراسة حياة البشر الواقعية .

و . كيم روجرز

جامعة ولاية إيسـت تنيسـي

المراجع

(١)

W. Dilthey, "Entwürfe zur Kritik der historischen Vernunft", Gesammelte Schriften, Leipzig and Berlin, B.G. Teubner, 1927, Vol. VII, p. 101. Northwestern University Press, 1974, P. 11

(٢) علي الرغم من أن الملحوظات الآتية تعبر عن بعض الأسباب التي قد طورت من أجلها طريقة مستقلة عن طريقة «جورويتش» ، واتباع «هوسرل» الآخرين . وإنني يجب أن أعتزف أنني مملكون دائماً مديناً له لإطلاعي علي أهمية «كورت جولدشتاين» ، وتقديمي إليه ، وهو الذي تتضح صلة عمله بالدراسة الراهنة فيما يلي . في هذا المقال

A. Gurwitsch, Phenomenology and the Theory of Science, (٣) Evanston, Ill., Northwestern University Press, 1974, p.11.

Ibid., pp. 24,25 (٤)

Ibid., p. 12. (٥)

(٦) إذا كان هناك مراقب وأمامه كائن بشري آخر أو حيوان ، ويرغب في بحث عالمه ، كان عليه أن يدرك أن الدلالات التي يري أنها تصنع عالم هذا الكائن الحساس الآخر هي دلالاته هو ، ولا يرجع أصلها إلي عجب ذلك الكائن الآخر بعالمه الذي لا يستطيع أن يعرفه بطريقة مباشرة علي الإطلاق ، ولا يستطيع أن يفهم الحيوان إلا بأعطائه طبيعة البشر بصفة جزئية . وتتحصر مهمة المراقب الرئيسية في تقرير هند دلالاته وطبيعتها ، دلالاته التي تظهر في العالم المحيط للآخر ، وفي أية فئة يعملان كدلالات فيه ، بملاحظة أولئك الذين يؤثرن فيهم . إن مدي الدلالات وتوقعها مشيئة بواسطة التكوين الجسماني لكل كائن حساس . قارن .

J. Von Uexkull, Theoretical Biology, New York, Harcourt, Brace and Co., 1926, pp. 78-84

J. Ortega. Y. Gasset, Some Lessons in Metaphysics, New York, Norton, 1969, p. 36, History as system, New York, Norton, 1961, p. 14 ثابث What is Philosophy ? New York, Norton, 1960, pp. 216-218

(٨)

J. Ortega Y. Gasset, Meditations on Quixote, New York, Norton, 1961, p. 45

(٩) بالطبع منذ أن استحدثت أعمال «أوكسكول» جزئيا فكر «أورتيجا» نفسه ، تلك الأعمال التي كتب مقفلة لاحدها .

Obras Completas, Madrid, Reviste de occidente, 1966, Vol.VI

J. Von Uexkull, World of Animals and Man, in Instinc- (١٠) tive Behaviors, C.H. Schiller, ed. New York, International University Press, 1957, p. 49.

(١١) كما لم يدرك «أورتيجا» لأنه يبدو أنه كان ذا رأيين في هذا الموضوع قارن .

Origin of Philosophy, New York, Norton, 1967, p. 39, Man and Crisis, New York, Norton, 1958, pp. 107-108 and Man and people, New York, Norton 1967, pp. 61-61

(١٢)

Otto Fridrich, " What do babies know?" Time, vol. 122, No. 7, August 15, 1983, pp. 52-59.

(١٣) ثابث :

Cf. K. Goldstein, The Organism, Boston, Beacon, 1963, pp. 35-48, 42-44; also, Human Nature in the Light of Psychopathology, New York, Schocken, 1963, pp. 85-87

K. Goldstein, The Organism, pp. 340-366; Hu- (١٤) man Nature in the Light of Pschopathology, pp. 174-186

الفلسفة المقارنة :

ما هي ؟ وماذا ينبغي أن تكون ؟

دايا كريشنا

إن كافة الدراسات المقارنة تضم شيئا من المماثلة أو المطابقة ، وشيئا من المخالفة أو المايضة في ذات الوقت ، وهو موقف يحفل بكثير من العسارة الفكرية التي ينبثق عنها خلاف لا ينقطع يتصل بالتساؤل عما إن كان ما نعرض له هو الشيء نفسه أم أشياء عدة . ويستطيع المرء أن يحل هذه العقدة الجوردية* بتقرير أي منهما ، ولكن الوضع سيعاود الظهور مرة أخرى كما لو كان مقيدا بمنظور المقارنة نفسه وليس بمثال بعينه منها . وحتى متى سنظل ماضيين في "التعريفات الإسمية" ، إذ أن العملية لن تنتهي ، وفي الختام فإن كل شيء هو ما هو وليس شيئا آخر . ولو زهدنا في «التعريفات الإسمية» حيث لا تكاد تعطينا معرفة تذكر وأثرنا «التعريف بالوصف» الذي يعطينا «الوقائع» فهو أيضا موصول لا ينتهي كالأسماء ، فكما علمنا الجانبين ** منذ أمد بعيد أنها من عمل الدرساتي التي تملكها أو وجهة النظر التي نتبناها .

* Gordian Knot : كناية عن العقدة التي يحكم وثاقها ، وتعهد التسمية إلى الأسطورة الإفريقية التي تقول بأن جورديس - والد ميداس - الفلاح الذي صار ملكا على فروجها حسب أسطورة زعمت للفرجينيين ، بأن خلاصهم من زمن سادت فيه القنن لن يكون إلا بقرابة أول من يقترب من معبد زيوس في إحدى العريات وكان هذا الشخص هو جورديس الذي وأره ملكا عليهم ، وقام عقب تزايف الملك بتكريس هذه القرية لإلهة وثبتها في أحد السوراري بعقدة محكمة كانت سببا في نشوء أسطورة أخرى تقول بأن من يستطيع فكها سيكون له ملك أسيا . ويقال أن الاسكتور هو الذي قطع هذه العقدة بسيفه (الترجم)

** JAINS : للشفتلون فلسفة هندية تقليدية تتشغل بتفسير الآداب والتصحيس الفيدية . وتضمحل جزا ينشغل بالكتابات الباكورة التي تهتم بالممارسات المسيحية ، وجزا أخر ينشغل بالكتابات المقلعة التي تعني بالفكر الصحيح (الترجم)

DRSTI ***.

الترجم : محمد عزب

« كيف يكون المشابه مشابها ؟ » سؤال يمكن أن يطرح دائما وهو يلاءم كل المقارنات إذ يصيبها باللايقينية والالتباس وهو داء عضال من ناحية المبدأ . ومع ذلك فإن الهوية المجردة شيء لا يستهوي أحدا . ف $1 = 1$ تدفع المرء بالكاد للتحرك قدما ، و $1 = 2$ كما يعرف كل إنسان منذ فريج تثير من المشكلات ما يبدو عصيا علي أي حل ، علي الأقل بالنسبة للعقل النظري الخالص . وبالنسبة للعقل العملي ، بصفة خاصة خير ذاك الذي يسميه كانت «خالصا» ، فلا مشكلات لديه علي الإطلاق مع تلك المصاعب التي يثيرها العقل النظري الخالص أو حتي غير الخالص ، وهذا الموقف هو ما جلب علي الفلاسفة هذا الامتياز المبهم في أن يعتبروا أكثر الناس بعدا عن الواقعية في العالم .

ولكن «الدراسات المقارنة» ليست مقارنات فحسب ، إنها مقارنات بين مجتمعات وثقافات وحضارات . ومير التخوم التي حددناها بـ «نحن» و «هم» فإن عالم «الدراسات المقارنة» هو محاولة لا مندوحة منها للنظر فيما هو -علي وجه التحديد- حقيقة أخرى من وجهة نظر خارجة عنها . والتناقض الذي يكن في الأساس الفعلي «الدراسات المقارنة» يمكن البحث عن تفسير له بمناسبة كليات كافة المعارف ، واندماج هذه المعارف في «نحن» -الناعمين بالامتياز- الذين من خلال وجهة نظرنا يتم الحكم علي كافة المجتمعات والثقافات «الأخرى» وتقويمها . وتكمن جلور هذا «الوضع المتميز» في القوة السياسية والاقتصادية للمجتمع الذي حدث وكان الراي واحدًا من أعضائه . إن الدراسات الانثروبولوجية التي تنبثق منها معظم «الدراسات المقارنة» كانت - في جملتها - الحاقا لامتناهات النفوذ السياسي والاقتصادي لبعض بلدان غرب أوروبا علي العالم خلال الثلاثمائة عام الأخيرة أو ما يقرب من ذلك ، ولما كان هذا الامتداد قد جاء مصحوبا ، لا بالنمو الظاهراتي في بعض مجالات المعرفة التقليدية فحسب ، بل أيضا بتعيين وتثبيت الحدود الفاصلة لمناطق جديدة تنبؤي ميادين جديدة للمعرفة ، فإن الاحساس بالمطالبة بصلاحيات شاملة لكل ما يدعي بأنه معرفة تنتمي الي ما تم اكتشافه في الغرب كان مطلوبا تسويبه وتبريره . وهكذا نظر اليه كميّار كلي يتم بواسطة الحكم علي كافة المجتمعات والثقافات الأخرى في أي مكان بالعالم ، لا في ميادين المعرفة وحدها ، بل في كافة الميادين سواء أكانت تتصل بها أم لا .

وهكذا فإن الدراسات المقارنة تعني -في الواقع - المقارنة فيما بين كافة المجتمعات والثقافات بمصطلحات المعايير التي تزوينا بها المجتمعات والثقافات الغربية في مجالات المدرك وغير المدرك ، وبدلا من أن ينظر المفكرون ممن ينتمون الي المجتمعات والثقافات الأخرى الي

المجتمع والثقافة الغربيين من منظورهم الخاص نراهم وقد قبلوا المصطلحات التي زوهم بها مفكرى الغرب ونراهم وقد حاولوا أن يظهروا أن ما تحقق في مختلف المجالات علي نطاق ثقافتهم يوازي ذلك الذي في الغرب ومن ثم لا يمكن اعتباره اقل أهمية منه علي الإطلاق . وقد أعاق ذلك ظهور ما يسمى "مقارنة الدراسات المقارنة" التي ربما كانت قادتنا الي منظور أكثر توازنا في هذه المجالات .

وفضلا عن هذا فإن ما يسي بالدراسات المقارنة كان في المقام الأول بحثا عن الواقع facts أو ترتيبا للمعلومات بشروط ومصطلحات بنيان تصوري conceptual structure قد سبقت صياغته في الغرب . أما القضايا التي كانت مدار بحث عن اجابات لها ، فقد كانت مقرررة سلفا في ضوء العلاقات التي كانت تعتبر ذات دلالة أو النظريات التي كانت تحت الاختبار . وفي الحالات حيث كانت الثقافات ترى مستقلة بذاتها فقد كانت بمصطلحات القيم التي تنتظمها النظم الثقافية بكثير مما هي بمصطلحات بنيان تصورية تعدد العقل المدرك بذاته ، ومهما يكن الأمر فإن الفلسفة ليست الا بنيانا تصوريا في حد ذاته. ومن ثم فإن أية محاولة للتفلسف المقارن كانت مضطرة الي أن تقضي الي ادراك بنيان تصوري بديل : الي اسلوب آخر في رسم تنظيم العقل المدرك غير ذلك الذي تعود المرء ، وبالرغم من أن من الطبيعي مثل هذا التوقع فلم يكن هذا ما حدث ، إذ كيف يستطيع المرء أن يسلم بإمكان مخطط تصوري بديل عندما يكون "الممكن" نفسه مقيدا بمخطط تصوري وجد المرء نفسه مولودا فيه .

وهكذا وجدت «الفلسفة المقارنة» نفسها منذ البدايات الأولى غارقة حتي الآن في مستنقع التساؤل عما اذا كان هناك ما هو "فلسفة" خارج التراث الغربي ، واستغرق ادراك الباحثين بأن ما يدهي بتاريخ الفلسفة الذي كانوا فيه يكتيون ، ليس الا تاريخا للفلسفة الغربية ، وليس للفلسفة خارج نطاق نصف الكرة الغربية ، ونحا طويلا من الزمان . لقد كان راسل هو أول من اعترف صراحة وبالأدوات في عناوين كتبه مما يتصل بتاريخ الفلسفة بأنها تاريخ للفلسفة الغربية وليس للفلسفة بوجه عام . ولكن المشكلة بقيت كما هي حتي يومنا ، هل نعترف بما هو موجود كـ «فلسفة» خارج التراث الغربي أم لا ، وقد اتير السؤال مرارا وتكرارا فيما يتعلق بالفلسفات الهندية والصينية وهما التراثين البارزين خارج التراث الغربي . ومنذ عهد قريب تجر النقاش حول ما اذا كان هناك شيء مثل الفلسفة في إفريقيا أم لا . ومن اللثير للدهش أن هذا التساؤل لم يثر علي الإطلاق بالنسبة للفلسفة الاسلامية ، من المحتمل

لأنها اشتقت الهامها رأسا من الأفريق وشيدت بوعي منها فوق أعمالهم ، وفي الحقيقة فإن معظم تاريخ الفلسفة الغربية قد أقربت فصلا للفلسفة العربية ، ولكنهم يعاملونها في الغالب كشئ هام في سياق المدخل الغربي الي افلاطون وارسطو حتي حان المين الذي أصبحا فيه متاحين في مصادرها الأفريقية ، أو أيضا كفصل اضافي علي شئ ضئيل الأهمية في تطور التيار الرئيسي للفلسفة في العالم الغربي.

إن الجدل فيما يتعلق بوضع الفلسفة في المصين أو أفريقيا أو حتي العالم العربي ليس موضوع المناقشة هنا ، لهذا السبب البسيط ، وهو أنني لا أعرف الا القليل عن التراث الفلسفي في تلك الحضارات ، أما بالنسبة لمناقشة القضية الهندية التي أعرف عنها أكثر قليلا فربما يكون من المتوقع لقاء بعض الضوء علي مشكلات الفلسفة المقارنة منذ أن ظهرت وحتى اليوم .

إن السؤال الأول والرئيسي الذي شغل بال كافة هؤلاء الذين عنوانا بحق بما يسمي التراث «الفلسفي» في الهند يمت بسبب الي تلك النقطة الفاصلة ، وهي كيف يمكن أن يعد فلسفة بمعنى الكلمة في الوقت الذي يفترض فيه أن يكون معنيا قبل كل شئ بالانتماق* ، اعني التحرر من إمكان مكابدة مطلقة ، تحررا يعد نهاية عملية ومحتومة لا يكاد يكون فيها ما هو نظري . يضاف الي هذا حسيان كيف يمكن لتراث معرفي ألا يعد فلسفيا بحق وهو يسلم بسلطان الوحي والالهام أو بسلطان قوة جبرارة يفترض أن لها حق الهيمنة علي العقل والتجربة كليهما ، والحق يقال أن دائرة معارف الفلسفات الهندية** قد سردت بصورة رسمية العلاقة الجبرية فيما بين الفلسفة الهندية والانتماق ، وأكدت أن المآلف لا يفهم دون اللاحق . فلا غرو إذن ألا تدرس الفلسفة الهندية في أقسام الفلسفة بمعظم الجامعات الغربية ، فلا الطلبة ولا المدرسون في هذه الأقسام يفترض فيهم أنهم يجنون السعي في سبيل الانتماق . إن أحالة الفلسفة الهندية الي أقسام الهنديات*** وعزلها الفعلي عن كافة الاهتمامات الفلسفية الفعالة اليوم يعبر عن نفسه . أما الوجه الآخر لنفس العملة فيشهد عليه ما يعرف بأحياء الاهتمام بالفلسفة الهندية في أحرام الجامعات الغربية وذلك في أعقاب الولع ببعض الموضوعات علي نحو التأمل فيما يجاوز الخبرات الانسانية واليوجا ... الخ .

* Moksa : التحرر من الجسد الماتملي للتأمل في التماسخ في الديانة الهندوكية (الترجم)

Encyclopedia of Indian Philosophy **

Indology ***

Sutras الكتب للفلسفة الهندية (الترجم) ***

ومع ذلك ، فعلي المرء أن يواظب فيما بين هذا الانطباع السائد من الفلسفة الهندية ، وبين حقيقة أن أي عمل من أعمال الفلسفة الهندية (يورفا باكس Purva pakss) لا بد أن يقدم وأن ينحصر ويفند قبيل أن يبيّن الإنسان موقفه ، وعلينا أن نتذكر أن الموقف المقابل لا يجلي فحسب بل يقدم أيضا ، لا مع كافة الحجج التي سبقت في مصلحته فيما قبل ، بل وأيضا مع كل ما يمكن أن يتصور المرء فيه تدعيما له بأي طريقة كانت . وإذا جزم المرء بشئ لم يستطع أن يولر له مسوقا (هتو) hetu ، فعليه أن يتبذه من مجال الفلسفة وأن يكف عن درجة في عدادها . وحتى السوتراس *** الخاصة بالمدارس الفلسفية علي مختلفها ، والتي يفترض انها الأعمال الأساسية الخاصة بها . فانها لا تدلي بأسباب المواقف التي تتبناها فحسب ، بل انها تحضن أيضا المواقف المضادة فضلا عن أن كافة الأسباب لا يمكن النظر اليها علي انها متساوية الصحة ، وأن الكثير من الفكر يمضي الي تحديد ما هو استدلال صالح وكيف يمكن تمييزه عما هو مضل غير صحيح .

ليس هذا فحسب ، فتاريخ الجدل الذي تضمه وثائق قضايا الفلسفة ، مفكرا ثل آخر ، وتطور هذا الجدل ونواحي القصور التي يحددها كل منهم في مواقف الآخرين ، لم يكن فيه تكرار متحجر للمواقف ، بل تعديل في موقف المرء في ضوء النقد المباد للخصوم ، أو حتي إصلاح متطور لموقفه ، في ضوء هذه الانتقادات ، وإن الجدل ألهم بين البوذيين والنيا بيكاس Naiyayikas الذي بدأ بـ"دينجاناجا" في القرن الخامس الميلادي وانتهي في القرن الحادي عشر تقريبا ، يحمل لنا الدليل علي ذلك . وقد شهدت هذه الفترة التي امتدت ما يقرب من ستمائة عام علي الجانب البوذي كثيرا من الشخصيات البارزة مثل "دينجاناجا" و "دهارماكيتري" و "دهارموتارا" و "سانتاراكشيتا" و "كالمسيلا" ينتظم ضدهم "أوبيتاكارا" و "كوماريلابهاكارا" من مدرسة ميمانسا (١) ، و "فاكاسياتيميسرا" و "جياناتا" و "لوايانا"

ونسري دهارا". وبعد اختفاء البوذية من المسرح الهندي هناك الجدل الهام بين الأنفايتيين* "Advaitin" ومعارضيههم، والذي كان آخر أعظم من مثلوهم علي الجانبين "ماديسودان سارافاتي" و"فايا ساتيرثا" علي الترتيب. والي جوار هذا نجد التطورات الثورية المتطرفة في الـ"نيايا Nyaya" ** فيما بعد "جانجيش" في القرن الثاني عشر والتي استمرت حتي القرن السابع عشر، فترة امتدت ما يقرب من خمسمائة عام ظهر فيها علي الأقل ستة وثلاثون مفكرا نالوا حظا كبيرا من الشهرة واسهموا بكتاباتهم في تطوير وتنقية الفكر المنطقي في الهند، تطورا أرسى مبادئ جديدة للإحكام العقلي لم تستطع أية دراسة أن تبقي بمنأى عن تأثيره^(١).

إن طول الفترة من القرن الخامس الميلادي حتي القرن السابع عشر، والعثور علي دليل -علي درجة عالية من الوضوح - علي تفلسف ذو أساس متين، مع تبادل مستمر للجدل والجدل المضاد فيما بين المشاركين نجم عنه اضطراب في صقل المواقف، لهو انجاز عقلي علي أعلي نظام خليق بأن تقهر به أية حضارة. ومع ذلك فإن الصورة العامة للفلسفة الهندية يصعب اعتبارها فلسفة بالمعني المحدد للكلمة في مفادها الغربي، لأنها معنية قبل كل شئ بالانتماق Moksa ولا تستطيع الفكاه من قيودها التي تربطها باكتشاف الحقيقة العلوية revelation التي تعدها شيئا قاهرا يعلو فوق العقل والتجربة.

ومعلاوة علي هذا، فإن هذا المعني المترف للكلمة التي يحملها الغرب بزعم تحكمي، والذي يفترض انه يزودنا بالمعايير الاصطلاحية التي نحكم بواسطتها علي أي عمل يدهي لنفسه اسم «الفلسفة» من المقترض أن يعد لنا معالمها في نسق مطرد منذ عهد طاليس حتي

(١) م. شاكراشارتي، تاريخ الي (ناليا-نيايا Navya-Nyaya) في البنغال وميشلا

Vol. Calcutta دراسته في تاريخ الفلسفة الهندية In Debi Prasad Chattopadhyaya Ed.

K.P.Bagchi & Co., 1978, pp. 146-82

* Advaita : اللاثنائية الغيبية التي تنكر فصل أي وجه من وجوه الحقيقة عن وحدانية برامها المجردة (المترجم)

** Nyaya : منظومة فلسفية تطبيقية في الهندوسية تعني قبل كل شئ بالتطويل المنطقي والسفة الطوم (المترجم)

يعني هذا . ولكنه ادعاء كاذب كما يعرف الجميع ، وأن ما حصيه علي أنه فلسفة في الغرب علي عدي فترات زمنية طويلة لا يمكن وصفه بذلك لو أن هذا التحديد قد فرض في الغرب بنفس الصرامة كما هي الحال عادة مع الثقافات غير الغربية ، وأو اعتبرنا افلاطون وأرسطو قسما (استثنائيا في الميراث الغربي ، وأعنا قراءة كل التراث الغربي وتامله بمصطلحات ما حدث هناك منذ القرن السابع عشر لكن هذا هو السبيل العادية من خلالها نستوثق من ذلك ، ومن الغريب حقا أن المفكرين الغربيين لم يبتكروا وحدهم هذا الضأ بل أن كثيرا من المفكرين غير الغربيين أيضا قد سلموا به دون تساؤل .

إن المفكرين الهنود الذين عتوا بالفلسفة لم يبتلعوا الطعم حتي آخره فحسب ، بل حاولوا أيضا أن يفتنوا الاحترام والتوقير للفلسفة الهندية إما باكتشاف تماثلات للمواقف الفلسفية الغربية في التراث (الهندي ، أو بالزهو من حقيقة أن الفلسفة الهندية لم تكن مجرد ممارسات عقلية جافة انتشفت بانسفسطة السفسطة في حد ذاتها ، ولكنها عتيت بأعق مباحث الوجودية المتصلة بعبودية وتحرر وجو، الانسان في سق السحاق ، وهكذا كان للفلسفة الهندية كل ما كان علي انفسطة انغربية أن تظهره بمصطلحات أقصي التماثلات الاستثنائية والانتولوجية حكمة وصقل ، كما كن لها هذا الوسم الفريد والخاص بأن تكون روحية معنية بالانستاق ، ونسمي - علي سب سناسب - أن الفلسفة لو كانت عملا من أعمال العقل الانساني لوجب عليها اظهار المشابهات غير الثقافات الي حد ما ، وبالمثل فانها كعمل انساني مجبرة علي أن تهتم بما يعده الانسان -في حضارة معينة - صالغ البشرية ، أو بما يعده الحير الأسمي للانسان .

إن الموقف المحتوم لهذه المصطلحات -المنوكة كل الحقوقي - عند أي مقارنة يمكن التقلب عليه لو أن المصطلحات التي تعمل كمعايير للمقارنة قد تغيرت عن عدد كي تزودنا بمعايير مختلفة للمقارنة ، ويأتي هذا التزويد من حقيقة أن كل ثقافة يمكن أن تري الثقافة الأخرى بمعاييرها الخاصة ، وهكذا تصبح سيذا للمقارنة وخاضعا لها مرة تلو أخرى ، ولكن نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية فإن هذا الوضع لم يحدث ، لأن المفكرين في الثقافات موضوع الملاحظة قد انصبوا في نواتهم تصنيفات ومعايير المقولية الغربية ، ، وهكذا يلاحظون ويفهمون ويقارنون ثقافتهم بمسئلهات ردهم بها الغرب ، وإذا اقتبسنا عبارة شهيرة لسارتر فإن كافة انقافات بدا الغربية قد تضالغ الي منزلة 'موضوعات' بأن صارت محل فحص ، بمعنى انها تلاحظ وندرس بواسطة المفكرين الغربيين بمصطلحات مفاهيم وتصنيفات غربية لا تعامل كتقيد أو حد ثقافي بل كسمة شاملة . وبمقاد أعق وأكثر تحرا فإن الغرب

وَحْدَهُ وَيُدهِءُ قَدْ اِنْتَحَلَ لِنَفْسِهِ دُونَ حَقِّ مَنَازِلَةِ الْمُتَسَيِّدِ بَيْنَمَا تَعْدِي بِمَنَازِلِ الْآخَرِينَ إِلَى مَرْتَبَةِ الْخَاضِعِينَ .

وَيَتَزَادُ الْمَشْكَلَةُ تَعَقُّبًا مِنْ حَقِيقَةٍ أَنَّ مَعْظَمَ الْمُنَاقَشَاتِ بِشَرِّهَا الْفَلَسَفَةُ الْهِنْدِيَّةُ أَمَّا تَدَوُّرُ بِاللُّغَاتِ الْأُورُوبِيَّةِ ، وَهَكَذَا فَإِنَّهُ بِحُكْمِ الْأَضْطِرَّارِ يَبْقَى تَرْجُمَةُ الْمَصْطَلَحَاتِ السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ إِلَى مَرَاتِفَاتِهَا الْغَرِيبَةِ مَعْطِيَةً الْأَخِيرَةَ وَضْعًا سَامِيًّا فِي تَقْرِيرِ مَا تَعْنِيهِ الْأَوَّلَى أَوْ مَا يَجِبُ أَنْ تَعْنِيهِ ، بَيْنَمَا لَمْ يَحْظِ الْمَوْقِفُ الْعَكْسِي بِأَيَّةِ مَكَانَةٍ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْذُ فَتْرَةٍ قَرِيبَةٍ عِنْدَمَا حَاولُوا فِي بُونَا تَجْرِبَةَ تَرْجُمَةِ بَعْضِ الْمَوْضُوعَاتِ عَنْ رَاسِلِ وَوَيْتْجَنْشْتَايْنِ إِلَى السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ حَتَّى يُمْكِنَ اسْتِنْبَاطُ مَدَى اسْتِجَابَةِ الْأَشْخَاصِ الْمُدْرِينَ عَلَى الْفَلَسَفَةِ بِالطَّرِيقَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ لِهَذِهِ التَّرْجُمَاتِ ، حِينَئِذٍ صَارَتِ الْمَشْكَلَةُ جَلِيَّةً وَاضِحَةً - كَيْفَ عَقَلَ الْهَانْدِيَّتِ Pandits - وَهَمُ فِلَاسِفَةُ دَرْيُو عَلَى الْكَلَّاسِيكِيَّاتِ السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ بِالطَّرِيقَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ - مَا يَقُولُهُ رَاسِلُ وَوَيْتْجَنْشْتَايْنِ ، وَحَيْثُ كَانَتْ كَثْرَتُهُمْ لَا تَعْرِفُ الْإِنْجَلِيزِيَّةَ كَانَ ضَرُورِيًّا تَرْجُمَةُ الْمَوْضُوعِ إِلَى السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَصْطَلَحَاتُ الَّتِي تَحْمِلُ دَلَالَاتِهَا الْمُعْتَادَةَ ، بَقِيَتْ مُرْتَبِطَةً ذَهْنِيًّا بِهَا وَرَفُضَتْ فَرَضَ مَعَانٍ جَدِيدَةٍ عَلَيْهَا . وَمِنْذُ وَاقَتٍ بَاكِرٍ تَمَّتْ مُحَاوَلَةٌ تَجْرِبَةٍ مُشَابِهَةٍ عَلَى صَفَحَاتِ "الْهَانْدِيَّتِ" وَهِيَ مَصْهِفَةٌ كَانَتْ تُصَدَّرُ فِي مَدِينَةِ بَنَارِيْسَ فِي الْقَرْنِ الْتَّاسِعِ عَشَرَ ، وَلَكِنْ نَتَائِجُهَا - عَلَى قَدْرِ مَا أَعْلَمُ - لَمْ يَتِمَّ تَحْلِيلُهَا يَوْضُوحَ حَتَّى الْيَوْمِ .

وَعَلَى أَيِّ حَالٍ ، فَقَدْ بَقِيََتِ الْقَضِيَّةُ ، وَهِيَ كَيْفَ يُمْكِنُ تَرْجُمَةُ بَنِيَانٍ تَصَوُّرِيٍّ بِمَصْطَلَحَاتِ بَنِيَانٍ آخَرَ ، خُصُوصًا عِنْدَمَا يَكُونُ الْأَخِيرُ لَيْسَ بِلُغَةٍ مُخْتَلَفَةٍ فَحَسْبُ وَلَكِنْ لَهُ أَيْضًا تَارِيخُهُ الْخَاصُّ مِنَ التَّطَوُّرِ النَّابِئِ حَبْرَ أَلْفِ عَامٍ ، وَهَذِهِ نَقْطَةُ هَامَةٍ . فَقَدْ جَاءَ زَمَنٌ تَرُجِمَتْ فِيهِ نَصُوصٌ فِلَسْفِيَّةٌ مَعْقَدَةٌ مِنَ السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ إِلَى لُغَةِ التَّبَتِ وَالِي الصِّينِيَّةِ وَأَخِيرًا مِنَ الصِّينِيَّةِ إِلَى الْكُورِيَّةِ وَالْيَابَانِيَّةِ ، وَلَكِنْ فِي مَعْظَمِ هَذِهِ الْحَالَاتِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَرَاثٌ فِلَسْفِيٌّ قَوِيٌّ عَالِي التَّطَوُّرِ ، يَسْتَلْبِغُ الْمَرَّةَ أَنْ يَصُورَ مَصْطَلَحَاتٌ جَدِيدَةٌ دُونَ أَنْ يَصِلَ إِلَى تَعَارُضٍ مَعَ طَرَائِقِ التَّفَكُّيرِ الْمُسْتَقَرَّةِ سَلَفًا ، وَهَتَّى فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ كَمَا بَيْنَ نَاكَامُورَا مِنْ أَنَّ التَّرْجُمَةَ لَا بَدَّ أَنْ تَصِلَ إِلَى مَصْطَلَحَاتٍ ، إِنْ لَمْ تَكُنْ بِالنَّسْبَةِ لِمَا هُوَ عَقْلِيٌّ ، إِذَنْ فَعَلِي الْأَقْلَ مَعَ مَا يَعْتَبَرُ رُوحَ الْأُمَّةِ وَطَابِعِهَا الثَّقَافِيِّ (٢) .

(٢) طَرِيقُ تَفَكُّيرِ الْمَسِيحِ الشَّرْقِيِّ Makamura, Hajime: Ways of Thinking of Eastern Peoples

Honolulu, East-West Centre Press, 1964

ومهما يكن الأمر ، فإن السبيل الوحيد الذي تأتي منه أولى الخطوات نحو أي حل للمشكلة يكمن في النظر إليها من كلا الجانبين ، وهو ما يعني النظر الي كيف يبدو كل منهما عندما يري من وجهة نظر الآخر ، وما من ثقافة أو تراث يمكن أن يتقبأ مكاناً متميزاً في هذه المباراة من ملاحظة الآخر وفهمه والحكم عليه وتقويمه بمصطلحاته الخاصة .

بيد أنه ليس هناك ثقافتين فحسب في العالم ، وقد يكون من الصعب أن يقال عن يقين كم هناك منها ، أو حتي أن تُعطي بعض المعايير المسلم بها في الحدود التي قد يعيّن بها المرء الغريق أو الخطوط الفاصلة فيما بين الثقافات . وأيس من الضروري أيضاً أن يكون لكل ثقافة هويتها المميزة في كافة المجالات أو حتي أن تكون مبدعة فيها جميعاً . بيد أنه يمكن أن يكون هناك بعض الشك في أنه مهما يكن البعد الذي نختاره من ثقافة ما لنعمن فيه النظر ، فقد سعت وراعه بالإبداع أكثر من ثقافة واحدة ، وصنعت كل منها اسهاماً كبيراً فيه ، ولكن مادام الأمر هكذا فإن التعدد البديل لوجهات النظر التي تُري فيها كل ثقافة من وجهة نظر الأخرى لا بد أن يكون بحق متعدد السمات . ومثل هذا التوقع في الزمن الحاضر يكاد أن يكون طويالوياً . إن كل أمة اليوم تحيط بحدود الغرب وبها تري وتقيس وتحكم علي نفسها ، وهي لا تحيط بشئ من جيرانها حتي بالرغم من أنهم ربما قد صنعوا اسهاماً مؤثراً في العقل الذي تهتم به . وهناك بطبيعة الحال أسباب تاريخية لهذا الوضع السائد في الوقت الراهن ، ولكن هذه الأسباب مازالت مستمرة في العمل ، ومن الصعب النظر في كيفية التقلب عليها الا بالجهود المشتركة للمفكرين في نظام ينتمي لثقافات متعددة ، وواع مع ذلك بالحاجة الي تجاوز أزمته الثقافية المركزية .

إن مشكلة الهوية الذاتية لتراث فكري في نطاق مساحة ثقافية ، يتعارض مع المطالبة بالكلية أو الشمولية التي تقرها كل الحقائق ، ولكن لا بد أن نتذكر أن المطالبة بهذه الكلية قد تم بالكاد تحقيقها فيما قبل بواسطة كل المطالبين بالحق الشرعي . إنه قسر ذهني في النماذج الغربية بانها شمولية وإيست ثقافة ذات حدود شأن كل الثقافات الأخرى . وهناك بطبيعة الحال المشكلة الأخرى : وهي كيف تُقارن البنيات التصورية البديلة أو كيف تفصل فيما بينها . إن المسهل الكتياني Kuhnian قد برهن علي لا قياسية البنيات التصورية البديلة حتي في نطاق تراث نولفة مشتركة وثقافة وتاريخ ولكن عندما تختلف هذه الأخيرة جذرياً ، فكيف يستطيع المرء أن يفكر في المقارنة أو كشف المغايرة أو الحكم عليها ، ومع ذلك فإن الحكم بلا

قياسيتها يقتضي ضمنا حقيقة ، لا لأن كلاهما قد تمت مقارنته فحسب ، بل وأن كلا منهما قد تم ادراكه ونفهمه بوضوح وجلاء . إن الوعي الذي يصنع ذلك يمتلك القدرة من ثم علي هذا التعمق الفكري الذي يستطيع في نطاق الخيال التصوري أن يقتحم عالما جديدا من التجلية والوضوح ، فإذا لم يشعر بأنه في بيته فسيشعر علي الأقل بأنه ليس بغريب عنه .

ولكن الفكرة بأن اختيارا لا بد وأن يقع بالضرورة فيما بين البنيات التصويرية البديلة نفسها - وما إذا كان من الواجب تلصيلها في الثقافات المختلفة من عدمه - ربما لم تكن مقبولة ، وقد ينظر الي البنيات التصويرية ككواتم لتنظيم التجربة واعطائها معنى ودلالة . وهكذا فإن كل بنيان تصويري متاح يظهر حدود البني الأخرى ، ويقترح امكانيات بديلة لم تكتشف بواسطتها . كذلك يمكن رؤيتها كشيء يشد انتباهنا الي حقائق تجارينا التي تجاهلتها المنظورات الأخرى الي سبل تنظيم ونمذجة التجارب التي فاتتها رؤياها .

ويأتي هذا بكل العمل المعرفي - الذي يمكن حفزه - الي حالة العمل الفني بشكل خطير ، وقد بلغنا - إن مقينا الي خاتمة المنطقية - الي التخلي عن المطالبة بالحقيقة برمتها ، وقد لا يُعي التسامح مع الفنون كإشارة خطر تحذرننا من أننا لسنا علي الدرب الصحيح وإنما كإشارة - علي الأقل بالنسبة لهؤلاء الذين يقومون عالم الفن علي أنه شيء مرتفع القيمة- إلي أن الأشياء ليست بالغة الخطأ حتي وأولم تكن مكتملة الصحة . إن التصورات لا يمكن أن تكون صورا أو رموزا ، ولما كانت أمر مشاعر وأحاسيس فحسب ، وإن التساؤلات عن الحقيقة والزيف لا يمكن أن يسمح لها بأن تظل غائبة لفترة طويلة ، حتي لو كانت متفاعلة مع الطبيعة ، ومع ذلك فإن ما ينبغي أن نتذكره هو أن العمل المعرفي لا نهاية له شأن أي عمل آخر ، ومن أنه بالرغم من أن المطالبة بالحقيقة من الحتم أن يأخذ مجراه ، فإن من المؤكد بنفس الدرجة أنها سوف تظل نون تحقيق في الوقت المناسب ، وسيظل المستقبل مائلا أمامنا دائما ليعين لنا ، ليس محدودية معارفنا وزيف ادعائنا فحسب ، بل لئيبها أيضا الي اتفاق جديدة لم يُحل بها من قبل .

وفي الحقيقة أن تنوع البنيات التصويرية التي تحملها عنه تكمن جنوده في المعزل التاريخي للثقافات ذات التبادل الضيق -إن وجد- فيما بينها ، وقد رعت هذه العزلة عوامل جغرافية وسياسية ولغوية سهلت في نفس الوقت التفاعل فيما بين بعض الناس واعاقته فيما بين بعضهم الآخر . لقد عملت التجارة والنين بوجه عام علي عبور التحوم للنغم المادي والروحي ،

ولكنها كلما حظيت بنجاح حقيقي يكون موضعاً لاعتزازها ما لم تصاندها قوة سياسية . ويبحث خلف الحايك الفردي الذي يمنحه هذا التطور في العزل النسبي لثقافة ما ، حدوث هذا الشيء الذي طرق العقول الكبيرة كمشكلات تتطلب حلولاً أو أسئلة تبحث عن أجوبة في البدايات الأولى لأي حضارة .

وفي الحقيقة أنه لا يمكن تحديد البدايات القطعية في ثقة ، بيد أنه يمكن أن يكون هناك شيء من الشك في أنه عند بدايات كافة الحضارات المبنية يقف أفراد بارزون يطرحون المشكلات ويثيرون التساؤلات ويصفون على الأقل الاتجاهات التي يمكن البحث فيها عن الحلول والاجابات المحتملة . إن هذا الواضح فيما يدرك كمشكلة ، أو في الاتجاه الذي يتم اختياره لحلها هو ما يميز تراثاً عن آخر ، وهذا هو - أو ما ينبغي أن يكون هو - الشيء ذو الدلالة بالنسبة للثقافات والتراثات الأخرى .

وهناك بطبيعة الحال شمولية موضوعية للعقل الانساني من جانب ، وظروف الحياة الانسانية من الجانب الآخر ، وهذا هو ما يكلل ضرورة وجود تكرار مناسب فيما بين المشكلات المطروحة والحلول المقترحة لها . ولكن هذا قد يحظى فقط باهتمام مؤقت إلا بالنسبة لؤلاء الذين يشاركون بحماس في موافقة انسانية بعينها بحيث أن الاهتمام الأعظم بالنسبة لهم هو في إثبات أن كل الأشياء ذات القيمة قد وجدت معهم واستمرارها الآخرون منهم ، وأساسياً فإن إيمانهم الراسخ هو أن ما لم يبدع بواسطتهم أو بواسطة أسلافهم فمن الممكن ألا يعد شيئاً ذا بال ، أو حتي إن كان كذلك فمن المؤكد أنه أقل رتبة مما أبدعه أنفسهم أو اكتشفوه . ولكن بمجرد أن يسافر الانسان حتي يصادف شيئاً مختلفاً ، شيئاً يدفع الانسان لأن ينظر مجدداً الي العالم بشعور من العجب والجدد ، هكذا يقوم المرء بأسفار تصويرية الي الثقافات الأخرى ليتقنّد العالم من خلال أطر تصويرية جديدة .

إن المدخل المشوّق الي الفلسفة المقارنة ينبغي ألا يكون بحثاً عن المشابهات وإنما عن المفارقات ، وحتى هذه المفارقات لن تكون ممتعة فلسفياً إلا عندما تكون بيئة واضحة ، لا بمصطلحات المذهب الذي تنتمي اليه وإنما بمصطلحات المشكلات المدركة ومحاولات حلها . وأخيراً فإن الحجج التي تصاق حيال وضع معين هي التي تهمل العقل الفلسفي ، وفي هذا الخصوص فإن التراث الفلسفي في الهند غني بصفة خاصة من حيث أن شكل تقديمه وعرضه يشتمل علي سوق حجج خصومه أولاً ثم تأسيس موقف المرء علي أساس من تفنيد هذه الحجج ودحضها .

إن البحث عن مشكلات فلسفية مميزة تري كمشكلات ، أو عن سمات مميزة في الطول
المقدمة لمشكلة مالوفة لا يتأتي بالنظر في التراث الأجنبي فحسب ولكن بأثره وعي المرء
بإمكانية بديلة في الفكر ، إمكانية قد سبق تحقيقها . إن الوعي بهذه الإمكانية التي سبق
تحقيقها قد - حسبما هو مألوف - يحرر خيال المرء التصوري من الكثرة غير المتعد لتراثه
التصوري . وهكذا فإن الفلسفة المقارنة قد تعمل كمحرر مشترك لكل من التراث الفلسفي من
القيود التي تفرض عليه من ماضيه بدلا من أن يكون ما هو في حاضره ، ومن فرض معايير
إحدى الثقافات المتسيدة على كل ماعداها من ثقافات وتقويم منجزاتها الفلسفية بمصطلحات
هذه الثقافات .

دايا كريشنا
جامعة راجاثان

الثقافة الجماهيرية ، والثقافة العالمية

"أمركة" ^(١) الثقافة وسياسة الحماية الثقافية

جرجي كلابين

إن الحديث عن تأثير الثقافة الأمريكية علي أوروبا وبقية العالم ليس بالأمر الجديد . وما الحديث عن الآثار الثقافية لأجهزة الفيديو ، والإذاعة بالأقمار الصناعية ، وأجهزة التلفاز ، ومحتوياتها ، سوى أحدث فصل في مسرحية طويلة ومستمرة تحلّول فيها الثقافة الأمريكية الفتية والعنوانية أن تضرب الثقافة العريقة في أوروبا القديمة (أو تجتاح وتمحو الثقافات القومية ، الغريبة والضعيفة ، في الدول المتخلفة ، وتجبر الألمان من جولة الهند الي التوكاكولا في جيل يعاني من أزمة الهوية) . ولكن علي الرغم من كثرة ما كتب عن بعض جوانب هذه القضية ، وعلي الرغم من أن معظم غير الأمريكيين الذين احتكوا بالثقافة الأمريكية أدركوا بعض أبعادها ، فلا يزال هناك الكثير من الأمور الفاضحة ، أو التي أسيئ فهمها ، وسنعالج في هذا المقال جانبين لهذه المشكلة الكبيرة والمعقدة ، أولهما نوضح فيه كيف فهم النقاد حتي الآن "أمركة" الثقافة العالمية (صينغ الثقافة العالمية بالصيغة الأمريكية) ، وذلك بالرجوع الي النقد الذي وجه الي الثقافة الجماهيرية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، مع إيراء بعض الأفكار الحالية عن ماهية الثقافة الأمريكية ، وبيان كيف أصبحت هذه الثقافة نولية أو

(١) أمركة الثقافة أي صينغ الثقافة بالصيغة الأمريكية

المترجم : أمين محمود الشريف

عالمية . وهدفنا من هذا البحث الأول هو ، علي وجه الخصوص ، فصل «الثقافة الأمريكية» عن الثقافة التجارية والصناعية بوجه عام ، لأن اندماج هاتين الظاهرتين أمر شائع ، ومن شأنه أن يؤدي بالقارئ الي الوقوع في الخطأ . وأما الجانب الثاني فهو الحديث عن «الثقافة العليا» التي تنمو الآن بالفعل . ومع أنها لا تهدد العالم ، كما يظن الكثيرون ، فإنه يجب التصدي لها ومقاومتها إذا أريد أن لا ينزوي كثير من مقومات التجربة الإنسانية في المتاحف الأنثروبولوجية . علي أن القضية الرئيسية التي سادافع عنها هنا ليست هي الولاء والانحياز للثقافة الأمريكية أو الأوروبية ، بل هي قضية «تنوع» الثقافات الذي يعد التعبير الثقافي الحر أهم شكل كله . ولذلك فإن محاولاتي الدفاع عن سياسة حماية الثقافة تمثل الرغبة في تجاوز الرفض الساذج للثقافة الأمريكية ، وتقاضي المواجهة بين الثقافة والمجتمع الصناعي نفسه . ولكن ذلك يقتضي تجاوز البحث التقليدي في ثقافة بلد ما ، ومحاولة نقل الحديث عن الثقافة الجماهيرية الي الساحة العلوية حيث أن الحديث الحالي من هذه المشكلة شديد التعقيد ويفتقر غالباً الي الدقة.

١ - الثقافة الجماهيرية والحديث عن الثقافة الأمريكية

تراجع معظم الأبحاث التي تنور اليوم حول المزايا النسبية للثقافة العالمية الخاصة بالصنعة الممتازة في مقابلة الثقافة الدنيا أو الجماهيرية أو الشعبية، الي المناقشات التي دارت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وإن كانت جذور هاتين الثقافتين ترجع الي أثينا القديمة . وقد شهدت الفترة التي بدأت من أوائل القرن الثامن عشر فما بعده زيادة ملحوظة في محو الأمية بين أفراد الشعب الأوروبي مما أدبي الي الإقبال علي الأدب لإشباع فريضة حب الاستطلاع ، وإرضاء المستويات الفكرية لجماهير أكبر عددا من الصنعة الممتازة القليلة العدد ، والمتعلمة تعليما عاليا . وسرعان ما أدبي هذا الي الشكوي من الأنواع الأدبية الجديدة ، بحجة أنها أفسدت نوق الجمهور . وما أن ابتدعت الرواية (القصة الطويلة) حتي أقسمت المجال أمام الروايات الرخيصة المزيفة ، وظهرت في الوقت نفسه الصحف والمجلات لتلائم أنواق الجماهير علي نحو لم يسبق له مثيل . وقد أعرب النقاد عن أسفهم حين ظهرت في مقابل كل طيبة شعبية من شكسبير ألف رواية من روايات الإجرام والمغامرات التي تباع ببئس واحد ، وتجدد حياة القرصان (لصوص البحر) وقطاع الطرق ، في حين ظهرت في مقابل كل رواية من روايات شارلز ديكنز خمسائة رواية مزيفة ، نشرت علي شكل مسلسل . ويعزى بزوغ الثقافة الحديثة في المقام الأول الي زيادة الثروة ، وتوافر وقت الفراغ ، والانتاج

الأولى . ولما ظهرت الثورة الصناعية ساعدت الآلات المدارة بالبخار بالإضافة الي عدد من الطرق الفنية والعلمية الجديدة علي نشر المطبوعات علي نطاق واسع .

وعلي الرغم من أن عبارة « المجتمع الجماهيري » لا تطلق اليوم الا علي الولايات المتحدة بين مجتمعات القرن التاسع عشر فإن نقد ثقافة العصر الصناعي بدأ في بريطانيا في أوائل القرن التاسع عشر إذا اعتبر النقاد «الأمركة» رمزا للابتذال والسوقية ، وعدم التمييز ، ويزيد ذلك النوع الساذج من المساواة الذي أشعر كل مانسان بأنه يتساوي مع غيره في الخير والفضيلة والصلاح والفضل . وتجلي التخوف من هذه الظاهرة أول ما تجلي في مجلدين للنقاد الفرنسي الأرستقراطي الكسيس دي توكفيل بعنوان «الديمقراطية في أمريكا» (١٨٢٥ و ١٩٤٠) حيث وصف ثقافة الديمقراطية الجديدة بالفسحالة والفضالة والسطحية والهبوط ، وأرجع أصل هذه الرذائل الي السيادة الثقافية للأغلبية . وحفزت هذه النظرة أكبر مفكر بريطاني في ذلك القرن - وهو جون ستينوارت ميل - الي اعادة النظر في اتجاهاته الديمقراطية حفاظا علي المركز الاجتماعي للصفوة المتعلمة . علي أن «الأمركة» كانت هي الكلمة التي وقع عليها اختيار «ماثيو أرنولد» في كتابه «الثقافة والفوضى» الذي أثار جدلا كبيرا حول مزايا «الثقافة الشعبية» و«ثقافة الصفوة» حيث رأي أرنولد أن وظيفة الدولة والثقافة هي القضاء علي آثار الديمقراطية أي اشراك الأغلبية في النظام السياسي والاجتماعي وهو الأمر الذي يؤدي في رأيه الي تفكيك عري المجتمع نتيجة السماح لكل فرد بأن يقول ما يشاء ، كما يؤدي الي الابتذال والتفاهة الناجمين عن عدم الاكتراث بمعايير التفوق والامتنياز . إلا أنه رأي أن الأرستقراطية ليست مؤهلة للحفاظ علي الثقافة لأنها فقدت الاهتمام بهذه المهمة . وكان أرنولد يأمل -بدلا من ذلك- أن تتخلص الطبقة الوسطي من آفة الرغبة الجامحة في احراز الثروة ، وهلو المنزلة ، وبذلك تتعلم سعادة النفس وتحرص علي الكرامة الشخصية ، وتحب الذكاء والجمال . وفي رأيه أن الثقافة تعني تنمية الشخصية من كافة جوانبها ، والسعي الي الكمال الذاتي ، مما يؤدي في النهاية الي كمال الجنس البشري بوجه عام ، وأن التعليم يلعب معانيه هو مصدر الثقافة ، وهذا يقتضي قيام الدولة بتنظيم التعليم الثانوي ، والتوسع في التعليم الجامعي .

وقد تعدلت هذه الموضوعات وأعيدت كتابتها بطرق مختلفة خلال بقية القرن التاسع عشر ، بإقليم بعض الكتاب مثل مل ، وريسن ، وويركارت وماركس . وقد ذكرنا اسم الأخير هنا لأنه يتضح بجله أن رد الفعل لظهور المجتمع الصناعي لم يتضمن فقط تنديد «المحافظين»

بالسلطة الاجتماعية التي تتمتع بها الأغلبية ، الذي بدأه "بيرك" بنقد الثورة الفرنسية ، ولكن تضمن أيضا تنديد "الراييكاليين" * بالنتائج المادية ، وأساليب الحياة ، ومسائل الانتاج الفنية في المجتمع الصناعي . ولتلك لتجد أيضا فيما كتبه كوييت ، وأوين ، وموريس ، وغيرهم (اقتصرنا هنا علي التمثل بالانجليز) تنويعا بضرورة الثقافة مع ضرورة تغيير النظام الاجتماعي حتي تتاح الفوائد المادية الناجمة عن أساليب الانتاج الحديثة لأغلبية الشعب . . وسنري أن نقد كل من المحافظين والراييكاليين للثقافة الحديثة يتداخل بعضه مع بعض ، وأنهما يشتركان في وجهة النظر ، حيث إن كلا منهما يندد بما تنسم به الثقافة الحديثة من تحذير الجماهير ، ومعارضة التقدم واتباع الأساليب القاسية المتوحشة .

ومن هذه الجنود التي بدأت في القرن التاسع عشر تطور نقد الثقافة في المجتمع الصناعي الحديث تطورا كبيرا ، وبخاصة بعد ١٩١٨ . ثم إن المؤثرات الأمريكية علي أوربا بعد ١٩٤٥ ، ويلي المناطق الثانية من العالم ابتداء من الستينات ، ضاعفت كثيرا من تأثير الثقافة الحديثة علي التطور الاجتماعي بشكل عام ، حتي أدت في النهاية الي ظهور شبح ثقافة عالمية متجانسة . ويزوال الاستقطابيات الأوربية وسرعة التصنيع تعالت صيحات المعنيين الذين لا تجلب لهم أساليب الحياة الحديثة سوي الحكم بالاعدام عن طريق خلق الثقافة بالتركيز التي أصبحت (في رأي الناقد الانجليزي ف . ر - ليفيس) لا تعني بتثقيف المرء لذاته بنفسه ، بقدر ما تعني بتلق الفن والأدب عن طريق التعليم . ولكن يجدر بنا أن ننوه بأن المناقشات التي دارت حول ثقافة المجتمع الصناعي الحديث انصبحت - بوصفها نظرية تقوم علي التفكير البديق ، وتستند الي الحجج والبراهين - علي الثقافة الأمريكية أولا ، ثم علي تأثير أمريكا في أوربا ثانيا . وتكمن نقطة الضعف في هذه المناقشات في اضافها للأقطار الأخرى من العالم ، والأساليب التقليدية لنشر الثقافة . وسنشير الي نقاط الضعف هذه في المبحث الثالث من هذا المقال .

وكان التطور الأساسي في نقد الثقافة خلال القرن العشرين هو التحدث عن فكرة «الثقافة الجماهيرية» كنتيجة للمجتمعات الصناعية التي عاشت فيها أغلبية الشعب ، وهيمنت علي الحياة الاجتماعية الي حد كبير . ويلي الرغم من وجود أشكال مختلفة من الثقافة الشعبية فإن هذه الأشكال اختلفت عن الثقافة الجماهيرية من عدة وجوه هامة . من ذلك أن الثقافة الشعبية جنحت الي التعامل مع العالم المادي المكثف مباشرة لدي الشعب ، والمتصل بشئونته والمرتبطة بقضاياهم ، كما جنحت الي أن تكون تجربة عاطفية صحيحة تتطلب المشاركة الفعلية ،

* المراد بالرد بكاليين هم المتطرفون الذين يهغفون إلى قلب الأرضاع والقائمة والافكار السائدة ومنهم كارل ماركس . (المترجم).

لا أن تكون أمرا سلبيا . ولكن الثقافة الجماهيرية جنحت الي فصل صناعات الثقافة عن مستهلكيها حتي أصبحت الثقافة تقوم بدور المتفرج . ولما لم تعد الثقافة الجماهيرية مرتبطة بالتواقي الصفوة المحودة فقد هدفت الي إرضاء الذوق المتوسط الذي يتطلب مقياسا معينا . بيد أن هذا المقياس يتم وضعه بواسطة الجماهير لا من أجلها . وتتقل مبادرة التغيير الثقافي من الصفوة الي الجماهير . ويدور محور الاهتمام في الثقافة الجماهيرية حول اللهو والتسليه نظرا لأن الأغلبية تعزف عن التعلم والفنون العالية ، ويصبح المقياس الأدبي والجمالي للحكم علي المنتجات الثقافية هو الاستحسان الشعبي والنجاح المالي الذي يصرف بدوره المواهب الكامنة عن الاهتمام بأشكال التعبير الفني . يضاف الي ذلك أن انتشار وسائل المواصلات يضعف الروابط بين الأفراد كما يضاعف منها ، ويؤدي عدم الاكتراث الي الاشتغال بتوافه الأمور . والقضاء علي أسباب الملل والسآمة في الحياة يصبح الهروب من الواقع المرير هدفا ثقافيا أساسيا .

وبالإضافة الي المناقشات التي دارت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين حول الثقافة المالية والهاطقة تركّز نقد الثقافة الجماهيرية علي أمريكا ، وظهر ذلك النقد في الثلاثينات ، وازدهر في العالم المتكلم بالانجليزية بعد ١٩٤٥ . وكانت الولايات المتحدة أول أمة تكونت نظمها وتشكلت هويتها في عصر التكنولوجيا حيث استبحر العمران (ويخاصة بعد ١٩٤٥) وأصبح ركنا أساسيا من الهوية الثقافية ، وحيث خلق رخاء الأغلبية البيضاء أسلوبا في الحياة مبنيا علي استهلاك السلع ، وقائما علي مذهب المتعة القاتل بلن اللذة والسعادة هما الخير الاسمي في الحياة ، وذلك بدلا من الاهتمام بالتعليم المؤدي الي الثقافة . وذلك كان من المهم في أي بحث عن "الأمركة" أن نسأل : الي أي حد تعبر الثقافة التي نشأت في القرن العشرين - وبخاصة في أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية - ثقافة أمريكية خالصة ، و الي أي حد تعتبر هذه الثقافة نتيجة منطقية لمرحلة معينة من المجتمع الصناعي ؟ والسبب الذي يحدونا الي هذا السؤال هو أن كثيرا مما ينتقده الأوروبيون في أمريكا ليس "أمريكيًا" خالصا ، وأن كل أمر مستجد ومبتدل حل محل التقاليد القديمة ليس "أمريكيًا" خالصا ، وانما هو حديث فقط وإذا عرفنا ذلك تغيرت نظرتنا كثيرا نحو الثقافة الأمريكية . وهذه مشكلة كبيرة لا يمكن حلها ولا استيقاء بحثها في هذا المقال . ولكن في وسعنا أن نقرب منها إذا درسنا مصادر الثقافة الأمريكية . واليك البيان :

أول هذه المصادر أن أمريكا كانت بلدا جديدة . ولذلك كان شعور الأمريكيين -ولا يزال- بوجود تقاليد موروثية أضغمت منه في أي أمة أخرى . ولما كان الأمريكيون قد تحفظوا من انثال التقاليد الماضية غير حاملين فوق ظهورهم سوي غشاء رقيق من عناصر التجربة الأنجلوسكسونية التي غلبت علي الثقافة الأمريكية الي وقتنا هذا ، فإنهم تطلعو الي المستقبل في صياغتهم للثقافة ، بدلا من الرجوع الي جذور التقاليد القديمة .

وترتب علي تدفق المهاجرين من الخارج أن اضطرت أمريكا خلافا لما حدث في كثير من البلدان - أن تصوغ تقاليد قومية مشتركة في الوقت الذي استبحر فيه العمران ، وقامت ثقافة حضرية شاركت فيها أمريكا بلدا أخرى في القرنين ١٩ و ٢٠ ، وكان معني صياغة ثقافة قومية قوية تتألف من عناصر متعددة ومتنوعة من قومية ، وحضرية ، ودينية ، وإغوية ، وثقافية (مع غلبة العنصر الأنجلوسكسوني) أن أصبح من الضروري أن تعلم غيرها من الشعوب ثقافة راقية (هزيلة ، ضئيلة ، قليلة الفناء) ومتجانسة وموحدة ، ثقافة تقوم علي أكبر قدر مشترك . ومن الطبيعي ألا يكن هذا القدر المشترك كبيرا . ومع أن الثقافة الألبية المحنودة في ولاية نيو انجلند (إنجلترا الجديدة) وصلت في بداية القرن ١٩ الي مستوى رفيع فإن المستوى القومي في الأدب كان ضعيفا بشكل واضح ، لأن هذا الأدب كان يخاطب بالضرورة أقواما ينتمون الي جذور مختلفة نشأت في بولندا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، والسويد (ثم المكسيك وفيتنام وكوبا فيما بعد) كما نشأت في إنجلترا ، واسكتلندا ، وإيرلندا .

وثالثها أن الثقافة الأمريكية بدأت من نقطة ضعيفة لأنها لم تكن سوى شعبة واحدة من تراث أنجلوسكسوني غني وخشخ ، يتألف من : الأدب ، والمسرح ، وفن العمارة ، والرسم ، الخ . ولما كانت أمريكا في وضع غير موات ، بسبب تبعيةها لإنجلترا ، فقد اضطرت الي أن تدخل جلبة المنافسة مع المستويات العليا لكل من الثقافة الإنجليزية عامة ، والثقافة الأوروبية خاصة ، نون أن تساندتها طبقة أرستقراطية قوية .

وثالثها أنه علي الرغم من أن إنجلترا كانت أول دولة صناعية فإن أمريكا خلقت في القرن العشرين ثقافة صناعية شاملة كويتها - ثم سيطرت عليها في النهاية - تكنوبوجيات جديدة ، أكثر مما حدث في أي دولة أخرى . وهذا يصدق بوجه خاص علي الثلاثين سنة الأخيرة . وفي مجال السينما أيضا لعبت هذه الوسيلة الاعلامية دورا جوهريا ، سواء في خلق ثقافة أمريكية قوية ، أو تصدير تلك الثقافة الي الخارج ، لأن هذا هو الجانب الوحيد من

أمريكا الذي يراه معظم العالم .

ورأيها هو أهمها في رأي كثير من النقاد - أن أمريكا كانت أول مجتمع حديث استطاعت فيه المشاركة الجماهيرية في الحياة السياسية والاجتماعية ، بالإضافة الي الرخاء الواسع النطاق ، أن تحول مستويات الذوق الشعبي الي طرق قريبة التناول من التعبير الثقافي ومن السهل في مجتمع يقدّر الإنتاج التجاري بتقدير اكبير الرضا ورغبات الجماهير مع إثراء منتجي الثقافة في الوقت نفسه . وأهم من ذلك أن مبدأ المساواة الذي تدعو اليه الديمقراطية يضفي صفة الشرعية علي الذوق الشعبي . ذلك أن تزويد الأشخاص بالثقافة التي يفضلونها سواء أكانت عالية أم هابطة أم غريبة ليس سوى مظهر من مظاهر الديمقراطية السياسية . وهذا مصدر من مصادر القوة والضعف معا . فاما أنه من مصادر القوة فلأنه عندما يتقلب التذوق علي التجانس في الثقافة فإن ذلك يكون مصدرا للإلهام ، وإما أنه من مصادر الضعف فلأن ذوق الأغلبية يكتسب صفة القداسة الي أبعد حد بحيث لا يمكن مخالفتة بسهولة .

وأخيرا أن هيمنة المشروعات الحرة في أمريكا أنت الي تركيز وسائل الإنتاج الثقافي - المذيع والتلفاز والمتاحف والمسارح - في يد القطاع الخاص ، وخضوع هذه الوسائل بصورة مباشرة لضغوط مستهلكي الثقافة ، لأن الشعبية في هذه المجال هي معيارس النجاح أكثر من أي شيء آخر . ولهذا جاء جانب السلي والايجابي معا . فاما جانبه السلي فهو عدم استطاعة أي نظام كالحوالة مثلا أن يرفع المستوي العام للثقافة أو ينشر أشكالاً مختلفة للثقافة (كثقافة الأقلية مثلا) وأما الجانب الإيجابي فهو ضالة الاستقلال السياسي لوسائل الإعلام ، وهذا يعد بلا شك نعمة كبرى في نظر الذين يخضعون لثقافة مفروضة من جانب السلطات الرسمية .

هذه بعض اسباب السمات الخاصة التي تمتاز بها الثقافة الأمريكية . وهناك بالطبع قيم خاصة تتكرر في محتوى الثقافة الأمريكية ، نتيجة لتطورها التاريخي مثل الفردانية (عدم خضوع المصالح الفردية لسيطرة الحكومة أو رقابتها) ، والاعتماد علي النفس ومذهب المنفعة (تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس) ، والليبريتانية (أو التحررية ، ومعناها التمسك الشديد بأهداف الدين والفضيلة) ، وما شابه ذلك . وهذه قيم أقل أهمية بالنسبة لموضوع مقالنا . ولكن يجب قبل أن ننقل الي موضوع انتشار الثقافة الأمريكية في أنحاء العالم أن نتأكد أولا هل توجد ثقافة أمريكية مفردة تهيمن علي الأشكال الثقافية الأخرى في الولايات المتحدة كما افترضنا حتي الآن ؟ إن معظم النقاد يتفقون علي وجود عدد كبير من الثقافات

في أمريكا يمكن تقسيمها الي أربع مجموعات رئيسية . هناك أولا : أنواع مختلفة من الثقافة الأنجلو سكسونية طبقا للأقاليم (الجنوب - الشمال الشرقي - الغرب الأوسط - الغرب، ثم المحليات الداخلة في هذه الأقاليم) ، وطبقا للديانة (البروتستنت - الكاثوليك - اليهود) . وثانيا : إن القومية أو العرقية عامل حيوي في تباين الثقافة الأمريكية لأن هناك فروقا جوهرية بين الحياة الثقافية لكل من الأماركة (الأمريكيين) للمتحدرين من أصل صيني أو ياباني ، والأماركة الذين هم من جزر هاواي ، ويورت ريكو ، ثم الزنوج والإيطاليين والبولنديين وغيرهم من العناصر العرقية البيضاء . وثالثا : إن العمر أو السن عامل هام في التعبير الثقافي . صحيح أنه لا توجد ثقافة شبابية واحدة (خاصة بالشباب) ، ولكن عملية التجانس الثقافي أكثر وضوحا بوجه عام بين الشباب ذوي الخلفيات المختلفة . وفوق كل هذه الفروق الثقافية المتميزة توجد مجموعة من الثقافات النوقية أو الطبقية ، أي الخاصة بطبقة معينة وإن لم تكن وفقا علي هذه الطبقة . يمكن تمييز خمس منها علي الأكل : عالية ، ووسطي عالية ، ووسطي هابطة ، وشبه شعبية ، وهابطة . وهذه الأقسام ليست جامدة إذ توجد ثقافات تنتشر وتمتد في غير نظام أو اتساق كأنفصان الشجر (ويحدث ذلك في أمريكا أكثر مما يحدث في أي دولة أخرى). ولكن يمكن القول بوجه عام أن الثقافة النوقية الرئيسية في الولايات المتحدة اليوم تنتمي الي ثقافة الطبقة الوسطي - الدنيا التي حلت محل الثقافة النوقية الدنيا ، وأصبحت النمط السائد خلال الخمسينيات .

ما هي إذن الثقافة الأمريكية في مرآة الحاضر ؟ في الموسيقى وحدها يمكن أن نجد موسيقي كلاسيكية ، وموسيقي ريفية ، وموسيقي الروك ، والموسيقي الشعبية ، وموسيقي الجاز ، وغيرها من الأصاليب الأخرى العديدة . ولعل أشهرها ذلك المزيج من النفقات المستمدة من هذه الأنواع ، والمعروفة غالبا باسم "الاستماع السهل" والمجموعة باسم "موزالك" في المطارات والمصاعد والمطاعم . وبقي هذه مباشرة من حيث الشهرة موسيقي الروك الريفية والساندة . ويوجد في كل الأشكال الثقافية الأخرى أنواع مماثلة من التعبير سواء في الموسيقى أو الأفلام أو التلفاز أو عادات الأكل أو النزوات العارضة (مثل المخدرات والمشي اللوثيد) .

وبواضح أن من أهم ما تعرضه الثقافة الأمريكية علي العالم هو البرامج التلفازية . ومن المفيد أن نقول بضع كلمات من هذا الموضوع ، لأنه سيكون نموذجا لما أعرض له فيما بعد من الكلام عن انتشار الثقافة . ومعلوم بالطبع أن التلفاز هو أحدث وأعق الوسائل الشعبية في عصرنا ، وهو يمثل في نظر الكثيرين الجانب القبيح من الثقافة الشعبية أكثر مما تمثله

الروايات البوليسية والكتب الهزلية ، ومهازل (كوميديا) الإذاعة الهابطة . وتبدو لكل ذي عينين آثار التلفاز بعد نحو أربعين سنة من استخدامه ، ففي ١٩٥٥ انخفض الاستماع للإذاعة في أمريكا بنسبة ٥٠٪ وانخفضت القراءة بنسبة ٢٠٪ (علي الرغم من أن بعض الأشكال الهابطة من القراءة الترويحية انخفضت أكثر من غيرها) وشاهد معظم خريجي المدارس العالية التلفاز ثماني ساعات يوميا في المتوسط ، وانفقوا أمام أجهزة تهم ما يزيد بنسبة ٥٠٪ علي ما أنفقوه في حجرة الدراسة . والتلفاز هو المصدر الرئيسي للأخبار عند ٦٤٪ من الأمركة . وفي أي وقت تجتنب البرامج التلفازية الشعبية المشهورة نحو ٤٠ مليون نسمة ، أما الأشكال المختلفة من الثقافة العالية فتجتنب نحو نصف مليون . وعلي الرغم مما بذل من جهود في العقود القليلة الماضية لتصوير حياة الأقليات بشكل أكبر فإن التلفاز لا يزال أي حد كبير مرآة حياة وقيم الطبقات البيضاء والوسطى ، والوسطى الدنيا . لذلك فإن هذه الحياة والقيم أصبحت هي الشكل الثقافي الغالب في أمريكا الحديثة ، بل أصبحت هي الوجه . الذي تظهره أمريكا للعالم .

٢ - استعمال الكوكاكولا : أمركة «الثقافة العالية»

الآن وقد تكلمنا بإيجاز عن موضوع الثقافة الجماهيرية ، وعرضنا لبعض مقومات الثقافة الأمريكية ، يجدر بنا أن نتكلم عما كان لهاتين الثقافتين من آثار ، وما يمكن أن يكون لهما من تأثير علي بقية دول العالم . وسنعرض بإيجاز في هذا المبحث لبعض عناصر الثقافة الأمريكية التي أمكن تصديرها إلي الخارج بأعظم قدر من النجاح ، بعد الحرب العالمية الثانية. وسنحاول أن نعالج بعض أوجه الصراع بين الثقافة العليا التي أخذت تبرز إلي عالم الوجود وبين الثقافات التقليدية . والنقطة الرئيسية التي سنركز عليها حديثي في هذا المقام هي أن الكلام علي هذه الثقافة لا يخلو من المبالغة ، وأن كثيرا مما يطلق عليه اسم «الأمركة» لا يعدو أن يكون هو انتشار الثقافة الصناعية ، لا الثقافة الأمريكية بالذات . علي أنه متي اتضح هذا المعنى أمكننا أن نذكر أن كلا من الثقافة الصناعية الحديثة ، وصورتها الأمريكية الخاصة تهدد تقدم الثقافة الانسانية بصورة خطيرة ، وسنذكر هنا بإيجاز عن هذا التهديد ، ولكن سنأرجئ الكلام عن مواجهة إلي المبحث الأخير . ونظرا لضيق المقام فإني سأتناقص عن الكلام في توسيع وسائل الاعلام عند الدول الأخرى ، وإن وجب الاعتراف -علي الأقل- بنجاح الجهود التي تبذلها لتصدير الثقافة كل من إنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والهند ، والاتحاد السوفييتي . ومصر ، وغيرها من الدول ..

وجدير بالذكر أن تصدير الثقافة الأمريكية بدأ بعد الحرب العالمية الثانية بحملة جهورية ، وإن كانت بؤادر النفوذ الثقافي الأمريكي قد ظهرت بعد سنة ١٩٠٠ ، إذ أخذت هوليوود الأقدام بمجرد أن صنعتها وأصبح نفوذها قويا في أواسط العشرينيات . وخلصت موسيقى الجاز أبواب طائفة كبيرة من الشباب الأوربي بين الحربيين ، وفي الثلاثينات أخذت بعض المظاهر المادية لمستويات المعيشة الأمريكية العالية تنتشر علي نطاق واسع ، كالاطعمة المجمدة والمشروبات غير المسكرة ، ولكن هذه لم تكن شيئا منكورا بالقياس الي ما كان للثقافة الأمريكية ، والأساليب الفنية للإنتاج ، والعادات الاستهلاكية ، من تأثير هائل علي عالم نهكته الحرب واستبدت به الرغبة في الفوز بنصيب من مغام «الحلم الأمريكي» كما أن النظام السياسي الأمريكي استنوي العالم أيضا . وكان من أول وأقوي رموز هذا الفرق الثقافي الجديد مشروب الكوكاكولا الذي قدم للجنود الأمريكيين في الخارج بشمن زهيد لا يتجاوز خمسة سنتات ، مهما بلغت تكاليفه بالنسبة للشركة المنتجة لهذا المشروب . وفي عام ١٩٥٠ تحالف زراع الكروم (المعدة لصنع الخمر) والشيوعيين في فرنسا وحاولوا صد هذا التيار بتقديم قائمة من المشروبات غير المسكرة . ولكن حلي غير جدوي . وفي السنة التالية لاحظ المفكر السياسي الفرنسي «ريومندارون» أن المفكرين الأوربيين تتبلاوا بأن «حلب الطعام المحفوظ» سوف تحل محل الطعام الطهي في البيوت وأن الكوكاكولا سوف تحل محل أشهر منتجات الأرض (أي الخمر) ، وأن التلابة التي تقضي علي مذاق الطعام سوف تنذر بزوال القبول الذي تخزن فيه الخمر (وقد أصاب المحز في القولة الأخيرة علي الأقل) . وفي الستينيات تعالت نذر المفكرين عندما بدأت موجة من الاستهلاك بين الأهالي لم يسبق لها مثيل في التاريخ . وفي أواخر العقد السادس - كما قال أحد المراسلين - ساور القلق الفرنسيين حول مصير الطعام وندموا بانتشار بارات (مشارب) الطيب والهام (فخذ الخنزير ، وكانوا يملحونه ووجففونه ويدخنونه ، أي يعالجونه بقعريضه للدخان) ، والبيض والهامبرجر (شطائر من لحم البقر) ولكنهم أقبلوا يسرور علي أجهزة التدفئة المركزية واستعمال المجمدات (أي حجرة التجميد في التلابة المعروفة باسم الفريزر) . والفسالات ، والسيارات الكبيرة ، وكلها من مظاهر الحضارة التي نسيناها اليوم بعد أن فقدت الهالة التي أحاطت بها في البداية حيث عرضت علي الشاشة الفضية ثم أصبحت حقيقة واقعة.

وفي أواخر العقد السادس وأوائل العقد السابع خفت حدة الشعور بالعداء نحو أمريكا ، وتأقت نفوس الأوربيين الي التمتع بثمرات الثقافة الأمريكية ، وأشتعلت في نفوسهم من جديد جذوة الحماسة لانتقال أساليب الحياة الأمريكية ، كتناول الوجبات السريعة ، وممارسة لعبة

البوانج ، واستعمال آلات البيع (باسقاط قطعة تقنية في ثقب) ، وشراء السيارات الكبيرة ، باستخدام بطاقات الائتمان ، وقامة الأسواق المركزية (السوبر ماركت) ، وتناول الكعك المحلي بالسكر والملح بالدهن ، وأنشاء الموتيلات (جمع موتيل ، وهو فندق علي الطريق العام يبيت فيه السائحون ويوقفون سياراتهم في ساحته) ، ومحال بيع المربطات التي يستطيع الناس أن يشتروا منها ما يريدون وهم في سياراتهم ، والكعك المحتوي علي مزيج من العناصر الغذائية المعدة اعدادا تجاريا ، ولور السينما التي يستطيع الناس أن يشاهدوا ما يعرض فيها وهم في سياراتهم ، وطعام الفطور المكون من حبوب نباتية ، وغير ذلك كثيرا .

وعلي الرغم من أن الاماركة نجحوا في جعل وقت الفراغ عند عامة الناس أكثر تنوعا وجاذبية فإن كثيرا من عناصر الجاذبية في الثقافة الأمريكية كان يكمن في مظاهر النشاط والاثارة التي تعج بها الحياة الأمريكية ، وهو الامر الذي كان يستهوي أفئدة الشباب "الغاضب" في انجلترا خلال الخمسينات ، وإن لم يخلب الباب نظرناهم من أبناء الجيل التالي بيد أنه لم يعد من الضروري أن يهاجر الأوروبيون الي أمريكا لتحقيق هذا . ذلك بأن الطم الأمريكي الذي راود خيال الأوروبيين سرعان ما أصبح حقيقة واقعة في أوروبا .

ويؤخذ من ذلك أن الثقافة الأمريكية في نظر الشباب كانت تعني الجدة ، والنشاط ، والعصرية ، والتقدم ، والسيطرة التكنولوجية وإيثار الذذة والشهوة علي كبح جماح النفس والعهدة . ومع الأشكال الجديدة للديمقراطية أصبحت الطبقات المتوسطة والعامة أكثر ثراء وقوة منها في أي وقت مضى . بيد أنه اتضح في أوائل الستينات - وهو أمر مسلم به الآن - أن التحول الذي طرأ علي أوروبا (منعروض لبقية العالم بعد قليل) لم يكن يرجع الي «الامركة» بقدر ما يرجع الي انتشار أنماط الاستهلاك وأساليب الانتاج المناسبة لمرحلة معينة في تطور المجتمع الصناعي . وربما يتحسر النقاد بسبب «الفراغ الروحي» في الالب الأمريكي ، ولكن الامر الذي أثر في أوروبا الي حد بعيد هو انتشار التكنولوجيا والاسراف في استهلاك السلع والمنتجات ، لا الآثار الثقافية الضيقة للمجتمع الأمريكي . صحيح أن الناس كانوا ينهون باللائمة علي الشباب لسهرهم الي ساعة متأخرة من الليل ، وراقصهم علي صوت الموسيقى الصاخبة ، واسرافهم في تعاطي الخمور ، وممارستهم للجنس ، متأثرين في ذلك بالنموذج الأمريكي ، ولكن الناس أصبحوا يدركون يوما بعد يوم أن كل هذه المفاسد ترجع الي شعور الفرد بالاستقلال والفرية والحرية ، وهو الامر الذي شجعت عليه هذه المرحلة من المجتمع الصناعي ، حيث تضاعفت أهمية القنود والضوابط التقليدية لزواء هذا الجم الغفير من البدع

المستحقة ، في حين أن ثراء وبرز القوة العظمي (أي الدولة القوية والمراد بها هنا أمريكا) أدى الي الإقلال من الاشتغال بالثئون السياسية (حتي نهاية الستينيات علي الأقل) والتنظيمات الاجتماعية التقليدية ، وصار الناس لا يهتمون بالتقاليد ، والانهماك في الملذات ، والحرص علي حيازة الثروة والتكنولوجيا . ولكن علي الرغم من أن كل ما هو عصري كان مرادفا لكل ما هو أمريكي في العقد السادس ، فإن ذلك لم يعد صحيحا بعد عشر سنوات . يكتب بعض المراقبين الحكماء أمثال حنا أرندت يقول في أواسط العقد السادي "الحق أن العملية التي يخشاها الأوروبيون ليست هي الأمركة. وإنما هي بزوغ العالم الحديث بكل تعقيداته وأثاره ، وصار من الواضح في أواسط الستينات أن الأمركة لا تعني سوى أن أمريكا خلقت أول مجتمع استهلاكي ، وأنه متى نما الاستهلاك الجماهيري في أوروبا أصبح من الواضح أن الأوروبيين - برغم اقبالهم علي كثير من المنتجات الأمريكية وبرغم ضخامة الاستثمارات الرأسمالية الأمريكية في أوروبا - قادرين علي انتاج سلعهم الخاصة وتوزيعها وتنظيمها واستعمالها . وقد تغيرت أمريكا كثيرا بعد ١٩٤٥ ، وأصبحت أوروبا أكثر التصاقا بها ، ولكنهما لم تصبحا شيئا واحدا ، ولم تتقدما نحو وحدة الهوية . والواقع أن الجهود الصاعدة التي بذلت للأمركة بعض الأوروبيين -كما حدث في المنطقة الأمريكية التي احتلتها أمريكا في ألمانيا الغربية بعد الحرب- باتت كلها بالفشل بعد عشرين عاما ، وإن كانت بعض الاستنتاجات الأخيرة قد دلت علي أن ألمانيا الغربية لا تزال هي أقل الدول الأوروبية شعورا بالعداء نحو أمريكا .

لقد تركز حديثنا حتي الآن حول أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ، فما بال بقية دول العالم، من الإنصاف أن نقول هنا إن التقليل السطحي -علي الأقل- للثقافة الأمريكية كان يتناسب طرديا في أي بلد مع درجة تصنيع هذا البلد ، وثروة الطبقة الوسطي والعامة فيه ، ومشابهة نظامه لنظام النظام السياسي الأمريكي . مثال ذلك أنه حدث في عام ١٩٢٦ أن انتشرت مطاعم الهامبرجر في ٤١ دولة من بلاد العالم ولكن عددها في اليابان كان أكبر منه في أي دولة أخرى ، وجدير بالذكر أن أمريكا تحقق فائضا في ميزانها التجاري يقدر بنحو بليون دولار سنويا تحصل عليه من توريد الأفلام والمسلسلات التلفازية الي المسارح البالغ عددها ٨٠٠ و ١٠٠ ، واجهزة التلفاز البالغ عددها ٤١٧ مليوناً في كافة أنحاء العالم ، ولعل الجزء الأكبر من ذلك يخص البلاد التي تشارك أمريكا في قيمها (نلاحظ أن نحو ٢٠٪ من وقت ألبث التلفازي في أوروبا مخصص لبث البرامج الأمريكية ، في حين أن ما يقرب من ٨٠٪ من الأفلام المعروضة في جميع أنحاء العالم مصنوعة في أمريكا) . بيد أن الانتشار الفعلي للبرامج

الأمريكية يتجاوز بالطبع نطاق المجتمعات الصناعية المتقدمة . ولهذا كانت الأفلام وأجهزة التلفاز - التي جانب السياحة ، وهي وسيلة أخرى لنشر القيم الغربية - من أكبر الوسائل لتصدير الثقافة الصناعية بعامة ، والأمريكية بخاصة ، التي جانب أنهاء العالم .

علي أن الناس يقبلون هذه القيم طوعا أو كرها . وذلك يوجد قدر من التوتر لا يستهان به بين الثقافة العليا والثقافة التقليدية في جميع أنحاء العالم . ومرة أخرى نقول إنه علي الرغم من وجود هذه القيم في كثير من أنواع الثقافة فإن هذه الأنواع جميعا معروفة تماما عن طريق وسائل الاتصال ، والطرق التي يدرك بها هذا التوتر واضحة تماما . ذلك أن معظم المجتمعات التقليدية تقوم علي أساس الأسرة أو القبيلة أو القرية أو الديانة أو الأعراق . . وكما رأينا في حالة أمريكا فإن انتشار نوع معين من الثقافة قد يلعب - بل إنه يلعب بالفعل - دورا مركزيا في خلق هوية قومية من هذه الأشكال الصغيرة من الهوية ولكن الثقافة الصناعية العليا تنجيه نحو العصرية لا التقليدية ، والعالية لا القومية ، والمساواة بين الجنسين (الرجل والمرأة) لا السيطرة ، والديمقراطية لا الدكتاتورية ، والتعليم العام لا الخاص ، والتمسك لا التمايز.

ولذلك كانت وسائل الاتصال الجماهيرية خاصة قادرة علي التأثير في عملية بناء الأمة ، وفي مهمة تكوين هوية الأمم الجديدة في إطار النظام الدولي . وبالاختصار يمكن القول بأن وسائل الاعلام الغربية أو الشمالية قد تؤيد بعض الجماعات في بلدان العالم الثالث (وبخاصة جماعة الصفوة الممتازة الحديثة) ، كما يمكن أن تؤيد - بل انها تؤيد بالفعل - أيديولوجية التنمية الغربية في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في العالم بوجه عام ، وتصور التاريخ العالمي والشرق المعاصرة بأنها تتفق مع هذه القيم . ولذلك نجد في العالم كله أن النظام الدولي لوسائل الاتصال يعمل علي نشر القيم الغربية وبخاصة القيم الأمريكية في هذا القرن (وهذا هو السبب في أن عبارة "الأمبريالية" أي الهيمنة الثقافية) تنطبق علي عصرنا . والدلائل علي ذلك أن معظم أنحاء العالم يقوم علي جمعها وتوزيعها ٤ وكالات للكتاب (الصحافة المتحدة ، والصحافة المتحدة النواية ، وكالة رويتر ، وكالة الصحافة الفرنسية) وكذلك تقوم بلاد الغرب المتقدم بإدارة عدد كبير من الاتصالات الهاتفية والكيوية والأقمار الصناعية التي تصل الي عدد كبير من سكان العالم من طريق التوسع في ارسال محطات الاذاعة (الاذاعة البريطانية، وصوت أمريكا ، والوكالات الأمريكية المتحدة) . وقد سبق أن ذكرنا بعض الحقائق عن التلفاز . ونقول هنا أن الولايات المتحدة (وكذلك الصين) لا تستورد من البرامج الا أقل من ٢٪ ، ولكنها تصدر نحو ٨٠٪ من جميع البرامج التي يتم تصديرها . وعلي عكس ذلك

تستورد فرنسا ٩٪ واليابان ١٠٪ ، في حين أن المكسيك وإيطاليا وأستراليا وغيرها من الدول العديدة تستمد نحو ٥٠٪ من برامجها التلفزيونية من مصادر أجنبية (السعودية ١٠٠٪) ويتناسب عدد الأفلام السينمائية المشاهدة في كل أنحاء العالم تناسباً طردياً مع عدد الأجهزة التلفزيونية الموجودة في أي بلد واحد . وعلى الرغم من أن الهند - وليبيا واليابان - هما أكثر الدول إنتاجاً للأفلام في العالم فإن الأفلام الأمريكية تشاهد فيهما علي أوسع نطاق . وإنك انعمت النظر في الإحصاءات الخاصة بوسائل الاعلام المطبوعة لأقليت سيطرة الغرب واضحة . وعلى الرغم من وجود نحو ٥٠٠ لغة مكتوبة في العالم فإن ثلثي المواد المطبوعة لا تنشر الا بخمس لغات . وفي بعض الحالات يصل توزيع بعض المجالات أو الدوريات الي حجم هائل . مثال ذلك أن مجلة ريندرز دايجست (مجلة المختار) تباع أكثر من ١١ مليون نسخة في الخارج وتطبع بـ ١٣ لغة قومية .

وقد أدت سيطرة الغرب علي وسائل الاعلام في السنوات الأخيرة الي مطالبة دول العالم الثالث خاصة بالرقابة علي هذه الوسائل . وستدرس في المبحث التالي بعض هذه المقترحات بشئ من التفصيل . وتركز هذه المطالبة علي حق كل الدول (وهو ما يبرره ميثاق الأمم المتحدة) في نشر أنبائها وقيمتها بطريقة وافية ومنصفة .

كما تطالب هذه الدول أيضا بلاد الغرب بالمساعدة في اقامة نظم اتصال في العالم الثالث، وتقديم العون لوكالات الأنباء في الدول غير المخازنة ، وإقرار حق الحكومات في تقييد حرية بعض مصادر الأنباء ، وبتفقد الأنباء عبر الحدود القومية ، وإنشاء محكمة عليا تابعة لليونسكو بحيث لا تخضع للسلطة القومية وذلك لمراقبة سلوك وسائل الاعلام في جميع أنحاء العالم .

وقد زعم كثير من النقاد الذين ناقشوا في العشرين سنة الأخيرة تأثير وسائل الاعلام الجماهيرية علي الثقافات غير الغربية أن غلبة النفوذ الغربي وبخاصة الأمريكي كان لها تأثير ضار علي بقية العالم . وقد ورد مثل هذا الزعم - كما رأينا - في المناقشات التي دارت حول تأثير الثقافات الجماهيرية الموجودة في بعض الثقافات القومية ، وبخاصة في الولايات المتحدة . ولكن الواقع أن نقاد الثقافة الجماهيرية لم يسلّموا كلهم بهذا الزعم الذي يغلب عليه طابع التشاؤم ، إذ يذهب بعضهم - مثلاً - الي القول بأن القيم التي تنطوي عليها الثقافة الأمريكية ليست أكثر إغراقاً في المادية من قيم الثقافة الأرستقراطية في أوروبا القديمة التي شيدت البندقية ، وفرسايل ، وكثيسة القديس بولس ، ويقاوم أيضاً أن حياة أغلبية الشعب

قبل القرن العشرين كانت أشد انخراطاً منها في البلاد الصناعية اليوم ، إن كثيراً من مظاهر الثقافة العالية في القرون الماضية قد بولغ في تقديرها ، وصورت بصورة رومانسية لا تخلو من المغالاة ، ويوجهون النظر الي شعور الأمة قبل القرن العشرين ، والتي أتاحت أسباب الثقافة العالية الآن لأغلبية الشعب أكثر مما كان في أي وقت مضى ، وبخاصة فيما يتعلق بالاطلاع علي الثقافات الأخرى . كل هذه العوامل تدل علي أنه لا يمكن الجزم حتي الآن بتدهور المستوي الفكري والثقافي من طريق وسائل الاعلام الجماهيرية في المجتمعات الحديثة . صحيح أن الشعور بهذا التدهور موجود بين المفكرين علي نطاق واسع ، ولكن لم يثبت حتي الآن أنه يقوم علي أساس متين سواء في أمريكا وفي أوربا . كيف ينبغي - إذن - النظر الي تلك المسألة بالنسبة للثقافة العليا وبقية العالم ؟

لقد لاحظنا أن من النتائج الرئيسية لوجود نظام قومي لوسائل الاعلام ، يستند الي برامج شبه متجانسة كالذي يوجد في الولايات المتحدة ، تحقيق درجة هامة من الوحدة الثقافية . والقول بأن الناتج الثقافي المنتج من الأفلام والتلفاز ضعيف المستوي قول يفتقر الي الإقبات . ومن المسلم به أن برامج وسائل الاعلام تعمل علي وحدة الثقافة . ولكن الذي يضار هنا هو البرامج التي تخدم الأقلية العرقية ، والأقليمية ، والطائفية ، والبرامج الخاصة باللغة الثانية ، والهجات المحلية . ولذلك كانت «لعنة» هذا النوع من وسائل الاعلام هي الوحدة لا ضالة الجودة .

والحالة الشبيهة بذلك هي قيام نمط من الثقافة الدولية علي الأساس الذي قامت عليه الثقافة الجماهيرية . ووجه الشبه في ذلك أن المشكلة الرئيسية في هذه الثقافة الدولية هو تأثيرها في الثقافة القومية والمحلية والعرقية والقبائلية والدينية واللغوية . وذلك أنه يوجد دائماً في كل بلد من البلدان - كما سبق أن أوضحنا - بعض الجماعات التي تروق لها بعض البرامج الغريبة - وأخري تمقت هذه البرامج (الثورة الإيرانية خير شاهد علي الصراع الأخير بين الجماعتين) ثم أن التحول الاقتصادي يخلق طبقات جديدة ، بالإضافة الي أن ظهور صفرية فنية وحكومية حديثة تعلمت تعليماً غريباً ، يقضي الي طلب المزيد من القيم الغريبة التي تعلمتها هذه الصفرية . ويحدث أحياناً أن نجد أمة مزقتها الخلافات القبائلية واللغوية والدينية والعرقية فتضطر الي الاعتماد علي هذه القيم الأجنبية (تأمل الأثر الذي أحدثته اللغة الانجليزية في الهند) .

ولما كان من المرجح فيه تنويع الثقافة العالمية الي أقصى حد (وهو المبدأ الذي سندافع عنه في المبحث التالي) فإن تأثير وسائل الاعلام علي المجتمعات غير العربية يكون ضاراً حتماً فحما بلغت هذه المجتمعات من التطور ، ومهما تلاشت البرامج مع الأهداف الظاهرة للحزب الحاكم أو غير الحاكم ، أو أهداف الأغلبية والأقلية العرقية ، حتي حينما تلقي قضية الوحدة القومية تشجيعاً من ثقافة لجنية . ذلك بأن الثقافة العليا -كما رأينا- تنحو نحو الوحدة والتماس ، وتقضي علي معظم أشكال الولاء التقليدي ، وتقرض ميادئ العالمية والتحضّر ، والنمو التكنولوجي ، والتوسع الاقتصادي ، وزيادة الاستهلاك السلمي الي أقصى حد .

وواضح أن النمو الاقتصادي له نهاية ، ولذلك كان من حقنا أن نعترض علي نشر هذه المبادئ في عالم لم يدرك بعد كثيراً من الأخطار الكامنة في التصنيع الذي بلغ درجة عالية من التقدم .

ولنقتصر كلامنا علي الثقافة ، فنقول إن الخطر الكبير الكامن في وسائل الاعلام في جميع أنحاء العالم هو الوحدة والتماس ، والقضاء علي تنوع الثقافة ، والأشكال المختلفة الكثيرة للتعبير الثقافي الانساني . فلنبحث الآن في أسباب أهمية هذا التنوع ، والعراقيل التي تقوم في سبيله .

٣ - التعدد الثقافي ، والدولية ، والتنمية

لقد رأينا حتي الآن أنه علي الرغم من أن انتشار الثقافة الصناعية (وبخاصة في صورتها الأمريكية) قد يمثل تهديداً للثقافة العالية أقل مما يقرره الكثيرون ، فإن ثمة خطراً ماثلاً من نوع آخر علي المستوي العالمي ، هو خطر التجانس الثقافي . صحيح أنه ليس ثمة من الأسباب ما يدعو الي القول بظهور تكنولوجيات جديدة تصيغ العالم حتماً بالصيغة الأمريكية الخالصة . وصحيح أن استخدام الأقمار الصناعية (كالأريسات) ، والنظم الكبلية الجديدة ، سوف تتيح للأقاليم والبلد أن تكبر لاحتياجاتها الثقافية علي نحو لم يخطر علي بال أحد من قبل . وصحيح أن ازدياد الثروة سوف يتيح تقليد الصناعات الفيلمية الناجحة في بعض الدول مثل الهند ، وهونج كونج ، ومصر ، والمكسيك . ولكن برغم ذلك كله فإن انتشار الثقافة العليا قد يساير عوامل التوازن هذه ويتغلب عليها الي الحد الذي لا يكون فيه التعدد الثقافي هدفاً للسياسة القومية والدولية . وسننظم أولاً بالبحث في هذا المبحث علي ماهية التعدد الثقافي ، وثانياً كيف يمكن الدفاع عن هذا المبدأ واستعادته . علي أنه قد يكون من المفيد أن نكرر : لئلا كان التعدد الثقافي مثلاً أعلي جديراً بالدفاع عنه ، وما هي قيمة المبدأ الفلسفي الذي

يقوم عليه هذا النموذج وهو التنوع الاجتماعي والفردى .

الواقع أن مبدأ التنوع الثقافى فى المجتمع المفتوح المتعدد الأعراق والسلالات هو من المبادئ التى حظيت باعتراف متزايد فى كثير من البلاد العربية خلال العشرين سنة الأخيرة ، على الرغم من أنه لم يحظ بالدفاع الكافى إلا فى أوقات نادرة فى البلاد ذات التقاليد الحرة ، وفى أوقات أشد ندرة - مع الأسف - خارج هذه البلاد . ويربط الدفاع التقليدى الحر من التنوع (وخير بيان له لا يزال هو كتاب "مل" بعنوان "فى الحرية" (١٨٥٩) وبين الرغبة فى التنوع ، وضرورة التقدم الاجتماعى بوجه عام . ذلك أن التقدم الفكرى والعقلى لى أمة والعالم بوجه عام لا يتطلب حرية الفكر والبحث فحسب ، بل يتطلب أيضا حرية الأفراد فى اختيار أساليب الحياة والنشاط ، مما يسمح بفرق قدر من نمو الشخصية من كافة جوانبها ، فهذا النمو الكبير يستطيع الأفراد اكتشاف وتنمية مواهبهم وقدراتهم التى تمكنهم من ابتداء المخترعات وابتكار المنتجات الثقافية . ولا تكمن قيمة التنوع فى إثراء التجربة التى يتيحها للجميع فحسب ، بل أيضا فى اختلاف أنماط النشاط الذى يفتح أمام الأفراد آفاقا من الاختيارات فى رسم خططهم فى حياتهم . يضاف إلى ذلك أن مثانة أخلاق الفرد وحيوته تكمن فى قدرته على تجاوز الأساليب المعتادة فى التفكير والعمل ، والتعام آفاق جديدة من الفكر والعمل بطريقة تلقائية ومبدية . . هذا والانقياد الأهمى للصنادير والتقاليد هو أكبر عو للفرديّة والشخصية ، فى حين أن أقدر الناس على التخطيط وتبدير شؤون الحياة هم الذين وصلوا إلى أعظم درجة من الحرية ، وأسمى قدر من تنمية ملكاتهم ، لأن هذه الملكات لا يمكن استخدامها على الوجه الأكمل إلا حيث يستطيع الفرد أن يقرر مصيره بنفسه ، وينال من التقليد .

وعلى ذلك فالتمائل والتجانس هما العنوا الأكبر للتنوع الذى يطلق عليه اسم التعدد الثقافى. وقد ظهرت فكرة هذا التعدد فى أوائل هذا القرن كقيمة يجدر بنا الدفاع عنها فى مقابلة "الأمركة" التى سبق أن فرضت سلطانها على المهاجرين الجدد إلى الولايات المتحدة بيد أن تطبيق فكرة التعدد الثقافى يرتبط باسم كندا أكثر مما يرتبط بالولايات المتحدة التى لم يظهر فيها التعدد الثقافى بشكل جدى إلا فى الستينات والسبعينات ، وبخاصة فيما يتعلق بالثقافة الزنجية الفريعية . ومنذ ذلك الحين أخذ الباحثون يهتمون اهتماما كبيرا بمشكلة التنوع والتجانس الثقافى ، وأرسيت -على الأقل- أسس الاعتقاد بقيمة التعدد الثقافى .

ويمكن تعريف التعدد الثقافي بأنه وجود ثقافات مختلفة ومتعددة في أمة واحدة ، مع وجوب اتفاقها مع الوحدة القومية التي أقصى حد (تقوم هذه الثقافات في العادة علي أسس عرقية ، وإن قامت علي كثير من الأسس الأخرى)

وعلي الثقافات التي تتمسك بزمam السيطرة بسبب القوة الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية التي تتمتع بها الطبقات أو القبائل أو الجماعات المساندة لها ، أن لا تحاول استئصال شقة مناقسيها ، علي الرغم من أنه حيث لا تسيطر جماعة واحدة أو حيث تكون هذه السيطرة وأهية الدائم ، فإن ذلك يفريها باستئصال مناقسيها تديما لسيطرتها (كما يحدث بالفعل في أي مجتمع استعماري وفي كثير من الدول الإفريقية والآسيوية الحديثة ، وفي دول أمريكا الجنوبية) . ويجب الاعتراف بكافة الثقافات الموجودة في الأمة الواحدة ، وإن عاد ذلك ببعض الضرر علي بعض الجماعات . ويجب أن يفهم التعدد الثقافي ، الذي يعني تعدد الاتجاهات في الأمة الواحدة ، علي أنه "نوعية ثقافية (نظام دولي ثقافي) عند البحث في العلاقات بين الدول . وهذه الدولة الثقافية تحترم حرية الدول ومواردها الخاصة ، وتضمن حق البقاء لمختلف الأمم والقبائل والطوائف الدينية والجماعات العرقية والطبقات الاجتماعية ، وذلك علي خلاف الاتجاه أو النظام العالمي الذي يهدف إلي تحطيم حواجز التمييز الثقافي والقومي ، كوسيلة لضمان السلام والوفاق الاجتماعي . ويتضمن معنى الدولة الثقافية هنا أنه يجب علي الثقافات التي لا تتلاقى معا ملاقة الند للند ، بسبب إختلاف قوتها أو عدد سكانها ، أن تلتقي معا علي الاحترام المتبادل وأن يحمي القوي فيها الضعيف .

ولا تثبت هذه الفكرة أن تصطلم بعدة عقبات يتعذر تذليلها ، ولعل أظهر هذه العقبات هو واقع السلطة الاجتماعية والسياسية في الدولة . ولا تتمثل هذه العقبة في أمة كاملة التكوين تقوم فيها ثقافة عريقة علي أسس متينة ، ولا تواجه تهديدا من غيرها من الثقافات المماثلة . وتشعر بالعلف الأبوي علي ثقافة الأقليات التي تعيش معها . وإنما تتمثل هذه العقبة في دولة ناشئة تري أن الهيمنة الثقافية عنصر هام من عناصر السلطة الاجتماعية والسياسية ، فمثل هذه الأمة لا تقبل التضحية بميزة يمكن أن تحصل عليها من وراء السيطرة علي الثقافات الأخرى . وحتى في الدولة الناضجة المستقرة فإن مثل هذه الفكرة يمكن أن تكون لها نتائج مدمرة ، كما لو سمح الاتحاد السوفيتي -مثلا- بتعزيز الثقافة الإسلامية في آسيا الوسطى السوفيتية -والحل الوحيد المقول لهذه المشكلة هو تنفيذ الاقتراح الذي سنطرحه فيما يلي ، وهو اعطاء سلطة أكبر لمنظمة ثقافية مركزية كمنظمة اليونسكو ، إذ دلت التجارب علي أنه لا

يمكن تكليف الدول الغربية التي تخوض صراعا ياشا ضد الجوع والدين والاضطرابات الداخلية بمهمة الحفاظ على الثقافات المختلفة .

وأخطر من هذه العقبة مقبة التسمية الثقافية أو نسبية الثقافة ، بمعنى أنه لا يمكن أن تدعي إحدي الثقافات انها وصلت الي درجة الكمال المطلق ، وأنها أرقى من كل الثقافات الأخرى . ونظرا لضيق المقام سأضطر الي صرف النظر عن بعض الحالات الغربية الهامة كحالة الثقافة التي تسود فيها فكرة «صيد الروس» أي اجتزاز رؤوس الأعداء ، والاحتفاظ بها تنكارا للانتصاف علي الأعداء ، وكبعض الثقافات الأخرى التي تشبع فيها الفواحش والمنكرات . ويرجع مثل هذه الحالات الغربية الي وجود خلاف مستحكم بين التقاليد والأعراف الموروثة وبين القيم العليا في الثقافة الغربية مثل الديمقراطية والمساواة (بين الرجل والمرأة) . جميل جدا أن تقوم كل أمة بتطبيق مبدأ تعدد الثقافات ، ولكن ماذا يعني هذا المبدأ عندما ننظر الي وضع المرأة الأليم والمنزلة الدنيا التي تحتلها في كثير من الأمم ، وعندما ننظر الي معاداة النظام الأبوي لمعظم أشكال الديمقراطية . وفي الحقيقة – ونحن نقولها بصراحة تامة – أن القيم الرئيسية في المجتمع الغربي ، وهي الديمقراطية والحرية والمساواة ، لا توجد لها في معظم المجتمعات الأخرى أو –علي الأقل– لا توجد بأشكال مقبولة لدى معظم المجتمعات الصناعية الغربية . وهنا يتمعن علينا إما أن نلتزم بهذه القيم العليا ونضحي بمبدأ التعدد الثقافي وإما أن نضحي بقيمتنا الغربية التي نري أنها أسمي القيم ، ونؤكد مبدأ التعدد الثقافي .

وتزداد هذه المشكلة تعقدا إذا علمنا أن الثقافة العليا التي أشرنا اليها في هذا المقال ، بمعنى انتشار الثقافة الغربية وبخاصة الأمريكية ، تزيد بصفة خاصة ، وعلي وجه التحديد ، القيم الغربية في العلم ، والتكنولوجيا ، والتصنيع ، والتمدن ، وانتخال الأساليب العصرية . وهذه الثقافة العليا هي في جوهرها ثقافة عالمية تفرض نوعا معينا من التجانس . وكما عبر عن ذلك الناقد "كنيث بولنج" : إن الثقافة العليا هي ثقافة المطارات وناطحات السحاب ، والقمح الهجين ، والمخصبات الصناعية ، وتحديد النسل ، والجامعات ، وهي عالمية في مجالها فكل المطارات مطار واحد ، وكل الجامعات جامعة واحدة . بل إن لهذه الثقافة لغة عالمية ، هي الانجليزية الفنية ، وأيدلوجية واحدة هي العلم . كيف إذن يمكننا التوفيق بين قيم الثقافة العليا وقيم كل الثقافات الأخرى ؟

الجواب علي هذا السؤال الذي يعد واحدا من أصعب الأسئلة في عصرنا هو "بعبارة وحرص وحذر" ويدون الخوض في أي تفكير طويل في القيم الغربية يجب أن نؤكد أن معظم البشر يتفقون بهذه القيم من الحرية والمساواة والديمقراطية متى اقترنت بالثراء والرخاء ، وكل المطلوب منا هو تحويل هذه القيم الي ثقافات أخرى حتي لا نضطر الي أن نأخذ الحضارة بكل صيورها ومحاسنها . ومعظم الدول غير العربية تلخذ اليوم بهذه النظرة ، وتختار من منتجات الحياة الغربية كل ما هو نافع ، وترفض كل ما هو ضار . ومثل هذا الاختيار هو عملية طويلة ومعقدة للغاية . ولكن في هذه الموازنة بينالقيم الغربية وغيرها من القيم الثقافية تعد السياسة القومية والدولية والثقافية وبخاصة السياسة الاعلامية ، علي أعظم جانب من الأهمية . وسنتكلم في المبحث الأخير عن بعض السياسات والوسائل التي يمكن بها تحقيق هذا الغرض .

٤ - تنفيذ سياسة الحماية الثقافية

إذا أريد أن لا تتحول صورة العالم بلسره إلى صورة الثقافة العليا بالتدريج وجب اتخاذ تدابير مضادة متقدمة ومبنية علي التفكير النقيض . وكما أن القومية الأمريكية قد استوعبت مختلف الأقوام في بوتقة الانصهار ولمسحت الآن الطريق (في الجامعات علي الأقل) أمام تعايش الثقافات المتعددة ، كذلك يجب التوسع بلسره ما يمكن في ارساء أسس السياسة القائمة علي تعدد الثقافات في العالم بلسره ، نظرا لأن التكنولوجيات الجديدة تزيد من نقوذ الثقافة العليا يوما بعد يوم . وقد نهجت بعض الدول نمسا - مثل الهند ونيجيريا - في تنفيذ سياسة تعدد الثقافات ، في حين أن غيرها مثل كويك ، وبلجيكا ، وأستراليا ، والاتحاد السوفيتي ، لم تصادف نجاحا كبيرا في هذا المجال ، ومن الواضح أن السياسة الاعلامية هي نقطة انطلاق متنازعة ونموذج رائع للوسائل الأخرى الواجب اتباعها لحماية الثقافة أيضا: ذلك أن وسائل الاعلام والاتصال لا يمكن استخدامها بسهولة فحسب ، بل هي قادرة علي الخير والشر معا . وكلما ازدادت أحدث وسائل الاتصال انتشارا أتاحت الإفادة الي أقصى حد من اتجاهاتها الحديث . ولا شك أن التدهور التدريجي الذي أصاب ثقافة الأقليات (الطبقات العاملة والعرقية ، والاثنية ، والعنصرية) وحال دون تحولها الي ثقافة جماهيرية ، يمكن وقفه ، بدرجة كبيرة ، عن طريق البرامج الرشيدة ، وإذا انضج عجزنا عن التخلص من آفات المجتمع الصناعي أمكننا بلا شك وقف بعض آثاره .

وأهم سياسة اعلامية نقترحها في هذا الشأن تتعلق بالتعليم بوجه عام ، لا بوسائل الاتصال خاصة ، إذ يجب أن يتعلم المواطنون في كل أمة تقدير الثقافات العالية في بلادهم ، دون احتقار الثقافات الحديثة أو الاقليمية أو العرقية أو ثقافة الأقلية ..الخ. كذلك يجب أن تهدف نظم التعليم في العالم بأسره الي تزويد الطالب بالثقافات الرفيعة ، دون أن تبت في نفسه روح الاحتقار للثقافات الأخرى . وهذا الضرب من السياسات يتضمن الاعتراف بأن الثقافات الرفيعة أكثر شمولاً ، وأقدر علي تزويد المرء بالمعلومات ، وادعي الي إرضاء عاطفته . ولكن جميع الثقافات النوقية (التي ترضي أنواق طوائف معينة من الناس) تمتحق درجة من التقدير والتأييد للجمهور الذي يتنوقها . ومن الإجراءات الواجب اتخاذها في هذا السبيل أن تقوم بعض الدول مثل الولايات المتحدة بزيادة الاتفاق علي وسائل الاعلام التي تتولها المؤسسات الخاصة (أسوة بما هو متبع في ألمانيا) ، بهدف نشر الثقافة الانطو سكسوتية الرفيعة فحسب ، بل أيضا بهدف نشر الثقافات الفرعية ، من عرقية وعنصرية ، واقلية ، ودينية ، وكذلك نشر البرامج المحلية.

وقد قدمت عدة اقتراحات في مجال السياسة الاعلامية بصفة خاصة يمكن أن ندرجها هنا تحت عنوان "حماية الثقافة" ، وفحصاها أن حرية التجارة المطلقة في المنتجات الثقافية - في سوق ثقافي احتكاري - لا يعود دائما بأي فائدة علي جميع الأطراف ، ولا علي الاقتصاد بوجه عام . وأول هذه الاقتراحات هو تعزيز دور اليونسكو التي تعاني "أزمة ثقة" حادة في الوقت الحاضر . وقد تعالت الصيحة خلال العشرين سنة الأخيرة بضرورة تعزيز هذا الدور الذي لا يمكن أن يكون الآن كما كان في الماضي ، إذ يجب أن ندخل في اعتبارنا الآثار التي ترتبت علي وسائل الاعلام الجنيبة . صحيح أن هناك بعض الاعتبارات السلبية في هذا الاقتراح يمكن الاحتجاج بها ضد الدهرة الي الحاق شبكة عالمية للإذاعة المرئية والمسموعة بهيئة اليونسكو مهمتها خلق تعديبة ثقافية بأي شكل ممكن . من هذه الاعتبارات السلبية أن هذا المشروع سيكون محلوفا بالطبع منذ البداية ببعض العقبات السياسية علي اختلاف أنواعها ، كما أنه سيكون مثارا للجدل الشديد . ولكن هذه الاعتبارات لا تنهض حجة علي بطلان هذا الاقتراح .

وثاني هذه الاقتراحات ضرورة بذل الجهود القومية لتقنين انتقاء الاقليات بوسائل الاعلام، عن طريق زيادة البرامج المخصصة لها ، وحث الاذاعات بلغة الاقلية ، وربما تحقق ذلك بإنشاء قناة جديدة (كما فعل الانجليز بشأن اللغة الويلزية (نسبة لإقليم "ويلز" بانجلترا).

ويمكن الاحتفاظ بمعايير عليا علي كل المستويات بشرط أن لا تخضع الاذاعات والبرامج في محطات الاذاعة الخاصة لرقابة أو سيطرة المعلنين (إذا سمح لهم بالإعلان) أو المؤسسات التجارية التي تروعي برنامجا اذاعيا أو تلفازيا بأن تدفع مبلغا من المال لقاء تخصيص فترات منه للإعلان عن منتجاتها . ومن النماذج الجديرة بالاحترام لإفادة الأقليات من وسائل الاعلام ما هو متبع في هولندا التي تخصص وقتا في الاذاعة المرئية والمسموعة لمعظم الأقليات بنسبة حجمها العددي . ولكن لا بد أن تتجاوز جميع البرامج الخاصة بالثقافات الفرعية مجرد تمثيل الأقليات بنسبة حجمها ، لأن هذا التمثيل غير كاف علي الأرجح لمقاومة الاندماج في ثقافة أوسع نطاقا وأكثر سيطرة .

وهناك بعض اعتراضات علي هذه البرامج المخصصة للثقافات الفرعية . منها أن هذا قد يفسر بأنه تزويد الشعب بثقافة ذات مستوى أدني ، بدلا من الارتقاء به الي ثقافة ذات مستوى أعلى ، أو يفسد بأنه إعطاء الشعب ما يريد بدلا من اعطائه ما هو مفيد ، أو يفسر بأنه تشجيع لأهداف اجتماعية غير مرغوب فيها ، ومخالفة للأهداف التي يتوخاها السواد الأعظم من الشعب ، أو يفسر بأنه تشجيع علي استهلاك الثقافة بدلا من خلق الثقافة علي وجهها الصحيح ، أو يفسر بأنه تعزيز للتمييز الجامد بين أنواق الجماهير ، ويفسر بأنه اضعاف لوظيفة وسائل الاعلام التي يجب أن تولف لتوطيد الصلات بين أفراد الأمة الواحدة أو يفسر بأنه تقديم للمعلومات والأخبار التي ترضي أهواء طائفة معينة ، بدلا من ارضاء مألومة علي اختلاف طوائفها .

ولما كان كثير من الاقتراحات التي طرحت حتي الآن تتضمن تقديم برامج عامة فإن هناك خطرا آخر يضاف الي ما ذكرناه وهو خطر الرقابة والسيطرة السياسية . وخير وسيلة لتفادي هذا الخطر هي فرض ضوابط صارمة لتحقيق الإنصاف وعدم الجمالة ، ووضع نظام اعلامي مختلط يجمع بين النظام العام والنظام الخاص ، علي أن تتولي الرقابة الموازية بين النظامين .

هذه ليست سوى قليل من الأفكار الهامة التي طرحت في السنوات الأخيرة لمعالجة مشكلة الثقافة العليا التي برزت الي الوجود حثيثا ، ولتوفير أسباب الحماية لثقافة الأقليات في كل مكان . وقد رأينا في معالجتنا لموضوع الثقافة الجماهيرية في الولايات المتحدة خاصة أنه توجد أوجه شبه وأوجه اختلاف بين مشكلة الثقافة في دولة بعينها ومشكلة الثقافة في إطار النظام الدولي العالمي . ولا يمكن أن يوجد بين الأمم خاصة ثقافة "عالية" و "ثقافات هابطة"

بالمعنى الجمالي للكلمة ، وإن كنا قد رأينا نظيرا لهذه المشكلة في مسألة القيمة النسبية للحرية والمساواة والديمقراطية في المجتمعات الغربية ، ومسألة القيم المتعارضة في المجتمعات التقليدية . علي أن التشابه بين الثقافة الدولية والثقافة القومية يتجلي بوضوح مظاهره عندما تتم عملية التجانس والتماثل الثقافي بتأثير الثقافة العليا ، ولأن هذه الثقافة تؤثر تدريجيا علي مختلف الثقافات الخاصة بالأقليات في العالم كله ، تماما كما تؤثر الثقافة المسيطرة في أمة ما علي ثقافة الأقليات في هذه الأمة . وكثيرا ما تطلعت الأمم الأخرى الي أمريكا وراة فيها صورة مستقبلها . ولكن إذا لم تتخذ تدابير قوية لوقف عملية التصنيع التكريري في العالم فلن تتجانس الثقافة الصناعية كما أن تجانس عملية التصنيع نفسها . ويخطئ من يظن أن التنوع الثقافي في الأمة لن يقل نتيجة لهذه العملية (عملية التصنيع) . ولكننا نرحب بنتيجة مصاحبة لذلك وهي زيادة معرفتنا بالثقافات الأخرى نتيجة التوسع في سبكة الاتصالات العالمية . ويخطئ أيضا من يرفض التسليم بأن الثقافة العليا تؤدي في نظر الكثيرين الي التحرر من أغلال المجتمع التقليدي ، وكما أن الثقافة الجماهيرية هي نتيجة للديمقراطية كذلك الثقافة العليا هي نتيجة حتمية للرخاء والثراء الملزم لعملية التصنيع . بيد أنه لا أساس للخوف من أن تكون الثقافة العليا عائقا دون النمو والتطور . ذلك أن ثقافة التصنيع يمكن أيضا أن تكون مقنوعة ، وملزمة للأذواق القومية وغير القومية ، ومشاركة - لا مدمرة - للثقافات القائمة قبل حركة التصنيع . ومن ذلك يتضح أن ثمة من الأسباب ما يدعو الي التفاضل في مثل هذه السياسة القائمة علي التعايش السلمي بين الثقافات .

جريجوري كلانيز

(جامعة هانوفر ، غرب ألمانيا)

المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر

مانز إولرخت جومبريخت

كثيرا ما اعتبر القرن الثامن عشر هو "العصر العظيم للمسرح الفرنسي"^[١] علي الرغم من كبار كتاب المسرح في الجيل السابق ، مثل كوريني ، ورأسين ، وهولبير . ويتبغي أن لا تفهم عبارة " العصر العظيم " بالمعني المعتاد في تاريخ الأدب علي أنه " العصر الكلاسي " ذلك لأن أبنية المسرحيات الفرنسية الناشئة في القرن الثامن عشر ، ومضمونها لم يكن لها تأثيرات معيارية علي الانتاج المسرحي في القرون التالية . ومع ذلك فنحن علي حق حين نستخدم مصطلح " العصر العظيم " للمسرح الفرنسي في تلك الحقبة . فمن جهة ، ومن وجهة نظر "تاريخ المسرح " نحن علي حق لأن بعض تقنيات المسرح الناشئة في حوالي منتصف القرن الثامن عشر قد أثرت في المسرح تأثيرا يمتد الي عصرنا الحاضر ، وأصبحت طبيعية لدرجة تعوق تفسير للمسرحيات التي ترجع الي عهود سابقة . ثانيا لأن ارتياد المسرح في ذاك الأوان كان من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحياة اليومية الجارية ، وعلي الأقل بالأجهزة والأعياد عند مختلف المستويات الاجتماعية في فرنسا . وعلي ذلك يحق لنا دون شك أن نعتبر المسرح مركزا رئيسيا للمعرفة ، وأن رسالته التي تنتشر بالتدريج هي في صميم عملية التكوين .

[١] انظر مثلاً : Maurice Descotes, Le public, de theatre et son histoire, P.U.F., 1- Mai: 1964, p. 173

المترجم : أحمد رضا محمد رضا

ويطلب اعتبار المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر وسيطا لحركة التتوير التركيز في ثلاث مسائل تجعل لهذا البحث هويته العلمية :

[أ] سوف تقتصر علي النظر في الأنماط الدرامية في القرن الثامن عشر ، تلك التي ساعدت علي اتساع مجال " المعرفة التتويرية " .

[ب] وتحل هذه الأنماط بالسؤال من الظروف التي ساعدتها علي نقل هذه " المعرفة التتويرية " الي جمهور النظارة يتحتم علينا تحديد الكيفية النوعية التي عدل فيها بتيان المسرحيات هذه المعرفة ، وكيف أحدث وسائل الاتصال بالمشاهدين ليكونوا قادرين علي تلقي هذه المعرفة .

[ج] وإذا قبلنا الافتراض التفسيري بأننا لا نستطيع التفكير في " التتوير " دون التفكير في " الثورة الفرنسية " فإن هذا يتضمن - بعكس المؤلفات التاريخية السابقة - أن نأخذ في الاعتبار المسرح في سنوات الثورة ، وأن التغير في ظروف الاتصال قد أدى أيضا الي تغيير وظيفة المسرح بين ١٧٨٩ وعام ١٧٩٩ ، ومن ثم ينبغي صراحة أن تظل طبيعة المسرح الفرنسي في " حركة التتوير " بمثابة عن خلفية مسرح سنوات الثورة الفرنسية .

أولا - نظرة برجماتية للمسرحية علي إنها أداة إتصال :

تحليل النصوص من وجهة نظر برجماتية معناه إعادة وضع هذه النصوص في دلالاتها الاتصالية حتي يتسني فهم الوظائف [أي التأثيرات علي المعرفة السابقة لدي المثلثين] التي كان مفوها يملكون الوصول اليها ، والتي تتحقق في لحظة التلقي . بعبارة أخرى إننا نعتبر النصوص دائما - من وجهة نظر برجماتية - بمثابة وسيط وأداة لنقل المعرفة . والنصوص بإعتبارها أنواع لا يصال المعرفة تجعل هذه المعرفة أساسيس واقعية ، ومن ثم فهي مصادر تتبع لعماء التاريخ الاجتماعي أن يعيدوا بناء المعرفة السابقة . ومن جهة أخرى لا نستطيع ، من وجهة نظر برجماتية أن نبقى عند مجرد إعادة تشكيل المعرفة التي نقلتها النصوص أو إفتراضتها .

ونحن إن اعتبرنا أنواع النصوص بمثابة الوسيط يتحتم علينا أولا أن نفصل المعرفة التي تنصص عنها هذه النصوص عن ثنائيتها البنائية المنظمة لكي يتلني لنا [كما أشرنا من قبل] أن نسأل أنفسنا ماذا وكيف يدل تحويلها الي لغة متطورة أو مكتوبة علي المعرفة المقصود التعبير عنها . عددنذ ينبغي التمييز بين الأينية النصية باعتبارها مكونا للنوع الأدبي وبين

Sitzim Lebenr الذي يمثل منصرا مكونا ثانيا للنوع ، أي قوالب الاتصال بالجمهور ، وهي ضرورية لامزجة الجمهور حين يكتسب المعرفة .

ولكي نصف المسرح بقة ومسيط نشير الي ثلاث حقائق يراجماتية تشكل فرعيته [بقوة ، وتأثيرات مختلفة] :

[أ] تستقبل الجماهير المسرحيات استقبالا جماعيا ، واختيار المتفرج رد فعل سائر المتفرجين هو العامل الذي يحدد ما يلقاه هذا المتفرج [وهذا هو السبب في أن فضاء المسرح " علي سبيل المثال ، تختلف في قوامها ، باعتبارها أحداثا ، عن الفضاءات الصادرة عن الكتب] .

ب [وحتى اذا كان المنظر [علي خشبة المسرح] تحدده عادة المسرحية فإن تزامن التجربة لدي الممثلين والمتلقي ينطوي بداهة علي هامش نوعي من " حرية التفاعل " هذا الهامش يمكن ملؤه مثلا باستجابات المتفرجين ، ووجود الفعل المختلفة من الممثلين . وعلي أية حال فإن حالات الانتباه التي يتطلبها هذا " الهامش " من المستقبليين تختلف عن نظيراتها في الكتب [كم يزل حرف الملهة المرتجلة " Commedia dell' arte " حيا في فرنسا في مطلع القرن الثامن عشر ، وكان يستخدم هذا الاصلوب النوعي من الاتصال] .

ج [المعرفة التي يراد الافصاح عنها أثناء العرض يشملها بالتأكيد نص المسرحية شعولا معنويا [كما هو الحال في الكتاب] . غير أن عملية النقل التي يؤديها الممثل تقدم المعرفة الي المتلقي بكيفية أقرب الي تجربة التفاعل اليومية من تجربة قراءة الكتب .

ويبدو أن لهذه الحقيقة نتيجتين بالنسبة للمتلقي ، من وجهة نظر برجماتية . أولا - يمكن التسليم بأن المسرح يؤثر بشع خاص علي آليات المتفرج الانفعالية ، لأسباب عديدة ، وبخاصة لأن المتلقي لم يعد مطلوبا منه ، بفضل الممثل ، أن يلتبس من "خياله" فكرة عن الواقع [٢] .

[٢] انظر: 2- Wolfgang Iser, "Akte des Fingierens", Funktionen des Fiktiven edited by W. Iser and Dieter Heimrich, Munich, Fink, 1981 (Poetik und Hermeneutick 10)

ثانياً - إن الوضع المتوسط للعرض المسرحي يبعد المتلقي بالفعل عن كاتب المسرحية ، وعن التأثيرات التي يعتزم بلوغها ، باعتباره أن الإيجاز [الكثير أو القليل] الذي يستعين به لجعل البنية المعنوية في النص ذات طابع موضوعي يمكن أن يضعفه أداء الممثل ، وطبيعة المفاهيم الخاصة بالمسرح ، [من المحتمل أن الدراسات الخاصة بالمسرح ، والمشاهد الاستهلاكية ، كمقدمة للمسرحيات والشائنة في ألب القرن الثامن عشر الفرنسي ، تعمل ، مع أشياء أخرى ، كوسيلة لربط الصلة بين المتلقي والمؤلف] (٢)

وإكي نسهم اسهاماً مجدياً في التاريخ الاجتماعي علي أسس جديدة يتعين أن يكون تقديمنا لمسرح القرن الثامن عشر الفرنسي متجهاً صوب هذه المقدمات البراجماتية . والاعتبار بهذه المقدمات هو الشرط الضروري لانماج نتائج البحث في تاريخ الأدب والمسرح في التاريخ الاجتماعي بسلوب نظري يارح . هذا البرنامج ، رغم كثرة الأعمال التي تنتمي لتاريخ الأدب والمسرح ، أو بسببها ، لا يمكن بالطبع إنجازها في بحث استهلاكي . ومن الضروري تطوير " مخطط تمهيدي " و " تقدير أولي " حتي يتمني الإجابة عن سؤالين معقدين يلقي من أساليب اتصالات مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي انتقلت المعرفة ، وتبين انتشارها علي أنها جزء من عملية التنوير؛ وما هي الأبنية النمطية التي تكونت خلال هذه العملية لكي تتيج الافصاح عن المعرفة التنويرية [ثقافياً ، وفنياً] وإلي أي مدى استطاع المعاصرون فهم ظروف تكوينها ، وإمكاناتها الفعالة .

ثانياً : قرائن الاتصال في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي

يمكن تعريف " قرينة الاتصال " بأنها العلاقة القائمة بين عناصر المعرفة التي يدخلها في المسرحية المشتغلون بالاتصال من أجل نشر هذه المعرفة (٤) هناك بالتأكيد بالنسبة لمستويات التجريدين شائع بين هذا التعريف وبين نتائج الدراسات التي أجريت علي المسرح الفرنسي

[٢] هذا البحث الذي يسمى من الناحية البراجماتية إلي تحديد هوية المسرح كخلف اتصال ، يقدم علي نتائج حالة دراسية بشأن " النصوص الدرامية ، وعرض المسرحيات " أقيمت في مدينة بيريم في نصف السنة الدراسية ، ١٩٧٩-١٩٨٠ .

[٤] في هذا التعريف بعبارة " قرينة الاتصال " انظر

H.V. Gumbrecht, Funktionen parlamentarischer Rhetorik in der Französischen Revolution. Vorstudien zur Entwicklung einer historischen Textpragmatics, Munich, Fink, 1978, p.10-13

في القرن الثامن عشر . غير أنه يمكن التغلب على هذه الصعوبة بالتأمل في الملاحظات
الآتيتين ، وفي نتائجهما . أولا : أن المعرفة النوعية التي يقترحها مخرج المسرح وكتاب
المسرحيات في فرنسا في القرن الثامن عشر ، والتي يفترض مقدما وجودها ، يمكن تقويمها
من خلال إمادة بناء أنماط معينة من " الريبورتوار " [الخاثر - مجموع روايات الفرقة
المسرحية - المترجم] ثانيا: تحديد مواقع المسارح ، على الأقل في نطاق مدينة باريس ،
والملومات الخاصة برسم الخول الذي تقرضه المسارح . بكل ذلك يسهل الوصول الي
استنتاجات بشأن الحالة الاجتماعية ، ومن ثم ، وطريق مباشر ، المستوى التعليمي لذي
جمهور النظارة .

ونود أولا أن نبدي بالأحري ثلاث ملاحظات عامة لهذا الوصف الموجز لمختلف قرائن
الاتصال في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي . والاهم ، أول كل شيء ، لقياس التأثير
المحتمل للمسرح كوسيط للتقوير ، أن نذكر أن أكبر مسرحين في باريس ، الكوميدي فرانسيز .

ومسرح الايطاليين Theahe des Italiens ينخلهما في المجموع ٣٥.٠٠٠ متفرج في
السنة [هذا الرقم هو بالتقريب عدد سكان باريس في تلك الفترة] ، إنما ينبغي بطبيعة الحال
أن نعرف أن التزبد المنتظم على المسرح كان "مادة " عند معظم المترجمين [٥] ثانيا: كانت
تكالفة دخول معظم المسارح غير الموسيقية في باريس تعادل بالتقريب الاجر اليومي للعامل .
أما رسوم دخول الاوبرا فكانت الضعف ، أي أنها كانت إجمالا تزيد بكثير على مستوي
الرسوم السارية في القرن العشرين [٦] ، ثالثا: قد يبدو من العجيب أنه في القرن الثامن عشر
في فرنسا ، حيث ساد النظام المركزي المطلق [في الحكم ، وفي الثقافة] ، نشأت عدة
أنماط من " الخاثر " المسرحية ، وبالتالي من مختلف قرائن الاتصال [٧] . وعلى ذلك
فإن افتراضاتنا ، ولو أنها تشير أولا الي مسارح العاصمة ، يمكن اعتبار أنها تمثل الأقاليم
أيضا الي حد ما . فضلا عن ذلك فإن الحدود الفاصلة بين أنماط الريبورتوار أقل وضوحا بلا
شك مما يبدو من النظرة الشاملة التي سوف نعرضها .

[٥] From Henri Lagrave, "Le Theatre et le public à Paris, de 1715 à 1750, Klincksieck, [٩]
1972, p. 193 ff.

[٦] المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

[٧] Jean Gueniart, Culture et société urbaines, dans la France de l'Ouest au XVIIIe sie-
cle, Klincksieck, 1979, p. 504

المعروف أن الامتياز الذي منحه الملك لفرقة موليير من الممثلين هو الذي أدى إلى إنشاء "الكوميدي فرانسيز"^[٨]. والنظام الأساسي للكوميدي فرانسيز ، باعتبارها ممثلة للمسرح الفرنسي إبان حركة التنوير ، مستمر فوق كل شيء من حقيقة واحدة تهملها المؤلفات في تاريخ الأدب ، التي تهتم كثيراً بالعناصر الابتكارية . ورغم أن الكوميدي فرانسيز أعادت عرض الريبورتوار المسرحي للقرن السابع عشر الذي أحيى في نطاق التحديد المستمر للريبورتوار الكلاسيكي فإنها قدمت في تلك الآونة مسرحيات ذات مضمون جاد أو هزلي لبعض كبار المؤلفين ، منهم في القرن الثامن عشر فونتينر ، وبيمارشييه . واستثناء الفترة من ١٧٧٠ إلى ١٧٨٢ جرت عروض الكوميدي فرانسيز في مسارح قائمة على الضفة اليسرى من نهر السين ، أي في وسط كانت ثقافتها وأساليب معيشتها مشربة بالأنواع الأرستقراطية . لذلك فمما له دلالة أن أعضاء الكوميدي فرانسيز المحافظين من حيث نزعتهم السياسية ، بعد الصراعات العنيفة التي جرت في السنوات الأولى للثورة (وسوف نعود إلى ذلك) ، بقوا في مسرح الأوديون (الذي افتتح في عام ١٧٨٢) على الضفة اليسرى من النهر ، في حين أنشأ الممثلون الذين استلهموا مناخ الثورة السياسية والثقافية "مسرح الجمهورية" فن "الباليه رويال" "Palais Royal" على الضفة اليمنى من النهر (حيث لم تقل الكوميدي فرانسيز مستقرة إلى اليوم) ، وذلك في محاولة لإدخال نمط فني جديد على المسرح .

والضفة اليمنى ، بلغة التخيل ، والطوبوغرافيا (وصف الأماكن) الاجتماعية التاريخية ، تعتبر بيئة الطبقة الباريسية البورجوازية الموصلة ، وفيها قدمت فرق من الممثلين الإيطاليين عروضاً من مسرحيات القرن السابع عشر . ويتيح لنا عرض مسرحيات باللغة الإيطالية على جمهور النظارة الفرنسيين أن نستخلص نتائج هامة من حيث حقائق التلقي الراقية . ويبدو أن اهتمام النظارة كان يتركز على فن الممثلين في ارتجالهم المسرحي الذي زوده تقليدياً كوميدياً الفن (اللهاء المرتجلة) بحرية كافية ، بتقديم نخبة محدودة من الأدوار الهزلية (وفيها

[٨] أخذ قدر من المطبوعات التاريخية المقدمة في الصفحات التالية من :

- The Introduction to the "Pleiade" edition for which Jacques Truchet was responsible of Théâtre du XVIIIe siècle, vol. I, Gallimard, 1972, p. XV-LIX

احتمالات التتبع في المضمون احتمالات عرضية) . كان هؤلاء الإيطاليون قد أبعدوا من باريس في عام ١٦٩٧ بتحريض من مدام لومانتون ، ولكنهم عادوا الي العاصمة الفرنسية في عام ١٧١٦ . وشهد منحهم امتيازاً ملكياً في عام ١٧٢٢ ، الي جانب أسباب أخرى ، بتأثير أسلوبهم علي الثقافة في عهد الوصاية علي العرش . وعلي الرغم من أن " مسرح الإيطاليين " قد أخرج في العقد التالية عددا متزايدا من المسرحيات باللغة الفرنسية فإن تقليد "المهارة المرتجلة" استمر في أداء رسالة هامة . وقد أكد الكثير من مؤرخي الأدب تأثيرها علي كوميديات ماريغو التي كانت تؤدي في الواقع علي "مسرح الإيطاليين" . كذلك فإن اندماج هذا المسرح في عام ١٧٦٢ مع الأوبرا كوميك "Opera-Comique" الذي كان يديره الزوجان فافار Favarts ، وهما من أوائل مخرجي المسرح في أثناء انعقاد الأسواق السنوية في باريس ، هذا الاندماج لم يكن متاحا بدون صلة القرى بين تقليد "المهارة المرتجلة" والمسرح الشعبي .

كانت أنماط المسرح الشعبي موجودة منذ العصور الوسطى علي أنها حفلات ترفيهية للجمهور في المعارض والأسواق التي تقام سنويا ، ومن أهمها في باريس سوق سان لوران Foire St. Germain في شمال شرقي المدينة ، وسوق سان جيرمان Foire St. Laurent main علي الضفة اليسرى لنهر السين . وفي القرن الثامن عشر اكتسبت هذه التقاليد دلالة خاصة في تاريخ المسرح الكلاسي . ذلك لأنه بعد انقضاء فترة من التبادل بين المهارة الشعبية وبين "الثقافة الرسمية" التي فرضتها دولة استبدادية تطلعت هذه التقاليد في محيط المتفرجين المثقفين ، وكان لها تأثير حافز علي الانتاج المسرحي في اختيار العروض التي تقدمها المسارح الكبرى .

تقول نظرية جاك توشيه Jacques Tauchet إن اتصال هذه الدوائر الثقافية ببعضها ببعض - وكانت حتي ذلك الحين منفصلة - يمكن متابعته الي حين ابعاد الممثلين الإيطاليين من باريس في أوائل القرن الثامن عشر . وكانت العروض المسرحية في الأسواق لتحل محل الإيطاليين تستجيب للحاجة الي "الطهية الخفيفة" . وإن كون هذا الاحتكاك بين مختلف المجالات الثقافية قد استمر حتي بعد عودة الإيطاليين . كما أنه قد وضع له نظام خاص - كما ثبت بنشأة المسارح الدائمة في حي Boulevard-du temple - لا بد أن يكون دليلا علي حاجة الجمهور المثقف الي عروض جديدة . وهو أيضا دليل ، في مسار هذا القرن علي أن الجمهور كان يضفي علي مسرحه وظائف جديدة ، وكان محتوي التسلية الشعبية وينبائها

يتسمان دائما بذلك في مجال الاتصال . إن مزلة الأسواق والعروض المسلية التي تقدمها علي مدار السنة هي المقدمة الصوتية (المتعلقة بطم الاجتماع) لقيامها بدور "الاسراف المباح" (فرويد) . والتلهية الشعبية ، مثلها مثل "ثقافة الكرنفال" ، تنتهك المحظورات المتعلقة بالتعبير عن النشاط الجنسي (وأيس فقط بأسلوب التلميح) ، ويتخطى حدود النقد ، ويتنس المقدسات .

إن الأهمية الموجهة لهذا التعبير البدني في هذا الأسلوب من التلهية (وبهذا التعبير تحدث مثل هذه الانتهاكات) والذي يتحدد به تكوينها ، كان في الأصل بمثابة رد فعل علي المحظر الصابر من الدولة علي عرض مسرحيات خارج المسارح التي حظيت بامتيازات ، ولهذا كان المعثرون يستخدمون علامات مطبوعة تشرح تمثيلهم الصامت (الأيماي - البانتومايم) ، أو تشجع المشاهدين علي المشاركة في أداء أغنية معروفة (تمثيلات بالفتات) . وثمة وسيلة أخرى لجذب انتباه النظارة تون استخدام اللغة تتمثل في ظهور الممثلين علي التوالي في أروقة المسرح الجانبية (في صورة استعراضات)

إن منح السلطات امتيازات لبعض المسارح ، ومنحها مزايا العمل المسرحي لبعض الممثلين، لهي أمور كان يحظي بها في الأسواق والمعارض كبار فناني المونولوج في مستهل القرن الثامن عشر . ولا يجوز حش النظر عن ظهور مثل هذه التكوينات المسرحية في ممارسة التمثيل في كبريات مسارح القرن الثامن عشر . ومع ذلك ينبغي أن يكون هذا الظهور موضوعا لدراسة منهجية ، وبخاصة من زاوية التغيرات الوظيفية التي ترتبت عليه . والثابت أن ممثلي الأسواق جعلوا من الضرورة مزية ، واستقلوا عدم حصولهم علي امتياز ملكي في ممارسات مسرحية أثبتت أن احتمالات الاتصال النوعية أعظم قيمة من نظيراتها في المسرح الكلاسيكي . ويشكل ما يسميه تاريخ الأدب "مسارح المجتمع" العنصر الرابع في مضمار اتصالات التلهية في مسرح القرن الثامن عشر . وإذا كنا نستخدم هنا هذه الفكرة العامة ، رغم ما فيها من تباین ، فذلك لأن كل كاتماط "مسارح المجتمع" تشترك في صفة واحدة : ذلك أنها لا تعتمد في إيراداتها علي رسم الدخول ، ولكن يمولها بعض الهواة ، أو مؤسسات تربية لا تسعى الي الربح . وتتطوي الطبيعة النوعية لمسارح المجتمع علي مجموعة من النتائج . فعالم التلهية عند أصحابها وجمهورها ليس مماثلا لعالم المهنة ، وتمثيل المسرحيات هو جزء من البرنامج التربوي في "الكليات" ، وبخاصة في الأقاليم . وهو شكل واقعي للانفتاح الثقافي لدي الطبقة البرجوازية . ووضع متفاعل بين الالتزام بالتمثيل وبين "العزلة الأرستقراطية" في

البلاط . هذا بصقة خاصة هو السبب علي الأقل في الصالونات البوردوازية ، وفي قصر فرساي - في أن أوار الجمهور والمخرجين والممثلين ، وأحيانا المؤلفين ، أوار قابلة للتبادل . وهذا هو أيضا السبب في أن امكانية الاسهام في مثل هذا "النشاط الجماعي الخلاق" كانت بمثابة رمز اجتماعي مشروع.

ويلقي هذا الموجز التاريخي الاجتماعي لمسارح المجتمع ضوئا علي حقيقة جوهرية أهمها علم الاجتماع الأدبي الذي يعمل بطريقة تخطيطية أكثر مما ينبغي ، حقيقة يمكن أن تكون دائما محدودة علي وجه التخصيص : ذلك أنه كان في المستطاع تعطيل الرقابة علي المسارح في مثل هذه البيئة . فإذا أخذنا في الاعتبار التفرقة بين الالتزامات النبيلة بالتمثيل وبين "العزلة الأرستقراطية" لما كان من الممض أن يؤدي الكونت دارتوا الذي أصبح شارل العاشر عند عودة الملكية الي العرش نور فيجارو ، وتؤدي ماري أنطوانيت دور "روزين" في مسرحية "حلاق أشبيلية" في التريانون . ولم يكن من العجيب أيضا أنه حتي الخطب العنيفة المطولة في ظاهرها ، فيما قبل الثورة ضد النبلاء ، وذلك في مسرحية "زواج فيجارو" ، قد استمتع بمشاهدتها جمهور النظارة الأرستقراطيين في حفلات عامة للمسرحية في "الكوميدي فرانسيز" . كانت "مسارح المجتمع" أماكن تخدم الأغراض الاجتماعية للصوفة من المثقفين ورجال الاقتصاد في القرن الثامن عشر بفرنسا . إن الوضع الاجتماعي التاريخي الذي حظيت به تلك الصوفة ليقبح تفسير السبب في إمكانية التعبير هنا من غالبية أوضاع التنوير المتقدمة ، حتي ولو كان انتشار هذه المعرفة المتطورة لا يكاد يسهم في إثارة الشك في الأبينية والمؤسسات الاجتماعية لحكومة استبدادية .

ونحن إذ حددنا موضوع بحثنا في مقدمة هذا العرض ذكرنا أن الأنماط ووسائل الإتصال الخاصة بالمسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر التي يمكن اعتبارها بمثابة "وسيط للتنوير" هي وحدها التي سوف تؤخذ في الاعتبار . وبعد هذا الاستعراض السريع لأنماط الإتصال الأربعة يبدو واضحا أننا لا نستطيع الوصول الي تحديد حقيقي للموضوع . فالتوقع أنه ليس في الوسع الاحاطة بمقسسة تتوالي وحدها نشر المعرفة التنويرية ، كما لا يمكن الاحاطة بمسرح لا يعمل الا علي الاعتراف بشرعية الحكومة الفرنسية قبل ثورة ١٧٨٩ ، وبالكيفية نفسها فإن دراسة الرقابة في ذلك العصر ، كوسيلة استكشافية فتستيز النصوص "النقدية" والمؤيدة" ، كما يفعل مؤرخو الأدب تلقائيا في الوقت الحاضر ، هذه الدراسة لا تؤدي الي شيء مفيد في مجالنا هذا وبالنسبة للمؤرخ الذي يثق كثيرا في الرقابة كدليل له ، فإنه لا يأخذ

في اعتباره المضمون التوليدي كعامل ممن عوامل الأداء المسرحي ، فكثير من النصوص التي تعتبرها الأجيال التالية نصوصاً "انتقائية" ، اعتبرها المثقون من عهد ماضي نصوصاً "بريئة" ؟ بل أن مؤلفيها كتبها دون قصد جدلي . وتقنية الرقابة في فرنسا الخاضعة للحكم الاستبدادي المطلق في القرن الثامن عشر كانت تتسلخ ، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة ، حين يشعر رجال السلطة ونحو المراكز الرفيعة بآلتهم هدف النقد اللاذع ، أو حين تنتهك بعض المحرمات المعروفة [٩]

ومع أنه ليس في الامكان التمييز بوضوح بين نصوص الاتصال "التنويري" و"اللاتنويري" في مسارح القرن الثامن عشر فإنه لم يزل في الوسع صياغة افتراض - صحيح علي أنه توجيه أولي لبحوث لاحقة - في شأن تأثير التقارب الوظيفي بين مختلف الأنماط المسرحية وتطورها . فالبيئة المميزة للتراجيديا (المأساة) هي "مكافاة الفضيلة" ، ومعاينة الرذيلة" (١٠) ، والكوميديا (المهابة) - كوميديا السلوكيات ، هي "محاكاة ساخرة - باروديا - لأشكال شاذة من السلوك " ، تلك الموروثة من القرن السابع عشر ، والتي تتولي "الكوميدي فرانسيز" عرضها . هذه التفرقة أفادت فوق كل شيء في نقل وترسيخ وأقرار العناصر الأساسية للمعرفة اليومية المعتادة التي تتألف من المقابلة بين النولة والمجتمع في "العهد القديم" (قبل الثورة) .

وفي "الكوميديا الإيطالية" ، ومسارح الأسواق ، تطورت هياكل مسرحية يمكن عزلها عن الحياة اليومية الجارية ، باستخدام "منظمات" تتمثل في امتيازات ملكية ورقابة حكومية ، تيسر التعبير عن الشعور بالتعويض والتحرر . ومع ذلك فإن هذه الهياكل يمكن أن تكون بمثابة هامش للتعبير عن النقد ، ومن ثم تطرح المؤسسات الاجتماعية علي بساط البحث . ونحن إن تساعنا عن الظروف المحيطة بظهور هذه المعرفة وانتشارها والتي لا يزال في وسعنا الي اليوم

- Lagrave, op. cit., (note 5), p. 68

[٩] انظر مثلا

[١٠] انظر التفسير التاريخي الوظيفي المتبع بنوع خاص للتراجيديا الفرنسية الكلاسيكية ، الذي قدمه مانفريد فورمان :

- Manfred Fuhrmann: Einführung in die antike Dichtungstheorie,
Darmstadt, Wiss. Buchges, 1973, p.236-252

أن نصفها بأنها "متنورة" ، فإن نرجع - بكيفية متناقضة ، ولكنها في الوقت نفسه مقبولة - الي "مسارح المجتمع" theatres de societe ، ومع ذلك فإن هذا البنيان معقول لأنه كان من السهل رواج هذه المعرفة في "مسارح المجتمع" ، ولأن الصنفه هي وحدها المثقله في الواقع ثقيفا كافيا لأن تنمي الأوضاع الفلسفيه الخاصة بالتنوير .

ومن الوجهة المثالية تطور المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر بالتحول صوب النزعات الوظيفية الثلاث السابق ذكرها . فمسرحية "زواج فيجارو" لبيمارشيه، التي يعتبرها مؤرخو الأدب تجسيدا مباشرا للمسرح علي أنه "وسيط للتنوير" ، تصور مضمونا وتكوينات تقابل نظيرتها في المسرح الشعبي ، والمثاءة الإيطالية : (أ) فهي من تأليف كاتب ينتمي الي الصنفه المثقله ، وعرضت أولا في منظر اقامة بعض الهواة (ب) واستقبلها الجمهور بعكس ما كان يريده بومارشيه ، علي أنها تمثيل لحاجة جماعية الي تغيير المجتمع . (ج) وظهرت أخيرا ضمن مجموعة مروض الكوميدي فرانسيز ، وهي مؤسسة كان نشر المعرفة فيها يتم في حماية الامتياز الملكي .

ثالثا - أبنية الجانبيه في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي

نشير بعبارة "أبنية الجانبيه" ، متفقين في ذلك مع وولفجانج ايسر Wolfgang Iser^[١٧] الي الظواهر نفسها المرتبة ترتيبا تدرجيا ، وتشكل موضوعا للنصوص اللغويه فإذا تركنا جانباً حوارتي "أبنية النصوص" و"أبنية العقدة" فإننا نؤكد أننا نحلل أشكالا كلامية في مجال التاريخ الوظيفي . معني هذا كما أشرنا في البداية أنه ينبغي لنا أن نأخذ في الاعتبار بناء ظروف المعرفة التي تحدث وقت التلقظ بها ، وكذا قدرة هذه الالفاظ علي جذب انتباه المتلقين ، وتمكينهم من استخلاص معانيها .

[١٧] W. Iser, Die Appelstruktur der Texte. Unbestimmtheit, als Wirkungsbedingung literarischer Prosa, Constance, Universitätsverl, 1970, 3rd ed. 1972.

ولو سألنا مع مارتن فونتئوس Martin Fontius^[١٧] : إلى أي مدى كان المسرح وسيطا لتنمية الوعي الطبقي في مجتمع التتوير أصنافنا الحال كوكبة أساسية متكررة من أبنية الجاذبية في مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي . وثمة أشكال مختلفة من تمثيل الطبيعة البشرية تواجه "القوي المضادة المتغيرة دوما . بهذه النظرة ، يمكننا أن ننسب مراحل تطور المسرح إلى أقسام من تاريخ "الجمهور البورجوازي" كما خططها كوزليك Koselleck ، وهابرماس Habermas^[١٨] . فضلا عن ذلك فإن هذه الوجوه في تاريخ المسرح تدل : (أ) في البداية علي مراحل في خلق نظرة لعالم له صفات الإنسان ، مقتبسة من نظرة لعالم له صفات الآلهة ، (ب) وفي النهاية مراحل في اختفاء فكرة "الطبيعة البشرية" التي حل محلها نموذج لهوية الفرد . باعتباره معيارا لبنية الحقيقة . ولهذا السبب ينبغي لنا أن نذكر أبنية الأنماط الأدبية ، لا علي أنها نتيجة فحسب ، بل علي أنها عامل يسهم في تحويل أبنية العناصر الأساسية للمعرفة الاجتماعية .

وأخيرا نؤكد هنا ثانية أنه لا يسعنا في الصفحات التالية إلا أن نضع مخططا للمصات الرئيسية لتطور أبنية الجاذبية في المسرح ، لأننا قد حددنا مجال بحثنا ، ومن ثم نقصنا المساحة التي يغطيها هذا البحث . مهمتنا إذن هي أن نكتشف في منظور لتاريخ الأدب والمسرح علي امكانيات معينة لتفهم عملية التتوير ، إلا أن تفكر بالتفصيل في كل نواحي تطور هذه العملية .

^[١٧] "Theaterdebatten in der französischen Aufklärung", Theater und Aufklärung. Dokumentation zur Aesthetik des französischen Theaters in 18. Jahrhundert, ed. by Renate Petermann and Peter-Volker Springborn, . DDR-Berlin/Munich, Hanser, 1979, p. 15.

^[١٨] Reinhart Koselleck Kritik Rise. Ein Beitrag zur Pathogenese der Bürgerlichen Welt, Freiburg/Munich, Alber, 1959, reprinted Frankfurt, Suhrkamp, 1973.

[١] في مستهل القرن الثامن عشر : الطبيعة البشرية .
حيال نظام كورني [Cosmos] حدائي .

إننا نميل إلى استخدام هذه الصيغة لتوصيف بنية الجانبية في المسرح الفرنسي في مستهل القرن الثامن عشر ، فمصطلح cosmos [الكون ، العالم] الذي يعني هنا لبدا المقابل للطبيعة البشرية ، لم يستخدم بدلالة لاهوتية أو فلسفية بحث [مثل هذا التفسير لا ينطبق إلا على تراجيديات هذا العصر] ، ويتميز عن المبادئ المضادة الموجودة في بنيان المسرحيات التالية بطبيعت اللاشخصية والعالمية في وقت واحد ، وتبريرا للفرض الذي يؤدي بنا إلى هذا التفسير تقدم التراجيديا في مستهل القرن الثامن عشر في مقابل التراجيديا القديمة في القرن السابع عشر (١٤) " المتوسط " في أبطال التراجيديات القديمة " مذنبون ، ولكنهم أبرياء " فهم من جهة يتنهلون قوانين الكون [وهو أمر نسميه في الوقت الحاضر " موضوعيا] في حين تسهر الآلهة للتأكد من إحترام هذه القوانين ، وهم من جهة أخرى ، يتنهلون قوانين أخرى [تسمي " شخصية "] لوجود نقائص في قدراتهم البشرية على الفهم ، ومن ثم يستحيل عليهم أن يتعرفوا على نقيضتهم ، وينركوا هواقب هذه النقيضة . مثل هذا البنيان لصيغة المسرحية ، القائم على فكرة تفرقة جوهرية بين قوانين الكون وبين امكانيات المعرفة ، لا يمكن تصويره في عالم مسيحي ، ربه منظور لأنه أوحى للإنسان بوصاياه ، ولهذا السبب هواقب الأبطال في تراجيديات كورني [cornei] على فضائلهم ، وكفونا على رذائلهم . ولهذا السبب أيضا نجد دائما في " راسين Racene " امانة تعمل كوسيلة لتفهم نقائصهم ، حتي وأكث دراسات " راسين " في السنوات الأخيرة أن فكرة الينسينية " jansenism " [مذهب أخلاقي مسيحي متشدد - المترجم] عن " إله خفي " تؤدي إلى بنية نشعر بأنها تفاوت بين الإثم الشخصي وبين العقاب الإلهي ، ونفسرها بأنها تمثيل [يعتبره المعاصرون شعورا مصيقا] لحاجة تدعو إلى تعطيل قوانين العالم المسيحي . مثل هذه الحاجة الشعورية المسبقة وجدت تعبيراً لها مثلاً في مسرحية " أوديب " لفولتير ، قدمتها على

(١٤) هنا اقتبس على نطاق واسع من كتاب لرولانجال :

- Roland Galle, /Tragodie und Aufklärung, Zum Funktionswandel des Tragischen
Zwischen Racine und Buchner, Stuttgart, Klett, 1976

المسرح الكوميدي الفرنسي في عام ١٧١٨ ، واستقبلها الجمهور بحفاوة كبيرة ، وفيها يحتج أبطال الرواية ضد الكون ، ويصيح أوبييوس في خطبته الأخيرة " أيتها الآلهة القاسية " ، جرائمي هي جرائمكم ، ومع ذلك تماقويوني عليها (VV.1344f) وهذا يقترب فواتير من التراجيديا القديمة بإظهاره براعة شخصية البطل ، ولكنه يطرح أيضا مشكلة الوضع الأساسي القائم تحت هذه المسألة وهي شرعية القوانين الإلهية الغالبة : ذلك لأن أوبييوس يعتبر الآلهة مسئولة عن الأوامر الأخلاقية نفسها التي تطبق أيضا علي الانسان . وبالطبع لا يكفي مجرد الصياح ضد " الكون العدائي " وإذ يصل أوبييوس الي نهايته الرهيبة فإنه يكتسب وعيا ذاتيا من تمسكه بالإيمان ببراه " استمر أيها القدر ، استمر ، فلن تستطيع أن تصرعني " [V.1227] " وأري أخيرا ، في خليط بشع ، مرتكب المحارم ، قاتل أبيه [أوامه] ومع ذلك فهو إنسان فاضل " [V 1333 F]

وعرضت أولي كوميديات ماريو في " مسرح الايطاليين " وتتطلب منا اهتماما بالفروق البتئية بينها وبين تقليد الكوميديا الذي استهله موليير في الكوميدي الفرنسي ، بدلا من أن نتتبع مراحل التطور مثلما جري في تواريخ الأنماط الأدبية . وما لا يظهر في قائمة أدوار مسرحيات " الملهاة المرتجلة " لاريو ، هم هؤلاء الأبطال " العاطلون " [بالمعني المقصود في القرن الثامن عشر ، ومن ثم فلا أهمية لهم في مفهوم نظارة الوقت الحاضر] ، الأبطال الذين يتباين " عقلهم بتباين قويا مع "غيا" أصحاب "الهوس الأحادي" [الفكرة الواحدة المتسلطة] في مسرحيات موليير . وإذا شئنا أن نطبق صيغتنا " الطبيعة البشرية ، حيال الكون العدائي " علي كوميديات ماريو فلن نتوقع أن تتمثل " الطبيعة البشرية الإيجابية " دائما في أدوار معينة .

وعلي ذلك ففي " مفاجأة الحب " Surprise de lamour " التي مثلت علي المسرح في عام ١٧٢٢ يجبر الخدم "سيدهم" ليليو والكونتيسة في النهاية علي عقد اتفاق غرامي . هذه الطبيعة ها هنا [علي الأقل بالنسبة للخدم أريكان] هي نقطة النهاية لتطور ترك الخدم في خلاله كرهه للنساء ، ذلك الكره الذي شاركه فيه سيده ليليو في بداية الكوميديا .

وفي تأليف ماريو لهذه التغيرات التي تطرأ علي أبطاله وواقعهم الدرامية المثيرة بعضي الي ما وراء تقاليد " الملهاة المرتجلة " ولكن لماذا لم يستطع ليليو والكونتيسة أن يعترفا بحبهما

لنهدأ نفوسهما ، بعد أن كانا حتي الفصل الأخير قد تغلبا علي خوفهما من الحب [١٥] ؟ وكيف تأتي النظارة أن يكتشفوا المشاعر التي إختلجت في نفوس البطلين أحدهما تجاه الآخر، حتي قيل أن يكتشف البطلان أنفسهما هذه المشاعر ؟ إن ما كان علي الحب أن يتغلب عليه فهي النهاية ، نون مساعدة من الخدم ، هو اللغة المتكلفة ، ومجموعة السلوكيات المصاحبة لها ، الأمر الذي يسميه مؤرخو الأدب : " الكلام المصطنع " واللغة المتكلفة والسلوك المصطنع يمثلان قوة لا شخصية ، عامة ، مجردة ، لا تستطیع الخصیصة الطبیعیة لمشاعر الحب أن تظهر حیاها .

ومع ذلك تتیح تقالید " مسرح الإيطالیین " الاعتقاد بأن التمثیل الإیمائی والعركی الذی یصور " الطبیعة علی خشبة المسرح وما أشبه ذلك فی مسرحیات ماریفو فیها دلالات كثيرة من تصرفات الممثلین غیر الشفاهیة ، نخلص من ذلك أن التباين بین معنیین فی وقت واحد ، المعنی فی النص ، والمعنی فی الحركة الإیمائیة غیر الناطقة ، ینتج عنه تأثیر مضحك فی نفس المشاعدين [١٦] ، إن الهفة الذی تصیب قراء روائیات ماریفو حتی فی یومنا هذا حین یصلون الی ختامها ، لا یسبب " النهاية السعیبة فی روائیات فقط إنما یثبت أن التنافر بین " الطبیعة البشریة " و بین " البیئة الاجتماعیة المعادیة " لا یدرك المرء علی أنه أمر شدید الوطأة علی النفس .

إن ما یثیر الدهشة فوق كل شیء [علی الاقل من وجهة نظر التاریخ الوظیفی للمسرحیات نفسها] عند قراءة الریاضال الفرنسیة فی نظریة الدراما [١٧] هو التناقض بین الابتداعات فی الاخراج المسرحی و بین الطبیعة الشعریة الملتزمة بالتقالید ، حقا لقد دافع " لاموت - L. A. motte من التخفیف من القواعد الشعریة بالنسبة للوحدات الثلاث الذی كانتت مرعیة بعامه

(١٥) H.V. Fumbrecht, "Die Dramenschliessende Sprachhandlung im aristotelischen Theater und ihre Problematisierung bei Marivaux, Poetica 8, 1976, p. 376-379

(١٦) بغمیرس المعالجة التهمینیة للغة عند ماریفو ، انظر رینر وارننگ

- Rainer Warning, "Romik und Romodie als Positivierung von Negativität (am Beispiel Noliere und Marivaux)", Positionen des Negativität, ed. Harald Weinrich, Fink, 1975 (= Poetik und Hermeneutik 6) p. 341-366

(١٧) مثال ذلك ، كما قدمت فی المجرمة الأوریبة المخفارة والمشریمة

- Theater und Aufklärung, note 12

في القرن السابع عشر [باستخدام حجة التأثير الجمالي ليمسني ضمان " وحدة التشويق "] .
ولكن الحقيقة أيضا أنه أيد استخدام النثر ، حتي في المسرحيات الجدية . ومع ذلك ينبغي لنا
أن نكون علي حذر عند تفسيرنا مثل هذه الآراء علي عجل ، علي إنها توقعات لسرح يهتم في
النصف الثامن عشر بتزايد بالاقتراب من التجربة اليومية ، وانتماج المشاهد معها . أما
قوانين الذي وصفنا تراجيدياته بأنها " بسيط للتطور الميكرو " فإنه رفض هذه الاقتراحات التي
تستهدف تعديل قواعد النموذج الكلاسي . وعلي ذلك نستنتج أنه علي الرغم من أن الكثير من
تراجيديات وكوميديات أوائل القرن الثامن عشر كانت قادرة علي الاسهام في تمثيل مواقف
متراصلة مع التطور في مجال التاريخ الاجتماعي ، فالحقيقة مع ذلك هي أن مؤلفها قلما كان
في عزمهم القيام بتفقيح نقدي للموضوعات التقليدية للمعرفة الاجتماعية في نطاق قرائن
الاتصال التي يتيحا المسرح .

[ب] منتصف القرن الثامن عشر :

ظهر في منتصف هذا القرن أنماط من المسرحيات أطلق عليها أسماء " المسرحية الميكروية "
drame larmoyant ، أو " المسرحية البورجوازية " *drame bourgeois* ، يتبين عند
دراستها من وجهة نظر تاريخية وتطيفية متميزة أنها أسهمت بقدر كبير في تكوين صورة للنقد
الأدبي في القرن الثامن عشر باعتباره العصر العظيم في التقاليد المسرحية الفرنسية . نود
أن نصف هذه المسرحيات بالصيغة الآتية :

" الطبيعة البشرية ، حيال الظروف الاجتماعية المناوبة " . وتشير هذه الصيغة الي ابتداء
ضروري لتحليل التفكي ، تحليلًا براجماتيًا ، في مقابل الأشكال المسرحية في مستهل القرن .
فالقوة المضادة للطبيعة البشرية لم تعد مجردة وعامة ، إذ أصبحت علي المسرح واقعا ملموسا
في تصوير الأنماط الاجتماعية الملتصقة من الحياة اليومية الجارية ، وحتى في أبطال
[الروايات] الذين يعرف المتفرجون تمام المعرفة أوضاعهم الاجتماعية .

علي أنه إذا كانت ظواهر القوة [التي لم تعد عامة] ذات الطبيعة التاريخية الاجتماعية
تحتل مكان القوة المناوبة للطبيعة البشرية فإنه يبدو أن في الإمكان التقلب عليها ، وما دام
تمثيل " الطبيعة البشرية " من الوجهة المنطقية يجب أن يتخذ له مركزا اجتماعيا فلنأخذ نذكر أن
" الدراما البورجوازية " في منتصف القرن الثامن عشر قد أوجدت الدافع الأول لنمو الإدراك

الطبيقي . حقا إن محتويات هذا الأثر تتحدد غالبا بشكل طفيف ، ولم تعد فضيلة هذه " الطبيعة البشرية " - علي الأقل حين تواجه ظروفًا معادية ، وأشرارا خطرين - لم تعد بعامه من قبيل " البراءة " ولكنها بالأحرى " انعدام الرذيلة " .

رثمة مسرحيتان كتبهما نيدرو ، بينهما بضع سنوات " الابن غير الشرعي " و " محن الفضيلة " [صدرت في عام ١٧٥٧] ، و " رب الأميرة " [مثلت لأول مرة في عام ١٧٦٠] بالإضافة الي مسرحية ميريسيه Mereier " بعنوان " المعوز " التي عرضت في عام ١٧٧٨] يمكن الاستعانة بها لشرح مدى التحول في بنية الجاذبية الدرامية [١٨] إن ما يمنع دورفال وروزالي من أن يتعابيا في مسرحية " الابن غير الشرعي " ليس هو الفرق الطبقي ، ولكنه مرة أخرى العادات الاجتماعية . غير أن هذه العادات لم تعد ، كما في ماريو ، عادات البلاط ، ولكنها نتيجة الصداقة التي تربط بين دورفال وكيرفيل .

وحتى إذا كان دورفال وكيرفيل يحب كل منهما روزالي فليس هناك صراع بين هذين المتنافسين ، ولكن بينهما نزاع نبيل وعفيف . ولما لم يكن كيرفيل يعرف شيئا عن حب دورفال كان في وسعه أن يقبل هذا النكران بالذات . ولما أدرك الموقف حاول مع ذلك أن يتفوق علي صديقه في الكرم . ولا بد أن روزالي كانت تبقى بلا زواج إن لم يكن والدعا قد عاد فجأة من أمريكا بعد رحلة خطيرة ليتعرف علي دورفال بأنه ابنه غير الشرعي .

ومن جهة أخرى ، ورغم طبيعة دوريسون العفيفة الطيبة ، فإنه يرفض رغبة ابنه سنت البان Saent-Ibin في زواج صوفي التي تزعم أنها يتيمة مفلسة . وهكذا حل " الطرف الاجتماعي الخائو " محل الصراع الشريف بين الأصدقاء المتنافسين . ولكن صوفي تكشف عن نفسها لرب الأسرة ، وتبين له أنها من أسرة غنية ، فيدرك خطأه في أخذه الحالة الاجتماعية والأمور المادية في اعتباره بدلا من الفضيلة كشرط لزواج سعيد لابنه .

(١٨) بالنسبة للملاحظات التالية انظر :

Peter Szondi, Die Theorie, des burgerlichen Trauerspiels im 18. Th. Der Ranfmann, der Hausvater und der Hofmeister, Frankfurt, 1973

والنسبة لميريسيه ومسرح السنوات الأولى للثورة الفرنسية يفرع خاص ، انظر :

- H.V. Gambrecht, "Über das Versiegen susser Tränen" in der Französischen Revolution. Ein Aspekt, aus der Funktionsgeschichte des genre sérieux", Lendernains 4,1978, p. 67-86.

وأخيرا ففي مسرحية " المعوز " لميرسييه لا يكون الفرق بين الفقير [المقترض] وبين الفني مجرد عقبة في سبيل الزواج ، ولكنه علاقة مكبوتة في سياق الحياة اليومية . فجويزف وأخته بالتبني ، شارلوت ، يضطران للعمل لكسب العيش ، علي نول التسميع ، حتي ساعة متأخرة من الليل . وحين يخلدان الي الراحة التي يستحقانها يتمتع عليهما النوم بسبب الأصوات المرتفعة الصادرة من الشاب العرييد الثري دوليس وصديقه دونوار اللذين يحتسيان الخمر ويصنجان في البيت نفسه . أما الأب الطيب ، والد الطفلين النساجين ، وكان فيما مضى مزارعا ، فهو مسحون بفقره . ومن البديهي أن يفاضل دوليس شارلوت التي تشاء الصدف أن تكون في الواقع أخته كما يتبين له أخيرا ، ولكننا لاندعش من ذلك . ويرى ميرسييه أن القضية تقترن بالفقر ، أو علي الأقل بانعدام المظاهر المادية ؛ أما الفني فعلي العكس من ذلك تلازمه الرنيلة ولا تتمثل " الطبيعة البشرية " حتما من خلال مشاعر الحب التلقائية ، وتقابلها " الظروف الاجتماعية المعادية " ، وتقترن بالمستوي الاجتماعي الطبقة البورجوازية الصغيرة المنحرفة المعرضة لاضطهادات الأغنياء . وإذ يعايش النساجان الفقيران كل منهما الآخر ، ويؤكدان انهما لا يشكون من حالتها ، ولا يفاران من الأثرياء وما يملكون ، فإنهما يثيران في نفوس النظارة شعورا بالشفقة ، وإحساسا بتعاسة المعوزين .

وقد رئي مولد الدراما البورجوازية في الدراسات الشعرية المعاصرة علي أنه انقطاع فيما كان يسمى Status clause [مبدأ الوضع الاجتماعي] وهو مبدأ أساسي في أدب المسرح في القرن السابع عشر ، يقضي بأن النبالة هي وحدها التي تظهر في التراجيديا ، أما الكوميديا فأبطالها من غير النبلاء . أما في الدراما البورجوازية فالشخصيات البورجوازية هي وحدها التي تؤدي " أدوارا جدية " هذه الحقيقة عاقت التساؤلات والتفسيرات من جانب أدب الاجتماع الموجه صوب التصويرات التخطيطية المفرطة للطبقات الاجتماعية ، وتقاعلاتها ، ومن ثم رأي هذا العلم أنه من الممكن التعرف في المسرحيات البورجوازية ، علي " تصوير " لعملية تحرير البورجوازية مع ذلك ، وعلي مستوي التأثير الدرامي ، فإن كون الحركة الدرامية شبيهة بتجربة الحياة اليومية [ميرسييه] دون توافق بين المجالين ، كما تدل الأحداث المفاجئة " علي ذلك ، ليدل فوق كل شيء علي أن هذه التجارب يجب الآن نقلها في الوسط المسرحي الي النظارة بشروط أخرى .

ولقد عرف ببرماشية تلك "المتعة" التي يسببها هذا التشابه عند المتلقين والتي وضعها "لاموت" في قلب نظريته من اللراما علي إنها " الشعور الذي يجعلنا في حالة إنسان يعاني ". أما المسرحيات الفرنسية في منتصف القرن ، يتكونها الجذاب الجديد فإنها تتبع صياغة نظرية في المذهب الحسي ، تقدر أن التجربة تأتي من الاحساس وحده . وحينما يشارك المتلقون أبطال المسرحية معاناتهم يتبهيون الي أن " الطبيعة البشرية " لا تنمو أو تتطور إذا اضطهدتها النظم الاجتماعية . ولكن لماذا يزول جزء من قوة هذه التجربة بالنهايات الصحية السعيدة في كل المسرحيات ؟ لنا أن نفترض أن الخلاص من التوتر في الفصل الأخير يتيح للمتفرجين المترددين علي المسارح ، في نطاق ثقافة استيطانية ، تسمي في القرن الثامن عشر "حساسية sensibilité العود الي الشعور بالاشفاق علي الأبطال (ذلك الشعور الذي خالجه قبل ذلك بقليل) . هذا هو الشرط الأساسي لأن يكون للمتفرج القدرة علي الاحساس بالشفقة نحو الآخرين ، وهو بمثابة جوهر "الطبيعة البشرية" لدي الناس كافة .

في وسنأ أن نؤيد نقطة هذا التفسير القائم علي التثقيرات البرجمانية ، وذلك بالإشارة الي الشواهد والحجج المكتسبة من البحوث التي نشرت في فرنسا منذ منتصف القرن الثامن عشر . وفي الوقت الذي عرضت فيه المسرحيتان اللتان أجرينا تحليلهما أنفا ، نشر ديدرو بحثين : محادثات بشأن "الإن الطبيعي" و "حديث في الشعر المسرحي" ، ويشهد بنجاح هذه الرسائل تعدد طبعاتها . وفي تباين غريب إزاء التطور البطيء في الاهتمام بمسرح العامة ، بالنسبة للدراما البرجوازية ، يؤدي بنا هذا التحليل الي التفكير في أن العلاقة الوظيفية بين الاخراج المسرحي وبين البحوث في الفن المسرحي قد انعكست منذ بداية هذا القرن . وقد أصبح هذا التفكير الآن بمثابة «وسيط للتطور» ، ذلك لأنه وهو يتعلق بالامكانيات الوظيفية للمسرح ، يشير دوما الي الثرايت الأنثروبولوجية التي يعتقد أنها جزء من النفس ، ولأنه يسمي الي فهم علاقته بالنظم الاجتماعية المعاصرة . وفي الإمكان رؤية هذا الأمر ، خاصة حيث تبدو نتائج هذا التفكير ناقصة ، وغير مقبولة . لقد عرف ديدرو مثلا أنه لا يكفي الاستشهاد بالأحوال الموروثة من النظام الاقصادي لفهم "الظروف الاجتماعية" في مقابل تطور "الطبيعة البشرية" . هذه الأحوال يمكن أيضا إفصاحها في نطاق العلاقات الأسرية ، وفي علاقات الملكية . ولم يحاول ديدرو بالطبع أن يجري دراسة لعملية التطور الاجتماعي التي تفسي الي الهياكل الطبقيّة ، كذلك لم يحاول ميرسييه الوصول الي الطبقات الحاكمة التي أصمت أذانها عن سماع مسرحياته . ولكنه فرق بين مستمعيه من "الطبقة المتوسطة القراء" (أو "الشعب" كما يسميه) وبين مستمعيه من الدهماء الذين يقترح لهم تلهية خفيفة ، وأحداثا احتفالية ، بدلا من

المسرحيات ، مع أنه يبدي دهشة من "الفن الانساني ، ونكاه الانسان" لدى هذه الجماعة . أما روسو ففي "رسائله الي دالمبير" بشأن العروض المسرحية (١٧٥٨) يبدي رفضه التام للمسرح ، يدفعه الي ذلك دون شك منافسته لقوانين . ولما كان هذا الخلاف يرجع اساسا الي تحليل تراجميات وكوميديات القرن السابع عشر ففي وسعنا أن نفسره ، طي خلاف ما يقصده المؤلف ، بأنه يدل عل أمرين : فهو من ناحية يدل علي أن مفهوم المسرح في القرن الثامن عشر يعتبر مماثلا الي حد كبير لمسرح القرن السابع عشر ، ومن ناحية أخرى يؤيد فكرة أن هذا المسرح لا يتجاوب في الواقع مع طلبات المستقبل التي يفترضها فلاسفة القرن الثامن عشر .

إن أهدافنا ، كما عبرنا عنها في البداية ، قد وجهتنا الي تفسير بحوث منتصف القرن الثامن عشر بشأن الفنون المسرحية علي أنها نوع من التفكير "الإنس" (الانثروبولوجي) ، والنفساني (الصوسيولوجي) المسبق ، أكثر منه نظرة عامة تمهيدية للممارسة المسرحية . هذا الافتراض الوظيفي صحيح بطبيعة الحال لكن بالنسبة لاستقباله المعاصر فقط ، ذلك لأن نصا مثل "مقارفة بشأن الممثل" لبيدرو يدل علي نقطة تحول في تاريخ المسرح ، فهو يطالب بأن يحل محل ما كان حتي ذلك الحين نمطا من التمثيل المعياري والخطابي فوق كل شيء نمط مسرحي أقرب الي الواقع ، وأشبه بهوية المتفرج ، كما كان الأمر يوجه عام في أواخر القرن الثامن عشر حتي بضعة عقود مضت . ولا بد لتاريخ الأدب والمسرح من النمط الاجتماعي أن يلحظ أن بيدرو قد استلهم كثيرا "فن المسرح" لريكويني F. Ficoboni الذي كان لعدة سنوات مديرا لمسرح الايطاليين ومع استيعاب التكوينات الشعبية للمسرحيات أنشأ الفن المسرحي في منتصف القرن الثامن عشر مجالا مسبقا هاما لتحقيق وظيفته التاريخية كوسيط للتثوير . وثمة تغير في أسلوب ابداع المعاني مهيا فن المسرح لهذه الوظيفة الجديدة ، وبدلا من نقل المعرفة في متابعات معيارية من حبكة الرواية أو المسرحية (وحدة الموضوع) أصبح علي المسرحية الآن أن تحفز النظارة علي اكتساب التجربة .

ج] أواخر القرن الثامن عشر :

وأينا أن المعادلتين "الطبيعية البشرية حيال النظام الكوني" و"الطبيعية البشرية حيال الظروف الاجتماعية المعانية" تمثلان خطوات في تطور بنية الجانيب السائدة في المسرحيات بين مستهل القرن الثامن عشر ومنتصفه . وإذا نظرنا بعين الاعتبار الي هذا التطور تبين لنا أن تغيرات كذلك التي تلاحظ مثلا بين مسرحيات بيدرو الأخيرة وبين كوميديات بومارشيه ، أو

تراجيديات ماري جوزيف شينيه Marie-Joseph Chenier فيما قبل الثورة الفرنسية (بالترتيب الزمني) ، لم تعد مجرد فروق طفيفة ، أو شديدة ، وفي سبيل توصيف أبنية الجاذبية (التي كانت تقليدية في العقد التاسع من القرن الثامن عشر) الموجودة في المسرحيتين المذكورتين أنفا فانا نقترح المعادلة "الطبيعة البشرية ، حيال أصحاب الامتيازات الفاسدين" . فالقوة المناوئة للطبيعة البشرية يمثلها الآن أبطال يستخدمون اعتمادا علي مراكزهم الاجتماعية ، الحق والقوة لقهر خصومهم الفضلاء ، ولون أن يكونوا هم أنفسهم في مركز يتيج لهم استخدام هذه المزايا لصالحهم .

هذا التفاعل الدرامي يتحقق بصورة مثالية في الـ *Jus primae noctis* الذي يطالب به من ناحية كونت المافيافا Count Almaviva ، ومن ناحية أخرى خبث "فيجارو" الذي يستخدمه دائما عندما يستبد به الغضب من تجاوزات سيده . ولم تزل القضية تعاني ، إلا أنها تثير الآن مقاومة تخيف مضطهديها . وإذا تتبعنا وجهة نظر لوكاكس Lukacs في التوليد ، تلك التي شاعت عشرات السنين ، فاننا سوف نرى مرة أخرى في بنية الجاذبية المسرحية انعكاسا لعملية تاريخية اجتماعية ، وقد يشق علي المعاصرين ، بغض النظر عن الاتصالات ، أن يدركوا أنها من قبيل "الأدب" كانت تفسيرات خاطئة كهذه مصدرا لشهرة يومارشييه ، باعتباره مؤلفا "سابقا لمهد الثورة" (لا بالمعنى الزمني للمصطلح فقط) [١٩] إننا نون شك أدني الي الحقيقة ، في مجال تاريخي وتلفيقي ، إن قبلنا ، في ضوء بحث جديد في تطور مجتمع القرن الثامن عشر، فكرة أنه يمكن في بنية الجاذبية في مسرحية زواج فيجارو أن تتطبق ضحكات المتفرجين الموجهة لكونت المافيافا علي الكثير من النبلاء ، أولئك الذين يركز ويهيم الاجتماعي علي اسهامهم بنجاح في أشكال جديدة من الاخراج ، أو قدرتهم علي المشاركة في مجالات "الفلاسفة" بدلا من الامتيازات المقتربة بمراكزهم . والآن يمكن صياغة قضيتنا بمزيد من الدقة . ذلك أن بنية الجاذبية في "الطبيعة البشرية ، حيال أصحاب الامتيازات الفاسدين" تقضي بالضحك علي النظم الاجتماعية التي أصبحت تعتبر جزءا من الماضي، ومن ثم لا تمثل علي الإطلاق توقعا لاندلاع الثورة (الفرنسية)

[١٩] لجواء -مراجعة تاريخية أدبية مفعمة لهذه الفكرة انظر :

- Dietmar Rieger, "Figaros Wandlungen Versuch einer edeologickritischen - analyse von Beaumarchais' Figaro - Almaviva - Trilogie", Romanistische Zeitschrift für Literaturgeschichte, 1977, P.77-105

ويعلم كل مؤرخ في الأدب أن بومارشيه امتداد من استخدام تقليد "الملهاة المرتجلة" في المسرحيتين الأوليين لثلاثية فيجارو : حلاق أشبيلي و زواج فيجارو ، ومن الواضح الآن أن هذه العودة مبتكرة، أو أنها من وجهة نظر تاريخية بنيت "سابقة علي الثورة" . وما يميز بومارشيه من ماريشو هو فوق كل شيء نقل الأنوار المقتبسة من "الملهاة المرتجلة" نقلا مطلقا الي علاقات متفاعلة في المجتمع المعاصر . فالشخص الذي يشاطر فيجارو ضحكته الساخرة علي حساب المافيا في وسعه أيضا - بأسلوب واع الي حد ما - أن يسخر من انحطاط الكثير من النبلاء ويعجب بالذكاء الفطري لدي عامة الناس "الطبيعيين" (لأنهم بسطاء) . علاقة علي ذلك يفيد بومارشيه في "زواج فيجارو" فقط من هذا الاستقطاب الاجتماعي لإبطال المسرحية ، الشيء الذي يثير السخرية والضحك . وفي حلاق أشبيلي يتتصر النبل وخادمه علي "الدكتور بارتولو" Doctor Bartolo العجوز ، الرعي علي "روزين" الجميلة ، كما كانت العادة في الكوميديا الإيطالية منذ أكثر من قرن .

ينبغي الآن أن نتساءل في هذا التحليل التفصيلي عن المؤشرات التي تؤدي الي اعتبار بومارشيه "مؤلفا لما قبل الثورة" . والجنير بالذكر أولا أن موضوع المسرحية قد انتقل الي اسبانيا ، ولعلها مناوراة بارعة من المؤلف للتهرب من الرقابة ، والمرجح أنه مادام "التنوير" الفرنسي كان له نظرة ثابتة (مقروبة) عن "اسبانيا المتخلفة" فلا شك أن بومارشيه أراد أن يظهر الفرق بين المافيا وبين نبلاء فرنسا المعاصرين ، كذلك فإن "فيتو" لويس السادس عشر لأمد طويل بتحريم أي عرض عام لمسرحية "زواج فيجارو" قد أسهم بقدر كبير في تقويم هذه المسرحية سياسيا ، كما فعلت بعض القصص الأدبية . وسوف يذكر أكثر المؤرخين تشككا بدلا من ذلك أن آخر من ملوك العهد القديم كان مخطئا ، لا في انطباعه من تأثيرات المسرح فقط ولكن أيضا في تقديره العام لمجتمع أواخر القرن الثامن عشر .

وقد حدد ماري جوزيف شينيه ٢٢ من أغسطس عام ١٩٨٨ تاريخا "المقال التمهيدي" لتراجيديته "الشارع التاسع" أو مدرسة الملوك" . وفي ١٥ من ديسمبر عام ١٧٨٩ أضاف علي مقدمته "رسالة اهداء" الي الأمة الفرنسية . وأثارت المسرحية صراعا سياسيا وثقافيا احتدم في السنوات الأولى من الثورة ، الأمر الذي يفسر وجودها في كل توارخ المسرح الفرنسي بين عام ١٧٨٩ ، وعام ١٧٩٩ . وربما لهذا السبب أعملت الي اليوم صرورة فحص بنيت جاذبيتها حيال خلفية الاخراج المسرحي في العقد التالي حتي العقد الأخير من القرن الثامن عشر .

وقد أطلق شينيه علي مؤلفه "تراجيديا وطنية" (في رسالة الإهداء) ، أو تراجيديا قومية" (في المقال التمهيدي) . ومع ذلك فمن الصعب أن نري في ذلك برهانا علي فرضية فونتيس Fontius التي تقول إن "حاجات الجماهير التي أصبحت تشكل بالتالي القوي المحركة للثورة (٠٠٠) هي الأصل في استقرار طبقة اجتماعية جديدة . تثري التراجيديا الكلاسية [٢٠]

ويستخدم شينيه كخلفية لمسرحيته "ليلة سان بارتولميو" ، وهي حدث (مذبحة) في تاريخ الأمة يكرها الفلاسفة دوما منذ أواسط القرن الثامن عشر ، للتشكيك في شرعية الملكية المطلقة . وفي هذا التناول الحدث لا يري شينيه مطلقا أن الخاتمة الفاجعة لأبطال الهيجونون عقاب لهم علي آثامهم . كما كان الأمر عادة في مسرحيات القرن السابع عشر ، بل أن ذلك لم يكن مسألة تفرقة بين حالة أجراء موضوعي موين براءة شخصية، وهذا عنصر رئيسي في التراجيديا القديمة.

إن تطور "الفعل" في مسرحية "شارل التاسع" يشكل في الواقع صياغة جديدة للتباين بين "الطبيعة البشرية" التي يمثلها أبطال الهيجونوت وبين الطبيعة الشريرة التي اشتهرت بها الملكة الأم كاترين دي ميديتشي ، ومؤمرات كاردينال اللورين ، وضعف الملك . ولأن موت الهيجونوت لم يقدم علي أنه عقاب لهم علي خطأ ارتكبه فلا يصح رؤية المكيدة في هذه التراجيديا علي أنها مثل لقواعد "الفعل علي المسرح" . ولما لم تكن المسرحية تؤدي الي نهاية سعيدة فانها لا تشجع المطلقين علي إنعام النظر في نفوسهم ليكتشفوا فيها مشاعر الشفقة

ولعل من الأفضل أن نري في هذه المسرحية التي يتجادل فيها الأبطال علي طريقة "فلاسفة التنوير" تطورا تخطيطيا للأحداث السياسية المعاصرة ، وطلي أية حال تحذيرا للويس السادس عشر . حقا ، امتدح شينيه الملك في قصيدة له مهداة اليه قائلا إنه "زعيم شعب مخلص" ، غير أن الملك قد فهم هو ومستشاروه أن السطور الأخيرة من هذه القصيدة تلميح بالسياسة المتبعة في البلاط ومعتليا :
درب الطفاة لسانني علي الفش والخذاع ،
وأخمدت أصواتهم في نفسي طييمتها ،

لقد خدح الوطن ، والشرف ، والقوانين ،
والسماء عاقبتني فجعلتني قنوة للملك .

كان من الطبيعي للنظارة المثقفين نسبيا في القرن الثامن عشر أن يدرجوا صورة شارل التاسع في المفهوم الشائع وقتئذٍ عن "الفائبة التاريخية" . وفي هذه الرؤية بخاصة تبين جليا وجود توازن بين "دواج فيجارو" ليوماشييه ، وبين "شارل التاسع ، ومدرسة الملوك" لماري جوزيف شينييه . فلذا اعتبر التاريخ غائيا (موجها نحو غاية - المترجم) كان شارل التاسع ملغيا ، نجح مرة أخرى في ذبح خصومه الأشراف ، حتي وأو اعتبر ضمه بمثابة بشير للالتصام على الطفيلان .

وفي اطراء شينييه اسلفه فواتير ، ذي الأسلوب الخاص به ، في مقاله التمهيدي ، كان واضحا أنه يدرك نور مسرحيته كتحويل لتجاربه السياسية . بل إنه كان علي يقين تام من أنه يري في التأكيد على التأثيرات المقصودة نوعية "التراجيديا" في عصره، المغايرة للتراجيديات في مستهل القرن الثامن عشر.

لقد طور السيد فواتير الفخيلة في تراجيدياته بصورة أعمق مما طور فيها السياسة . الا أن اظهار فاعلية المسرح السياسية تدل علي حدود التفكير الشعري المنطقي الذي يمتد من الآن الي مضمار التفكير الفلسفي والانتروبولوجي ، مثلما جرى مع بيدرو ، وروسو ، وميريسيه . الجمهور المحتشد يتلقى انطباعات قوية ومستديمة ، وليس ثمة واحد من المحدثين استشعر هذه الكهربية المسرحية كما استشعرها السيد فواتير . وهنا يبدو التعليل علي المسرحية مرة أخرى تابعا للنص الدرامي ، وتمثله علي خشبة المسرح . وتنفذ تراجيديات شينييه القومية وسيطا للتطوير في اللحظة التاريخية التي تجد مجال تطبيقها في السياسة .

[د] عصر الثورة الفرنسية

في مقدمة جاك بروس Jacques Proust لمجموعة الدراسات في تاريخ المسرح الفرنسي في سنوات الثورة ، التي نشرت في عام ١٩٧٩ ، يقول إن عام ١٧٨٩ ، لا عام ١٧٩١ (عام استعادة المسارح حريتها) ، هو الذي يدل علي انقطاع حقيقي في استمرارية

الانتاج المسرحي [٢٩] والواقع أن صيفتنا "الطليعة البهرية حيال أصحاب الامتيازات الفاسدين" يمكن تطبيقها أيضا علي قسم كبير من المسرحيات التي كتبت أو عرضت لأول مرة بين صيف عام ١٧٨٩ وصيف عام ١٧٩٢ . ومع ذلك فإن "المعركة" التي أثارها مسرحية شينيه "شارل التاسع" الي جانب عرض هذه المسرحية هي دلالات علي تعديل جوهري في مضمون الاتصال الخاص بالمسرح . والآن تقسر الأعمال والأدوار علي أنها تعبير لأراء سياسية لدي كل من المؤلفين والممثلين بكيفية قبولنا مخططة تماما . مقيّد أصبح توافق الآراء السياسية أو اختلافها هو المعيار البات في التفاعل بين الأفراد والجماعات . وإذا اعتبر الممثلون المحافظون في "الكوميدي فرانسيز" تراجيديا شينيه إهانة للويس السادس عشر فإنهم عارضوا تمثيله . ولا شعر تالما Talma وبغيره من أعضاء الكوميدي فرانسيز أن واجبه المهني كممثلين ومواطنين أن يجعلوا من المسرح "مدرسة للوطن" فقد قرروا الانفصال عن زملائهم المحافظين ، وأسسوا "فرع الجمهورية " Theatre de la Republique . وأقاموه علي الضفة اليمني من نهر السين ، الأمر الذي له دلالة خاصة .

وتبعاً لنظريتنا تسجل شهور صيف عام ١٧٩٢ نقطة حاسمة في تاريخ المسرح الفرنسي، وتقوم هذه النظرية علي أساس ملاحظة أن موازنة الآراء السياسية لدي المؤلفين والممثلين بنظيراتها التي يعبر عنها الفعل المسرحي ، كما يري في الأحداث المحيطة بمعركة "شارل التاسع" ، أصبحت حرة ، وأدت الي اختصار أبنية الجاذبية المكتبة للمسرحيات . وثمة مرحلة قصيرة جدا في الليبرالية الثقافية والسياسية بلغت غايتها بسقوط الملك ، وإعلان الجمهورية . ومن ذلك الحين صار المسرح يستخدم كنظام يعمل علي نشر المعرفة الرسمية الجديدة ، ويتأنتج أهم مما كانت عليه في سنوات العهد القديم (قبل الثورة) . ويبدو علي الأرجح أن السياسيين ، في نروة الثورة كانوا يخشون اللجوء الي تجارب المتلقين وحدها ، كما فعلت الدراما البورجوازية وكانت الخطوة للتمتمة في تلك الآونة تتمثل في استخدام رسوم بيانية تفسيرية أكثر بساطة ، سرعان ما تحولت الي قوالب ثابتة مناسبة لنقل التجربة اليومية لعامة

الشعب الي "العني المرغوب" لدي الحكومة [٢٢] ولم يعد يكفي تمثيل الملك والتبلاء علي خشبة المسرح بأنهم "قساة ، همج ، أو منافقون ، ومتعاطشون الي النداء [٢٣] ، بل كان من الضروري أيضا أن تنتصر الفضيلة في النهاية

وفي منظر (مسرحي) يفرض علي الاتصال مثل هذه الشروط كان التجاء بيمازيه الي تقاليد "اللاهة المذرة للموع Comedie Larmoyante في الجزء الأخير من ثلاثية فيجارو "الأم المذنبه" La Mere Coupable غير ملائم بالمره . ولم يكن التكييف الأخير لأسرة المافيا للقواعد السلوكية المتبعة في الأوساط البرجوازية المتألفة موافقا لأصول الأداء المسرحي . ومن جهة أخرى يبدو أن الاتفاق التام بين الأيديولوجية المقررة وبين بنية الجانبيه المسرحية علي المدى الطويل قد أرضي القليل من معطي السياسات الثقافية الرسمية . وقبل شهر ترمينور (الشهر الحادي عشر من السنة الجمهورية الفرنسية - المترجم) كان للمذبح الذي أُنشئ في المقالات النقدية في الكثير من الصحف الباريسية علي المؤلفين الذين يخدمون "الأهداف الجمهورية" مجرد تقبلة لتقد مسرحياتهم ، لخلوها من المتعة .

لقد عرضت لأول مرة مسرحية "أزفة الملوك" Le Jugement dernier des rois التي كتبها سيلفان ماريشال Sylvain Marechal قبل اعدام ماري انطوانيت بالمثلية بيضه أيام ، وهي إحدى المسرحيات القليلة التي عرضت في عهد الارهاب ، ونجحت في الافلات من نقد أولئك الذين يمثلون السياسات الثقافية الرسمية دون أن يثيروا تيرد النظارة ، ولا شك أن الحدث السياسي في تلك الآونة قد استخدم كمظهر مسرحي براجماتي ، وحمل ماريشال علي العوده الي حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي كان قد ألفها قبل عام ١٧٨٩ . فكل شعوب الأرض تقبض علي ملوكها ، وتتركهم علي جزيرة مهجورة ، وهناك يثبت أنهم "أناس بلا طبيعة بشرية" . ويدلا من أن يعيشوا معا بمثابة "متوحشين طبيين" يتشاجرون ، ويقتل بعضهم بعضا ، وهكذا يتخلص الناس من طغاتهم علي أيديهم . ولا يفوتنا أن حبكة الرواية هذه تقر مشروعية اعدام الملك علي أنه تنفيذ للقانون الطبيعي . ومن المفيد بنوع خاص أن نلاحظ من

[٢٢] هذا التعبير "العني للمعاش ، هو للمعني للرغيب" مأخوذة من "عني أولئك":

Mona Ozouf, "La fete sous la Revolution francaise, Faire de l'histoire under the direction of Jacques Le Goff and Pierre Nora, Vol. 3, Gaillimard, 1974, p. 266

Journal, des Spectacles, 11 September 1793 [٢٣]

زاوية نرائع (براجماتيات) الاستقبال الطريقة التي تنتقل بها النظم المعقدة والمجردة ، والتقاليد والمصطلحات المنطقية الخاصة بفلسفة التنوير الي الثوار الفرنسيين المتطرفين (وأطلق عليهم اسم sans-culottes - أي من ليس لهم سرواويل - المترجم) من خلال وساطة المسرح . ويأتي ممثلوا الشعوب الأوربية الي الجزيرة المهجورة ليتركها بها ملوكهم ، فيصادفون بها لا "متوحشون طبيين" فقط ، ولكن أيضا رجلا مسنا ، لجأ الي الجزيرة هربا من مطاردة نبيل من النبلاء كان قد أخوي ابنته . وحين يثور البركان في الجزيرة تتولي الطبيعة القضاء المبرم علي الملوك .

يبدو أن عنصرا من العناصر المكونة للنص في مسرحية ماريشال التي حظيت بنجاح اسطوري لدي الجمهور يمثل في استعائته بتقليد في الأداء المسرحي في ملاهي الاسواق ، ذلك هو الاستعراض . فالمسرحية تبدأ بموكب لجمهور من الرعايا المتطرفين يدخلون المسرح واحدا بعد واحد ، منهم فرنسي ، وانجليزي ، واسباني ، وسرديني ، واخيرا الماني ، يتنافسون في صب العنات علي الطفاة . وفي ختام المسرحية مشهد لشجار بين الأمبراطورة ، وملك بولندا ، وملك نابولي ، وملك بروسيا ، والابا ، وملك اسبانيا ، وكاترين أمبراطورة روسيا من أجل قطعة من الكعك.

هناك أسباب وجيهة من وجهة التاريخ البنيوي والوظيفي لإنهاء هذه النظرة العامة للمسرح الفرنسي باعتباره وسيطا للتنوير مع السنوات الأولى لعهد حكومة المديرين (في فرنسا من ١٧٩٥ الي ١٧٩٩ - المترجم). فإذا رجعتا مرة أخيرة الي خطة التفسير التي حاولنا بها إبراز التغيرات الأساسية التي طرأت علي بنية الجاذبية في المسرحيات يبدو لنا أن "الطبيعة البشرية" تقدم الآن في الكثير من الأحيان علي أنها القيمة السلبية في تباين الدلالات اللغوية الأساسية : فبدلا من أن تواجه بالظروف الاجتماعية غير الملائمة ، أو تضطهد من قبل الصفوة المفسدة الفاسدة ، فهي الآن نقطة الانطلاق الانتروبولوجيا جديدة ومتشائمة ، نوع من "الدافع الشرير" الذي يهدد الزعماء الذين يمثلون المفهوم الجديد الخاص "بالإنسان العظيم المنعزل" . ففي شهر يوليو عام ١٧٩٥ ظهر علي خشبة المسرح في باريس نسخة من باميلا Pamela مقتبسة علي نطاق واسع من "جولدوني Goldoni" ، أرفق بها المؤلف قصيدة غزلية يشرح فيها أنه لا يري في بطلته رمزا للاستعداد الفطري لعمل الخير مع الناس كافة، بل يري فيها امرأة جديرة بأن تحي الأمل في القدرة علي التسامي بالطبيعة الحيوانية "الجوهرية" في المخلوقات البشرية . لا شك أن الجنس البشري جنس شنيع يجمع صفات

النمر والقرد . الانسان من بين الحيوانات كلها هو الأكثر تحششا ولكي تهذب السماء خلقت له فضائلك .

إن صورة الانسان وهو يتعزل بعيدا عن المجتمع ، كما تجدها في وكل نواحي الأدب ، لا بد أن ينظر اليها فيما له علاقة بالتجربة اليومية ، وهي جديدة نسبيا من زاوية تاريخية اجتماعية . برزت في فرنسا بالذات في سنوات الثورة . كانت هذه التجربة التي لم يعد فيها المجتمع الجديد ، بخلاف "العهد القديم" ، يسلك أسلوكا في المعيشة يعتمد علي الدولة التي ولد فيها الانسان ، ومن ثم أصبح المستقبل - من وجهة نظر شخصية - شيئا فشيئا ، غير قابل للتكهن به . وبالتأكيد علي العنصر المثير للشفقة لدى الانسان ، جعل الأدب فضيلة من هذه التجربة الضرورية السائدة . ويبدو أن الأدب سرعان ما تحول من دوره كوسيط للتعبير ، أو حافظ لعمليات التجربة التقنية الي وظيفة جديدة تتمثل في تحويل "تكاليف" عملية تحويل الابنية الاجتماعية هذه . وإذا كان الأدب قد ساعد بالأرجح علي تحريك هذه العملية فلا شك أنه قد سجل تقدمها .

رابعا - لم لم يصبح مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي كلاسيكيا ؟

بدأنا استعراضنا لتاريخ الدراما بالإشارة الي التناقض بين الدور التاريخي الاجتماعي الهام الذي يبدو أن مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي قد لعبه ، وبين جاذبيته المحدودة لجمهور المسرح في الوقت الحاضر . والآن في ختام دراستنا ، وقبل أن نقسائل عن الأسباب التي تجعل إحياء هذا المسرح أمرا مستحيلا ، يتحتم إجراء تفرقة هامة . إن مؤلفي اللهاة ، مثل ماريو ، وپومارشيه ، رغم انهم يقفون دائما في ظل موليير ، مازالوا يظهرون في برامج المسرح الحديث ، في حين أنه من العسير أن نتصور أن ينجح في عصرنا عرض "أوديب" لفلوتير ، أو "رب الأسرة" لبيدرو ، أو "المعز" لبيرسيه .

هناك بادئ ذي بدء نوعان من التفسير لهذا الوضع ، ليس أي منهما مقنعا عند الانتهاء من تحليله . أولهما أنه يستحيل إحياء "المسرحيات الجادة" من الماضي . ولكن هذا التفسير موفوض ، لا في فرنسا فقط ، وذلك بما يجري في مسارح فرنسا اليوم من إعادة عرض مجموعة كاملة من أعمال كوريني ، ورابين بنوع خاص . أما التفسير الثاني فإنه يزعم أن موضوع مسرحيات القرن الثامن عشر تنتمي الي التجارب اليومية الوثيقة الصلة بالأحداث

التاريخية في تلك الحقبة . غير أن هذا التفسير أيضا لا يحل مشكلتنا ، ذلك لأنه إذا كان يفسر غياب "الدراما البورجوازية" في الوقت الحاضر فلن تراجيديات فواتير ، مثلا ، تقوم في الغالب علي أساطير المصور القديمة ، ومن ثم لم تزل باقية في قوائم المسرحيات .

ومن المحتمل أن تكون مسرحيات القرن الثامن عشر قد أصبحت بالنسبة إلينا اجنبية بل ومؤلة ، لأنها تقدم ، مع العنصر المثير للشفقة ، صورة للعالم مركزة علي الانسان ، أصبحت لعدم وجود بديل لها تبدو غير مفهومة لنا لأنها تراثي الانسان ، يدمج العين لكونه خاضعا لقوي خارجية يري الكثير من معاصرينا أنه قد تم السيطرة عليها . إنها في الحقيقة ، وبالذات لأنها تحيد عن مثل هذا الأسلوب المثير للشفقة ، والمدر للدموع ، وأنها تثير ظواهر الضحك والسخرية التي تبدو لأعيننا أكثر اثارة للإشمئزاز مما كانت عليه في أحين النظارة في القرن الثامن عشر ، وبدلا من التساؤل عن شيء بدأ لنا واضحا لزمن طويل ، لكل ذلك استطاعت كوميديات ماريغو ويومارشيه أن تبقي حية . إن الأسباب التي تدفعنا من وجهة نظر تاريخية اجتماعية الي أن ننسب دلالة خاصة الي مسرح القرن الثامن عشر الفرنسي هي نفسها الاسباب التي تقلل من فرص رؤيتها وقد بعثت من جديد .

هانز لوارخت جوميريفخت

جامعة سيبجن ، المانيا

تمثيل مباراة في أدب القصص الخيالي أنموذج نقدي*

سوراب . راڤ

قرب نهاية رواية Light in August (ضياء في أغسطس) ، وفي مشهد من مشاهد الذروة بالفصل الأول ، وسلطات العدالة تطارد الهارب جو كريسماس عبر شوارع مدينة جيفرسون**، يقدم ويليام فوكتر شخصية جديدة هي بيرسي جريم ، وهو نقيب بالحرس الوطني والثائب الخاص بالبحث الجنائي ، ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره . وكان يظل ساهرا في وسط المدينة حين تغلق متاجرهما في عطلة آخر الأسبوع . وبينما تكون جماعات من المدينة قد بدأت لعبة "البوكر" يبقى جريم دائب البحث والتجري طوال الليل . وتسيطر الحماسة على أفراد القوة التابعة له لتدعيم القانون ومساندة العدالة متصورين أنهم "عين خفية يقظة تديره لمراقبة أعمال البشر"^(١) . وتستمر لعبة البوكر ليلة السبت بأكملها ، وفي هذه الاثناء يحدد مكان جو كريسماس ، وتجري مطاردته . وبينما كان جريم يعدو وراء

* يسرت إجراء جزء من هذا البحث منحة دراسية من جامعة ولاية لويزيانا في ربيع سنة ١٩٨٥

** أطلق ويليام فوكتر على الجنوب الأمريكي اسما خياليا هو مقاطعة "بيكتاتولا" ، وافترض أيضا أن ثمة مدينة

باسم "جيفرسون" تقع في منتصف هذه المقاطعة (الترجم)

(١) ويليام فوكتر "ضياء في أغسطس" ، نيويورك ، المكتبة الحديثة سنة ١٩٦٨ ، ص ٤٢٢ ينسب ما سيشار اليه من

صفحات بعد ، الي هذه اللعبة

الترجم : حسن حسين شكرى

المجرم الهارب في شوارع المدينة يقدم لنا فوكتر تيارفكر نائب البحث الجنائي من وجهة نظر غير محدودة: "لم يكن تواقا الي الانتقام ، أو مندفعا للقمب والاعتداء . كان يتحرك ، ويتوقف من أونة الي أخرى بحسبه التحيل بسرعة وطاعة عمياء ، كما يتحرك أي ممثل علي خشبة المسرح (ص ٤٢٧) . وفي بقية الفصل لم يشتك جريم في لعبة اليوكر ، بل أخذ يفكر ويعمل ، كما لو كان منهمكا في لعبة الشطرنج . لكنه لم يكن كاللاعب ، بل كالحصان أو البيدق في رقعة اللعب . وكانت مدينة جيفرسون هي الرقعة التي يتحرك فيها جريم وكريسماس من مكان الي آخر يقويتن أكبر منهما ، العناية الالهية الخيرة تحرك جريم ، والقوة الشريرة لعصيان الرب تحرك كريسماس ، وفي النهاية ، حين ضيق الخناق علي كريسماس ، وأصيب برصاصة قاتلة في مطبخ الكاهن هايتاور ، تبدو هذه اللعبة الخيالية أخذة في الانتهاء .

فما هو الأثر البلاغي لهذا الحدث الداخلي ، اعني التمثيل ؟ وكيف يؤثر في استجابتنا للقصة وللشخصيات ، والمكة ؟ وما هي جوانب التمثيل اللازمة حيث نقيم أنموذجا نقديا لنسيج أدب القصص الخيالي الذي يستعمل تمثيل - مباراة ، كمناوره بلاغية مأكرة لمعالجة أفعال الشخصيات واستجابات القراء ؟ هذه هي المسائل التي أود أن أناقشها هنا كنقطة بداية لاقتراح أنموذج لتحليل نصوص تمثيلية.

وتستوفي رواية "ضياء في أغسطس" كمالها المنطقي وفقا للمستويات الروائية التقليدية بالقبض علي كريسماس . وفيها جوهر الحبكة الأرسطية : خلفية للشخصيات ، و"بداية" تقليدي الي صراع ، وحدث يتطور ويكشف عن التعمق "المتصاعد" بالتجربة : كارثة تقيد نهاية حدث مطرد . فقد ارتكبت جريمة ، ونهضت قوة الخير وسلطات العدالة للبحث عن المجرم الذي يمثل قوي الشر بوضوح في عالم مدينة جيفرسون ، وأخذت العدالة مجراها ، واستعيد التوازن الاجتماعي بهزيمة وأسر العميل المزعق الذي جري البحث عنه . ولكن ذلك تصميم لقصة تستدعي حدثا في رواية واقعية ، وبالنسبة لأولئك الذين غضوا النظر أو نسوا عالم بيرسي جريم الخيالي الذي يحملنا علي "تصديقه" حيث القوي المادية معدة للانفجار علي النوم في مباراة للقوة والبراعة ، نجد عند فوكتر من يذكرهم : "لكن الممثل لم يكن قد أعد بعد" (ص ٤٢٩) . أما المباراة التي يظن جريم أنه يمثلها ، أو أخذ في تمثيلها ضد جو كريسماس فلكي تصل الي نهايتها كان يجب أن يكون هناك "قتل" حتي يلقي أحد اللاعبين خارج رقعة اللعب ،

ويسمى الآخر الانتصار^(٢) . وفي رواية "ضياء في أغسطس" يوضح طقس "القتل" هذا نفسه ، فيما أبداه جريم كريسما من تخنث غريب رهيب ورواء المائدة . وتمدنا لية البورك بأطار نفساني يماوننا علي تقويم فعل جريم قبل الأوان : إذا صرفنا النظر عن الضرورات البلاغية التي تخلفها هذه المطاردة ، سيظهر جريم علي أنه شجاع شيطاني "مسطح" ، وتليب عنا سخرية فوكر القدرية في رسم الشخصيات ، ولو اشتركنا في مباراته ، سيظهر جدير فائز أو بطلا ، ونقد المعني الرمزي للتحوّل من مكان الي آخر في لحظة الانقلاب^(٣) .

ويسبب الفكرة الشائعة التي تربط التمثيل بالتحدر والانتلاق ، كثيرا ما تثير الأعمال الروائية التي تستعمل تمثيل مباراة ، الشكوك فيما إذا كان مؤلفوها يراعون المناهج التقليدية لتطوير الروائي ، خاصة فيما يتعلق بوحدة الشخصية والحدث . علي أن المؤلفين الذين يستعملون تمثيل-مباراة كأداة بلاغية للسيطرة علي استجابة القارئ يلزمون أنفسهم ببناء روائي تقتضيه طبيعة المباراة . إذا أن كل موقف في تمثيل -مباراة يشمل بعض المفاهيم العامة التي يناقشها ، أحني (اختبار القوة البدنية /الذهنية) والتسلية وفقا لقواعد معينة ولحدود الزمان والمكان ، ومثال ذلك أننا نتوقع تطابق الرواية مع قواعد وأعراف "عوالمها" وأن تقدم لنا "مجموعة أفكار متناسقة" لنفهم كيف ترتبط الحياة . ولكي يقدم الكاتب هذه الرؤية الشاملة عليه أن يوضح ثلاث علاقات علي الأقل بين القصة وبين المجاز المستخدم فيها ، هي: أن يطور المباراة المحددة بطريقة المتلقي القادر علي التخيل ، وأن تكون المباراة ملازمة لفرض الأساسي وجوهري فيه ، أو أن تكون مصدرا لفرضيات تتطرد بها القصة ، ولا بد أن يحدد دور المباراة علي أنه محك أخلاقي ، وأن يدعم استعمال المباراة كأداة لتعريف "العالم المجازي للعمل" . وهذه المقدمات المنطقية هي قوام الأنموذج الذي أود أن أقدمه فيما يلي :

(٢) يناقش كينيث بريك مفهوم "القتل" وكبحر الأداء بأسهل في كتابه المسمى : "Philosophy of Literary

"Forms" ، باتون دوج ، مطبعة جامعة ولاية لوزيانا ، سنة ١٩٦٧ ، الفصل الأول .

(٣) انبرك هنا ، وفي لائحة كثيرة أخرى ، انني اعتقد أن المباراة ليست إلا مجازا مرسلأ أو انشعجا لآلية القدرية .

وكثيرا ما استعمل الكتاب الأمريكيين من اتباع المدرسة الطبيعية بوجه خاص مباريات تقدم الطريقة (التي اعتقدوا) أن حياة الراقع تسيير علي مثالها . ويجير منطلق بناء المباراة المنطق علي منع قراءتهم . ومع أن الحكمين لهم لراة حرة فانهم لا يستليسون إثارة ما يريدون ، لأن المباراة هي التي تدعم بمنطقهم . وعلي الرغم من أن الشخصيات الملاحظة لشخصية جريم قد تبدو شخصيات بطولية ، فانني اعتقد أن جريم ليس إلا مثلا أدبيا خطله المؤلف للتعبير عن التصبب التسلي الذي يجانبه الترابيق في التمييز بين مباراة خيالية وواقع الحياة

لكن ما سبب الحاجة -أولاً- الي أنموذج جديد ؟ والاجابة هي أننا لو نظرنا تاريخيا سنجد أن تحليل الألب وفهمه قد اعتمد كل الاعتماد علي صورة عالم أكبر يحدد الاتجاهات الثقافية لمصرمن المصور إزاء الحياة والفن . ونحن نقشل العقليات المبدعة والعقول الناقدة عن التوافق الزمني لفهمها لهذه الصورة في مصر ما يؤدي هذا الموقف الي تنقيح صورة العالم القديم ، والي أنموذج جديد لتصوير الكون فكريا ^(٤) . ويشير فرائك كيرمود في كتابه "The sense of an ending" (الاحساس بنهاية) الي حاجتنا الي أنموذج جديد . حيث يلاحظ أن الرواية الانجليزية التقليدية تحدد شكليا بأنموذج مسيحي قوامه خطوط مستقيمة تبدأ بسفر التكوين وتنتهي بسفر الرؤيا ويقول : "سلخذ دقائق السامة أنموذجا لما نسميه حبكة وتنظيما يكسب الزمن روحا انسانية ، ويضفي عليه شكلا " ، ويشرح كيرمود ، ويمثل الفاصل الزمني بين الدقة والبلقة زمنا خالصا متناهما غير منظم من النوع الذي نحتاج الي اكسابه روحا انسانية " . ويضيف قائلا "لقد تخلت الرواية الجديدة عن هذا المعيار . وعلي عكس الرواية "التوارثية" التي تمجد هذا الأنموذج اللاهوتي ، نجد أن رواية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قد أخذت شكلا مطابقا للأنموذج الدينيوي للحياة الانسانية . لكن الأنموذج الجديد كان أنموذجا تاريخيا وطوليا ، ويبدأ بوجه هام يعود لطف ، وينتهي بموت أو زواج ، فالمرت يضع نهاية لعودة الحياة ، والزواج يصنع بداية جيل جديد . وكما نسخت العقلانية الجديدة لديك القرنين المبدأ اللاهوتي المتصل في صورة العالم الذي كان جزءا من مذهبهما التقدي الانبي ، نجد بالمثل أن التكنولوجيا الجديدة لمصرنا قد سلحتنا بقدرة تعيننا علي مناقشة حقيقة مراحل الحياة الانسانية في الأنموذج الدينيوي الذي انحدر اليها من ناهيتي الحبكة الروائية ورسم الشخصيات . ولم يعد الموت يفضل علم الطب -يقابل بعجز (علي مذهب الرواقين) باعتباره جزء متكاملا للحياة ومصاحبا لها ، بل أجيلت الحياة ، وأجل

(٤) كان هذا التحول في المعتقدات الأساسية تحولاً واقعياً حتي في مجالات العلم ، حيث يعتقد أن البرهان علي

"الحقيقة" قد تم بالتطبيق العلمي ، وبالتالي فهي دائمة . انظر كتاب تيماس س - كوهن "The Structure of Scientific Revolution" ، شيكاغو مطبعة جامعة شيكاغو ، سنة ١٩٦٢ .

(٥) فرائك كيرمود "الاحساس بنهاية" ، نيويورك ، مطبعة جامعة اكسفورد ، سنة ١٩٦٧ ، ص ٤٥ . ويقول كيرمود إن

الرواية الجديدة قد ظهرت من معيار رواية القرن التاسع عشر: إنها تكرر نفسها ، وتتسلق نفسها ، وتحدد نفسها ، وتتألف نفسها ، دون أن تراكم - ذات يوم - ما يكفي أن يكون ماضياً ، وبالتالي ، فإنها قصة بالمعنى التقليدي للكلمة (ص ١٩)

الموت أحيانا لسنوات عديدة بفضل أجهزة "إنقاذ الحياة" . وأصبح التحول من الحياة الي ما بعدها -بهما كان شأنه- مهنة ، بل ساحة قتال للقوي . وبالمثل غير الزواج التعاقدى ، نتيجة للقوي الاجتماعية والاقتصادية لهذا القرن : لم يعد ينظر اليه كملقوس اجتماعي يوجد اثنين في واحد برباط مقدس للحياة ، وأنكرت حقيقة أنه بداية جيل جديد . ولم بدايات ونهايات الحياة توظف بعد في بدايات ونهايات الحكبات الروائية . ويرى فولفجانج إيزر أن رواية "Vanity Fair" (سوق الفروء) هي نقطة منتصف الطريق في هذا التحول من رواية القرن الثامن عشر التي يمثلها فيلدنج الي رواية القرن العشرين التي يمثلها جويس ، ويذهب ايزر الي منهج أحدث تقوم فيه الرواية علي العلاقة المتغيرة بين المؤلف والقارئ - والكائنات البشرية والاكوان علي نطاق أوسع - وهي تستلزم "أن يجد القارئ لنفسه مفتاح لفز متعدد الجوانب" (٦).

و اذا كان كثير من أرب القصص الخيالي الحديث مقسما بخصائص تمثل -سبارة (٧) ، فلا مناص من اشتقاق أنموذجنا الجديد لهذا الألب من معتقداتنا الأساسية من اللعب التي أسلم بلتها ما يلي : أن عبرية لعبة ما تكمن في أنها منفصلة ومستقلة عن الواقع المشترك للحياة اليومية ، أن تجري أحداثها في زمان ومكان محبوسين ، وبالتالي فإنها تبدأ بدخول اللاعبين والمشاهدين أرض اللعب ، وتنتهي بعودتهم منها ، فثمة لعبة تسيطر ، ويتحكم فيها اللاعبون ، وتوظف قواعدما كحوامل محددة للتفاعل بين اللاعبين والمشاهدين ، كما هي الحال تماما في هيكل القواعد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لحياتنا خارج التمثيلية ،

(٦) فولفجانج إيزر ، The Implied Reader ، بلنجر ، مطبعة جون هويكنز ، سنة ١٩٧٤ ، ص ١٠٢ .

(٧) لعبة حبة من الأراء النقدية التي ترى أن تمثيل -سبارة ، يعد استعارة ملازمة لواقع مصرنا الجديد ، انظر ما يأتي : جبرائيل جزييلفتشي ، The lessons on modernism an other Essays ، لندن ، دار ماكجيلان ، سنة ١٩٧٧ ، فرائد كيمر ، Sense of an Ending ، نيويورك ، مطبعة جامعة اكسفورد ، سنة ١٩٧٧ ، جزيي لورنجا ، Meditations on Hunting ، نيويورك ، سكريبتر ، سنة ١٩٧٢ ، وتحقيق لفييب ستيفك لكتاب Anti-story ، نيويورك للطبعة للمرة ، سنة ١٩٧١ ، توني تاور The city of words ، نيويورك ، هارور ، و ، سنة ١٩٧١ . وانظر أيضا جون بارك ، وأيراس أوديل ، والامير نابركاب وغيرهم للمبرزين بما "بعد الروائيين" الذين وجدوا أن اللعب وسيلة ملائمة للتعبير عن نظرتهم الي العالم .

وتتطوي المباراة على إطار ذهني توجد فيه الحقائق المتناقضة للعب وغير اللعب معا ،
 لتظل النماذج العابية للحدث والسلوك مطلقة ونحن داخل أرض اللعب ، وذلك نتوقع أن
 تشارك كل أعمال أدب القصص الخيالي التمثيلية في هذه الخصائص المشتركة ، مع أن
 الطرق التي يستخدمها الكتاب الذين يوظفون التمثيلية في هذا النوع من الأدب (٨) قد يتسع
 مداها .

ويبدأ اللعب بارتحال عن الواقع العادي ، وينتهي بعودة الي روتين الحياة ، ويتضح
 اختلافه عن حياتنا المنتظمة في أنه يجعلنا نحن المشاهدين واللاعبين نترك أشغالنا اليومية ،
 وتجمع في مكان محدد لفترة زمنية معينة ، فإذا رفضنا مثل هذه الدعوة فإننا سنبقى
 خارج المباراة وسنبولنا نوما من اللعب (٩) . ومن ناحية أخرى فإن الحاجة الي الترويح تؤكد
 ضرورة مثل هذا الارتحال حين تتضائل سيطرتنا على البيئة المحيطة بدرجة نشعر معها بأن
 دورنا في نظام يزدنا بهويتنا ككائنات بشرية مهدد بالخطر ، وحين نحتاج الي الابتعاد عن
 هذه البيئة تماما . ويستهل جون جويننجا دراسته في كتابه "Homo Ludens"

(٨) إن المعايير المتباينة التي استعملها القراء لتصنيف عناصر اللعب التمثيلي في الأدب تمثل طيفا شريفا
 مريضا لاستخدامات المزايل للعبة لها ، أنشر بيجه خامس ، روبرت كايلا man, play and games ترجمة
 مايك باراخ ، جليكا ، إليري ، اللعبة الحرة ، سنة ١٩٦١ ، روبرت ديترول Games and play in
 modern American Fiction ، في مجموعة الأدب للعاصر ، المجلد ١٧ ، العدد ١ (سنة ١٩٧٦) : من
 ٤٤-٧٢ ، وريدك فايس ، The Rules of game : A para-theory of Literary Theories في
 عند خامس من مجلة الجشرب الأوسط عن Game, play and literature ، شتاء ١٩٨٦ .

(٩) إذا نظرنا الي حدث واقعي في لعبة ما ، نراه مستقلا جليا ، فكر مثلا في لعبة كرة القدم نرى اثنين وعشرين فرما
 يجرعون وراء كرة جلدية ، هدفهم الوحيد هو ركلمها لها لدخل شبكة من الشبكتين القائمتين في اخر الطرفين
 -المستديلين للهدف- ، وفي لعبة الجولف التي يلعبها أناس ذووقا بضرب كرة ثقيلة الحجم في حفرة بالأرض ،
 وتكون اللعبة أحيانا غريبة تماما عن الأنماط المتأولة في حياة شعب ما ، لدرجة أنها لن تقبل تقايما ذات يوم .
 كما هي حال لعبة كرة القدم في أمريكا الشمالية ، أو كرة القدم الأمريكية في كثير من البلاد الأخرى .

(الإنسان اللاعب) من عناصر اللعب للثقافة بمناقشة هذه المقدمة المنطقية ، وأن اللعب أساسا صفة تعزي الى أهمية الإنسان حيال كون ميكانيكي ، وأنه يتيح لنا تطبيق قدرتنا الفطرية لمعالجة ماجريات حياتنا . ومن منظور كهذا لا يكون اللعب مجرد مجال للهرب من الواقع ، بل يكون بحثا عن عالم منهجي بدرجة أكثر ، متاح لنا فيه فرصة تحقيق التزامن بين إمعاننا ومقاصدنا (١٠) . ولذلك لا بد للقصة الخيالية أن تعتمد على استعارات تمثيلية ، وأن تتوهم ببناء أكثر احكاما متماسك النوافع والاتجاهات ، بل ببناء تقوم خصائصه على الضوابط الموجزة الهادية التي يفرضها النص ومؤلف المياريات على السواء .

وتتخذ جميع المياريات في نطاق زمان ومكان محددين ، وكما تعرف بداية الميابة بانصراف اللاعبين والمشاهدين عن عالم العمل تعرف نهايتها برجعهم الى الروتينيات المنتظمة... مع أن المشهد داخل أرض الملعب ربما يكون قد غير منظوراتهم إزاء أنفسهم واتياعهم وعالمهم ، وعلى الرغم من أن المكان المقيد قد يظهر محدودا من النظرة الأولى فإن إمكاناته تولد بصورة متناقضة سمة الاحساس المتحد للعب . ويسمي أريك ايركسون هذا المكان الجديد بـ "امتداد" للعب . وفي دراسة حديثة عن شخصيات صمويل بيكيت يبرهن أن ثير على أن القوة الدافعة الوحيدة في قلب التمثيلية هي "فتح المكان المغلق وتجربة انعاش الجسد المصاب الدوار (١١) . ويقارن هوينجا ، ساحة التمثيل بالمذبح المكشوف المتصف بسحر المعجزات والأساطير . وأنه مكان ملائم لاقامة الشعائر ، وكون أسطوري ، ويسمي روجر كايلا ، بأنه "مكان طاهر" ، وعلى الرغم من أنه مقيد فإن له سحرا على من بداخل حدوده ، ويتيح ، ويتطلب ، أو يحتمل متغيرات جزئية كثيرة من مستويات السلوك المألوفة ، لكنه يتبع قواعده الراسخة بصورة صادقة ، كما يتبع العالم الخارج عن نطاق التمثيلية الضوابط الهادية للقانون المشترك للوطن .

(١٠) يبرهن أن ثير ، في مؤلفه Words in Reflection ، شيكاغو ، مطبعة جامعة شيكاغو ، سنة ١٩٨٤ ، على

شخصيات بيكيت لعب مباريات للكرة زماعات الفردية . ومن منظور كهذا يبدو اللعب حدثا ميكانيكيا ، حيث يضع اللاعبين أهدافا معينة ، ويؤمنون استراتيجيات خلسة للوصول الى تلك الأهداف . حتى في المياريات التي لعب فيها المساعدة دورا كبيرا يصيب اللاعبين الاحتمالات والمخاطر بدرجة قد تصل الى حد الهزل .

(١١) ثير ، ص ١٥٧ .

(١٢) دوجر كايلا ، Man, play and games ، ترجمة مايير باراخ ، جليتكرا ، إلينوي ، المطبعة العرة ، سنة

١٩٥٩ ، ص ٧ .

وبالمثل فإن البعد الزمني للتمثيلية هو الذي يحدد معناها ومغزاها . فقد تقدم صراعا من واقع الحياة استمر حضرات السنين في ستين دقيقة ، وتحسمه في آخر ساعة الزمن هذه . وربما تحسم حرب دائرة بين الكواكب علي شاشة التلفزيون في ثلاثين دقيقة بحساب نقاط يحوزها ممثلون متنافسون ، ويقال مثل هذا الزمان المضبوط الامتداد الألفي للزمن ، ويتيح إمكانات لا تقدر للزمن الرأسي / المتزامن . كما أن زمن التمثيلية غير حقيقي ، لأنه تحرر من الاستمرارية التاريخية في الزمن العادي ، بل يوجز المشاركين في تمثيلية رمزية هذه "اللا-حقيقة" ، وبهذا التحول يتجاوز الممثلون والمشاركون عن مبدأ السببية ومنطق الزمن ، أي عن (ما هو قبل ، وما هو بعد) ، لأن مسارهم خاضع لقوانين من صنع هذا التحول نفسه، وللانتماء وحده .

ومع ذلك تتوافر للعب الذي ليس له نهاية مطلقة ، أو المفكك البناء ، إمكانية حدوث مفاجآت لا تقارن ، بمعنى أن نتيجته يمكن أن تتعرض لأي حد من التحولات في الفترة الزمنية المحددة . وكما يلاحظ كايلا " أن النتيجة التي تعرف مسبقا دون إمكانية حدوث خطأ أو مفاجأة وتؤدي بجلاء الي نهاية لا مفر منها أمر لا يتسجم مع طبيعة اللعب" (١٣) . والواقع أن عدم التاكيد من نتيجة المباراة هو مصدر متعة بحق . ونحن البشر لدينا حب لحدوث المفاجأة ، بل يكون لدي معظم المشاهدين في حالات كثيرة رغبة خفية في أن يروا من كان يعتقد أنه سيخسر فائزا علي من كان يعتقد أنه سيفوز ، مع علمهم يقينا أن الفريق أو الفرد المتفوق تتوافر ميزات تمكنه من الفوز . وفي تجريتنا للقراءة يري ايزر ، أن ثمة تشوفا مماثلا للمفاجآت ، مثل انعكاس توقعاتنا المنطقية ، وتصورات استمتاعنا الجمالي بالنصوص الأدبية (١٤) . وفي

(١٣) كايلا ، ص ٧ .

(١٤) يقول ايزر : " في التقلب بين التسلية و "التصايف القريبة" وبين للمشاركة في الهم ومشاهدته يتقيد القارئ بلقاء سلبية ترائن خلسة . وهذا هو قوام التجربة الجمالية التي يقدمها النص الأدبي (ص ٢٨٦) ، وبيئت أن "تحول المفردات هذا يضفي نغمة واقعية علي النص ، ويوصل علي ندره من تجربة الحياة ، كانت الرغبة الخفية للمشاهدين في حدوث مفاجأة واضحة في الأحاديث التلفزيونية التي سبقت إقامة مباراة بطولة كرة السلة التي نظمتها الاتحاد الرياضي الجامعي القومي لكرة السلة سنة ١٩٨٥ بين فريق جورجيتاون الذي فاز بالبطولة وفريق فيلادلفيا المتحدي له . حيث هرب انتصار فريق جورجيتاون عن متاعفهم الخفي مع الفريق المهزوم .

الرواية القائمة علي تمثيل سياراة ، يجب أن تكون مثل هذه المفاجآت جزءا لا يتجزأ من الموضوع ، لا أن تكون أدوات لمعالجة التأليف . ونحن نطالب بعقاب من "يحدد" فرصة الفوز في مباراة ، أو الكسب في مزاد ، أو السندات ببيروضة الأوراق المالية ، لأن فكرة المباراة نفسها تقترض إتاحة فرص متكافئة للمتنافسين علي الفوز ، ونحن نتوقع من المؤلف /الراوي أن لا يتدخل في الاستطراد اللطفي ، وأن لا يقلل الرواية التي يبينها علي قوة دافعة كقوة المباراة .

ومع أن قواعد مباراة ما قد تكون مقيدة مثل زمانها ومكانها فانها تسهم في احساسها بالتححر ، لأن تلك القواعد قد وضعها المشاركون فيها ، أو قبلوها قبل دخولهم في عالم اللعبة . وحين تبدو القواعد الراسخة الجذور المتسمة بالحزم غير متناغمة مع ديناميات المباراة ، بعد فترة من الزمن يحق للمؤدي اللامع والمشاهدين الاختيار بين تعديلها أو استبدالها ، وحين تقرر قواعد جديدة يصير علي المتنافسين الالتزام بها .

ولا يمكن أن يوجد اللامع والمشاهدون ، والملاعب ، والقواعد الراسخة للمباراة ، بدون اطار ذهني مشترك لأصولها ، ويعمل علي خصوصية جوها ، وتدعيم سحرها . ويسمي هويينجا هذا الاطار بأنه "فتنة" ناتجة من طريقة اللعب التي يقارنها بصوت تلاوة التعاويذ الذي يسود المعبد ، وينتج منه سحر الطاعة . والمشاركة في اللعب تنطوي علي فرعية ذاتية ، وعلي خداع ذاتي متعمد ، وعلي "تدبذب" يبين النزوع الي مساندة الوهم والميل المضاد الذي يستهدف عدم التوهم^(١٥) . وبالتالي يكون هذا الاطار الذهني محملا بمستويين في الواقع ، ونحن كلاعبين ومشاهدين في الوقت نفسه ، نمارس الواقع الطبيعي العادي الحياة ، مع أنه قد يكون مطلقا وقتيا ، ونمارس واقع اللعب المبتدع المسيطر . وتتأرجح مع جنبة هذين الإدراكين ، لدرجة

(١٥) يرمز دور الحكم الي تتنافس اللعب بطريقة فريدة . وهو رجل القاتنين في المباراة الذي يتلف ويحمي قواعدها . وحين يكون ثمة تلاعب خارجي بعيد عن سيطرة الحكم يتصرف الجمهور تصرفات مضادة للفرق أو اللاعبين . وتعد حالة بروناتج جامعة تولين لكرة السلة في صلب هذا الموضوع . إذ أنه في ظل اتهامات بالرشق وكشط القواطح أدارة البرنامج الذي استمر علي مدى خمسة وستين عاما

أننا نشجع فريقنا فحين بانتصاره . أو يصينا اليأس لهزيمة ، مع علمنا بأننا لا نشاهد
 الا مباراة ، كما يخوض اللاعبون معارك حثيفة حول سفاسف تحدث في أثناء المباراة رغم
 علمهم بأنهم يلعبون وحسب . ووصينا هذا التلذذ نفسه عند قراءتنا لنص من أدب
 القصص الخيالي . لكن الوهم يكون انتقاليا ، وفي الفواصل الزمنية التي نتحقق فيها من
 موقوتية التجربة . وتختفي عبقرية اللعب ، وإطارها الذهني التمثيلي حين تحمل حسابات حياة
 الواقع محل علم اهتمام اللاعبين . وحينما نكتسب لعبة ما ، مخططة أصلا للتباري ، قدرا
 من الجدية المنفعية غير متناغم مع روحها ، تصبح هذه اللعبة واقعا ، وتصمم لعبة تناقسية
 جديدة لترمز الي جوانب اللعب فيها ، وبالمثل فإن تزجية وقت الفراغ البشري حين تصمم بلغة
 اللعب ، تستبطن لها مباراة جديدة لتبهون من نتائجها التي تهدد بالخطر^(١٦) .

وأري أن هذه الأمور الأربعة يجب أن تكون هي السمات المميزة لعناصر التمثيلية، وأسلم
 بأنه حين يستخدم التمثيل أداة بلاغية في قصة خيالية فإنه يحكم ويحدد البناء القصصي
 بفضل مجموعات التوقعات التي يثيرها ويشيعها في أنفسنا . فكيف يساعد تعريف كهذا
 علي قصة خيالية تقوم علي تمثيل-مباراة ؟ يقدم لنا جاك إهرمان نقطة بداية لامتودج نقدي
 لأينية قصصية من هذا القبيل ، ويقسم التمثيلية الي نوعيها العريضين - تمثيلية حركة
 (Ludus)، وتمثيلية لفظية (jocus) - وحتى يقرب أعمال هويوزنجا ، وكايلوا ، وإميل
 بينيفنستي ، يري أن أنواع الواقع المختلفة وطبقة الوجود في تمثيلية تقدم من خلال الأبعاد
 الزمانية والمكانية للعب :

... تقع مسألة التمثيل في كل من تطويل البناء (نظام منطقي يطوق مكانا في حدود
 شكل معين) ، وتطويل مسألة التاريخ (سبب جدلي تواد ديناميته زمنا ما ، كما عاشه فرد أو
 جماعة)^(١٧)

(١٦) يلقد الرياضي المحترف مكانته كلاعب ، لا يلعب الا من أجل اللعب وحده ، علي سبيل المثال ، وذلك أبلغت نماذج
 جديدة لعب تقيم علي احتمائيات دقيقة ، وتستهدف هذه النماذج إكساب اللاعبين والفرق الرياضية قدرا من
 المثالية والقدرة .

(١٧) جاك إهرمان ، Homo Ludens Revisited ، دراسات فرنسية - جامعة يل ، المجلد ٤١ (سنة ١٩٦٨)،
 العدد ٥

ويشمل مفهوم كهذا المياريات والتمثيل في كل من الأدب الواقعي والخيالي ، كما أن ما يعرف في اللغة الألمانية "Bildungsroman" (الرواية التصويرية) والأدب الخيالي "الطوباوي" لا يدعي أي منهما أن ما يعالجه من موضوعات له وضع لا واقعي في نظرية الأديب والنقد ، ويصهر امرمان صلة مثمرة بين القصص الخيالي القائم علي تمثيل- مباراة وبني أنماط الطراز البنئي الذي يرجع الي عصر هرمنجويوس ، ويصير الإغريق الذهبي الذي قننه أرسطو في كتابه "فن الشعر" ويربط تحليله روايات قائمة علي تمثيل -مباراة بالتراث الأدبي للبحث والاكتشاف المتأصلة تاريخيا ويكثر في القصص الخرافي للرحلات - أي في الاغتراب والانفصال البنئي ، والتوفيق بين لهما - في الزمان والمكان حقيقة كان أو خيالا ، كما هي الحال في الأعمال التي اصطلح علي تسميتها "Bildungsromann" بوجه عام.

وباستعمال هذا النموذج نقطة انطلاق ، وريته بالمبدئين القصصيين اللذين اقترحهما تسفيتان تودوروف سوف اقترح انموذجا حركيا لأوضح أن القصة الخيالية القائمة علي تمثيل -مباراة تتبع تصميميا بنائيا مطابقا لعلم البلاغة الكلاسيكي من ناحية الشكل . ويبرهن تسفيتان تودوروف في "المبدئين القصصيين" علي أن القصة الروائية "تحتاج الي تطوير حدث ما ، وإلى تغيير ، وإلى اختلاف " وعلي أن رسالة (أ) الي غير (أ) هي أنموذج التغيير كله. ويمنده أن القصة الروائية بنوعها تقوم علي مبادئ اطراد الأحداث ، وعلي تحويل الشخصيات والمناظر بين الوحدات الروائية ، وبالنسبة للنوع الأول منهما ، وهو الروايات القصصية البسيطة القائمة علي تتابع زمني مرتب للأحداث ، أو علي معلومات موثقة ، يقترح تسميته "أسطوري" ، وبالنسبة للنوع الثاني ، وهو نمط الرواية القصصية الذي يمان فيه مبدأ التتابع بالنمط الثاني لتحويل الروايات القصصية التي تكون أهمية الحدث فيها أقل شأنا من إدراكنا الحسي للحدث ، من ناحية درجة المعرفة التي نعلمها عنه ، تحويلا (توعيا) ، يقترح تسميته «معرفي». وأرسم خريطة عن طبيعة التتابع والتمويل في الروايات القصصية يعين خمسة عناصر لا غني عنها في المثال الذي انتقاء ، وهو عمل بوكاشيو المسمى Swan-Geese story : (١) موقف التوازن في البداية ، (٢) انهيار لهذا الموقف (٣) إدراك لفقد التوازن ، (٤) بحث ناجح عن الشخص أو الشيء المفقود ، و (٥) إعادة توطين التوازن المبدئي . ويتمسك بفن القصة لا بد أن تقوم علي جهل متبوع باكتشاف. وهذا أنموذج رئيسي أيضا للبحث عن الكأس المقدسة التي شرب منها السيد المسيح في

العشاء المقدس . والرواية الرئيسية في كل حالة هي قصة البحث الذي ينتج عنه قصة
روائية (١٨)

ويتسم التمثيل بخصائص مماثلة للبحث سواء عن المتعة الحسية وحدها ، أو عن معني
الحياة في العالم خاصة ، إذا قلبت الأحداث التي لا نجد لها تفسيراً ، ولا نستطيع التحكم
فيها ، توازن الحياة العانية ، ولذلك فإن أنموذج الرواية التمثيلية يعتمد معلي التحويل أكثر من
اعتماده علي التتابع . واللعب يمكن أن يفسره ولا يمكن أن يحل . لأننا حين نحدد مباراة ،
فإننا سوف نخضعها مرغمين لمنطق خارجي غير مرتبط بها . وبطبيعة الحال يجب أن يكون
تحليل المباريات بعد حدوثها بالفعل . وإذا طبقنا مقولة توبوروف عن "العناصر الخمسة التي
لا غنى عنها " علي موقف (تمثيل-مباراة) ، حيث يقدم الراوي التمثيل علي أنه وسيلة
مجازية للحدث الدرامي ، ربما يجب الأخذ بما يلي كمثال في جميع القصص الروائية القائمة
علي تمثيل-مباراة .

عزلة : تهاجم البطل مسائل لاهل لها من الحياة من جميع النواحي ، ينسحب وقتياً من
عالم الواقع للعمل طويماً أو كرها باحثاً عن عالم ملائم . قد يكون العالم الجديد منتسباً الي
ماض يأسر اللب ، يجد فيه سحر الحنين الي الوطن ، والاستقلال المفامر ، أو المستقبل
الباهر ، حيث يخلق عالماً يضفي عليه مثالية لحياة بلا أعباء أو غلوط . وربما تتضمن
رواية ما هذه الأرض الخيالية ، أو تقدمها بصورة خارجية عنها ، فتقع في مجال مجرد
للخيال المحض ، أو تصورها في مجموعة استعارات مرتبطة بالطقوس الدينية عن الواقع
المعوس ، تقحم فيها عن قصد أو يعلو الخاطر .

هروب - مراقبة : يدخل البطل عالم التمثيل . وحيداً أو في صحبة . حيث يواجه
مسائل حياة الواقع ، وهو يعيش الآن ممثلاً كان أو مشاهداً بوعي ثنائي ، الأول هو وعيه
بالعالم الذي خلقه وراءه بقيوده وحدوده ، والثاني هو وعيه بالعالم الجديد الذي وصل اليه ،
حيث تكون قيود جديدة تماماً قد حلت محل القيود القديمة ، وعلي الرغم من أن الحدود
الجديدة تمثل العالم "القديم" بصورة رمزية . وتمتد المباراة علي سطح الزمن : تبقى حياته

خارج المباراة مستترة في الأعماق ، حيث يهيم ماضيه وحاضرة من لحظة الي أخرى .
ويسعى لكي يجد روابط ، ولكي يدرك العالمين بالمقارنة والمقابلة بينهما .

معادلة - تحليل - اكتشاف : يصل البحث عن حقائق متوازنة في العالمين الي مستوى التشوش ، أو المس الأحادي ، حيث يتحرك العمل البدني للتمثيل تجاه حالة ميتافيزيقية، ويتخذ الممثل الاختيار المفضي الي الموت استعدادا للتضحية بنفسه ، إذا كانت حاجة المباراة تستدعي ذلك . ويفترض أن ماله أهمية في المباراة هو التطابق مع ما له أهمية خارجها أو التفوق عليه . ويعمل متيف مباحث ، يعيد البطل اكتشاف عالمه في ضوء جديد ، وتتسم قمة هذه اللحظة العنيفة بصورة أشبه بالزروة للفقد البدني ، والتشوش ، والموت ، أو بتجربة أشبه بالموت ، إما أن يعانيها البطل ، وإما أن يشاهدها كتكتار للمعرفة الجديدة المكتسبة من العالم الخارجي . إنه موت التضحية بالذات ، أو بذات انسان آخر .

صلة - عودة : يبرز البطل من التمثيلية مكتسبا لهنوء جديد حيال عالم الواقع . ويبدو الوهي الجديد صوفيا ، لا عقائليا ، ويبقى غير قابل للتفسير أو التحول . ويصبح جزءا متكاملًا مع وهي البطل . وإذا كانت صنمة المعرفة الجديدة قابلة للاحتمال يصبح البطل شهيد قضية ما . وإذا استطاع أن يمتصها فإنه يقبل العالم بشروط جديدة ، ويصبح زعيما .

احتقال : يعود البطل الي العالم العادي ، ويتراخي معه . ويجرب "ليظة من نوم ، أو من تعويذة سحرية . وحين يكون نجاحه الفردي متزامنا مع نجاح جماهيري هائل ، يحتفل المشاهدون بهذه "الليظة" بتنظيم استعراضات أو مسيرات تجوب الشوارع ، وتحتفي هيئات جماهيرية أخرى بالممثلين . وإذا كانت المباراة خاسرة يستيقظ الممثل كشخص عرضة للحياة أو الموت . والعودة الي العالم العادي ، في حالة كهذه ، يحسب لتجديد سعيد.

ويستعرض ترتيب هذه المراحل الروائية ثوما من الاطراد من صراع البداية حتي حله النهائي وتأتي لحظة الاكتشاف من خلال تقليد رمزي للحياة ، ويكون تمثيلا ، ولا تأتي لحظة الاكتشاف هذه من خلال أنشطة البطل المنتظمة . ومن ثم يبقى الفهم الجديد أقل إبلاما ، وأكثر شائنا بالنسبة للوعي المتغير .

ويمثل هذا النموذج أيضا البناء الروائي علي أنه عملية عكس . حيث تمر رحلة البطل من العزلة الي العودة بتسع مراحل ، الأربع الأولى منها عكس نوعي عند نقطة التحليل ، التي تتصف بفهم حمسي ، وتليها المرحلة الحاسمة للاكتشاف . وربما تقدم الخطة بيانيا علي النحو الآتي :

عزلة ← هرب - مراقبة ← معادلة



تحليل



احتقال → عودة - صلة → اكتشاف

وبالتالي فالعزلة ، وهي تفيد اخفاق البطل في التوافق مع نظام المشاركة في الحياة والقيم ، ويسفر عن انسحابه من مجتمعه المحلي ، ولا ينتهي بالاحتقال وحده ، لكن النهاية تعكس الحالة التي كان عليها في البداية أيضا . وعزلة البطل المفروضة عليه من قبل نفسه ، أو من ابتلائه بمجتمع صارم ، أو تفرضها عليه قوى خارجية بطريق المصادفة ، أو من أثر خدمة وقع فيها - تبدأ بالهرب ، ويكافأ بسخاء عند عودته التي تعد علامة علي قبول المجتمع كبطل أو زعيم ، كما لو كان اللاعب قد أثر التضحية بنفسه من أجل بني جلته . وبالمثل فإن المراقبة المألوفة لطقوس المباريات تتغير الي مراقبة انتقائية خلال مرحلة الصلة ، وتؤدي المعادلة الشكلية الي اكتشاف مفيد بعد تحليل "الممثل-البطل" لتجاربه خلال التبادل الجدلي لنفس "الممثل-التمثيلية" ، واللاتمثيلية.

وبالتالي ، تكون الرواية دائرية ، علي الرغم من أنه ليس ثمة عودة الي البداية بصورة دقيقة . ويبقي التمثيل أداة للبطل ، وممرا تتعطل فيه "واقعية" الحياة الحقيقية عن العمل ، وتكون المبادأة واقعية وبنية أحيانا ، وتمثل علي المستوي الطبيعي ، وتكون مجردة أحيانا ، وتمثل علي المستوي التصوري ، وتكون خرافة اسطورية بعثت من الموت ، وتصور كطقس خيالي في بعض الأحيان ، وتكون أحيانا مقصورة علي الكلمات فقط ، وابتدعت لفظيا

وحسب . لكن تحويل الشخصية من حال الي حال ، وفيدها بالانتماء من الواقع العائلي
وهولتها اليه ، يتبع الأسلوب الجوهري المسرحية والمباريات المناقشة ب الحوار.

سورأ ب - راث

[جامعة ولاية اويديانا]

التعريف بالكتاب

أرنولد برلينت Arnold Berleant

استاذ للفلسفة في C. W. Post Centre بجامعة لونج أيلاند ، نيويورك ، منذ عام ١٩٦٢ . وأمين صندوق جمعية علم الجمال ، وعضو الاتحاد الدولي لعلم الجمال . ومؤلف كتاب "The Aesthetic Field, a phenomenology of Aesthetics Experience" (المجال الجمالي ، علم الظواهرات للتجربة الجمالية) ، وله مقالات عن : جماليات البيئة، وفلسفة الفن ، ونظرية القيمة الأخلاقية الخ

جبرائيل كامبس Gabriel Camps

متخصص في دراسة إنسان البحر المتوسط والانسان الأفريقي في عصور ما قبل التاريخ ، والعصور التي سبقت التاريخ المدون مباشرة ، عهد اليه برئاسة عدد من البعثات العلمية الي مناطق : Tassili N'Ajjer , Hoggar ، وهو المدير السابق لمعهد بحوث الصحاري ، والمسئول عن تحرير موسوعة "البربر" ، وأطلس منطقة البحر المتوسط الفرنسية لعصور ما قبل التاريخ ، وأطلس تونس ما قبل التاريخ

وليم كيم روجرز William Kim Rogers

ولد في ولاية كنتساس الأمريكية سنة ١٩٣٤ ، وحصل علي درجة الدكتوراه في الفلسفة من المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية - نيويورك سنة ١٩٧٠ . اشتغل بالتدريس في جامعات تشاتانوجا ، وأوهايو ، وولاية تينيسي الشرقية . يعد كتابا عن : علم الظواهرات للثقافة.

دايا كريشنا Daya Krishna

قام بدراسات كثيرة في جامعة دلهي ، حصل بعدها علي منح بحثات دراسية الي : الكلية الهندية ، والمعهد الهندي للفلسفة ، والمركز الشرقي الغربي ، وماواي ، ومؤسسة روكفلر ، ويعمل عميدا لجامعة راجستان وأستاذًا بها ، ألف كتاب : نظرة نحو التغيير الاجتماعي ، وكتاب : التغيير الحديث... الخ . ونشرت أبحاثه في الفلسفة ، وعلم الاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والأدب بالمجلات الأمريكية ، والانجليزية ، والإيطالية .

جريجوري كلايز Gregory Claeys

ولد في باريس ، وتعلم بجامعة ماكجيل (مونتريال) ، وكمبرج (دكتوراه في الفلسفة لتاريخ الفكر الاجتماعي والسياسي ، سنة ١٩٨٣) ، يعمل أستاذًا بجامعة واشنطن - سانت لويز ، يتركز اهتمامه في مجال تاريخ الأفكار ، وثقافة الطبقة العاملة ، والمشكلات التي تدعيها الدولة والتدخل... الخ . يعد دراسة عن الفكر الاقتصادي الانجليزي في القرن التاسع عشر ، ودراسة عن الآلة ، والمال ، والعصر الألفي السعيد (الذي سيملك فيه المسيح علي الأرض)

هانز أوارخت جومبرخت Hans Ulrich Gumbrecht

ولد سنة ١٩٤٨ ، ودرس في ميونيخ ، وريجنسبيرج ، وسلامانكا ، وإلميا ، واشتغل بتدريس فقه القصة الخيالية في : بوخوم ، وريديني جانينو ، وويركلي ، ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس . بدأ تكوينه الثقافي في مدرسة Robert Jauss ، المعروفة باسم "School of reception" ، لكنه سلك طريقا شخصيا قربه من علم التاريخ ، وتاريخ المفكرين بوجه خاص ، الي جانب اهتمامه بأساتذة الرواية الخيالية الألمانية . ألف كتابا عنوانه : UNE HISTOIRE DE LA LITTÉRATURE (تاريخ الأدب) ، كان مقدرا نشره بواسطة SUHT KAMP ، سنة ١٩٨٧

سوراب . راث Sura P. Rath

من أصل هندي ، درس بجامعة تاون ، وتكساس ، ويدرس الآن في جامعة ولاية

لويزيانا - شريفبورت - شارك في تأليف كتاب باسم "Anatomy of Finance"

Terms" (تفريغ المصطلحات المالية) ، ويقوم الآن بأعداد عمل عن جاليات التمثيل

والمجاريات

مجلة ديوجين
العدد الواحد والثمانون
مايو / يوليو ١٩٨٨

فى هذا العدد

- أنظمة اللغة ومبادئ إعادة المصياغة فى علم اللغة
بقلم : ت . ف . جامكريلدنز وف . لب . إيفانوف
ترجمة : الدكتور على على شعبان
- الترجمة : وعالم اللغة ولقاء الثقافات
بقلم : كلود ماكيج
ترجمة : أحمد عمر شاهين
- تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها
بقلم : س . ا . ورم
ترجمة : أمين محمود الشريف
- تطور لغات البديجان فى المحيط الهادى
بقلم : بيتر موهلها وسلر
ترجمة : الدكتور محمود العزب
- اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم
بقلم : ألين بنتوايلا
ترجمة : الدكتورة فاطمة خليل الدسوقي
- المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية
بقلم : لوك بوكيو
ترجمة : أحمد رضا محمد رضا
- توصيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة
بقلم : ويليام موهلج
ترجمة : الدكتورة سامية أحمد أسعد
- إسهامات نظرية فى علم الاجتماع اللغوى وتطبيقاتها فى دراسة التعدد اللغوى مع
إشارة خاصة عن غرب إفريقيا
بقلم : جيردا منصور
ترجمة : محمد جلال عباس
- التعريف بالكتاب

المقالات المنشورة في مجلة ديجيتال السيف تميز بحرية عن أكثر الأفكار تنوعا واختلافا ،
لا يعتبر الناشر ولا هيئة التحرير مسئولين عنها بأي حال من الأحوال .

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة فى علم اللغة

١ - اللغة : نظام الرموز

يمكن التفريق بين مستويين فى بنية أى لغة بوصفها نظاما رمزيا وهما مستوي التعبير ومستوى المضمون* ويتحدد بالتالى كل رمز فى اللغة بالتقاء هذين الجانبين. وهناك تفرق بين اللفظ ودلالته أو الدال والمدلول اللذين يقابلان هذين المستويين من اللغة. وتتحدد العلاقات القائمة بين الدال والمدلول فى الرموز اللغوية. بتحديد العلاقات القائمة بين التعبير والمضمون. والسبب وراء الطبيعة المعقدة للرمز اللغوى فى العلاقات بين الرموز على مستوى التعبير ومستوى المضمون.

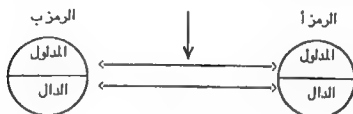
ويكون الرمز اللغوى تعسفيا حين يقصر نفسه على العلاقات 'الرأسية' أو بتعبير أدق تنقسم الصلة التى تربط بين الدال والمدلول يكونها تصفية لا منطق وراها. ولكن المنطق قائم جزئيا بين الرموز فى علاقاتها الأفقية أى فى العلاقات بين الدال والمدلول للرموز

* هذا المقال المترجم هنا يمثل الجوانب الأساسية فى مقدمة مجلدى جامكر بلدز وإلفانوف بعنوان اللغات الهندو أوروبية والهند الأوربيين (باللغة الروسية) وقدم له رومان ياكوبسون بجامعة تيليس ١٩٨٤. (ترجمه من الروسية: سكوت والكر).

للترجم : نكتور على طى شميان. أستاذ مساعد بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر.

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

اللغوية المترابطة. وذلك لأن طبيعة العلاقات بين العنصرين الدالين كالتشابه أو الاختلاف في البنية الفونولوجية تتحدد - إلى حد ما - بالعلاقات بين العنصرين المدلولين لهذه الرموز في النظام الكلي (جامكريليدز ١٩٧٤، انظر الشكل رقم ١).



الشكل رقم (١)

ومستوى التعبير للرموز اللغوية له بناء داخلي معقد، إذ أن رمز اللغة المنطوقة ليس عنصرا بسيطا (مجرد صوت) ولكنه مزيج من الأصوات منتقى من بين كل أصوات اللغة، وذلك يكون العنصر الدال في الرمز اللغوي بنية هرمية داخلية وهي البنية المزدوجة للغة. ويساعد توزيع الوحدات المنطوقة للرموز الملموسة في اللغة وانتقاء هذه الوحدات من بين باقي الأصوات في التعبير عن رموز ملموسة عن طريق نحو اللغة.

وبما أن الرمز اللغوي يتركب بهذه الطريقة فإن اللغة يمكن أن تخلق سلسلة لا متناهية من الرموز باستخدام عدد محدود من الفونيمات (الوحدات الصوتية) وتجميع هذه الفونيمات معا طبقا لنظام معين يجعل تكوين العبارات الصحيحة نحوريا في أية لغة أمرا ممكنا^(١).

والنظام الذي يشمل رموزا ناتجة عن تجميع الفونيمات بكل الطرق الممكنة نظريا (حتى ولو كانت هذه التجمعات محدودة الطول) يمكن أن يسمى نظاما (متكاملا) في حين يسمى النظام الذي لا يستغل كل التجمعات الممكنة نظريا من العناصر ليكون رمزا يسمى نظاما "ناقصا" يتخلله قدر معين من العواشى أو الزيادات. ويمكن أن يقال إنه نظام تستبعد منه بعض التجميعات نتيجة للقيود المفروضة عليه. والتجميعات المقبولة في مثل هذا النظام هي

١ - البنية المزدوجة للرمز اللغوي هي ملمح من ملامح اللغات البشرية وليست ملمحا من ملامح نظام التواصل عند الحيوان. نظام التواصل عند الحيوان يقرم على الرمز (إشارة لتكوين أولى يتكون عادة من عنصر مفرد (هوكيت ١٩٥٨، بنفست ١٩٦٦). ولذلك يتحدد عدد الرموز في هذه الأنظمة بعدد العناصر المختلفة. وحيث إن إخراج هذه

التي تحدد بنية مستوى الشكل بالنسبة للرمز.
واللغات الطبيعية هي نظام "ناقص" من هذا النوع، إذ أن بها قدرا كبيرا من الزيادات التي تسهم في كفاءتها كوسيلة تواصل. وهذه الخاصية في اللغة هي التي تسوغ التغير في البنية الصوتية للغة على مر العصور.

والتغير في الفونيمات - مثل فصل اندماج فونيمين كان اندماجهما قائما في مرحلة سابقة من مراحل تطور اللغة - أمر ممكن في حدود زيادات هذا النظام اللغوي الذي يحدد مدى إمكان حدوث هذه التغيرات.

دعنا نتخيل نموذج ما يسمى بالنظام الكامل الذي يمكن تخيله نظريا والذي لا تستبعد منه أي تراكيب حيث إن كل التراكيب النظرية لعناصره تعد رموزا. والتغيير في أي تتابع فونيمي بإحلال تتابع فونيمي آخر محله يؤدي بالضرورة إلى تغيير في كل تتابع فونيمي، ويتمخض ذلك عن تجنب مزج الرموز وتجنب التشابه التام في اللفظ دون المعنى أو تحريف المضمون.

ولكن تغيير النظام الفونولوجي في الأنظمة "الناقصة" التي بها قدر من الزيادات لا يؤدي إلى مزج الرموز. وبذلك تصبح هذه التغيرات ممكنة. وهذا يفسر حقيقة كون اللغات لا تنتهي على التغيير وأن التغيرات الفونيمية عبر التطور التاريخي أمر ممكن.

٢ - تفسير التشابه بين الرموز في الشكل والدلالة في اللغات المختلفة وفكرة اللغات المنبثقة من أصل مشترك.

حين يوجد تشابه في الشكل والدلالة في لغتين أو أكثر على مستوى الشكل والمضمون في وقت واحد يثير التساؤل - بطبيعة الحال - عن أصل هذا التشابه. ويمكن تفسير هذا التشابه المتمثل في تطابق الجانب الصوتي وتطابق الجانب الدلالي للرمز في اللغات المختلفة بوصفه نتيجة لاندماج بعض الرموز عن طريق المصاافة.

العناصر المتعارضة بعضها مع البعض محدود نفسها وعرضيا فإن عدد الرموز بالتالي محدود نسبيا . والممكن الوحيد في هذه الأنظمة هو التراكيب النحوية ، أي إخراج العبارات المكونة من رموز ملحوسة عن طريق مزج هذه الرموز بعضها مع بعض وتكرين تركيبات أطول .

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

ويمكن التسليم بأن التقاء عوامل المصادفة البحتة أدى إلى حقيقة وجود كلمات عديدة متشابهة صوتياً ودلالياً في لغتين أو أكثر. وأنه لمن الممكن أيضاً أن نأخذ في الحسبان احتمال تدخل عوامل المصادفة في تحديد طول كلمتين أو أكثر في لغتين أو أكثر (بوليفانوف ١٩٣١ ص ١٨٠ - ١٨١، جرينبرج ١٩٥٧ ص ٢٥ ومابعدها).

تقل نسبة احتمال المصادفة في التقاء الرموز بزيادة عدد اللغات التي يكتشف فيها تشابه الرموز، ويكون مثل هذا الاحتمال أقل عند زيادة عدد الرموز. وإذا اكتشف عدد كبير من العناصر المندمجة (ن) - فيما بين ٢٠ أو ٣٠ أو أكثر - في س من اللغات (س ترمز إلى لغتين أو أكثر) فإن نسبة احتمال المصادفة تتعدى في الواقع. وهناك يجب أن يقدم افتراض آخر (من الضروري أيضاً أن نأخذ في الاعتبار حقيقة أن احتمال تصادف الالتقاء يتضائل بناء على طول الكلمات المتشابهة، إذ إنه كلما زاد طول الكلمات قلت نسبة احتمال الالتقاء عن طريق المصادفة).

وهناك افتراض آخر أكثر قبولا يفسر تشابه الرموز في لغتين أو أكثر وهو أن هذا التشابه ناتج من التقاء اللغات تاريخياً وافتراض لغة ما بعض الكلمات من لغة أخرى (أو من عدة لغات) أو افتراض لغتين من لغة ثالثة.

ولكن كل مقاربات التشابه الشكلية والدلالية للرموز في لغتين أو أكثر لا يمكن أن يفسر بظاهرة الافتراض.

هناك نمط من التشابه بين رموز اللغات لا يمكن تفسيره بافتراض لغة من لغة أخرى، وهو يتمثل في التوافق الفونولوجي المطرد بين الرموز المتشابهة. ويفترض هذا النمط من التشابه وجود علاقات بين أنظمة اللغات الفونولوجية تتمحور عن أن كل فونيم x في اللغة A يتطابق مع الفونيم y في أحد رموز اللغة B صوتياً ودلالياً. ويتطابق الفونيم z مع كليهما في نفس الرمز في اللغة S وهكذا. وإذا تطابق الفونيم y في اللغة B مع الفونيم x في اللغة (أ) فإن موضع هذين الفونيمين بين الفونيمات الأخرى يمكن أن يفسر هذا النطاق.

وعلى أي الحالات يمكن الجزم بأن الفونيم x في اللغة A يتطابق مع الفونيم y في اللغة B في كل المواضع.

وتدلل مجموعات الكلمات والمورفيمات التي تعبر عن الأفكار الأساسية والبيئة الإنسانية على هذا النمط من العلاقة بين اللغات.

وحين توجد حالات من التشابه المطرد من هذا النمط بين الوحدات الصوتية للغات موضع التحليل فإنها لا يمكن تفسيرها بشكل مرض عن طريق تصادف التتابع الصوتي والدلالي لهذه الكلمات ولا عن طريق افتراض لغة من لغة أخرى ولا عن طريق الافتراض من لغة ثالثة.

والتفسير الوحيد المحتمل لهذا النمط من التشابه بين الرموز في اللغات المختلفة هو تقرير وجود أصل مشترك للنظمية اللغوية. وبهذه الطريقة يمكن التسليم بأن هذه النظمية تنفرد عن نظام مشترك تطور في عدة اتجاهات.

وفي ضوء هذا التفسير يبدو أن العلاقات بين النظم الصوتية للغات من الناحية التاريخية - مثل تلك العلاقات التي أشرنا إليها آنفا - نتجت عن تغيرات حدثت للوحدات الصوتية الأصلية وبعد أن تنكست اللغة الأصلية إلى لهجات تحول الفونيم x في هذه اللغة إلى الفونيم x في لهجة ما وإلى الفونيم y في لهجة أخرى وإلى الفونيم z في لهجة ثالثة، وهكذا. ويتضح جليا عند مقارنة هذه اللهجات أن هذه الفونيمات تنحدر من أصل واحد.

ويتصنيف هذه الفونيمات إلى مجموعات تمثل ملامح صوتية يسهل أن نتصور أن التغيرات التي حدثت للفونيم الأصلي x في اتجاهات متعددة يمكن أن تكتمل باستبدال ملامح أو أكثر بملامح آخر أو أكثر.

ومن السهل أن نرى - بافتراض حدوث مثل هذه التغيرات على الفونيمات الأصلية في اللغة ل- إن فونيمات اللهجات أ و ب و ج المنحرفة من هذه اللغات متقاربة صوتيا، وهذا هو ما يدل على تشابهها الذي يثبت تاريخيا.

ويحدث التغير في الفونيمات الأصلية في حالات معينة بحيث تحتفظ بكامل ملامحها دون استثناء. وبذلك تتميز فونيمات معينة في تلك اللهجات التي قورنت بتطابقها الصوتي الذي يعكس كل ملامح الفونيم الأصلي (٢).

٢ نظام التوافق الصوتي بين اللغات ذات الأصل الواحد يحتوي أيضا على عناصر متطابقة بعضها مع البعض. وبالتالي من المحتمل أن يحتوي عنصران متطابقان في لغات مختلفة على فونيمات متطابقة مما ينتج عنه تطابق تام في الشكل. وفي هذه الحالة يمكن أن يحدث نوع من الشك في الأصل الأول لهذه الأشكال المتطابقة وفي إدراجها في فصيلة الرحلات المعجمية المتطابقة. وهنا يسر تقديم افتراض بديل

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة فى علم اللغة

وبذلك فإن "التشابه" بين الفونيمات المتقابلة التى تنحدر من أصل مشترك - إذا كانت هذه الفونيمات ترجع إلى وحدة فونولوجية مشتركة - يتراوح بين التطابق التام والاختلاف الكبير فى كل الملامح الصوتية (وهذا يفترض إبدال ملمح أو أكثر من الملامح الأصلية).

ومن منطلق هذا التفسير يجب أن تدل كلمة "تشابه" على التوافق المطرد بين الفونيمات لا على التماثل أو الاختلاف فى الشكل الصوتى للرموز فى اللغات المختلفة التى تنحدر من أصل مشترك.

وفونيمات اللغات ذات الأصل المشترك التى قورنت بتشابه صوتيا. وهذا يعنى أنها تتطابق فى كل ملامحها أو أنها تختلف فى ملمح أو ملمحين. وهذا هو ما يحدد تقاربها الصوتى.

وتدل هذه الوحدات الصوتية المتقاربة التى تنحدر من وحدات فونولوجية مشتركة دلالة واضحة على التشابه بين رموز اللغات المختلفة المقارنة. وهذا التشابه الذى ثبت تاريخيا هو الذى يساعد على الجزم بأن هناك أصلا مشتركا لهذه اللغات.

ومع ذلك يمكن لهذا النوع من التشابه بين اللغات ذات الأصل المشترك أن تؤثر فى الفونيمات ذات المظهر المتباين المشتركة فى قليل جدا من الملامح المميزة.

والتشابه بين هذه العناصر بمعنى التطابق المطرد بينها يمكن أن يثبت من الناحية التاريخية ، ولكن الفضل يرجع إلى الأشكال التى تمتزج فيها هذه العناصر مع غيرها من العناصر التى تتميز عنها بالحد الأدنى من الملامح وإن كانت تتطابق معها صوتيا.

حول ظاهرة الافتراض بين لغتين أو افتراض لغتين من لغة ثالثة .
وليس هناك معيار شكلى ييسر التوصل إلى حل قاطع لهذه المشكلة . ولكن طول الفونيمات فى الكلمات التى أجري عليها البحث يصلح أساسا لتحديد إمكانية تقديم حل أو آخر . ويحتمل أن تكون الكلمات غير القابلة للتحليل مقترضة . وعلى الجانب الآخر يجعل التركيب الفونولوجى لهذه الوحدات المعجمية اعتبار كونها مقترضة من لغة أخرى ويفسر توافقها الفونولوجى . ومن المحتمل أن يحترق هذا النوع من الكلمات على فونيمات لها ميل فى اللغة المقابلة . وكلما طالت الكلمات قل احتمال كونها أصلية أو أن لها مثيلا مطابقا من وجهة نظر الدراسات الصوتية . وعلى هذا الأساس ينبغي أن نعتبر أن الكلمات الهندوأوروبية ونظائرها الكارتيفالية هى تطابقات معجمية مأخوذة من النموذج المعجمى القديم، وليست افتراضات .

ويلون هذه العناصر الأخيرة يصعب بل يستحيل أن نتكلم عن "التشابه" أي عن التطابق المطرد بين العناصر الدالة في اللغات المختلفة التي يمكن - في التحليل النهائي - أن تكون ذات أصل مشترك.

إن يمكن أن نقبل نظريا وجود لغات ذات أصل مشترك أو تكون - بكلمات أخرى - نتاج تفرق المجتمع اللغوي الذي يصعب تحديد أشتاتة. ويصعب تحديد ذلك لأن ما نفتقده في هذه اللغات هو التشابه الصوتي الواضح بين رموزها ويمكن أن يكون الأصل المشترك لهذه اللغات بعيدا فتكون العلاقة بينها أنثى نتيجة للتغيرات الكبيرة أو التبديل الكامل أحيانا للملامح المميزة في الأصل اللغوي(٣).

وبما أن بعض الحقب التاريخية تشهد اختفاء عدد معين من الكلمات من المفردات أساسية يمكن أن نتخيل أن كل الكلمات والعناصر النحوية المشتركة أساسا قد سقطت في فترة ما من فترات تاريخ اللغات ذات الأصل المشترك. وعندئذ يستحيل الكلام عن وجود أي علاقة بينها.

والعلاقة القائمة على التطابق المطرد بين فونيمات اللغة المختلفة - وهو تطابق يعول عليه عند تقرير أن هذه اللغات ذات أصل مشترك - يمكن أن يبرهن عليها بالكلمات المعروفة أنها مقترضة. ويمكن أن يكتشف التطابق المطرد أحيانا في الأنظمة الفرعية لنفس اللغة عند مقارنتها بلغة أخرى (أو بمجموعة من اللغات).

ويفرق عموما بين هذه النظم بناء على كلماتها ووحداتها الصرفية. فالنظام الفرعي س ١ (المحدد فونيمات متطابقة تشير إلى أصل مشترك) يحتوى بالضرورة على كلمات ووحدات صرفية ولواحق نحوية أساسية. في حين نجد أن أبرز ملامح النظام الفرعي س ٢ هو الكلمات الثقافية التي تختلف باختلاف عصورها.

٣ - مشكلة تراشق الفونيمات في أنظمة متباعدة صوتيا - وإن كان يمكن إثبات تفرعها عن أصل واحد - ينبغي أن تعزى أساسا إلى وجود علاقة فونولوجية متبادلة بين المجموعات الصوتية المتمثلة في الرمز ونظائرها الدلالية دون اعتبار للتشابه أو الاختلاف الصوتي الظاهري . ويمكن أن يتم ذلك بتصنيف عدد كبير من الحالات المتقاربة في مجموعة من اللغات . وهذا يمكن تحقيقه عن طريق استخدام بعض برامج الكمبيوتر .

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

من الواضح أنه يمكن أن نضع قائمة بالوحدات الدلالية المشتركة بين كل اللغات والتي تميز الوحدات المعجمية في النظام الفرعي س ١ والتي لا توجد في النظام الفرعي س ٢.

في الحالة الأولى تقتضى هذه التطابقات أصلا مشتركا للأشكال المتجاورة التي تتحدر من أصل أولى، في حين تعزى التطابقات المطردة للفونيمات في الحالة الثانية إلى ظروف اقتراض لغة من لغة أخرى.

وكثيرا ما تكتشف عدة أنظمة فرعية من التطابق بين عناصر اللغات المختلفة، وهذا يسير استنتاج أن لغة ما اقترضت من لغة أخرى في فترات مختلفة. ومع ذلك فلن يوجد في النظام الفرعي س ١ إلا شبكة فردية من التطابق مع اللغات الأخرى تتوافق فيما بينها فونولوجيا.

ولكن عادة عامة يحتوى س ٢ على عدد من الأشكال أقل مما يحتويه النظام الأساسي س ١. وهذا يعني أنه يمكن عزل عناصر النظام س ٢، أي العناصر المقترضة. ورغم ذلك فإن النمط س ٢ من كل الأنظمة الفرعية يمكن أن يحتوى في الأمثلة الفعلية على عناصر أكثر مما يحتويه النمط س ١ من النظام الأساسي. وهذا لا يمنع أي نظام فرعي من النمط س ٢ من أن يحتوى على عناصر أقل من الوحدات المعجمية ومشتقاتها التي يحتوى عليها النمط الأساسي س ١. وتمكس مجموعات الوحدات المعجمية في النمط س ٢ من النظام الفرعي الاقتراض من لغات مختلفة أو من لغة واحدة في فترات مختلفة (٤).

من الممكن إذن أن نعمل من أية لغة مجموعات معجمية من هذا النمط لنؤكد التطابق الفونولوجي بينها وبين لغات أخرى مصنفة بذلك مفرداتها إلى أنظمة فرعية. وستحتوى بعض هذه الأنظمة الفرعية على ما يسمى بالكلمات الأساسية التي تظهر التطابق الفونولوجي مع بعض اللغات الأخرى. ويبيشير هذا التطابق عندئذ إلى وجود أصل مشترك لهذه اللغات.

٤ - يمكن أيضا التفريق بين النظم الفرعية للاقتراض من لغات مشتركة والاقتراض من لغات غير مشتركة. وتظهر في الحالة الأولى بعض النظم الفرعية لعلاقات متبادلة بين اللغة المقترضة على فرض وجود نظام فرعي أولى للعلاقة س ١ بين لغتين، هذا النظام الفرعي يعكس الأصل المشترك بينهما. وفي الحالة الثانية لن يكون هناك نظام فرعي للعلاقة المتبادلة من النمط س ١ بين اللغتين.

وسيحتمل الجزء الأكبر من المفردات - الجزء المتبقى بعد عزل المجموعة الأساسية - على الكلمات التي ظهرت في اللغة في وقت لاحق بعد أن انفصلت اللغة عن أصلها واحتكت بلغات أخرى على مر التاريخ.

وقد تسبب الاتصال المستمر والمكثف بين اللغات في عديد من الحالات في انتقال المفردات من لغة إلى أخرى خلال فترات طويلة من ثنائية اللغة. ومن الممكن أيضا أن يكون قد تم اقتراض أنماط من العلاقات بين الكلمات والعبارات أو بين الوحدات الصرفية والكلمات. وكل هذا يؤدي بطبيعة الحال إلى أن تتشابه تراكيب اللغات المتواصلة. وهذا التشابه التركيبي يمكن أن يعرف بأنه « علاقة ثانوية مكتسبة » (انظر علاقات التغير التاريخي بين اللغات تبعا للمفهوم الذي يعطيه تسيير يتلى لهذا المصطلح allogetic (1968).

وعلاقات التغير التاريخي allongenetic يمكن وجودها بوضوح بين حين يوجد تشابه بين قواعد توليد النظم اللغوية المتصلة وحين يظهر نمط مشترك لتوليد الأنظمة تتجلى فيه الأنظمة الأولية لهذه الأنظمة المتصلة. وهذا النوع من الاتحاد في توليد الأنماط يسهم في خلق تشابه في الطراز اللغوي بين الأنظمة المتصلة أكبر من التشابه الفردي مع النظام الأول الذي انحدرت منه.

وليس هاما فحسب أن نأخذ في اعتبارنا علاقات التغير التاريخي هذه بل أيضا من المهم أن نأخذ في اعتبارنا مجموعات اللغات الجغرافية التي اجتمعت في « وحدة لغوية » تضم لغات ذات أصل مشترك ولغات أخرى ذات أصول شتى.

فاللغات ذات الأصل المشترك يمكن أن تكون قد جاءت كلها من أصل واحد، وبذلك تكون قد تجمعت من جديد بعد فترة طويلة الانفصال، والفضل في ذلك يعود إلى عوامل التوحيد الجغرافية (مثل لغات اتحاد البلقان أو لغات الحدود في المنطقة المكونة من لوتوانيا وبولندا وروسيا البيضاء الخ. انظر ياكوبسون 1971). ويمكن التقريب بين ثلاثة أنواع من اتحاد اللغات جغرافيا : اتحاد اللغات ذات الأصل المشترك (مثل الاتصال بين اللغة الاسكندنافية والانجليزية القديمة)، واتحاد اللغات التي ليس لها أصل مشترك (أوزيك وتاجيكي : انظر بوليانوف 1968)، واتحاد اللغات ذات الأصل المشترك مع غيرها من اللغات المتعددة

الأصول، وهي تمثل معا اتحاديا لغويا فريدا جدا (مثل العلاقة بين اللغات الارمينية والابوسيتيكوالكارتيالية).

٣ - مشكلة النظام اللغوي المشترك وطرق إعادة الصياغة. وتحقيق طرز النماذج المعاد صياغتها.

حين يفسر تطابق الفونيمات بوجود نظام لغوي أولى يمثل أصلا مشتركا للغات فإن هذا التفسير يفترض أن ذلك النظام قد أعيدت صياغته. ولتحقيق هذا الهدف لابد من دراسة نشأة ومسار التغيرات التي طرأت على هذه اللغات التي ثبت تاريخيا أنها ذات أصل مشترك.

ومقارنة اللغات التي تركز على التطابق بعد الفونولوجي المطرد تتضمن منطقيا "إعادة صياغة نموذج للغة". ولقد خلقت لنا التعديلات التي طرأت على هذا النظام أنظمة لغوية ثبت اتصالها تاريخيا. ومع ذلك فإن مقارنة اللغات ذات الأصل المشترك التي لا تركز على إعادة صياغة النظام الأولى لا يمكن اعتبارها مرحلة محددة في تاريخ هذه اللغات (انظر ساسور ١٩١٥ ص ٢٩٩).

يمكن إعادة كتابة تاريخ اللغات ذات الأصل المشترك تحت عدة ضوابط. بداية كل الاختلافات في التراكيب اللغوية ذات الأصل المشترك ينبغي أن ترد إلى النماذج الأولية العامة. ثم بعد ذلك يكون من الضروري إعادة كتابة المسارات التي سلكتها هذه اللغات منذ نشأتها وعبر تطورها من مراحلها الأولية وحتى مراحلها الحالية.

ويثير هذه الاتجاه في مقارنة اللغات وإعادة ترتيب علاقاتها مشكلة إعادة صياغة النظام اللغوي الأولى والطرق التي ينتهجها علم اللغة (انظر بيرنبوم ١٩٧٧).

يمكننا أن نفترض أن النظام اللغوي الأولى الذي أعيدت صياغته صياغة لغوية ينتج تقريبا نظاما لغويا سبق وجوده زمانا ومكانا وتحلل فيما بعد إلى لهجات ذات أصل تاريخي واحد.

وتيسر مقارنة هذه اللهجات استنتاج نماذج تركيبية تعيد إنتاج النظام اللغوي المفترض وجوده نظريا.

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

وخلال عمليات إعادة الصياغة يبرز مفزى فريد تتسم به طريقة إعادة الصياغة الداخلية، فهذه الطريقة تقتض أن عناصر النظام اللغوى مترابطة وترجع إلى التراكيب الأولية عندما تتسم بأنها يمكن إحلال واحد منها محل الآخر.

وكل مستوى من مستويات اللغة يمكن اعتباره باقة من النظم الفرعية المرتبطة ببعضها بعض. فعلى المستوى المعجمى - طبقا للملامح الدلالية المشار إليها أنفا - يمكن استخلاص كل مجموعات الكلمات الأساسية التى تعبر عن الأفكار الأولية المشتركة بين كل الثقافات. أما من حيث الشكل فإن طبيعة هذه الكلمات تتحدد بالعلاقة بين اللغات ذات الأصل المشترك التى تمثل هذه الكلمات جزءا منها. وداخل النظام يمكن تمييز هذه الكلمات التى استحصلت لمواقف معينة يلامحها الفونولوجية والصرفية التى تفرق بينها وبين غيرها من مجموعات الكلمات الأساسية. وهذه الملامح الواضح أنها ممتدة - تصلح أساسا لإعادة الصياغة الداخلية ؛ فهى تجعل من الممكن إعادة تشكيل هذه الفترة من التاريخ اللغوى التى كانت فيها جزءا من القاعدة وليست من الشذوذ، القاعدة التى انتجت خطوات منتجة. وتبدو هذه الخطوات من وجهة نظر علم اللغة التاريخى وكأنها محدثة.

واستخلاص مثل هذه الأنظمة الفرعية الممتدة يمثل أحد أعمدة مقارنة اللغات.

وتبرز مشكلة المنهج عند إعادة صياغة النماذج اللغوية الأولية. ما مدى واقعية النماذج المعاد صياغتها ؟ إلى أى مدى تتطابق مع النظام اللغوى الأولى الذى تفرعت عنه لهجات وجدت فى وقت ما ومكان ما ؟

إذا قبلنا افتراض كون إعادة الصياغة هذه حقيقية واقعة فإنه يمكن أيضا أن نقبل بعض المبادئ المنهجية المعينة التى تؤدى دورا فاصلا فى الأبحاث المقارنة والتاريخية. وهذه المبادئ وثيقة الصلة بمناهج دراسة الطرز اللغوية (Linguistic typology) وبمناهج اكتشاف الكوينات اللغوية (linguistic universals) (وهى أيضا تسمى "ferquentials"، كما سماها سيرير بينيكوف ١٩٧٤). بعد ذلك يمكننا أن نعتبر أن اللغويات التاريخية والمقارنة التى أرسيت روابط الصلات بين مجموعات من اللغات والتى تفتقر ض أن نماذجها الأولية قد أعيدت صياغتها تتحد مع المنهج الذى يسعى لاكتشاف أنماط اللغات والكوينات اللغوية.

ونماذج النظام اللغوى الأولى - فى كونها قد أعيدت صياغتها وفى كونها قد أفرزت لغة سادت فى وقت ما ومكان ما - ينبغى أن تتطابق مع القواعد الكونية التى أرسيت مبادئها

على أسس طرازية. وليس مهما على الإطلاق أن تكون هذه القواعد قد أرسيت بطرق استقرائية أو استنباطية من عدد معين من تراكيب لغوية مختلفة تمت مقارنتها.

وإعادة الصياغة التي تتعارض مع الكينيات اللغوية لا يمكن بالطبع أن تؤخذ على أنها نتاج نظام لغوي وجد في فترة من فترات التاريخ (٥). ومع ذلك فإنه إذا تطابقت النماذج المعاد صياغتها مع الكينيات اللغوية الثابتة في الدراسات الحالية لن يكون هذا كافيا للجزم بوقوع إعادة الصياغة هذه، ولا لإثبات وجود نظام لغوي ملموس يؤخذ على أنه النظام الأولي لمجموعة من اللغات ذات الأصل المشترك. وهناك شروط آخر على قدر هذا الشرط من الأهمية. ويجب أن تتطابق النماذج المعاد صياغتها مع المادة الطرازية الوصفية أي مع أنماط التغيير العامة في التراكيب اللغوية في وقت معين أثبتته دراسة الحقائق الملموسة في تاريخ كل لغة على حدة (٦).

ويمكن أن نعتبر أن النماذج اللغوية المعاد صياغتها "حقيقية"، بشرط أن يتوفر فيها معياران طرازيان، أحدهما أن تتطابق مع الكليات الطرازية الوصفية، والثاني أن تتسجم مع الكليات الطرازية التاريخية، أي مع أنماط التغيير والتعديل العامة في اللغات. وهذان المعياران - في غالب الظن - ضروريان وكافيان للجزم "بحقيقة" النماذج المعاد صياغتها بمعنى التراكيب التي تعيد إنتاج نظام سبق أن وجد في الزمان والمكان.

يصبح التحقيق الطرازى بذلك أحد الأسس في استنباط التراكيب اللغوية الأولية، وهو ضروري لإثبات احتمال وقوعها.

ويمكننا أن نعتبر أن "قواعد الحساب" التدريجية التي تستخدم للوصول إلى اللهجات الثابت تاريخيا تقرعها من نظام لغوي أولى هي في الحقيقة مصوغة كوصف لطريقة نشأة

٥ - لا يعقل علم اللغة الطرازى رسالة لإثبات احتمال إعادة صياغة النماذج اللغوية، ولكنه يمثل غالبا الأساس لاستنباط حلقات الربط المفترقة بين التراكيب اللغوية. على سبيل المثال ليس من الممكن أن نعيد صياغة بعض الملامح المميزة في كثير من الحالات (بعد ملء المقطعية للفونيمات المحلية فقط). وأنه لمن المستحيل أن تعاد صياغة سلسلة الملامح المميزة كاملة دون الرجوع إلى مجالات علم اللغة التاريخي والمقارن أو بدون استخدام بهانات طرازية لملاءمات بعض السمات التي لا يمكن إعادة صياغتها.

وبوضع المثال الذي يضرب بقول سويسر للحروف المحلية من وجهة نظر العلاقات الصرفية الصوتية المتبادلة الطبيعية المحدودة لإعادة صياغة الملامح الفونولوجية المتباعدة دون الاستعانة بالدراسة الطرازية. ومن الزيف أن نظن أن سويسر أعاد صياغة أوتقن ملامح الحروف المحلية التي هي مقطعية أو غير مقطعية (أي فيها الصوتية) بالإضافة إلى عوامل تأثيرها في الصوتات المجاورة. والدراسات التي أجريت على الحروف المحلية فيما بعد لا تملو أن تكون محاولات لإتمام هذه السلسلة

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

وتغيير هذه اللجهايات ابتداء من مرحلة اللغة المشتركة وحتى الفترة التاريخية.

وهكذا تتم إعادة صياغة النظم الأولية بمقارنة الأنظمة المترابطة تاريخيا وبالتحريك صوب الوراء من إحدى مراحل اللغة إلى مرحلة أخرى أسبق منها بشرط أن تثبت هذه المراحل طرازيا.

ويستمر هذا التحريك الخلفي حتى نصل إلى مرحلة يمكن تصور هيكلها ويمكن أن يستنبط منها كل النظم اللغوية التي ثبت ترابطها.

ويصاحب هذا التحريك الخلفي افتراض أن عددا معينا من التحويلات المحتملة قد حدثت على المستوى الطرازى. وهذه التغيرات هي التي تمتد « العصاب التاريخي » للنظام. وهي التي تجعل من الممكن الانتقال من النظام الأولي إلى المراحل اللغوية التالية. وهذه المراحل التالية تعد بمثابة نقطة الزروة بالنسبة للتحويلات التركيبية للنظام الأولي.

ويمكن - باستخدام هذه التحويلات التاريخية - أن نصف طريقة احتساب النظم اللغوية المترابطة من نماذج تركيبية أولية.

وهذه التحويلات التاريخية تجعل من الممكن أن نفترض أشكالا للغة من تركيبات نظرية (تعتبر الأصل الأول لهذه الأشكال حيث إنها تسبقها تاريخيا)، ولهذه التحويلات مثل تحويلات النحو التوليدي قوة تفسيرية حيث إن التحويلات المختلفة تسمح بالتوصل إلى البنية السطحية الناتجة من التركيبات الأساسية المفترضة نظريا، وتحدد هذه التركيبات الأساسية بنية اللغة المعقدة.

من الملاحظ وأبسط تقدم أية تعديلات جوهرية . ويمكن تفسير قيمة ما توصل إليه سورسبر بأن طبيعة سلسلة اللامع المميزة للفرزيمات المادة صياغتها ناقصة . وهو أمر لا يمكن تلاديه في إعادة الصياغة الداخلية دون أخذ البيانات الطرازية في الحسبان .

وقد أمكن الحصول على تفاصيل تتعلق بطبيعة وحالة الحروف المحلية منذ طبق المقارنات الطرازية على اللغات .
٦ - ينبغي أن ترقم الدراسات الطرازية التاريخية للتحويلات على المستويات المختلفة على بيانات تاريخية محليّة . فعلم التحريك التاريخي يأخذ في حسبانته فقط التحويلات الثابتة تاريخيا . ولذلك فمن المستحيل أن تتم دراسات تاريخية أو مقارنة دون أخذ الحقائق التي اكتشفها علم التحريك التاريخي في الحسبان . فقد قام علم النحو التاريخي أساسا على متاه المراد اللغوية للورقة . وهذا يحده البيانات من أقدم مراحل تطور اللغة . ولذلك فمن الضروري أن نستبدل البيانات باستخدام الكتابة الصوتية التي تثير مشكلة العلاقة بين الكتابة والبنية الأورولوجية للغة ومشكلة مدى إنعكاس الفرزيمات وتراكيبها في نظم الكتابة . ودراسة العلاقة بين الكتابة واللغة هي بالتالي مرحلة إجبارية لوضع نظرية علم اللغة التاريخي .

ووصف التغيرات التاريخية من طريق «قواعد التحويل» هو في الحقيقة عد المراحل المتعاقبة لتطور اللغة مرحلة مرحلة. وكلما ضاقت الفجوة الزمنية بين تلك المراحل كان وصف تطور وارتقاء اللغة أدق وأشمل.

وبهذه الطريقة يمكن أن نتشعب القاعدة التي تمكننا من استخلاص مرحلة محققة من أخرى مفترضة من مراحل اللغة إلى سلسلة من القواعد المتتالية. وتساعد هذه القواعد على التوصل إلى النتيجة النهائية لهذه التحويلات، وهي النتيجة التي تمثل نهاية سلسلة الخطوات المتتالية من النظام الأولي إلى النظام المحقق.

ومن أمثلة ذلك أن تحويل الفونيم x إلى الفونيم y (x يمثل مرحلة مفترضة ولا يمثل مرحلة محققة لفونيم واحد) يمكن أن يعرض في سلسلة من التحويلات :

$$\begin{aligned} x &\longrightarrow x^1 \\ x^1 &\longrightarrow x^2 \\ &\dots\dots\dots \\ x^{n-1} &\longrightarrow x^n \\ x^n &\longrightarrow x^y \end{aligned}$$

وبالمثل فإن التواليات التي توضح كيف اختلف الفونيم P يمكن أن تفسر بسلسلة من التحويلات طرأت على مجموعة من الملامح المميزة فتغير منها أحد الملامح :

$$\begin{aligned} P &\longrightarrow P^h \\ P^h &\longrightarrow F \\ F &\longrightarrow h \\ h &\longrightarrow \Phi \end{aligned}$$

وقد أوضح ياكوبسون (١٩٥٧) وأيضاً همسليف (١٩٢٨) ضرورة أخذ الطراز الحالي للغة في الاعتبار كي نصل إلى إعادة صياغة لغوية. وتفرض علينا هذه الضرورة أن نراجع بعناية المناهج التقليدية لنحو اللغات الهندو - أوروبية المقارن القديم، كما أنها تشجعنا على تقديم تفسيرات جديدة للعلاقات بين اللغات ويؤصل فيها النظام بناء على معايير تركيبية وطرابية وبناء على مبدأ الإحصاء التاريخي.

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة فى علم اللغة

ودراسة اللغات من وجهة نظر تركيبية وطرازية ومن منظور الكليات اللغوية تمثل أحد الاتجاهات الحيوية فى المرحلة الحالية من علم اللغة.

وينبغى بالتالى أن يمكن إعادة النظر فى كثير من الدراسات اللغوية التقليدية للغات الهندو - أوروبية التى تعتمد على إعادة الصياغة المقارنة (الخارجية) وإعادة الصياغة الداخلية للغات الهندو - أوروبية نفسها. وينبغى أن نطرح أفكارا متقدمة لموضوع أصل اللغات الهندو - أوروبية بما يتيح لنا علم اللغة الطرازى typological linguistic.

ويمكن أن يؤدى تحليل تراكيب اللغات الهندو - أوروبية للمعاد صياغتها تقليديا ومدى انسجامها مع النظم المحتملة طرازيا إلى إعادة فحص عميق لهذه التراكيب.

ودراسات اللغات الهندو - أوروبية المقارنة القديمة جوانبها بسيطة ومحدودة. ولم يكن النموذج الذى افترضت للغات الهندو - أوروبية إلا نتيجة مقارنات ظاهرية لعدة نظم مترابطة. وبالطبع فقد ملئ هذا النموذج - فى نظريات معينة - بإعادة الصياغات الداخلية باستخدام نمط محدد من العلاقات داخل إطار نظام واحد. ولكن احتمال وجود هذا النموذج من الناحية اللغوية لم يدرس بطريقة واضحة عن طريق مقارنته بالتراكيب اللغوية المحتملة طرازيا. وقد أدى ذلك - فى دراسة اللغات الهندو أوروبية - إلى افتراض نظام لغوى أولى لا يمكن أن يكون نظاما لغويا حقيقيا لأنه يناقض مددا من الحقائق اللغوية المعاصرة.

١ - مبادئ إعادة الصياغة الدلالية.

لا تفترض إعادة صياغة لغة ما إعادة تكوين الفونيمات وعلاقاتها التصريفية فحسب ولكنها أيضا تدعى إلى إعادة تكوين ترتيب الفونيمات ومركباتها مما يعد أساسا لتكوين الوحدات الصرفية والكلمات وتركيب الكلمات بحيث تعبر عن معنى نحوى أو معجمى. وحينئذ لا يكون قد تم إعادة صياغة مستوى الشكل فحسب بل المضمون أيضا أى معنى الشكل النحوى والتراكيب.

تتمثل نقطة البدء فى إعادة صياغة الشكل فى نظام التوافق الفونولوجى، حيث يمكن أن نستخلص منه أشكالاً ونماذج أصلية يمكن تحقيقها طرازيا.

أما بالنسبة لإعادة الصياغة الدلالية فإن إعادة تكوين النماذج الأصلية يصبح أمرا معقدا، إذ ليس لدينا معايير لاستنباط الجمل الأولية، أو بتعبير آخر ليس لدينا معايير

خاصة بمستوى المضمون لوحدة اللغة الأرية أى الكلمات وتراكيبها.

وأبسط الحالات التى تسير فى خط متواز مع إعادة صياغة الشكل هى إعادة صياغة مضمون الكلمات التى تتطابق فى الشكل. وهى دلالة مشتركة بين مجموعة من الكلمات وتمثل الخلاصة النظرية لكل الدلالات. وهنا ندرس قضية الدلالة عند وجود علاقة تعارض دلالي. وهذه العلاقة توضحها الكلمات مثل "يعطى" ومقابلها "ياخذ" أو "يبيع" ومقابلها "يشترى". وإعادة صياغة هذه العلاقة تفترض وجود لفظة دالة أصلية مستنبطة تسرى على الكلمات المتطابقة فى الشكل. وتتوهم الملامح الدلالية لهذه اللفظة الدالة معنى يعينه حين ترد فى شكل معين آخر - أى المقابل للأول - حين ترد فى شكل آخر. وبهذا تكون الملامح عنصر محايدا. ويمكن أن تعزى علاقة التعارض مثل "يعطى / ياخذ" إلى لفظة تدل على نوع من التبادل يحتوى على حدثى العطاء والأخذ (راجع فكرة الحياد فى علم وظائف الأصوات "فونولوجى" وعلم الصرف).

٥ - النظام اللغوى المعاد صياغته من حيث المكان والزمان.

يفرض النموذج اللغوى الذى يعكس نظاما لغويا أصليا سبق وجوده أن نحدد عند إعادة صياغته إطارا تاريخيا لوجوده وتحولاته وتكاثره.

ويفرض تحليل اللغة الأولى بوصفها نظاما سبق وجوده زمانا ومكانا أن ندرس ديناميكية تطورها وارتقاؤها. كما تفرض أن نأخذ فى حسابنا المراحل التاريخية الثابتة علميا وحتى أحدث مراحل ما قبل تفرقها إلى لهجات وتكوين هذه اللهجات فى شكل وحدات لغوية مستقلة.

ويمكن أن نقسم المراحل التاريخية للعديد من الملامح الخاصة بأصل اللغات الهندوأوروبية التى أعيدت صياغتها عن طريق دراسة اللغات الهندوأوروبية القديمة فى شكل جامد لا يتسم بالرونة.

ولا تتطابق بعض الملامح المعنية لأصل اللغات الهندو أوروبية التى أعيدت صياغتها بوصفها نظاما أوليا على آخر مراحل تطورها وارتقاؤها. أى المرحلة التى سبقت تفرقها إلى لهجات. بل إنها تمكس بعض السمات التركيبية لمرحلة سابقة على تلك المرحلة. وهذا ما يفسر بعض نقاط الاختلاف بين المختصين فى النحو المقارن فيما يتعلق ببعض تراكيب اللغة التى قد تبدو متناقضة (انظر على سبيل المثال مناقشة عدد الأصوات الحلقية فى

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

اللغات الهندو أوروبية حيث يستطيع أصحاب كل رأى أن يقدموا دلائل ثابتة على صحة ما ذهبوا إليه).

ورغم أنه يمكن إرجاع اختلاف الآراء في طبيعة مثل هذه التراكيب إلى اختلاف مراحل تطور وارتقاء اللغات نفسها، فإنه يمكن تفسير كثير من هذه التراكيب المثارة على أنها تكمل بعضها بعضا من الناحية التاريخية وتعزى في الوقت نفسه إلى مراحل مختلفة من تطور وارتقاء هذه اللغات.

ينبغي أن يستبدل العرض الجامد الثابت للغات الهندو أوروبية بنظام لغوي ديناميكي تاريخي يتسم مثلما يتسم تاريخ كل اللغات المحققة بالديناميكية التي تلائم تطورها وارتقاها.

ويستلزم تاريخ النظام اللغوي الأولي هذا أن يحدث تطور داخلي للنظام نفسه وأن يتصل جغرافيا بأنظمة أخرى اتصالا ناتجا عن الاحتكاك والتداخل. وفي هذا المقام سنقوم بتوصيف ظاهرة الاقتراض التي قامت بين اللغات الهندو أوروبية وغيرها من اللغات حيث اقترضت اللغات التي احتكت باللغة الهندو أوروبية منها وافترضت اللغات الهندو أوروبية منها.

وينبغي أن ننظر إلى النظام اللغوي المعاد صياغته مثله في ذلك مثل أية لغة حقيقية بوصفه نظاما تواجد في شكل عدد من اللهجات المرتبط بعضها بالآخر. ويمكن أن يفسر تفرق اللغة الأصل إلى لهجات مترابطة تاريخيا بوصفه تفرقا تطوريا وانحدارا للهجات المعانة التي كانت تفرعت عن النظام اللغوي الأولي المشترك. وبذلك نرى في لب النموذج الأولي المعاد صياغته لهذا النظام أنظمة فرعية ملموسة يتعارض بعضها مع بعض. في ملامح فونولوجية وصرفية معينة تعكس التفرق اللهجي للغة المعاد صياغتها.

ويقصر هذا التفرق داخل النموذج الذي أعيدت صياغته ليلئم فترة تاريخية معينة عن طريق الثنائيات الوصفية التي تعكس التقابل بين المناطق اللغوية وبين اللهجات داخل نظام اللغة المشتركة في الفترة العالية. ويمكن تفسير هذه التقابلات اللهجية بدورها من وجهة نظر تاريخية أي من مسار تاريخ هذه اللغة (سبتمبر ١٩٧٩).

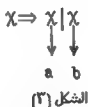
وفي ضوء هذا التفسير لتفريق وتشعب النظام اللغوي الأولي إلى لغات مترابطة وغير

متراصلة فإن هذا التفريق والتشعب ينبغي أن يتخذ على أنه نسخ مكررة للتركيب الأولية
تطور كل منها في اتجاهات مختلفة.

فكل عنصر x في النظام اللغوي الأولي صار a ب في لغتين مختلفتين ولكنهما من
أصل واحد. يمكن تصوير ذلك بيانيا في الشكل ٢.



ويأتي هذا التغير لعنصر من عناصر اللغة الأولى إلى عناصر أخرى في اللغات التي
تفرعت عنها كما أوضحناه في الشكل ٢ أعلاه عن طريق تكرار العنصر الأولي في اللهجات
المتفرعة عن اللغة الأصلية. وتتحول بالتالي تلك العناصر المكررة إلى وحدات ثابتة تاريخيا.



يوضح هذا الشكل تطور التركيب تاريخيا من التركيب الأصلي المستتب. وهو لا يسرى
على العناصر المستخلصة من النظام فقط بل يسرى على النظام بأكمله.

والشكل الذي يوضح شجرة النسب التي فسرت بها الدراسات اللغوية المقارنة التقليدية
نشأة اللغات الفردية من لغة أم، هو في الحقيقة نموذج يقدم الحلقات النهائية للتحويلات التي
طرأت على النظام الأولي. وهو يعكس بالتحديد العلاقات بين الوحدات التي سبق تكوينها
وبين الاتجاهات التي تطور فيها النظام الأولي فقط.

ونموذج شجرة النسب لا يتعارض مع "نظرية الموجة" التي تعكس ظهور وانتشار
المبتكرات في اللغة ولكنها لا توضح النتائج النهائية لتشعب اللغة إلى لهجات منفصلة.

وبالتالي لا يوجد مبرر لمعارضة هذه الأشكال البيانية لتطور التركيب اللغوية إذا ما
أردنا أن نتعرف على ميزات ومثالب كل منها. لأن كلا من هذين الشكلين البيانيين يشوبه

بعض النقص. فهما يعكسان جوانب متعارضة لأصل وتطور التراكيب من تركيب مشترك. ولذا فإنه من الضروري أن ندمجهما معا وأن نعتبرهما متكاملين كي نفسر التحولات التاريخية للغة.

ويستخدم علم اللغة التاريخي المقارن فكرة النظام اللغوي الأولى على أنه مجموعة من اللهجات المختلفة التي تواجدت زمنا ومكانا. ويمكن بذلك أن نقيم علاقات بين هذا النوع من علم اللغة ونظرية العلائق الشكلية بين اللغة (دراسة الطرز التركيبية ومشاكل الكليات اللغوية) بالإضافة إلى التوازي بين النظرية ومناهجها وبين نظرية علاقات اللغة من حيث المكان (الجغرافية اللغوية، وعلم اللغة المكاني ونظرية احتكاك واتصال اللغات)^٧.

٦- البحث في الموطن الأول للغة الأصل وطرق هجرة أهل اللهجات: مشكلة امتزاج الثقافات ذات الأصل المشترك المعاد صياغتها طبقا للبيانات اللغوية ودراسات الآثار.

٧ - في هذا المقام نقض الروابط بين علم اللغة التاريخي والدراسة البنوية للهجات عند فينريتش أهية كبرى (انظر فينريتش ١٩٥٤). فالنظم التاريخية عند فينريتش هي نتيجة إعادة صياغة النظام الذي تفرعت عنه اللهجات. وعلم اللهجات المقارن - في ضوء هذا التفسير - يس مشكلة إعادة الصياغة التاريخية بالطريقة التي يتعامل بها معها علم اللغة التاريخي والمقارن. وتنوع "النظم التاريخية" في دراسة علم اللهجات التركيبى من دراسة التاريخ أكثر مما تنوع من الدراسة المرحلية للغة. ولذلك لا يمكن أن تكون نظاما تراصليا لأشخاص يتكلمون هذه اللهجات. واللى يسمح لتكلمى اللهجات المختلفة أن يفهموا بعضهم بعضا ليس فكتهم من النظام التاريخي بقدر ما هو معرفتهم بقواعد التحول من لهجة إلى أخرى، وهى قواعد تستلزم فهم العلاقات بين اللهجات على مختلف المستويات. ومع ذلك فالأشخاص الذين يتكلمون لهجة أخرى قد يقومون هذه العلاقات، إذ أنهم يعتبرونها تحريفا لللهجتهم. ومعرفه قواعد التحول من لهجة إلى أخرى تساعد فى وضع معيار للتفريق بين اللهجات واللغات. فالأشخاص الذين يستخدمون لغات متحدرة من أصل واحد لا شك أنهم لا يعرفون العلاقات بين هذه اللغات وبالتالي لا يعرفون قواعد التحول من لغة إلى أخرى. فهذه اللغات بالنسبة لهم أنظمة مستقلة وقائمة بذاتها.

تتكون اللغات ذات الأصل المشترك نتيجة تفريق النظام اللغوى الأولى الذى هو نتاج العزلة التى حدثت بين متكلمي لهجات هذه اللغة. وانتشرت هذه اللغات بعدئذ فى حدود تاريخية معينة نتيجة لهجرة متكلمي هذه اللغات. وذلك يستلزم افتراض أن النظام اللغوى الأولى انتشر داخل منطقة ذات حدود ثابتة وهى أقل حجما من المنطقة التى انتشرت فيها اللغات التى أنشئت عنها. ومن هذه المنطقة الأولى بدأت الهجرات فى اتجاهات شتى. ويعتمد انتشار وتوسع هذه المنطقة الأولى والتفكك التدريجى للمجتمع اللغوى أيضا على طبيعة الثقافة والأحوال الجغرافية والبيئية التى عاش فيها أهل اللغة الأم. وتحديد المنطقة الأولى للغة الأولية المعادة صياغتها وتحديد طرق الهجرة وتحركات القبائل التى تستخدم اللهجات المنبثقة من تلك اللغة الأولى يشكلان الجوانب التاريخية والجغرافية لمشكلة تفكك المجتمع اللغوى

واستنتاج كون المنطقة الأولية التى قطنها مستخدمو النظام اللغوى الأولى محددة ومغنية قائم على بيانات طرازية خاصة إذا قورنت تلك المنطقة بالمناطق التاريخية الأخرى التى انتشرت فيها اللغات ذات الأصل المشترك. وتمثل هذه البيانات فى الخطوات التاريخية المحققة. وهى انتشار اللغات ذات الأصل المشترك عن طريق هجرة الذين يتكلمونها إلى مناطق أكبر حجما. ويمكننا أن نحدد داخل هذه المنطقة الكبرى التى انتشرت بها اللغات ذات الأصل المشترك منطقة أقل اتساعا سكنها أفراد كانوا يستخدمون لهجات قديمة أقرب ما تكون إلى النظام اللغوى الأولى (انظر بارتولى ١٩٢٥، سابير ١٩٥٨، إيفانوف ١٩٥٨، شليز ١٩٨١).

ويبدو أنه كانت هناك منطقة محلوقة نشأت فيها اللغات الهندو - أوروبية التى انتشرت فى مناطق شاسعة من أوراسيا فى تلك الفترة التاريخية.

وسوف يسمح تحديد تلك المنطقة - وهواب مشكلة الموطن الأصلى للغات الهندوأوروبية - بإعادة تصور هجرة الهندوأوروبيين القدامى أى هجرة القبائل التى كانت تتحدث الهندوأوروبية إلى تلك المناطق التاريخية التى احتلوها. وسييسر هذا أيضا تحديد ديناميكية العلاقات

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة فى علم اللغة

المكانية بين اللهجات الهندوأوروبية التاريخية.

وهذا يستلزم بادئ ذي بدء أن نضع تأريخا (ولو تقريبا) للهجات، ويمكن إنجاز ذلك بمقارنة الثقافات المعاد صياغتها طبقا لمعلومات لغوية وتلك التى أعيدت صياغتها طبقا لمعلومات الآثار، وهذه وهذه كلها ثقافات الذين كانوا يستخدمون النظام اللغوى الأصلى أو الذين كانوا يكونون مجموعات لهجية.

وبهذا تثار مشكلة مقارنة المعلومات اللغوية بالمعلومات التاريخية الحضرية (الآثار). ويشير التساؤل بشكل خاص حول إمكان مقارنة مجتمع لغوى بمجتمع آثارى.

ربما نظن أنه يمكن مقارنة نظام لغوى بثقافة آثارية إذا انتجت الثقافة الآثارية نفس الحقائق التى يمكن تحديدها واحدة واحدة والتى تلبد من العلاقات المتبادلة.

وكى نفى هذا الغرض حقه كاملا ينهى أن نحدد مقياسا طرازيا للثقافات الأثرية، وأن نعين جوانب الارتباط العديدة بين وحدات الثقافة المادية^(٨).

إذا كانت قواعد الارتباط التى تسرى على الثقافة الأثرية تتوافق طبقا للمبانيات اللغوية مع القواعد التى تسرى على ثقافة حقيقية معادة الصياغة فإنه يصحح من المحتمل أن تكون هذه الثقافات قد تلاقت من قبل.

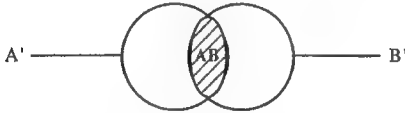
ومن المحتمل أن لا تتطابق بعض العناصر والملامح التى تحددت بهذه الطريقة ولكن الضرورى فى الأمر هو تطابق مجموعات كاملة فى حالة غياب الملامح المتعارضة.

٨ - وكى نحدد غطا طرازيا للثقافات الحضرية من الضرورى أن نوافق على الدراسات الرصمية الموحدة ودلالة بقايا الثقافة المادية (انظر على سبيل المثال ، جاردن ١٩٦٥ ، ١٩٨٣ ، كامنتيزكى مارتشاك تشير ١٩٧٥) . والدلالة الموحدة هى التى يمكن أن تكون شرطا مسبقا للقيام بدراسة طرازية مقارنة للثقافات الحضرية .

وحيث إن إعادة الصياغات اللفوية والتاريخية هذه ناقصة بالتأكيد فإن عدم التقاء
عديد من مكوناتها لا يعول دون كونها كانت على اتصال من وجهة النظر التاريخية.

ولكونها ناقصة ومحدودة فإن مجموع العناصر في النظام أ (الذي أعيدت صياغته
طبقاً لبيانات لغوية) قد يكون أكبر أو أقل من مجموع العناصر في النظام ب (الذي
توصل إليه بوسائل حضرية) . ومن الممكن أن تتداخل هذه العناصر (بالرغم من كون
العناصر في أ، ب لغوية وحضرية. انظر الشكل ٤).

ولذلك فإنه من المهم عدم احتواء المجموعتين أ، ب على عناصر متعارضة بعضها
مع البعض بفضل الارتباطات الداخلية المناسبة لكل نظام. وفي هذه الحالة يستلزم
العنصر س في النظام أ أن يحتوي النظام أ على ملمح لا يتعارض مع العنصر ص في
النظام ب، أي يحتوي على ملمح معاد صياغته أو متضمن في عنصر آخر.



الشكل (٤)

إن هدف علم اللغة من التعرض لمشكلة الموطن الأصلي الذي نشأت فيه اللغة
المشتركة، ومشكلة مقارنة إعادة الصياغة اللفوية التي تعكس ثقافة هؤلاء الذين كانوا
يستخدمون تلك اللغة المشتركة، هو التحليل الدلالي لكل الكلمات والتراكيب في هذه
اللغة ؛ الكلمات والتراكيب التي تيسر تقويم السمات الفردية للثقافة الروحية والمادية
لأهل اللغة المشتركة، وهي السمات التي تحدد طراز هذه الثقافة عند مقارنتها طرازيها
بالثقافات الأخرى.

ويستلزم هذا التحليل الدلالي للكلمات والتراكيب المعادة صياغتها أن تكون

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

مرتبطة بعناصرها الدلالية وأن الملامح الثقافية والاقتصادية والتاريخية والجغرافية لهذه الدلالات محددة.

ت. ف. جامكريلدز و. ف. ف. إيفانوف
أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي

BIBLIOGRAPHY

- BARFOLI, M., *Introduzione alla neolinguistica. Principi-Scopi-Metodi*, Geneva, Olschki, 1925.
- BENVENISTE, F., *Problèmes de linguistique générale*, Paris, Gallimard, 1966.
- BIRNBAUM, H., "Linguistic reconstruction: its potentials and limitations in a new perspective," *Journal of Indo-European Studies*, Monograph No. 2, 1977.
- * GAMKRELIDZE, T. V., "The Problem of 'l'arbitraire du signe,'" *Language*, Vol. 50, No. 1, p. 102-110, 1974.
- GARDIN, J. C., "On a possible interpretation of componential analysis in archaeology," *American Anthropologist*, Vol. 67, No. 5, pt. 2, p. 9-22, 1965.
- *Teoreticheskaia arxeologija*, Moscow, Progress, 1983.
- HJELMSLEV, L., "Principes de grammaire générale," *Det kgl. Danske Videnskabernes Selskab. Hist.-fil. Meddelelser*, XVI, 1, Copenhagen, 1928.
- HOENIGSWALD, H. M., *Language Change and Linguistic Reconstruction*, Chicago, The University of Chicago Press, 1960.
- HOCKETT, CH. F., *A Course in Modern Linguistics*, New York, Macmillan, 1958.
- IVANOV, V. V., "Problèmes des langues centum et sat am," *Questions de linguistique*, No. 4, p. 12-23, 1958.
- JAKOBSON, R., "Typological studies and their contribution to historical comparative linguistics," *Reports for the 411th International Congress of Linguists*, Oslo, 1957.
- *Selected Writings*, I, 2nd enlarged edition, The Hague-Paris, Mouton, 1971.
- * KAMENETZKY, I. S., MARCHAK, B. I., CHER JA. A., *Analysis of Archaeological Sources*, Moscow, Nauka (Science), 1975.
- * POLIVANOV, JE. D., *Toward a Marxist Linguistics*, Moscow, Federatsia, 1931.
- SAPIR, E., "Central and North American Languages," *Selected Writings of Edward Sapir in Language, Culture and Personality* (D. Mandelbaum, ed.), Berkeley and Los Angeles, University of California Press, 1958.
- SAUSSURE, F. DE, *Cours de linguistique générale*, Paris, Payot, 1915.
- SCHILERATH, B., "Ist ein Raum/Zeit-Modell für eine rekonstruierte Sprache möglich?," *Zeitschrift für vergleichende Sprachforschung*, Bd. 95, H. 2, p. 175-202, 1981.

أنظمة اللغة ومبادئ إعادة الصياغة في علم اللغة

- * SEREBRENNIKOV, B. A., *Probabilist Arguments in Comparativism*, Moscow, Nauka (Science), 1974.
- * STEPANOV, G. V., *On the Problem of Linguistic Variability*, Moscow, Nauka (Science), 1974.
- * TSERETELI, G. V., "Linguistic Relationship and Linguistic Unions," *Questions de linguistique*, 1968. No. 3, p. 3-18.
- WEINREICH, U., "Is a Structural Dialectology Possible?", *Linguistics Today* (A. Martinet and U. Weinreich, eds.), New York, 1954. p. 268-280.
- * Titles of Russian works have been translated to facilitate understanding for the reader.

الترجمة ، وعالم اللغة ولقاء الثقافات

تناقش الترجمة، غالبا، في المحلقات الفراسية. ويتحدث الكتاب عنها كما يفعل، بالطبع، المترجمون المتخصصون أيضا. وحتى اللغويون عندهم ما يدلون به حول هذا النشاط القديم قدم المحاضرات. ونود أن نقدم هنا بعض الأفكار حول موضوع تكرر تدبره كثيرا. وبالرغم أن هذه الأفكار ليست جديدة تماما، فهي نتائج انبثقت من تأصل مسهب ومن تجارب المترجمين التي لا تقل إسهابا، إلا أننا نأمل أن نشير إلى بعض الإرشادات التي يمكن أن تكون مشرة لاستمرارية المناقشة.

بداية نود، ببساطة تامة، النظر إلى قضية الترجمة نفسها، فعلى ما يبدو لم يسبق تناول هذه القضية، ونود أن ننظر إليها بالطريقة التي ينظر بها أى لغوى محترف، أى أن نحسم بدقة الشكل أو الأشكال التي تتقدم من خلالها هذه الفكرة، فأى دراسة دقيقة يمكنها أن تلقى ضوئا كبيرا هنا، وتضيف جديدا إلى ملف المصطلحات التي توضح فاعلية الترجمة في اللغات المدروسة جيدا.

المترجم : أحمد عمر شاهين

وحيث إن الرومان لديهم عدد من هذه المصطلحات فإن دراسة لمعنى ومعنى هذه المصطلحات يوفر لنا الكثير لمعنى "أن نترجم".

فبالاصطلاح atraduce (أن يترجم) [جاء من الكلمة الإيطالية tradurre التي انبثقت من traduce المستخدمة في العلوم الإنسانية الإيطالية، وقد حلت هذه الكلمة، محل كلمة translare التي جاءت من كلمة translatus التصريف الثالث لـ transferre والتي كانت في العصور القديمة مطابقة للكلمة اليونانية [metafero] لم يظهر قبل بداية القرن التاسع عشر.

وفي القرن السادس عشر استخدم الرومان كلمة ascoâte التي تعنى حرفيا يغادر، وأيضا كلمة á in tearce بمعنى "يرجع"^(١). وفي القرن السابع عشر استخدمت الكلمة السلاقية القديمة aizvodi بمعنى ينتزع أو يستخلص لتعبير عن فكرة الترجمة، مثلها في ذلك مثل كلمة atâlmâci السلاقية أيضا التي تعنى "يفسر". في القرن ١٨ - ١٩ ظهرت كلمة apreface التي تعنى : ينقل أو يعيد صياغة، وأيضا الكلمة الترانسلاتفانية aromâni التي تعنى رومنة أو التكيف مع اللغة الرومانية (اللاتينية).

١ من خلال هذه المصطلحات المختلفة يمكننا أن نقرأ تاريخا للتصورات المتتابعة لفعل الترجمة، من الاستخلاص الى النقل من منطلق التفسير، وصولا الى المفهوم الحديث للترجمة، الذي هو اعادة صياغة ما هو مكتوب في لغة أصلية الى لغة أخرى، بالتغلب بقدر الامكان على المشاكل التي تطرحها عملية الترجمة، والتي قد تفضي بتكرارها الى الفساد الترجمة باعطائها معانى خداعة، وذلك على ضوء الدلائل الناجمة عن الممارسة التي هي قديمة قدم العالم، والدراسات المتعددة والثمرات التي تتركز عليها فيما يعرف بملقاء الثقافات.

1 - See A. Niculescu, "La notion "traduire" dans la langue roumaine," in *Festschrift für Johannes Hubschmed zum 65. Geburtstag* hrsg. von O. Winkelmann und M. Braisch, Bern, Francke, 1982, pp. 359-366, from which are taken these data on Romanian.

'الترجمة ، وعالم اللغة و لقاء الثقافات

الترجمة كتجربة : الاقسام الصعبة فى اللغة

علم الأصوات الكلامية، وعلم الصرف (حيثما يوجد حسب طبيعة اللغة) وعلم النحو المتزامن أو المتعاقب، هذه هى الأجزاء الصعبة فى اللغة. ولقدنا الترجمة بتجربة بسيطة جدا لهذه الخاصية فى اللغة التى يوجد بها أقسام صعبة كهذه.

ولنبدأ بعلم الأصوات الكلامية، بالطبع أن النص كمنتج هو الذى يترجم لا اللغة بوصفها نظاما أتاحت له الظهور. وأكثر من ذلك فأتانا حتى الآن حينما نفكر بالترجمة نفكر فى النصوص المكتوبة، علما بأن هناك يوميا مناسبات عديدة لترجمة الكثير من الحوارات الشفاهية (كمفسرين، أو ببساطة متناهية كوسيط ضرورى يعمل كمترجم - كالترجمان عند العرب والذى يعنى مفسر) بين اثنين أو أكثر لا يستطيعان التواصل بسبب عتبة اللغة. وهناك ظاهرة عالية بدأ يلتفت اليها اللغويون الآن، فى النصوص المكتوبة، وبدرجة اكبر فى الحالات التى يتم فيها الحوار شفويا، وقد أغفلها النحويون، فى حين أنها ظاهرة لغوية مباشرة، وهى : التنغيم.

والتنغيم، الذى لا يلاحظ بدرجة كافية فى النصوص المكتوبة من خلال علامات الترقيم التى استخدمتها اللغات منذ فترات طويلة، ولكنه واضح ومسموع فى أى حوار متبادل، هو شئ له معنى وبالتالي يمكن ترجمته. لكن الصعوبة تبدأ من هنا. بعض نماذج التنغيم عالية، لها المعنى نفسه الذى ينقل بترتيب الانغام. بمعنى انه ينقله من لغة الى أخرى يؤدى المعنى نفسه أو قريبا منه. هكئذا هى الحال فى نغمات التدرج فى تتابع الموضوع (العنصر الاقل إفاضة)، أو العكس بالعكس. وهذه هى الحال أيضا فى الحالة الصورية لمتكلم فى الجملة، يعنى بناء الجملة الذى يعبر عن موقف المتكلم مما يقوله، فنمؤذج التنغيم فى هذه الحالة والحالة السابقة يتشابهان عاليا، بكلمات أخرى، فإن جملة من اللغة الفرنسية المنطوقة : *Il n'est pas la, papa* (حيث كلمة *il* و *Papa* اساسيتان)، بمقارنتها بجملة أخرى : *ce n'est pas, ca a mon avis* تبدأن بأهم الأجزاء إفاضة، فكل من كلمة *Papa* المتحدث عنه *a mon avis* (موقف المتكلم مما قاله وهو الرسالة الرئيسية فى الجملة) أقل إفاضة مما يتبعها : فهما الجران الموضوعيان للجملتين اللتين يتشكل خبرهما من *Il n'est pas la* و *ce n'est pas* -ca

ونحن نرى الآن، فى اللغات التى درست فيها مثل هذه الموضوعات، أن هناك اختلافا فى الكتابة بين الخبر (الذى يقال بلهجة أكثر حدة) والفكرة الرئيسية.

ان معظم النماذج التنفيمية لها معان محددة تختلف من لغة الى أخرى، ولا بد لذلك من أن تترجم حرقيا.

وأفضل النصوص اللغوية هى التى تعطى إرشادات للنماذج التنفيمية تتمشى مع المعانى المختلفة، ويجب على الطالب تعلمها.

وهكذا لابد فى علم الأصوات (والعروض جزء منه يتعامل مع ظاهرة التناغم) من اختبار لطبيعة اللغة منظورا إليها عبر أحد عناصرها، وهو الأصوات. ويقدم هذا الاختبار أو التجربة الى اللغوى من خلال انعكاسه على قاعدية الترجمة.

فى علم الصرف تقدم دراسة الترجمة تحارب أكثر حسما نحو الاجزاء الصعبة فى اللغة، ولكن ما هو علم الصرف أولا ؟ ولماذا نتحدث عن طبيعة ترتيب الكلمات فى جمل، اذا عرفنا علم الصرف حسب المدرسة الوظيفية الفرنسية التى تأسست فى باريس على يد أ. مارتينيت، بأنه ميدان دراسة اختلافات علم الدلالة، حيث الاختلاف يبدل بطريقة آلية ويحدد التغير النصي، فمن الواضح إذن أن علم الصرف مكوّن تفتقده لغات كثيرة. ففى اللغات الوحيدة المقطع فى الشرق الأقصى مثلا، المعروفة بوحداتها الشائبة التى تتكون من مقطع واحد، كيف يمكننا أن نتكلم عن علم الصرف فى حالة كهذه. ولكن اذا كنا نعلم علم الصرف جميع مقولات الوحدات التى تميز من خلالها لغة عن أخرى فمن الواضح أن ذلك أن علم الصرف مكوّن يظهر بوضوح ليعرف فكرة اللغة، وهكذا يكون عالميا. وحيث أننا نترجم بتجربة. لأن المقولات الموجودة فى حالة ما تكون غائبة فى أخرى، وما نحن مضطرون أن نقوله هنا تستحيل ترجمته تماما هناك.

ولنضرب مثلا يوضح ذلك، طريقة تصنيف الأسماء، فكما نعرف فى كثير من اللغات الأثرية - خاصة لغة الهانتو Bantu - ليس ضروريا أن نلحق بالاسم ما يصنفه ويميزه من المورفيمات (وهى أصغر وحدة من وحدات الكلام تلحق بالكلمة او تسبقها تؤدى الى فرق فى المعنى)، وهذا حقيقى أيضا فى جنوب شرق آسيا

الترجمة ، وعالم اللغة ولفاء الثقافات

(الصينية، الفيتنامية، البورمية، thaوية الخ) وكذلك بالنسبة للفعل (الغات الاثاياسكا في أمريكا الشمالية، ولفة غينيا الجديدة).

ففى اللغة الصينية يستحيل أن نقول أن Yi xin تعنى a letter ، فلاد من ميمز يأتى بين أداة التنكير a والاسم حتى يتضح المعنى فى الصينية، فنقول Yi feng xin حيث feng هى الميمز وتعنى "مفعول مصدق عليه" وهو مخصص كمورفيم ضرورى لصحة الكلمة xin، ومن الواضح أنه ليس هناك طريقة لترجمة كلمة feng إلى الفرنسية، فأى شخص فرنسى لا يعلم أن يقول a شئ مصدق عليه letter. ومن ناحية أخرى من المستحيل قاما أن تستخدم فعل "etre" (أن يكون) كترجمة. للفعل المساعد الصينى "أن يكون" فى الجملة Il est venu hier دون أن تنتهى إلى وضع تركز غير موجود فى الجملة الفرنسية الأصلية لتصبح : C'est hier qu'il est venu. فالفعل المساعد être لا يستخدم فى اللغة الصينية للتعبير عن الماضى القريب كما هو بالفرنسية.

مثل آخر ^(٢) من منطقة الشرق الأقصى، وهو صيغ التهذيب التى تناسب نساء كيوتو Kyoto، والتى جاء بعضها على لسان بطلات المؤلف Y. Kawabata فى روايته Kyoto. إنه من المستحيل تقريبا ترجمة صيغ التهذيب من اليابانية دون الالتجاء إلى إعادة صياغة. ولكن كيف يمكن للمتلقى أن يعرف من الترجمة حقيقة أن هذه الصيغ خاصة بالنساء، ولنساء من أقلم معين من اليابان ؟ هل يمكن للمرء أن يفعل أكثر من أن يقدم ملاحظة تفسيرية للمعنى، ذلك الإدخال على النص الذى يتجنبه المترجم بكل قوته ؟

فى اللغة اليابانية الآن ليست العلامات الأساسية للسؤال مجرد زخارف، إنها جزء متمم من علم الأصوات، لمنطقة صعبة فى اللغة. بكلمات أخرى قد تكون الإشارة خاصة بجنس معين أو تعبير عن حالة اجتماعية معينة، وتوجد فى اصطلاح نمرى، معبر عنها بشكل مكتوب لصيغة صوتية لجزء معين ومشتقة فى رموز وثيقة، تجدها جاءت فى اصطلاح آخر، يشير المتحاورون إلى ما تعنيه دون أن توجد علامة لقوية

2 - For more details, see C. Hagège, *La structure des langues*, Paris, 1986, pp. 78-79 and id, *L'homme de paroles. Contribution linguistique aux sciences humaines*, Paris, Fayard, 1985, pp. 46-50.

صحيحة تترافق معها.

تتضح لنا كل المعلومات التى يمكن استنتاجها من هذه الظاهرة. فبعض اللغات فيها إشارات دقيقة فى قواعدها للعلاقات الاجتماعية والجنسية، وفى لغات أخرى لا توجد مثل هذه الإشارات الخاصة. وفاعلية الترجمة التى تخدم النص هى فى بيانها للحد الأدنى من علم الأصوات، مع تباين الحدود الدلالية التى يشملها فى الوقت نفسه.

ومعنا هذا معلومة أخرى هنا، وهى ذات أهمية كبيرة، لما تكشفه عن طبيعة اللغات. فعلى العكس مما يتخيل أعداء الترجمة نحن سعداء جداً أن يقوم جدل فى موقف معضلى، حيث يتعرض المترجم كثيراً للخطأ، بالقول أن كل شئ يمكن ترجمته. فتمنذ وجدت المجتمعات الإنسانية، وتفرّب عن بعضها عن بعض بسبب اللغة، ثم اتصلت وواجه بعضها بعضاً بالحد الأدنى الذى لديها، فإن كل شئ كان دائماً قابلاً للترجمة. وإذا كانت اللغات يختلف بعضها عن البعض فذلك ليس فيما يمكن أن تعبر عنه هذه اللغة أو ما لا يمكن التعبير عنه، حيث أن كل لغة، مستخدمة وسائل مختلفة، بنجاح قل أو كثر، يمكنها التعبير عن كل شئ بغض النظر عن أى شئ. وإنما اختلاف اللغات باتى من خلال ما تضطر لغة إلى قوله ولا تستطيع قوله لغة أخرى يتبادل مشترك. وحدود علم الأصوات يعمل فى تعميق ذلك، وعملية الترجمة هى التى تكشف وتجسد هذه الأنماط من اللغات.

وما يصدق على علم الأصوات يصدق على النحو. وهنا تبرز مكونات اللغات فيما يخص العلاقات بين وحدات الجملة، كما توجد بطرق مميزة مختلفة، مثل نظام ترتيب الكلمات. ولكن ما يبدو أكثر طرافة بالنسبة لهدفنا هو مشكلة تقسيم الوظائف بين النحو والمفردات.

وهذا الموضوع، كسابقه، خاص بعلم الأصوات، ونعالجه هنا لأنه أكثر عمومية من دراسة مصنفات الكلمات. ونضرب مثليّن، أحدهما نستعيّره من اللغة البلغارية والأخر من المجرية.

نحن نعلم أن أحد خصوصيات اللغة البلغارية أنها طورت وسائل للتعبير عما

الترجمة ، وعالم اللغة ولقاء الثقافات

يسمى بالدليل الصادق أو عكس ذلك، حيث هذه الصيغ ترجع إلى أحداث شهدها المتكلم أو أحداث حدثت دون أن يكون شاهدا عليها. ويبدو من الأنسب أن نتحدث عن السرد غير المباشر. على أى حال فالفرق بين البلغارية أو أى لغة سلافية أخرى واللغة الفرنسية هو وجود صيغ صوتية أصلية فى اللغة البلغارية، مجموعة مترابطة من الصيغ النحوية، فى حين أن اللغات الأخرى التى أشرنا إليها تستخدم وسائل معجمية للتعبير عن المضمون نفسه، وبالنسبة للمترجم فتعود إليه مسألة اختيار إحدى هذه الوسائل حينما يتعامل مع نص بلغارى، وحيث إنه لا يجد تصريفات عادية فى اللغة التى يترجم إليها هذه المعانى (إلا إذا كانت تركية أو كوثونية أو كراكيويتية، غير محتمل أن تكون من نص بلغارى، واللغات التى تتساوى فيما تحتويه من مجموعات صوتية للسرد غير المباشر)، وهكذا فهو يترجم بإقحام صيغة لفظية بسيطة أو باستخدام تركيب تابع بعد فعل موضح للمعنى مما يعتبر مزعجا أكثر من صيغة الفعل الواحد. فى حين نرى فى اللغات السلافية أنه ليس من الضروري التعبير عن فكرة السرد غير المباشر بإدخال فعل موضح، حيث تحتوى هذه اللغات على "موريفيمات" (أو أصوات لغوية) تملك تلك القيم. ففى الروسية، mol, de, deskaf وفى الأوكرانية mov, movljav وفى التشيكية pry وفى السلوفاكية vraj, pono, podobno وفى الصربوكرواتية bajagi, tobze، ولكن فى هذه اللغات لا توجد مجموعة صوتية لفظية للسرد المباشر، وهكذا لا بد من اللجوء إلى العمليات المعجمية التى تنسبها اللغة البلغارية إلى الترتيب اللفظى حسب الإعراب.

وتعطينا اللغة المجرية تصورا طريفا آخر، فكما نعرف هناك مقابلة بين الصيغة الموضوعية (الفاعل) والصيغة الذاتية (المفعول) فى التصريف، فهذه اللغة تفرق بين المتعدى المستعمل لقابل محدد من ناحية وبين المتعدى أو غير المتعدى المستخدم لقابل غير محدد. فالمفترض تبعا لذلك أن أسماء الأعلام فى حالة النصب تغطى بفعل متعدد وتتطلب التصريف الموضوعى حيث إنه منطقيا لا يوجد اسم أكثر تحديدا من اسم العلم، فهو بالضرورة عائد إلى فرد متميز ومحدد، لكن هنا من الممكن أن يكون لدينا اسم علم فى حالة النصب مسبوقا بفعل فى صيغة ذاتية حيث يعامل الاسم كما لو أن الفعل غير متعد وليس له مفعول به. فمثلا (٣) olvassunk Balzacet (نقرأ

3 - See G. Kassai, contribution on the theme, "Grammaire textuelle et grammaire fonctionnelle" in Actes du XIe Colloque Int. De Linguistique fonctionnelle, Bologna, 1984; Padova, CLESP, 1985, pp. 51 - 52 (49-54).

بـلـزـاك)، حـيـث تـقـرأ بـتـصـريـف ذـاتـي وبلـزـاك مـفـعـول بـه، يـعـبر عـن ذـلـك فـي المـجـريـة بـتـصـريـف مـوضـوعـي olvassuk Balzac-cet فلمـتـكـلم المـجـريـة الـاخـتـلاف فـي المـعـنـيـن واطـمـح جـدا فـهـو مـعـبر عـنـه بـصـيـفـة صـوتـيـة فـي تـركـيـب الجـمـلـة، وـهـو لـيـس الشـئ نـفـسـه حـيـن يـتـرجـم إـلـى الفـرنـسيـة، فـكـيـف يـمـكـنـا أن نـؤـدـي هـذا الـاخـتـلاف عـند التـرجـمـة، دون أن نـسـتـخـدم شـروـحـا مـعـجـمـيـة مـعـقـدة لا تـخـفـف رـغـم دقـتـها مـن الصـعـوبـة. المـؤـلف الـذي اسـتـعـرت مـنـه هـذه الأمـثـلـة يـقـتـرح تـرجـمـة لـهـذا التـواجـه بـما يـمـكـن أن نـقـدمـه هـنا وإـن كان غـيـر دقـيـق تـمـاـما.

let us read Balzac

let us read some Balzac

(نـلـاحـظ أن أـدـاة التـبـعـيـض some تـعـمـل كـتـكـمـلـة مـحـدـدة تـسـتـخـدم مـع التـصـريـف المـوضـوعـي، لـأنـها الطـريـقـة الفـرنـسيـة للإشـارـة إـلـى إنـها مـسـألـة بـلـزـاك نـفـسـه لا غـيـره).

وـهـنـاك تـرجـمـة أكـثـر تـعـقـدا لـكـتـبـها تـعـكـس ما تـعـنـيـه الجـمـلـة هـنا بـاسـتـخـدام هـذـين التـوـعـيـن مـن التـصـاريـف.

let us read the books Balzac had written

دعنا نقرأ الكتب التي كتبها بلزاق للتصريف الأول الذاتي.

let us read what this man has put into his books of his personality, his character, his intimate nature.

دعنا نقرأ ما وصفه هذا الرجل في كتبه عن شخصيته وأخلاقه وطبيعته الحميمة. للتصريف الثاني الموضوعي.

هـذا الـاخـتـلاف بـيـن اللـغـات بـالنـسـبـة لـتـركـيـب الجـمـل لا يـسـبـب نـتـائـج خـطـيـرة لـمـصـيـر الأنـطـار حـيـن تـكـون القـضـيـة تـرجـمـة نـصـوص أدـبـيـة بـدقـة قـدر الإـمـكـان، وـلـكـن قـد تـنشأ مـشـاكـل خـطـيـرة حـيـن يـكـون النـص سـيـاسـيـا. مـثـل شـهـير عـلـى ذـلـك هـو القـرار المـشـهـور لـمـجـلـس الأـمـن ٢٤٧. وكـما نـعـرف فـإن إـسـرائـيـل اعـتـبـرت النـص الإـنـجـليـزـي لـهـذا القـرار هـو الصـيـفـة الرـسـمـيـة الـتـي تـعـتمـدـها، فـي حـيـن أن العـرب اعـتـبـروا النـص الفـرنـسي هـو الصـيـفـة الرـسـمـيـة.

كـيـف نـوضـح هـذا المـوقـف ؟ بـمـسـاطـة تـامـة جـزء مـن قـواعـد اللـغـة هـو الـذي اسـتـدـعـي هـذا

الترجمة ، وعالم اللغة و لقاء الثقافات

الاختيار السياسى ذا الأهمية الحاسمة للسلام فى الشرق الأوسط.

جاء فى اللغة الإنجليزية فى البند الأول لهذا القرار كما تضمنه ميثاق الأمم المتحدة :
إتسحاب القوات الإسرائيلية من أراض احتلت فى الصراع المعاصر -from territo-
ries، والنص الفرنسى يقول : الاتسحاب من الأراض Des territoires.

فى اليوم الذى صدر فيه القرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ كانت القوات الإسرائيلية تحتل مساحات معينة من أراض كانت قبل العنوان تابعة لثلاث دول مجاورة لإسرائيل هى مصر والأردن وسوريا، وهكذا كان من الضرورى معرفة هل القرار يطالب بالانسحاب من كل هذه الأراض أو من جزء منها فقط. فى اللغة الفرنسية لا بد من تحديد أى الجبارين هو المقصود، لأنه من الضرورى التمييز بين استخدامين لأداة التعريف الجمع مع de لتكوين des أو أداة تمييز الجمع، وفى اللغة الإنجليزية فى هذه الحالة ييجز سقوط أداة التعريف the أل تمييز التعادل فى المعنى الانسحاب من أراض أو من الأراض التى احتلت.

يمكننا ببساطة أن نرى المسؤولية التى يأخذها المترجم على عاتقه فى مواجهة ما يمكن فهمه خلال دقائق القواعد البيزنطية.

وفى كل الحالات التى ذكرناها تدل ممارسة الترجمة على التقيد فى الأنظمة اللغوية.

ولكن إذا نظرنا للأمر حسب محور التعاقب فى فحص المعطيات فإننا نرى الترجمة تشكل سمات مميزة للغات ساعدت فى خلقها لأنها قدمت من لغات أخرى. وتاريخ اللغة يقدم أمثلة كثيرة تطور فيها تركيب الكلمات فى الجمل فى لغة مفيدة تحت تأثير لغة أجنبية، كان الناس معها على اتصال منتظم، وأنتجوا منها تركيبات بلفتهم الخاصة لأنهم ببساطة ترجموها بوعى أو دون وعى. فالتعبير بكلمة أو أكثر كفاعل تكميلى لتتمة جملة دخل إلى العربية بهذه الطريقة عن الإنجليزية والفرنسية، ثم إلى التركية من العربية. ويمكن قول الشيء نفسه فى الاستخدام المتكرر للضمير الفاعل فى الصينية واليابانية الذى جاء من الإنجليزية، أو تطوير "أداة" فى الفنلندية المنطوقة على مثال السويدية، وأخيراً هذه الكميات من انبثاق تعبيرات وتركيبات من

فعل avoir لتحل بالتدرج محل être في لغات كثيرة مثل العبرية التي تأثرت من الترجمات الإنجليزية والفرنسية⁽⁴⁾.

الترجمة والأقسام الأقل صعوبة : المفردات

المفردات طوبولوجية topological⁽⁵⁾ مفتوحة للاستعارة، وفاعلية الترجمة، التي نخدمنا هنا ثانية كتجربة، تبين بوضوح أن نقل محتويات معجمية من لغة ما إلى أخرى أقل صعوبة بدرجة كبيرة من أن نقدم في لغة ما ما في لغة أخرى من نظام نحوي.

وحيث إن المحتويات المعجمية ليست بالضرورة مرتبطة بمصنفات اللغة فإنها حين تكون فنية أو دلالية تكون أكثر عملية في الترجمة، حيث يمكننا أن نترجم صيغة ما بنظام أو نتابع الكلمات، الفعل بصفة، الاسم بتعبير لفظي، والمصطلح بإعادة صياغته، وهكذا. وحيث إن المفردات حقل مفتوح، كما تبين الترجمة ذلك بوضوح، فهي أيضا الجزء من اللغة الذي تكون للترجمة سيطرة أكبر عليه. وما رأيناه منذ قليل بالنظر إلى التركيب المتعاقب ونقل التركيبات مثل التحول من être إلى avoir تظهر حقيقته بوضوح أكثر في المفردات. وقواعد اللغة تطرح مشكلات أكثر، حيث إننا لا نترجم كلمة بكلمة إلا حينما يمكننا ذلك، فالمورفيمات الضرورية في حالة ما (اللغات التي يتصرف فيها الفعل حسب الفاعل) التي لا توجد في لغات أخرى (التي لا يتصرف فيها الفعل حسب الفاعل) تهرب حتما من الترجمة كلمة بكلمة، وهكذا تظل الترجمة مرة ثانية كاختيار ملئ بالمعلومات لعلم اللغة.

في هذه الحالة، حيث تظل المعلومة محدودة تماما، لم نعد في حقل الاضطراب كما كنا في القواعد اللغوية، إلا أنه ما يزال هناك صعوبات. يظهر هذا بوضوح من تاريخ المشروع الكبير في الترجمة في كل العصور. مشروع أثر يحمق على مصير كثير من اللغات، وهو ترجمة الإنجيل من اللغة الأرمنية إلى اللغة البلغارية مرور بالجرمانية واليهودية الأسبانية، المفردات وأساليب الصياغة في هذه اللغات تلت طابعا حاسما عند الترجمة من العبرية أو اليونانية أو اللاتينية. وبالنسبة للغات التي ليست قريبة إلى اللغات الأصلية، مثل الصينية، لم يكن هذا المشروع ناجحا تماما.

4 - See C. Hagège, *L'homme de paroles*, op.cit., p. 249.

5 - For more details on this point, see Ch. II of Hagège, *Le français et les siècles*, soon to appear in Éditions Odile Jacob, 1987.

الترجمة ، وعالم اللغة و لقاء الثقافات

ولقد اتضح^(٦) أن الآباء الجزويت، الذين كان بينهم المشهور "ماتيو ريكى"، لم ينجحوا حقيقة - بالنسبة للترجمة إلى الصينية - بالرغم من جهودهم فى إقرار التعبيرات المترجمة لأفكار "الله" و "المجهر" و "الاستحالة" (التغيير من حال إلى حال)، فقد جاءت الترجمة حسب الترتيب "سيد السما" tiandis الذى أقام نفسه بنفسه zilizhe، ما يعتمد على شئ آخر Yilaizhe، ففى وجهة النظر الصينية التمييز هنا مصطنع تماما ويلا مبرر، لسبب بسيط هو أن اللغة لا تمدنا بشئ مشابه.

يبدو إذن أن إمكانية المعجم فى أن يستعير من خلال الترجمة محدودة بالآليات الترابط داخل اللغة التى تغذى الماديات الثقافية لتكلميها، لذلك نجد أنه قد يوجد بين لغتين مسافة بعيدة فى المكان والزمان، حيث كنا نعتقد أن المعاجم تحفظ التركيبات لنقلها فى الصيغ النحوية.

هنا خاصية مؤكدة وكبيرة للغات الإنسانية، إنها مرتبطة بالثقافات التى تقدمها ببرنامج تعاقبى تبادلى مشترك، مؤثر بمعنى أن ثقافة جماعة إنسانية ما تغذى لفتها بأعطائها بعد فترة من الوقت مميزات تنعكس من خلالها هذه الثقافة. لكن لو سرنا فى اتجاه معاكس لرأينا أن اللغات تخلق أساليب وصيغا للتعبير تغذى صيغ الفكر، والنتائج فى الحالات المتطرفة يكون عقبة عند الترجمة، فليست اللغات هى التى تترجم فقط ولكن الصيغ الثقافية أيضا.

قيل إن الترجمة كانت دائما ممكنة، حتى لو كانت غالبا صعبة ومركبة، والتعبيرات التى تبدو للوهلة الأولى غير عادية، أولا تقدم ما اعتدنا أن نتوقعه فى النهاية، تصبح مع بعض الاستثناءات مقبولة. المثال الصينى الذى عرضناه واحد من هذه الاستثناءات، ولا بد من أن نضعه مقابل الحالات الكثيرة من الترجمات الناجعة أو تلك الترجمات التى بدأت تكون مقبولة فى مشروع آخر لا يخص الإنجيل، ولكن تكييف المفردات للأفكار الجديدة والتكنولوجيا الحديثة.

فالدول الصغيرة النامية، التى حققت استقلالها حديثا، كان لها الخيار بين استعارة المفردات المالية الغامضة، أو الشروح المعجمية الوطنية الواضحة، عن طريق

6 - See J. Gernet, Chine et christianisme, action et réaction, Paris, Gallimard, 1987.

حل وسط، مثل المحاكاة في اللوازم المحلية بكلمات أخرى. فكثير من اللغات الإفريقية أو البولونيزية ترمز إلى الطائرة airplane بالكلمة التالية erplen باستعارة واضحة بسيطة. من الكلمة الإنجليزية، من ناحية أخرى يمكنهم ترجمتها بمبادل موضوعي بالتعبير عنها بعبارة "زورق طائر" الذي توجد جزوره اللغوية عندهم ومن خلال عملية التكوين واستغلال المعنى بقول، شيء ما لتكلميه على الأقل، لا يكون غامضا كالمصطلح الإنجليزي الشائع دوليا.

هذا هو الحل الوطني الذي تبنته - غالبا اللغة السواحلية، فمثلا عند ترجمتهم كلمة نباتي botonical استخدموا تركيبة من لغتهم هي : elimu + mimea علم النبات، بالإضافة إلى ذلك فاللغة التركية والعبرية يمكن أن تعطيا مثلا للشعوب الصغيرة في إثراء مفرداتها الفنية، حيث استغلت كلتا اللغتين جدورا محلية بقدر الإمكان، وكان هذا أحيانا على حساب التقريب الذي يشبه اللعب على الكلمات، ولكن ينجح، خاصة حين تكون هناك فرصة للتشابه في الصيغة والدلالة بين الكلمة الأجنبية المرفوضة والكلمة المحلية التي اختيرت، ولحسن الحظ دخلت اللغة كلفظ مستحدث. وهكذا نرى في التركية أن école هي okul من الجذر التركي oku يقرأ، وأن social أصبحت soysal من soy، وفي العبرية elite أصبحت ilit من ili بمعنى متفوق، وقدنا المجرية بمثل آخر : element أصبحت elm من elo.

نرى، إذن، أنه مهما كانت الطرق التي اختيرت، حتى لو كانت النتائج ليست دائما مناسبة، فإنه من الممكن دائما أن نترجم فيما يختص بالكلمات، كل ما يلزمنا إرادة قوية. ويعطينا التاريخ بعض حالات الترجمات المخالفة، أمثلها مؤسسات سياسية معينة. مثلا المعاهدة التي وقعت في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٨٥ بين المندوبين الفرنسيين وممثلي ملكة مدغشقر، لوضع نهاية لسنة ونصف من العداء، هذه المعاهدة، كاستغلال للوصايا الفرنسية على الجزيرة، احتوت على فقرة كانت مصدرا لمختلف التفسيرات، أدت إلى صراعات، مع أن الأمر ببساطة هو معرفة هل سيكون البلد مستقلا أو غير مستقل.

فالنص المترجم عن أصل فرنسي لدى أهل مدغشقر يقول "إن فرنسا تسهر على العلاقات بين مدغشقر و ny fanjakana any ivelany، وهذا يعني حرفيا الحكومات الأجنبية أو الخارجية، ولكن الفرنسيين مستخدمين المعنى الثاني فهموا من

الترجمة ، وعالم اللغة و لقاء الثقافات

النص أن للمقيم الفرنسي فقط الحق في تفويض القناصل الأجانب، في حين أن وزراء مدغشقر مستخدمين المعنى الأول اعتبروا أن ملكتهم فقط هي المخولة من هذه الناحية، ففرنسا تمثل فقط مصالح مدغشقر في الخارج^(٧). ولم تكن المسألة سهلة، فالمفسرون الرسميون لفرنسا وقفوا بجانب الوصي الفرنسي في مدغشقر.

يمكننا أن نضاعف الأمثلة، ونضيف جدلا آخر، ففاعلية الترجمة ليست في الممارسة اليومية للغوى المحترف فقط، إنها غنية بالمفاجآت في الطبيعة العميقة للغات. لم نعر انتباهها كافيا هنا لكل ما علمتنا إياه الترجمات العظيمة عن تاريخ المهنة والطريقة التي كيفت بها ممارساتها، إلى استملاء الجمهور لتقبل ما قدمته من ترجمات عن نصوص أجنبية.

فترجمة "ألف ليلة وليلة" على يد أ. جالاتد سنة ١٧٠٤ تزودنا بصورة طريفة حول هذا الموضوع، فحينما ندرس هذه الترجمة دراسة دقيقة نجد أن الاختلافات التي يمكن أخذها في الاعتبار وتكررت كثيرا لا تعنى، بالنسبة إلى النص الأصلي العربي، أن "جالاند" لم يكن متمكنا من اللغة العربية، بل على العكس، فإن ملاحظاته في الهوامش على المخطوطة في المكتبة الوطنية تبين اهتمامه بالدقة ومعرفة بالعربية بدرجة ملحوظة. ومع ذلك فإنه في ذلك العصر المتشكك تعطينا الترجمة تصورا محكما بالحاجة إلى خدمة الجماهير بما يتفق وذوقها لا إلى صدقها بقسوة لا تستطيع هضمها^(٨). لكن الوضع مختلف تماما اليوم بل هو على عكس ما مضى.

ولكن إذا كان يشمن بعض عدم الولاء للغة، يمكننا أن نترجم بهذه الدرجة في أي لغة إلى أخرى، مهما كانت طبيعة النص، فإنه بسبب ارتباط اللغات جميعا بأسس عامة.

وأخيرا نفهم طبيعة الاهتمام الكبير للغوى بالترجمة، فإمكاناتها تعتبر مدخل كبير في الملف الباحث عما يربطنا جميعا.

7 I thank M.J. Faubléc, professor of Malagasy for having helped me to identify the Malagasy version.

8 For more details on this point, see Hagège, "Traitement du sens et fidélité dans l'adaptation classique: sur le texte arabe des Mille et une nuits et sa traduction de Galland," Arabica, Vol XXVII, 2, pp. 114-139.

تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها

. لو أنك أنعمت النظر فى اللغات السائدة فى عدد من المناطق الجغرافية - وبخاصة فى منطقة المحيط الهادى - لما فاتك أن تلاحظ أن التراكيب المعقدة فى بعض هذه اللغات جنحت إلى التبسيط ، بل انقرضت تماما من هذه اللغات بانقراض الثقافة التقليدية للمتكلمين ، أو اضمحلالها بالتدريج . وجدير بالذكر أن ظاهرة التبسيط وزوال التعقيدات النحوية أوضح ما تكون فى اللغات البابوانية (نسبة لجزيرة بابوا) فى منطقة غينيا الجديدة ، وفى لغات السكان الأصليين بقارة أستراليا . وكلا هذين النوعين من اللغات حافل بالتراكيب اللغوية . ولكن هذه التراكيب أكثر شيوعا فى اللغات البابوانية منها فى اللغات الأسترالية . وتجنح هذه اللغات إلى التبسيط أكثر مما تجنح اللغات الأخرى فى منطقة المحيط الهادى ، كاللغات الأسترونيزية التى تسمى أحيانا "اللغات الملايو - بولينيزية" وإن لم تغلُ هذه اللغات من هذه الظاهرة النحوية تماما .

ومن التعقيدات النحوية التى طرأ عليها التبسيط تقسيم الأسماء إلى عدد

المترجم: أمين محمود الشريف

تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها

من الأقسام المختلفة . وهذه الظاهرة تشبه نظام تقسيم الاسم إلى مذكر ومؤنث فى اللغات الهندية الأوروبية مثل : الفرنسية ، الألمانية ، والروسية ، والويلزية، والهندية ، وغيرها كثير . ولكن هذه الظاهرة أكثر تعقداً فى اللغات البابوانية منها فى اللغات الهندية الأوروبية ، مع ملاحظة أن عدة لغات بابوانية حافلة بعدد كبير من أقسام الأسماء المختلفة . وقد لوحظ بوضوح فى عدد من اللغات البابوانية أن نظام تقسيم الأسماء يستند إلى عدد من المفاهيم فى الثقافة التقليدية للمتكلمين ، كما يعكس تقسيم العالم المحيط ، لمتكلمين إلى عدد من الوحدات المتميزة والمستمدة من العالم الخارجى المشاهد مثل الأشجار والحيوانات والنباتات ، ذات الأهمية فى الحياة المحلية التقليدية ، كالعسل فى البساتين والحدائق ، واستخدام الماء ، ومثل الأشياء المرتبطة بوقت الليل حيث تنتشر الأرواح المخيفة ، أو الأشياء المرتبطة بأحد الجنسين من الذكور والإناث ، سواء فى سن الطفولة أو سن المراهقة قبل تعليمهم الطقوس السرية للقبيلة ، أو فى سن الرشد والرجولة . وواضح أن الأساس الذى يقوم عليه تقسيم الأشياء ، والظواهر المروية ، سواء أكانت تتعلق بالطبيعة أم الكائنات البشرية ، يعكس سمات الثقافة الأصلية أو التقليدية عند الشعب الذى ينسب سمات أو قيما معينة إلى هذه الأشياء ، مع تخصيص أقسام مستقلة للأسماء والكلمات الدالة على هذه السمات والقيم .

ومن السمات الأخرى للتركييب اللغوية التى طرأ عليها التبسيط والانقراض التدريجى بانقراض الثقافة التقليدية عند المتكلمين بهذه اللغات ! بعض خصائص الأفعال المعبرة عن العلاقات الزمنية التى تهتم أهل الثقافة الوطنية ، أو بعض الإشارات الدقيقة فى تركيب الأفعال إلى العدد الدقيق للفاعل ، والمفعول به ، الذى يقع عليه فعل الفاعل .

وقد لوحظ أن اختزال التراكيب النحوية المعقدة أو تبسيطها أو انقراضها ، على نحو ما سلف ذكره ، يزداد وضوحاً مع صغر سن المتكلمين . وذلك أنه كلما قلت سن المتكلمين وهتت الصلات التى تربطهم بثقافتهم التقليدية ، وغاض معين

معرفتهم بالأهمية الثقافية للمفاهيم التي تركزت عليها بعض التراكيب النحوية المعقدة، مثل تقسيم الأسماء وتراكيب الأفعال . وإلى جانب جهلهم وعدم تقديرهم لسمات ثقافتهم التقليدية ، يعمل الشباب في كثير من أنحاء غينيا الجديدة إلى معارضة خصائص ثقافتهم التقليدية ، بل قد تمتد هذه المعارضة إلى رفض استعمال لغاتهم التقليدية ، أو بعض الخصائص المعقدة في هذه اللغات .

ولنذكر على سبيل المثال بعض الأسئلة العامة لعملية تبسيط وانقراض بعض الخصائص النحوية المعقدة في لغات منطقة غينيا الجديدة ، وأستراليا . من ذلك انقراض تقسيم الأسماء المعقد الذي لاحظته "ليكوك" (١٩٧٥) لأول مرة في أثناء أبحاثه بالجزء الشمالي من منطقة بایوا / غينيا الجديدة في (١٩٧٠ - ١٩٧١) حيث درس لغة "بونا" ، إحدى اللغات البابوانية في المنطقة . وكان "كرشوم" (١٩٣٦) قد ذكر وجود نظام للأسماء شديد التعقد في هذه اللغة يضم ١٢ قسما ، ولكن لم يبق في (١٩٧٠ / ١٩٧١) أي أثر لهذا التقسيم ، بل إن الشيوخ ، الذين ظلوا على قيد الحياة حين أجرى كرشوم أبحاثه ، لم يعولوا يتذكرون شيئا عن هذا التقسيم ، ولاحظ ليكوك (١٩٧٣) أمرا مماثلا ولكنه أكثر غرابة بشأن لغة (موريك) وهي لغة بابوانية أخرى من لغات المنطقة في إقليم بایوا / غينيا الجديدة وخلصته أن شميدت (١٩٥٣) كان قد ذكر وجود نظام معين لتقسيم الأسماء ، ولكن ليكوك اكتشف بعد عشرين عاما أن هذا النظام انقرض من اللغة . ومن اللغات البابوانية الأخرى في المنطقة لغة "ماونتین أرابيش" التي ذكر المراقبون السابقون أنهم وجدوا فيها نظاما معقدا للأسماء ، ولكن ليكوك اكتشف أن هذا النظام في طريقه إلى الزوال .

ومن الأمثلة الأخرى لنظام أقسام الأسماء الشديد التعقد والأخذ في الانحلال والزوال ذلك المثال المستمد من لغة "أبيو" الشائعة في جزر ريف بأرخبيل سانتا كروز الواقع عند أقصى الطرف الشرقي من سلسلة جزر سليمان (سولومون) ، مع ملاحظة أن انحلال هذا النظام وزواله يتناسبان طرديا مع تناقص أعمار المتكلمين بهذه اللغة . وهي لغة أبوانية تتأثر بشدة باللغات الأسترونيزية (الملايو بولينيزية)

تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها

وبخاصة في مفرداتها ، وتمتاز بنظام لتقسيم الأسماء مبنى على دلالة الألفاظ ، واستخدام سابقة (أو بادئة ، وهي أداة تضاف إلى أول الكلمة لتكسيبها معنى جديداً) في صدر كل اسم للدلالة على قسم هذا الاسم . ويلاحظ في ١٦ قسماً من أقسام الأسماء ولا سيما المصدرة سابقة أن الصفات والأعداد والمجرورات والضمائر الشخصية كلها توافق الأسماء المصاحبة لها في التذكير والتأنيث . وهذه الموافقة تشبه - إلى حد ما - ما هو معروف في اللغة الفرنسية أو الألمانية . ويلاحظ أن مدى هذه الموافقات التي تسمى في علم اللغويات باسم "الموافقات النحوية" يختلف باختلاف أقسام الأسماء . مثال ذلك أن خمسة فقط من أقسام الأسماء تظهر فيها الموافقة التامة بين الصفات والأعداد والمجرورات وبين أقسام الأسماء المصاحبة لها . ولكن في أربعة أقسام أخرى من أقسام الأسماء لا تظهر الموافقة إلا مع الصفات والمجرورات دون الأعداد . وفي خمسة أقسام أخرى لا تظهر الموافقة إلا مع الصفات، وقلما تظهر مع الأعداد . وفي قسمين آخرين لا توجد الموافقة إلا مع الأعداد .

وإلى جانب هذه الأقسام الستة عشر يوجد أكثر من ٣٠ قسماً في اللغة تمتاز أيضاً بسابقة مضافة إلى الاسم . ولكن الصفات والمجرورات تكون مسبقة ببادئة (سابقة) تدل على أنها تصاحب - بصورة مباشرة - اسماً معيناً دون أن يكون لهذه البادئة أشكال متفرقة تدل على الأقسام المختلفة التابعة لها .

وجدير بالذكر أنه كلما تقاصرت أعمار المتكلمين باللغة تجاهلوا نظام الموافقات النحوية المشار إليه آنفاً . فمنذ عشرين عاماً مضت كان المتكلمون من كبار السن يتبعون نظام الموافقات النحوية عندما يتكلمون اللغة ، أما اليوم فهم تارة يتبعونه وتارة يخالفونه .

ومن الواضح أن النظام الذي يتجاهل الموافقات النحوية أصبح هو المحصلة النهائية لاطراد التبسيط في اللغة ، وزوال التراكيب النحوية المعقدة . وأغلب الظن أن

نظام الموافقات النحوية كان منذ أجيال قليلة أكثر تعقدا مما سبق ذكره .

ومن أمثلة التبسيط الذي حدث في اللغة ، وانقراض التراكيب النحوية المعقدة ، ما طرأ من تغيير على تراكيب الأفعال في لغة "أيلاند كيواي" الشائعة في دلتا نهر فلان بالجنوب الغربي من إقليم "بابو - غينيا الجديدة" . وبيان ذلك أن هذه اللغة تشتمل على أربعة أنواع من الأفعال متعددة العدد هي الفعل المفرد ، والفعل المثنى ، والفعل الثلاثي ، والفعل المتعدد . وتتميز هذه الأفعال الأربعة بسابقة أو لاحقة . وهذا التقسيم العددي في الأفعال ينطبق أيضا على بيان الفاعل والمفعول في صيغ الأفعال . وفي هذه اللغة ست صيغ زمنية؛ اثنان منها للماضي ، وواحدة للحاضر ، وثلاث للمستقبل . وتتميز هذه الصيغ الزمنية بنظام معقد من السوابق واللاحق ، وصيغ زمنية خاصة للسوابق واللاحق التي تبين عدد الفاعل ، وصيغ زمنية خاصة لسوابق الفاعل مع الإشارة إلى الزمن مرات عديدة في كثير من صيغ الأفعال . وفي هذه اللغة أيضا طرق معقدة لنظام الحدث تبين وقوع الحدث في لحظة معينة أو تكراره أو استمراره أو عدم وقوعه بصورة كاملة إلخ ، وكذلك تتبين ثلثانية الحدث (حدثه بطريقة ثلثانية ذاتية) ، واستخدام الحدث لفرض معين إلخ ، كما يوجد في اللغة نظام معقد للصيغ الاعتيادية (الدالة على العادة) ، وعدد مختلف من صيغ الأمر ، وغير ذلك من الصيغ المعقدة للأفعال .

وجدير بالذكر أنه كلما تقاصرت أعمار المتكلمين تقدمت عملية التبسيط في تركيب اللغة . وهذا يعني أن التبسيط يتناسب تناسباً طردياً مع زيادة الإلمام باللغة الإنجليزية ، وارتفاع مستوى الثقافة الحديثة عند المتكلمين . ويتجلى كثير من التبسيط في تحويل الصيغ النحوية من مجال الوجوب إلى مجال الجواز ، بمعنى أن المتكلمين قد يلتزمون أحيانا بالأعداد والأزمنة المعقدة إلخ ، ولكن كلما تقاصرت أعمارهم اختزلوا الأعداد إلى مفرد وجمع فقط واستخدموا ثلاث صيغ زمنية فقط : " صيغة الماضي ، وأخرى للحاضر ، وثالثة للمستقبل ، دون أن يبينوا كثيرا مما سبق ذكره في صيغ الأفعال وإن فعلوا ذلك أحيانا .

تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها

وانظروا لك مثلاً يوضح ذلك من إحدى لغات السكان الأصليين في أستراليا ،
التي هي لغة "كاميلا روي" التي شاع استعمالها سابقاً في شمال مقاطعة "نيو ساوث
ويلز الوسطى" فنقول " وصف هذه اللغة عند من اللغويين منذ قرن مضى ، فقالوا إن
من أبرز خصائص هذه اللغة وجود نظام للأزمنة في غاية التعقيد ، حيث توجد صيغ
خاصة من الأفعال تبين أوقاتاً معينة من أوقات النهار كشرق الشمس وغروبها . وقد
دار حوار مسجل مع آخر الفصحاء في هذه اللغة ممن يتكلمونها بطلاقة ، وتبين من
حديثهم أن كثيراً من هذه الأزمنة المعقدة قد انقرضت من اللغة بعد أن كان في
العصور السابقة على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للدورات السلوكية عند حيوانات
الصيد . وكان هؤلاء المتكلمون الفصحاء من كبار المسنين الذين كفوا عن الصيد منذ
عشرات السنين . ولذلك لم يعد هذا النظام المعقد من الأزمنة المتعلقة بسلوك حيوانات
الصيد يهمهم في شيء ، ومن هنا انقرضت من لغتهم .

ومما تقدم ذكره يتبين أن تبسيط الصيغ النحوية وانقراضها في عدد من لغات
غينيا الجديدة وأستراليا يرجع إلى ما طرأ من تغيير على ثقافة الناطقين بهذه
اللغات . ويبدو واضحاً أن ضغط الثقافة الأوربية النخيلة أدى بالتدريج إلى القضاء
على الثقافة التقليدية للمتكلمين بهذه اللغات ، فحلت محلها صورة من الثقافة الأوربية
لم تستوعبها أفهام هؤلاء القوم في أغلب الأحيان ، وكانت النتيجة أن أصبحت
المفاهيم القومية التقليدية المعقدة أمراً لا ضرورة له ، بعض انقراض الثقافة
التقليدية بكل مفاهيمها .

غير أن بعض اللغويين يحتجون عادة بأن تغير التراكيب اللغوية ينشأ عن التأثير
المباشر الذي تمارسه إحدى اللغات على لغة أخرى في أثناء اتصال اللغات بعضها
ببعض . ولكن يعترض على هذا الرأي بأن كثيراً من شباب المتعلمين الذين يجنحون
في كلامهم إلى تبسيط التراكيب النحوية على النحو الذي سلف ذكره لا يعرفون اللغة
الإنجليزية التي هي لغة الثقافة الأوربية النخيلة في ذلك الجزء من العالم . وهنا يبدو
شيء من التناقض بين ما ذكرناه فيما سبق وبين رأي اللغويين السالف الذكر .
والتوفيق بين هذين الرأيين نقول إن اللغة الإنجليزية الركيزة المعروفة باسم Pildgin

تؤدى دورا حيويا فى هذا المجال . ذلك أن معظم أفراد الجيل الناشئ فى منطقة غينيا الجديدة يعرفون هذه اللغة الإنجليزية الركيكة التى تعكس فى تراكيبها تفكير الوطنيين ، ولكن بصورة مخففة . مثال ذلك أن نظام أقسام الأسماء غير معروف فيها وأن نظام الأزمنة لا يبدو فيها إلا بصورة أولية ، وإن كانت هذه اللغة لا تخلو من بعض التراكيب المعقدة . ويبدو واضحا أن تغيير المفاهيم الوطنية يرجع فى الواقع إلى تدخل أساليب التفكير الأجنبية بواسطة أداة لغوية خاصة ، هى اللغة الإنجليزية الركيكة التى تمثل مرحلة انتقال بين المفاهيم الأوربية والمفاهيم الوطنية ، ولكن هذه اللغة تمتاز بأنها مبسطة فى تراكيبها بحيث لا تصف بالدقة الزائدة المعروفة فى تراكيب اللغة الوطنية الأصلية . ولذلك يوجد فى غينيا الجديدة اتصال لغوى عن طريق هذه الإنجليزية الركيكة التى تساعد على إقحام مفاهيم غربية أجنبية فى مفاهيم الثقافة الوطنية ، وفى الوقت نفسه تشكل وسيلة مبسطة للتعبير ، وبذلك تمارس ضغطا يفضى إلى اختزال التعقيدات النحوية فى اللغات القومية التى تجنح إلى اختيار مفاهيم من الثقافة البسيطة ، وإقحامها فى مفاهيمها التقليدية . ويعزز هذه العملية أن شباب الناطقين باللغات الوطنية هم أنفسهم الذين يزدهنون إلماها بهذه المفاهيم الأجنبية .

ونواصل الكلام فى هذا الموضوع فنقول : إنه يجدر بنا أن ننظر إلى ظاهرة أخرى شائعة فى كثير من اللغات البابوانية ، هى ما يسمى "بالأفعال المتوسطة" ، وهى الأفعال التى تقع فى وسط الجملة وقبل الفعل الأخير (الذى هو الفعل الأساسى) . فبينما تجد الفعل الأخير فى الجملة مُعْرَباً أى يتغير بتغيير الأشخاص والأعداد والأزمنة ، وغير ذلك من السمات النحوية ، نجد الفعل المتوسط يكون مبنيا (غير معرب) ، ولكن على القارئ أن يستنبط مما يدل عليه الفعل الأخير بعض السمات النحوية ، مثل شخصية الفاعل (هل هو المتكلم أم المخاطب أم الغائب) وعدده إلخ . وفى كثير من اللغات علامات خاصة فى صيغ الأفعال المتوسطة تبين: هل فاعل الفعل المتوسط وفاعل الفعل الأخير هما شخص واحد أم شخصان مختلفان، وإذا كانا مختلفين فما وجه الاختلاف بينهما ، مثال ذلك : هل فاعل الفعل الأخير هو المتكلم ، وهل فاعل الفعل المتوسط هو النائب . وهناك طرق خاصة فى صيغ

تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها

الفعل المتوسط تبين وجه الارتباط بين هذين الحدثين : الحدث الذى تدل عليه صيغة الفعل المتوسط ، والحدث الذى تدل عليه صيغة الفعل الأخير ، كإن تبين - مثلا - هل الحدثان متتابعان فى الحدث أى يحدثان على التتابع ، أم يحدثان فى وقت واحد ، أم أن الحدث الثانى هو نتيجة للحدث الأول ، وهكذا . وجدير بالذكر أن استقصاء أوجه الارتباط بين الحدثين شديد التعمد لأن المفاهيم المختلفة التى تكمن وراء ذلك تختلف أحيانا كل الاختلاف عنها فى اللغات الأوربية ، وترجع المفاهيم فى اللغات البابوانية إلى الثقافة التقليدية ، كما تعكس أساس التفكير فى هذه الثقافة .

وقد لوحظ أن شباب الناطقين باللغات المشتمة على مثل هذه الأفعال المتوسطة المعقدة يميلون إلى تبسيطها بصورة ملحوظة ، ويجنحون بصلة خاصة إلى نبذ الصيغ المشتمة على ملامح التفكير فى الثقافة التقليدية ، كما يجنحون فى الوقت نفسه إلى استعمال بعض طرق الدلالة على المفاهيم الخاصة بالارتباط بين الأحداث الموجودة فى اللغات الأوربية وبخاصة اللغة الإنجليزية الركيكية . وعلى الرغم من أن هذه اللغة أو اللهجة الركيكية (وبخاصة اللهجة التى تداولتها الأكسنة منذ أكثر من ربع قرن مضى فى مرتلعات بابوا - غينيا الجديدة حيث توجد فى معظم اللغات البابوانية المحلية نظم معقدة من الأفعال المتوسطة) تتضمن بعض التراكيب المشتمة على صيغ الأفعال المتوسطة بطريقة أولية (ويرم ، ١٩٦٦) فإنها فى تراكيبها الأساسية تشبه اللغات الأوربية فى هذه الناحية ، وتشغل مركزا مقوسا بين طريقة التعبير فى اللغات الغربية ، واللغات البابوانية فى منطقة غينيا الجديدة . وهناك نوعان من صيغ الأفعال المتوسطة تحول فيها الشباب بصورة واضحة عن طرق التعبير التقليدية ، وهما الصيغ المميزة بين معرفة شخصية الفاعل فى كلا الفعلين وعدم معرفتها ، والصيغ الدالة على سبب الحدث . وفى اللغات البابوانية يختلف مفهوم السبب اختلافا جذريا عنه فى اللغات الأوربية ، ولكننا نلاحظ هنا بوضوح موقفا تراجمت فيه الثقافة التقليدية كليا أو جزئيا بتأثير الثقافة الأوربية الدخيلة مما أدى إلى لتحال مفاهيم هذه الثقافة وأساليب التفكير فيها مع ازدياد هذا التأثير بتقاصر أعمار المتكلمين الوطنيين باللغات المحلية . وكانت أداة هذا التطور هى الإنجليزية الركيكية التى قامت بدور الوسيط فى انتقال المفاهيم بين الثقافتين .

وجدير بالذكر أن ما ذكرناه آنفا تؤيده المشاهدات المستمدة من منطقة ولغة أخرى مختلفة تماما ، ألا وهي اللغة الريكية الحديثة . وبيان ذلك أن اللغة التركية تشتمل أيضا على أفعال متوسطة تتسم ببعض التعقيد ، وإن كانت هذه الأفعال أبسط تركيبا من نظائرها في اللغات الباليوانية . فمنذ نصف قرن كانت هذه الأفعال المتوسطة تستخدم في العقد الرابع من هذا القرن بكثرة في اللغة التركية ، وكانت الصلة بين صيغ الأفعال الشبيهة بما هو موجود في اللغات الأوربية الغربية ضعيفة للغاية باستثناء حالات قليلة جدا ، مستمدة من اللغة الإيرانية التي هي أيضا لغة هندية أوربية ، تتعاقب فيها الأحداث التي تستعمل صيغا فعلية وتراكيب صرفية شبيهة بما هو موجود في اللغات الأوربية ، بيد أن الجيل الناشئ من الأتراك يميل ميلا واضحا إلى أن يستخدم في الجمل التي تشتمل على فعلين أو أكثر أفعالا معربة إعرابا كاملا في كل المواضع مع استخدام "واو" العطف وغيرها من أدوات العطف بين هذه الأفعال . وظلوا يستخدمون الصيغ المتوسطة أيضا ، ولكن بقدر قليل . ويبدو أن هذه الصيغ أخذت تنقرض من لغة الشبان الأتراك شيئا فشيئا . وتشاهد هذه الظاهرة في المدن الكبرى بصفة خاصة مثل استانبول . ويبدو أن السبب في هذا التطور يرجع إلى اتصال عدد كبير جدا من الأتراك بالثقافة الغربية وبخاصة الألمانية خلال العقد الأخيرة التي نزع فيها عدة آلاف من الأتراك إلى بلدان أوروبا الغربية ، وبخاصة ألمانيا ، كما نزحوا إلى بلاد أخرى كعمال مهاجرين . وأقام الكثير منهم في تلك البلدان عشرات السنين ، ونشأ أطفالهم في تلك البقاع واصطبغوا بالصيغة الغربية في تفكيرهم وميولهم واتجاهاتهم . وفي الوقت نفسه نشأت لهجات لغوية ريكية من اللغات المحلية وبخاصة اللهجة الألمانية الريكية ، وصارت هذه اللهجات أداة اتصال بين الأتراك والسكان المحليين . وكانت هذه هي الأداة اللغوية التي عرف الأتراك عن طريقها مفاهيم السكان المحليين بطريقة أولية ، كما عرفوا أيضا التراكيب الموحدة في اللغات المحلية . ولما كان التفكير والتعبير يختلفان في اللغة التركية عنهما في اللغة الألمانية - مثلا - اختلافا جذريا ، ولما كانت الإشارة إلى الحدث في الجملة الألمانية تتم باستعمال عدد من الأفعال المتعاقبة مع عطف كل فعل على الآخر ، في حين أن الفعل الأخير في اللغة التركية هو الفعل الرئيسى وبقية الأفعال المتوسطة الأخرى تابعة له ، فقد كان المحاولات الأولى من جانب المتكلمين الأتراك للتعبير عن أفكارهم بالألمانية أو بلغة محلية أخرى في أوروبا تأثير عميق

تغير اللغات نتيجة لتغير الثقافة وانقراضها

على أفكارهم التي يعبرون عنها في لغة الكلام . وكانت ممارستهم لهذا الأمر خلال عشرات السنين وتعلم كثير من أفراد الجيل الناشئ اللغة الألمانية كاملة أثر عميق على تفكير وتعبير الأتراك الذين أقاموا في أوربا وبها طويلا من الزمن.

وعند عودة عدة آلاف منهم إلى تركيا في السنوات الأخيرة ، مع استمرار هذا الاتجاه لديهم بكل قوة ، جلبوا معهم أسلوبا جديدا من التعبير اللغوي . ولما كان هؤلاء الأتراك العائدون يحظون بقدر كبير من الاحترام لدى الشعب بفضل ما جلبوه معهم من مال وخبرة ، فضلا عن تحرر أفكارهم ، فإن الناس احترموا أسلوب حديثهم وقلدوه فيه ، وبخاصة الجيل الناشئ ، مما أدى إلى الموقف السالف الذكر بشأن الطريقة التي يستخدم بها اللغة كثير من شباب الأتراك اليوم .

وهذا أيضا نرى موقفا تمارس فيه ثقافة مهيمنة تأثيرا قويا على ثقافة أخرى تختلف عنها تمام الاختلاف عنها سواء في أسلوب التعبير اللغوي أو في استخدام صور مفاهيمية من التراكيب في لغة الكلام . ويؤدي هذا التأثير القوي إلى التقريب بين اللغة المؤثرة والمتأثرة من حيث التراكيب اللغوية . ويتم ممارسة هذا التأثير بواسطة أداة لغوية مفهومة للمتكلمين باللغة المؤثرة واللغة المتأثرة . وتقوم هذه الأداة بدور الوسيط بين الثقافتين وأساليب التفكير في كل منهما .

ولذلك يبدو أن السبب في تبسيط صور التراكيب اللغوية المعقدة وانقراضها نهائيا من اللغة هو في أساسه نتيجة تغير وزوال الثقافة التقليدية عند المتكلمين بهذه اللغة ، بتأثير قوى من ثقافة مهيمنة ، تختلف أساليب التفكير فيها اختلافا تاما عما هو سائد في اللغة الواقعة تحت هذا التأثير . وبالمثل فإن التراكيب المعبرة عن الأفكار في اللغة التابعة للثقافة المسيطرة تختلف تماما عن التراكيب المعبرة عن الأفكار في لغة الثقافة التقليدية المتأثرة بالثقافة المسيطرة ، ومن الضروري وجود أداة لغوية تقوم بدور الوسيط بين الثقافتين حتى يحدث هذا التأثير . وعادة ما تكون هذه الأداة عبارة عن "لهجة ركيكة" تكون بمثابة "همزة الوصل" بين الثقافتين . ولذلك يبدو أنه

ليس ثمة وجه للتناقض بين الرأي الذى عبرنا عنه هنا (أى رأى القائل بأن تغير التراكيب اللغوية ليس نتيجة الاتصال بين اللغات فى حد ذاته ، بقدر ما هو نتيجة لإقحام أفكار أجنبية فى ثقافة الناطقين باللغة التى تغيرت تراكيبها) وبين الرأى الذى يذهب إليه عامة اللغويين ، ومؤداه أن التغيرات التى تطرأ على التراكيب اللغوية هى نتيجة مباشرة للاتصال بين اللغات . وعلى الرغم من أن إقحام الأفكار الأجنبية فى الثقافة الوطنية هو السبب الأساسى فى تغير التراكيب اللغوية نتيجة تغير المفاهيم فى اللغة المتأثرة ، فإن الانتقال الآلى المباشر لمفاهيم الثقافة الجديدة إلى الثقافة المتأثرة ، وانتقال التراكيب اللغوية التى تقوم بوظيفة التعبير عن هذه المفاهيم ، إنما يحدثان عن طريق لهجات خاصة تقوم بوظيفة الاتصال بين الثقافات .

ستيفن أ . ورم

الجامعة الوطنية الأسترالية

BIBLIOGRAPHY

- KIRSCHBAUM, FRANZ J., 1926. "Miscellanea aus Neuguinea," *Anthropos* 21: 274-277.
 LAYCOCK, DONALD C., 1973. *Sepik Languages - Checklist and preliminary classification*. *Pacific Linguistics*, Series B, No. 25.
 —, 1975. "The Torricelli Phylum," in Wurm, ed. 1975, 767-780.
 SCHMIDT, JOSEPH, 1953. *Vokabular und Grammatik der Murik-Sprache in Nordost-Neuguinea*. *Microbibliotheca Anthropos* No. 3.
 WURM, STEPHEN A., 1966. *New Guinea Highlands Pidgin: Course Materials*. *Pacific Linguistics*, Series D, No. 3.
 WURM, STEPHEN A., ed., 1975. *New Guinea Area Languages and Language Study*, vol. 1: *Papuan Languages and the New Guinea Linguistic Scene*. *Pacific Linguistics*, Series C, No. 38.

تطور لغات اليدچان فى المحيط الهادى

اللغات اليدچانية نظم اتصال مبسطة وسهلة بشكل خاص لتستجيب لاجابات التواصل بين متحدثين من نوى اللغات المختلفة والمتعددة. لقد تولدت من هذه الاحتياجات، وتغيرت تبعاً للظروف، واختفت عندما أصبحت عديمة الجدوى، لأن اللغات اليدچانية حسب تعريفها هى لغات ثانوية يستخدمها البالفون والمهنيون، وهى غير متناقلة (إلا فى حالة التحول إلى الكريول) إلى جيل جديد من الأطفال.

ونجد أنواعاً من اليدچان، فى كل أنحاء العالم، حيث تتصل الجاليات اللغوية المختلفة، لا يتعدى أمل بعضها فى الحياة فصل الصيف، بينما بعضها الآخر مثل اليدچانية الإنجليزية المهجنة مع الصينية عاشت أكثر من قرن. لقد اعتبرت هذه اللغات هامشية لوقت طويل وذلك همشها الباحثون، ونالت دراستهم منذ وقت قليل اهتماماً وأصبحت مساهمة محترمة لدى علم اللغة الحديث.

إن خليطاً من الشعور بالحب والكره لدى بعض اللغويين والمعلمين والمؤرخين أدى إلى اعتبار هذا المجال دائماً متصلاً بما سنحاول تلخيص الخط التالى : التعددية. تعتبر اللغات

المترجم : الدكتور محمود المزب

اليدجانية كحرياء بين اللغات، فهى بين اندفاع وتوقع حسب الطلب، وهى تغير تكوينها المعجمى حسب قوة الصلة بين المتكلمين، وكذلك حسب المستمعين زمانا ومكانا وتواجدا جغرافيا، وهى تميز أو تتحد بصعوبة اللغة الأم لكل متكلميها.

إن فكرة تكيف لغة ما مع الظروف الخارجية، والتغير الشديد فى وقت قليل تسجل بشكل مباشر خطأ معارضا لما درس "فريماند نو سوسير" وتابعوه تحت عنوان "علم اللغة الحديث" فيما يتعلق بطبيعة اللغة، والدراسات اللغوية بشكل عام. وتحفل نقاط الأزمة خصوصا - فيما يتعلق بالمذهب الكررس - على ما يلى :

أ - أن اللغات تكون أنظمة مغلقة.

ب - أن اللغات تتشخص حسب مفاتيح ثانية لا تتغير، شائعة بين المتكلم والسامع.

ج - أن أحسن طريقة لتعلم لغة ما هى الطريقة التزامنية، التى تعتمد النظام اللغوى فى لحظة ما، دون اعتبار لكل مظاهرها البيئية والمتغيرة.

قبل البنيوية كانت اللغات اليدجانية تطرح مشكلات، لأن صلة القرابة كانت تستعرض فى شكل شجرة التوالد مجئ التحويلية، كانت ما زالت تطرح أمثلة صعبة الشرح لحركة تحويلية تولىدية قادرة على تغيير قواعد اللعبة بشكل جزئى، بينما علم اللغة بمبدئة يرتبط باعتبار اللغة نموذجا لإبداعية خاضعة لقواعد ثابتة.

وتبقى بديهيا طريقة أخرى لاعتبار اللغات اليدجانية - طريقة مطلوبة - منذ أكثر من قرن عملها ماكس مولر "Max Mueller من جامعة أكسفورد، لدراسة اللغة بشكل عام و"البحث عن القوانين التى تحكم أصل اللغات وتيسر نموها، وتبلى بالضرورة اضمحلالها".

وسأضطر فى الصفحات التالية إلى تطبيق هذا المنهج على اللغات اليدجانية فى المحيط الهادى. وهى منطقة غنية جدا فى المادة، غنية جدا إلى درجة أنها تشكل الآن موضوع مشروع عالمى عظيم للبحث، وهو أطلس اللغات التواصل بين الثقافات فى منطقة

تطور لغات البڨان فى المحيط الهادى

المحيط الهادى*. موجة إلى تعريف وتحديد موضع على الخريطة لمجال كل منها، وكذلك لتعريف وتحديد موضع اللغات الأخرى التى تقوم بدور كبير فى التواصل وهى ليست من البڨانية^(١) والاستنتاجات المتطورة فى دراستنا هذه تتبع المشروع الذى أشرت إليه والذى وجدت نفسى مشاركا فيه.

اللغات البڨانية واللغات الأخرى بين الثقلات فى المحيط الهادى

ملاحظات عامة : تقدم منطقة المحيط الهادى تنوعا كبيرا فى اللغات ، وهذا التنوع لا يوجد أكبر منه إلا فى ميلانيزيا، وقينيا الجديدة، وجزر سليمان، وكاليدونيا الجديدة، والهيبريد الجديدة. حيث يمكن أن نعد حوالى ألف وخمسمائة لهجة مختلفة لعديد من السكان يقرب من أربعة ملايين نسمة. وهو تنوع لم يرد أبدا أن يسمى منفصلا أو منعزلا على الخريطة اللغوية على الأقل.

إن ممارسة الاتصال عبر الموانع اللغوية كانت قد توطنت بحزم فى المحيط الهادى قبل وصول الأوربيين بزمان طويل. وهى ضرورة استعنتها كثرة الزيجات الأجنبية، والتبادلات التجارية وتيارات الهجرة. وعلى المستوى النظرى فإن مسألة معرفة كيفية الاتصال مع إنسان لا يشاركك اللغة يمكن أن تحل بطرق مختلفة منها :

أ - لغة الإشارة.

ب - اللجوء إلى مترجم.

* هذا المشروع قدم كمبادرة من الأستاذ هورم Vurme بالاشتراك معى ، وقد وصل إلى نتائج جديدة عن طريق باحثين من جامعة أكسفورد وجامعة أستراليا الوطنية تحت رعاية الاتحاد الأكاديمى العالمى ، وهنا أنكر اعترافى بالفضل لجامعة أكسفورد وللأكاديمية البريطانية لمعاونتهما الكريمة جدا التى أرايت لهذا المشروع ١ - Lingua franca هو المصطلح العام الذى يغطى مجموع اللغات من بڨانية وغيرها ، المستخدمة فى التواصل فيما بين اللغات ، وكقاعدة عامة فإن استخدام لغة ما كلغة رئيسية يتضمن درجة ما من التبسيط أو البڨانية (التحول إلى البڨانية) .

ملحوظة : يذكر القاموس اللغوى لاروس أن هذا المصطلح يطلق على لغة مزيج كانت حية حتى القرن التاسع عشر فى موانئ البحر المتوسط ، وهى ذات أساس إيطالى وبها عناصر لغوية رومانية ، وتطلق على كل لغة مشابهة لما ذكر المترجم .

- ج - الأبنواجية اللغوية أو التعدد اللغوي بمعنى أحادى أو مضاعف.
- د - استخدام لغة فاصلة ذات تواصل كبير ومألوف للمتحدث والمخاطب.
- وأخيرا - وعلى وجه الخصوص - فى الموضوع الذى يهمنى، وهو :
- هـ - تطور اللهجة الپيجانية.

وعلى مستوى تاريخى فإن كل الطول المذكورة آنفا كانت مستخدمة ومؤكدة فى عموم منطقة المحيط الهادى. واختيار الحل المناسب المتبنى يعرف باعتباريات كثيرة خارجية (أى دون أية علامة بعوامل التركيب اللغوية البحتة) منها :

- أ - المدة، وإنشاء الاتصالات.
- ب - عدد المجموعات المعنية .
- ج - درجة التألف بين المجموعات.
- د - علاقات القوى داخل المجموعات.
- هـ - أهمية الكمية الخاصة بالمجموعات المعنية.
- و - توجيه التبادل.

وهكذا، فبخصوص التبادل الاتقائى المحمول على نسق إنتاج منتشر قليلا، فإن المقايضة الصامته تكفى. وبخصوص الزواج الذى يتم عادة بين عشائر مختلفة - وهو معتاد بين طوائف مختلفة اللغات (Exogamique) - فإن إزواج اللغة يقدم حلا أكثر قابلية للبقاء من اللجوء إلى خدمات المترجم الذى يدمى فى حالة الاتصال الدبلوماسى الذى يتم على أعلى مستوى.

وقد سهل تكوين اللغات الپيجانية عن طريق حضور عدد كبير من المجموعات غير المتجانسة، وبغير الرغبة فى المحافظة على مسافات بين هذه المجموعات غالبا فإن سيطرة إحدى هذه المجموعات التى تمارس الاتصال تلعب دورا ما وأن كان ليس دائما فيما يخص الشروط التركيبية المطلوبة، فأتينا نؤكد أن التكوين النموذجى للغة پيجانية مسهل بواسطة مسافة وراثية بين التواصلات اللغوية الحاضرة. إن الپيجانية الألمانية والپيجانية الهولندية لا تخطر ببال المتكلم الألمانى تلقائيا رغم أن اليابوا وغرب إفريقيا دلت على ضرورتها. وكذلك فإن تعدد الپيجانية الإنجليزى يرد على شفاء الصينيين والميلانيزيين واليابانيين، بينما لا تعرف مثلا الپيجانية إنجليزية دانماركية أو هولندية فى إطار مؤسسى (كمؤسسة لغوية)

تطور لغات البيجان في المحيط الهادى

البيجانية - وهو جزء من تعريفهم - فهم إذن أكثر من نتيجة لجهود حديثي التتصر، لتمطيم موانع التواصل بين الثقافات. إنهم يمثلون حلولا جماعية شاملة لمعايير اجتماعية مقبولة من طرف القواعد والمعجمات.

وفى استخلاصنا للغات البيجانية في المحيط الهادى سيكون أمرا حسنا أن نفرق بين عدة مراحل فى تاريخ وفى تطور هذه المنطقة :

- أ - قبل الاتصالات الأولى مع الغرب (يشكل عام قبل عام ١٨٠٠، ولكن بخصوص عدة زوايا منعزلة فى غينيا الجديدة وليس قبل عام ١٩٦٠).
- ب - فترة ما قبل الاستعمار. وهى مستمرة حتى حوالى سنة ١٨٨٠.
- ج - فترة الاستعمار (حتى حوالى ١٩٧٥).
- د - فترة ما بعد الاستعمار.

وكل واحدة منها، كما سنرى فيما يلى، متمثلة فى نموذج مختلف للتواصل بين الجامعات، من حيث الأنماط المختلفة للحول اللغوية.

قبل الاتصالات الأولى مع الغرب

على كل حال فإن عملية أو نظرية ما قبل الاستعمار تنتمى إلى ما قبل التاريخ لأنها لا تحمل لنا أية وثائق مكتوبة عن عدد حركات الهجرة، ولا عن تبادل المعلومات التى كان من الممكن وجودها بين شعوب الحضر. وقد عطلت إعادة التركيب اللغوى العوامل الآتية :

- أ - التسلسل الزمنى القصير الذى يمكن الصعود معه بدرجة من الثقة، ٥٠٠ عام على أكثر تقدير ب - والأخطر من ذلك غياب أى نموذج يمكن أن يعرض التنوع اللغوى، فيما عدا ما يخص الجيل المعقود (اللقائى)، عن طريق انفصال اللغات التى كانت بادئ ذي بدء متحدة.

ونسجل هنا على وجه الخصوص غياب أية منهجية ضعيفة لإعادة تركيب ظواهر تهجين اللغة، والتبجين (التحول إلى البيجانية). والتكريل (التحول إلى الكريلول)، والتدخل الإنسانى المعتمد فى التركيبات اللغوية. وكذلك النظريات اللغوية التاريخية. هل هى فى حالة

تلمس للإسناد على أنماط أخرى مثل ما قبل التاريخ. والتزايد السكاني، والجغرافيا. واللغة البيدجانية تضعنا أيضا في مواجهة إعادة التركيب التي تأتي بالمصادفة، جاذبة انتباهنا إلى إمكانية التغيرات في النحو والمفردات في هذه اللغات، في إطار عملية التحول إلى البيدجانية أو إلى الكريول الناتجة منها.

ولا مجال هنا للإحاطة بالمشروع الطموح لإعادة تكوين الصورة اللغوية لمنطقة المحيط الهادئ على بعد المسافات الشاسعة. ويكفي أن أحاول الإجابة على سؤال بسيط: في أي ظروف أختار سكان المحيط الهادئ فيما قبل التاريخ حل التحول إلى اللغة البيدجانية وفضلوه على لغة أخرى، كوسيلة للتواصل بين المجموعات؟

كان الباحثون يميلون خلال وقت طويل إلى تقبل فرضية أن استخدام البيدجانية كان استثنائيا، وفي بعض المناطق، مثل القارة الأسترالية يتجاهل أنها لم توجد أبدا. لقد استعمرت الاتصال بين الجامعات طريق التعددية اللغوية المتطورة إلى أقصى درجة، بالإضافة إلى بعض الوسائل الأخرى المشار إليها سلفا. ولا تقدم قائمة مراجع رينكة وزملائه " (Reinke et al.) وعن اللغات البيدجانية (حوالي ١٩٧٥ كمثل وحيد للهيري موتو hiri motu كصيفة للتبجين، لغة الموتو المتحدة في ميناء بلورموريسبي Port Moresby في غينيا الجديدة بايو، في الأصل وجدت لهجة تجارية أهلية مستعملة خلال البعثات التجارية السنوية هيري (hiri) في الخليج البابوازي.

وثمة بحوث أحدث من ذلك تدعو إلى التفكير في أن هذه اللغات التجارية كانت أكثر انتشارا، خصوصا في الأرخيل الميلانيزي، وهكذا أستطاع باحثو الجامعة الوطنية الأسترالية، أن يحددوا أثر لفتين تجاريتين على الأقل، مستخدمين لدى "الموتو" في اتصالاتهم مع الآلي Elemes والكوريكيين Dutton Korikis (١٩٨٣). وهناك نوعان من البيدجانية التجارية مشتقان من الميكو mékéo وأخران مشتقان من لغة البابوازي شعب ييماس Yimas... وغيرها أيضا.

وتوحى أعمال فولي Foley (١٩٨٥)، أنه في المنطقة الوحيدة للسايك Seeik وجد حوالي ١٢ لهجة بيدجانية، تستخدم كل واحدة منها بين أعداد من سكان قريتين فقط، وبعض القرى ذات اتصالات عديدة وتستخدم كل منها عدة لهجات بيدجانية بالتالي. في تلك اللهجات المختلفة في غينيا الجديدة من المناسب أن تضاف بيدجانية مشتقة من "الفيدجي"

تطور لغات البيجان في المحيط الهادى

ومتحدثة فيما بين الفيجيين وقرب سواحل "التونجا"، وكذلك بعض اللهجات البيجانية التجارية.

يبدو أن أكثرية هذه اللهجات أو كلها يبدو أنها ولدت قبل الاستعمارية نتيجة لتوزيع غير عادل للسلع الأساسية، خالقة بذلك الحاجة إلى التبادلات التجارية العادية. وثمة خطوط مميزة أخرى هي أن اللغات البيجانية كانت تظهر خصوصا حيث الاتصالات الدورية أو المتفرقة بين الطوائف. ويقوم التواصل الفعلى بين الطوائف المتجاورة على الانبواجية اللغوية. والتبسيط الفامض (تسجيل غير محدد للرسالة التى يقمها المتحدث الأجنبى) والمقايسة الصامتة.

كانت العلاقات بين الشركاء التجاريين تهدف إلى حماية العلاقات الاجتماعية الأكثر ثوبًا. وقد اقتصرت معرفة البيجانية على الذكور البالغين، وكان هدفها استبعاد الزائرين عن أى اتصال بالنساء. فى الأماكن التى يرتادونها، وكانت المفردات مقصورة على التبادل التجارى وعلى الأمور البسيطة اليومية. كانت الوظيفة المزبوجة لتحاشى الأزمات وتبادل المعلومات الأساسية تؤدي كاملة عن طريق هذه اللغات البيجانية. ولغات أخرى معاملة لم يبق منها أى أثر مكتوب، ولا يشكل استخدامها أى تهديد للقيم اللغوية والثقافية المختلفة للجماعات الكثيرة فى غياب تام للسيطرة التركيبية القادرة على استعلاء التنوع اللغوى.

كان حتما أن وصول القادمين الجدد من أوربا إلى المسرح الباسيفكى فى القرن الثامن عشر لا بد وأن يغير هذا الوضع تماما.

فترة الاتصالات الأولى قبل الاستعمار

رغم أن الفترة الممتدة من ١٨٠٠ إلى ١٨٨٠ مشمولة بشكل واسع فى الأزمنة التاريخية إلا أنها لم تترك كائنا ناقص الوثائق (أى غير مزود بوثائق) فيما يتعلق بالطبيعة اللغوية للبيجانيين. ولكننا نعلم عنها أكثر من ذلك عن السياق الاجتماعى والتاريخى الذى ازدهرت فيه.

والحصول على معلومات تفصيلية أكثر نخليل القارئ محب الاستطلاع إلى كتاب كلارك (١٩٨٣).

ويمكن الفرق الأساس بين الفترة الأولى للتعرف وفترة الاتصالات الأولى مع الأوربيين فيما يلي :

أ - الهدف النهائي للاختراق الأوربي هو الاستغلال، وفرض السيطرة الاجتماعية السياسية على جزر الأرخيبيل، والوظيفة الأساسية للغات البيجانية إذ ذاك هي تسهيل السيطرة أكثر من تبادل متكافئ للثروات والخدمات أو المعلومات.

ب - توسيع منطقة خط الاتصال الذي وجد، تتخطى بشكل واسع أى نظام آخر عرف قبل ذلك.

ج - يعتبر الفارزى نفسه متميزا (أعلى) فى كل المجالات تقريبا، بالقدر الذى تعتبر معه اللغة كذلك أداة للحصول على المعلومات، مما يفرض على المحلى تعلم لغة أجنبية.

واقدم الاختراق الأوربي والأمريكي الشمالي للمحيط الهادئ فى عدة خطوات، ترتبط كل واحدة منها بنشاط اقتصادى محدد، ويعد تكتيفا للاتصالات اللغوية بالقياس إلى المرحلة السابقة. وتتحد الأنشطة الاقتصادية المسيطرة فيما يلى :

- أ - صيد الحيتان وهى عملية تصل إلى ذروتها حوالى - ١٨٤٠.
- ب - تجارة خشب الصنل، التى ازدهرت فى سنوات ١٨٥٠.
- ج - تهريب الأيدي العاملة فى مجال الزراعة والصناعات المشتقة، ابتداء من ١٨٦٠ (وهى مرحلة أساسية فى تطور البيجانية).

كل واحدة من الفترات السابقة وادت بؤرة كانت فى صالح خلق شكل بيجانى للغة المسيطرة بالاتفاق مع الإنجليزية فى أغلب الأحوال. وأول أمثلتها الجارجون^(٢) البدائى اللفظ المشتق من الإنجليزية فى المحيط الهادئ هو لهجات البالين ba leinniers التى كانت تمخر عباب المحيط، وكانت تتوقف اعتياديا فى الجزر للتزود بالماء والطعام. وقد استدعى استغلال خشب الصندل إقامة أطول، هو وقت قطع الشجر وتجهيز تقطيعه وإعداده

٢ - نلهم من الجارجون - على عكس البيجان - حولا فريدة أكثر منها جماعية لمشاكل التواصل اللغوى، وهو يميز التلاقي بين الأفراد ، وفقدان التناغم المسبق بين المشتركين فى التبادل اللفظي . للحصول على تفاصيل أكثر . انظر المؤلف (١٩٨٦) .

تطور لغات البدجان في المحيط الهادى

للشحن تحت إشراف المفترعين، وكان إعداد هذا المنتج فى البحر وتحفيقه يتطلب عناية دقيقة تحتاج إلى وقت طويل.

إن التأثير المتزايد للعناصر الخارجية ينعكس تماما فى التغيرات المعجمية خلال كل هذه الفترة. وفى وقت سابق نجد عددا من الكلمات المستعارة من لغات الأماهى مع تنوع مثل الهايا هاوى Hapa hool فى جزر الهادى، ذات المفردات المركبة، ونصف الكلمات الأهلية (الشعبية) مستورد. وشيئا فشيئا نجد سيطرة العملاء الأجانب مؤكدة، كما نجد سيطرة المفردات الأجنبية ملحوظة بدرجة أكثر. وقرب نهاية هذه الفترة نجد التركيبة المعجمية الغالبة للجارجون فى المحيط الهادى أجنبية بنسبة ٩٠٪ أو زيادة على ذلك مع رجحان خالص للإنجليزية. فى الوقت نفسه يتدخل عامل آخر يسهم فى رفع قيمة البديانة الخارجية النمو - أريد هنا أن أتكم عن مدارس الإرساليات حيث الأشكال المطبوعة لهذه اللغات يمارس تعليمها. حتى ذلك الوقت، فإن وظيفة البديانة الأساسية وأسية، بمعنى آخر فأنها تستخدم التواصل بين المهاجرين الحضريين. ولا تظهر البديانة كلفة للتواصل إلا فى حالات استثنائية كما فى بعض جزر الأرخبيل الميكرونيزى.

حتى فى هذه الحالات فإن المهاجرين الناطقين بالإنجليزية - البحارة القادمين من كل أنحاء أوروبا ومن الصين ومن أفريقيا - هم الذين يشكلون سبب الوجود الأساسى لابتداع جارجون أكثر استقرارا. لدينا مثال من الكوزى Kusaie فى جزر الكارولين Karoline حيث كان أول مبعوث دينى "ينيامين سنو" يعظ بلغة أنجلو - كوزية فى السنوات الأولى من بعثته.

وأدت تجارة الأيدى العاملة black - birding إلى تغيرات نوعية وكمية فى وقت واحد، فى مجالات العلاقات بين أصول وطرق الاتصال التى نتجت عنها. كان آلاف شباب الكاناك Canaques ينقلون من جزرهم مهبط رؤوسهم ليستوطنوا الكوينز لاند - Queens land وجزر الفيدجى، والساموا، وكالينونيا الجديدة، بل أن أكثر من ٦٠ ألف من نوى أعمار أقل من أربعين سنة استوطنتهم الكوينز لاند وحدها. كان الأجل المعتاد للتعاقد ثلاث سنوات قابلة للتجديد، إلا أن الموت كان يتدخل غالبا خلال فترة العقد الأولى، لقد أفرغت جزر كاملة، وانقلبت التركيبات التقليدية، وأصبحت اللغات الأهلية مهددة. جاء أناس من مختلف الأوساط القوية القوية للاستيطان، ووجد أنفسهم ممتزجين ومجبرين على الاتصال بمستويات أساسية، بما أن لغتهم الأم كانت غير معروفة لأكثر رفاقهم فى العمل، وبما أن

الطريق إلى لغة المستعمرين الغريباء كانت محدودة، فأن لغات البيجان استقرت بداهة في ردد من الزمن قصير جدا. أن المعطيات اللغوية التي بين أيدينا عن المراحل الأولى للاقتصاد الزراعي وما يليها تشهد باستقرار كبير للغات البيجان كما تشهد بغنى كبير في مجال التسميات اللغوية. وتشهد كذلك باستقلال أكبر بالقياس إلى الاستخدامات اللغوية للعنكلمين بلغتهم الأولى، كذلك بدرجة أكبر من كل الحالات السابقة، والحدود التي نتجت عن مشاكل الاتصال الكبرى ذات طبيعة اجتماعية، وفي غياب أنظمة مقننة بدرجة كافية مستوحاة من لغة سائدة، أنها الخواص العامة للغة تحملها أوجه التشابه المكتشفة بين بيدجان الساموا والكويزلا معزوة بدرجة كبيرة إلى أسس تطور اللغة الثانية التي لا علاقة لها بنفس علم اللغة العام، استطردت في انتشار وانقسام اللغات التي كانت تشكل السند.

وهكذا فإن علاقة جمع الاسماء في حالة أو أخرى (كما لدى بيدجان المحيط الهادي وغيره) يبدو أنها بدأت بأضافة سابقة ليست إلا جمع ضمير الغائب - ظاهرة لا يمكن أن تكون متأخرة - لأنه كان يلزمها سنوات حتى يمكن أن ينفصل ضمير الغائب، رغم ظهوره في الإنجليزية، وفي كثير من لغات الأهالي في المحيط الهادي.

الوظيفة الأساسية لأكثر بيدجان المزارع، كانت السماح بالاتصال الأفقي بين أناس متساوين، أي بين عمال يتقاسمون نفس الظروف الاقتصادية والاجتماعية. أما الاتصال الرأسى مع البيض فقد انخفض عن طريق المحرمات الاجتماعية وعن طريق الطبقات المتنازعة من الاختلاط بالطبقة العاملة، وفي الواقع للبيض^(٣) سيكون من الجيد ربما - أن نذكر في هذه النقطة بأن بيدجان الزراعة لم يكونوا واعين بأنهم امتداد لغوي مطابق للهارجون الذين سبقوهم في الوجود. ولم يتناقل الهارجون اللغة من جيل لجيل وإنما كانت لغتهم يعاد تكوينها تبعا لاحتياجات الزمان والمكان. ولو كانت قد وجدت دائما بعض الصيغ المعجمية والقاعدية المقبولة مثل كاناكا أهلية ويولماكي لدى الرعاة، أو البيكامنين عند الأطفال والصغار، لوجد تنوع كبير في الكلمات والتراكيب حتى في نفس الفترة أو في نفس المنطقة.

بعض العمال المجندين في مختلف المزارع كان دون أدنى شك على صلة بالهارجون ولكن أغلب المجندين الجدد "الزرق" لم يكونوا على معرفة سابقة بأية لغة أجنبية أثناء نزولهم

٣ - ثمة عامل نشير إليه هنا : أكثر هؤلاء العمال كانوا يتكلمون البيجانية الإنجليزية ، بينما كان مستخدموهم البيض يتكلمون الفرنسية في كاليدونيا الجديدة ، أو الأكانية في غينيا الجديدة ، وفي جزر الساموا . والهوية المميزة للغة بيجانية هي أنها متهممة بأنها أقل اتصالا معجميا باللغة المسيطرة .

تطور لغات البديان في المحيط الهادى

(هناك). أما الوضع فى حالات المزارع فقد كان مختلفا جدا، فإن تنوعات البديان التى تكونت خلال الجيل الأول انتقلت إلى الجيل الذى يليه، ثم إلى الأجيال التالية. تكاتف رؤساء العمال والمحاربون القدماء ليكونوا نواة المبادرة اللغوية للزرق هذا التناول مع الاستقرار النسبى البديان الزراعيين هما دليل على أن العمال المزارعين كانوا يشكلون فريقا اجتماعيا مركبا ومتحدا عن طريق الطموح العام. وكانوا نوى وضع محدد فى الطبقة الاستعمارية. ولم يقتصر التنقل على البديان الزراعيين، أن بديان الزراعة الذين جلبوا إلى البلاد عن طريق العمال المحررين من الالتزامات بل عادوا إلى الظهور مع جشع شباب لم يكونوا يطيرون إلا عقدا محدود الأجل خصوصا منذ بدأ نظام التجنيد الإجبارى يضمحل.

فترة الاستعمار

إن تطور فترة الاستعمار فى المحيط الهادى متصل اتصالا وثيقا بخلق الزراعة، لقد أجبرت كل قوة استعمارية على إنشاء امبراطوريتها فوق منطقة تجنيد لتكون صيدها المحروس للحصول على الأيدى العاملة الرخيصة وهكذا فعندما تضع ألمانيا قدمها فى شمال شرق غينيا الجديدة، فإن التجنيد تتسحب إلى الكوينزلاند، والألمان الذين زرعا جزر ساموا آمنوا لأنفسهم عملية التزويد المعتاد بالعمال بسعر مجز نتيجة لخطأ التنافس.

والنتائج اللغوية للانغراس الاستعماري مهمة :

أ - قيل كل شئ، فإن تعبئة العمال انخفضت بشكل ملحوظ، وانتهت بنشر التحديدات اللغوية من منطقة زراعية إلى أخرى، بدءاً من سنة ١٨٨٠.

ب - تجارة الأيدى العاملة، من هنا فصاعدا أصبحت محكمة، وأقل وحشية كما أن فرض الضرائب الحكومية فى المناطق المجتدة التقليدية يفرض على الأهالى عمليا الرجوع إلى النظام الاقتصادى النقدي، والعمل فى مزارع البيض عدة سنوات، حيث يزيد عدد الناطقين بالبيجانية تزايداً حساساً منذ ١٨٨٠، وخصوصاً فى المناطق التقليدية للتعبة المتزايدة فى غينيا الجديدة وجزر سليمان والهيبريد الجديدة.

ج - استقرت مزارع جديدة قرب أرأشى تجنيد جزر سليمان، وغينيا الجديدة وغيرها. وفى الوقت نفسه فى المزارع الجديدة لجزر ساموا وفيدجي وفى الكوينزلاند، تابعاً أقل

هاقل الادى العاملة الملاييزية ابتداء من ١٩١٠، بسبب استعمارات الايدى العاملة الصينية والهندية الشرقية والاوربية.

وتعنى المصادرة الاستعمارية على اراضى التجنيد أيضا سيطرة سلام نسبي مفروض من الحكومات والارسلالات على منطقة تحدت حتى ذلك الوقت عن طريق الحروب بين القبائل. وفى هذا الجو الجديد للسلام النسبي فإن اتصال قبيلة بأخرى لم يصبح فقط ممكنا وإنما أصبح مرغبا فيه. ومع مرور الوقت فإن أهل الجزر كانوا يتكبدون على دراسة لغات الپدجان واستخدامها فيما بينهم، ولم يعد ذلك واردا عن طريق المستعمرين الأجانب.

منذ سنة ١٩٢٠ تقريبا فإن التوك پيران Tok pisin اللغة المسيطرة فى غينيا الجديدة، والبيلسلا، فى النيبيريد الجديدة والپدجان فى جزر سليمان كانت قد صارت لغات الأماالى، وأخذت تنتقل من قرية إلى قرية أكثر من انتقالها بين المستعمرات. وهذا التمر فى الوظيفة الاجتماعية ترجم فى تغير الاسم . بينما عرف الپدجان الإنجليزى باسم "التوك فيتمان" فى غينيا الجديدة قبل ١٩٠٠، وفى ١٩٢٠، ١٩٢٠ كان يدعى "التوك يوا" (لغة الأماالى الذكور).

ويكس هذا الاسم الجديد أيضا تشخيصا للغات الپدجان. فى هذه الفترة : حيث لم يكن يتكلمها إلا الرجال وكانت النساء منصرفات عن استخدامها، ويعتبر هذا المظهر الپدجانى موضوعا لدراسة المهتمين بالفروق بين الجنسين فى أنماط الاتصال الإنسانية والعودة إلى أصول اللغة الأصلية وهى فى كثير من الحالات ليست تماما مزلقا خاصا للصدفة. هى إنزلاق بالمقارنة مع القوانين التى فرضها الأجانب، ولكنها يمكن أن تأخذ شكل رفض متعمد لهذه القوانين. إذن لو كانت قواعد الپدجانبة المتكونة فى هذه المنطقة، فى الماضى، تعكس تبنيأ غير واع للعموميات ، وتقليدا واعيا أو غير واع للغة السادة البيض فأتنا نجد أنفسنا فى الوقت الحاضر فى مواجهة إرادة متعمدة لتقييم المظاهر غير الأوربية فى النمو والمفردات. إن تأثير لهجة سابقة - كما يعتقد عدد من اللغويين خطأ أنه يمكن أن يرى كدرجة من الأهمية فى تكوين الپدجانبة - لم يظهر إلا فى عدد من مظاهر قواعد الپدجانبة ومعجمها وتوقف بطريفة وظينية.

من الحكمة أن توضع توضيحا مجردا عن طريق دراسة تطورية diachronique (أخشى أن تكون مقبولة قليلا)، فى إحدى مجالات القواعد : الضمائر واستخدامها خلال

تطور لغات البديان في المحيط الهادى

فترة الجارجون فإن جدولة الضمائر تقتصر على ثلاثة صيغ :

المتكلم والمخاطب أو المتلقى ثم موضوع الحديث (الآخر أو الباقي) حسب الشخص المتكلم. تتبادل ثلاث صيغ لتحديد المتكلم : me, i بالتبادل مع my كصيغة للمتكلم فى الجارجون الإنجليزى، و hime بالتفاير مع im و he ونجد أيضا we متفرقة، و she أو they للمتكلم الجمع والمؤنث المفرد والفائب الجمع، ولكن هذه الصيغ نادرة على وجه العموم^(٤)، وشيئا فشيئا استقرت تغييرات الجارجون، كما فى جزر الساموا مثلا حيث نجد تحديدات جديدة، أولا ثلاثة "mi, yu - em ثم خمسة مع إضافة "we" - "mi, ol (yo ol me ol?) (جمع "you" - "you oll" أنتم كلكم ؟)، بل em, ol التى تظهر فى بعض النصوص ابتداء من سنة ١٩١٥، للدلالة على الكائنات الحية (الأخرون) فى مقابلة الأشياء أو الأفكار المجردة، وتميز بديانية جزر الفينيجى بين ست صيغ ضميرية - تخفيض جائز بالقياس إلى مائسة وخمسين ويضع من الصيغ التى تلقاها فى الفينيجى المحلى وفى التوك بيزين الذى يحل محل الساموا بديجان الإنجليزى، ويحافظ هو أيضا على ست تحديدات. وكانت الصيغة المعقدة "نحن" mous (moi, toi) غائبة وقتا طويلا عن هذا التحديد. والازدواجية (هو أو هى وأنا) التى تخطط أيضا فى الإنجليزى كما فى الفرنسية.

(فتصور أن أنت أنت، nous نحن نفكر مثلك toi) هذا التحديد الحيوى الموجود فى اللغات الأهلية التى يتكلمها أكثر العمال الزراعيين، فيما عدا الفينيجى لم يكف ظهورها فى البديجاني الفينيجى. كان يجب الانتظار حتى سنة ١٩٢٠ حتى تظهر فى اللغة تحديدات من هذا النوع، حيث ينتشر الفرق بين أثنى والجمع ما بين الذين تبدجنا من غينيا الجديدة، ومن جزر سليمان ومن الهبريد الجديدة.

قبل البحث من شرح لهذه الظاهرة لنفحص مظهرها اللوطيلة الضميرية. كثير من لغات المحيط الهادى به تمطان ضميريان أحدهما كامل والآخر ناقص من ضمائر اللاحق التى تختلف فى الفاعل عنها فى الفعل. وفى بعض أنماط اللغات الأوربية التى تتبع هذه النماذج نجد ظواهر قياسية، كما فى الفرنسية moi ji veux bien (أنا، أنا أريد حقا) وفى

٤ - ملاحظاتي قائمة على أساس من التحليل الإحصائى الطولانى لاستخدام الضمائر، ويغل فى هذا الإطار موضوع الأطلس الذى أشر إلى سابقا .

الإنجليزية the man , he came "الرجل، هو جاء". في تحليلي الطولاني الوظيفية الضميرية يتضح أن الآخر اجتماع - ثقافي، أما بخصوص الأول، فإن تطور نظام الضمائر والعلاقات الضميرية في أى نظام متطور (اكتساب اللغة لدى الطفل، وتطور لغة بنچانية) يبدو تابعا لنظام طبقي غير ثابت نسبيا : صيغ النائب الجمع مثلا لا تظهر قبل صيغة المتكلم والمخاطب شاملة في الوقت نفسه المتكلم والسامع : we = nous = نحن ؛ التخالف التالي (التابع) يسمح بالتمييز بين المثني والجمع كظهور المتكلم الجمع مؤخرا متميزا عن المخاطب (أنتم = you / نحن = we) لا يلقى إلا في الصف الثاني أو الثالث. ومن المفهوم أن كل اللغات لا تؤدي إلى عموم الطبقات مع لواحقها المميزة الكثيرة : النوع والعدد، والحالات والزمن والقرب... إلخ.. فكون بعض اللغات مثل البنچان وجزر سليمان اختارت النظام الأكثر تعقيدا وتشعبا في نظام تدليلها على الأشخاص والأشياء الموجودة أو غير الموجودة القريبة أو البعيدة... إلخ.. يبدو أنها تحدد اختيارا متعمدا للشكل اللغوي الأقل تأثرا بالأوربية شاعدا على وجود رقبة في التميز اجتماعيا، وفي رفض الجماعة الأخرى^(٥)، والأمر هنا يتعلق بحالة هامة إلى أية درجة تستطيع الوظائف الاجتماعية (غير تبادل اللغة كمؤسسة للتكاتف والتضامن الاجتماعي) أن تؤثر على المظاهر الأساسية للقواعد^(٦) : مناقشة فترة الاستعمار حملت حتى الآن مصير بنچانية مشتقة من لغات المستعمر وخصوصا من الإنجليزية، إلا أن أثر الإرساليات الدينية والإدارات المحلية على الجو الاجتماعي واللغوي كانت حساسة الأثر جدا على ما يمكن أن يسمى بالبنچانية الأهلية أو الـ *linga franca* الأهلية (لغة التواصل المصنومة) ويوجه عام فإن تقنين الحدود السياسية والطرق السهلة للتجارة الأوربية قد وضعت حدا لأكثر لغات التواصل التقليدية السابقة على فترة الاستعمار. اضيفت أغلب هذه اللغات دون أن تترك أثرا، أو تركت تقريبا فراغا تاريخيا للغات المحيط الهادئ في زمان ما قبل التاريخ. فبقيت منها أسماء مثل "التيرى موتو" التي سترها عن قريب، كلها ما عدا الموروثات على خط مباشر.

بقوة البحوث الجادة استطاع بونون (تحت الطبع) أن يستنتج الإشارة إلى أن البنچان

٥ - إطلالة مقارنة بطور التروحات في الكريول الموجود في جامايكا ، التي ما زالت تتضمن بعدا أقصى بالقياس إلى التروحات الإنجليزية ، ومع جزء كبير من استخدام متمم من قبل سلطات القوى العامة .

٦ - هذه النظم الضميرية تعتبر بشكل واسع جدا جزءا كاملا من النزوة الحقيقية للغة ، يمكن أن يغير تحت تأثير الظروف الاجتماعية ، كما يشهد التاريخ الحديث الكثير من اللغات الأوربية ، أشياء مثل أذربايجية ضمير المخاطب في الفرنسية والألمانية استبدال nous نحن بـ on (الحايد المجهول) في الفرنسية المنطوقة . وحياد التمييز الطبقي حيث thee - thou (ye) تركت مكانها لـ you

تطور لغات البديان في المحيط الهادئ

المتحدث بها وقت اكتشافات الهيرى تراء كانت مختلفة تماما عن تلك التي يتكلم بها الموتو بوليس أو الهيرى موتو المستخدمة لدى قوات الشرطة، أو لدى الإدارة الاستعمارية اليابانية بعد ذلك بعدة سنوات، وفي الواقع فإن عدم التشابه في التركيب وفي المفردات كما في حالة موتو الشرطة يمكن أن يعتبر انتقالا جديدا متأثر - ربما - أو معادة صياغة مفرداته عن طريق الإنجليزى الياباني بيدچان.

ويمكننا أن نقول كذلك إن البديان الفيدي في صيغته الزراعية كان يمكن بصعوبة أن يعرض كتكملة مباشرة للجارجون التجارى الذي كان مسيطرا فيما سبق في جزر الفيدي ولدى زوار تونجا، وتختفى تغيرات جذرية غالبا خلف المحاكاة الفاضحة المبنية التي تصف البديان فيدي "آلة لغة بديانية مزودة بمعجمية فيديجية".

نفس الملاحظة أيضا واردة فيما يخص عددا من اللغات الأخرى الـ franca أو البديانية التي نمت في ظل الإرساليات الدينية. فلقد كان المبعوثون الدينيون - الذين دخلوا إلى ميلانيزيا انطلاقا من أسس لغوية أكثر تجانساً كجزر الساموا - يجدون أنفسهم أمام مشكلة اتصال يبدو أنها لا تحل وفيما يخص الميلانيزيين الذين كان ازواجهم اللغوي مؤسسا، أو الذين كانوا يستفيدون من أشكال أمامهم أخرى للاتصال لم يكن لديهم مشاكل، ولم يكن يطرح أى أشكال الا عندما كان الامر يتعلق بوجود لغة تسمح بتحويل أكبر عدد ممكن إلى المسيحية ممن يرغبون في التتصر.

كانت الاستراتيجيتان الأكثر تبنيًا لدى مختلف الإرساليات في ميلانيزيا هما اللجوء إلى لغة تجارية موجودة، أو استخدام إحدى اللغات المنطوقة محليا فيما يحيط بالبعثة الدينية، ثم نشر هذه اللغة على نطاق واسع. استخدمت الاستراتيجية الأولى على السواحل الشرقية لفينيا الجديدة، وفي بعض جزر شرق الأربيل، حيث كان يتحدث بلغتين تجاريتين هامتين هما السواو والديو. ومع ذلك ففي الحالتين أدى تدخل الإرساليات إلى تغييرات تركيبية ومعجمية أساسية تعكس الجهل التام لمبعوثي الإرساليات الأوروبية ومترجميهم المقطوعين من الساموا والفيديجي بهذه المعاملة. وتلك الوظائف الجديدة (الاجتماعية أو الدينية أو غيرها) التي كانوا يجدون أنفسهم خاضعين لها. في نفس الوقت كانت الإرساليات تستخدم قلب الهرم الاجتماعي للبدجي عندما كانت تبحث عن إعادة غنى التركيبات المعجمية للغات السواو والديو الأصلية.

أما الاستراتيجية الثانية فقد طبقت في حالة «الكات» المشهورة حيث توجد نفس

اللهجة، لغة ياهوية أصبحت الـ lingua france اللغة السائدة للمبعوثين إلى أكثر من خمسين قبيلة مختلفة. وقد نشأت فيها عملية تحول اللبديجة فوق أراض بعيدة جداً في بعض الأحيان من منطقة انتشار « الكات » (انظر ١٩٧٩ M.C. El hanon) رغم أن عمليات تحول أخرى إلى البديجانية تشهد بالأحرى انتشاراً للتأثير اللغوي للرساليات كلفة تنصير.

أخذت لغات الفرنكا (لغة التخاطب العامة) للرساليات، تنتشر في بداية هذا القرن، وتدخل في مرحلة من التراجع في نهاية الحرب العالمية الثانية، إلى حد ما، بسبب إجراءات سياسية تتجه إلى تفضيل تعليم الانجليزية القديمة في المدارس، لأن مستخدميها كانوا يعون أنها تشكل عقبات أمام تقدمهم الاقتصادي والاجتماعي فيما وراء الحدود الصارمة التي رسمتها الرساليات. ويبدو أن هذا السلوك تغير تقيراً طفيفاً منذ نهاية عصر الاستعمار. وسنعود إلى الحديث عنه.

ومن وجهة نظر اجتماعية أو لغوية فإن لغات البديجان الأهلية التي ابتدعتها الرساليات أو شجعتها لا يمكن أن تعتبر كخطوات ممثلة للتطور قبل التاريخي لعملية التحول إلى البديجانية.

ونعد بين الفروق ما يلي :

- ١ - اللغات الخليط للرساليات تميل إلى اتهام التفاوت في خلاقات القوى.
- ب - اللغات الخليط للرساليات تعدت على مهمات الاتصال لمعدي من اللغات الأهلية المكونة قبل ذلك. الوظيفة التقليدية للبديجان التجاريين التي أبقت على تنوع اللغات دون اضرار بالاتصال أزاها سيناريير أو لغات أكثر بساطة أو أكثر قوة تبادل مع اللغات الناشئة أو أزاقتها.

وهكذا خلال انتشار لغة الكات Kâte وجدت بها تحديدات لهجوية مهدة، بينما حتى ذلك الوقت كانت توجد لغات مستقلة مصحوبة بلهجات تابعة للكات (انظر ١٩٨٦ Mülth (läuser).

- ج - لغات الفرنكا للرساليات كانت تتميز برغبة متعمدة في التقنين، وخصوصاً في مجال المصطلحات المذهبية ومعاني علاقات القوى.

تطور لغات البدجان في المحيط الهادى

فيما يخص تميزها التركيبى :

د - التسهيلات التلقائية الناتجة من عملية التحول الطبيعي إلى البدجانية تقوى غالباً من خلال التعقيدات المتعمدة، والركام اللغوى، والتجديد الوارد من لغات أجنبية إلى العرف الأهلئ.

هـ - تسربت تركيبات مستعارة من لغات المستخدمين الأوروبيين أو من القواعد اللاتينية، أو من الاغريقية إلى لغات الارساليات.

وما زالت الدراسة اللغوية - الاجتماعية لهذه اللغات فى بداياتها (انظر ١٩٧٧ wurm & El). ومع ذلك يجب فهم طبيعتها لتحاشئ أى خلط، سواء مع اللغات الأهلية التقليدية^(٧) أو مع البدجانية، واللغات الفرنكا التقليدية.

من الصعب أن نلخص فى سطور الآثار اللغوية والاجتماعية لفترة الاستعمار، وفى لغات البدجان فى المحيط الهادئ، تبدو القضايا العامة التالية ذات طبيعة فضفاضة جداً فى رأينا :

١ - كان يبدو أن هدف السياسة اللغوية الاستعمارية يكمن بشكل عام فى :

أ - التأمين الذاتى : عن طريق سيطرة فعالة على السكان الأهليين عبر اللغة .

١ - أنه من الغريب أن تكون لغات الميلائين المدروسة جيداً هى أيضاً تلك التى تعرضت لتغيرات أكثر جذرية تحت تأثير الأوساليات الأجنبية. يمكن أن يكون ذلك اتجاه عرقى لا ينتمى أبداً إلى الطبيعة العميقة للغات هذه المنطقة.

ب - جعل اللغة الرئيسية هى اللغة المسيطرة بدرجة ما .

٢ - لم يكن تحقيق هذا الهدف ممكناً إلا فى مناطق متجانسة نسبياً، تتكلم البولييزى والميكرونيزى، حيث تحول البدجان شيئاً فشيئاً إلى اللغات الرئيسية. وفى منطقة متعددة اللغات مثل الميلائين، حيث استمرت لغات البدجان تلعب دوراً أساسياً فى الاتصالات المحلية، أكثر من الحفاظ على عرف التبادل والتماثل الشفوى، فى هذه المنطقة شجع ظهور الارساليات والادارات الأجنبية تطور اللغات البدجانية الجديدة، واللغة الفرنكا، مع اتصال كل واحدة منها بمفردات اللغة السائدة (البدجانية الفرنسية فى كاليدونيا الجديدة،

٧ - إنه من الغريب أن تكون لغات الميلائين المدروسة جيداً هى أيضاً تلك التى تعرضت لتغيرات أكثر جذرية تحت تأثير الأرساليات الأجنبية. يمكن أن يكون ذلك اتجاه عرقى لا ينتمى أبداً إلى الطبيعة العميقة للغات هذه المنطقة.

اتصال كل واحدة منها بمفردات اللغة السائدة. (البداية الفرنسية في كاليبونيا الجديدة، والبداية الإنجليزية في غينيا الجديدة مثلاً)، ومع ضرورة الأبقاء على عدم العدالة، وعدم التناسق السياسي، مما لا يعطل القول بأن البداية أخذت كدلائل على الاعتراف من قبل السكان الأصليين. في صفتهم الطبيعية تركيباً، لدرجة أن أصبحوا مركبات لعنقهم السياسي والاجتماعي.

فترة الاستعمار

ان استقلال العديد من الأمم في المحيط الهادئ مرتبط بوقوع الحرب العالمية الثانية في هذه المنطقة، في فترة استجلبت انقطاعاً كبيراً للتقاليد القوية وغيرها كما استجلبت تحولاً كبيراً للسكان، وتحطيماً عضوياً، واكتشاف عدد من سكان الجزر أن الغاتحين لم يكونوا غير قابلين للهزيمة ولا معصومين من الخطأ، وكانت أشباح الحرب متوازنة عن طريق اتفاق جديد للوصاية، إمرام لأغلبية أهل الجزر شاملاً تسهيلات تعليمية كبرى، ودرجة ما من الاستقلال، ومساعدة اقتصادية محدودة، أدى هذا إلى رحيل سريع للتقريب (التحول إلى الغرب)، حيث اللغات البداية التي كانت ما تزال مستخدمة في ميلانيزي لعبت دوراً هاماً ما يزال غامضاً.

وخلال الحرب العالمية الثانية فإن لغات البجان في ميلانيزي (خصوصاً السليمانية والبيجانية والتوك بيزين والهيري موتو بدرجة أقل) استخدمتها أوساط اليابانيين والحلفاء في البحر، والمظليين، والطائرات لنقل السكان الأصليين. رغم أن هذا النوع من الاتصال الرأسي أصبح أكثر اصطناعاً وتكلفاً منه في أيام الاستعمار الأولى. واستمر استخدام البداية بعد الحرب في غينيا الجديدة، ويطبع به العديد من الصحف، وتذاع برامج بلغة التوك بيزين في البحار. وتفسير التوجيهات السياسية بالتوازي مع النعمة اللغوية.

وهكذا كان يؤمل التوصل تدريجياً عبر الصحافة والأذاعة إلى تحول التوك بيزين إلى الإنجليزية وأن يؤدي ذلك إلى انصهار تدريجي مع اللغة السائدة وقد أوشكت هذه الخطة على النجاح، بفضل انتشار المدارس. ويمكن أن يعود تراجع الخطة إلى أسباب متعددة منها : المبدأ اللغوي الذي يعنى أن الخليط من نظامين لغويين (بالتبادل الانجليزية والبداية الانجليزية) يمكن أن تعود إلى نظام ثالث ليس له بالضرورة شبه خاص بأي

تطور لغات البدجان في المحيط الهادى

من النظامين (٨).

ويكون اللغات لها وظائف اجتماعية هامة يطفى بشكل كبير على نظمها المرجعين اللغوية، ولم يعر أحد اهتماماً لهذا المعطى.

البدجانية الانجليزية للميلانينى تكمل تطورا محدد ا لهوية ميلانينزية أصلية، تتعارض مع التميز اللغوى للغة السائدة، ولكن عاملاً ثالثاً بدأ يظهر على استحياء فى المواضع الردارية، وفى مدن المنطقة. ولكنه فى أصله جزء من حركة هامة بدأت منذ عدة سنوات تحت تأثير التعمير، وهو عملية تحول البدجانية إلى الكريول، بمعنى آخر هو عملية تبنى عدد متزايد من السكان الامليين له كلغة أولى، وهى تميل إلى أن تصبح اللغة الأم لعدد من السكان.

وعملية التحول إلى الكريول مرتبطة بالتعقيدات اللغوية السريعة فى البدجان. وتدخل هذه اللغة تدريجيا تركيبات مستعارة من مصدر الكليات أكثر من كونها من اللغات التحتية، أو الفوقية، ويتميز المعمرون الكريول الجدد لغويا عن لغات البدجان التى كانت تستيقهم زمنيا. (ما زالت هيبتهم وشجاعتهم مستمرة فى التأخير). ويتشابه مع الإنجليزية بشكل أقل من هذه الفروق اللغوية من ثلاث عوامل ذكرت سابقا. عند خروج الغريب ١٩٧٠ حدث أن الاتصال الجماعى الأفقى صار وظيفة أساسية للسلامة والفانواتو والتوك بيزين فى فينيا الجديدة والبدجان فى جزر سليمان.

والواقع أن الجنول أكثر تعقيدا لأننا نواجه ثلاثة ثوابت تلعب دورها فى آن واحد، وعلى هذه الثوابت الثلاثة نجد مبدأ هاما لعلم اللغة هو الميل إلى التوحد. وحسب هذا المبدأ فإن الظواهر اللغوية واللغوية - الاجتماعية التى نتجت منذ عدة أعوام فى مناطق انتشار لغة البدجان فى وقت مبكر ، انتشرت اليوم فى مناطق أكثر انسجاما إلى داخل الجزر. باختصار :

١ - لغات البدجان فى طريقها إلى أن تصبح لغات الاتصال الأفقية حتى المقاطعات الأكثر بعدا من ميلانينزيا، مثل الهضاب العليا الجنوبية من غينيا الجديدة، وهى تحافظ على مركزها كاملا لدى القرويين، وبدأت أيضا تطرد اللهجات المحلية التقليدية التى أصبحت مهددة باختفاء سريع.

٨ - خليط ينتج من تجربة مركب كيموى أكثر من كونه آلة ميكانيكية بسيطة .

٢ - فى مدن مثل بورت مورسبى وهونارا أو فليلا، أصبحت الپدچانية الإنجليزية لغة أساسية، بل هى فى الغالب النموذج الوحيد لاتصال الأماالى الواقعين فى أدنى السلم الاجتماعى.

اللغة ذات الاحترام هى الإنجليزية الحقبة التى فى مقدروها أن تغير الكود الإدارى بين الپدچانى والإنجليزى القديم - أو على الأقل أن تنتج صيغة إنجليزية للبدچان - وهى أحسن وسيلة لتأكيد موضعها الاجتماعى. أن رفض الإنجليزية المنتشرة جيدا فى بعض أنحاء منطقة التوسع الاستعمارى ترك المكان يسرعة للتأثير الإعلامى للفيلم والفيديو.

٣ - خارج لغات الوحدة الوطنية التى تميز الفترة التالية التى تسبق الاستقلال مباشرة يجب أن نلاحظ ميلا إلى تقسيم محلى للبدچانية ولغة الفرنكا (الخليط) اللتين كانتا تبدوان مهادنتين فى سنوات ١٩٦٠ و ١٩٧٠. وهذه اليقطة للهجات الأملية واضحة خصوصا فى الپاپوازي. ويعتقد بعض الخبراء أن الخريطة اللغوية لفينيا الجديدة فى المستقبل ستشهد أنبواجاً لغوياً جديداً، بين اللهجات المحلية واللغة الإنجليزية ينتشر أكثر من التوك بيزين. وعلى كل حال فإن الشخصية اللغوية لكل بيدچان هذه المنطقة يجب أن تقترب شيئاً فشيئاً من تنوع الإنجليزية الذى انفصل محلياً كلفة لصفوة البلد.

فى كل هذا نلاحظ تغيراً سريعاً فى الطبيعة والوظيفة الاجتماعية لبعض لغات الپدچان التى ظلت مستخدمة فى هذه المناطق، وكذلك وجود بعض اللغات الپدچانية التابعة لعدة عوامل غير متوقعة. ولا يمكن إلا أن نضع فى متاهة التخمين فيما يخص هذه اللغات. إن فرضها فى المقاومة فى الميلانيز يبدو أنها واجبة القوة. بشرط أن تستمر كرمز للشخصية الوطنية والمحلية. وأن تحوّل أثر الماضى الاستعمارى الذى ما زال مرتبطاً بها كما حدث فى استراليا لدى الشعوب ذات الأصل الوطن الذى أصبحت كريول، بلهجة كريول أهلها إنجليزى. وهنا يعتبر الأقدمون هذه اللغة اختراعاً من البيض، بينما ينظر الشباب إلى اعتبار الكريول نموذجهم الخاص للتعبير الوطنى الأصلى، أن وضع هذه العوامل الإيجابية فى الاعتبار، حتى الأنواع اللغوى الممتد، لا يمكن أن يؤثر على الاستقلال اللغوى للبدچان.

ولكن هذا الاستقرار يمكن أن يكون مهدداً بعاملين آخرين منهما تبنى إنجليزية محرفة بقدر ما كنموذج للتعبير عن الهوية الوطنية. حيث تبتنى لغة فرنكا (خليط) محلية ناتجة عن

تطور لغات البديان في المحيط الهادى

تفتت السلطة المركزية. هذان العاملان معا أو منفصلان، لم يفقدا توزيع البديان على درجات الانحراف حتى يصل إلى الاختفاء الاحتمالى المتصور عن طريق اللايكوك (١٩٨٣). فى غينيا الجديدة.

مهما حدث فإن النتيجة لا يمكن إلا أن تكون مختلفة جدا عن الوضع اللغوى فى المحيط الهادى فى عهد الاستعمار أو فيما قبله، إن اللهجات الأملية، لهذه المنطقة، بل بعض اللغات ذات الانتشار الواسع مثل لغة الهاواى أو المورى تعيش الآن معركة خاسرة سلفا مع اللغات ذات الطابع العالمى مثل الإنجليزية أو الفرنسية. بينما غبار اللغات الأملية التى امتصتها حملات محو الأمية، والمعلوماتية informatique لا يترك أية فرصة حتى اللغة واسعة الانتشار، وشيئا فشيئا مع دخول العقل الأليكترونى إلى قاعات الدرس، والمكاتب ستقل أهمية البديانية. أن التعدد اللغوى التقليدى لعهد ما قبل الاستعمار كان ظاهرة مستقرة جدا. والازدواج اللغوى الذى يتضمن لغات ذات مستويات غير متكافئة يتعرض لفترة أكثر اهتزازا. وهكذا فإن كثيرا من اللهجات القوية للبايدان، فى غينيا الجديدة تجد نفسها الآن مخلوعة عن العرش لصالح التوك پيذين، كما أن التوك پيذين، يخسر أرضا فى المدن لصالح الإنجليزية.

استنتاجات

وفى نظر العلماء الذين يدرسون اللغات الشعبية التقليدية فإن الوقت ضيق، وفى الغريب العاجل إن يكون من الممكن متابعة هذه الدراسات فى إطار تقليدى. وبالنسبة لمن يهتم بنماذج اللغات، ويموتها، ويفرغ أخرى لعلم اللغة الاجتماعى ما زال الوقت مواتيا بالرغم من أن هذه الحماصة تختلط بدرجة من الندم مع فكرة ضياع عدة لغات غير أوروبية مع قدرة (الباحثين) على استدعاء رؤى مختلفة وصور للتغيير لمساعدتها على الحياة.

إن دراسة التنوع على الخريطة اللغوية للمحيط الهادى التى لخصتها فى هذه المحاولة تحمل أيضا رسالة أخرى : التبديل أو التغير اللغوى لا يتبع سيرا هادئا مستمرا كما يرى النحويون التاريخيون القدماء. أننا نكتشف فيه بالآخرى أنواعا من المصائب التى تقطع استمرار مسيرة التاريخ بتغير الاتجاه بشدة. ونتائج سريعة للثبات وعدم الثبات، وبورانا دون مخرج.

إن التغييرات اللغوية التي تصاحب تغيرا سريعا على المستوى الاجتماعي والصناعي، تلحظ خصوصا في المحيط الهادئ، وعلى الأخص في الميلانيز، حيث الفترة التاريخية للاتصال بالغرب لم تتعد أبدا القرن. إن دراسة تكوين لغة ما وعملية التحول للبداجانية الناتجة من التطور، وكذلك عملية التحول إلى الكريول وموت لهجة الأميين في هذه المنطقة من العالم يمكن أن تحمل لنا رؤى عميقة لطبيعة اللغات الإنسانية بشكل عام، والشخصية السائدة للغة يمكن أن تكون قدرتها على التكيف مع التغير أكثر من خضوعها لنظام قواعد.

بيتر موهلهاوسلر
كلية لينانكر - أكسفورد.

BIBLIOGRAPHY

- ABEL, CECIL, "Missionary lingue franche: Suau" in Wurm (ed), p. 971-988, 1977.
- CLARK, ROSS, "Social context of Early South Pacific Pidgins" in Woolford, E., Washabaugh, W. (eds.) *The Social Context of Creolization*, Ann Arbor, Michigan, Karoma, p. 10-27, 1983.
- DUTTON, THOMAS E., "Birds of a Feather: A Pair of Rare Pidgins from the Gulf of Papua" in Woolford, E. & Washabaugh, W. (eds) *The Social Context of Creolization* Ann Arbor, Karoma, pp. 77-105, 1983.
- *Foreigner Talk to National Language: The Origin and Development of Hiri (or Police) Motu, Papua*, Port Moresby, University of Papua New Guinea Press, forthcoming.
- FOLBY, WILLIAM A., "Language Birth: the process of Pidginization and Creolization, MS, Australian National University, 1985.
- LAYCOCK, DONALD C., "Melanesian Linguistic Diversity: A Melanesian Choice?" paper presented at Research School of Pacific Studies Seminar on Melanesia - Beyond Diversity, to appear in proceedings, Canberra, 1981.
- MCELIHANON, KENNETH A., "Some Mission Lingue Franche and Their Sociolinguistic Role" in Wurm, S. A. (ed), p. 277-289, 1979.
- MOHLHAUSLER, PETER, *Pidgin and Creole Linguistics*, Oxford, Blackwell, 1986a.
- "The Politics of Small Languages in Australia and the Pacific," paper presented at First Canberra Conference on International Communication, to appear in *Language & Communication*, 1986b.
- MUIJER, MAX, *Science of Language*, London, Longmans, 1875.
- REINICKEL, JOHN E. et al., *A Bibliography of Pidgin and Creole Languages*, Oceanic Linguistics Special Publication No. 14, Honolulu University Press of Hawaii, 1975.
- WURM, STEPHEN A (ed), *New Guinea Area Languages and Language Study*, Vol. 3, Canberra, Pacific Linguistics C - 40, 1977.
- *New Guinea & Neighboring Areas: A Sociolinguistic Laboratory*, The Hague, Mouton, 1979.

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

تعتبر اللغة المحلية فى هايتى، مثل كل اللغات المحلية، لغة كاملة جزئيا ولا كانت اللغة الأم لما يقرب من ستة ملايين نسمة - بون أن تحسب أبناعا المهاجرين - فهى تمتلك وسائلها الخاصة فى التعبير بالكلمات والجمل والمحادثة. ومع ذلك فقد استبعدت خلال أكثر من قرنين من الزمان - من عدد كبير من مجالات الاتصالات. كما منعتها الحدود التى فرضت عليها من أن تطور سواء على المستوى اللفظى أو مستوى المحادثة - ابتكارا يسمح بضممان أداة اتصال متعددة وشفوية ومكتوبة. كما أن الاستخدام الحالى لهذه اللغة - التى ظلت تهاجم لفترة طويلة - فى مواقف جديدة فى الاتصال وخاصة فى النظام التعليمى قد خلق عددا كبيرا من المشاكل اللغوية والتربوية والثقافية والسياسية.

أولا - المواقف المخصصة للغة المحلية فى مجتمع هايتى

تعتبر اللغة المحلية هى اللغة التى يتحدث بها غالبية الشعب فى هايتى. وتعتبر الفرنسية

الترجمة بكتورة فاطمة خليل السوسقى

كلية التربية - جامعة حلوان

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

هى اللغة الرسمية كما نص على ذلك دستور ١٩٢٦ الذى صيغ فى زمن الاحتلال الأمريكى. ومع ذلك، فإن المادة ٣٥ من دستور ١٩٦٤ تنص على "أن القانون يحدد الحالات والشروط التى يسمح - أو بالأحرى - يوصى فيها باستخدام اللغة المحلية من أجل حماية المصالح المادية والمعنوية للمواطنين الذين لا يجيدون اللغة الفرنسية بدرجة كافية". وفى الواقع، فإن هذا الجواز محدود باستخدام هذه اللغة المحلية الشفوية فى المحاكم وجهات العمل الإدارية، أما اللغة المكتوبة فتبقى قاصرة على اللغة الفرنسية، كما أن التعليم لا يتم مطلقا إلا باللغة الفرنسية.

ويمثل الناطقون باللغة المحلية وحدها حاليا نسبة ٨٠٪ من مجموع سكان هايتى. وهم جميعا - إلا فى بعض الحالات النادرة - (فى المناطق التى يتم فيها محو الأمية باللغة المحلية) أميين. وتتشكل هذه النسبة من السكان من الفلاحين بصفة أساسية، إلا أنها تضم أيضا جزءا كبيرا من البروليتاريا ومن هم دون طبقة البروليتاريا الذين يعيشون فى الحضر.

وهناك نسبة أخرى من السكان (١٥ إلى ٢٠٪) تتحدث اللغتين. وفى الواقع فإننا يمكن أن نتفكر - وفقا لبيانات اجتماعية بشأن مشاكل اللغات - أن حوالى ٣٪ تقريبا من أبناء هايتى الذين ينتمون إلى طبقة البرجوازية يمكنهم مواجهة أى موقف فيتحدثون سواء باللغة المحلية أو بالفرنسية. لهذا فإن هذه الأقلية تستخدم إحدى اللغتين فى الحديث تبعاً لما يتطلبه الموقف الاجتماعى.

أما باقى المواطنين من هؤلاء "الذين يتحدثون اللغتين" فلديهم كفاءة لغوية غير متساوية بين اللغتين تتضح فى أحاديثهم فى المواقف المختلفة. وإذا قورنت عدديا فسنجد أن المتحدثين باللغة المحلية يفوقون بدرجة كبيرة المتحدثين بالفرنسية. وتواجه هذه المجموعة - التى تتألف فى غالبيتها من صغار الموظفين والحرفيين والسائقين وموظفى الخدمات - موقفا واضحا من عدم التوازن اللغوى.

وهذا الموقف الاجتماعى - اللغوى يحدد المواقف والتصرفات التى تعبر عنها كل مجموعة بطريقة خاصة.

١ - السكان الذين يتحدثون اللغة المحلية فقط

يشكل المتحدثون باللغة المحلية فقط جزءا من حضارة يتم الحديث فيها بهذه اللغة المحلية

فى معظم المواقف فى داخل نفس المجتمع. وغالبية هؤلاء السكان مستبعدون من عالم اللغة المكتوبة ويعيشون ثقافة شفوية تقوم على تقاليد راسخة. وهذه الثقافة يدخلها ابتكار وديناميكية معينان يتجاوزان مجال الحكاية والمثل أو الفزرة، وتتضح - على سبيل المثال - فى اجتماعات مجالس الفلاحين حيث تثار مشاكل تتعلق بالزراعة والصحة والمبادلات الاقتصادية... ومحو الأمية. وخلال هذه الاجتماعات وغيرها من الأنشطة الجماعية الأخرى، يتم استخدام اللغة المحلية فى الحديث فى الأمور الفنية أو فى الأمور التنظيمية. ومع ذلك فإن استخدام هذه اللغة يتميز بوسائل تحليل الحقيقة بواسطة استراتيجيات خاصة بحضارة شفوية مع تحديداتها بشأن الإسقاط وقدرات التجريد والتأليف وحفظ المعطيات. وهذه التحديدات واضحة فيما يتعلق باتساع شبكات الاتصال التى تؤدى إلى العزلة النسبية لهذه الجماعات ومشاركتها المحتضبة فى الحياة الوطنية

وإذا كان هؤلاء السكان لا يتحدثون الفرنسية، فهم لا يجهلون وجودها كما أنهم لا يجهلون الوضع الاجتماعى الذى يميزها. وتعتبر الفرنسية بلا شك - بالنسبة للمتحدثين باللغة المحلية فقط - وسيلة للرقى الاجتماعى ليس لهم إلا حظ قليل جدا لكى ينتموا إليها. ومن هنا كان الشعور بالنقص الذى يمسون به تجاه متحدث يستخدم اللغة الفرنسية، أو يستخدم - فى حديثه معهم باللغة المحلية - بعض العلامات النحوية أو التعبيريات التى تأخذ الغالب الفرنسى والتي تميزه كمتحدث بلفتين.

وفى المقابل، فإن الفلاح المتحدث باللغة المحلية وحدها، يميل إلى إدخال بعض الألفاظ الدخيلة على اللغة المحلية - أثناء حديثه مع شخص يجيد اللغتين أو بالأحرى مع شخص أبيض - حتى يظن محدث أنه لا يجهل الفرنسية. على سبيل المثال، فم المتحدث باللغة المحلية - التى يفتقد نظامها الصوتى إلى الحروف المتحركة الرئيسية (ى، ومشددة، أو) - يعرف تماما أن المتحدث باللغتين يستخدمها حيث يستخدم هو حرفى / و / إى / وفى حديثه معنا قال لنا فلاح التعبير التالى : (إن فلاحى فيرت يلكون الأرز).

والتحدث الذى يتكلم اللغتين - وحتى الذى يتحدث اللغة المحلية الفرنسية - لا ينطق بأى حال / الأرز / بنفس هذه الطريقة.

وتبرز هذه الألفاظ النحوية الاجتماعية بوضوح ما يعرفه المتحدثون فى هائيتى عن وضع كل من اللغتين بالنسبة للتقسيم الاجتماعى للسكان

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

وتفرض اللغة المكتوبة نفسها - وهى امتياز اللغة الفرنسية - على أوساط السكان المتحدثين بلغة واحدة فى مواقف معينة خاصة فى التعامل مع الجهات الإدارية وفى المدرسة. وفى جميع هذه الحالات، يجد المتحدث باللغة المحلية وحدها نفسه فى مواقف ليست فى صالحه فعندما يضطر للتعامل كتابة مع أى جهة إدارية فإنه يلجأ إلى وسيط يتحدث اللغتين ولا يتوانى عن استغلاله. وفى المدرسة يكتسب معلومات بلغة لا يعرفها ولا يستخدمها مما يؤدى به إلى فشل دراسى شبه أكيد

وفى مواقف أخرى تنسم بالعنانية التقليدية (مثل طلب الزواج على سبيل المثال) يضطر الفرد إلى استخدام لغة مكتوبة مقابلة تختلط فيها تركيبات لغوية من اللغة المحلية واللغة الفرنسية. وهذا الخليط اللغوى المسمى "الفرنسية الشاردة" يعتبر وفقا على هؤلاء - فى داخل المجتمعات - القادرين على الكتابة

٢ - مجموعة المتحدثين بلغتين :

تستخدم اللغة المحلية فى الحديث بين أفراد هذه المجموعة بشكل واسع مهما كان الوضع الاجتماعى للمتحدث، وذلك فى جميع المواقف التى لا تنسم بالعنانية وكذلك عندما لا يريد المتحدث إبراز علامة تدريجية معينة بشكل صريح. وإذا كان من الأمور المسلم بها فى هايتى أن المحادثات الجارية وحتى التى تدور بين كبار الموظفين، تتم باللغة المحلية، فإن اللغة الفرنسية تستخدم بشكل ألى فى حالة الرغبة فى تحديد فارق معين أو علاقة سلطة علنية أو الصفة الرسمية لموقف ما

وعند صفار الموظفين، فإن استخدام الفرنسية محدود ببعض المطالب المهنية (وخاصة استخدام الفرنسية المكتوبة). كما يلجأون إليها لإبراز تفوقهم على متحدث يتكلم اللغة المحلية وحدها أو لإظهار عدم اهتمامهم تجاه شخص ذى مركز عندما تفرض الظروف ذلك.

ومن الواضح أن الفرنسية - بين أفراد الشعب الذى يتحدثها بدرجات مختلفة - لها دور رمزى يحدد المواقف الخاصة بالمتحدثين أو علنية موقف ما، أكثر من دورها الفعلى كوسيلة للاتصال. فالواقع أن الضمير الشخصى "أنت" لا يستخدم على الإطلاق فى هايتى، كما أن جميع ظواهر المبالغة فى التصحيح تدل على أن الفرنسية التى يتحدثون بها فى هايتى لا تسير على نسق تسجيلات مختلفة للغة. وفى الغالب، فإنه يمكننا القول إن الفرنسية تلعب دورا كلفة تمييز اجتماعى ليس لها أى ديناميكية، أكثر من كونها وسيلة اتصال تلبى حاجات

مختلفة. ويفرض عليها دور الرمزي أشكالا مقولة تدعم هذا الدور وذلك بأضعاف قوتها الإخبارية وفي هذا الصدد، فإن قراءة صحافة هايتي المكتوبة باللغة الفرنسية تبرز إلى أي مدى تخلو الفرنسية من المعنى وتصبح أحيانا سلسلة من الصيغ المتكلفة والمزخرفة مع قدرة ضعيفة على الإعلام والتفسير.

وتعيش اللغة المحلية واللغة الفرنسية - الموزعتان بشكل غير متساو بين الطبقات الاجتماعية في هايتي - وتكس كل منهما التاريخ الاستعماري والروابط المعقدة بين الطبقات في مجتمع هايتي، وذلك منذ استقلالها في عام ١٨٠٤ وتشكل كل مكن اللغتين - تاريخيا سواء أردنا أم لا - جزءا من التراث الوطني لهايتي. وعلى الرغم من وضعها كلفة أقلية، فإن اللغة المحلية تعتبر واحدا من الخطوط المميزة لامة هايتي التي يحتاجها كل مواطن هناك كجزء مكن لهويته. ولما كانت اللغة المحلية تابعة من فترة الاستعباد، فإنه لا يشوبها نزعة الاستعباد لأن الكفاح من أجل الاستقلال قد أعطاهما دلالة قوية بوصفها لغة شعب تحرر وسلحه في يده ولغة المحلية على لسانه.

ثانيا : ما انثقل حديثا عن الحديث باللغة المحلية

لوحظ خلال السنوات الأخيرة في هايتي أن اللغة المحلية - سواء المسموعة أو المكتوبة - قد توغلت في مجالات الاتصالات التي كانت مستبعدة منها من قبل. ولم يتم هذا الإنخال بشكل مستمر : فقد تم بشكل مفتوح (مما لا يعني "بكل حرية") أنه بدأ بمبادرات رسمية وخاصة

اللغة المحلية المسموعة : لغة الإعلام العام : كان استخدام اللغة المحلية في الإذاعة والتلفزيون قاصرا حتى عهد قريب على الجمل الشائعة والأغاني. أما الآن فإنها تستخدم في جزء من الأخبار المحلية والدولية وكذلك في بعض المناقشات حول موضوعات ذات أهمية قومية تتعلق بالتعليم والصحة... إلخ. كما يلاحظ أيضا تأكيد على استخدام اللغة المحلية في الخطاب الرسمي في بعض المجالات. وأخيرا فقد تعددت أيضا الرسائل الإعلامية باللغة المحلية على الموجات الإذاعية وخاصة الإعلانات في الأماكن العامة مثل مطار "بور - أو - برنس" التي تذاغ غالبيتها باللغة المحلية

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

والصحافة باللغة المحلية، وإن كانت لا تزال حتى الآن محدودة فى بلد تصل نسبة الأميين فيه إلى ٨٠٪ من مجموع أفراد شعبه، إلا أنها منتشرة إلى حد ما : فهناك صحيفتان أسبوعيتان دينيتان : "بون نوفيل" التى يوزع منها ٢٠٠٠ نسخة و "يوكان" ويوزع منها ٧٠٠٠ نسخة.

وأخيراً تجد الإشارة إلى أن هناك عدداً متزايداً من اللوحات الإعلانية تضم نصوصاً مكتوبة باللغة المحلية، كما أن حملات الوقاية الصحية والاجتماعية - وهذا أمر هام - تعتمد على اللغة المحلية المسموعة والمكتوبة. ونذكر هنا على سبيل المثال حملات تشجيع تحديد النسل أو حملات تشجيع الرضاعة الطبيعية.

اللغة المحلية : لغة التقنية : لما كانت اللغة المحلية هى اللغة الوحيدة التى يتحدث بها الفلاحون والحرفيون، فقد وجد فيها هؤلاء المصطلحات التى تتطلبها أنشطتهم ونقل المعارف التقنية لهم. وفى الفترة الأخيرة، استوجب تطور التعمير والمهن المتعلقة بالبناء والكهرباء وغيرها - سواء على مستوى مفردات اللغة أو أشكال الحديث - إيجاد مصطلحات جديدة تشهد على قدرة اللغة المحلية على تلبية حاجة الاتصالات^(٢). وقد أدى هذا التطور إلى عدة مشاكل خاصة بوضع واستخدام النصوص الفنية المكتوبة باللغة المحلية والتى سنعود لذكرها فيما بعد.

ومن الواضح أنه من الأمور العسيرة تحديد الأسباب التى أدت إلى هذه الظاهرة، وذلك لعدم وجود الأبحاث الاجتماعية واللغوية التى تسمح بتحليل هذه الانبثاقات الحديثة الناجمة عن اللغة المحلية وتطور هذه الانبثاقات ونهاياتها. ومع ذلك يمكننا أن نورد بعض الفروض التى تحتاج إلى تحقيق.

وقد ساعد التضاعف الهائل فى أعداد أجهزة الراديو الترانزستور فى جميع أنحاء البلاد، وزيادة قدرة البث من محطة الإذاعة الوطنية، وإنشاء محطات محلية للإذاعة (جراند أنس، بوردى بيه، كاي، إلخ...) على أن يستمتع عدد كبير من أبناء البلد المتحدثين باللهجة

* ساعدنا فى إعداد هذا الفصل ليون جانى ونحن نشكره على ذلك.

١ - فرانتز لوفيسيال، "المحلية"، الفرنسية، خلاف باطل ؟ استخدام اللغتين وإصلاح التعليم فى هايتى، كوبيك ١٩٧٩ - ص ١٦٦.

٢ - هنرى تودر، "الفاظ الكهرباء فى هايتى" مذكرات لاستير ١٩٨٦.

المحلية فقط إلى برامج إذاعية. ومن المنطقي أن نفترض أنه كان لا بد من تطويع البرامج لتناسب الفئة الجديدة من المستمعين من بين أفراد الشعب مع إعطاء مكانة لها دلالتها العبارة باللغة المحلية.

وعلى الرغم من أن أهمية التليفزيون تقل كثيرا عن أهمية الإذاعة. إلا أن عدد مشاهدي التليفزيون قد زاد زيادة واضحة في منطقة بور - أو - برنس. وبالنسبة لهذه الوسيلة الإعلامية فإن البرامج المذاعة باللغة المحلية محدودة للغاية أما الحلقات الأمريكية فقد تم تخصيص فترة مختارة لها.

وهناك افتراض آخر يمكن أن يفسر لنا تغفل اللغة المحلية في مجالات جديدة من مجالات الاتصالات : وهو الهجرة من الريف التي جعلت من المراكز الحضرية وخاصة في بور - أو - برنس مدنا تتحدث في غالبيتها اللغة المحلية. في عام ١٩٥٠ كان تعداد سكان مدينة بور - أو - برنس ١٤٤٠٠٠ نسمة، ارتفع هذا العدد في عام ١٩٧١ ليبلغ ٤٩٤٠٠٠ نسمة، وهو اليوم قد يتجاوز المليون نسمة. وقد أدت هجرة الفلاحين الذين يتحدثون اللغة المحلية فقط إلى أن تغير من العمق الواقع الاجتماعي - اللغوي للمدينة التي لم تعد تصلح لتأكيد أسطورة دولة هايتي التي تتحدث الفرنسية. بالإضافة إلى ذلك فقد زادت الهجرة من الريف والهجرة الداخلية، بلا شك، من ضرورة إيجاد وسيلة اتصال على البعد باللغة المحلية. وفي هذا الصدد فإن عدد الرسائل الشخصية التي تنقلها الإذاعات المحلية وخاصة إذاعة "راديو - لومبير" التي تقدم برامجها على نطاق واسع (وهي التي يقوم عليها وزراء بروتستانت) فهي أكبر دليل على ذلك.

وقد أظهرت بعض الدراسات الجزئية التي أجريت على الرسائل المكتوبة التي يتم تبادلها بواسطة البريد من المدن إلى القرى. استخدام اللغة المحلية في الكتابة - بشكل فوضوي بدون شك - إلا أنها تلعب دورا كوسيلة اتصال.

وأخيرا، فإننا نعتقد أن أبناء هايتي المقيمين في الولايات المتحدة وكندا يهتمون بشكل جماعي بالحفاظ على شخصيتهم الوطنية. وذلك باستخدام لغة بلدهم وثقافتها وهناك إنتاج لا بأس به من المؤلفات باللغة المحلية في مناطق الهجرة هذه، نجد أنه من الصعب تقدير تأثيرها على الشعب في هايتي.

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

كل هذه العوامل - التى تبرز ضرورة الفهم على نطاق واسع - قد دعت اللغة المحلية لأن تتغلغل فى مجالات للاتصال الاجتماعى كانت مستبعدة منها، وبعبارة أخرى فإن اللغة المحلية، لغة الشعب، اتجهت لأن تصبح لغة المجموع. ومن هذا المضمون الجديد بدأ إصلاح التعليم الابتدائى فى محاولة لإيجاد حل لأزمة النظام التعليمى فى هايتى

ثالثا : إدخال اللغة المحلية فى التعليم

كان التعليم الابتدائى فى هايتى يتم باللغة الفرنسية فقط حتى بدأ الإصلاح المدرسى فى عام ١٩٧٩، حيث كان ٨٠٪ على الأقل من بين الأطفال الذين يلتحقون بالمدارس لا يتكلمون سوى اللغة المحلية.

وكانت المدارس دائما واحدة من الأماكن التى تظهر فيها بوضوح مواقف كل من اللغة المحلية واللغة الفرنسية. وكان الطفل يجد من المستحيل عليه (إلا إذا كان من الطبقة المميزة من الشعب) أن يستخدم اللغة الفرنسية كوسيلة للفهم وكتابة رسائل. حتى المعلم، الذى كان من جانبه (وخاصة فى البيئة الريفية) لا يستخدم اللغة الفرنسية فى المدرسة إلا فى أضيق الحدود، كان يجد صعوبات جمة فى تطويع هذه اللغة لإجراء حوار تربوى حقيقى مع تلاميذه. فكان التلاميذ والمعلمون يقدمون ما يشبه عرضا للمدرسة "باللغة الفرنسية" ولكن لعدم قدرتهم على استخدام هذه اللغة لسير الاتصال التربوى، كانوا يستخدمون لغة معملية وبسيطة تأخذ القوالب والكلمات الفرنسية فيها نورا رمزيا. وكانوا يشعرون بعدم الأمان اللغوى حيث أنهم كانوا منقسمين بين الإحساس المشترك بعدم قدرتهم على الاتصال والالتزام باستخدام لغة التعليم الرسمية عندما تطأ أقدامهم باب المدرسة. وهكذا بدت الصفة الرسمية للتعليم والوظيفة التربوية فى نزاع دائم، أدى إلى إفساد العلاقة التعليمية : فالعلاقة بين المعلم والتلميذ كانت شديدة وذات اتجاه واحد. أما التلاميذ الذين كانوا يعملون إلى الحفظ رأسا فقد كانوا فى موقف المسألة التامة بعد أن تحولوا إلى أنية تصب فيها الموضوعات - الخالية من المعانى - فى نظرهم.

ولما كانت المدرسة يعوزها الأمن اللغوى، نتيجة الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة للغاية والتى يعيشها سكان المناطق الريفية وضواحي المدن، فإن هناك بيانات تدعو للقلق . فنسبة الذهاب للمدرسة فى المرحلة الابتدائية منخفضة جدا (٣٨,٦ ٪)، كما أن إنتاجية النظام المدرسى ضعيفة جدا . فإذا أخذنا فى الاعتبار عدد التلاميذ الذين التحقوا بالمدارس

في عام ١٩٧٠ وهو ١١٣٣٨، نجد أن ٣١ ٪ فقط من بينهم أي (٢٤٨٦٦) هم الذين أكملوا تعليمهم حتى الصف السادس، و١٣ ٪ أي (١٤١٧٨) أكملوا حتى الصف الأول الإعدادي. وأخيراً ٣ ٪ من هؤلاء التلاميذ هم الذين واصلوا تعليمهم حتى السنة النهائية. أما بالنسبة للأطفال الذين بلغوا سن الالتحاق بالدراسة. فإن ٦.٢ ٪ من بينهم تواصل دراستها حتى نهاية المرحلة الابتدائية، و٠.٧ ٪ منهم حتى المرحلة الثانوية، هذا دون الأخذ في الاعتبار لحصولهم أو عدم حصولهم على شهادة نهاية المرحلة (٢).

أضف إلى ذلك أن أقلية ضئيلة جداً هي التي لا تستطيع - بعد نهاية المرحلة الابتدائية وحصولها على الشهادة الدراسية - أن تجد في القرى ومدن المحافظات إمكانية الاستفادة من معارفها بشكل مفيد. وهنا تصبح هذه الشهادة - التي تم الحصول عليها بشق الأنفس - مجرد "جواز مرور إلى المدينة" حيث يتجه هؤلاء الخريجون ليزيدوا عند العاطلين المتكدسين في بيوت من الصفيح.

منذ عام ١٩٧٩ قررت وزارة التربية في هايتي إجراء إصلاح جذري عميق في التعليم الابتدائي، وكان هذا الإصلاح يستهدف إيجاد حلول لبعض مشاكل المدرسة الابتدائية في هايتي وخاصة مشاكل اللغة المستخدمة في التعليم. ويذكر من هذا المجال أن تعليم الكبار (عن تجربة في منطقة كوت دي فير من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٨) هو الذي أدى في الواقع إلى إدخال اللغة المحلية كلفة للتعليم. وثمة مرسوم رئاسي تم التصويت عليه في ١٨ سبتمبر ١٩٧٨ في الغرفة التشريعية ينص في مادته الأولى على أنه "يسمح باستخدام اللغة المحلية كلفة مشتركة يتحدث بها ٩٠ ٪ من مجموع سكان هايتي وذلك في المدارس باختيارها لغة - وسيلة وأداة للتعليم"، وذلك - بمقتضى حيثياته - من أجل "حماية الوحدة الثقافية للدولة" و "جعل التعليم في متناول الجميع". وهكذا تم - بقرار - إدخال اللغة المحلية في التعليم.

ولم يتم نشر المرسوم الذي ينظم النظام التعليمي في مجموعة إلا في ٣٠ مارس ١٩٨٢. ويحدد هذا المرسوم - مشيراً إلى المرسوم السابق صدوره في سبتمبر ١٩٧٨ - بيانات أكثر تحديدا بشأن استخدام اللغتين في المدارس :

المادة ٢٩ : تعتبر اللغة المحلية هي لغة التعليم واللغة التي يتم تدريسها طوال السنوات

٣ - المصادر : المركز الهايتي للإحصائيات . إدارة الإحصائيات في وزارة التربية .

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

الدراسية فى المرحلة الأساسية^(١)، واللغة الفرنسية هى اللغة التى يتم تدريسها طوال سنوات الدراسة فى المرحلة الأساسية، وهى لغة التعليم ابتداء من الصف السادس الابتدائى.

المادة ٣٠ : يبدأ العمل على تدعيم اللغة الفرنسية ابتداء من الصف الخامس من مرحلة التعليم الأساسى وذلك من أجل استخدامها كلفة للتعليم فى الصف السادس.

المادة ٣١ : فى جميع الحالات - وابتداء من الصف السادس - ينبغي ألا يقل حجم الوقت المخصص سواء للغة الفرنسية أو للغة المحلية عن ٢٥ ٪ من ساعات الدراسة الأسبوعية.

رابعا : تاملات حول التناقضات وصعوبات الإصلاح

أصيب بخيبة أمل فاحشة كل الذين كانوا من السداجة بحيث اعتقدوا أن المرسوم وحده يكفى لإحفاء اللغة المحلية هيكلها كلفة للتعليم الشفوي والمكتوب، حتى يتم ويشكل سريع إصلاح النظام التعليمى فى هايتى. فقد كشفت بعض التقييمات التى أجريت فى عام ١٩٨٣ و١٩٨٤ أنه على مستوى الاختبارات اللغوية - كانت النتائج سواء باللغة المحلية أو باللغة الفرنسية ضعيفة للغاية. لذلك فنحن نرى أنه بدلا من الهجوم على إنخال اللغة المحلية فى التعليم، من الأفضل محاولة فهم أسباب الصعوبات فى هذه الطريقة الجديدة فى التعليم.

وقد أثار استخدام هذه السياسة اللغوية الجديدة فى المدارس تناقضات فى الطبقات الشعبية والطبقات المسيورة. فالتبقات الشعبية كانت تخشى من أن تبقى حييسة اللغة المحلية التى - من وجهة نظرهم - قد تقتل كل أمل، حتى ولو ضعيف، فى الرقى الاجتماعى الذى تهيمه اللغة الفرنسية. وعلى العكس من ذلك ترفض الطبقات الأخرى عموما "التدريس باللغة المحلية" وهو النظام الذى يقلل من الامتيازات الهائلة التى تقدمها - فى النظام القديم - معرفة اللغة الفرنسية ، حتى ولو كانت معرفة سطحية. وكان على النظام الجديد فى التعليم أن يسلك طريقا اجتماعيا وعرا. والإصلاحات التربوية فى هذا المجال ليست وحدها

٤ - مرحلة التعليم الأساسى تغطى السنوات العشر الأولى من مراحل الدراسة .

كافية للاقتناع، فإن إثبات الضرورة الاجتماعية لاستخدام اللغة المحلية في الكتابة ينبغي أن يتضح في حالات الاتصالات خارج نطاق المدرسة. ولغة التعلم ينبغي أن تتحول - بإمكانات ملموسة في إعادة استخدامها - إلى أنشطة فردية وجماعية. وبعبارة أخرى فقد أولكتنا إلى اللغة المحلية ما لم نطلبه من قبل من اللغة الفرنسية.

والنظام التعليمي لا يستطيع - وحده - أن يفرض اللغة المحلية كلفة للاتصال الاجتماعي المكتوب على شعب ٨٠ ٪ منه أمي. ولا يستطيع وحده أن يخلق "حجما ثقافيا" باللغة المحلية يعاد فيه استخدام المعارف الأكاديمية التي تم اكتسابها في المدرسة خوفا من أن تفقد دورها الاجتماعي. ومن المؤكد أن اللغة المحلية المكتوبة تبرز - كما سبق أن رأينا - ولكن ببطء وبمعدل المبادرات المعزولة. والتفاوت بين تعليم الكتابة باللغة المحلية في المدارس بشكل عمومي وضعف إمكانية فرضها اجتماعيا مما يمكن أن يفسر بعض الخلل في النظام الجديد.

في عام ١٩٨٤ تم إجراء تقييم على المهارات اللغوية لدى المدرسين في مدارس هاي تي، وقد كشف هذا التقييم الصعوبات الواضحة التي تعترضهم عند تدريس الكتابة باللغة المحلية. وينبغي إدراك أن كتابة اللغة المحلية - بالنسبة لكثير من المعلمين - كانت تعد عملا غير لائق - مما يناقض التوجيهات والقيم التي استقوها في إعدادهم الأول. وارتكبنا خطأ فاحشا عندما اعتقدنا أنه من السهل تلقائيا على المدرس أن يقوم بتدريس اللغة المحلية المكتوبة وذلك عن طريق أشكال خطية بسيطة ما دامت اللغة المحلية هي لغة الأم التي يتحدث بها. وكان من الضروري السماح له بأن يكتسب - أثناء فترة إعداده - متعة شخصية في القراءة والكتابة باللغة المحلية ويكرّبه على أن يجوب بقرائه وكتابته في مستوى كواحد من الكبار بما يتناسب مع اهتماماته الحقيقية في الحياة. وعندما أردنا أن نقلل التقدم الفردي للمعلم مؤيدين بذلك إلى انتقائه كتابة لغة الأم. خلقنا منه منفذا حرقيا لقوانين طريق التدريس ومناهج البحث بدلا من أن نحاول أن نخلق من المعلم باحثا حقيقيا للغة المحلية المكتوبة. وقد أدى ارتباط المعلم باللغة المحلية المكتوبة إلى تقليل الوظيفة التزيينية لهذه اللغة المكتوبة، بشكل كبير. وهكذا فقد أدى التعليم باللغة المحلية - وخاصة في السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية - إلى انسياق واضح نحو المراجعة الشفهية مبطلين بذلك جزئيا الجهد المبذول من أجل تنفيذ عملية محو الأمية في نطاق اللغة الأم. وهنا يمكننا إذن القول أنه بدلا من أن نرى المدرسة تعمل تدريجيا حتى يتم - شيئا فشيئا - تمثيل هذا النظام الشفوي، وهذا ما يتطلبه الاستخدام في المدرسة للغة المحلية المكتوبة، فقد شهدنا إدخال هذا التقليد الشفوي

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

بالقوة إلى الطريقة التربوية نفسها.

إنشاء تنفيذ السياسة التربوية اللغوية الجديدة، انصب اهتمام عدد كبير على الاختبارات الإملائية التى أجريت من أجل إعطاء شكل طيبى للأشكال الخطية للغة المحلية. إن التجربة التى تمت من أجل تعليم الكبار باللغة المحلية والتى قام بها فريق من المعهد التربوى الوطنى، كما أن أعمال مركز اللغويات التطبيقية فى بور - أو - برنس^(٥) قد سمحت بوضع نظام للكتابة سهل وقعال. وكان مفهوم هذه الكتابة يهدف إلى شقين أساسيين وهما : السماح للقارئ الأمل باستيعاب اللفظ المكتوب بشكل سريع ؛ الأخذ فى الاعتبار عند اختيار الأشكال اللفظية لرؤية تعلم الفرنسية. وكانت النتيجة أن هذه الكتابة أرادت تجنب الصعوبة التى تجمى من دمج حروف كثيرة أو مجموعات حروف ممكنة لنفس الصوت. فالعلاقة إذن بين الصوت والحرف علاقة ترابطية، والازدواج تم تجنبه إلى أقصى حد. ولما استندنا إلى نظام الأصوات فى اللغة المحلية سمحت الاختبارات التى تمت بحماية خصوصية اللغة المحلية المكتوبة وكذلك اللغة الفرنسية المكتوبة. وكان النقل من لغة إلى أخرى يتم بشكل غاية فى السهولة بحيث لم يكن هناك أى إمكانية للخلط بين النظامين. ومن أجل هذا، فإنه عندما كانت ترد نفس أصوات الحروف فى كل من اللغة الفرنسية واللغة المحلية، كان الاختيار يقع على الأشكال الخطية فى اللغة الفرنسية بالقدر الذى تشكل فيه دلالة دائمة (مثل أو، ر، س على سبيل المثال).

وفى المقابل، عندما تقدم اللغة الفرنسية تغييرات كبيرة غير متوقعة، كان الاختيار ينود حول شكل خطى مؤكّد يشكل بسيط أو غير مؤكّد فى اللغة الفرنسية (مثل ك، و، ي).

وقد أدى هذا النظام فى الكتابة إلى إحداث معارضة من قبل أولئك الذين كانوا يدعون أن مثل هذه الاختيارات سينتهى بها الحال إلى القطع نهائياً بين اللغة المحلية واللغة الفرنسية (... لتوتى - كما يقولون - فى يران اللغة الإنجليزية). وكان هؤلاء فى غالبيتهم من أشد أنصار الكتابة الاشتقاقية زمناً. كما أن رغبتهم فى تجميل اللغة المحلية بعناصر الكتابة الفرنسية يكشف فى الواقع عن رغبتهم فى سلب اللغة المحلية من هيكلها كلفة مستقلة لدفعها لأن تكون واحدة من اللهجات الفرنسية، وعلى النطاق العلمى، لم تكن حجج أنصار الكتابة الاشتقاقية مقبولة. أما على النطاق التربوى فإن هذا النوع من الكتابة لم يكن

٥ - ب ، فيرنيه : تقنيات الكتابة باللغة المحلية فى هايتى - بور - أو - برنس ١٩٨٠ - لوانتال .

من شأنه سوى خلق صعوبات جمة في تعلم اللغة المحلية المكتوبة، وإزدواجية هائلة عند تعلم اللغة الفرنسية المكتوبة. وفي الواقع، فإن من ركزوا النقاش طواعية حول مظاهر الأشكال الخطية^(٦) إنما كانوا يريدون أن يجهلوا أن المشكلة الرئيسية أوجدها إدخال لغة حضارية منطوقة ومسموعة إلى عالم الكتابة وبشكل عام بضرورة تكييفها للمحاجة العصرية.

إن إدخال لغة حضارية شفوية إلى مجالات الاتصالات التي كانت مستبعدة منها دائماً، إنما يخلق مشكلات لغوية واجتماعية لم يتم بشكل جيد حساب أبعادها وتعقيداتها. وفي مجال الحضارة ذات التراث الشفوي التي ينتمي إليها أبناء هايتي الذين يتحدثون لغة واحدة، تقوم الاتصالات اللغوية بالضرورة على علاقات القرابة والتجمعات التي تتسببها التقاليد والبيئة الجماعية وخاصة في المناطق الريفية. ويضع نمو وصرف الحديث لأشكال خاصة تلعب فيها الإشارات الحركية ونطق الكلمات وخاصة الكلمات "المعروفة" بين الأفراد المتحدثين دوراً أساسياً. وتحدد هذه العوامل على نطاق واسع كيفية إدارة الحديث الشفوي. وقد اقتضى استخدام اللغة المحلية في التعليم وفي الكتابة ضرورة إبعاد المواقف الاجتماعية التقليدية التي شكلت فيها أشكال ومواقف الاتصالات في حياة الشخص الذي يتحدث لغة واحدة. ولما كانت اللغة المحلية مستبعدة من قبل من أي حديث في مجال التعليم، فقد وجدت نفسها وقد أخذت على عاتقها تحمل مجال اتصال يتطلب أنوار لغوية ونحوية لم تكن تتوفر لديها من قبل.

وقد ظهر خطأ كبير عند هذا الانتقال زاده قرب الأجال التي فرضها الإصلاح، وهو الاعتقاد في أنه من الممكن - بشكل اصطلاحي وسبقاً للمواقف الفعلية للاستخدام - التنبؤ بالاجابات الخاصة بمفردات وبنائات اللغة بينما نحن نجهل قدرة المتحدث في مواجهة احتياجات جديدة. وقد أعطى التحليل اللغوي النظرى فكرة وهمية مجملها أن المصطلحات اللغوية يمكن فحصها بعيداً عن مجال الحركة الخلقة التي يوحى لها بها وضمها في موقف تعليمي. وهذا الفصل بالنسبة للممارسة الاجتماعية - اللغوية قد خلق اتجاهين متضامين : أحدهما باسم "نقاء" اللغة المحلية، ينادى بمجد الاتجاه بالتحول المطلق وإلى أقصى حد من اللغة الفرنسية، إلى حد افتراض تعبيرات جديدة يعتبر استخدامها من المتحدث من الأمور

٦ - نجد في الأكاكور ، ولكن في ظروف أخرى وفي حالات مشابهة هذا التركيز في المناقشات على بعض النقاط حول الكتابة المقترحة لحو الأمية باللغة الكيتشوا . وهنا أيضا كان استخدام "ك" بدلا من حرف "ق" في اللغة الإسبانية مما أثار اعتراضات شديدة وتفسيرات مفسكة . وكانت الرغبة الواضحة في هذا الشأن هي تقسيم - بأي وسيلة كانت - الجماعات الهندية من طريق مسالة صرافية بحث .

اللغة المحلية فى هايتى : استخدامها من أجل التعليم

غير المسلم بها. أما الاتجاه الآخر فإنه يدافع عن فكرة الاستعارة الآلية من اللغات الأخرى (الفرنسية أو الإنجليزية) باعتبارها الوسيلة الأكثر سهولة فى حالة الحاجة إلى مصطلحات جديدة فى مجال الاتصالات. وينسب أنصار الاتجاه الأول - فى رغبتهم فى إزالة كل تأثير استعماري من اللغة المحلية - أن اللغة لا تتبع خطأ نظريا مهما كان الأساس الذى تقوم عليه. أما الآخرون الذين يطالبون بالاستعارة الشاملة من اللغات الأخرى فينكرون حقيقة أن اللغة التى تبقى تحت السيطرة لمدة طويلة لا تصمد تماما أمام هذا النوع من الاستعارة وتعرض شخصيتها للخطر. وفى خضم اهتمامهم بسد الفجوات اللغوية والبلاغة فى اللغة المحلية ينهى أولئك هؤلاء المشكلة الأساسية جانباً : أن اللغة المحلية - وهى حقيقة ثقافية واجتماعية - ينبغي أن تكون لها القدرة على اقتحام عالم التدريس، وأن تواجهه فى جميع مظاهره وأن تترك فيه من آثار خاصيتها الدلالية، وتدير بذلك نظاما تعليميا أصليا.

يبدو لنا من الأمور الأساسية أن نؤكد أن على الرغم من الصعوبات التى تواجهها والأخطاء التى تقع فيها، وبعيدا عن الشعور بخيبة أمل بسبب النتائج الجزئية للتقييمات الأولى، فإن استخدام اللغة المحلية فى التعليم فى هايتى يفرض نفسه كضرورة مطلقة.

واستفسارنا اليوم عن المزايا أو العيوب لهذا الاتجاه لن يكون مجدياً : إذ ليست هناك وسيلة أخرى غيرها للمدارس فى هايتى. أما ما يجب أن ندركه فهو أن هذا التغيير يحتاج إلى وقت، وأنها لا يمكن أن نقيس تأثيراته ولا أن نبدى رأينا حول نتائجها فى نهاية عقد التعاون أو قرار وزارى. إن إدخال اللغة المحلية فى التعليم بجميع نتائجه اللغوية والاجتماعية والثقافية يعتبر حدثا يسجل فى التطور التاريخى للدولة. وهذا يحتاج إلى وقت وصبر ويقتلعة تتعدى المحيط المدرسى.

واليوم وبعد سقوط نظام دوفالييه، ينبغي ألا نرفض مبدأ استخدام اللغة المحلية فى التعليم بحجة أن هذا القرار قد أعلن رسمياً فى عهد الديكتاتور السابق. ومن الأمور الهامة أن تضع إدخال اللغة المحلية فى التعليم فى بعدها التاريخى حتى نتفهم دلالاتها. فالتاريخ الطويل للشعب فى هايتى يتميز برغبة فى الاستقلال الوطنى يدعمها تأكيد الهوية الهايتية فى مواجهة الضغوط الخارجية المستمرة. ومن المحقق أنه بالنسبة لجميع التيارات الأيديولوجية التى زعمت الخاصية الهايتية، فإن الضمان فى ذلك هو "إنسان الجبل" وليس البرجوازي المغامر الذى يرتبط بالتجارة الاستعمارية، وهذه الخاصية ظهرت بطبيعة الحال فى حالة الغموض التى استغلها نظام دوفالييه لفرض ديكتاتوريته. ومع ذلك وباسم هذه

القيم وفى مواجهة ممارسات النظام، كالفح الرجال بكل عزيمة حتى يجعلوا من مجرد مرسوم رئاسى بسيط حقيقة تعليمية. ونعتقد اليوم أن المسؤولين عن التعليم فى هايتى - بعد أن يتخلصوا من الضغوط والعوائق التى فرضها النظام القديم - سيعطون لهذا الإصلاح بعدا يتجاوز مجرد تغيير الأداة اللغوية حتى يتم إجراء تغييرات عميقة فى النظام التعليمى بمحتوياته وأهدافه.

وختاماً، نقول أخيراً إن أى سياسة للتعاون - سواء كانت ثنائية أو متعددة الأطراف، لا تشتمل فى فكرها ومنهجها على حقيقة اللغة المحلية منتول إلى الفشل. وإذا أخذنا بضرورة استخدام اللغة الأم فى اكتساب المعلومات والمعارف الأساسية، وإذا وضعنا نظاماً تكميلياً للتعليم الحقيقى للغة الفرنسية بدءاً من الصف الأول من المرحلة الابتدائية، فإن الإصلاح فى هايتى يطرح المناقشة مفهومها اللغوى بالفرنسية التقليدية الخاصة بالصفوة، مفهومها للتعاون محباً لذاته وقصير المدى.

الهن بنتوايلا

BIBLIOGRAPHY

- ALEXANDRE, BENTOLILA, FAUCHOIS, "Recherches actuelles pour les aires créolophones", *Espace créole*, no. 5, pp. 125-202.
VALDMAN, A., *Le créole: structure, statut et origine*, Paris, Klincksieck. 403 pp.
VERNET, P., *Langues, Education, Société en Haïti*, Doctor's Thesis, Paris V, 1984.

المسائل النظرية في وصف اللغات الإفريقية

١ - أين نحن من هذه المسائل

في كتاب صدر في عام ١٩٦٧^(١) ، ولكنه لم يفقد بعد شيئا من أهميته، قدم «پ. الكسندر» قائمة بإحدى وخمسين لغة في إفريقية السوداء (أو مجموعة من اللهجات واللغات المتجانسة) التي يتكلمها ما يزيد على مليون من البشر، وعدد بالنسبة لكل منها الوثائق المتاحة، وجعل لها ترقيبا يتدرج من ١ إلى ٦. فرقم ١ يمثل اللغات التي كانت الوثائق الخاصة بها رديئة (قواعد لغوية، وقواميس بالية أو ناقصة، أو غير معقولة، ونظم للنسخ والتدوين غير علمية). أما رقم ٦ فيرمز إلى اللغات التي يوجد لها كتب موافقة للمقتضيات الحديثة (أصوات تعبر عنها علامات صحيحة، وصف فونولوجي - خاص بعلم الأصوات الكلامية - ونصوص مشروحة، وقواميس، ودراسات في الأساليب واللهجات، وأجهزة صوتية). وثمة ثلاث لغات فقط هي التي استحققت الرقم ٦، وأربع الرقم ٥. معنى هذا أن سبع لغات فقط، من بين قرابة ألف ومئتين، أمكن اعتبار أنها موصوفة وصفا صحيحا، أي تزود الإحصائي بكل الضمانات اللازمة.

ترجمه إلى الإنجليزية : جيئى فيرجسون
المترجم : أحمد رضا محمد رضا

وإذا شئنا قياس الطريق الذي تم اجتيازُه فيما يقرب من عشرين سنة فإنه مما يثير الاهتمام المقابلة بين الأرقام التي قدمها پ. الكسندر وبين وجهة النظر التي عبر عنها ومركز الدراسات الإفريقية بجامعة ميتشجان في تحقيق أجراه في شهر يولييه عام ١٩٨٥. فقد قدر هذا المركز المواد الموجودة الآن لأغراض التعلم والتطعيم، فأحصى ثلاثاً وثمانين لغة وصفها بأن «لها الأولوية الكبرى»، وذلك في ختام مدولة اشترك فيها لغويون إفريقيون بالجامعة نفسها. ومن المسلم به أن هذه اللغات الثلاث والثمانين تعتبر من جهة أهم اللغات من حيث عدد المتكلمين بها، ومن جهة أخرى أن الوثائق الخاصة بها غنية بدرجة كافية تبرر مثل هذا القرار. وإنني لأشك، دون أن أسبق بتقدير نتائج هذا التحقيق، في أنه يوجد في الوقت الراهن أكثر من خمسين لغة تحظى بالمعامل ٥ أو ٦ من معاملات پ. الكسندر، أي تلك التي تكون موادها الموجودة مرضية تماماً. يبقى إذن الشيء الكثير الذي يجب إنجازه، ولم يزل أمامنا صعوبات جمة.

٢ - ما هو المقصود بالوصف ؟

يمكن تحديد هذا السؤال بصياغته بكيفية أخرى : ما الذي يتطلبه الإنسان حتى يقول إن لغة ما قد وصفت وصفا جيدا ؟ يلزمه أولا «فونولوجيا» (علم الأصوات الكلامية) مفصلة ونقدية، أي تعريف الوحدات المميزة الصغرى تعريفا لا يكتفى بقائمة إحصائية بسيطة. لفونيمات phonèmes (وحدات الأصوات الكلامية) اللغة مع بعض ملاحظات تكميلية. ويجب تعريف كل «فونيمة» وإثبات صلتها بعد تحليل بعض المعلومات. هذا العمل يضع في متناول القارئ إمكانية مراجعة الشرح، ويسمح، في نطاق لا مناص فيه من الاعتبار، بالحكم على الأجزاء، في حين أن اللغوي الذي لا يقدم سوى قائمة بالفونيمات يضيف إليها تفسيرات الاعتباطية التي لا يخضعها للنقد. يلي ذلك تقديم قواعد اللغة نفسها، من علم الصرف (التشكيل) Morphologie - مورفولوجيا - إلى تركيب الجملة (أو النحو) syn-taxé ولا يتسنى تكوين فكرة كاملة عن اللغة إذا لم نشرع أيضا في نشر نصوص مشروحة بلغتين، وتالیف معجم بلغتين مصحوب بتصنيف للمواد.

٣ - لماذا الوصف ؟ ولماذا ؟

لا يوجد في مفهوم اللغويين «لغات كبرى»، و«لغات صغرى»، ولا أهمية لعدد المتكلمين باللغة، ولكل لغة أهمية كبيرة لأنها تعكس تجزئة خاصة للواقع. وعلى هذا فمن المؤكد أن هناك ضرورات عملية تتحكم في اختيار اللغات من أجل وصفها. وإذا كان من الممكن الإسراع في تسجيل اللغات الصغرى التي يتناقص عدد الناطقين بها إلى أن تختفي تماما،

المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية

وهذا ما يحدث فى إفريقية كل سنة، فإن هذه اللغات هى بنوع ما تحف معرضة الخطر، وإها أهمية خاصة، ويحل علم اللغات بنوع ما فى الثقافات ذات التقليد الشفهي محل علم الأثرىات، وعلم التاريخ المبني على الوثائق المكتوبة. على أن النص الحالي يتطلب بالأحرى الاهتمام باللغات الواسعة الانتشار. ومن الطبيعي أن استقلال البلاد النامية لا يعمل على تأكيد ذات على المستويين السياسى والاقتصادى فحسب، ولكنه يحرص أيضا على أن يتجلى على المستوى الثقافى. وفى هذه البلاد وهى تبحث عن ذاتها أن اللغة تحتل مكانة رئيسية. وعلى ذلك وضعت حكومات كثيرة برامج لتعليم الأميين القراءة والكتابة باللغات القومية. وعلى هذا المستوى وعلى مستويات كثيرة أخرى يسود تباين شديد. وبين البلاد الصغرى حيث يستخدم الكافة بالفعل لغة واحدة (رواندا، وبوروندى) والبلاد التى فيها تنوع كبير (الكاميرون) نصادف أوضاعا أخرى : فمنا بلاد تنتشر فيها لغة واحدة ذات مكانة كبيرة بين الأهالى الذين يتكلمون لفتين على الأقل (تنزانيا، وجمهورية إفريقيا الوسطى)، والبلاد التى تعرف عدة لغات ذات خطوة تتنافس إلى حد ما فيما بينها (نيجيريا، ومالى)، والبلاد التى فيها لغة واحدة لها الأغلبية، وعدد كبير من لغات صغيرة (السنغال)، وذلك بالإضافة إلى الأوضاع اللغوية الخاصة بكل بلد، إذا أخذنا الطبقات الاجتماعية فى الاعتبار. ولقد حل السيد "هوى" M. Houis هذا الأمر تحليلا رائعا فى كتاب له^(٩). ومن الطبيعي أن مهمة الواصف تختلف حين يعكف فى كثير من الأحيان، بناء على طلب رسمى من بلد ما، على دراسة لغة تستخدم كأداة للتعليم. وحتى إذا كانت الطريقة المستخدمة، فى خطوطها العريضة متماثلة، فإنه ينبغي له فى هذه الحالة أن يعرف أن عليه أن يأخذ فى اعتباره - وفى الكثير من الأحيان بالتعاون مع بعض علماء القرية - النتائج العملية المترتبة على دراساته : كأعداد كتب دراسية عملية ومتدرجة لتعليم اللغة، وتأهيل المدرسين المكلفين بتدريس لغتهم، أو اللغة المخصصة لتعليم الأميين، فى حين أنهم لم يتكروا على أداء هذه المهمة، فالتعليم يجرى غالبا باللغات الإنجليزية أو الفرنسية أو البرتغالية.

٤ - مناهج ونظريات

ينبغي أن نؤكد، وضيئا أم لم نرخص، أن الاختبارات النظرية، وبالتالي أساليب الوصف ترتبط بأحداث تاريخية، واختيارات جرت فى عهد الاستعمار. وفى ضوء هذه الأمور نحاول فهم ما يجرى فى الوقت الحاضر.

١ - المدرسة الألمانية

كان الألمان هم غالبية الرواد الأوائل في دراسة اللغات الإفريقية. ففي أواخر القرن الماضي كان مركز الدراسات اللغوية يتركز في ألمانيا. ولا جدال في أن القواعد المقارنة للغات الهندية الأوروبية، والقواعد التاريخية للغات الجرمانية، أو حتى الرومانية، قد نشأت في ألمانيا، وقد أثر العنصر التاريخي القوي المكون لهذه الفروع من المعرفة منذ البداية في الأوصاف الأولى للغات الإفريقية. وحتى إذا كانت الدقة الصوتية المراعاة في التوثيق، والسمعة الشاملة نسبياً للتحليلات، تثير الإعجاب القوي، فإننا لندهش حين يتبين لنا أن هذه الأبحاث لم تهتم بوصف خواص لغة معينة بقدر اهتمامها بوضع شواخص تسمح بإعادة بناء اللغة الأصلية المشتركة، حتى إن الأسماء العظيمة التي ظهرت كانت أولاً أسماء علماء مختصين في الأدب المقارن، مثل ك. مينيوف K. Meinhof^(٣) في البنتو العام، و د. فسترومان D. Westermann^(٤) في لغات السودان. وتبوءت الدراسات الإفريقية في الوقت الحاضر تنوعاً كبيراً إلا أن هذا الاتجاه بقي واضحاً في الاهتمام بدراسة اللهجات واللغات العامية^(٥). وفي إعادة بناء اللغة التشادية الأولى^(٦) أو الخويزان Khoisan^(٧).

٢ - المدرسة الأنجلوسكسونية.

إن إلزام المديرين الاستعماريين، في إطار الحكم غير المباشر، بأن يعرفوا لغة إفريقية واحدة على الأقل قبل أن يلتحقوا بمراكزهم، هذا الإلزام لعب دوره في التوجه العملي والبرامجاتي للمدرسة الإنجليزية، سليلة المدرسة الألمانية في بدايتها. ولم يزل السيد جوثري M. Guthrie - دون أن يهمل الدراسات المقارنة، وبخاصة في مجال البانتو - لم يزل لزمناً طويلاً مرجعاً لا يبدل له، في كتابه الضخم "البنتو المقارن" Comparative Bantu^(٨) وشهد النصف الأول من القرن العشرين ازدهاراً في قواعد اللغات، والمعاجم المعتمدة، فنذكر منها معاجم ج. ب. بارجرى G. P. Bargery و ر. س. إبراهيم R.C. Abraham في الهوسا، وف. جونسون F. Johnson في السواحلية^(٩). وإذا كانت قواعد اللغات الأولى لا تتميز عن نماذجها التقليدية فإن التأثير المشترك للأمريكيين لـ بلومفيلد L. Bloomfield، أ. ساپير E. Sapir وأتباعها^(١٠) ما لبث أن ظهر بوضوح، وساعد على ذلك وحدة اللغة، وطرافة نظرياتهم التي تحاول أن تتميز عن النموذج الهندي الأوروبي المستقر في الأوصاف الأولى. هذا الاهتمام ليس بغريب على ثقافة أصحاب

المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية

هذه المدرسة، وهى ثقافة من لغات معقدة بنوع خاص، وبعبدة كل البعد عن النموذج الهندى الأوربى فقد اضطروهم عدم وجود وثائق مكتوبة إلى اقتراح منهاج غير تاريخى، وشرح اللغات التى كانوا يدرسونها لذاتها وفى ذاتها.

تلك هى بالتأكيد التجاوزات فى التركيبية (البنيوية) "البولوفيلدية" (نسبة إلى بولوفيلد) الجديدة التى تتجلى بنوع خاص فى مؤلفات زهاريس Z. Harris^(١١) والتى دفعت ن. شومسكى N. Chomsky إلى البحث عن طرق أخرى. واليوم تستوحى أغلب الشروح الأنجلوسكسونية إما نموذج شومسكى أو ك. بايك K. Pike^(١٢) تلميذ أ. سابير. وإسوء الحظ فإن التجاوزات التى أبلغ عنها ن. شومسكى حين راح يهاجم أنصار البولوفيلدية الجديدة لم يسلم منها أنصار "قواعد العبارة اللغوية" (وصف منظم لتكون العبارة فى لغة ما - المترجم) إذ يبدو أن هؤلاء يميلون بالأكثر إلى اختيار نظرياتهم بلغة معينة بدلا من وصفها من الداخل. ففضلا عن أن متاهجهم القائمة على أساس مصائدات (مسلمات) مشكوك فى صحتها، فإنهم غير قادرين على تقديم شروح شاملة، وأرى أنهم أخفقوا فى تقديم أصوات كلامية يمكن استخدامها لأغراض عملية. إن التكوينات العميقة المستخلصة بعناء شديد، تبعا لقواعد منظمة لها دون شك أهمية فى إعادة البناء، ولكنها فى الواقع العملى لا فائدة منها حين يراد استخلاص تسجيلات يمكن استخدامها للفور لتكوين لغة ما. ومنها ج. ك. بايك الذى ضم إليه نظرية معدة من قبل أكثر وفاء بالفرض، وينتشر بفضل تدريبات منظمة على نطاق عالمى فى إطار معهد لعلم اللغات Summer Institute of Linguistics وكانت آخر قائمة لطبعاته رائعة^(١٣).

٣ - المدرسة البلجيكية

إن وضع اللغة فى زئير، المستعمرة البلجيكية السابقة، حيث تشكل لغات البانتو تسعة أعمار اللغات المستخدمة فى الكلام، هذا الوضع يبرر اهتمام اللغويين البلجيكين بهذه الطائفة من اللغات. مؤسس هذه المدرسة هو أ. إ. ميسين A. E. Meeussen الذى كان فى البداية تلميذا لجونزى، ثم صار من أنصار البولوفيلدية الجديدة، ومن المعجبين بشومسكى فى أواخر حياته العلمية. وتتجلى دلالة هذا التأثير المزوج فى دراساته الأحادية الوافية التى كرسها للعديد من لغات البانتو^(١٤)، وفى أعماله المقارنة التى ثبتت أصالتها بنوع خاص^(١٥). وواصل أتباعه أعماله مستلهمين الإطار النظرى الذى وضعه باتقان، بحيث يلائم بنوع خاص البانتو^(١٦)؛ وإذا كان أغلبهم قد ظل يدرس لغات البانتو فإنهم

شعرها يهتمون بطوائف أخرى.

٤ - المدرسة الفرنسية

تأثرت المدرسة الفرنسية في بدايتها بعالم اللغات المقارنة. أ. ميه، A. Meillet الذي أشرف على رسالة ل. هوبيرجر L. Homburger بخصوص الدراسة التاريخية للأصوات الكلامية اللاتنتي. الذي صدر في عام ١٩١٤^(١٧) ثم صارت بعد ذلك المدافعة عن القرابة الوراثية لمجموعة اللغات الأفريقية، بل إنها حاولت أيضا أن تقربها من اللغات الدرافيدية كمجموعة لغات تتكلمها شعوب تقطن جنوبى الهند، وشمالي سيلان - المترجم). وإذا كانت إلزاما علينا أن ننكر بالتقدير أعمال السيد ديلافوس M. Delafosse بشأن لغات غرب إفريقية فإننا ندين أنه حتى العقد السابع كانت بعض الأعمال الواسعة النطاق بنوع ما من تأليف بعض المبشرين والمديرين. ولم تتطور الإفريقية (صياغة خاصة بالكتاب الإفريقيين عندما يعبرون عن أفكارهم باللغات الأوربية - المترجم) الجامعية إلا أخيرا، وبخاصة لأسباب سياسية استعمارية. ففينا عدا بعض المحاولات التي سرعان ما أهملت لتعليم اللغتين الفرنسية والولوف معا، الذي ارتبط باسم ج. دارد J. Dard في مستهل القرن التاسع عشر^(١٨). كانت اللغة الفرنسية هي الوحيدة التي تدرس في المدارس، ويسمح بها في المحاكم، وتستخدم في الإدارة. ووجد هذا المبدأ تعبيره النهائي في مراسيم العقد الرابع التي حظرت استخدام أية لغة في التعليم، حتى التعليم الخاص، خلاف الفرنسية. ونتج عن ذلك بصورة متناقضة أنه كان لم يكن بد من انتظار التحرر من الاستعمار في العقد السابع لكي تستيقظ الأهمية العلمية للغات الإفريقية، وتتجسم بإنشاء كراس استثنائية جامعية، حتى إنه بقي الآن تفاوت لم يلبث أن طرح مشكلات بشأن وضع أطر للطلبة وتأهيلهم من بين العدد المرتفع نسبيا من الباحثين، مع ندرة المدرسين.

وبخصوص المفاهيم يمكن القول بأن اللغويين الفرنسيين المشتغلين باللغات الإفريقية. أو العاملين في النطاق الفرنسي، قد تأثروا كثيرا بالسيد أ. مارتينييه A. Martinet، وشبه جمهور كبير من المستمعين له بفضل موهبته الشخصية ووضوح تعليمه أتاح له أن يعم لدى تلاميذه النظرية التركيبية (البنيوية) النابعة من الأصوات الكلامية البراجية (نسبة إلى براج) التي امتدحها في مؤلفاته^(١٩). وانطلاقا من ذلك استلما تلاميذه أن يضعوا بدقة مناهج تبيين بنوع خاص أنها ملائمة تماما لوصف اللغات "الفريقية" لأنها واقعية بدرجة كافية، فلا تشوه المعلومات وتجعلها غير صالحة للاستعمال إذا أريد تفسيرها عن طريق منهاج آخر:

المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية

وهذه هى حالة الأوصاف المدونة تبعاً لقواعد تكوين العبارة، وينوع أساسى لدى أنصار ن. شومسكى.

هذه القائمة لا تكتمل إلا بذكر أسماء بنينيس E. Benveniste، و A. Haudricourt. وإذا لم يكن هذان الاثنان قد عالجا لغات إفريقية، وبطريقة عريضة، فإن فكرهما كائن فى أساس العديد من الأعمال. أما فكر بنينيس فإنه أثار تأملات خصبية فى الجوانب الدقيقة بنوع خاص من قواعد اللغة؛ وكان هودريكور وأساليب عمله قد أثرت فى معظمنا تأثراً عميقاً. وإذا كان إسهامه محسوساً فى كل ما يتعلق بعلم الأصوات الكلامية، فإن رؤيته للغة على أنها ظاهرة اجتماعية كلية - وهى وجهة نظر تعكس تأثير السيد موس M. Mauss - قد أقنعتنا بأنه ليس فى الإمكان البقاء بمنأى عن المضمون الإنسانى كله فى الدراسة اللغوية. وأن ثمة بحثاً متعلقة فى المجالات المقترنة بعلم النبات العنصرى، وعلم الحيوان العنصرى، والتقنيات التقليدية، يجب أن تكون ضمن المنهج اللغوى فى المجال الشففى.

• - مدارس أخرى

هذه اللحة السريعة، وهى حتماً مبسطة وغير كالة لأنشط المدارس فى علم اللغات الرافريقية واتجاهاتها، لا يجوز أن ننسى أن هناك، فى أنحاء العالم لغويين آخرين يهتمون باللغات الإفريقية. فثمة مدرسة بجنوب إفريقية، سلبية المدرسة الألمانية، كانت بداية لدراسة لغات البانتو، وأول من جذب الأنظار إلى خصائص لغات الخويزان، فى أعقاب و. بليك W. Bleek. وقدمت هولندا حديثاً بعض اللغويين الأكفاء المتأثرين بدرجة كبيرة بالمدرستين الأمريكية والإنجليزية، ولكنهم لم يهتموا كثيراً بالأعمال الوصفية البحتة.

وفى الاتحاد السوفيتى لا ترجع الدراسات الإفريقية إلى ما قبل العقد الثالث. وقد أهتم د. أ. أولديروجج D. A. Oldorogge (٧٠) موجه المدرسة الإفريقية (التي تدرس الثقافات واللغات الإفريقية - المترجم)، وهو أيضاً سليل المدرسة الألمانية، أهتم هو والتلاميذ الذين قام بتأهيلهم باللغات الإفريقية الكبرى، ولكنهم كانوا يميلون إلى التركيبات الكبرى ومسائل التصنيف وإعادة البناء أكثر من اهتمامهم بالدراسات الأحادية الرافية للغات معينة.

وفى أكاديمية العلوم ومعهد الدراسات الشرقية بموسكو لدراسة اللغات الإفريقية؛ وتدرس اللغات الإفريقية فى جامعات موسكو وإينجراد، وفى معهد العلاقات الخارجية، ويتركز

الاعتماد بها أساسا بلغات البانتو المنتشرة على نطاق واسع (الساواحلية وإنجالا)، والهوسا، والبابامبارا، والأمهرية، كما تجد بها الدراسات المقارنة كل تقدير، وفي أساسا في مجال اللغات الحامية السامية. ونذكر بين المطبوعات البارزة "خريطة عامة للغات الإفريقية" صدرت في عام ١٩٦٠ وصدر بعد ذلك في عام ١٩٨٠ قاموس "إنجالا - روسية"، وقاموس مقارنة للهجات البول peuls (مع ترجمة المفردات باللغتين الروسية والفرنسية). وهناك تحت الطبع كتاب ضخيم في تاريخ اللغات الإفريقية، يباشر طبعه في. بورخوموسكى V. Porkho-movsky، ويتضمن دراسات في "الفونولوجيا" (علم الأصوات الكلامية) ومفردات اللغات التشادية للمجموعة الغربية، وعن إعادة بناء نظم الحروف الساكنة في لغات "ماندية" mandé والغرب الأطلسي، وتطور نظام الأصوات الكلامية الأفريقية الآسيوية المشتركة؛ وإعادة البناء النغمي للغات الصحراوية في مجموعة كانوري - تيدا Kanuri-teda.

ويدأت اليابان أيضا تهتم (بدراسة اللغات الإفريقية) وترسل باحثين يتأهلون في هذا المجال في الولايات المتحدة الأمريكية، وفرنسا، وجمهورية ألمانيا الاتحادية (٢١).

ونشير للذاكرة فقط إلى أعمال اللغويين الإسبان والبرتغاليين. وعلى الرغم من اتساع أملاكهم القديمة في إفريقية، وبخاصة أملاك البرتغال، فإن الأعمال التي تحققت قام بها أساسا بعض المبشرين الذين اهتموا بهذا الموضوع، ولكنها في الواقع قليلة بالنسبة لمتطلبات المنهج العلمي. كذلك فإن أنجولا وموزمبيق تشكلان اليوم بقايا مجهولة بالنسبة للمعرفة الدقيقة للغاتهما.

٥ - البنيان اللغوي، والوصف

إن تصنيف اللغات الإفريقية إلى أربع مجموعات كبيرى قد يبعث على الاعتقاد بأنها تمثل فيما بينها سمات كبيرة مشتركة في البنيان والمفردات، وأن نظمها الصوتية الكلامية متشابهة إجمالاً؛ ومن ثم فمن السهل في شأتها اقتراح شبكة وصفية مشتركة. وإذا كان في المستطاع فعلاً إجراء مقابلات تصنيفية فإن بينها مع ذلك تباينات عديدة. وإذا كان نظامها الصوتي في الغالب بسيطاً نسبياً (من ٥ إلى ٧ حروف علة) فإن لبعضها، وبخاصة لغات الغرب الأطلسي، قانمة كبيرة من حروف الطة. والأمر كذلك بالنسبة لنظام الصوتات (الحروف الساكنة) حيث توجد منها حروف بسيطة وحروف ثنائية في داخل المجموعة الواحدة (في لغات البانتو على سبيل المثال). وإذا كان الصرف (التشكيل) في

المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية

اللغات "الأبوانجية" oubanguiennes، بسيطاً نسبياً فإنه معقد تعقداً شديداً فى لغات "البلاو" Plateau (الهضبة ٩)، واللغات التشادية، والبانتيو. وإذا أمكن إثبات الوظيفة الصحيحة للنبرات - وهى من الخصائص الهامة لعدد كبير من هذه اللغات - فإنها لم تزل خفية عنا فى جزء من لغة الباميليك banileke (شعب الكاميرون) ولغات جراسفيلد Grassfields (المراعى). وفى مجال الموضوعية (اشتقاق، وإنشاء) نجدجنبنا إلى جنب لغات تبلى على درجة كبيرة من الثراء، وأخرى تكاد تتقدم فيها هذه الظواهر. ومن جهة أخرى، توجد ظواهر تبدو متوقعة فى المجموعات اللغوية. من ذلك أن البنية التى تتميز بها اللغات ذات الطبقات، سواء تنتمى إلى مجموعة القرب الأطلسى، أو البلاتو، أو البنتو، هذه البنية تستحث نمونجا لا يلائم حتماً لغات ليس لها طبقات. يترتب على ذلك أنماط من التقديم ملائمة نسبياً ما دامت فى داخل إطار تصنيفى واحد، ولكنها صعبة الاستخدام فى أطر أخرى توجد فيها ضغوط تشككية (مصرلية) أو نحوية مختلفة تؤدي إلى عرض آخر. وإذا استقرت العادات، بسبب التراخى أو السهولة العارضة، فمن الصعب تغييرها، وخاصة أن بعض هذه العادات عملية، حين نعتبر أن الدراسة اللغوية الأحادية يمكن استخدامها لأغراض المقارنة. من ذلك أن ترقية طبقات البانتو الذى اقتنعه لأول مرة و. بليك W. Bleek فى رسالته التى ظهرت عام ١٩٨٥١ (٢٢) ما زال يستخدمها مع بعض الترتيبات الاختصاصيين فى المقارنة، فى حين أن التدرج الذى تتضمنه لا يتلام مع كل لغات البانتو. يترتب على ذلك أن العالم باللغات والثقافات الأفريقية، الذى يريد أن يلم بأصول لغات تنتمى إلى مجموعات مختلفة، لأغراض مقارنة أو تصنيفية، يتعين عليه أولاً أن يتدرب على أساليب الوصف الخاصة بكل مجموعة، وهو أمر ليس بالسهل، ويجعل المهمة دقيقة بنوع خاص لمن يريد أن يسيطر على المجال كله. وليس من السهل تأهيل الباحث، فلا بد من مراعاة اتصالاتهم فى أثناء دراساتهم بمختلف نماذج الوصف ومدارسه. هذه المشكلات لم تلت على ذهن أولئك الذين اكتسبوا خبرة واسعة فى موضوع الوصف، وأدركوا التنوع اللغوى الشديد فى القارة السوداء. فأرادوا اقتراح شئ جديد يسمح بتوحيد الأوصاف وتسميتها. من ذلك أن السيد "هوى" M. Houis قدم مرتين فى عام ١٩٧٤ وعام ١٩٧٧، اقتراحات لخطوة وصف منهاجى لغات الزنجية الإفريقية (٢٣).

٩ - الافتراضات (المسلّمات)

إن الطريقة الثالثة للوصف تبدو مدفا من العسير بلوغه، وحقيقة تخفق جهودنا يوماً في تعريفها، فلا بد أن تستجيب لمتطلبات عديدة ومتعارضة بعض الشيء. هذا هو السبب الذي من أجله توجد طرق مختلفة للوصف تكمن في أساسها نظريات مختلفة: وكل طريقة تجلب تنويراً مرضياً ومتنوفاً على وجه التقريب، ولكنها لا تغير الموضوع بإجماله. وكل طريقة جديدة تظهر بعض العيوب في الطرق السابقة، وتثير أسئلة لم يواجهها أحد من قبل، وتنتهي باقتناعنا بأن اللغة هي واقع يلوّتنا دائماً وجه أو آخر من وجوهه. ومع ذلك ففي الإمكان أن نحاول تعداد الصفات التي نتوقعها من وصف جيد، حيثما تكون يفتتنا أن تزودنا الطريقة بأكبر قدر من المعلومات الواضحة التي يمكن استخدامها لأغراض عديدة.

أولاً: إجراء تحليل يجب بالضرورة أن يستند إلى نظرية راسخة. يقتضى هذا أن يتم بنظام ومنهاج جمع المواد الكلية بأن تستخدم في الوصف. وإنا لنطرح بمثابة مسلمة أن وصف لغة هو دائماً عملية فريدة في ذاتها، هدفها الإحاطة بالنوعية من أجل استخلاص المعنى الكلى الشامل. لا يترتب على التصرف العكسي، بإهمال النوعية والاكتفاء بملاحظة الكليات المفترضة سوى أن يثبت الواصف براعته، ويخطئ مع ذلك الهدف المقصود^(٢٤). المطلوب إذن البحث أولاً عن النوعيات ثم اكتشاف الكليات، ولكن مع ضمان صحتها باستبعاد كل رأي مسبق. وفي هذه الرؤية تضاع مجموعة من الفروض التي تختبر على لغات طبيعية، وتنظم هذه الفروض أولاً بأول تبعاً لتجارب تجرى على لغة معينة. وكل دراسة للمسائل التي تطرحها كل عينة جديدة توجب مراجعة النظرية باستمرار، الأمر الذي يجعلها في مأمن من كل نزعة بجائيقية، ويتطلب ذلك إنشاء جنول بين جمع الوثائق وتحليلها، ووصفها.

في هذه الرؤية يجب أن تكون معالجتها محايدة وموضوعية بقدر الإمكان، مع مراعاة ألا نفرض قالباً لفكر أجنبي يعكس مثلاً النموذج الهندي الأوربي الذي كثيراً ما استخدم في وضع النظريات. وإن ما يبدو لنا أقرب على الاستجابة لهذه المتطلبات هو وصف على مستويات متدرجة عديدة، تبعاً لنموذج معروف في علوم الطبيعة باسم halisne: ويفترض هذا النموذج أن كل حقيقة طبيعية تتضمن - تبعاً لمستوى التحليل الذي يجري عنده - عدداً من العناصر التي تشكل الوحدات الخاصة بهذا المستوى، ويتكون من ترتيبها نمط آخر من

المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية

العناصر التى تشكل وحدة المستوى الأعلى. هذا الوضع لا يتضمن حكما على البنية الخاصة باللغة، ولكنه يتيح بحث خصائص هذه اللغة ووصفها، بل واستخلاص الكليات مع اكبر قدر من الموضوعية.

وانطلاقا من هذا المبدأ، يصير لدينا وحدات معرفة على أبسط مستوى، تتحد فيما بينها لتصل إلى مستوى أعلى، أكثر تعقدا، لوحدات صفاتها وتركيبها الخاص. هذه الخصائص متميزة فى كل الأحوال عن خصائص وحدات المستوى الأسفل الذى تكونها، وتركيبها. وهذه السلسلة من التركيب والتعقيد المتزايد، والتى تتعاقب من مستوى إلى آخر، تعطى تدرجا فى الوحدات والمستويات، تدرج يمضى من تعريف السمات الخاصة بأصوات الكلام إلى الخطاب (المقال). وجهة نظرنا، وهى قطعا تركيبية (لغوية) تعتبر فى الواقع أن مبادئ النموذج: الفونولوجى (الخاص بالأصوات الكلامية) يمكن مدها إلى مجموع الحقائق اللغوية. وحتى إذا كان هناك مستويات أخرى يمكن الوصول إليها فى معالجة قواعد لغة ما، فإننا نقتنع بالمستويات التى تتيح الإحاطة بقدر كاف بما يكفل أداء وظيفتها، ووظيفة الاتصال، أى دورها الاجتماعى. هذا رأى، وأوبدا محددا بعض الشيء، إلا أنه ليس مقيدا بالمرء، لأنه يستتبع أن الموضوع المنعزل، ألا وهو اللغة فى هذه الحالة، حتى ولو كان محدودا بشئ من الدقة، فهو نفسه تضمه دائما مجموعة أكثر اتساعا، مرتبط بها بما لا نهاية له من المراسلات، والتدخلات، والتأثيرات المتبادلة حيث يتسنى له أن يمثل بدوره وحدة. وإذا كانت دراسة لغات حضارات معروفة جيدا يمكن اعتبارها دراسة لغوية بالمعنى الصحيح، فإن دراسة اللغات التى ليس لها تقليد مكتوب لا يمكن إجراؤها دون القيام بدراسة موازية لثقافتها. إن تحليل الأبنية النحوية للغة ما، دون أن يكون لدى المرء فكرة عن الحقائق الصالحة للتعبير عنها، يبدو لنا بلا جدوى على الإطلاق؛ ومهما أجريت العملية بذلك، فإنها مشروع مصيره الفشل، بدرجة جزئية على الأقل، ذلك لأنه ليس ثمة انفصام بين مجتمع وبين اللغة التى يستخدمها كوسيلة للاتصال. ثم إن الوجه المقابل يبدو أيضا صحيحا: فدراسة أبنية مجتمع ما، بغض النظر عن أبنية لغته لا يمكن أن يكون لها سوى قيمة محدودة.

هذه الاعتبارات تؤدى بنا إلى عدم الوصف اللغوى عن طوم مرتبط بها، كعلم اللغة الاجتماعى (دراسة التفاعلات الاجتماعية والثقافية، والاتصالات اللغوية)، و علم اللغة الانتولوجى (التفاعل المتبادل بين اللغة والعالم الخارجى بشأن طائفة اجتماعية)، ذلك لأنها تقدم أدوات وصفية لعلم تأليف المعاجم والقواميس، وللاثنوبولوجيا الإندراكية (دراسة الفئات العملية والمثالية الخاصة بثقافة معينة)، ولعلم اللغة النفسى، ولدراسات العلوم السلالية، والأدب الشفهى.

٢ - أنوات ملائمة

هذه المسلمات هي التي دفعتني إلى اقتراح كتاب وجيز يحقق الأمانى التي عبر عنها كثيرا المجتمع العلمى : ومضمونها القدرة على تأليف مجموعة من المعطيات السريعة والمنظمة، والمتدرجة، والحصول على أنوات ميسورة تستجيب للمتطلبات المشتركة من جانب علماء اللغة وطلّاء السلالات البشرية. وقد صدر فى عام ١٩٧١، فى خمس ملازم كتاب بعنوان "بحث فى اللغات ذات التقليد الشفهى، ووصفها" (٢٥)، يحاول الاستجابة إلى هذه المطالب.

وصدرت له فى عام ١٩٧١ طبعة ثانية (فى ثلاثة أجزاء) مراجعة ومكبرة؛ وجرى إعداد طبعة ثالثة، بالإضافة إلى ترجمات إنجليزية، وإسبانية، وبرتغالية. والكتاب فى صورته الحالية وأصح البنيان. فالجزء الأول مكرس لبحث الوضع الميدانى، وتحليل قواعد اللغة، وهو غير مستقل عن الجزئين الآخرين، ويبحث أولهما للمعالجة اللغوية، والثانى للمعالجة الموضوعية.

وقد بدأ من الضرورى تخصيص نصف الجزء الأول للبحث الميدانى، فهذا البحث يحدد فى الواقع نوعية الوصف. ويخصص حيز فسيح للجوانب المادية فى البحث، ويضم فيما يضمنه تقنيات التسجيل الصوتى والخطى. ولم يهمل الكتاب اختيار الرواة فخصص لهم مشرين صفحة. وهناك آراء بشأن استخدام أدلة البحث (وتشكل الجزئين الثانى والثالث) تستلّ فصلان من استخدام المعلومات، لا يهمل المسائل العملية والبسيطة، مثل فحص الوثائق، وتكوين المواد المجموعة فى بطاقات.

ويشمل الجزء المخصص للمعالجة اللغوية أولا مسائل خاصة بقواعد اللغة. فثمة مجموعة أولى منها، تسمى "إحصائية لغوية" وضمت اعتبارا من قائمة تضم مائتى كلمة جمعها السيد سواديش M. Swadesh المقصود بها أساسا إجراء بحث مكثف فى العديد من اللغات المجاورة، بهدف تحديد درجة قربيتها، وينوع خاص لإيضاح التصنيفات الموجودة، ووضع خرائط أكثر دقة وتمحيصا من الخرائط الموجودة حاليا. وثمة مجموعة من الأسئلة تسمى "بحث مستقيض" أو "بداية بحث" تتألف من قوائم لكلمات مشروحة بأشكال، الفرض منها تجميع معلومات من أوجه مختلفة للغة المدروسة. يعقب ذلك مجموعة أخرى من أسئلة الكثير منها يستحق أن يوصف بأنه إرشادات تخص على التوالى الأصوات الكلامية، وطلم التشكل (الصرف)، وظواهر الاشتقاق والإنشاء، والتركيب الفعلى، والتركيب الإسمى، وأنماط البيان.

المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية

هذه المجموعات من الأسئلة، إذا استوفيت بعناية ، فإنها تتيح تجميع مواد تتألف قواعد اللغة اعتبارا منها، تتبعها مجموعة من ٦٣٧١ جملة تتيح زيادة لمفردات اللغة المدروسة اعتبارا من اللغة الفرنسية.

أما الجزء الثالث فإنه يوضح وجهة نظرنا التى بمقتضاها لا يتسنى دراسة لغة ذات تقليد شفهي إلا بالاستعانة بمعرفة ثقافتها، ومجالها الاجتماعى، ويشمل دليلا للبحث فى التقنيات، وأدلة موضوعية بشأن علم النبات السلالى، وعلم الحيوان السلالى، والتشريع، والفسيولوجيا الحيوانية والنباتية، والظواهر الاجتماعية (التنظيم الأسرى، والسياسى، والاجتماعى)، والظواهر النفسية، والتسمية (أسماء الأشخاص، وأسماء الأنساب أو العشائر، وأسماء الحيوانات الأليفة)، والقياس والتعبير عن الزمن.

أما الجزء الأخير فإنه يعالج بالأخص التقليد الشفهي بمعناه الواسع : مجموعة النصوص، وعلم الموسيقى السلالية، وبحث فى الأسلوب الشفهي عند الرواة التقليديين. وهناك أخيرا شبكتان من البحث بشأن اتصالات اللغات بعضها ببعض، وعلم اللغة الاجتماعى، تستلزمان نقل بضع مئات من النماذج، يختم بها هذا الجزء.

والمعالجة الموضوعية، بعكس الجزء المخصص للمعالجة اللغوية، لا يتطلب استنفاد مختلف أدلة البحث المقترحة على الباحث : فيمكن عدم تخصيص دراسة متعمقة فى البنية النباتية، وإعمال علم الصيدلة السلالية، وعدم معالجة التعبير الزمنى بعمق. هذا الجزء تابع أكثر من سابقه لنمط المجتمع الذى تدرس لغته : فمجتمع الرعاة لايزودنا بمفردات وفيرة عن تقنيات صيد الأسماك، ومجتمع الزراعى ليس عنده تقنيات جيدة للقمص. ومع ذلك فقد أردنا أن نقدم مجموعة كبيرة من الإمكانات التى يمكن الاختيار من بينها تبعاً لنمط المجتمع الذى يشغل مجهود الباحث، أو أيضاً - ولم لا ؟- تبعاً لنوعية الشخصى.

ومن البديهي أنه يجب دائما اتخاذ موقف نقدي إزاء هذه الاستقدمات، موقف مفتوح، غير مقيد : فلا يجوز أبدا انتزاع المعلومة، بل يتعين استخدامها بمثابة مقدمة لمجالات تبقى بدون ذلك غير مستغلة. لذلك قد اقتنعنا خيرة طويلة أن مدة الإقامة، وهى بالضرورة محدودة، تجعل البحث بواسطة الأسئلة المعدة أسرع وأكثر غزارة لأنه يتيح جمع أكبر قدر من المعلومات فى أقصر وقت.

٣ - التحليل اللغوي

خصص القسم الثاني من الجزء الأول للتحليل اللغوي، ويزودنا هذا القسم بالإيضاحات الضرورية للأسس النظرية والمنهجية التي دفعت مؤلفيها إلى اقتراح منهج معين بدلا من منهج آخر، وتفضيل نظام في التحليل على نظام آخر، واختيار تفسير معين. وفيه نجد على التوالي التقسيمات الكلاسيكية الكبرى للوصف اللغوي، أي الأصوات الكلامية، والنحو، ويتضمن النحو بالترتيب علم التشكل (الصرف)، وتركيب العبارات، وتكوين الجمل. وبشكل هذا العرض بذاته مرتبجا، فهو يقدم نظاما في التحليل لا يقابل حتما النظام الذي يتبعه لغويون آخرون. ذلك على أية حال هو النظام الذي يبدو لنا أقرب على أخذ الحقائق في اعتباره.

وبشكل علم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا) في نظرنا فصلا خاصا، مستقلا عن النحو، ويأخذ في اعتباره العادات في النطق لدى المجتمع اللغوي المقصود، ويثبت أن هذه العادات تنتهي إلى إنتاج أصوات ملائمة، في قائمة دقيقة، لتحقيق وحدات من أول نطق تملك وجها دالا، ووجها مدولوا، تلك هي "الفونيمات" manémes (البائئات). وكما قيل من قبل (انظر ثانيا: ما هو المقصود بالوصف؟) فإن قائمة "الفونيمات" (الوحدات الصوتية) يجب وضعها بكيفية منهجية وتفصيلية، ويجب أن يصحب تعريف كل فونيمة وصف لأدائها الصوتي، مما يتبع إمكانية مراجعتها. وعلم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا) لا يقتصر على وصف الفونيمات (وحدات الكلام الصغرى) وتقديمها في قائمة يبرز منها النظام. وتؤدي بنا وجهة نظرنا إلى أن نواجه أيضا مسائل أخرى، كمسائل التوزيع، والتركيبات، والتزديدات، ووضع الفواصل، والعروض (نظم الشعر). والمقصود بالتوزيع سلوك الفونيمات في السلسلة، أي تنفيذها الصوتي، وظواهر التجميع، والتوزيع التكميلي. وعند دراسة التكوينات نستعرض مجموعات الحروف الساكنة التي نميزها بعناية من الفونيمات الوحيدة ذات النطق المركب ومجموعات الحروف المتحركة (حروف العلة)، وتوافق (هارمونية) حروف العلة والحروف الساكنة، والمتواليات الصوتية، والمتواليات الساكنة - المتحركة، والمتحركة - الساكنة، وهذا في مختلف الأوضاع الممكنة (الأولى، والوسطى، والختامية للوحدة الصوتية، وفي السلسلة)، ونواجه في هذا الباب التجزئة إلى مقاطع، ودرس النورات في المعجم، وفي السلسلة، وفي مختلف الأوضاع. أما ظواهر وضع الفواصل، فإنها تجمع كل السمات اللفظية والصوتية الخاصة بالكلام، التي تتيح تعريف حدود وحدة معجمية أو نحوية. وأخيرا، في علم العروض، نواجه النغم كظاهرة "قطعية عليا" suprasegmental - حين لا يكون وضعه بمثابة سمة صوتية ملائمة - ظاهرة النبرة، والتوكيد، صوتية كانت أو لفظية.

المسائل النظرية فى وصف اللغات الإفريقية

إن دراسة كل هذه الظواهر التى كثيرا ما أهملت، أو لم يعلق عليها أهمية كافية، تبين لنا مع ذلك ضرورة، لا غنى عنها، اعتبارا بمالها من صدى بعيد فى الدراسة اللاحقة للظواهر التشكيلية (المورفولوجية) والنحوية، ورغم أن هذه الظواهر تواجه فى نطاق متزامن، فإننا ندرك من جهة أخرى أنها تزدهن برؤى جديدة، وأحيانا غير متوقعة لدراسة خصائص اللغة مدروسة حسب تطورها الزمنى، والانتسابات اللغوية.

الواجهة الثانية للتحليل اللغوى، حيثما يتمشى المرء مع الطريقة التى واجهناها هنا، والتى تبدأ بتبيان "الفونيمات" لتنتهى إلى تركيب الجمل. هذه الواجهة تشمل النحو بمعناه الصحيح ويتضمن النحو أول كل شئ، دراسة "المورفولوجيا" (التشكيل، الصرف) التى نعرفها بأنها دراسة التغيرات فى الشكل فى إطار نموذج يؤثر إما فى النموذج اللغوى فى التصريف، أو النموذج الإسمى. والمشكلة الأساسية التى تتبدى للواصف هى أن يعرف بدقة النصيب الخاص لعلم التشكيل (الصرف). فالظواهر التشكيلية يجب أن تتميز تماما عن الظواهر الخاصة بعلم الأصوات الكلامية (الفونولوجيا)، ولا يجوز أن يتعدى وصفها المجال المخصص للنحو ويجب أن تتبع "المورفولوجيا" استخلاص قواعد تطبيقية. فعندما يتحقق هذا نلاحظ أنه لم يزل هناك فى كل لغة عدد كبير من الاستثناءات والمخالفات للقواعد تشكل نوعا من الراسب التى لا يمكن استيعابها، تقاوم كل محاولة للتفسير. هنا تتدخل تقنية، أحدث بنوع خاص للتعرف على هذه التتوعات الشكلية دون الالتجاء لشرح تاريخى : تلك هى "المورفونولوجية" morphophonologie (علم التشكيل والصوت فى الكلام)، وتتصدى لحالات من قبيل الحذف، والإدغام، والترخيم، وتعاقب الحروف الساكنة، فى الأوصاف التقليدية، فى إطار الوصف المتزامن بدقة. وعلى ذلك فهى تشكل نقطة اتصال بين الفونولوجيا، والمورفولوجيا بحصر المعنى. "المورفونولوجية" تفرض تمييز مستوى ثالث، بالإضافة إلى المستويات الفونولوجية، واللفظية، ذلك هو المستوى البنئوى، النحوى الذى يجرى فيه تحليل "البائئات" monèmes، إلى morphonèmes (بائئة تشكيلية - صرفية)، وهى وحدات عملية مختارة بفرض استخراج خصائص كل بائئة، وبخاصة تلك المستقلة عن المجال المحيط بها. وثمة قواعد توضح التوافقات بين "المورفونيمات"، و"الفونيمات" تأخذ فى اعتبارها الخصائص المرتبطة بالوسط المحيط بها : فكما أن الصوت (الأداء الصوتى) هو أداء "الفونيم". كذلك إننا نرى الفونيم من هذه الناحية. أمكن اعتباره معثلا لتشكيل (صرف) الكلمة. عنينا إذن ثلاثة المستويات الآتية التى يميزها المرء بعناية فى بياناته، مع ما يقابلها :

phonétique (صوتى، لفظى) صوت [نقطة]
 phonologie (علم الأصوات الكلامية) الفونيم phonème التونيم //
 (العنصر الصوتى فى اللغة) (العنصر النغمى) |

morphototonème morphophonème morphophonologic -
 (علم الأصوات التشكيلية الكلامية) (العنصر الصوتى التشكىلى) (العنصر النغمى التشكىلى)
 الذى يسبق الشكل البنئوى).

ودراسة التوعيات الشكلية للدال (ما يدل على معنى) وهى من اختصاص علم التشكيل (علم الصرف) يحدد بالدقة محيط وحدات النطق الأول، ألا وهى المونيمات Monèmes وقبل الشروع فى تحقيق ذاتية هذه الوحدات يحسن الإقدام على دراسة نمط آخر من الوحدات، ألا وهى المشتقات والمركبات، ويسمىها ا. مارتينييه Synthèmes. ولما لم يكن من الميسور رسم حد فاصل جلى بين الاشتقاق والتركيب، فإذن المرة يضطر بطبيعة الحال لدراسة مجموع هذه الظواهر.

ويعد الانتهاء من دراسة التركيب نكون على وشك الشروع فى دراسة النحو. ويتكون أول مستوى فى دراسته من تعريف الوحدات النحوية المسماة تقليدياً "فئات نحوية"، وهى أجزاء من الخطاب (المقال)، أو فئات من الكلمات. هذه الفئات النحوية، ولو أنها يادئ ذى بدء تتميز من لغة إلى أخرى، فإننا نعتقد بالعكس أنها، وهى تشكل محور كل وصف نحوى، يجب أن يعاد تعريفها فى إطار معلوم بالنسبة لكل لغة، تبعاً للمناهج المتبعة للفئات النحوية المستخدمة لتعريف الفونيمات. وحتى عام ١٩٦٠ لم تزل أوصاف اللغات "البخيلة" أوصافاً تقليدية. وكانت فئات الخطاب تستجيب لتعريفات "سيميائية" (نسبة إلى دلالات الألفاظ - المترجم) من قبيل "يستعمل الاسم فى تعيين الكائنات، والأشياء التى تنتمى إلى فئة منطقية واحدة..." ويعبر الفعل عن عمل، أو حالة، أو صورة...". وإزاء لغة غير معروفة، يجرى العمل بطريق القياس، بإظهار أن فئة أو أخرى تقابل ما يسمى باللغة الفرنسية (أو الهندية الأوروبية بوجه عام بالنسبة للوصف) إسماء، وقلائد، إلخ. هذا المنهاج هو منهاج "عرقى" لا مبرر له فى وصف يراى به أن يكون موضوعياً بقدر الإمكان. "المونيم" monème وهو وحدة مناسبة على المستوى السيمي (مستوى دلالة الألفاظ) لا يتوافق حتماً مع الوحدة

المسائل النظرية في وصف اللغات الإفريقية

التركيبية الكلامية. ويجب علينا، على المستوى التركيبي النحوي أن نواجه وحدات أخرى. وتقوم المسألة على مستويين : فينبغي أولا أن نعد بطاقة تبين الوحدات القمالة المؤثرة، وقد أطلق على هذه الوحدات اسم *terme* (عبارة) أو *elements* (عناصر) لإزالة غموض المونيمات ذات الدلالة غير المترابطة أو التي ليست لها دلالة. وثانيا : أطلق بعد ذلك على الواحدات المعرفه اسم *syntaxèmes* وهي وحدات على المستوى التركيبي. هذه المصطلحات تستهدف تجنب حدوث ارتباكات وخلافات كثيرة يثيرها استخدام المصطلح القوى الدلالة، مصطلح "الفئات *catégories*، أو الطبقات.

ولما كانت الفونولوجيا (علم الأصوات الكلامية) هي النموذج المخوذه به، فإن المطلوب هو العثور على أساليب كشفية، مقنعة، وموضوعية لتحديد كل من الفئات والفونيمات. ولما كان "المونيم" يشكل إطارا مناسباً لتعريف "الفونيم" قد بدا أن نمط البيان يمكن أن يشكل إطاراً لتعريف الـ *syntaxème* (العنصر التركيبي في الجملة) بشرط أن تعين بكيفية دقيقة عدد "البيارات" أو "العناصر" بحيث يمكن أن يؤخذ في الاعتبار المعايير الموضعية، والمعارضة، والتركيبية. وقد تبين حتى الآن، دون إسماء العمومية، أنها فعالة لكل اللغات التي استعملت في اختبارها. إنها ذات طبيعة شكلية، ومتدرجة بالكيفية الآتية :

- ١ - نمط البيان (معين أو غير معين).
 - ٢ - الوضع أو الأوضاع في نمط البيان.
 - ٣ - إمكانيات الإبدال والتعديل، والتواجد المشترك والاستبعاد المشترك في نمط البيان.
 - ٤ - إمكانيات التنسيق.
- ونضيف إلى معايير التشخيص هذه، بمثابة سمات يمكن أن تميز وحدة تركيبية من وحدة أخرى خاصيتين أخريين :
- ١ - الانتماء إلى نمط من القوائم (محدود أو مفتوح ؛ نحوي، أو معجمي ؛ وفي الإمكان التنسيق بينهما).
 - ٢ - الخصائص الشكلية : الإمكانيات الإعرابية (إمكانيات التعديلات الشكلية انمط من التركيب النحوي).
- والاستعمال التدرجي للمعايير يعطى لبعض التراكيب النحوية إمكانية تحديدها بعدد أقل من المعايير اللازمة لتحديد عناصر نحوية أخرى، مع أنه في الإمكان استعمالها بكيفية منهجية لتحديد كل تركيب نحوي، إلا أن الطريقة تستلزم قطعاً، لكي تكون فعالة الاستخدام التدرجي للمعايير. ومن الضروري، لدقة التحليل تعريف الإطار الذي يجري فيه ؛

وكذا، استغلال كل معيار بالكامل قبل الانتقال إلى المعيار الذي يليه؛ ولذلك فإن كل نمط من البيان يجب استيفاءه قبل الانتقال إلى النمط الذي يليه، والذي يشتمل على عبارة أخرى، واستغلاله.

ولسنا هنا، كما في "الفونولوجيا" في صدد ما هو تقريبي؛ والعناصر التركيبية، أو syntaxèmes مثلها مثل الفونيمات (العناصر الصوتية) هي وحدات رسمية. والموضوع، شأنه شأن الفونيمات ليس موضوع فئات عامة يمكن اعتبارها بمثابة معلمات مسلم بها، فهذه أو تلك نوعية مختصة بكل لغة، وتشكل جزءا من نظام خاص، وقابلة للإحصاء. نظام فيه وحدات تتعارض، ويتميز بعضها بالنسبة لبعض الآخر.

ومع ذلك، إذا كانت كل وحدة تركيبية تُعرف بتعارضها مع سائر الوحدات في النظام، فليس من الضروري - وكذا بالنسبة للفونيمات - مواجهة وحدة تركيبية بسائر الوحدات، ذلك لأنه في الإمكان، على مستوى التركيب اللغوي - كما في علم الأصوات الكلامية - استخلاص مجموعات من التعارض (مثل المسلسلات والنظم بالنسبة للفونيمات)؛ وهنا نمط البيان، أو الوضع، والسمات النومية هي وحدها التي يتعين تمييزها.

فإذا ما تم تحديد الفئات، يخصص تنسيقها على مستوى التحديد الثانوي في إطار دراسة التركيب التعبيري الإسمي، والتركيب التعبيري الفعلي، أي يجري استعراض العلاقات التي يوثقها التركيب الإسمي والتركيب الفعلي مع محدداتهما. يبقى عندئذ فحص الوظائف، أي النور الذي تؤديه هذه الوحدات التي هي على مرتبة جديدة في آلية إنتاج البيان (دراسة التحديد الأولي).

ويمكن تخطيط مجموع هذه الإجراءات في الجدول الآتي يظهر بوضوح مختلف مستويات الوصف:

المسائل النظرية في وصف اللغات الإفريقية

الوحدة المعبرة	الفونمية phonème	فونولوجيا (علم الأصوات الكلامية)
وحدة معبرة بسيطة	monème	monème atique = فونمية = أو لا تساوى مونمية
وحدة معبرة مركبة	synthème	synthème atique (وحدة تركيبية)
وحدة تركيبية بسيطة	syntaxème	syntaxème atique = مونمية = أو لا تساوى
وحدة تركيبية مركبة	syntagmème	syntagmème atique وحدة تعبيرية
وحدة وظيفية بسيطة	fonctionème	fonctionème atique أو لا تساوى
وحدة وظيفية مركبة	monème	énoncème atique
النتائج النهائية	monème = أو لا يساوى énoncè	

تعليقات

- المصطلحات بماليه ليس فيها أية صعوبة إذا ما علمنا أن :
- اللاحقة -ème - تعيد الوحدة البسيطة أو المركبة التي تعمل على منسوب معين مثال ذلك : syntaxème وحدة تركيبية بسيطة.
- syntagmème وحدة تركيبية تعبيرية مركبة.
- اللاحقة -matique - تعبير عن مستوى التحليل.
- مثال ذلك : symtagmatique : تكوين التركيبات التعبيرية (تحديد ثانوي)،
- والوحدات المكونة هي الوحدات التركيبية التعبيرية البسيطة، والوحدات الناتجة هي الوحدات التركيبية التعبيرية المركبة.

فإذا هاج كل مستوى يعتبر كنظام خاص معالجة صحيحة، يكون الهيكل الكلي اللبنيان متناسكا. فإن كان ثمة خطأ أو تفسير رديء للمعلومات تتبدى التناقضات الحال : فالوحدات المعرفة تعريفا سيئا تمثل مشكلة للمستوى التالي. وفي الإمكان الكشف سريعا عن العيوب ومعالجتها. مثال ذلك : إن فئة نحوية عرفت تعريفا رديئا أو كانت مجهولة سوف تنحصر التحليل في مستوى الوظائف ؛ والأمر كذلك بالنسبة لكل مستوى من مستويات البناء.

وثمة الكثير من المؤلفات والرسائل التي لم تنتشر أو الجارى نشرها توضح طريقة الوصف هذه (٣٦).

٤ - علم (صناعة) تأليف المعاجم lexicographie

لا يشكل التحليل النحوي سوى خطوة في دراسة اللغة. فإن كان هناك نسبيا القليل من الأوصاف الجيدة للغات الإفريقية، فإن عند المعاجم الجيدة محدود. وتتبع أدلتنا في البحث جمع معلومات مفيدة، وبخاصة في مجالات معينة كثيرا ما أهملت : كاللغات، والأساليب التقنية، والمنتجات الحرفية، والتعريف العلمي للنباتات والحيوانات.

وهين تكون درجة التجريد أكبر، يكون من العسير وضع تعاريف دقيقة، أو ما يعادلها. وفي كل الأحوال يبقى من الصعب الإحاطة بالمجال "السيمي" للمصطلحات. ويستهدف العديد من المقارنات التي نجدها في قوائم الأسئلة هذا البحث. وأخيرا فإن المشكلة لا حل لها على وجه التقريب حين نتصدى السمات الخاصة بالحضارة إذا لم يكن لدينا أدلة للبحث تسمح باستخلاص الأبنية الخاصة بالمجتمع المطلوب دراسته. وبينان المفردات، والعرف في الخطاب يشكلان معالجات أخرى تكمل جانب "قائمة الجرد" المتمثل في المعجم، نذكرها هنا القول بأنه ليس المقصود إجراء دراسة خاصة بطم الاجتماع، إنما المقصود معرفة كيف يعبر المجتمع باللغة عن إدراكه لتنظيمه، وكذا تصوره للعالم المادي والروحي الذي يتحرك فيه الإنسان، وبالنسبة لما عدا ذلك، فإن منهجنا ليس بنوع خاص بالمبتكر، اللهم إلا إذا كان يميل، كالأوصاف إلى نوع من الشمول. فتنظيم القاموس يستهدف أيضا التصنيفات الأهلية التي يمكن استخلاصها في بعض المجالات، وإظهارها في تصنيف المواد. يتخذ مكانه إلى جانب قاموس "اللغة الفرنسية" langue française الذي لا بد أن يزود بالشروح والأمثلة على نطاق واسع - ومعجم français - langue.

ولم يزل هذا التصنيف بالمواد بمثابة مشروع في المعاجم الصادرة^(٢٧)؛ إلا أنه سوف يتحقق حين يظهر مجموع الملائم المختلفة التي تشكل "موسوعة الاقتزام أكا" Encyclopédie des pyamées Aka^(٢٨) الذي أنجزه فريق من العلماء في مختلف فروع المعرفة، منهم لغويون، وطماء السلالات، وباحثون في الموسيقى، وأطباء وأخصائيون في العلوم الطبيعية. ويتعين أيضا، على المدى الطويل التصدي لنشر قواميس تفسيرية محررة باكملها باللغة نفسها، على نمط "لاروس الصغير" Lorousse Petit.

٥ - النصوص

ليس في الوسع تكوين فكرة كاملة عن لغة ما إن لم يكن لدينا عينات توضح مختلف

المسائل النظرية. نبي وصف اللغات الإفريقية

الذنون الأدبية المجمعة محليا. إننا بتسجيلنا التقليد الشفهي المجتمعات التي تدرسها في مظاهرها المختلفة إنما ننقذ من العدم ثروة ثقافية موروثة من التجربة الفريدة لكل مجتمع عبر قرون تاريخه الخاص. فإن لم توجد آثارا مكتوبة، أو مواقع أثرية، فإن الحضارات الإفريقية توارثنا، بتقاليدنا الشفهية، نظرة على حياتها الخاصة، ونورا يضيء ماضيها. هذه الشواهد الأدبية في رؤية مثالية يجب، لكي يتسنى إدراكها في مجموعها، أن تنشر بنفس الاهتمام بالدقة، ونفس الغلو في الترف الذي يبذل للنصوص الكلاسيكية الكبيرة : فهناك إنشاء النص، وتعليقات عليه، وإيضاحات للمسائل اللغوية الأصلية، ومذكرات متنوعة تيسر معرفة المجتمع، تلك المعرفة التي تتيج وحدها المعنى إلى ما وراء المعنى الواضح، والتغفل في خيايا النص، وإدراك كل ما فيه من جمال.

وثمة مجموعات قليلة تستجيب لهذه المطالب^(٢٩)، وأمكن بالمصادفة إرفاق النصوص المجموعة في أسطوانات أو "كاسيتات" يمكن بفضلها إدراك الجو في جلسات التلاوة^(٣٠)، وأسوء الحظ بقيت هذه المحاولة نادرة للغاية.

٧ - تأهيل الأخصائيين

في ضوء ما سبق ذكره، أمكن فهم المتطلبات - وهي مطلباتنا - وإدراك سعة المهمة. وليس في المسور تأهيل عالم باللغات والثقافات الإفريقية تأهيلا سريعا. ولا يكفي اكتساب خبرة متخصصة، أو حتى الاستناد إلى درجة دكتوراه إذا لم يصبحهما تجربة ميدانية وطيدة، وبالأفضل في نطاق فريق يتشكل جزء منه على الأقل من بحاث محنكين. وإنني إذ لم أشر إلى مدرسة إفريقية، في سياق استعراضى لمختلف المدارس، فذلك لأن إفريقيا لم تشرع بعد في القيام بهذه المهمة. حقا إن فيها مراكز متخصصة للتعليم، إلا أن البحث لم يزل في بدايته، ويعتمد اعتمادا كبيرا على المعونات الأجنبية. والحاجة الملحة إلى سرعة أداء المهام كثيرا ما دفعت بعض البلاد إلى أن توهل على عجل بعض جامعي المعلومات، بل بعض من يضلعون بالوصف ؛ كما كان متوقعا، لم تكن النتائج في مستوى الآمال. ذلك أن مجرد كون الإنسان مثكلا وطنيا لا يستتبع أن له قدرة خاصة على الوصف اللغوي. فمعرفة لغة، والألفة بثقافة ما لا يتضمنان حتما تملك الوسائل التقنية لوصف اللغة والثقافة، خاصة وأن درجة العلمانية في الوقت الحاضر تستلزم إعداد طويلا للتمكن منها.

المسائل النظرية في وصف اللغات الإفريقية

¹ P. Alexandre, *Langues et langage en Afrique Noire*, Paris, Bibliothèque Scientifique Payot, 1967, 170 p.

² M. Houis, *Anthropologie linguistique de l'Afrique Noire*, Coll. SUP "Le Linguiste," Paris, P.U.F., 1971, 232 pp.

³ K. Meinhof, *Grundzüge einer vergleichenden Grammatik der Bantusprachen*, Hamburg, 3rd ed., 1948.

⁴ D. Westermann, *Die Sudansprachen. Eine Sprachvergleichende Studie*, Hamburg, 1911.

⁵ For example, B. Heine and W. Möhlig, *Language and Dialect Atlas of Kenya*, Vol. I: *Geographical and Historical Introduction*, Berlin, D. Reimer, 1980, 120 pp.

⁶ H. Jungraithmayr, K. Shimizu, *Chadic Lexical Roots (A First Evaluation of the Ataburg Chadic Word Catalogue)*, 2 vols., *Tentative Reconstruction, Grading and Distribution*, Berlin, 1981.

⁷ O. Kochler, *Les langues khoisan*, in *Les Langues dans le monde ancien et moderne*, first part: *Les langues de l'Afrique subsaharienne*, Paris, Editions du CNRS, 1981, pp. 455-615.

⁸ M. Guthrie, *Comparative Bantu. An Introduction to the Comparative Linguistics and Prehistory of the Bantu Languages*, 4 vols., Farnborough, 1967-1971.

⁹ G. P. Bargery, *A Hausa-English Dictionary and English-Hausa Vocabulary*, London, Oxford University Press, 1934, 1226 pp.; R. C. Abraham, *Dictionary of the Hausa Language*, London, University of London Press, 2nd ed., 1962, 992 pp.; F. Johnson, *A Standard Swahili-English Dictionary*, London, Oxford University Press, 1939, x + 548 pp.

¹⁰ Especially C. F. Hockett, G. L. Trager and B. Bloch, who published in collaboration the *Outline of Linguistic Analysis*, in 1942, the first complete manual of Bloomfieldian descriptive analysis. As followers of E. Sapir, we note the names of B. L. Whorf, H. Hoijer and K. Pike.

¹¹ Z. Harris, *Methods in structural Linguistics*, Chicago, The University of Chicago Press, 1951.

¹² K. L. and E. G. Pike, *Grammatical Analysis*, Summer Institute of Linguistics and University of Texas at Arlington, 1977, 505 pp.

¹³ S. I. L. Publications Catalog, 1985-1986, 207 pp.

¹⁴ "Esquisse de la langue ombo (Maniema-Congo Belge)," *Annales du Musée Royal du Congo Belge, Linguistique 4*, Tervuren, 1952, 45 pp.; "Linguistische Schets van het Bangubangu," *Annales du Musée Royal du Congo Belge, Linguistique 5*, Tervuren, 1954, 53 pp.; "Essai de grammaire rundi," *Annales du Musée Royal du Congo Belge, Linguistique 24*, Tervuren, 1959, 236 pp.

¹⁵ Especially "Bantu Grammatical Reconstruction," in *Africana Linguistica*, 3, pp. 79-135, 1967, and "Bantu Lexical Reconstructions," in *Archives d'Anthropologie* 27, Musée Royal de l'Afrique Centrale, Tervuren, 1980, 55 pp.

¹⁶ For example, A. Coupez, *Abrégé de grammaire rwanda*, 2 vols. Butare, 1980, 590 pp.

¹⁷ *Etudes sur la phonétique historique du bantou*, Paris, H. Champion, 1914.

¹⁸ Cf. J. P. Makouta-Mboukou, *Le Français en Afrique Noire*, Bordas Etudes 299, Paris, Bordas, 1973, especially the chapters entitled: Les tâtonnements précoloniaux: Jean Dard à la recherche d'une méthode; La portée de la méthode de Jean Dard; Mise en cause de la méthode de Jean Dard, pp. 17 to 32.

¹⁹ Especially *Eléments de linguistique générale*, Paris, Armand Colin, 1960 (edition of 1980); *Grammaire fonctionnelle du français*, Paris, Didier, 1979; *Syntaxe générale*, Paris, Armand Colin, 1985.

²⁰ *Yazik hausa*, 1954; *Hausa-russkiy slovar*, 1963; *Russko-hausa-slovar*, 1967, Moscow.

²¹ K. Shimizu, *Comparative Jukunoid*, 2 vols.; *A Jukun Grammar*, Vienna, 1980.

²² *De nominum generibus linguarum Africae Australis, Copticae, Semiticarum aliarumque sexualium*, Bonn.

²³ M. Houis, "La description des langues négro-africaines" in *Afrique et Langage*, 1974, no. 1, pp. 11-20; no. 2, pp. 5-40; and "Plan de description systématique des langues négro-africaines" in *Afrique et Langage*, 1977, no. 7, pp. 5-65.

²⁴ J. M. C. Thomas, *Préface à l'ouvrage de Tersis-Surugue, Economie d'un système, Unités et relations syntaxiques en zarma (Niger)*, Bibliothèque de la SELAF, 87-88, Paris, SELAF, 1981, p. 13.

²⁵ L. Bouquiaux and J. M. C. Thomas, editors, *Enquête et description des langues à tradition orale*, Numéro Spécial 1, Paris, SELAF, 3 vols., 1976, 2nd ed., 950 pp.

²⁶ J. M. C. Thomas, *Le parler ngbaka de Bokanga. Phonologie, morphologie, syntaxe*, Le Monde d'Outre-Mer passé et présent, première série, études XXII, Paris-La Haye, Mouton, 1963; L. Bouquiaux, *La langue birom (Nigeria septentrional). Phonologie, morphologie, syntaxe*, Paris, Les Belles Lettres, 1970; C. Hagège, *La langue mbum de Nganha (Cameroun). Phonologie, grammaire*, Bibliothèque de la SELAF, 18-19, Paris, SELAF, 1970; G. Guarisma, *Le nom en bafia. Étude du syntagme nominal d'une langue bantoue du Cameroun*, Bibliothèque de la SELAF, 35-36-37, Paris, SELAF, 1972; P. Roulon, *Le verbe en gbaya. Étude syntaxique et sémantique (RCA)*, Bibliothèque de la SELAF, 51-52, Paris, SELAF, 1975; G. Canu, *La langue moré, dialecte de Ouagadougou (Haute-Volta). Description synchronique: Langues et civilisations à tradition orale*, 16, Paris, SELAF, 1975; J. P. Makouta-Mboukou, *Étude descriptive du Fumu, dialecte teke de Ngamaba*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat d'État non publié), 1977; J.

Mba-Nkoghe, *Phonologie et classes nominales du fang, langue bantoue de la zone A (Gabon)*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat de 3^e cycle non publié), 1979; le A. B. Akoha, *Grammaire du fongbè d'Abomey*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat de 3^e cycle non publié), 1980; A. Gasana, *La dérivation verbale en kinyarwanda*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat de 3^e cycle non publié), 1981; J. Boyi, *Phonologie, syntagme nominal, dérivation et composition en monzomba, langue oubangulenne de RCA*, Paris, Univ. de Paris III (doctorat de 3^e cycle non publié), 1982. F. Cloarec-Heiss, *Dynamique et équilibre d'une syntaxe; le banda-linda de Centrafrique*, Paris, Univ. de Paris V (doctorat d'Etat non publié), 1983.

²⁷ For example, L. Bouquiaux, in collaboration with J. M. Kobozo and M. Diki-Kidiri, *Dictionnaire sango-français et Lexique français-sango*, Langues et Civilisation à tradition orale, 29, Paris, SELAF, 1978, 667 pp.

²⁸ J. M. C. Thomas and S. Bahuchet, editors, *Encyclopédie des pygmées Aka. Techniques, langage et société des chasseurs-cueilleurs de la forêt centrafricaine (Sud-Centrafrrique et Nord-Congo)*, Langues et Civilisations à tradition orale, 50, Etudes Pygmées IV, 1981, 1, 140 pp.; 2, 143 pp.

²⁹ Thus *Classiques Africains*, Paris, Julliard, comprised twenty volumes; fifteen volumes of the collection *Langues et Civilisation à tradition orale*; several volumes in the collection *Annales-Sciences Humaines* of the Musée Royal de l'Afrique Central.

³⁰ Thus M. J. and J. Derive and J. M. C. Thomas, *La crotte tenace et autres contes ngbaka-ma'bo (RCA)*, Langues et civilisations à tradition orale, 13, Paris, SELAF, 1975, 228 pp. plus two records; N. Tersis, *La mare de la vérité. Contes et musique zarma (Niger)*, Langues et Civilisations à tradition orale, 19, Paris, SELAF, 1976, 129 pp. plus two records; N. Akam and A. Richard, *Mister Tameklor, suivi de Francis-le-Parisien. Deux comédies musicales ewe by the Happy Star Concert Band*, Langues et Civilisations à tradition orale, 42, 1981, 300 pp. and two tapes.

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

لا توجد من حيث المبدأ، تصنيفات لغوية جيدة وأخرى سيئة، وإنما توجد تصنيفات مفيدة وأخرى غير مفيدة، بقدر قد يكثر أو يقل. ولا يهدف تقرير هذا الأمر، في بداية الحديث إلا إلى تحديد المنظور الغائي الذي أريد أن أتناول من خلاله القضايا الأشمل التي يتضمنها تصنيف اللغات الإفريقية. وسوف أناقش هذا في الإطار الناتج من المكونات الرئيسية الأربعة لأي تصنيفه لغوي، ألا وهي :

١ - أهداف التصنيف اللغوي وغاياته.

٢ - الوحدات الأساسية المراد تصنيفها.

٣ - معايير التصنيف.

٤ - نماذج التصنيف اللغوي.

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

والتصنيفات اللغوية أبنية يشيدها المتخصصون، وتحددها أساسا الأهداف التي وضعت من أجلها. وترجع مشاكل كثيرة في أغلب الأحيان إلى تناقض الأهداف من ناحية، ومع المناهج التي تطبق عند وضع التصنيفات من ناحية أخرى. وينتج هذا التناقض، في رأيي، عن مصادر ثلاثة مختلفة : (١) يطبق واضعوا التصنيفات مناهج سيئة سعيا إلى أهداف سيئة (٢) يسعى مستخدمو تصنيف لغوي ما إلى أهداف تختلف عن تلك التي حددها من وضعوه : (٣) يستخدم المصنفون والمستخدمون هذه التصنيفات سعيا إلى غايات متباعدة ومتناقضة. وسوف نتعرض لكل هذه المشاكل في الجزء الثاني من هذا البحث.

يستند أي تصنيف إلى إجراءات تربط بين بعض الأشياء وبعض العناصر، مع أخذها بعض المعايير بعين الاعتبار. وتمثل العناصر المراد تصنيفها، في أي تصنيف لغوي، في النظم اللغوية الفردية، على مستوى المجموعات البشرية التي تحددها بعض السمات الاجتماعية و / أو الجغرافية. ومن الواضح أن الذين كانوا يصنفون اللغات في إفريقية كانوا، إلى عهد قريب جدا، لا يراون إلا قليلا من الاهتمام لمعرفة كيفية تحديد هذه العناصر. ونظرا لزيادة معرفتنا للحقائق اللغوية الحالية في إفريقية أصبح اتخاذ مثل هذا الموقف الساذج من هذا الموضوع أمرا غير وارد، إذ يأخذ المصنفون بعين الاعتبار تعريف "اللغات" و "اللهجات"، وظاهرة مجموعات اللهجات المتصلة، واختيار الوحدات المراد تصنيفها، باعتبارها مسائل يجب أن تعالج. وسوف أتطرق إلى هذا الجانب من الموضوع في الجزء الثالث من هذا البحث.

طالما جرى النقاش لمعرفة المعايير التي يجب الاعتماد عليها في تصنيف اللغات : هل نعتمد على المعايير اللغوية فقط، أم نأخذ بعين الاعتبار أيضا معايير غير لغوية ؟ وفي رأيي أن طبيعة المعايير لا تؤدي إلا دورا ثانويا. وإذا دققنا النظر في الطريقة التي كان يتم بها التصنيف اللغوي فيما مضى انتضح لنا أن الأهم هو أن نتساءل عما إذا كانت المعايير التي نختارها لتصنيف ما موجودة فعلا في الوحدات المراد تصنيفها، وبما إذا كانت المعايير الموجودة الآن ملائمة حقا للأهداف التي تسعى إليها المصنفون. ولا تستطيع طبيعة المعايير أن تؤدي دورا إلا إذا أُلقي الضوء على هذه الموضوعات الأساسية، وسوف نناقشها في

الجزء الرابع من البحث.

وتفسر أغلب التصنيفات اللغوية وفقا لنماذج خاصة. وفي هذا الصدد تمثل النماذج، بطريقة ما أجزاء سابقة التجهيز من الفكر التوليى. فهي تجمع بين بعض المقدمات والمعايير البنوية الخاصة بطريقة مسبقة. فمجرد اختيار النموذج يفرض بالمصنف أليا إلى إدراج كل الفرضيات الصريحة والضمنية، والعناصر البنوية، إلخ... التى تناسب النموذج المختار. وقد لا تضر هذه المسيرة ما دام المصنف يعى، لا هذا فقط بطريقة مجردة، وإنما يعرف أيضا بالتفصيل المقدمات والعناصر البنوية التى يدرجها بهذه الطريقة. بعبارة أخرى توجد علاقة وثيقة بين أهداف تصنيف لغوى ما واختيار نموذج هذا التصنيف. وعلى عكس ما يرى أغلب الخبراء أعتقد أن هدف التصنيف اللغوى هو الذى يجب أن يحدد اختيار نموذج التصنيف. وإذا كنا على استعداد للتسليم بضرورة إعطاء الأولوية للأهداف بدلا من اختيار النماذج يجب أن نتساءل من أكثر نماذج التصنيف ملائمة لأهداف التصنيف وظائفه. وسوف نعالج هذا الموضوع الذى يثير الجدل فى الجزء الخامس من البحث.

١ - أهداف التصنيف اللغوى فى إفريقية وحياته

١ - اعتبارات عامة :

كانت التصنيفات اللغوية فى إفريقية توضع حتى الآن لغايات أربعة :

- ١ - استخدامها كنظم مرجعية.
- ٢ - اكتشاف العلاقات التاريخية والثقافية الملزمة للغة وإعادة بنائها.
- ٣ - اكتشاف علاقات نموذجية، لغوية وغير لغوية.
- ٤ - استخدامها كأساس للسياسة اللغوية، والإعداد اللغوى، وأهداف أخرى مشابهة، تنتمى إلى مجال اللغويات التطبيقية.

واعتقد، أساسا، أن كل الأهداف متساوية، وأن قائمة الأهداف التصنيفية هذه يمكن أن

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

تطول، تبعا لرغبات أخرى قد تتفحح مستقبلا. وفي هذا السياق لا أريد أن أؤكد أولا على مضمون أهداف التصنيفات اللغوية، وإنما أريد أن أؤكد، بالآخرى، على المشاكل المرتبطة بذلك المضمون، والتي يمكن إدراجها تحت العناوين الثلاثة الآتية :

١ - إعداد تصنيفات تحت مسميات خاطئة.

٢ - استخدام التصنيفات سعيا إلى أهداف لم توضع من أجلها.

٣ - جمع الأهداف المتعارضة في تصنيف واحد.

٢ - مشكلة استخدام المسميات الخاطئة :

يوجد في تصنيف اللغات الإفريقية عدد كبير من المسميات الخاطئة. مثلا، اعتقد أن أغلب التصنيفات الوراثية مجرد نظم مرجعية قائمة على معطيات مترجمة، وأنها ليست، كما تدعى، تصنيفات يمكن أن تكشف عن وقائع تاريخية حقيقية. فالتصريح الخاطئ لا يضر إذا كان كل من يستخدمونه يعرفون أنه كذلك ويتصرفون على هذا الأساس. على سبيل المثال لن استخدم أبدا تصنيف جرينبيرج الشامل (١٩٥٥، ١٩٦٣) إلا لتنظيم مكتبة أو وضع كتالوج لغوي. مع أن منثني بعض التخصصات القريبة من هذا التخصص، لا سيما المتخصصون في علم الأجناس وتاريخها، والأشروولوجيا، الذين يجنون مشقة في تقويم الومائل التي استخدمها جرينبيرج في تدبير تصنيفه، يميلون أحيانا إلى استخلاص بعض النتائج التاريخية الهامة بدلا منه. ومن ثم يبدو أن المشكلة الحقيقية التي تثيرها المسميات الخاطئة تكمن في استخدام التصنيفات اللغوية في تخصصات متعددة. والحيولة دون استخدام الآخرين لها بطريقة خاطئة يستطيع أصحاب التصنيفات أن يقدموا معنا قيمة إذا حدوا بأنفسهم صراحة الأهداف، والغنمات، والأسس المنادية، وربما حدود تصنيفاتهم أيضا، بدلا من التعبير عن طموحاتهم المبالغ فيها بشأن هذه التصنيفات.

٣ - مشكلة التغيير اللاحق للأهداف الأصلية

إن تطبيق التصنيفات اللغوية على أهداف لم توضع من أجلها أصلا ليس بالأمر الضار في حد ذاته. على سبيل المثال يمكن استخدام أي تصنيف لعدد كبير من اللغات الإفريقية

كنظام مرجعي ناجح. وعلى عكس ذلك يثير استخدام التصنيف المرجعي لأهداف تيمية أخرى مشاكل خطيرة. فعندما قسر جوتري (١٩٦٧ : ٨٤) مثلاً فرضيته الخاصة بلغة البانتو الأولى استخلص نتائج ذات أثر تاريخي هام من تصنيفه المرجعي السابق (جوتري، ١٩٤٨ : ٢٧) الذي كان قائماً، وفقاً لتصريحاته الخاصة، على مقدمات اختارها اعتباطاً. وثبت فيما بعد أن أغلب نتائجه كانت خاطئة (موهلج ١٩٧٦ : ١٩٧٩). وفي أغلب الأحيان لن تكون التغييرات اللاحقة التي تطرأ على أهداف تصنيف لغوي معين، خارج نطاق وظيفته العامة، وهي استخدامه كنظام مرجعي، أمراً ممكناً، لأن اختيار معاييرهِ وخواصهِ البنائية يتأثر كثيراً بأهدافه الأصلية، مثلاً إذا وجدت صلة نسب وثيقة بين لغتين، على المستوى الوراثي، فأيها يمكن استخدامها في المدارس ؟ لا يمكن أن نرد على هذا السؤال استناداً إلى قرابتهما الوراثية، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار معيار التجاور اللغوي، أي ما كانت العمليات التاريخية التي أدت إليه.

وفيما عدا التناقض الموجود، من حيث المبدأ ، التصنيفات التي تتباين اتجاهاتها التيمية توجد أماناً دائماً إمكانية مقارنة نتائجها، واستخلاص نتائجها، واستخلاص نتائج تيمية جديدة من هذه النتائج. على سبيل المثال إذا أدت بعض المعايير النموذجية إلى التصنيف الذي تؤدي إليه المعايير الوراثية، أوحى ذلك بأن بين النتائج صلة قرابة، بطريقة ما. ومع ذلك اعتقد أن استكشاف صلة قرابة كهذه يجب أن يتبع منهاجاً خاصاً به، لأن حدوثه لا تزال غير واضحة حتى الآن، شأنها في ذلك شأن حدود المنهج الذي يعتمد على تعدد التخصصات أو يمر بها.

٤ - الجمع بين أهداف متعددة

إن مسألة جمع عدة أهداف في تصنيف لغوي واحد تشبه تلك التي عالجناها آنفاً، لكنها تختلف عنها، لأن المصنف نفسه يفكر، في هذه الحالة، في تجميع من هذا النوع قبل أن يضع تصنيفه. لكن ما هي الحدود التي يمكن أن يتم فيها مثل هذا التجميع ؟

لقد انصب جلّ الاهتمام دائماً، فيما يتعلق بتصنيف اللغات الإفريقية، الدراسة المقارنة

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

للغات الإفريقية عامة، على الأهداف التاريخية، ولا سيما العلاقة الوراثية. بل إن بعض المصنفين، مثل جونسون (١٩٢٢)، وجيرى (١٩٦٧ - ١٩١٨)، وهيني (١٩٧٧) وغيرهم، تجاوزوا الأهداف المحددة لتاريخ اللغة، وحاولوا أن يربطوا بتصنيفاتهم أيضا أهدافا خاصة بتاريخ الجماعات البشرية. ويمكن أن تتساءل عما إذا كان هذان المركبان التمييزيان متفقين حقا. وأقول عن خبرة إن المعايير اللغوية التي تقدم الأدلة على الحقائق التاريخية الخاصة بالجماعات البشرية أو الثقافات ليست، بكل بساطة، هي المعايير التي تشهد على وجود علاقات وراثية بين اللغات.

وفيما عدا الحالة التي قد تتعارض فيها الأهداف اللغوية وغير اللغوية كثيرا ما يوجد تناقض بين الأهداف اللغوية المختلفة، على سبيل المثال كثيرا ما أهمل في الماضي الفرق بين التصنيف الوراثي والتصنيف التاريخي. فالملاقات الوراثية ليست سوى جانب ضمن جوانب أخرى قد تكون أهم، من تاريخ اللغة، وعرف ماينوف وفان فارميلو (١٩٣٢ : ١٧٦) على النحو الآتي ما يجب أن تعنيه عبارة "التصنيف التاريخي" : "يجب أن يكون التصنيف اللغوي تصنيفا تاريخيا. فهو تصنيف يشمل، إلى أبعد مدى ممكن، التاريخ الحقيقي للغات موضع البحث. وينبغي أن يبين فيه كيف انقسم الشكل الأول للأسرة إلى فروعها المختلفة وتقسيماته الفرعية، وكيف أثرت اللغات وتأثرت بعضها ببعض، وأين استطاع التأثير الأجنبي أن يؤدي دورا". ومن الواضح أن هذه الصياغة تجمع بين عدة أهداف في مجال اللغويات التاريخية. فهي تتطلب، لا انتقادا معقدا للمعايير التصنيفية فقط، وإنما تتطلب أيضا نمونجا للتصنيف يتجاوز بكثير متطلبات التصنيف الوراثي. ومن المؤكد أن الجانب العام مدرج في النظرة العامة إلى تاريخ اللغة. وبالتالي فهو يتعارض مع الجوانب الأخرى لذلك التاريخ، باعتباره هدفا تصنيفيا. وعلى عكس ذلك لا تتلام ولا تتفق النماذج التي تستخدم عادة في التصنيفات الوراثية مع الأهداف الأوسع نطاقا التي يسعى إليها التصنيف التاريخي الحقيقي، بسبب وجهات النظر الملزمة لها وخواصها البنوية.

٢ - تعريف وحدات التصنيف الأساسية

١ - مبدأ استخدام الوحدات المختارة

تقوم التصنيفات القديمة للغات الإفريقية على مبدأ اختيار وحدات تصنيفية خاصة. ويفترض هذا ضمنا أننا لا نحتفظ إلا ببعض النظم اللغوية الفردية المراد تصنيفها، ونرفض أغلبها. ولم يكن أمام أول من حاولوا تصنيف اللغات الإفريقية خيار آخر، نظرا لنقص المراجع اللغوية التي كانت في متناول أيديهم. وبما أن معرفة اللغات الإفريقية ازدادت زيادة مفرطة في العقود الثلاثة الأخيرة فقد تغيرت تماما مبررات تطبيق مبدأ استخدام الوحدات المختارة. واليوم يريد تطبيق المبدأ كم المعلومات المتاحة. وفي كتابه "التصنيف الوراثي الشامل للغات الإفريقية" (١٩٦٣ : ١)، لم يعالج جوينبرج صراحة مشكلة انتقاء الوحدات المراد تصنيفها، وإنما استخدم في الواقع اختياره لحوالي سبعين لغة، من بين ألفي لغة، ولا شك في أن جوترى (١٩٦٢ : ١٩٦٧ - ١٩٧١) الذي واجه أيضا مشكلة الكم في تصنيفه الوراثي للغة البانتو، لم يعالج أيضا صراحة موضوع اختيار الوحدات المراد تصنيفها. ولكي يتغلب على مشكلة الكم هذه طبق مبدأ "لغات الاختبار" (١٩٦٧ : ٩٧). فاختار ثماني وعشرين لغة اختبار من بين أكثر من خمسمئة لغة، وعددا مجهولا من اللهجات. وعلى هذا الأساس اقترح تصنيفا يصلح للغات البنتو في مجموعها.

ومن وجهة نظر المناهج التصنيفية لا توجد اعتراضات على انتقاء وحدات التصنيف، ما دامت الوحدات المختارة تمثل الوحدات المستعمدة أيضا. وحاول جوترى أن يحل مشكلة التمثيل باختياره لغة على الأقل في كل منطقة من مناطق تصنيفه المرجعي السابق، وعددها خمس عشرة. واختار مجموعة تضم ثلاث عشرة لغة لكي يضمنها درجات للترقية، على مستوى التجاوز الجغرافي والتشابه اللغوي في آن واحد". (١٩٦٧ : ٩٧). ورغم هذا الإجراء الحذر على مستوى المقارنة لم يتمكن من تجنب الجمع بين بعض الوحدات المراد تصنيفها والتي يجب اعتبارها غير ممثلة، بالنظر إلى أهداف هذا التصنيف. وتنتج أسباب هذا الحكم عن التوزيع الجغرافي غير المتوازن للغات الاختبار والدرجات المتفاوتة للنظم الجمعية التي تنسم بها لغات الاختبار هذه. ونقول عن الحجة الأولى : إذا بدأنا من عمليات المسح

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

الجغرافى اللغات البانتو التى أجراها جوترى نفسه فى تصنيفه العملى (١٩٤٨)، أو تحليلاته النوعية (١٩٦٧ : ٨١ والتالية) اتضح لنا أن توزيع لغات الاختبار الثمانية والعشرين غير متوازن. كذلك إذا اعتمدنا أساسا على حصر المجموعات اللغوية الخاصة بالبانتو التى وضعها بريان (١٩٥٩)، وعددها ثلاث وثمانون مجموعة، اتضح لنا أن إحدى وعشرين مجموعة فقط، من هذه المجموعات قد تكررت ضمن لغات الاختبار التى حددها جوترى، وأن أربع مجموعات من الإحدى والعشرين مجموعة تمثلها أكثر من لغة اختبار واحدة. ونقل عن الحجة الثانية : تُحسب بعض لغات الاختبار، كالسواحلية التى تشتمل على عدد كبير من اللهجات، ويوضع بالتالى فى مستوى عال نسبيا فى درجات تجميع اللغات، تحسب كلفة اختبار واحدة، فى حالة لغات مثل "الروندى" و "النيررو" التى تعد وحدات توضع فى أدنى مستويات اللهجات.

هذا ولم تحل بعد مشكلة معيار التمثيل فى سياق التصنيف اللغوى. ولا شك أن مناقشتها كما يجب أصبحت ضرورة ملحة.

٢ - المبدأ اللهجى

يتطلب المبدأ اللهجى تخيلية اللغات المراد تصنيفها لمجال التصنيف كاملا. بعبارة أخرى لا ينبغى أن توجد بينها مناطق محايدة "mo man's land" وتطبيق هذا المبدأ يناسب بصفة خاصة التصنيفات اللغوية التى توضع من منظور تطبيقي، كتلك التى توضع من أجل الإعداد اللغوى أو تحديد سياسية لغوية معينة، ويفيد كذلك مجال التصنيفات التاريخية الحققة. وإذا طبقنا المبدأ اللهجى واجهنا بسرعة مشكلة كمية، بقدر قد يكثر أو يقل، تتوقف أساسا على حجم المنطقة التى تجرى فيها التصنيف. وفيما عدا هذا نتعرض لمجموعتين أخريين من المشاكل. وترتبط المجموعة الأولى بظاهرة "مجموعات اللهجات المتصلة"، فى حين ترجع الثانية إلى ظهور درجات متتوعة من التجاوز اللغوى، بطريقة منتظمة، فى النظم اللغوية الفردية فى أى منطقة متماسكة متكون مادة للتصنيف. ويحدث هذا بدرجة يستحيل معها عادة التمييز عن الاختلافات بمعايير "اللغة" و "اللهجة" التقليدية.

وتحكم مشكلة الكم المعادلة (ن - ١) : ٢، حيث تشير ن إلى عدد اللغات التي يجب أن تقارن زوجا زوجا. على سبيل المثال إذا أردنا تصنيف عشر لغات ارتفع عدد أزواج المقارنة إلى خمسة وأربعين. وبالنسبة لعشرين لغة نصل إلى مئة وتسعين زوجا.. وبالنسبة لثلاثين لغة نصل إلى أربع مئة وخمسة وثلاثين زوجا. ولكي نعطي فكرة محسوسة عن هذه الكميات نقول إن العدد الأخير يتفق تقريبا مع حجم لهجات الشاجا عند سفوح جبال كيليمانجارو وجبل ميري، شمالي تنزانيا. وتدل هذه الأرقام على أن هذا النوع من المشاكل الكمية لا يمكن التحكم فيه إلا بالحد من المناطق المراد تصنيفها. وإذا تجاوزت المنطقة قدرة المصنف أو طاقة حاسباته الالكترونية - ربما -، وجب الإلتجاء إلى تكتيك يعتمد على جمع تصنيفات مصغرة ليكون منها تصنيف مكبر داخل منطقة أوسع من تلك التي استهدفها التصنيف (موهليج، ١٩٨٠، ٢٩ والتالية).

وتتميز مجموعات اللهجات المتصلة بوجود المناطق الانتقالية بين النظم اللغوية المجاورة التي لا تكشف من حدود لغوية معينة جيدا. كحزم اللغات المتساوية. وفيما عدا هذا تقل أهمية الحدود التي يحتمل وجودها بين اللغات أو مناطق الانتقال في منطقة ما، بالنسبة لبعض الموضوعات الخاصة بالإعداد اللغوي. وفيما يتعلق بغالبية أهداف التصنيف يمكن تجنب مشكلة تعيين الحدود اللغوية، إذا تركز العمل على مراكز اللهجات، وإذا اعتبرت معاييرها اللغوية ممثلة أيضا لحيطها الخارجي. ومن الواضح أن مثل هذه الطريقة تتضمن قدرا من التجريد بالقياس إلى الواقع. وقد لا تترتب عليها آثار خطيرة بالنسبة للأهداف المرجعية، والتاريخية، والنمونية. لكن إذا تهتم استخدام التصنيفات اللغوية من أجل الإهداء اللغوي أو أهداف مشابهة لا بد من أن نلخذ بعين الاعتبار المناطق الانتقالية، ما دامت تمكننا من استخلاص بعض النتائج الخاصة بالتواصل بين اللهجات، وتحسب حساب اللهجات المجاورة. وقد يكون هذا النوع من المعلومات أساسيا إذا تعلق الأمر باختيار لغات المدرسة أو الإعلام في برامج محو أمية الكبار.

والمشكلة الخاصة بوجود فئتين فقط، "اللغة" و "اللهجة" للدلالة على وضع متدرج، تكاد تكون قديمة قدم التصنيف اللغوي في إفريقية. وكان كول (١٨٥٤) قد حاول بأمانة تسجيل

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

الأنواع المحلية لبعض اللغات فى عملية التجميع التى قام بها، ولم يتعمد إدخالها قسرا فى نظام الفئات التقليدى. وسرعان ما يدرك عالم اللغويات الذى يتعرض لواقع اللهجات فى منطقة بعينها أن بنية العلاقات المعقدة التى تربط بين اللهجات لا يمكن إلا أن توصف بصعوبة بواسطة عبارتى "اللغة" و "اللهجة" فقط. وإذا استخدمت كلمة "اللغة" استخداما مستقلا دلت كلمة "اللهجة" على مفهوم علائقى لا معنى شيئا إلا بالرجوع - فى نفسه إلى نظم لغوية أخرى. ويمكن عامة استخدام كلمة اللهجة بطريقتين : تؤكد مثل "أ لهجة من لهجات ب" أو توجد صلة نسب بين أ و ب". وقد تدل كلمة اللهجة فى هذه التوكيدات على علاقة وثيقة بين اللهجات وتفاعمها، لكنها قد تعنى أيضا أن الوحدات المسماة "لهجات" ليست، بالأحرى، أفرادا تنتمى إلى أسرة لغوية واحدة، ولا تربطها بهذه الأسرة إلا صلة بعيدة. وبما أن التصنيفات الخاصة بالإعداد اللغوى والتصنيفات ذات الهدف التاريخى أيضا تتوقف على التصوير الدقيق للأوضاع اللغوية الحالية فى منطقة ما فلا بد من مزيد من المعايير لإدراك هذا التعقد على مستوى اللهجات. ويمكن المناهج الجديدة لقياس اللهجات (سيجى، ١٩٧٣، مولج، ١٩٧٤، ١٩٨٠، جويل، ١٩٨٢) من قياس مسافات اللهجات بين النظم اللغوية المختلفة، فى منطقة ما، على أسس لغوية. ويفضل هذا القياس، تصبح البنية المتدرجة لمستويات العلاقات اللهجية المختلفة مرتبة بصفة عامة، مما يمكننا، فى حالات محدودة، من التفرقة بين لهجات من المستوى العلائقى الأول، والثانى والثالث... بل لقد حاول ونتر (١٩٨٠) أن يقيس مستوى العلاقات المختلفة، كما وكيفا، باستخدام معايير مثل "يمكن أن نتفاهم حتى الآن فيما بيننا". "تتطلب ممارسة بعينها"، إلخ... وقد أعد مشروع دولى لتطوير قياس اللهجات فى إفريقية، تحت رعاية المركز القومى للبحوث فى فرنسا، فى الفترة من ١٩٨١، إلى ١٩٨٣، وتم إجراء بعض التقنيات والأجهزة الإضافية لرصد الدرجات المختلفة للعلاقة اللهجية. وما زالت هذه التقنيات والأجهزة تحت الطبع (جارسيما و مولج، تحت الطبع).

إمكانية مقارنة وحدات التصنيف الأساسية

وسواء اعتمدنا على استخدام بعض الوحدات المختارة أو اعتمدنا على المبدأ اللهجى فإنه يتحتم علينا، فى كلتا الحالتين تحديد الوحدات المراد تصنيفها فى سياق وحدات أخرى

مماثلة، واتضح أن تحديدها بالاسم فقط لا يكفي. فإمكانية المقارنة تعنى أن وحدات التصنيف الأساسية يجب أن تحدد بقدر الإمكان فى مستوى التدرج العلائقى نفسه. وإذا وضعت النظم اللغوية الفردية مع مجموعات اللهجات أو حتى مع الأسر اللغوية المفترضة وجودها، على نحو ما كان يحدث فى التصنيفات القديمة، ترتبت على ذلك تناقضات داخلية، بغض النظر عن نظام التصنيف المختار.

وفيما يتعلق بمعرفة المعايير التى يجب الالتزام بها لضمان إمكانية مقارنة الوحدات المراد تصنيفها، علينا أن نحسب حساب الآتى : تتوقف تماما درجات العلاقات التى تقسم الإطار اللازم لتحديد موقع وحدات التصنيف على خواص المحددة لشبكة العلاقات اللغوية المعقدة التى تربط بين اللغات المراد تصنيفها. بعبارة أخرى تعتبر هذه الدرجات تجريدات وضعت بدأ من شبكات العلاقات العالية. لذا لا يمكن فر ضها من الخارج باعتبارها معايير ثابتة. ويترتب على ذلك أن أى درجات من العلاقات أو التصنيفات تختلف عمليا عن أى درجات أخرى من النوع نفسه، من حيث المستويات، والمسافة بينها، وإعداد الوحدات التى يجب أن توضع فى المستوى نفسه. ومن هذا المنظور يتضح أنه من الصعوبة بمكان، بل من المستحيل، تحديد النظم اللغوية الفردية فى مستويات تدرجية أعلى. وما دامت قاعدة الدرجات هى الشئ الوحيد الذى يمكن الوصول إليه بالمناهج التجريبية اقترح اتخاذ اللغات الجماعية فى المستوى الأعلى مباشرة من اللغات الفردية، كوحدات أساسية لأى تصنيف لغوى. وبعبارة "اللغات الجماعية" تتضمن اللغات الاجتماعية واللهجات. وأيا ما كان الأمر فيمكن اختيار هذه الوحدات بالمناهج التجريبية، فى حين تكون وحدات المستويات العلائقية الأعلى مادة للإيمان والإيديولوجيا فى أغلب الأحيان.

٢ - معايير التصنيف

١ - سمات عامة

قد يبدو، لأول وهلة، أن استناد التصنيفات اللغوية إلى المعايير اللغوية فقط أمر واضح فى حد ذاته. لكن اللغات ليست ظواهر منعزلة. فالبشر يستخدمونها لأغراض متعددة

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

كالاتصال، وتحديد الذات، والتعبير الفنى، إلخ... كذلك يتضمن التجاوز اللغوى، وهو المعيار الأساسى لأغلب التصنيفات اللغوية، ضمنا أو صراحة، عوامل عديدة بعضها غير لغوى. وتؤثر بعض العوامل كالسن، والجنس، والثقافة، والمكان، تأثيرا مباشرا على عادات الاتصال بين الناس، ومن خلالها، على الاتصال فيما بين اللهجات. ونظرا لوجهة النظر الغائبة التى اتخذناها فى هذا البحث يتوقف لاختيار معايير التصنيف على الأهداف التى وضعت من أجلها التصنيفات. وبما أن كثيرا من تصنيفات اللغة لها أيضا أهداف غير لغوية أرى أنه من حقى تماما أن أخذ بعين الاعتبار أيضا بعض الحقائق غير اللغوية. وأيا ما كانت طبيعة المعايير لا بد من اختبار صلاحيتها للرد على هذين السؤالين : هذه المعايير حقيقية أم لا ؟ وهل تناسب أهداف التصنيف أم لا ؟

٢ - سمة الحقيقة

تعتبر معرفة هل المعايير التصنيفية حقيقة أم لا مسألة تحقيق تجريبى، أولا وقبل كل شئ. ولا بد من أن يقال ذلك، لأنه كثيرا ما يحدث، فى تخصص ما زال فى بدايته نسبيا كالدراسات الإفريقية، أن يقال إن بعض المعايير موجودة، فى حين أنها غائبة فى الواقع. وبما أن معلوماتنا عن مجال اللغات الإفريقية فى زيادة مستمرة يمكن أن نقول مثل هذه الأخطاء أوتوماتيكيا، اللهم إلا إذا كانت وجهة النظر هذه مفرطة فى التفاؤل.

وإذا ربطنا موضوع الوجود الفعلى للمعايير بمشكلة اختيار وحدات التصنيف رأينا بعدا آخر للنوعية التجريبية. فيمكن أن يقرر الجواب وجود حقيقة جزئية، بدلا من أن يكون نليا أو إثباتا. إذا قلنا مثلا إن فكرة "التمساح" يمثلها شكل "جويئا" بالسواحلية (تبعاً لجوتري، ١٩٧٠ : ٢٣٠) لا يصبح هذا التوكيد إلا بالنسبة للهجات السواحلية الشمالية، لأن الشكل الصحيح يصبح "مامبا" فى لهجات الجنوب والوسط. ويمكن أن تكون مثل هذه الإيضاحات هامة إذا حسبنا حساب الأهداف التصنيفية.

وتمثل الأشكال الأولى التى يعاد بناؤها تاريخيا، والتى كثيرا ما تستخدم كمعايير أساسية فى التصنيفات اللغوية، مجالا آخر تعتبر سمة الحقيقة فيه مشكلة. ولا أستطيع أن

أنكر أن عمليات إعادة البناء التاريخية يمكن أن تعكس حقيقة تاريخية بعينها، لكنى أدرك من الناحية العملية أنها كثيرا ما تنتج عن الخيال العلمي والخيال الفردى.

٣ - سمة المطابقة

يطرح موضوع المطابقة عند الربط بين معايير التصنيف وأهداف التصنيف اللغوى.. مثلا هل يعتبر إعداد التصنيفات الوراثة اعتمادا على بعض المعايير التصنيفية عملية صحيحة أم لا ؟ وأسمح لنفسى بأن أذكر، فى هذا السياق، النتائج المشكوك فيها الناتجة عن مفاهيم الإحصائيات اللغوية. وأميل إلى اعتبار هذه الحالة حالة تقليدية لعدم المطابقة بين المعايير المختارة والأهداف التصنيفية التى نسمى إليها. وفى رأى أن اختيار المعايير المناسبة أتق نقطة فى عملية التصنيف كلها. لذلك لابد من اليقظة، خاصة عند اقتراح تصنيفات جديدة. هذا ولا يناقش المتخصصون هذا الموضوع بما فيه الكفاية. ولا يسعنا الآن إلا أن نلفت النظر إلى هذه المشكلة، ونوجه نداء إلى طماء التصنيف لكى يعينوا بأنفسهم الحدود الخاصة بالقدرات الوظيفية لتصنيفاتهم، لكى يمنعوا مستخدميهما، لا سيما أولئك الذين يتتبعون إلى تخصصات أخرى، من استخلاص نتائج خاطئة منها.

٤ - معايير لغوية

وإذا كنت أتوقف عند المعايير اللغوية فلكنى يخيلى إلى أن المشكلة الرئيسية فى هذا السياق هى مشكلة الكم. فكلما زاد عدد اللغات التى نسلطها فى التصنيف قلت قدرتنا على أخذ بعض المعايير بعين الاعتبار، نظرا لطاقتها المحدودة. ومع أن الحاسبات الالكترونية وسعت نطاق الإمكانات فقد ظلت المشكلة كما هى. وحاول جرينبرج (١٩٦٣ : أو التالية) أن يجعل منها سمة خاصة عندما اقترح مبدأ "المقارنة الكمية" المنهجي. واعترض فوورد (١٩٦٦ : ١٩٨٢) على هذا المبدأ، وذكر فى هذا الصدد أسبابا لم يناقشها الآخرون ولم ينكروها.

ويجب أن نرد على السؤال الخاص بنوع السمات اللغوية وبكميتها ردا خاصا بكل تصنيف على حدة، بطريقة برجماتية، مع أخذ الأهداف التصنيفية بعين الاعتبار، وكانت

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

الألفاظ والأشكال حتى الآن هي المعايير التي يفضلها أصحاب التصنيفات. وأدى تطبيق مجموعة من المعايير المختلطة إلى مشكلة "اللغات المختلطة". وما زالت حالة "المبوجو" في تنزانيا (توكو ويريان ١٩٧٤) التي يعرفها الجميع أبرز مثال لذلك. ولقد أدت المعايير الصوتية دورا أيضا في التصنيفات اللغوية. ولكن بطريقة انتقائية فقط، عن طريق مبدأ المطابقات الصوتية المنظمة التي تستخدم لإعادة بناء الألفاظ الأولى. إذا أخذنا بعين الاعتبار كل السمات الصوتية للغات المراد تصنيفها، في سياقاتها البنيوية المنتظمة (موهلج، ١٩٨٠، ب : ٣٦ والتالية)، استملعنا أن نجد حلا لمشكلة اللغات المختلطة (بالنسبة للمبوجو، انظر موهلج ١٩٨٣، ١٥٨ والتالية).

٥ - معايير غير لغوية

العامل الجغرافي أهم العوامل غير اللغوية. فاللغات، في حد ذاتها، لا وطن لها. ولا يمكن إلا تحديد موقع من يتكلمونها في المكان. ومن ثم تعتبر المعايير الجغرافية مجرد تحديد، لكن القالب الجغرافي له قيمة الكشفية الخاصة التي اعترف بها اللغويون منذ أكثر من قرن.

وعامل الوقت سمة أخرى غير لغوية للتصنيفات. فالحدود التي تفصل بين تزامن اللغة وتطورها تعد مشكلة، من الناحية العملية على الأقل. وكما سبق أن قلنا كانت الإهمية الرئيسية للدراسة المقارنة للغات الإفريقية أهمية تاريخية دائما، رغم افتقارنا إلى المصادر التاريخية الحقيقية للغالبية منها. لذا كانت المعايير المستخدمة في التصنيفات التاريخية أيضا معايير متزامنة حتما، في أغلب الأحيان. وقد يقال، اعتراضا على وجهة النظر هذه، إن الحقائق اللغوية المتزامنة تنتج عن العمليات التاريخية. فمن المشروع إذن أن ننظر إلى هذه الحقائق على أنها عيّنات من الأدلة التاريخية. والمناقشات المنهجية حول طريقة استخدام عيّنات الأدلة هذه لم تبدأ إلا مؤخرا، مع الاعتراف المتزايد بأن المناهج الآلية القديمة التي كانت تستخدم في المقارنة اللغوية التاريخية لا تكفي، إذا ما واجهناها بمقياس الواقع أو الحقيقة التاريخية.

ولا يمكن أن نستبعد منذ البداية من التصنيف اللغوي معايير أخرى غير لغوية أثبتت فيما مضى عدم فاعليتها وقصرتها الضئيلة على التكيف. ويمكن أن نقول عامة إن التصنيفات اللغوية التي تتباعد عن الحقائق اللغوية البحتة تنتقل بالتدرج إلى مجال تعدد التخصصات الذي تفتقر فيه إلى المناهج الملائمة في أغلب الأحيان.

٤ - اختيار نموذج التصنيف

١ - العلاقة بين نماذج التصنيف وأهدافه :

توجد صلة وثيقة بين نماذج التصنيف وأهدافه. فنموذج التصنيف أداة تمثيلية، أولا وقبل كل شيء، وهو يسعى إلى التأكيد على بعض العلاقات التي تربط بين اللغات المصنفة والتي يرى المصنف أنها هامة، وعلى احتمال حذف البعض الآخر، الذي يرى المصنف أنه أقل أهمية من سابقه. ونظرا لهذه الخاصية، لا تقدم نماذج التصنيف اللغوي مطلقا صورة صادقة للواقع - وهذا ما يعتقد الكثيرون للألف - وإنما تقدم إطارا لتفسير بعض الحقائق.

وعلى غرار التقسيم الثنائي للغويات عامة يمكن التمييز بين النماذج المتزامنة والنماذج المتطورة. في التصنيفات اللغوية. وقد يظن أن النماذج المتطورة تستخدم في كل التصنيفات ذات الأهداف التاريخية، بحكم طبيعتها، في حين تعتبر النماذج المتزامنة وسائل تمثيل مناسبة لكل الأهداف الأخرى. ومع ذلك كثيرا ما تستخدم النماذج المتطورة لبلوغ أهداف متزامنة، والعكس أيضا صحيح. والخلط الشائع بين الجوانب الخاصة بالزمن مشكلة خطيرة لا يمكن أن تحل، فيما أرى، إلا إذا أصبحت صريحة.

٢ - نماذج التصنيف المتزامنة

تقوم التصنيفات اللغوية بانتظام على بعض العوامل الأساسية كالتجاوز اللغوي والتوزيع حسب المساحات. ويمكن أن نضيف إليها العوامل اللغوية الكيفية، وهي على صلة بالأهداف التصنيفية المحددة.

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

واستنادا إلى هذه العوامل تصبح العلاقات المتعددة الأبعاد بين اللغات المراد تصنيفها واضحة مرئية فى نهاية المطاف. ورغم ما يوحى به، فيما يبدو، التمثيل التقليدى الذى يأخذ شكل الشجرة لاتبنى هذه العلاقات المتعددة الأبعاد وفقا للمنطق، فى أغلب الأحيان : فإذا كانت (أ) تساوى (باء) و(ج) يجب أن تساوى (باء) (ج) أيضا. وكثيرا ما تكون (أ) طرفا فى مجموعتين فرعيتين مختلفتين. ويتعارض هذا يوضح مع مفهوم الشجرة. وعلى النموذج المتزامن للتصنيف اللغوى أن يتمكن من تمثيل هذه السمة المعقدة.

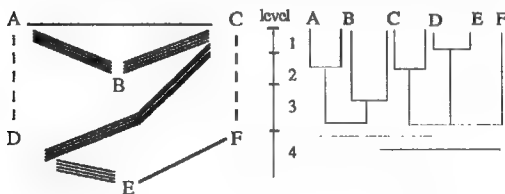
والسمة الأخرى التى يجب أن يمثلها التصنيف المتزامن هى البنية المترتبة للعلاقة اللغوية. ولقد حاول "دليل اللغات الإفريقية"، وهو مؤلف قديم عن تصنيف اللغات الإفريقية، - وأهداف مرجعية أساسا - أن يعبر عن البنية المترتبة باستخدام مفاهيم مثل "اللغة"، و"اللهجة" و"مجموعات اللهجات"، و"مجموعة اللغات" و"الوحدة الأوسع". ومن المؤكد أن هذا الإطار الخاص بالمفاهيم قد ساهم فى الحد من خليط الوحدات الأساسية المراد تصنيفها، لكن المجموع يظل غامضا لدرجة أنه يستحيل معرفة اللغات المجهولة إلا بمساعدة الكشف الأبجدي. وطور جوترى (١٩٤٨) نظام التمثيل المترجج، بالنسبة لمجال الباتنق على الأقل، عندما اختار الوضع الجغرافى فى أعلى مستويات السلم. وإذا كانت لدينا فكرة تقريبية عن بنية المناطق حسب مساحاتها استطعنا أن نكتشف بسهولة، وفقا لهذا "الكود" المرجعى، المكان الذى يتكلم فيه الناس لغة ما، والسياق اللهجى الذى تقع فيه.

ولقد حاول دالبي (١٩٧٧) أن يجمع، فى تصنيفه العام للغات الإفريقية، بين سمة التقعد والعائقى وسمة البنية المترتبة، وذلك بإسخال ثلاث وحدات جغرافية فى أعلى مستوى تصنيفى: "حزام التجزئة"، فى المنطقة المركزية، و"منطقتان نواتا حلة أوثق"، واحدة فى الشمال، والأخرى فى الجنوب، ويفضل "كود" مشترك من الرموز العددية والأبجدية تربط كل لغة بإحدى المنطقتين نواتى الصلة الأوثق، بالإضافة إلى ربطها بحزام التجزئة، سلبا أو إيجابا. وفى رأى أن تصنيف دالبي لم يحط باعتراف واسع النطاق كذلك الذى حظى به جوترى بالنسبة للباتنق، وذلك لأسباب عدة : أولا : نظام "الكود" المرجعى غير واضح بالنسبة للغات الغربية، ثانيا : نطاق المناطق ذات الصلة الأوثق غير محدد، لأن الوحدات المرجعية

تحددت على أساس التجمعات التاريخية القديمة "السامية - الهامية"، و "النيجيرية - الكونغولية". وربما كان أبرز عيب، في نهاية المطاف، هو خفض عدد المناطق المرجعية.

وأنخل كل من فيفا وسكوت (١٩٧٧)، بالاشتراك مع جوتري، "كوداً مرجعياً بالحروف والأعداد العشرية، مستقلاً بقدر قد يكثر أو يقل، لتعيين أى أسرة من اللغات الإفريقية ذات الحجم الأدنى، والتي عرفت منذ عهد وسترمان (١٩٢٧)، وسترمان وبريان (١٩٥٢). ويستخدم اسم مميز "الكود"، بالنسبة للتجمعات الخارجية للأسر اللغوية. ويبين المجموع، في خطوطه الرئيسية، وفقاً للتقسيمات الوراثية الفرعية الكبرى التي وضعها جرتير جرينبرج. ولقد ساهم هذا النظام المرجعي المزيج، إلى حد كبير، في إيضاح التصنيف. ومع ذلك لا يبلغ درجة اليورغ التي بلغها جوتري، لأن التصنيف حسب الحروف داخل الأسر يتبع نظاماً وراثياً كثيراً ما يتعارض مع العلاقات الوثيقة التي تربط بين المناطق المتجاورة.

وعن المناطق الأصغر، التي يبلغ حجمها حجم بلدا إفريقيا حديث، وضعت بنفسى نظاماً تصنيفياً متزامناً، من منظور تطبيقي (موهلج، ١٩٨٠). يأخذ بعين الاعتبار تعقد العلاقات اللغوية بأبعاده المتعددة من ناحية، والبنية المترتبة لهذه العلاقات من ناحية أخرى. وتحدد كل المستويات طبقاً للمعايير الحالية، الملزمة للمسافة، أو التجاوز اللغوي للغات المراد تصنيفها. ولكى أصورها استخدمت رسماً بيانياً متعدد الأبعاد، على نحو ما جاء في الشكل رقم (١) الذى يبرز تعقد العلاقات اللغوية. وإذا أردت التأكيد على الجانب المساحى لهذه العلاقات استخدمت خرائط إحصائية على نحو ما جاء في الشكل رقم (٢).



الشكل ٢

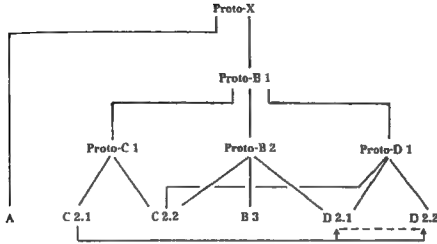
الشكل ١

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

٢ - نماذج التصنيف المتطورة

نموذج التصنيف الذى استخدم فى أغلب الأحيان فى مجال اللغات الإفريقية هو ذلك النموذج الأحادى الخط، والأحادى الأصل، الذى يأخذ عادة شكل الشجرة. ولهذا النموذج ميزة لا تنكر، وهى الوضوح. ويتمثل عيبه فى انخفاض درجة واقعيته كلما زاد عدد اللغات التى يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. وإذا عقدنا صلة بين هذا النموذج وعامل الزمن المخوخذ عن تاريخ اللغات التى توجد بشئونها أدلة فى أجزاء أخرى من العالم، وإذا عرضنا النتائج التاريخية لذلك النموذج على شاشة الماضى، توصلنا إلى أن عدد اللغات كان يقل عن تسعة، من خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف عام، فى المنطقة الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء. ومن الواضح أن هذه الصورة المبسطة تتعارض مع الصور المعقدة المميزة التى يقدمها لنا علم الآثار عن الفترة نفسها.

وأعطيتى دراستى للهجات صورة مختلفة. ففى العالم الصغير الخاص بوضع لهجة ما يمكن أن نلمح، جنباً إلى جنب، عدداً من الأشكال والنماذج اللغوية المختلفة إلى حد ما، أى التى توجد فى المستوى الزمنى نفسه. ويرجع هذا، بطبيعة الحال، إلى أن التطور التاريخى يسير بسرعة مختلفة، فى اللهجات المختلفة. وبالتالي يمكن إعادة تشكيل هذه الأشكال اللهجية بطريقة أفضل، فى شكل متتاليات، وأن تفسر بأنها مراحل متعاقبة لسلسلة واحدة من التطور التاريخى. ويمكن استخلاص بعض العمليات التاريخية المحددة، بدءاً من هذه السلسلة. ويتضح، بالرجوع إلى أى نظام لغوى، أن مجموع العمليات التاريخية غالباً يكون متناقضاً، فى حد ذاته، بمعنى أن اتجاه سلسلة معينة من التطورات اللغوية يمكن أن يكون عكسياً. على سبيل المثال يمكن أن تثبت أن مجموعة معينة من الأصوات اختلفت لفترة فى الماضى، ثم عادت إلى الظهور. وبالإضافة إلى هذه المحولات تثل العمليات، عندما تنتقل إلى الضرائط، على توزيع مساحى غير متطابق. وينتج هذا التوزيع، وينتج ظواهر أخرى مماثلة، عن عمليات مطابقة، كالتحول اللغوى، وخط اللغات، آثار اللغة، إلخ... وتتطلب هذه العمليات التاريخية إلى جانب عملية التطور الوراثى، نموذج تصنيف أكثر تعقداً (موهليج، ١٩٨٠، ٤٨، والتالية). وأقدم فى الشكل رقم (٢) نموذجاً لطبقات لتصنيف اللغوى.. ولقد بنيت نتائجه، خاصة ما يتعلق بتصنيف لغة البانتو، (موهليج، ١٩٨١)، فى بحث منفصل.



تأثيرات مساحية مترامنة

الشكل ٢

• - ختام

تميزت مناقشة المناهج الخاصة بطريقة تصنيف اللغات الإفريقية، لفترة طويلة من تاريخ الدراسات الإفريقية، بحالة ركود، مرجعها سيادة النموذج الأحادي الخط والأصل. وعندما إزدادت معرفتنا للغات الإفريقية، لدرجة تمكننا معها من أن نضيف إلى أدواتنا مناهج اللهجات التي استخدمت في أوروبا قبل ذلك بقرن، استطلعنا أن تلقى ضوءاً جديداً على البنية الملزمة للعلاقات اللغوية. ونتجت عن ذلك دفعة تهيف، لا إلى إعادة النظر في الموضوع كله، في مجال التصنيف اللغوي فحسب، وإنما أيضاً إلى الاعتراف بوجود مشاكل صعبة لم نقابلها من قبل.

وحاولت في هذا البحث أن أناقش بعض المشاكل الرئيسية في إطار كاشفي، بنى طبقاً للمكونات الأساسية للتصنيف اللغوي، ألا وهي الغايات والأهداف، والوحدات المراد تصنيفها، ومعايير التصنيف، والنماذج التصنيفية. ويعبر تجميع هذه المكونات، بطريقة ما، عن أهميتها بالنسبة لعمليات التصنيف في مجموعها. ومع ذلك فهي لا تقضى إلى نتائج مباشرة، فيما يتعلق بالحجج التي تستخدم عند مناقشة المشاكل المتعلقة بها. وربما كان موقفى الغائى من كافة الموضوعات الخاصة بالتصنيف اللغوي هو الأهم. ولقد حرصت على

تصنيف اللغات الإفريقية : قضايا عامة

إيضاح ذلك منذ البداية وما أنا ذا أنكره في النهاية، لكن لا يخدع أحد.

ويليهام مولج (جامعة كولوني)

REFERENCES

- BRYAN, M., *The Bantu Languages of Africa*, London - New York - Cape Town, Oxford University Press, 1959 (Handbook of African Languages).
- DALBY, D., *Language Map of Africa and the Adjacent Islands*, London, International African Institute, 1977.
- FIVAZ, D.; SCOTT, P. E., *African Languages. A Genetic and Decimised Classification for Bibliographic and General Reference*, Boston, Mass., G. K. Hall, 1977.
- FODOR, I., *The Problems in the Classification of the African Languages*, Budapest, Center for Afro-Asian Research of the Hungarian Academy of Science, 1966.
- *A Fallacy of Contemporary Linguistics*, Hamburg, Helmut Buske, 1982.
- GOEBL, H., *Dialektometrie. Prinzipien und Methoden des Einsatzes der Numerischen Taxonomie im Bereich der Dialektgeographie*, Vienna, Verlag der Oesterreichischen Akademie der Wissenschaften, 1982.
- GREENBERG, J. H., *Studies in African Linguistic Classification*, Branford, Conn., Compass, 1955.
- *The Languages of Africa*, The Hague, Mouton, 1963.
- GUARISMA, G.; MÖHLIG, W. J. G., (eds.), *La méthode dialectométrique appliquée aux langues africaines*. (Forthcoming).
- GUTHRIE, M., *The Classification of the Bantu Languages*, London-New York-Toronto, Oxford University Press, 1948.
- "A two-staged method of comparative Bantu study," *African Language Studies* (London), Vol. III, 1962, p. 1-24.
- *Comparative Bantu. An Introduction to the Comparative Linguistics and Prehistory of the Bantu Languages*, Farnborough, Gregg Press. Part I, Vol. I, 1967. Vol. III, 1971. Part II, Vols. III-IV, 1970.
- HEINE, B.; HOFF, H.; VOSSEN, R., "Neuere Ergebnisse zur Territorialgeschichte des Bantu." In Möhlig, W. J. G.; Rottland, F.; Heine, B. (eds.) *Zur Sprachgeschichte und Ethnohistorie in Afrika. Neue Beiträge afrikanistischer Forschungen*, Berlin, Dietrich Reimer, 1977, p. 57-72.
- JOHNSTON, H. H., *A Comparative Study of the Bantu and Semi-Bantu Languages*, Vol. II, London, Oxford University Press, 1922.
- KOELLE, S. W., *Polyglotta Africana; or A Comparative Vocabulary of Nearly Three Hundred Words and Phrases, in More Than One Hundred Distinct African Languages*. London, Church Missionary House, 1854.
- MEINHOF, C.; VAN WARMELO, N. J., *Introduction to the Phonology of the Bantu Languages*, Berlin, Dietrich Reimer, 1932.
- MÖHLIG, W. J. G., *Die Stellung der Bergdialekte im Osten des Mt. Kenya. Ein Beitrag zur Sprachgliederung im Bantu*, Berlin, Dietrich Reimer, 1974.

- "Guthries Beitrag zur Bantuistik aus heutiger Sicht." *Anthropos. Zeitschrift für Völker- und Sprachenkunde* (St. Augustin), vol. 71, 1976, p. 673-715.
- "The Bantu nucleus: its conditional nature and its prehistorical significance." *Sugia. Sprache und Geschichte in Afrika* (Hamburg), vol. I, 1979, p. 109-141.
- "La dialectométrie: une méthode de classification synchronique en Afrique." In Guarisma, G.; Platiel, S. (eds), *Dialectologie et comparatisme en Afrique Noire*, Paris, Sclaf, 1980, p. 27-44.
- Bantu Languages. In Heine, B.; Möhlig, W. J. G. (eds.), *Language and Dialect Atlas of Kenya*, Vol. I, Berlin, Dietrich Reimer, 1980, p. 11-53.
- "Stratification in the history of the Bantu languages." *Sugia. Sprache und Geschichte in Afrika* (Hamburg), vol. III, 1981, p. 251-316.
- "Mbugu." In Jungraithmayr, H.; Möhlig, W. J. G. (eds.), *Lexikon der afrikanischen Sprachen und ihre Erforschung*, Berlin, Dietrich Reimer, 1983, p. 158 f.
- SEGUY, J., "La dialectométrie dans l'atlas linguistique de la Gascogne." *Revue de linguistique romane*, vol. 37, 1973, p. 1-24.
- TUCKER, A. N.; BRYAN, M. A. "The 'Mbugu' anomaly." *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* (London), vol. 37, 1974, p. 188-207.
- WESTERMANN, D., *Die westlichen Sudansprachen und ihre Beziehungen zum Bantu*, Berlin, de Gruyter, 1927.
- WESTERMANN, D., BRYAN, M. A., *Languages of West Africa*, London, Oxford University Press, 1952 (Handbook of African Languages, Part II).
- WINTFR, J. C. "Inter(natio)nal classifications of Kilimanjaro Bantu compared: towards an East African dialectometry." In Guarisma, G.; Platiel S. (eds), *Dialectologie et comparatisme en Afrique Noire*, Paris, Sclaf, 1980, p. 101-132.

بقلم : جويدا منصور

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوى وتطبيقاتها فى دراسة التعدد اللغوى

(مع اشارة خاصه عن غرب افريقية)

نظرا لسيادة التعدد اللغوى فى كثير من الأقطار أصبح الأمر فى حاجة الى مدخل جديد تشترك فيه التخصصات العلمية المختلفة لدراسة مشاكله. ويوفر علم الاجتماع اللغوى مثل هذا المدخل كما يمكنه أن يساعد فى إلقاء أضواء جديدة على الظاهرة التى كانت تتناقش فى أغلب الأحيان بمفهوم يعيل الى خلق مزيد من المشاكل أكثر من الاتجاه الى حلها. ولكى نبين كيف يمكن لنظرية الاجتماع اللغوى وتطبيقاتها أن تسهم فى دراسة التعدد اللغوى وسنحاول فى هذه المقالة أن نحدد باختصار بعض المعطيات الأساسية لنظرية الاجتماع اللغوى والتى يبدو أنها وثيقة الصلة بتقهم ظاهرة التعدد اللغوى، ونحدد أيضا التعدد اللغوى كسلوك اجتماعى مستجيب لأوضاع الاحتكاك.

أولا - بعض المعطيات الأساسية لنظرية الاجتماع اللغوى :

تكون دراسة اللغة واللغويات دائما جزءا هاما من العلوم الإنسانية، لا فى مضمون

المترجم : محمد جلال عباس

الحضارة الغربية فقط بل أيضا في جميع الحضارات العظمى في العصور القديمة. بيد أن الطرق التي كانت تترك بها اللغات وتدرس اختلفت وتعددت كثيرا. ويكفى هنا أن تلخص الطريقة التي حدد بها اللغويون الغربيون في القرن العشرين مجال دراستهم. فرغم اختلاف مناهج البحث بين المدارس الفكرية المتعددة فإن الاتجاه الرئيسي للغويات يتسم بالتركيز على الوصف العلمي للغة معينة من حيث نسقها الصوتي والصرفي والاعرابي. ويتخذون من اللغة كما يتكلم بها أهلها الآن نموذجا لدراستهم. وهو نموذج ثابت ذو وضع مثالي متحرر من المضمون. ولا نحتاج هنا لأن نذكر أن لعملهم هذا أهمية أساسية في حالة اللغات غير المكتوبة وغير المدروسة. ويرجع الفضل الى هذه الجهود العلمية في أن تلك اللغات قد أصبحت مكتوبة ومدروسة تمهيدا لكي تصبح أداة أكثر فاعلية في الاتصالات بالمفهوم الحديث كما كانت كذلك في المضمون التقليدي.

ويرتبط عمل اللغوي الوصفي بعمل اللغوي المقارن الذي يحلل الظواهر المختلفة التي تميز لغتين أو أكثر، لكي يضع نسقا معينا من العلاقات، سواء كانت علاقات رمزية أو اشتقاقية من أصول واحدة مما يستفاد به كأساس لتصنيف اللغات. ولقد كان تاريخ اللغات خلال القرن التاسع عشر أحد فروع اللغويات المهمة وما زال حتى اليوم يمثل جانبا من الدراسة اللغوية. ولقد طبقت قواعد التغير في اللغات المكتوبة على اللغات غير المكتوبة في ذلك الوقت مما جعل لتلك اللغات ماضيا ولو أنه ماض افتراضي. والعامل المهم في هذا النوع من العمل هو أنه يفرض نموذجا مختلفا من اللغات، هو النموذج الحركي الديناميكي بدلا من النموذج الثابت أو الاستاتيكي الذي يستخدمه اللغوي الوصفي، ولكنه لا يحاول أن يحلل أو يبيح عن أسباب التغير اللغوي من داخل النسق اللغوي نفسه. إذ غالبا ما يتخذ ذلك التغير شكل تدخل لغوي من جانب نسق لغوي آخر.

والعلوم التي تتناول دراسة اللغة تصور مختلف، وتدرس عناصر أخرى مختلفة من عناصر اللغة. وكان من بين المؤثرات القوية على العلم الجديد الذي يدرس الاجتماع اللغوي الدراسات التي قام بها علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع والنفس. فالدراسات الأنثروبولوجية في الميدان الذي يحمل عنوان «اللغة والثقافة» تهتم باللغة على اعتبار أنها شكل من أشكال التفاعل الاجتماعي وكوسيلة للتعبير عن البنيان الخاص بالمجتمع. وتهتم فروع عديدة من علم النفس بدور اللغة في التنشئة الاجتماعية للطفل، والعلاقة بين اللغة ومفهوم التكوين، وفي القوالب الاجتماعية التي يظهر التعبير عنها في شكل اتجاهات نحو اللغة. أما علماء الاجتماعيات الآخرون فيدرسون الطبقات الاجتماعية ودور اللغة في تكوين الأمة. وواضح أن

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوي

العوامل المختلفة للدراسات اللغوية تتضمن مفاهيم علمية مختلفة ومناهج بحث متنوعة. ولقد تأثرت أهم الأدوات المنهجية التي يستخدمها اللغويين باللغويين والاجتماعيين والأنثروبولوجيين (أو الأنثروجرافيين).

ويمكننا أن نجمل تصور علماء الاجتماع اللغوي للغة على النحو التالي : اللغات ليست مستقلة بعضها عن بعض، وليست نظماً ذات استقلال ذاتي ولكنها مرتبطة ببعضهم، ويتحدد المعالم اللغوية بمجموعة شديدة التنوع من العوامل الخارجة عن اللغة، تتراوح بين المواقف المعينة والمباشرة لعملية حديث فرد واحد إلى المضمون العام : الاجتماعي التاريخي والثقافي والديني أو حتى البيئي لحديث مجتمع بأكمله. واللغات ليست جميعها موحدة التركيب نظراً لأن الفحص النقيض يكشف لنا عن أن كل لغة تحتوي على أطراف واسعة من التنوعات الاقليمية والاجتماعية وكذلك سجلات للمواقف المعينة أو أساليب الكلام. وفي حين يتقبل الكثير من اللغويين تعريف كومسكي لكفاءة اللغة على أنها قدرة المتحدث البدائي على الفهم والتعبيرات الصحيحة في قواعدهما (كومسكي Chomsky، ١٩٦٥) فإن علماء الاجتماع اللغوي يجهنون المزيد من التركيز على « القدرة على الاتصال » (هايمز Hymes، ١٩٧٤). أو بمعنى أدق فإن الطفل الذي يكتسب اللغة الأم أو لغة وطنه يحتاج إلى أن يتعلم ما هو أكثر من مجرد مجموعة الألفاظ المعجمية والقواعد النحوية، بل هو يحتاج إلى القدرة على أن يختار من بين المترادفات المتعددة ما هو أنسب لكل موقف من المواقف. هل يقول آباء، أو أبى أو بابا ؟ أم يقول : «مطر غزير استمر طول الليل» أو «أمطرت الدنيا طول الليل كالسيل المتدفق»؟. ويعتبر آخر عليه أن يكون قادراً على توصيل المعنى الاجتماعي الذي يريده إذا ما أراد أن يكون عضواً مندمجاً في مجتمعه. والمهم في هذا المضمون هو مفهوم علماء الاجتماع اللغوي لما يسمى «المناسبة الصحيحة» التي ينشأ عنها الاتجاه الذي يحتم الاختيار المتوافق فكرياً مع «السلوك الذي تحكمه القاعدة».

كان اكتشاف التنوع اللغوي من بين العوامل التي جعلت علماء اللغة ينظرون إلى ظاهرة التعدد اللغوي في ضوء مختلف تماماً. وكذلك تغيرت نظرة العامة له، إذ أصبحت النظرة إلى التعدد اللغوي على الأقل هي النظرة إلى شيء بغيض، وأنه انحراف عن جادة الطريق إلى الأسوأ، ولكل نظرة أسبابها. أما اللغويون الذين يشغلهم تكوين قواعد محددة فيزعجهم ما يسمونه «تدخله لغة أخرى في اللغة التي يدرسونها». وأما رجال علم النفس التعليمي فيركزون اهتمامهم على الآثار السلبية للثنائية اللغوية على مفهوم تكوين الفرد

ونموه. ويطلق السياسيون والممارسون أمر الوحدة الوطنية في حين أن التربويين وصناع القرار تصنيفهم الكلايس حين يتملئون الوضع للوصول الى نتائج تتضمن بدائل «مينة بالنسبة للدول المتعددة اللغات ويحسبون مقدار. تكاثيف التعليم في هذه الدول.

من جهة أخرى قد يزعم علماء الاجتماع اللغوى أن الوحدة الأفوية غير موجودة سواء على المستوى الفردى أو المستوى الجماعى، وأن السلوك القوى الطيبعى متعدد اللغة ومتغير. فكقاعدة نجد أن الأفراد يجيدون وسائل متعددة للتعبير - لغة خطاب رسمية أخرى وغير رسمية وأحياناً توجد ثلاثة تكون وسيلة محايدة، فمعظمهم يتكلمون لهجة محلية ولهجة اجتماعية ووطانة خاصة بالعمل وذلك الى جانب لغة معترف بها من الجميع. ويعتبر مصطلح «لغة» من وجهة نظر الاجتماع اللغوى مصطلحاً غامضاً وغير مناسب، وقد تتفق الغالبية على أنه أساساً مفهوم سياسى، فمثلاً نجد أن الذى يميز كلام سكان جزر فريزيان الغربية من كلام سكان جزر فريزيان الشرقية هو أن اسكان فريزيان الغربية يتكلمون فى اطار سياسى هولندى، ولذلك يعتبر كلامهم لهجة من اللهجات الهولندية فى حين يعتبر كلام الآخرين لهجة ألمانية. ولقد عمل علماء اللهجات بمفهوم استمرارية اللهجات لكون الاعتماد على اللغة النمطية، وقرروا أن مقدار الاختلافات اللغوية ينمو فى اطراد مع المسافة الجغرافية، وعلى ذلك فإن الوضوح المتبادل الذى يتواجد عبر الحدود الجغرافية قد يكون اعظم من الوضوح المتبادل بين لهجة وأخرى فى داخل الدولة الواحدة (وفى أوروبا يظهر البعد الكبير على محور شمالى جنوبى).

بيد أن الحقيقة أمام علم الاجتماع أصبحت فى وقتنا الحاضر أكثر تعقداً من ذلك، فالتعليم العام الاجبارى ووسائل الاعلام وزيادة تمركز السكان كلها أدت الى التماثل اللغوى فى داخل الدولة القومية فى أوربا أكثر من أى وقت مضى. وفى الوقت نفسه أصبحت الأقليات اللغوية أكثر حاجة الى الاستقلال الذاتى فى وقت زادت فيه الهجرات العمالية، مما أدى الى تكوين أقليات لغوية جديدة أصبح ائماجها فى اللغة الموحدة للدولة أصعب بكثير مما مضى. ولقد أعيد تحديد اصطلاح الدول «أحادية اللغة» فى مفهوم الاجتماع اللغوى بأن الأمم الاحادية اللغة هى الأمم التى تطورت فيها، كاستجابة لما حتمته الأوضاع السياسية فى الماضى، بكتنتيجة للتوافق، لغة نمطية فرضتها بنية السلطة وانتشرت عن طريق التعليم ووسائل الاتصال الجماهيرية. بذلك تصبح الفرضية انن أن يعالج موضوع التعدد اللغوى باعتباره حالة عادية وأن يكون التركيز كله فى دراسة التعدد اللغوى على تحديد مختلف أنواع الاستخدامات اللغوية، وعلى وصف القواعد والتنظيمات المكشوفة والمستورة، وعلى

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوي

تحليل أسبابها وتصانيفها الاجتماعية، واكتشاف اتجاهات التغيير الاجتماعي اللغوي. والعنصر الأخير أهميته، وهو لسوء الحظ يلقي أقل عناية في الوقت الحاضر بسبب كمية الأفكار التي تعوق نسبة كبيرة من التحقيقات الاجتماعية وخاصة أن معالجته تتم على أساس مدخل تاريخي. ومن الأمثلة الممتعة لهذه النقطة عالم الاجتماع الأمريكي ليبرسون (١٩٨٠)، فقد اتبع في دراسته مدخلا تجريبيا صرفا واستمر على ذلك مدة طويلة، فاكشف أن الأوضاع تتغير وأن النتائج التي تشبي على بيانات مرتبطة بالزمن تصبح غير ذات موضوع، وعلى ذلك فهو يصف العلاج لذلك بأنه عملية جمع المعلومات من وقت لآخر وإجراء المقارنات.

هذا، وترتبط اتجاهات التغيير الاجتماعي اللغوي مع استخدام لغة ثانية أو لغة تخاطب عامة، ونقصد باللغة العامة في مضمون هذه الدراسة أي لغة محلية يتخذها المتحدثون بلغات أخرى وسيلة للتخاطب مع المجموعات الثقافية الأخرى. وحيثما حل هذه اللغة العامة محل لغة جيل من الأجيال تصبح اللغة الأم بالنسبة للجيل التالي. فأننا إذن نتحدث عما يسمى «التحول اللغوي» وهو عكس «التمسك باللغة» الذي يطلب على حالات التثائية اللغوية حيث تكون اللغة العامة في خدمة مجموعة من الوظائف الاجتماعية في حين تسود اللغة الأم في مجال الأسرة وغيرها من مجالات الاتصال الحميمة. ويمكن أهمية دراسة التحول اللغوي في اظهار الصفة الديناميكية للاستخدام اللغوي بعكس الاتجاه الجامد في مثل ذلك السلوك.

ثانيا : التعدد اللغوي : سلوك اجتماعي لغوي يستجيب لمواقف احتكاك معينة

ومن المداخل المفيدة لتحليل التعدد اللغوي ويحث مختلف أنواع مواقف الاحتكاك التي تتحدد من أصولها وما بعد ذلك بالعوامل التاريخية والاجتماعية والبيئية وكل نوع من أنواع مواقف الاحتكاك كما سنرى، مرتبط باستراتيجيات اجتماعية ولغوية معينة. ويمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من مواقف الاحتكاك :

- أ - التعايش مع وجود حد أدنى من الاحتكاك.
- ب - التعايش مع وجود احتكاك محدد اجتماعيا.
- ج - التعايش مع وجود الامتزاج الثقافي.

1 - التعايش مع وجود حد أدنى من الاحتكاك :

يتميز هذا النوع من المواقف بظواهره الأفقية بمعنى وجود مجتمعات لغوية لها استقلالها الذاتي تعيش جنباً إلى جنب وتكون نوعاً من الامتداد المتجاور المتداخل في منطقة جغرافية معينة. ويندر وجود احتكاك مباشر بين المجموعات العرقية ويتم الاتصال بينها عادة من خلال أفراد متخصصين مثل التجار، والمبعوثين والمترجمين، والمعتقد أن هذه هي الحالة العادية التي كانت سائدة في مرحلة ما قبل التاريخ في كل الحضارات، ولكن نظراً لوجود أحوال خاصة فإن الكثير من المجتمعات الصغيرة استمرت تعيش هكذا حتى وقتنا الحاضر. وترجع العزلة السائدة في مثل هذه الحالات وتستمر بسبب وجود بعض الظواهر البيئية السائدة مثل الجبال والأنهار والمستنقعات والجزر والصحاري، وكذلك الغابات التي لا يمكن اختراقها. ولما سيطر الإنسان على البيئة انخفض تأثير هذه العوامل العازلة إلى الحد الأدنى، ولكن ذلك حدث بعد أن أقيمت عوامل عزل أخرى وبخاصة التميز الطبيعي والثقافي والشعور القوي بالترابط الاجتماعي والهوية المنفصلة، وهي العوامل التي تكونت خلال التاريخ الطويل للتطور الاجتماعي للجماعات. ففي أوروبا استمرت الكثير من الأقليات اللغوية البيئية والاجتماعية والثقافية، على سبيل المثال لا الحصر الياسك الذين يعيشون في البرانس على جانبي الحدود الفرنسية الإسبانية، والمتحدثون لغة الرايترومانس في الألب السويسرية، والمتحدثون بالألمانية القديمة جنوب التيرول والبريتون في فرنسا وأهل ويلز في إنجلترا.

المنزلات اللغوية في غرب إفريقية :

يتكون ساحل جنوب إفريقية وجزء من خلفيته في المنطقة الممتدة من غامبيا إلى ساحل العاج ثم في نيجيريا، من أراض منخفضة تغطيها المستنقعات وبراك المنجروف، تشقها أنهار كثيرة الانحناات ومصبات خليجية كبيرة تقطع امتداد خط الساحل ويتجه إلى ما يشبه الجزر والجزر الحقيقية التي تقع تجاه الساحل. وتتصل المستنقعات لفصل إلى الغابات الكثيفة التي رغم احتوائها على كثافة أعلى نسبياً من السكان ما زالت تمثل عتبة في المواصلات ومن ثم فهي تناسب مجتمعات القرى الصغيرة المستقلة بذاتها. إذا نظرنا إلى الخريطة اللغوية لإفريقية التي رسمها والبي (١٩٧٨) تبين أن هذه المنطقة تكون «جزءاً منقسماً غير متصل من النطاق شبه الصحراوي» وهو أكثر مناطق إفريقية اختلافاً في لغاته. وتعارض النتائج التي توصل إليها المؤرخون مع النتائج التي توصل إليها اللغويون

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوي

من هذه المنطقة بالذات. فطبقا لمصادر برتغالية أخذ عنها كوين (١٩٧٢) كان جانيا المصب الخليجي لنهر غامبيا موطننا لملكة جوك في القرن الخامس عشر، ونتيجة لغارات تجار الرقيق اضطر أهل جولا الى الانتقال جنوبا الى منطقة مستنقعات كازامانس وكاشير حيث ما زالوا يعيشون حتى الآن. ورغم أنهم كانوا يخضعون لتنظيم اجتماعي ميكلي متدرج فإنهم الآن مفتتون في مجموعات عرقية لغوية يزيد عددها على اثنتي عشرة مجموعة يتكلم بعضهم لهجات متقاربة، ويكون بعضها الآخر تنوعات من اللهجات يبدو أنها أقل تقاربا ووضوحا (نوكس ١٩٧٨). ولقد أكد أيضا كل من روبني (١٩٧٥) ومير (١٩٦٧) من فحصهما للمصادر البرتغالية التي تتناول ساحل غينيا (من غامبيا الى ليبيريا)، وجود الامتداد المتصل وبخاصة في ثقافة سكان هذا الساحل والى حد ما في لغتهم، حتى غزاهم الناطقون بلغة الماندى مما أدى الى نشأة جيوب لغوية تفصل بين مجموعات معينة من سكان غرب الأطلسي عن غيرهم.

لذلك يبدو معقولا أن نخمن أن وضع المنعزلات اللغوية الحالية قد تكون نتيجة لعوامل العزلة التي سبق أن أشرنا إليها، وهي أن البيئة الطبيعية ما زالت قائمة كسبب للعزلة، ووقتها التقسيمات الضعيفة التي حدثت من قبل. وبالإضافة الى ذلك علينا أن نأخذ في اعتبارنا الخلفية التاريخية لغارات تجار الرقيق التي أعقبتها الغزو الاستعماري، وهي تمثل أربعة قرون من العنف وإبادة السكان والجمود الاقتصادي والثقافي. في هذا المضمون الاجتماعي ومع، تصبح العزلة اللغوية رصيدا قيما للصراع من أجل البقاء. فعلى مجتمع كل قرية مستقلة بذاتها أن يدافع عن نفسه ويتحدى الغازي بصورة متجددة، وهي استراتيجية أثبتت فاعليتها العظيمة ضد قوات الغزو الاستعماري كما يتبين من حقيقة أن القوات الفرنسية استغرقت خمسة وسبعين عاما لاختضاع شعب كازامانس لسيطرتها (راوش ١٩٧٦).

وقد توصف الاستراتيجيات اللغوية من هذا النوع على النحو التالي : تخدم اللهجات الثانوية المختلفة كوهية تميز بين قرية وأخرى، وفي حالة نشأة العداوات قد تكون بمثابة عنصر مميز للعدو من الصديق، لذلك فهي تلقى التشجيع والمبالغة في التمسك بها، ومع مضي زمن قصير تنتشأ الحواجز ويقل التقاهم المتبادل. وهذه هي بعينها الحالة القائمة في الوضع الاجتماعي الذي تنسب فيه المبادرات الى الجماعة ومغليها لا للفرد، وهناك أمثلة عديدة للمجتمعات في قرى متجاورة يتخاطبون عن طريق المترجمين رغم أنهم يبدو أن أمام الخارجيين متضاهين للغاية.

ومع ذلك فإن كل الجماعات التي تتحدث لغات عرقية تعيش متجاورة من المجتمعات الصغيرة الحجم. فسواء كانت الجماعات اللغوية العرقية منعزلة أو غير منعزلة فإن لمعظمها «وطن» أو منطقة مركزية يتحدث غالبية سكانها لغتهم، وتظل نسبة كبيرة من هؤلاء السكان طوال حياتهم يتحدثون لغة واحدة. حينما كانت تلك المجتمعات مستقلة ولديها اكتفاء ذاتي لم تكن لديها أى مشكلة، ولم تظهر المشاكل إلا مع مجيء الإدارة الاستعمارية التي حاولت تجميع وحدات لغوية عرقية صغيرة وكبيرة بعضها مع البعض. ونظرا لأن الدول الإفريقية الحديثة ورثت مناطق الاستعمار السابقة فإن المشاكل التي نشأت من «التعدد اللغوي الأفقي» واحدة وتجعل هذه الدول تركز في اهتمامها على تخطيط بنية تحتية تنبئ على نموذج مركزي لتناول مسألة الاختلافات الثقافية اللغوية. ولما كانت الأولوية بعد الاستقلال للتنمية الاقتصادية المرتبطة بنقل التكنولوجيا والعلم من الغرب، فقد بدا لهم أن البديل واضح في أول الأمر، وهو اللغة الأوربية لأن محور الأمية في اللغة الأوربية قد يخدم تلك الأهداف، ورغم أن الأولويات الآن ما زالت هي هي، فإن الحاجة إلى أصالة أعظم تطرح أمامنا تساؤلات جديدة، وتضطر صناعات القرار إلى البحث عن بدائل جديدة. فهل تختار واحدة من اللغات الوطنية فقط أم عددا منها؟ وماذا عن المجتمعات اللغوية الصغيرة؟ هل سيصيبهم الضرر نتيجة تقوية لغات إفريقية أخرى أم أن الاحتفاظ باللغة الأوربية سوف يضمن توفير فرص متكافئة للجميع؟

التعدد اللغوي الأفقي في المضمون الجديد :

نناقش هذه الأسئلة وغيرها غالبا من فراغ، وخاصة أن الوضع بالنسبة للقرى الصغيرة خاصة قد تغير تغيرا صارخا. لم تعد العزلة قيمة من قيم الحياة والبقاء. بل على العكس أصبحت عقبة تعوق التقدم الاجتماعي والاقتصادي، وفي الوقت نفسه أمكن التغلب جزئيا على العزلة الطبيعية بإقامة الكبارى وأنشاء الطرق والممرات العلوية وبالراديو والتليفون. ويرسل التلاميذ للدراسة في مدارس القرى المجاورة والمدن الريفية، في حين يترك الشباب المتعطل قراهم إلى المراكز الحضرية لكسب العيش. ولم يصبح المجتمع الريفي في صورة وحدة متماسكة مستقلة بل أصبح جزءا متكاملًا من المركز أو المحافظة أو الوطن، وأخذ الاقتصاد النقدي يحل تدريجيا محل مرحلة الاقتصاد المعتمد على الكفاية الذاتية، وأصبح مرتبطا بالعالم الخارجى. وضعف التمايز الثقافي الاجتماعي الريف نتيجة لتدفق المعايير الجديدة وانتشار القيم الحديثة. ولئن قيل إن اللغة هي أكثر أشكال السلوك الاجتماعي محافظة ؛ فما هي فرص بقاء لغات يقتصر استخدامها كلفة خطاب على قرى

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوي

قليلة ويقتصر استخدامها على المسنين، في حين يلقى ابنائهم واحفادهم عادات القرية وبلغتها من أجل البقاء في تيه المناطق الحضرية. ويختلطون غالباً بالتزاوج في تلك المناطق الحضرية، ويكتسبون أسلوباً جديداً للحياة ؟ اذا اعتبرنا أن أى حضارة من الحضارات العظمى لا ترجع الى أصل واحد متجانس، وأنها قد اكتسبت الثراء من القيم الثقافية لحضارات أخرى، فإن المجتمعات التي بادت واللغات التي اختلفت تعتبر بذلك خسارة كبيرة نأسف عليها. فقد يرى التحول اللغوي كشئ أشبه ما يكون بالانتحار الاجتماعي الثقافي، لكنه في الحقيقة أنسب استراتيجية للبقاء يمكن أن تتبعها مجموعة من الأقليات في العالم المتغير، لأن البديل الآخر وهو التمسك باللغة معناه مقاومة التغير الاجتماعي والجمود أو نوعية من البقاء أشبه ما يكون بالبقاء في المتحف.

يبدو الوضع مختلفاً تماماً في حالة المجموعات اللغوية العرقية الأخرى، فانها تمثل نسباً كبيرة من السكان في الوطن وتحتل قطاعات كبيرة نسبياً من الأراضي، وخاصة اذا كانت هذه القطاعات من مناطق ذات أهمية من الناحية الاقتصادية، فيصبح لدينا وضع انفصالي سرعان ما بلغت علماء السياسة الأنظار اليه. فمع أن صراع بيافرا الذي قام خلال العقد السابع في نيجيريا - وكان نتيجة لأسباب متعددة - ربما يكون مثلاً صارخاً فقد كان الحل الوحيد الذي انتهى اليه هذا الصراع هو إقامة نظام اتحادى يتكون من ١٢ ولاية عام ١٩٦٨ (أصبحت الآن ١٩ ولاية)، وكان اساس تقسيم الأقاليم تقسيماً عرقياً لغوياً. كان هذا بمثابة طريقة من طرق حل المشكلة. وفي دول أخرى من غرب إفريقيا نجد أن الوحدات أصغر من ذلك بكثير، ولكن أفضل بديل هو ايجاد شكل من أشكال اللامركزية لتون تعويق لتطور الوحدة الوطنية. فلا بد أن يضع صنّاع القرار اللغوي في أذهانهم أن هناك ملاحظة عامة هي أن السلوك البشرى لتحديد هوية الفرد لكى يسير في طريق التقدم مع المجتمع كان دائماً في اطار دوائر متوسعة بدءاً من أصغر وحدة اجتماعية وهي الأسرة ثم الى العشيرة، فالقرية فالمدينة فالمقاطعة أو المجموعة العرقية اللغوية، ثم أخيراً الأمة، وقد نأمل أن تتجاوز ذلك.

فبالنسبة للبعض يعتبر الانتماء للأمة أمراً بعيداً المنال أو مفهوماً غامضاً، ولا يقتصر الأمر على إفريقية وحدها أن يعتبر الفرد نفسه أولاً منتبياً الى قبيلة السيريرو أو الى جماعة الكازامانس أولاً ثم الى السنغال ثانياً، بل هناك الكثير من الألمان يعتبرون أنفسهم أولاً بالهاريين أو بروسين ثم ثانياً الماناً. فان تواجد مجموعات لغوية متميزة في اطار سياسى أوسع ليس بالشيء الجديد، ويشعر الناس عادة في مثل تلك الوحدات السياسية أن اللغة

القومية السائدة نوع من الفرض الصناعي من جانب قطاع من قطاعات السكان في فترة معينة من الزمن.

ب - التعايش مع وجود احتكاك محدد اجتماعيا :

يتميز هذا النوع من الاحتكاك بارتباطه بظواهر التواجد الرأسي بمعنى أن كل جماعة من الجماعات العرقية المتميزة بلفتها لا تعيش في منطقة جغرافية منفصلة، بل تشترك جماعتان أو أكثر من تلك الجماعات في المنطقة الجغرافية الواحدة ويحدث بينها تفاعل بطريقة محددة اجتماعيا تحديداً دقيقاً. وتحليل هذه النوعية من الأوضاع الاجتماعية القوية نستطيع أيضاً أن نميز وجود عوامل بيئية وعوامل اجتماعية ثقافية. فالبيئة الطبيعية التي تيسر الاحتكاك والتي سبق أن أشرنا إلى أنها من عوامل العزلة تختفي في هذه الحالة حيث لا توجد حواجز طبيعية تحول دون روح المغامرة في الانسجام. وكلما كانت أحوال البيئة أنسب كان التنافس بين الجماعات المختلفة أقوى لدرجة أن يصبح على المستوطنين الأصليين أن يدافعوا عن أقليمهم ضد الغزاة. ويصرف النظر عن تغفل الغزاة أو تراجع السكان الأصليين، فإن الحل هو غالباً أن تقيم الجماعتان نمطاً قوياً أو ضعيفاً من التعايش السلمي. ومن بين أشكال التعايش ما يؤدي إلى اندماج نهائى سوف تناقشه في النوع الثالث من التعايش. وأما الشكل الآخر فإنه ينتج عن قيام نمط من أنماط تقسيم العمل. فهذا النمط يسمح بتعايش مجموعتين لفويتين مختلفتين (ربما يكون هذا الاختلاف أيضاً اختلافاً في السلالة) أحدهما مع الأخرى في انسجام مع احتفاظ كل منهما بهويته ومميزاتها الخاصة. على ذلك يمكن أن تتعايش جماعة زراعية مع جماعة من البدو المتنقلين أو التجار أو الحرفيين أو المزارعين. وفي كل حالة من هذه الحالات تكون أنشطة إحدى الجماعات مكمل للآخرى وليست منافسة لها. وتكون الاستراتيجية القوية المرتبطة بالتقسيم الاجتماعي للعمل هي القيام بأدوار متوازنة مع التوزيع اللغوي، مثال ذلك سيادة اللغة س في القطاع الزراعي في حين تكون اللغة ص هي لغة التجارة ؛ ونظراً لأن الجماعتين تتفاعلن أحدهما مع الأخرى في أداء أعمالهما اليومية يصبح على الأفراد أن يكونوا ثنائيي اللغة أو يتعلمون اللغتين، وتصبح ثنائية اللغة أو التعدد اللغوي هي الصفة المميزة لسلوك اللغوي اليومي لجماعة صغيرة أو كبيرة من مجموع السكان كهم.

التعدد اللغوي الرأسي في غرب إفريقيا :

يقدم لنا تاريخ مجتمعات غرب افريقية التي تعيش في الداخل في نطاق الساحل

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوي

(أى ساحل الصحراء) والسفانا أمثلة عديدة لهذا النوع من الاحتكاك. ذلك أن صفة عدم انتشار المطر السنوى التى تميز هذه المنطقة، فضلا عن النمو السكاني قد اضطرت السكان فى كثير من الأحيان الى البحث عن ظروف معيشية أفضل. ولقد أصبحت الأنهار الثلاثة الرئيسية وهى النيجر ونجامبيا والسفانا هى محط انتظار الموجات الجديدة من الغزاة، وتؤكد المخلفات الأثرية ما جاء فى الآثار المروية أحيانا عن التعدد العرقى لسكان هذه المناطق. وبذلك استنتج كل من المؤرخين وعلماء الآثار المروية منذ زمن بعيد أن أصل سكان الدلتا الداخلية لنهر النيجر كانوا من الصيادين البورو (ديلاوس ١٩١٢) الذين أصبحوا فيما بعد ملحي قوارب استخدمهم السوننكى فى تجارتهم بنهر النيجر ثم استخدمهم بعد ذلك التجار الماندينج والحكام الصنفائى. ويؤكد ذلك اكتشاف موقع أثري قديم عام ١٩٧٧ أطلق عليه اسم زويرو أو جينى جينو (أى مدينة جنى القديمة)، يرجع تاريخه الى عام ٩٠٠ ميلادية، ويدل على وجود سبيح طرق تجارية قديمة (ماك ايتوش، ١٩٨١). المثل يقال عن سكان وادى غامبيا الذين ما زالوا يكسون وجود موجات متعددة وأنواع من الغزاة حيث يعيش الزراع الأصليون من جماعات تيندا فى اتصال وثيق وجنبا الى جنب مع الفولاني الرعاة والماندينج التجار والمستوطنين فى المنطقة. أما وادى السفانا الأدنى الذى كان أصلا موطنًا لعدد من العشائر المتقاربة الأصل (من الوولوف والسيرير والتوكور) فقد تعرض ستة ١٠٠٠ ميلادية لغزاة من البربر، ونتيجة لقلّة الأرض والتغير الاجتماعى الذى أصبح تغيرا سريعا بسبب اعتناق الاسلام أتت سلسلة من الهجرات مؤكدة التمايز اللغوى العرقى بين بقايا التوكور والسيرير والوولوف والفولانى، وقوى هذا بالتالى بتأثير الظروف البيئية الجديدة فى المناطق التى اختارت كل جماعة احتلالها، وتأثير مواقف الاحتكاك المختلفة التى واجهتها كل جماعة. وبعد قرون من تغير السكان وتقلّلتهم، وتجديد الاحتكاك بين تلك الجماعات اللغوية المذكورة أصبح تمايزهم يعتمد على كل من الأساس اللغوى والتخصص المهنى السابق. فأصبح التوكور الذين يتقاعرون يماضيهم الاسلامى دعاة الاسلام فى مناطق السنغيبيا، وتخصص الوولوف لدى قرون عديدة فى شؤون الحرب والتجارة، الأمر الذى جعلهم متلائمين مع الظروف الجديدة التى تربت على الاستعمار والاستقلال. أما تمل البور والفولانى فما زالوا يمارسون حياتهم الرعوية ويتعاشون غالبا فى القرى مع السيرير والوولوف أو الجولا (أشير الى ذلك فى كتاب منصور، ١٩٨٠).

انتشار لغات التخاطب العامة

يؤدى التعدد اللغوى الرأسى أو نور توزيع اللغات الذى يحدده التقسيم الاجتماعى

الى تفصيل انتشار لغة تسود كلفة تخاطب عامة. وكلمة تسود فى هذا المضمون قد تعنى أن مجموعة لغوية غازية تفرض لغتها على السكان المهزومين أو أن نوعا معينا من النشاط الاقتصادي أنخلته جماعة لغوية متميزة قد أصبح مفضلا بتأثير الظروف السائدة. ولقد قامت فى غرب إفريقيا أنماط من السيادة من خلال الممالك والامبراطوريات والتجارة التى أقامها شعب الماندينج فى العصور الوسطى، حيث امتد نفوذهم من الصحراء الى اطراف الغابات فى ساحل العاج وغيينيا ومن ساحل المحيط الأطلسى الى منحنى النيجر. وانتهى الأمر بهؤلاء الغزاة العسكريين الى الاستقرار كطبقة حاكمة وفرضوا فى كثير من الحالات الماندينكا كلفة للإدارة فى المناطق التى ضموها لنفوذهم، فى حين أقام التجار الذين اتجهوا الى بعيد مستوطنات على طول امتداد طرقهم التجارية فأدخلوا بذلك تنظيمات الماندينج الاجتماعية ومبادئهم ولغتهم. ونتيجة لذلك فبالإضافة الى البلاد التى تعتبر فيها لغة بامبارا الماندينج هى لغة الأغلبية (وهى مالى وغامبيا) فإن لهجات الماندينج (المالينكا والماندينجو والديولا) ما زالت تسود فى مجال التجارة الداخلية وبخاصة فى ساحل العاج وأعالى الفولتا (بوركينافاسو الآن) وغيينيا وبعض أجزاء سيراليون والسنگال، وهى تقوى فى بعض الظروف وطيفة لغة التخاطب العامة الاقليمية أو القومية.

حتى فى حالات طول أنماط جديدة محل الأنماط السائدة قديما فإن الأمر يتطلب مراعاة الحاجة الى بقائها خاصة فى مضمون يكون فيه الصراع بين الحداثة والمحافظة قد تفاقم بسبب فشل المحدثين فى التغلب على المشكلات الاقتصادية الاجتماعية. مثال ذلك الوولوف فى السنغال، فقد كانت لغتهم تنتشر خلال فترة الاستعمار كلفة تخاطب عامة كنتيجة مباشرة للنور الذى كان يقوم به الوولوف كوسطاء فى التجارة الاستعمارية، وجهودهم الطليعية فى زراعة وتسويق الفول السودانى، وهو غلة التصدير الجديدة. رغم ارتباط الوولوف الوثيق مع حركة التوطن الحضري والتحديث، فإن انتشار هذه اللغة أو بالأحرى تقويتها رسميا، قد لقي مقاومة من جانب الناطقين بلغة الفولانى وهى ثانية المجموعات السكانية حجما فى السنغال. وواحدة من الجماعات التى تزعم لنفسها مجدا أقدم وأعظم فى البلاد. ومن جهة أخرى يكون الوولوف والناطقون بلغة الفولانى فى موريتانيا أقلية ذات توجيه حديث يقاوم الأنماط القديمة ذات السيطرة القوية المفروضة من جانب المور وما يقومون به حديثا من برنامج للتعريب.

علمنا فى تاريخ أوربا اللغوى أن الأقليات اللغوية التى قد تختفى لمدى قرون عديدة ربما تظهر على السطح من جديد كاستجابة لتغير اقتصادى اجتماعى، وعادة يكون ذلك

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوى

نتيجة لاجراءات مشددة من جانب حكومة مركزية صارمة. فقد عاد الياسك الى الظهور غالبا فى ظل معاناتهم من نظام فرانكو، وهم يطالبون الآن بحكم ذاتى كامل، فى حين أن الاستقلال الاقتصادى لكل من ويلز واسكتلندا ما زال يفتقد الحركات الانفصالية. لهذه الأسباب فإن على صناع القرار الافريقيين أن يحنوا منحلا الى التحليل المادى للأحداث الاجتماعية التاريخية المتعددة التى شكلت أوضاع الاحتكاك الاجتماعى اللغوى الحالية فى أقطارهم.

ولقد أعطينا حتى الآن نوعا من أنواع التعدد اللغوى فى الاقطار الافريقية ينتمى كذلك الى هذه الفئة، وبخاصة تعايش اللغة الأجنبية مع اللغات الافريقية. يرجع جذور الاحتكاك القائم فى هذا الموقف الى الغزو الاستعمارى وهو غزو يختلف تماما عن أى موجة غزو إفريقية داخلية سبقت الإشارة إليها. فالسيطرة الاستعمارية كانت كاملة شملت المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الثقافية، وانتهت غالبا الى تهتك كامل فى التركيب الاقتصادى الاجتماعى للمجتمعات الافريقية. إذ أن التعبير عن النتائج الاجتماعية واللغوية لمثل هذا الوضع يظهر أولا فى صورة لغوية مثل الحط من قيمة اللغات والثقافات الافريقية، وتحول التوجيه الاجتماعى النفسى بعيدا عن الأصل الجماعى نحو الجماعة ذات المكانة. ونظرا لأن الهضم الكامل غير ممكن نتيجة لعدة أسباب فإن النتيجة تكون ادراكا تغلب فيه الفردية فى تحديد الذات، وتطور طبقة الصقوة المنعزلة عن كل من صفوفها الخاصة والجماعة التى تود أن تقلدها. والنتيجة الاجتماعية اللغوية الأخرى هى تركيب اللغات الانجليزية والفرنسية والبرتغالية فوق نمط قائم بالفعل من التعددية اللغوية المستخدمة، حيث يكون للغة الأجنبية وظائف معينة، تسود فى كل مجالات السلوك الاجتماعى المتصلة بالحكومة والادارة والقطاع الاقتصادى الحديث والتعليم ووسائل الاتصال.

الطبقة اللغوية Diglossia

يشبه الوضع اللغوى الذى وصفناه أخيرا بوضع الطبقة اللغوية التى يصلها فرجيسون (١٩٦٤) بأنه بالتحديد تعايش شكل من أشكال الكلام (الرفع المستوى) مع شكل أدنى مرتبة من الكلام، مثل العربية الفصحى (الرفيعة المستوى) مع العامية (المنخفضة المستوى)، واللغة الألمانية الأصلية (الرفيعة المستوى) مع الألمانية السويسرية (المنخفضة المستوى). بيد أن غالبية السكان فى أمثلة الطبقة اللغوية أو التعددية اللغوية، كما وصفه فرجيسون وغيره، يستخدمون كلا الشكلين من لغة الكلام اعتمادا على مناسبة كل منهما

لوضوع الحديث أو نوعية الاحتكاك الاجتماعى ويقتصر استخدام الشكل الرفيع المستوى من اللغة فى المضمون الإفريقى على الذين يتمتعون بنصيب متناسب من التعليم بهذه اللغة، وهو ما لا يزيد من ١٠٪ من السكان فى بعض الأقطار، إذن فتمت استخدام اللغوى بالنسبة لهذه الأقلية ينتمى الى هذه الطبقة اللغوية أو التعددية اللغوية، ففى المواقف الرسمية أو عند مناقشة موضوعات يبدو فيها افتقار اللغات المحلية الى المصطلحات أو التعبيرات المناسبة يسود استخدام اللغة الأجنبية، أما فى المواقف الحميمة مع أفراد الجماعة (مثل مجال الأسرة، وبين الأصقاء، والأمور الدينية ومجتمعات القرية، وغيرها) فإن اللغة الأم تصبح لغة الخطاب، وغالبا ما تستخدم لغة ثالثة أو لغة محايدة هى لغة خطاب إفريقية سائدة مع أفراد المجموعات الاجتماعية اللغوية الأخرى، وبخاصة حينما يريد المتحدثون تأكيد روح التضامن الإفريقى. وغالبا يوجد زعم بأن اللغات الأوروبية ذات أهمية أيضا كوسيلة للاتصال بين الجماعات المختلفة ولكن الحقائق الحديثة لا تؤيد هذا الزعم.

على ذلك يظهر الاستعمال اللغوى فى المجتمعات المتعددة اللغات كقاعدة تحكم السلوك، ويظهر التعدد اللغوى على خلاف التوقعات أمرا لا يعوق الاتصالات، بيد أن لوضع التعدد اللغوى كما وصفناه سابقا نتائج خطيرة بالنسبة للغات التى تدخل فى هذا الترتيب الطبقي. وما دامت اللغة الأجنبية تسود فى قطاع الطبقات الرفيعة، فإن اللغات الإفريقية الأخرى بصرف النظر عن مدى انتشار استخدامها، لا تستطيع أن تطور أشكالا رفيعة من الخطاب أو الحديث. وعلى العكس فإن الهيكل الطبقي للغات يميل الى الجمود والحفاظ على الوضع القائم. ويعتبر استخدام اللغات الإفريقية فى التعليم مجرد خطوة أولى فى التقدم نحو استعادة الكيان والتطوير اللغوى.

جـ - التعاضد مع الامتزاج الثقافى

حينما يحدث اتصال وثيق بين مجموعتين لغويتين ويستمر هذا الاتصال لمدى زمنى طويل قد ينشأ نوع من الامتزاج الثقافى، أو بمعنى آخر سوف تؤثر فئتان من القيم الثقافية الاجتماعية كل منهما فى الأخرى، وربما تنشأ فى النهاية فئة مشتركة من القيم. ويتضمن الامتزاج الثقافى الكامل أمورا قبل ازالة الفوارق اللغوية، وإن كانت هناك طرق متعددة يتحقق بها ذلك. وبالطبع يعتمد المضمون الحقيقى لعملية الامتزاج الثقافى وتأثيره على مجتمعات معينة على الطريقة التى يتحقق بها ذلك :

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوى

التحول اللغوى

فى حالة وجود اتصال وثيق بين مجموعتين أو أكثر من الجماعات اللغوية، ويكون لها ماضى مشترك والعديد من المعالم الاجتماعية الثقافية المتشابهة، ولو توافر فى هذه الحالة الجو السياسى الصحيح فقد ينشأ التحول اللغوى. وفى مثل هذا الوضع تميل العوامل الموحدة اقتصاديا وسياسيا الى أن تزيل الاختلافات التى يستتبقها السلوك اللغوى والعادات المحلية، وسوف يكون هناك استعدادا لقبول لغة قومية موحدة. ولعل وجود لغة لها كيائها وحيادها الجغرافى يؤدى بالتالى الى تحول فعلي فى اللهجات مع تقليل الاختلافات اللغوية. فمن عبارة مختصرة كهذه يبدو أن الأمر يسير و مباشر، بيد أن هذه العملية قد استغرقت خمسمائة عام فى بعض الدول القومية فى أوروبا، ففى فرنسا بدأت الخطوة الأولى نحو التوحيد اللغوى فى عام ١٥٣٩ بمرسوم ملكى ينص على استخدام الفرنسية كلفة المحاكمات القانونية ومنع استخدام اللغات الأخرى، وفى إنجلترا استخدم البرلمان انجليزية لندن منذ عام ١٣٦٢، واستخدمتها المحكمة ابتداء من عام ١٤١٣. وأدى استخدام كتابة براخ الألمانية فى ترجمة لوثر للكتاب المقدس عام ١٥٢١ الى تطوير اللغة الموحدة (يواف)، (١٩٧١) ومع ذلك فقد استمرت الاختلافات اللغوية قائمة فى تلك البلاد.

الامتزاج الثقافى وتحول اللغة :

اتخذ مضمون الامتزاج الثقافى فى غرب إفريقيا شكل التحول اللغوى، وقد سبق أن ذكرنا فى النوع الثانى من مواقف الاحتكاك موقف الاحتكاك الناتج عن الغزو والاتجار على مسافات بعيدة فى العصور الوسطى. ففى مثل تلك الحالات ينتج موقف من السيادة يؤدى الى ثبات وضع الثنائية اللغوية، وفى أحيان أخرى كانت الثنائية اللغوية مرحلة انتقالية أدت الى الهضم والتحول اللغوى عند الجماعات الخاضعة للغزو. وتقدم لنا السجلات التاريخية والآثار المروية ودراسة الأعلام الجغرافية وأسماء القبائل والعشائر دليلا على المجموعات اللغوية الثقافية التى اختفت تماما أو تعتبر من الأقليات العالية المتضاكلة. لمعظم الأقليات التى تعيش فى المناطق الخلفية من غامبيا وكازامانس وكاتشو حتى فوتاجالون فى غينيا (بخاصة جماعات تيندا وبونان) قد تم امتصاصها أو اندماجها الكامل فى واحد من المجتمعين السائدين الأكثر والأرقى تنظيما وهما الماندينج والفولانى، أو أنها دخلت ضمن مجتمعات البوزو الأفريقية فى منطقة زيجوينشور فى بيساو وكاتشور. هذا وتعلم بعض المجموعات الثقافية اللغوية الأخرى مثل الوواف فى السنغال أنها تتكون من

أصول مخططة وأن نظام الزواج الداخلي فيها ربما كان من بقايا قسم من أقسام الجماعات الثقافية اللغوية السابقة (١).

يبدو أن الأمم من هذه الأمثلة للتحويل اللغوي فيما قبل الاستعمار ما يتصل بتطور المراكز الحضرية في غرب إفريقيا. يوجد في كل المدن الساحلية وكذلك في عواصم الجزر والمدن التي نشأت في الريف تركيب سكاني شديد التنوع. ونشأت في كل من تلك المراكز لغة تخاطب عامة استجابة لوضع الاحتكاك. وفي معظم الحالات كان اختيار لغة التخاطب الحضرية العامة يتم بمعرفه السكان الاصليين أو سكان المناطق المجاورة مباشرة. وعلى ذلك أصبحت اللووف هي لغة التخاطب العامة في داكار في حين كانت السوسو هي لغة التخاطب في كوناكري ولغة جا في أكرا، ولغة البامبارا في باماكو. لكن إلى أي مدى يصل تأثير لغة التخاطب الحضرية العامة وإلى أي حد يؤدي إلى التحويل اللغوي ؟ فإن هذا أمر يخضع لعوامل أخرى. قام ونيلاند (١٩٦٥) ببحث قوة هضم اللووف في داكار وعدد من مدن السنغال الأخرى فوجد أن الإقامة الدائمة في المدينة هي التي تؤدي إلى العادة إلى التحويل اللغوي لدى الجيل التالي، وهي عملية تساعد على سرعة وقوعها الاختلاط بالزواج بين السلالات. ولم يقتصر أمر سيادة لغة اللووف على البيوت التي تضم زوجين أحدهما من اللووف والآخر من غير اللووف، بل شمل أيضا البيوت التي تضم زوجين من غير اللووف رغم اختلاف الأصل العرقي. وهناك دراسات مماثلة تجرى في مدن أخرى في غرب إفريقيا، إلا أن الوضع ليس دوما من السهولة بكان، ففي أكرا ترجع سيادة لغة جا إلى أسباب جغرافية بحتة، ويؤدي تدفق المهاجرين من مدن غانية أخرى تسودها لغة تويي كلفة تخاطب عامة ورئيسية إلى خلق حالة من التضاد، والمثل يقال عن فريتاون فإن لغة التخاطب العامة فيها وهي الكريول بدأت تتفصل تدريجيا مع زيادة عدد المتحدثين بلغة التيميني ولغة الماندي الذين أصبحوا الآن يكوّنون نحو ٦٠٪ من سكان المدينة (تايوريت كيلر، ١٩٧١).

يحتاج الامتزاج الثقافي بالتحويل اللغوي إلى أحوال اقتصادية وسياسية اجتماعية معينة. ومن أهم دوافع التحويل اللغوي الفوائد الاجتماعية الاقتصادية، ولكن اتجاهات الاصرار والتأبيلية لدى المجموعات الثقافية اللغوية الهاضمة تزيد من احتمالات التحويل اللغوي حين تؤدي الاتجاهات التعمصية والتباعد من الأجانب إلى طرد الراغبين. وبالإضافة

(١) راجع باري Barry (١٩٧٢) حول القواعد الخاصة بتنظيم القرابة عند الوالي حيث كان الملك ينتخب من بين الورثة الذكور من أفراد الأسرة الحاكمة اللووف على أن تكون أمة بالضرورة من نسب إحدى الأسر الحاكمة من السيوري أو الفولاني أو البيريور.

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوي

الى ذلك فان العلاقات اللغوية الوثيقة والتقارب الاجتماعي الثقافي وعلاقات الصداقة التقليدية بين الجماعات كلها أمور تسهل الامتزاج الثقافي والتحول اللغوي، في حين تؤدي العدولوات القديمة والاختلافات الدينية الثقافية الى مزيد من الصعوبات. فالمعروف في السفنغال مثلا أن المسلمين من السيرير كانوا أكثر استعدادا للتحويل الى لغة الوولوف في حين كانت مقاومة الهضم كما قيل أكثر ظهورا في أوساط السيرير المسيحيين والجرولا. وطبقا لما ذكره لوين (١٩٦٨) هناك عوامل أخرى تؤثر في التحول اللغوي هي «الحبيوة الثقافية في مقابل الكومن الثقافي» ومساءلة «التوجيه الجماعي في مقابل التوجيه الفردي في تحديد الذات».

لفي كلتا الحالتين نجد أن الوضع الأخير هو الذي ينتهي الى التحول اللغوي في حين يرتبط الوضع الأول بالتمسك باللفة. ومن الأمثلة الطريفة لوضع التقابل الأول الوضع الاجتماعي اللغوي في المناطق الساحلية من غينيا حيث نجد أن السوسو الأكثر حيوية وأكثر قدرة على التلازم من الناحية الثقافية الاجتماعية، يهضمون الآن جماعات بيجبا وتالو ولائسومان (هويس، ١٩٦٣). وليس من شك في أن مساءلة التوجيه الجماعي في مقابل التوجيه الفردي تمثل ظاهرة عامة في الأزمنة الحديثة حيث يتضايف التوطن الحضري مع التعليم وازدياد التحركات السكانية على التقليل من مقدار تأثير الأسرة والعشيرة، أما بالنسبة لكون الانتماء اللغوي نابعا من مجموعة أولية فان مثل هذه المزامم يميل الى أن يلغى لاعتبارات تتعلق بالفوائد الاقتصادية الاجتماعية والآمال الفردية.

نمذجة لغات الكريول :

من الأشكال الأخرى للامتزاج الثقافي ما ينجم من اندماج لغتين مختلفتين مختلفا كبيرا فتنشأ أولا لغة الرطانة أو البيديجين ثم الكريول. وعلى حسب تعريف بينامسولا (١٩٨١) «تعتبر البيديجين لغة احتكاك محلية يرجع أصلها الى احتكاك بين لغتين لا تنتمي لإحدهما للأخرى، وتكونان عادة لغة أوروبية وأخرى غير أوروبية، والاحتكاك وهذه /.../ صيغة من الصيغ المبسطة لأحدى اللغات الأوروبية في العادة والتي تعدلت في اتجاه الأخرى» (ص ١٠٠). نشأت هذه اللغات ذات الوظائف المحددة (استخدامها أساسا في البيع والشراء) بجوار المراكز أو المحطات التجارية التي نشأت على سواحل المحيط الأطلسي والهادي والهندي وعلى الجزر، وخصرها الأوربي الرئيسي هو أحد اللغات البرتغالية أو الانجليزية أو الفرنسية، وفي بعض الأحيان كانت تتخذ من الثلاثة. أما لغات الكريول فقد نشأت فيما بعد

حينما التقى أبناء شعوب متعددة من غير الأوربيين معن يتمون الى خلفيات ثقافية لغوية متعددة، وعاشوا كمستوطنين معا، وتكون منهم الوسطاء في المراكز أو المحطات التجارية وأصبح لهم معاملات مع التجار الأوربيين وأخرى فيما بينهم، فادى الاختلاط بالتزاوج بين السلالات والمجموعات الثقافية المختلفة الى تكوين مجتمع يتحدث الرطانة أو البيجين، وتنشأت أجيال جديدة تتكلم اللغة المهجنة كما لو كانت لغة الأم، وبذلك توسعت وثاقفها وتطورت مفرداتها ومعالها اللغوية الجديدة لكي تنتقل ألفاظا تعطى المعانى اللازمة لكل جوانب حياة المجتمع.

ولقد كان لساحل غرب إفريقية دور هام في نشأة وتطور الكريول في كل أنحاء العالم. وصل أول تجار أوربيين الى ساحل غرب إفريقية عام ١٤٤٤ وكانوا من البرتغاليين و احتكروا التجارة الساحلية نحو مئة عام (بروكس ١٩٨٠، ريدنى ١٩٦٥). وضمت جزر الرأسى الأخضر الى البرتغال واستوطنها تجار برتغاليون تلقوا في عام ١٤٦٦ مسكا بمنحهم الحقوق الكاملة للتجار في ساحل غرب إفريقية من رأس مونت سيني سالوم. ثم أصبحت جزر الرأسى الأخضر المحطة الرئيسية وسط طريق تجارة الرقيق الاسبانية الى أمريكا الوسطى. بيد أن سكان جزر الرأسى الأخضر أخذوا يتصارعون مع البرتغاليين اللانكادوس، وهم البرتغاليون الذين تصالحو واتلقوا مع الافريقين، أو بمعنى آخر أعلن هؤلاء البرتغاليين خروجهم عن سلطة التاج لسبب مالى، هو عدم استعدادهم لدفع الضرائب، وعاشوا هناك مع الافريقين مثل حياتهم وفي حماية الملوك المحليين. وكانت مستوطناتهم الرئيسية في سيراليون وغينيا بيساو (كاتشيو وبيساو) ومنطقة كازامانس بالسنغال الحديثة (زيجوينشور)، وفي احتكاكهم هذا حدث الامتزاج الثقافى واندماج السلالتين والثقافتين واللغتين حتى إننا أصبحنا نبحث الآن عن أصل كلمة كريولو. وما زالت الكريولو (التي تسمى أيضا الكريول البرتغالية) هي لغة التخاطب في جزر الرأسى الأخضر في غينيا بيساو والسنغال (زيجوينشور وداكار)، وكشفت لنا دراسات أخرى عن لغات الكريول أن هناك بعض الخواص النحوية المعينة المشتركة في مجموعة لغات غرب الأطلسى تظهر في لغات كريول أخرى بعيدة، كما توجد بها بقايا من ألفاظ برتغالية معينة.

يشير هذا الى وجود أصل برتغالى مشترك مع لغات غرب الأطلسى، في حين نجد أن مجموعة المفردات الرئيسية قد استبدلت فيما بعد بكلمات انجليزية وفرنسية.

ولغة الكريول الأخرى الهامة التي بقيت على ساحل غرب إفريقية هي الكريو وهي

إسهامات نظرية علم الاجتماع اللغوي

كريول تعتمد على اللغة الانجليزية ويتكلم بها سكان فريتاون في سيراليون. كانت فريتاون قد أنشئت عام ١٧٩١ كمستوطنة للعبيد المحررين الذين يئخون من التجار في البحر ويحربون بمعرفة دعاة تحرير الرقيق الانجليز. لم تكن لهم لغة مشتركة، ولكن نظرا لأن سيراليون كانت في الأصل أرضا للتجارة البرتغالية فقد كان بها بلا شك مجتمعات تتكلم لغة الكريول. وكانت هذه اللغة مع قليل من الألفاظ الانجليزية التي تعلمها الناس هناك هي في الغالب أصل لغة الكريول. ويكون الناطقون بلغة الكريول اليوم نحو ١.٩٪ من سكان سيراليون، ولكن هناك نحو ٨٥٪ من السكان يتكلمونها كلفة تخاطب عامة.

الخلاصة :

هناك زعم بأن مختلف أنواع الدراسات المسحية للغويات الاجتماعية أو للاجتماع اللغوي لابد أن تقدم لنا أساسا علميا للسياسات اللغوية والتخطيط اللغوي. ويفترض بذلك أن التدخل الحكومي في نمط السلوك الاجتماعي اللغوي للسكان أمر محتم أو مرغوب فيه. وإذا ما صح هذا فإنه لا يعنى مباشرة أن تقوم الحكومات في الدول المتعددة اللغات باختيار لغة قومية واحدة حتى تحقق الشعور بالوحدة الوطنية. فإن مفهوم القومية اللغوية يرتبط ارتباطا وثيقا بالمذاهب الفكرية في مرحلة معينة (القرن التاسع عشر) من مراحل الرأسمالية الأوربية، وهي المرحلة التي حركت الموجات المتتالية من حركات الانفصال وتكونت فيها الكثير من الدول القومية الجديدة مع عدم القضاء حتى على المعاملة غير العادلة للأقليات اللغوية. من الواضح أن الدور الذي تؤديه اللغة في بناء القومية لابد أن يعاد تقويمه في مضمون حياة الدول النامية المتعددة اللغات، وفي كثير من الحالات لابد من إيجاد حل تعددي جديد. ولابد أن يساعد التحليل الموضوعي العلمي للقضايا الاجتماعية اللغوية في نشر المسائل المتعلقة بكل أمور اللغة ونقل مسئولية الصراع كلها الى الميدان الذي يوجد به السياسيون. وكما أن التنظيمات الاجتماعية قد تلاصت في الماضي مع أوضاع التعدد اللغوي باقامة تقسيم العمل بين أهل اللغات المتعايشة بعضها مع بعض كذلك تكون اقامة نظام قابل للتطبيق من الاتصالات الشفاهية، ولابد للحكومات الحديثة أن تكون قادرة على عمل اختيارات عقلانية وشديدة لا تؤدي الى نشأة حالات تمييز جديدة.

وكثيرا ما يزعم أن محاولات استبدال اللغات (الأجنبية) الرسمية المستخدمة الآن بلغة ما (س) يعتبر احلالا للمجموعة الثقافية التي تتكلم هذه اللغة (س) وأن المجموعات الثقافية الأخرى سوف يضارون ويمنعون من الدخول الى السلطة. على صناع السياسة في

مثل هذه المواقف أن يكونوا قادرين على أن يرجعوا الى دراسات الاجتماع اللغوي الوفيده مقدمين أدلتهم من الأنماط الفعلية للاستخدام اللغوي. فإذا ما حدث أن تحولت اللغة المعنية (س) الى لغة تخاطب عامة لها استخدام شفاهي واسع النطاق، فيجب أن يكون واضحاً أن استخالها في التعليم ثم يعد ذلك كلفة رسمية سوف يضيف لها وبليغة الكتابة الرسمية. في حين يترك تطورها الطبيعي نمط استخدامها الشفهي في الاتصال دون مساس. هذا مع العلم بأن التمايز الاجتماعي أو عدم المساواة في العصر الحاضر يرتبط بالفرض التعليمية من حيث نوع التعليم المتاح لكل فئة، مما يشير الى أن التمايز الاجتماعي ليس له أساس لغوي. وليس من شك في أن سكان المدن من هذه الناحية مميزون بسبب وجود فرص تعليمية أفضل في المدينة، ويبدو أن هذا الوضع لن يتغير نتيجة لمختلف السياسات اللغوية.

(جيردا منصور)

استاذة زائرة بجامعة القاهرة

BIBLIOGRAPHY

- BARRY, B., *Le royaume du Waalo*, Paris, Maspero, 1972.
- BROOKS, G. E., *Kola Trade and State-Building: Upper Guinea Coast and Senegambia 15th - 17th centuries*, African Studies Center, Working Papers 38, Boston, Boston University Press, 1980.
- CHOMSKY, N., *Aspects of the Theory of Syntax*, Cambridge, Mass., MIT Press, 1965.
- DALBY, D., *Language Map of Africa*, London, International African Institute, 1978.
- DELAFOSSÉ, M., *Haut-Sénégal-Niger*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1972 (reprint of 1912 edition).
- DONNIX, J. L., "Les liens historiques entre les langues du Sénégal," in *Réalités Africaines et Langue Française*, Dakar, CLAD, 1978.
- FERGUSON, C., "Diglossia", in D. Hymes (ed.), *Language in Culture and Society*, New York, Harper & Row, 1964.
- HAIR, P.E.H., "Ethnolinguistic Continuity on the Guinea Coast," in *Journal of African History*, London, Cambridge University Press, VIII, 2, 1967.
- HOUIS, M., *Étude Descriptive de la langue Susu*, Dakar, IFAN, Mén. 67, 1963.
- HYMES, D., *Foundations in Sociolinguistics: An Ethnographic Approach*, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1974.
- LIEBERSON, S., "Procedures for Improving Sociolinguistic Surveys of Language Maintenance and Language Shift," in *International Journal of the Sociology of Language*, The Hague, Mouton, No. 25, 1980.
- LOEWEN, J. A., "Why Minority Languages Persist or Die," in *Practical Anthropology*, Vol. 5, 2, 1968.
- MANSOUR, G., "The Dynamics of Multilingualism: The Case of Senegal," in *Journal of Multilingual and Multicultural Development*, Bristol, Tieto, vol. 1, 4, 1980.
- MCINTOSH, R. J., AND MCINTOSH S. KEECH, "The Inland Niger Delta before the Empire of Mali: Evidence from Jenne-Jeno," in *Journal of African History*, XXII, 1, 1981.

- PI-SALOSA, F., *Introduction to the Sociology of Language*, Rowley, Mass., Newburg House, 1981.
- QUINN, C., *Mandingo Kingdoms of the Senegambia*, London, Longman, 1972.
- ROCHE, C., *Conquête et résistance des peuples de Casamance*, Dakar, Nouvelles Éditions Africaines, 1976.
- ROBERTS, W., "The Guinea Coast," in R. Gray (ed.) *The Cambridge History of Africa*, Vol. 4 (1600-1790) London, Cambridge University Press, 1975.
- , "Portuguese Attempts at Monopoly on the Upper Guinea Coast, 1580-1650," in *Journal of African History*, VI, 3, 1965.
- SCOTTON, C. M., "Learning Lingua Francas and Socioeconomic Integration: Evidence from Africa," in R. L. Cooper (ed.) *Language Spread*, Bloomington, Indiana University Press, 1982.
- TABOUREL-KILLER, A., "Language Use in Relation to the Growth of Towns in West Africa," in *International Migration Review*, Vol. 5, 2, 1971.
- WOLF, P., *Western Languages AD. 1000-1500*, New York, McGraw Hill, 1971 (translated from French).

التعريف بالكتاب

Thomas V. Gamkrelidze

توماس ف جامكر يلدز

أستاذ اللغويات في جامعة تبليس بالاتحاد السوفيتي. وعضو شرف بإكاديمية العلوم والعديد من الأكاديميات والجمعيات التعليمية، ومؤلف عدد من الكتب والمقالات عن صوتيات اللغات الهندية الأوروبية والتوقازية وعن الأغراض اللغوية ونظرية اللغة.

Viatcheslav V. Ivanov

فياتشيسلاف ف. ايفانوف

أستاذ اللغويات العامة والرموز اللغوية، ورئيس قسم بناء المضمون في اللغات السلافية بمعهد اللغات السلافية والبقائية بالأكاديمية السوفيتية للعلوم. وعضو مراسل في الأكاديمية البريطانية، وعضو شرف بالجمعية الأمريكية للغويات، ومؤلف العديد من الكتب والمقالات عن اللغويات النظرية والأمور اللغوية وتاريخ اللغات الهندية الأوروبية والسامية.

Claude Hagège

كلود هاكيج

ولد في تونس عام ١٩٣٦، كان طالبا بكلية المعلمين العليا، وحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه في الأدب. وهو لغوي درس عدة لغات في بعثات دراسية في كل أنحاء العالم. ومؤلف اثني عشر كتاب عن اللغات. ويتركز عمله وتعليمه على العلاقة بين الميادين الرئيسية في اللغة : الصوتيات والتركييب، والشكل، والمفردات. ومن أحدث مؤلفاته بناء اللغة (باريس ١٩٨٦) والإنسان المتكلم (باريس ١٩٨٧).

Stephen Adolphe wurm

ستيفان أدولف ورم

أستاذ ورئيس قسم اللغويات في معهد الدراسات العليا في جامعة استراليا القومية، ومدير المشروع بالأكاديمية الأسترالية للعلوم الإنسانية، له نحو مئتي بحث منشور عن لغة البايوان والامسترونيزيا واللغات الأسترالية وكثير من الرطانات المحلية المختلفة في هذه المناطق، وفي تصنيف وتوزيع اللغات المستخدمة في المحيط الهادئ والصين ووسط وجنوب شرق آسيا.

Peter Mühlhäusler

بيتر موهلهاوسلر

ولد في ترابيرج في بروسيا عام ١٩٤٧. تلقى دراسته الجامعية في ستينبورخ، وعمل مدرسا في جامعة استراليا القومية. يعمل الآن محاضرا في جامعة أكسفورد وزميلا في كلية لينتاك. تخصص في الاحتكاك اللغوي في منطقة المحيط الهادئ، وله اهتمامات عديدة من عناصر اللغويات النظرية. مؤلف كتاب الرطانة وتبسيط اللغة (١٩٧٤) وبناء ونمو معاجم

وطائنت غينيا الجديدة (١٩٧٩)، ولغويات الرطانة والكريول (١٩٨٦).

Alain Bentolila

ألين بنتوليل

دكتوراه في الأدب، ورئيس قسم دراسات الكريول في مركز الآثار المروية للغات والحضارات. ورئيس الاجتماع الخامس لجامعة باريس، بحثه الرئيسي هو تحليل التركيب والمشكل اللغوي وبخاصة بالنسبة من حيث دراسة تحول اللغات من التقليد الشفاهي إلى الكتابة وأغراض ومضامين التعليم في العالم الثالث. وأحدث مؤلفاته قاموس كريول هاييتي (١٩٧٦) وتحليل كفاءة وصورة المدرسة (تحت الطبع).

Luc Bouquiaux

لوك بوكويو

لغوي ورئيس قسم البحوث بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية، ومدير مركز الآثار المروية للتاريخ والحضارة. وتكوينه الدراسي الكلاسيكي والمشرقي يركز اهتمامه على لغات مضببة آسيا الوسطى، ولغات أويانجويين ولغات البانتو، ويميل كثيرا إلى علم الاجتماع اللغوي الذي يدرس وضع الإنسان من خلال تمييزه اللغوي. وله أيضا مؤلفات عن اللغويات الوصفية منها (القواعد النحوية للغة البيروم، ١٩٧٠، وبحوث وصفية في اللغات الشفاهية ١٩٧٦، وقاموس لغة سانجو، ١٩٧٨)، وخصص عددا من أعماله للآثار المروية في التمييز الأدبي (نصوص من لغة البيروم، ١٩٧٠، قصص من جامعات التولي ١٩٧٦، وألف مثل ومثل من Betrequillis بواها ت. تسالات، ١٩٨٥).

Wilhelm J. G. Möhlig

ويلهلم ج. م. موغليج

ولد في أيسين بلالانيا الغربية عام ١٩٣٤، ودرس في كولون وجنيف. عمل أستاذا في جامعة كولون، وتخصص في لغات البانتو. ويركز في بحثه على اللهجات وعلى الدراسات التاريخية المقارنة والآثار الأدبية المروية.

Gerda Mansour

جيردا منصور

ولدت عام ١٩٣٧، درست في جامعة ماكويري في سيدني بأستراليا وفي جامعة دكا، وهي الآن أستاذة زائرة بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة، مجال بحثها هو علم الاجتماع اللغوي وبخاصة التعدد اللغوي في غرب إفريقيا. نشرت عدة مقالات منها :
كلمات السنغال ودورها في التنمية في مجلة *Réalités africaines et langue française*,
العدد ١٣ سنة ١٩٨٠ من منشورات مركز اللغات الإفريقية بدكا، وكذلك
بنياميكيا التعدد اللغوي : الوضع في السنغال في *Journal of Multilingual and Multicultural Development*,
الجزء الأول، العدد الرابع، ١٩٨٠.

انبثاق العقل من المخ الجذور الاحيائية للدائرة التأويلية

تحتل وظائف المخ عمليات اتفاقية تتم دون قصدية مسبقة، في حين ينشأ النشاط العقلي عن وظائف المخ بوصفه ونحوها من الكم على الطريقة الهيكلية، الكم هنا في حدود ١٢١ من الخلايا العصبية المترابطة بفزارة، «إلى كيف جديد» : أى إلى تلك الظاهرة الجمعية للخبرة الذاتية للمخ، وهذه الخاصية المتعلقة برجوع العقل إلى خبرته وملاحظته لذاته تتيح له إمكانية أن يلاحظ (بصورة استرجاعية) ملاحظاته لذاته؛ أى أن يفسر كل تغير له معنى فيما يتعلق بذاته. ويشمل مفهوم التفسير الذاتى فكرة «الدائرة التأويلية»، أى (تبعاً لنظرية التفسير) فكرة معالجة الكل فى علاقته بأجزائه.

والعمليات المخية لا تصير مفهومة إلا فى سياق الوظيفة الفعلية، فى حين أن السياق العقلي فى مجموعه لا يصير مفهوماً إلا عن طريق العمليات المخية الفردية (التي فى عقلنا). هذه الأفكار تعكس تماثلاً: تلك هى «عقدة» التغذية المرتدة feedback فى نظام التحكم الأوتوماتى (المبيوتراتى) الذى ينظم، ومن ثم يعيد فى عقلنا إيضاح المعانى الكلية بالنسبة لأجزائها.

ترجمة : أحمد رضا

إن لبس النظارات بعدسات منشورية يولد صورة محرفة على شبكة العين. ومع ذلك تختفى هذه الصور بالتدريج حين يكون الشخص حراً في تنقلاته. هذا التصحيح البصري القشري (المتعلق بقشرة الدماغ) للصور المحرفة على الشبكية «تحت القشرية» أو التعديل المضاد - يمثل «الدائرة التأويلية»، أى عملية التحكم الأوتوماتي (السيبرناتى) الذى يعيد - عن طريق التغذية المرتدة من الرأس وحركات الأطراف - التعريف بالإدراك الحسى فى مجموعه اعتباراً من أجزائه المختلفة، كما تتمثل فى التجربة الماضية. والذخيرة (الروتوار) التفسيرية للخبرات الماضية هى شرط لابد منه للفهم المسبق التفسيري (من الألمانية Vor - Verstandnis) الذى يرجع إلى القدرة على إعادة البناء التى تتضمنها مهمة التفسير.

ومن المعروف أنه لا يتيسر قراءة نص (مكتوب) إلا بالرجوع إلى نصوص أخرى سبق قراءتها فيما مضى (القراءة بين النصوص). وبالمثل يمكن القول بأن الإدراكات الحسية تفسر فى ضوء الإدراكات السابقة، وأن الإثارات الحسية يجب مضاهاتها بالتوقعات المبنية على إثارات سابقة، وأن الأحاسيس نفسها لا تغدو مدارك حسية إلا إذا أتاحت الخبرة المكتسبة السلوك المناسب لإغلاق الدائرة الحسية الحركية. هذه الجوانب من الوظيفة العقلية التى لا يمكن تحديد موقع لها إما هى محاولات لوصف العمل الذى يخلق عملية تصور المعانى المجردة conceptualisation (من اللاتينية concapia, capio أى فكرة أو مفهوم؛ بعبارة أخرى، العمل البنيوي الموحد، والتركيب، وإعادة البناء بالاستقراء الذى يضاف معنى على كل الأشياء، أو على الأكل الأشياء ذات الأهمية.

على عتبة الخ والعقل

«هناك شخص ما فى رأسى، ولكنه ليس أنا»

(pink Floyd: Dark Side of the Moon - الجانب المظلم من القمر -)

كلما حاولنا أن ندرك أو نفهم العمل التصوري الإدراكي الذى يؤديه جهازنا العصبي، بعبارة أخرى، كلما ألقى الخ أو العقل نظرة في المرأة التى تمثل أيا منهما، حدث تحول - فالرائى يقدر وأويا ومفسرا. إننا قادرين على أن نلاحظ، ونصف

بوضوح الكيفية التي يطلق بها منه (آت من الخارج) سلسلة من الأحداث المتوقعة، وفى وسعنا أن نعيد بناء سياقها بعبارات فسيولوجية عصبية، ولكن لسوء الحظ فيما لا يتعدى نقطة الاشتباك العصبى الخامسة أو السادسة (هاير Haber، ١٩٧٩، ص ٢٦٣). ويبدو لنا عند هذا أننا وصلنا إلى عتبة المخ والعقل حيث تنطوى المرأة على نفسها، فتنعكس الصورة إلى ما لا نهاية، مما يجبرنا على أن نتحول من لغة تصف بموضوعية وظيفية المخ إلى لغة أخرى تصف وظيفية مخ تنعكس على نفسها، ومن ثم نلجأ إلى عبارات من قبيل «التعرف»، و «التمييز»، و«التجربة»؛ بعبارة أخرى: هى كلمات تتوافق ولغة مفسر داخلى فى وسعه أن يتعرف، ويميز ويفسر، وما إلى ذلك، ويمكنه أن يلاحظ ويسجل الأشياء، وهو مترك لعملية الملاحظة والتسجيل. هذا الراوى المفسر هو فى الحقيقة شخص وموضوع.

ولنا أن نعالج موضوع التحول من الملاحظ إلى الراوى بالتأكيد على وجود خصيصة شائعة فى الأنسجة العصبية، إلا وهى خاصية الدوائر المغلقة ذات الفعل الانعكاسى، المزودة بآليات ذاتية التنظيم، ومعايير اشتغال كامل تنطوى على نزعة قصدية. مثال ذلك، أن بعض نتائج المنطقة القشرية (بالدماغ) الجسدية الحسية هى ألياف عصبية تعدل نشاط مصادر تزويدها بالتنبيه (تاو Towe ١٩٧٣؛ جوردون Gordon ١٩٧٨) إلا يحتمل إذن أن ينشق العقل من ذلهبات المخ الحادثة بسبب زيادة فى تفاعلات أجهزة التغذية المرتدة ذاتية المرجع التى تتفرع إلى شعبتين بعد نقطة تشابهك الخلايا العصبية الخامسة أو السادسة؛ مثل هذا الافتراض يساعد فى تفسير لفر محير مماثل آخر. فقد استخدم Penfield (١٩٦٨) إثارة كهربية فى بعض مناطق المخ، تسبب عنها تحرك يد المريض؛ غير أن المريض لم يشعر بأنه يريد الحركة («أنت الذى حركتها»). ويعلق جلاسمان Glassman على ذلك (١٩٨٣) قائلاً إنه ليس من المستغرب أن نعلم أن فى مقدور المريض أن يتعرف على المصدر الخارجى لحركة سببتها إثارة كهربية للخلايا الهرمية لقشرة المخ الحركية التى ليست سوى شبتين عصبيتين خارج خلايا العصبية العضلية. غير أن هناك مناطق فى المخ بعيدة عن القدرات الحركية، أو الدخلات الحسية حيث تأتى الإثارة الكهربائية بنتائج تبدو أنها تعيق عمل الإدارة المنعكسة (الإستبطان) يبدو إذن أن زيادة عدد الدوائر الشبكية العصبية المثيرة، ونظم التغذية المرتدة الثانوية - فى جهاز عصبى مركزى منظم تنظيماً تدريجياً - هذه الزيادة تتيح تغيير الكم إلى كيف، أى أن الفعل المنعكس يبدو انعكاساً ذاتياً؛ وبذلك ينشق العقل من وظيفية المخ (قيشر،

ترى هل لنا أن نذكر في هذا الصدد التجربة الموسيقية التي تقترن بقيادة أوركسترا (قيادة عصبية) (أبوتيز ١٩٨٥ Aboitiz)؟ وهل من المعقول أن نقوم علاقة بين تركيب عمليات الجهاز العصبي (الأوركسترا) وبين دلالات السلوك التي تولدها هذه العمليات (التجربة الموسيقية)؟ إن المجال الظاهري الذي يجري فيه التنسيق بين الموسيقى (الوظيفية المخية) ليس هو المجال نفسه الذي توجد فيه السيمفونية باعتبارها تجربة موسيقية (وظيفة العقل). هذان المجالان لا يتداخلان (ماتورانا Matmana ١٩٨٥)؛ ومن ثم فإن خريطة توضح المواقع المركزة فيها وظائف المخ، على أساس رسم موجات المخ الكهربائية - (EEG) electroencephalography لا تطابق الوظائف نفسها الموضحة على أساس الإصابات المخية المعنية.

ومن المحتمل أن تعمق الإصابات قيادة الأوركسترا؛ بعبارة أخرى، هذه الإصابات تشوش قراءة أقسام القطعة الموسيقية على مستوى رسومات موجات المخ الكهربائية، مع أن أدواتنا الخاصة بالتقصي تكشف عن تشعبات وانقطاعات شديدة في النشاط العادي للمخ. وقد قتل النظم الأحيائية الذهبية، أو الإيقاعات الزمنية للمخ التي هي في توازن دينامي مع ظواهر العالم، تمثل حالات من المعرفة اللاتية في العقل. وعلى ذلك فإن حل المشاكل بالإدراك والمعرفة، أو العمليات التفسيرية (وكذا الخبرات الجمالية) قد تكون حالات واضحة من التوازن، ومصدرا للارتياح: النهاية لعمليات ذروتها حالة ثابتة مستقرة تتجه إليها المظاهر التذبذبية للخلايا العصبية. مثل هذه الأخيرة المتذبذبة لها نقاط جذب يمكن أن تتفرغ إلى شعبتين. ورغم أننا لا نستطيع أن نقيس نقاط الجذب هذه، ففي مقدورنا أحيانا أن ندرك تشعباتها بواسطة أجهزة مصطنعة؛ ورسم موجات المخ الكهربائية هو من قبيل هذه الأجهزة. ورغم أن الأجهزة التي يصنعها الإنسان ليست إلا ظلا باهتا للديناميات الداخلية إلا أن نتائجها قد تزودنا بفكرة من أحداث ذات مغزى (زيمان Zeeman ١٩٧٥). وفي هذا الصدد، قد يزودنا الجهاز المستخدم بنموذج هام لوظيفة العقل.

العقل ليس هنا... ولا هناك... إنه ليس في أي مكان، وهو في كل مكان.

الكلام عن العقل بضمير الغائب على أنه شيء موجود (أو غير موجود) في

الرأس، يعكس تفكيراً شكلياً قائماً على أساس من تسلسل فضائي أو محلي للأشكال. إلا أن ثمة مفاهيم، من قبيل روح النظام، والتعقيد، والمعلومات، والمعنى، والعشوائية، والحياة، وما إلى ذلك، تشترك جميعها من الوجهة الشكلية الخارجية (المورفولوجية) في سمة لامكانية (عبر الفضاء أو الحيز). ومن ثم فإن سلوكاً كالعقل لا يمكن أن يتحدد له مكان، لا يجوز أن يخاطب بضمير الغائب، أى بأسلوب نحوي وظيفته أن يستبعد كل فكرة عن شخص ما (بنفست Ben veneste ١٩٧١، ص ٢٢٨)؛ شكل يستبعد على الفور كل فكرة تنعكس على الذات. عبارة «العقل» mind هي إذن مجاز عام شامل، مجرد من أية قوة تفسيرية (١).

إن السلوك اللاخطي، التراكمي للنظم لا يمكن تحديد وضعه في نطاق جزء من أجزائه، لأن هذا السلوك متضمن في التكامل المعقد للنظام الإجمالي الذي يشكل إحدى خواصه. ويمكن إيضاح هذه الملحوظة بالإشارة إلى ما ذكره «وودجر» Wood-ger عن «الأكيمو» equimo (روثشتاين Rothstein، ١٩٦٨)، وهي فكرة تعبر عن نظام ولد من تركيبة من الحصان equus والإنسان Homo. وفي وسع «الأكيمو» أن يقدم سلوكيات لاهطية متراكمة، مثل صيد الثعالب، ولكن لا يتسنى حصرها في نشاط أو آخر لأنها تشكل جزءاً لا يتجزأ من مجموعة، هي خاصية من خواص النظام كله. إن كل محاولة لإقامة علاقة بين انبساط حدقة العين، وبين سرعة المطاردة، وسلوك «الأكيمو» في أثناء الصيد (ويعبر عنه بعدد الثعالب التي قتلت في فصل الصيد) تشكل مثالا تقليدياً لترابط كاذب، نفسى وبدنى؛ وبعبارة أخرى محاولة لا مبرر لها لإقامة رابطة بين الوظيفة الخطية التي تعبر عن أسلوب تشغيل «جزء» من بنية المجموع، والسلوك اللاخطي الخاص بالتكامل المعقد للنظام في مجموعة. إن عقلية صيد الثعالب ليست في الحصان، ولا في رأكبه، ولكنها هي سلوك «الأكيمو» أثناء عمله.

الخلاصة هي أن العقل هو السلوك، إنه « في كل دقة قلب، في كل انقباض عضلة، في كل حركة، ووضعية... إنه جزء لا يتجزأ من السلوك الكلي الذي يتطور، ويتقدم كوحدة في الزمن» (ياكوفليف Yakovlev، ١٩٤٨، ص ٣١٥).

(١) لا يمكن تحديد مكان للعقل، ولا يمكن - إذا عينا بالضير - أننا - أن يدعى، و «يكون» في وقت واحد. لاحظ جرأة لكان Lacan حين أعاد كتابة عبارة ديكارت «أنا أفكر، إذن فأنا موجود»، فجعلها «أنا لست حيشاً أفكر» إذن «أنا أفكر حيشاً لا أكون» و«جوداً».

إن تعريفنا العقل على أنه سلوك يقر بالمعنى الثنائى للكلمة الألمانية Haltung التى تعنى فى وقت واحد الاتجاه الخارجى (السلوك الموضوعى)، والوضع الداخلى (السلوك الشخصى)، والمعنيان Haltung (الحركة والإحساس) متضمنان فى كلمة Verhalten ، أى السلوك.

فيم إذن تختلف وظائف المخ عن وظيفة العقل؟ وظائف المخ هى عمليات غير مرتبطة بالتجربة الشعورية. أما وظيفة العقل فإنها تعمل على مستوى التفسير، وضبط النفس؛ هى كما يشرح دونالد مكاي Donald McKay (١٩٨٥) مندمجة فى عمليات المخ العرضية حيث لا تنطلق معايير التفسير الذاتى إلا حين تصل عملية مادية بلنية سابقة إلى حد حرج. عند هذا الحد الحرج ليتحول الكم الهيجلى (نسبة إلى هيجل) والذى يقدر ب ١٢١ من الخلايا العصبية المترابطة بغزارة - إلى نوعية جديدة: هى الوعى بالذات.

إن فكرة علم إمكان تحديد الموقع ليست حديثة، ولو أن ديكارت فى خطاب له لميسونيه Meyssonnier بتاريخ ٢٩ يناير ١٦٤٠ (ديكارت ١٩٧٦، ص ١٢) يقابل «الإنطباعات المخزونة فى الذاكرة» ب«طيات» تبقى فى الورقة بعد أن تطوى، وهذه الطيات تهدو حديثة كما لو كانت آثارا متخلفة من الأسس فقط. وفى رأى ديكارت أن الآثار قد تتخذ أوضاعها فى كل أنحاء المخ، وحتى فى أجزاء أخرى من الجسم: «مثال ذلك أن براعة عازف العود ليست فقط فى رأسه، ولكنها موجودة بصفة جزئية فى عضلات يده، وهكذا دواليك»؛ أى أن عقل عازف العود هو سلوك العزف على العود.

وديكرات (١٩٨٥) فى كتابه «التأمل الثانى» Second Mediation الذى نشر عام ١٦٤١ - ويعد أن لاحظ وفكر مليا فى التفيرات المحسوسة التى طرأت على قطعة الشمع وضعت على مقربة من النار، أهدى رأيه قائلا: «الآن، أعرف نفسى، مادامت كل الأسباب التى تساعدنى على إدراك ومعرفة طبيعة الشمع، أو أى حجم آخر مهما كان، تساعد بالأكثر على إظهار طبيعة عقلى».

وما أراد أن يقول فى الحقيقة هو أن منطق الوصف (وصف ذوبان الشمع) يماثل منطق العقل الذى يصفه، أو بوجه أعم: أن ما نسميه قانون الطبيعة هو بالأحرى قانون طبيعتنا نحن (لأن طبيعتنا هى التى تصفه وتقضى به).

وكان «بيرس» Peirce (١٩٨٤، ص ٢٤١١) - حوالى منتصف القرن التاسع عشر - أكثر صراحة حين قرر قائل الإنسان والكلمة أو العلامة التى يستخدمها: إنها متماثلان، قائل كلمتى *Homo* و*man* (الإنسان)، أو «إعرف نفسك» *Nosce te ipsum*. إن التفاعلات (أو الإتلفات) الحسية الحركية هى «أشياء مدركة بالحواس»، أى تصورات موجودة فى ذاتنا، ومن ثم فالكون نظام من التصورات أو العلامات له صفة ذاتية. هذه التصورات تفقد ذات معنى حين تحول نظم الإنتباه والإثارة فى الجهاز العصبى المركزى نظام العلامات الكونية إلى نظام علامات للتجربة المعاشة.

والعقاقير المنشطة من فط *LSD*، والسيلوسيبين *psilocybin*، إذ تزيد من إثارة الجهاز العصبى المركزى، فإنها تقوى معنى كل -الامة أو تصور- ومع ذلك، وبغير تأثير العقاقير، فإن نظام الإثارة السمتاوية فى الجهاز العصبى المركزى يقوى معنى العلامات التى ترمز فقط إلى القيم التى اكتسبت خلال تجارب سابقة للفرد وللجس البشرى. هذا النظام للقيم المكتسبة خلال نشأة الأفراد وتطورهم هو الذى يتولى استشارة الجهاز المركزى السمتاوى لأن «يترجم» شكلا معينا من العلامات إلى نظام آخر من العلامات، إلا وهو سياق المعنى القائم على التجربة. ولنا أن نصف التجربة ذات المعنى على أنها من فئة الشعور مثلها مثل الضوء والصوت أو الذوق (٢)، والألم، والسرور، والتباين - فتجربة الضوء مثلا، هى إحساس مستحث من الخارج. فإن كان المعنى إحساسا، يجب أن يتبع قانون «فشنر» *Fechner*: فإن كانت قوة المؤثر تنمو بنسبة هندسية، فإن تجربة المعنى يجب أن تقوى بنسبة حسابية. وبعد أن ناقشنا نظام الرموز فى الإعلام، وترجمتها باستقراء مؤثر ما إلى لغة المعانى (أو الأساسيس؟) فلعلنا نتساءل عن علاقة العلامات بعلم البيولوجيا العصبية *Neurobiology*.

(٢) الجهاز العصبى المركزى *CNS* لا يفرق بين الأساسيس المستحقة من الخارج ومن الداخل، ومن ثم فإن الإثارة (النشاط الشبكي أو الإثارة الانحرافية)، لا تقوى الإحساس بالمعنى فحسب، ولكنها تقوى أيضا سائر أشكال الإحساس. هذه هى القضية فى الواقع. مثال ذلك: وجدنا، باستخدام طريقة مصفرة يمكن استنتاجها، أنه عند ذروة الإثارة المستحقة بمقدار البسيلوسيبين، ينقص الفرق فى طقم ال *Jnd* نقصا ملحوظا، بمعنى أن جزئيات أقل من الكينين، والسكروز، إلخ. لازمة لتلوق مزيد من الطعم - فى حين أن التهفة (بالعقاقير) تؤدى إلى زيادة فى حجم ال *Jnd*، أى نقص فى حدة اللوق (فيشر وآخرون ١٩٦٥، فيشر وكيلينج ١٩٦٧؛ فيشر وآخرون ١٩٦٩، فيشر ١٩٧١ ب).

إنشاء المعنى، والدائرة التأويلية

كيف ترتبط العلامات وإمكانات العمل الناشئة من الأعصاب بعضها ببعض؟ هذه الإمكانيات المنطلقة بمؤثرات هي إشارات كهربية تتلقاها الكترودات (أقطاب). إن غوا «لورغاريتميا» في شدة المؤثر يعادله بعامة زيادة في تردد إمكانات العمل. ومع أن نسب المنبهات المتساوية تنتج نسباً حسية متساوية، فإن كيفية نسبة الإحساس إلى تردد إمكانات العمل العصبي تشكل مسألة تجريبية، حتى ولو كان الإحساس، بطريقة ما نتيجة لهذا النشاط (جريجورى Gregory ١٩٨١، ص ٢٠٨).

إن تسجيلات إمكانات العمل في الأعصاب تبدو كلها متشابهة، سواء كان التنبيه المؤثر في العصب ناشئاً من الضوء، أو درجة الحرارة، أو اللمس، أو الوخز، أو مواد كيميائية.... ولكي نعرف نوع الإحساس الذي يبرزه العصب يتعين علينا أن نعرف السياق، أى موضع العصب في الجهاز العصبي، و (أو) طبيعة المنبه الذي أطلق الفعل الإتمكاسي. المخ، أى الجهاز العصبي المركزي يوجه عام يصدر إشارات (تسجل على أنها إمكانات عمل) تصبح ذات معنى بأن «تترجم إلى نظام آخر من العلامات» (بيرس، ١٩٨٤، ٤، ٥٣٦). هذه الترجمة، أى مولد المعنى بإضافة مفهوم في شكل ملابشات تنطلق بفعل الإثارة، إنما هي تفسير تأويلي يعمل في سياق التفاعل الذي ولده، ولعلنا وصلنا هنا إلى جذور الدائرة التأويلية: فالجهاز العصبي المركزي يُسوّغ الواقع، أى تفسير تفاعلاته، في الوقت الذي يُسوّغ فيه الجهاز العصبي المركزي ذاته من خلال التفسير. فالخ هو في الواقع العضو الوحيد الذي يتعلم تفسير تفاعلاته على أنها حقيقة، وذلك باختباره إياها.

هذه الخاصية الدائرية ذاتية المرجع هي جوهر «الدائرة التأويلية»، أى أنها انعكاس البرمجة الذاتية، من المخ إلى العقل. إن فهمك نصاً ما يعنى أن تنسخه في أسلوب حياتك (كوربين Corbin ١٩٥٧، ص ٥٨).

لقد ظهرت فكرة الدائرة التأويلية في القرن الثالث الميلادي عندما نجح أوريجين Origène في تفسير «العهد الجديد» على أنه التجسيد الروحي للوجوس Logas (كلمة الله): أى على أنه استمرار وتحقيق «للعهد القديم» (لوبيك Lubac ١٩٥٩، ص ٣٠٥). هذه الطريقة في تصور علاقة الكل بالجزء في نظرية التفسير متضمنة في «الدائرة التأويلية»؛ فالسمات الفردية واضحة ومفهومة تبعاً للسياق الإجمالي،

ويغدو السياق الإجمالي مفهوماً من خلال السمات الفردية تبعاً لإسهامها في إيضاح معنى الكل (جادمير Gadamer ، ١٩٦٠؛ وإيجلتون Eagleton ١٩٨٣ ص ٧٤). وثمة تبرير مسيحي لاهوتي نشأ من هذه المعالجة: فكان في وسع الكنيسة أن تقر الطريقة الصحيحة لتفسير الكتاب المقدس - والطريقة الصحيحة أنشأها العرف - إلا أن العرف نفسه قد قُتل في مجموعة التفسيرات الصحيحة التي أُجريت للكتاب المقدس (إيكو Eco ١٩٨٤، ص ١٥). وقد تعود إلى ما قبل ذلك بكثير في بحثنا عن المصادر الأصلية للدائرة التأويلية فنجدها عند: هرقلطس، بارمنيدس، سقراط، أفلاطون، أرسطو، شيشرون، كوتيليانس، سلسوس (القانوني)، وفيما بعد عند هيجل، وغيشته، وشلنج. وتبلورت الدائرة التأويلية عند فردريك أست Farderrick Ast ، وتمت عند شلايرماختر Schleiermacher وديلتاي Dilthey . واستخلص فرويد معنى من سياق (تفاصيل) الملاحظات على المرضى تحت العلاج، ومد هيدجر Heidegger الطريقة التأويلية إلى المعرفة كلها. فقط يبدو صحيحاً أن الدائرة التأويلية، وقد نمت من علم البيان، وتأثرت بنظرية التفسير، تعود الآن إلى وأرض الميعاد، الأ وهي علم البيولوجيا العصبية الذي هو مصدرها الأصلي.

حول تكاملية (تصاميم) الإنارة والتوقع

الجهاز العصبي المركزي، بمعناه الواسع (الجهاز العصبي المخي الشوكي)، أي المخ، هو شبكة مغلقة تعمل عملاً تزامنياً تبعاً لإسلوب سلوكي مستقل eigen behavi- our ، أي أنه نموذج مترابط من نشاط تنبهي يمارس ديناميكياً ممارسة متوافرة لأحد لها (٣). كذلك يلعب التواتر غير المحدود دوراً مركزياً في نظرية الكمبيوتر. مثال ذلك حين يتدخل هذا النوع من الحلقات (في نقاط محددة) في دلالات برنامج الكمبيوتر (فاريلا Varela ١٩٧٧).

وثمة سمة أساسية للمخ - وكذا العقل الذي يتولد عنه - هي ترابط متغيراته ترابطاً متواتراً ومتزامناً. هذا الترابط هو الذي يتيح لمجموعة المخ والعقل أن تقاوم

(٣) تصد بكلمة recursion (تواتر) أنه عند نقطة معينة من المعالجة يصير الوسيط هو الرسالة كما في المثال الآتي: وفي هذه الجملة ثلاثة وثلاثون حرفاً. فكلمة «ثلاثة وثلاثون» تظل إحدى القيم ذات الدلائل، التي تعبر عن هوية الجملة، وعما ترمي إليه (فون فورستر ١٩٨١، ص ٢٧٤، ٢٧٨).

الإضطرابات البيئية وتعوض عنها. وفي رأى فون فورستر (۱۹۸۱) أن الإدراك الحسى للأشياء ينتج من التكرار المستمر للوظائف المستقلة على مستويات عديدة من النشاط القشرى المركزى، والأشياء ليست سوى شواهد لهذا السلوك الإدراكى المستقل. هذه الشواهد تكمن (ولا تتركز) فى خبرة الشخص الحسية الحركية للتناسق. وحالة النشاط العصى التى تميز الحدث الحركى، كما فى ظاهرة «التكيف»، تقيد فى تحديد الفعالية الإدراكية للعملية الحسية التى تنتهى إلى ثبات حجم الأشياء المدركة (فاريل، ۱۹۷۹). الواقع أن النظام «المخى العقلى» يسطوع بالحفاظ على حالة مستقرة بين الجسم والاضطرابات البيئية. فالثوابت (معدلات إعلامية بلا أبعاد) هى «علامات» لهذه الحالة المستقرة.

والمخ منظم تنظيمًا تدرجيا، ويمثل ثوابت حسية بكيفية متوازنة. إلا أن هناك فرقا بين القشرة المخية، المعنية بالثوابت، والمخيخ الذى يعالج التغيرات. مثل هذا التمييز الحاد يتطلب استراتيجيات مختلفة أساسا (بالارد Ballard ۱۹۸۶). وأزمة معالجة الرسائل بواسطة الخلايا العصبية تبلغ سرعتها فقط مائة ضعف أسرع من أزمة الإستجابة على مستوى العلامات الحسية الحركية المعقدة، وهذا فى ذاته يتضمن أن تؤدي قشرة المخ كمية هائلة من العمليات الموازية والمتزامنة. مثل هذا التوازي الضخم مطلوب للجسم حتى يتسنى له أن يستجيب لإشارات كامنة فى مئات من «المجلى ثانية» (جزء من ألف من الثانية) من عناصر فعالة (نيورونات - خلايا عصبية) تشغل من مائة هرتز (الهرتز وحدة اللبلة: ذبذبة واحدة فى الثانية - المترجم) إلى ألف هرتز (لاتدى Landy ۱۹۸۶).

إلا أن وظيفة قشرة المخ لا تقتصر على معالجة الثوابت، فإنها تمثل أيضا قيما خاصة من البارامترات الثابتة. والتدرجات هى أسلوب فى التنظيم لا غنى عنه فى بنیان مترابط من هذا النوع لكى تعالج على التوالى أكبر عدد ممكن من البارامترات الثابتة. (بالارد ۱۹۸۶).

ولنضع الآن فى نطاق السياق المذكور بمالية حجة باورز Powers القوية الواضحة (۱۹۷۳): فنحن لا نعرف شيئا عن سلوكنا الشخصى خلاف النتائج ذات الأثر الرسمى لمبادرتنا الشخصية: «والسلوك هو التحكم - فيما نשמع - أنه إدراك حسى، أو دخل» وأت من الخارج. ولكن ما هو «الدخل»؟ إن ما يجعل عضلاتنا تقاوم، على سبيل المثال، ليس هو المنبه (الحافز)، ولكنه الفرق بين الأثر الارتجاعى المباشر لمنبه،

انثبات العقل من المخ

وبين المذهب نفسه، في حين أن السلوك ينزع إلى خفض هذا الفرق إلى لا شيء، (هاوز ١٩٧٣). وفي مثال جلي (دون Don ١٩٧٦) تستثار الأطراف العصبية بانتهاض العضلات أو تأثيرها المباشر على التسيج أو الورز. وفي الحبل الشوكي، تفرز هذه الإشارات المثيرة وتميز عن إشارات «التوقع» القائمة على أساس الخبرة السابقة، والتي تصدر عن المراكز العليا للجهاز العصبي. وعندئذ فإن الفرق، أي الإشارة الحافظة تنقل إلى العضلة. ومن ثم فإن انعدام الخطأ يقتضى أن الإثارة التي يحدثها اضطراب بيني، أي المرور الواقعى لحركة عضلية يتوافق مع المرور «التوقع»، ومن ثم المفضل.

ولنترجم كل هذا إلى لغة علم النفس، فثمة عمليات تجري في العقل الباطن، ترتب الأولوية للدوافع الحسية، وتنبغ إلى العمليات الواعية، ولا تعين من المعطيات المحسوسة إلا تلك التي تنتمي إلى سلوك مفهوم ومتوقع. أما المعرفة (أو التعرف) فلأنها تشكل عملية فحوص هذه المجموعة المحدودة من المعطيات الحسية، وتجربة نتائجها السلوكية (رول Wall ١٩٧٤). وعلى ذلك فإن كل المعطيات غير المتاحة للفحص. الشعورى سوف «تكتب»، أو تنكر، أو لا تدرك بالحس. والمدرجات الحسية التي تصير مقبولة هي فقط التي يكون بشأنها «عمل متوقع» في ذخيرة الجسم التفسيرية المناسبة التي تستوفى شروط الاختيار. ومع ذلك فإن انغلاق الدائرة الحسية الحركية لا يعتبر بمثابة شرط مسبق لإدراك الأشياء، فالإدراك يتضمنه هذا الإغلاق.

ترى ماذا يحدث للمدرجات الحسية التي لا يوجد بشأنها أى «توقع» في الذخيرة التفسيرية؟ هناك «انفصال» مؤقت لوظيفة العقل (الإدراك والسلوك) من وظيفة المخ التي تقاس «بالاستعداد الكامن» - أو بعبارة ليبيت Libet (١٩٨١): «هناك تأخر واقعى مقداره ٥٠٠ مللى ثانية قبل أن تستنبط الأنشطة المخية التي يستسهلها منه حسي أية تجربة شعورية ناجحة». والتوقيت الشخصى للتجربة يردّها إلى زمن سابق، بلا تأخير. ولم يزل القصد الواعى يسبق العمل الحركى السلوكى بحوالى ٢٠٠ مللى ثانية (ليبيت ١٩٨٥)، ومن ثم فهناك وقت كاف للردح المضلل (ونسون Win-son ١٩٨٤، ص ٢٣٤).

يبدو خداع الذات بمثابة جزء لا يتجزأ من تحكمنا السلوكى في الإدراك، أى ما نلذه من جهد لكى يتوافق العالم مع قدراتنا. وبهذا المعنى أثبت صراع الذات أنه

يقيد في إطالة فرص حياتنا(٤). إننا باختيارنا «منفلتون في وجه الإعلام». أي أننا نفتحون للطاقة، ولكننا منفلتون حيال بعض الإسهامات الإعلامية الخارجية (أشبي Ashby ، ١٩٥٦). (وكلمة «الاختيار» من عندي). ترى ما هو المعنى العلمى لعبارة «مفلق بالاختيار»؟ إنها تشير إلى عمليات الاختيار (الإنتقاء) القائمة على مبادئ- الجهاز العصبى المركزى الوظيفية الخاصة بتطور الفرد، ومشاعره، وتساعد على إجراء تحديد مناسب لما يعتبر بمثابة «دخل المعلومات». وعلى وجه التخصيص فإن دخل أجهزة الإستقبال الحسية السطحية ينخفض من ٩١ لقم (جمع) لقمة Bits إلى ١ - ٥ لقمة في الثانية في عملية الوعي المركزى (كوجلر Ku-gler ، ١٩٨١). هل هذا الكبت السيبرى (نسبة إلى السيبرنتيكا - وعلم التحكم الأوتوماتى - المترجم) منفصل (ولكنه مساو) عن الكبت الفرويدى (نسبة إلى فرويد)، أو أنه ليس إلا جزءا من الذئع إلى اللاشعور ؟

إن كلمة unconscious (لا واحة) كانت في البداية صفة، ولكنها استقلت فيما بعد فصارت اسما (اللاوعى، اللاشعور). اللاواعى، عند فرويد، بدائى، ومتوحش، وصيوانى (ارتدادى)، ومتهلف، وهو أيضا متعدد الصفات من الناحية الجنسية. يذكر تايلور Taylor (١٩٦٦) أيضا أنه كلما كان العقل بالأكتر سوية، كان أى من «ما تحت الشعور» (العقل الباطن)، أو الوعي (الشعور) وحدة أقل انفصالا، وكلما كان «العقل الباطن» قريب المثال من الوعي كان العقل كله متكاملًا، ومكملا، فهو قادر على الإبداع. وقد أجرى ليفن شتراوس Levi-Strauss (١٩٥٨، ص ٢٢٤-٥) تفرقة بين «اللاشعور» unconscious، و«ما تحت الشعور» (العقل الباطن) subconscious ، وهى تفرقة لم يكن لها وجود قبل الأربعينات. فالمعقل الباطن يعزى إلى الذكريات التى تحتجز، وهى ليست متاحة دائما. أما «اللاوعى» (اللاشعور) فإنه غريب عن الصور التى قر أمامه غرابة المعدة بالنسبة للطعام الذى يرم

(٤) خناج الذات لا يقتصر على «الذوات» و «المعطيات» التى تشكل «التسبيح الإدراكى الحسى، والمعركة في الحياة اليومية» (شراج Schrag ، ١٩٨٠). إن كتابة قصة خيالية تتطلب أيضا من كاتبها جهدا في الكبت قبل أن تظهر القصة إلى الوجود. إن كلا من النص الخاص بالحياة اليومية الجارية، ونص القصص الخيالى يمكن الملاكمة التناظرية بين تكوين عقل القاص، وبين روح القصة. وإبداع كل من فرعى النصوص يتطلب ممارسة خناج الذات بالكبت، وإنكار الذات، والإدراك الخاطى. وما يقوله كلا النوعين من النصوص يستند إلى ما يتعين على المؤلف أن يتكتمه، حتى يهدى ما يقوله (أو يراه).

انبثاق العقل من المخ

بها. يمكن القول إذن بأن «العقل الباطن» هو بمثابة قاموس شخصي بمفردات لغوية متراكمة، إلا أن هذه المفردات لا تكتسب معناها إلا حينما يخضعها اللاشعور قوائمته، فيصنع منها كلاما (ولدن Wilden ، ١٩٦٨). ومن ثم فاللاشعور في رأى «لاكان» Lacan (١٩٧٧) له بنية اللغة.

ويبدو أنه من المسلم به أن النشاط العصبي اللاشعوري يحمل دواما أثناء الحركة (إنك لا تنتظر إلى خطواتك وأنت تنزل السلم راكضا). أما الشيء غير المعروف تماما فهو أن غالبية التفاعلات العصبية هي عمليات لا شعورية (دوتي Doty ١٩٦٩)، كنشاط المخيخ، والتفرغ العصبي أثناء القسم الأكبر من النوم ليلا، والإفراز الهرموني، وكذا شكل خادع من التحكم البصري الحركي، إلا وهو التكيف المضاد للتشوهات البصرية المستحثة.

الإدراكات على أنها أحاسيس مفسرة.

الدائرة التأويلية للتفسير الذاتي

.... ليس هناك ما هو «أكثر إمتاعا، أو أكثر تقبلا من أن نقارن الخبرة بالتوقعات، أو نسجل من وقت لآخر الفرق بين الفكرة والواقع. وبهذا النوع من الملاحظة نصير يوما بعد يوم أقل تعرضا لحجة الأمل» (دكتور جونسون Dr. Johnson)

الآن نكرس بعض الوقت والحيز لظاهرة «التكيف المضاد» counteradaptation لأنها تمهد السبيل لشرح واضح للفرق بين وظيفة مخية (تنفضى إلى صورة بصرية مشوهة على مستوى الشبكية تحت القشرة) وبين وظيفة عقلية على مستوى القشرة المخية البصرية، تتضمن أثرا وجعيا لحركات الرأس والأطراف، وبذلك تصصح تشوهات الشبكية تبعا للترقعات (أو التوايما) المنتجة على الخبرة السابقة. والتكيف المضاد يوضح أيضا التعادل التكاملي بين الإثارة والتوقع في أسلوب هام من الإدراك الحسي، ألا وهو الرؤية، التي تعتمد على شبكة عصبية أوسع مما تعتمد عليها الحواس الأخرى. وأخيرا فإن التكيف المضاد يثبت نظريتنا بأن العقل هو السلوك، وهو في هذا الخصوص السلوك المصحح ويعزز تعريف الإدراك الحسي الذي قدمه «فريمان» Freeman (١٩٨١، ص ٥٧٨) على أنه: «تكمال الانطباعات الحسية... تبعا للتوقع.. وللمعمل المرتقب».

إن التحكم السلوكي في الإدراك الحسي، أي تكاملية دور «الإثارة» (معنى ذلك حدوث اضطراب في البيئة)، و«التوقع» (الفهم المسبق التأويلي) يمكن إضاحهما بسهولة مع أشخاص معرضين لصور للعالم مشوهة بصريا (انظر مثلا دولزال - Dolc-sal، ١٩٨٢). كيف يتسنى لإنسان أن يقاوم التشوهات البينية ويعوض عنها ؟ بعارة أخرى هل يهبط الفرق بين الإثارة والتوقع إلى الصفر ؟

من المعروف أن ارتداء نظارة بملسات مشوهة يترتب عليه تشوهات بصرية تختفي بالتدريج - أي أن التشوهات تكبت ويعد التفكير فيها (على مستوى القشرة المخية البصرية) وبعد وقت قليل يرى الشخص العالم «كما ينبغي أن يكون» تبعا لتوقعاته التي توجهها أهدافه (القائمة على أساس التجربة السابقة)، وعلى الرغم من صورة العالم المشوهة الثابتة على الشبكية (تحت القشرة)، (ستراتون Stratton ١٨٩٧؛ كوهلر Kohler ١٩٦٤؛ فيشر Fischer ١٩٦٩، هيل Hell وفيشر ١٩٧٠؛ فيشر وهيل ١٩٧١).

وقد تصور «إعادة التفكير» أو «التكيف المضاد» تبعا لتوقعات المرء على أنها تسبق جديد لحركات الرأس والأطراف تبعا لهدف معين. أن تكون المعلومات المتتارة بشأن الإيحاء المنفذة مترابطة منهاجيا مع «الحركة» (ميكانيلس Mikaelis؛ ومالاتستا Malatesta ١٩٧٤). والتكيف المضاد فضلا عن ذلك لا يحدث إلا إذا كان الشخص ينقل بالفعل وهو مرتد العدسات المشوهة (هيلد Held ١٩٦٥). أما الأشخاص السليمون فإنهم لا يكتفون بتكيف مضاد. ولكن يثبت «هيلد» هذه النقطة، خطط تجربة لشخصين، أحدهما ينتقل في مخبر كيفما يشاء، بينما ينتقل الآخر جالسا على كرسي يعجل. وفي تعديل لاحق للخطوة، كان على الشخص الإيجابي أن يدفع الكرسي الذي يجلس عليه الشخص السليم. وعلى هذا النحو؛ كان الشخص الإيجابي هو القادر على القيام بتكيف مضاد، فيرى المخبر رؤية غير مشوهة (جانرود Jennerod ١٩٨٥؛ ص ١٣٧). وبالطبع لا يمكن حصر ظاهرة التكيف المضاد في أي من النظم الحسية أو الحركية المقابلة، فهي ملازمة للحلقة الحسية الحركية.

والصورة المسجلة على الشبكية تحت القشرية تعتبر عادة بمثابة نسخة تصويرية مطبوعة بفعل تشويشات الوسيط البيني، فالصورة على الشبكية محددة بتقوس العدسات وقوانين إنكسار الأشعة، عندئذ تتولى القشرة البصرية مهمتها، وتندمج

اتشاق العقل من المنع

«التوقعات» المبينة على التجربة السابقة مع المعلومات المنقولة من حركات الرأس والأطراف، وينتج التكيف المضاد بمثابة عملية تحويلية تنسيقية. والآن قد يهبط الفرق بين الإثارة والتوقع إلى درجة الصفر.

والتحولات المتناسقة في رأي بليونيز Pellionisz (١٩٨٦) تماثل التحولات الحسية الحركية التي تنتشر خلال الشبكات العصبية في مساحة موجهة متعددة الأبعاد. وتعتبر شبكة الخلايا العصبية، من حلقات وانعكاسات بمثابة «موترات» $ten-sors$ ؛ والمعلومات الحسية تتحلل إلى متغيرات متماثلة الاتجاه $covariant$ ، في حين أن التنفيذ الحركي يتكون من متغيرات في اتجاهات مضادة $contravariant$. والتنسيق هو تحول هندسي في الاتجاه الحركي من تعبير متماثل الاتجاه إلى تعبير مضاد الاتجاه. فالأول يصور العزم. والثاني يتيح التنفيذ. والخطوة هي توحيد فكرة التوقع الوقي لتايلور، وفكرة وظيفة المخيخ باعتبارها موترا متريا $metric ten-sor$.

فالمتغيرات المتماثلة الموزعة في الزمان والمكان تعمم أولا بنوع من التوقع، ثم تحول بواسطة «الموتر المتري» في الزمان والمكان (بليونيز، وليناس ١٩٧٩، ١٩٨٠). هذى عملية قشرية جديدة، إنها إعادة بناء هندسي يؤديها الفكر الذي يصل من يلاحظ بساحة تخلقها.

وإعادة التفكير هذه - وهي عملية تعلم لا شعوري، كما يقول كوهلر (١٩٦٤) - يمكن اعتبارها بمثابة محاولة إخضاع العالم المرئي (وكما كان دائما، ومن ثم كما يجب أن يكون) لأن يتكيف مع متطلبات جسم تواجهه مهمة ربط طرفي السلسلة الحسية الحركية في عالم مضطرب. ويتحويل مجموعة الإثارات إلى مجموعة توقعات، ينخفض الفرق بين المجموعتين إلى الصفر، وتستقر حالة ثابتة بين الجسم وبين الاضطراب البيئي. كوهلر، على سبيل المثال استطاع أن يستعمل بلطة وفأس في ارتفاعه جبل في منطقة انسبروك Innsbruck، وهو يلبس عوينات بعلمسات معروفة ودولزال Dolezal (١٩٨٢، ص ٢٩٧) كان عليه أن يرتدى خوذة لاعب كرة قدم أمريكي وزنها ثمانية أرطال لكي تثبت عويناته التي تتيح له (بصفة مستمرة لمدة ١٥ يوما) أوسع مجال للرؤية في مدينة جبلية شاطئية يونانية. وبعد انقضاء ١٥ يوما خلع عويناته المعروفة، ففجئ إذ رأى العالم متغير الشكل، بالصورة التي كانت العوينات تسلطها على الشبكية (البصيرة ١). هذه المجموعة الأخيرة من التعويض

بإفراط، والتي تحتوى على عالم زالت صورته، راحة تتراخى. وبعد بضع ساعات قضاها (دولزال) يتجول، عادت الحالة الثابتة المألوفة بينه وبين عالمه إلى الاستقرار، واستمر يرى العالم كما كان، وكما هو الآن فى الواقع.

إن عادة تشكيل العالم عدلت العدسة صورته، على القشرة البصرية، والتي تستمر على الشبكية تحت القشرية، هى مثال للاكتساب الحسى الحركى السريع المستمر، وبخاصة «اللاواعى»، وناتجة عن خبرة حركية، أو بالأحرى خبرة تحرك، وهى ذكرى تعلم الطفل الحسى الحركى الأكثر بظنا.

والخط الفاصل بين ما هو متاح للإدراك وما هو غير متاح له، قريب الشبه بالفرق بين معرفة أن شئنا ما يحدث ومعرفة كيف يمكن عمل هذا الشئ (رايل Ryle ١٩٤٩). ويعتمد كل تعلم على عمليات لا شعورية، إلا أن هذه التبعية أكثر وضوحا فى تعلم كيفية عمل الأشياء. فتسلك الجبال مع ليس عوينات بعدسات محرفة مهارة تشبه التدريب على ارتجال ألحان متتابعات هارمونية. وثمة أوجه ارتجال تنتمى إلى المعرفة الواعية. إلا أن معظم المهارة تكتسب من خلال التدريب على الارتجال بلاوعى وليس هناك وقت كاف لصنع قرارات واعية لكل نقمة. ويلاحظ جونسون - ليرد Johnson-Laird أن سحر الارتجال هو فى دهشة الموسيقين مما يعرفونه. والواضح أن ما يجرى هو عملية سريعة جدا لا يتاح للمؤدى أن يدركها بوضوح. وتبعا لحسابات جونسون - ليرد الفرضية، فإن أية محاولة لاستخدام الاستبطان لإدراك شئ يجرى عادة فى مجال اللاشعور مصيرها الفشل. والمعلومة لا تبقى فحسب صعبة المثال، ولكن عملية متوازية فى جوهرها يتعين إدراكها بسلسلة من المداولات يجرىها الشخص المعنى؛ والنتيجة تشبه الطبيعة الجوهرية للعملية. إننا نتصور الحديث على أنه متتابعة من الأصوات المنطوية معا كالحزبات المنظومة فى خيط، إلا أنه لا توجد خيوط متصلة ببعضها بعضا. ونحن نعتبر المقولات والممانى بمثابة عبارات ثابتة لا تتغير، معركة بشروط ضرورية وكافية، ونعتبر الاستدلالات خاضعة لقواعد المنطق العقلية. إلا أن بنية الأفكار التى تعتمد عليها المعرفة ليست مجالا مفتوحا للمدارك.

التكيف المضاد، والإدراك الحسى

أناء الإثارة العصبية السمتاوية

علينا أن نؤكد أن التنسيق الحسى الحركى (إغلاقا، أو تكاملا) شرط ضرورى

لخلق موضوعات إدراكية سواء كانت «شواهد» واقعية، أو موضوعات «تخيلية» قائمة على سلوك مرتقب. على أنه من التسف فصل «التفهم» عن «الإدراك الحسى». فعامل التفهم (المعرفة) لها على الأقل أهمية فى الحفاظ على استقرار العالم، كما تشهد بذلك المعلومات التى جمعها فيترايخ Wittreich والتى تثبت أن تشوها لصورة إنسان بفعل عدسات نظارة، يقاومه الرأى إلى حد ما تبعاً لدرجة ألفته بصورة الشخص المرئى - أو بمعادرتنا، بالفهم المسبق التأويلى (فيترايخ، وراكليف، ١٩٥٥، فيترايخ ١٩٦١). ونوع أخص فإن تحريفاً أقل، ومزيداً من السلوك التكيفى المضاد كان يثبت وجوده دائماً عند زوجين أكثر منه عند أشخاص غرباء، وأقل فى صورة مهتورة، عنه فى صورة سوية. وثبت عند المجندين فى البحرية وجود انحراف أقل عند الأشخاص ذوى الرتب منها عند من لا رتب لهم. ويصف الأولاد قدراً أقل من الانحراف عند أحد الوالدين منه عند شخص غريب، وبخاصة كلما كان الطفل أصغر سناً كانت قدرته على التكيف المضاد للانحراف أضعف؛ وهذى ملاحظة تؤكد الصفة التدريجية فى طبيعة اكتساب الفرائث المعرفة عن طريق الإدراك الحسى. وحتى الأحاسيس الوهمية، وهى ظواهر من نوع التكيف المضاد (فيشر ١٩٦٦) فإنها لا تتجلى إذا أجرى البتر قبل أن يبلغ الطفل سنته الرابعة (سيميل Simmel ١٩٦٢).

والسلوك التكيفى المضاد هو من قبيل المهارة التى يكتسبها الطفل أثناء نموه من خلال انفلاق الحلقات الحسية الحركية، ولمس الأشياء والاتجاه نحوها، أو الابتعاد عنها، أو الاصطدام بها. وتبلغ المهارة التكيفية المضادة أقصى نمو لها حين يقدر المراهق أخيراً قادراً على التمييز بين الأشياء فى العالم الخارجى وبين ذاته. وقبل أن يبلغ الطفل هذه المرحلة يعيش فى حالة نكوص تتميز بما وصفه فرويد بأنه عملية تفكير أولية، وحالة مادية ملموسة، وتداعى المعانى بحرية، ونبضات بذائية.

وحينما ترتفع مستويات اليقظة السوية (مقترنة بروتين الحياة اليومية، وتتميز بالفكر العقلاني بالدرجة الثانية) ترتفع إلى أفق الإدراك الوجداني المستمر، أو حين تنخفض إلى أفق الإدراك التأملى المستمر (فيشر ١٩٧١)، تصبح عملية الفكر الأولى هي السائدة. والنكوص فى هذه الحالات، حالات الشعور غير العادية، ذات الإثارة المفرطة، والهالطة يمكن تياسه بتحديد العملية الأولى الخاصة بمحتوى الفكر، والقدرة على التكيف المضاد. ولقد قسنا «الهارمترين» بإحداث إثارة مركزية عند متطوعين باستخدام عقاقير تبحث على الهلوسة، من نوع الـ LSD ، واليسيلوسيبين psilocybin .

وباستخدام «قاموس المجازات الارتدادية» - Regressive Imagery Diction ary . ومع خطة تصنيف وتحليل المضمون، مزودة ببرنامج كمبيوتر باسم COUNT (مارتيندال Martindale ١٩٧٣) تسمى لنا، أنا ومارتيندال (١٩٧٧) أن نثبت أن انتباها مستحثا بمرعة قدرها ٨. - ٢٠٠ N8/kg من البسولوسيين تزيد زيادة محسوسة من «العملية الأولى للتفكير والقلوبية» (القلوبية تكرر ألى حركة معينة أو لكلام معين - المترجم) فى نصوص كتبت فى ذروة التجربة الهذيانية (الباعثة على الهذيان، أو الهلوسة - المترجم). تبين كذلك أن نمط الزيادة فى مضمون العملية الأولى متماثل فى الشكل مع نظيره فى القصص الأدبية (مارتيندال ١٩٧٥) التى تصف الرحلة إلى الجحيم والعودة منها، أو إلى غابات خرافية مماثلة (الجزء الأول من «الكوميديا الإلهية»، والكتاب السادس من «الابتداء»: كتاب الموتى «التيشى»). هذا التماثل فى الشكل قد يحمل على الظن بأن مثل هذه الأقاصيص ربما تكون أوصافا رمزية لحالات شعورية غير عادية مستثارة بعقاقير هلوسة مثل البسولوسيين.

فى الوسع أيضا إثباتات الزيادة التدريجية فى «القلوبية» المستحثة بقياس بارامتر آخر فى نصوص كتبها بعض الأشخاص المتطوعين، ألا وهو النسبة بين التناسق والمضج؛ وارتفاع هذه النسبة دليل على زيادة التيسيط فى التركيب النحوى (فيشر، ولاندون ١٩٧٢) بل إننا لنجد أيضا علاقة بين درجة التيسيط فى بناء الجملة، وهى خاصة فى النصوص المكتوبة فى فترات متزايدة من الإثارة. فضلا عن ذلك فإن التوجيه «السمى» (نسبة إلى «السمية» وهى دلالات الألفاظ - المترجم) يصير أكثر واقعية، ويتمثل التكوين اليبانى، ويصير الانحراف القياسى فى القيم العددية للبارامترات أصغر.

يمكن تفسير «القلوبية» المتزايدة بأنها نقص تدريجى فى حرية التثبت - خلال أفعال حركية إرادية - من الأحاسيس القوية لحالة الهلوسة الارتدادية (نسبة حسية حركية مرتفعة). كذلك فإن «القلوبية» الزائدة تشير إلى نقص تدريجى فى القدرة على التفسير القشرى (تبعاً للترقعات الجنية على خبرة سابقة) للإثارة تحت القشرية. وهناك بنوع خاص مستويات للإثارة المركزية السيمتأوية يمكن تفسيرها بأنها خلقة (قنية، أو عملية، أو ذهنية)، أو خبرات وجدانية (فيشر ١٩٧١). ولا أهمية فى هذا الشأن لكون هذه الحالات مستحثة بفعل العقار المخدر، أو ليست كذلك.

انبثاق العقل من الخ

والواقع أنه حين أخضع التحليل اللغوي مقاطع نموذجية من كتاب «أوراق العشب» Leaves of Grass لوالث هويتمان Walt Whitman في غضون ما تسميه في الوقت الحاضر «ذروة الحبر» - وهي نصوص كتبت تحت تأثير عقار البسيلوسيبين، وقورنت النصوص بعضها ببعض، لم يمكن العثور على أى فرق جوهري بين لغة الأداء الخلاقي، ولغة الحبرة الخلاقة (لاتنون، ولششر، ١٩٧٠).

ولقد قيست القدرة على التكيف المضاد أثناء التنبيه المستحث بفعل العقار، وذلك بإنتاج مؤثر بصري انحرافى معدل ثابت قدره خمسة ديوبترات diopeters في الثانية (الديوبتر؛ وحدة قياس قوة العدسة، المترجم). وتيسر أداء هذا العمل باستخدام جهاز مزود بزوج متزامن من منشورات منشطة بحركة دوران مضادة (فيشر، وهل ١٩٧١). ومن خلال هذه المنشورات كان أشخاص يواجهون (وهم ثابتون) خطا أفقيا أسود على خلفية بيضاء شديدة التباين. واختبر خمسة عشر طالبا متطوعا تحت تأثير ١٦. N8/kg بسيلوسيبين (u^8 ميكروجرام : جزء من مليون من الجرام k^8 = كيلو جرام، المترجم) في فترات من ٦ دقائق بعد إعطاء العقار. وقدر متوسط قيمة الديوبترات في الأزمنة من سة T^1, T^2, T^3, T^4 تقديرات. واهانت التجارب هبوطا كبيرا مستحشا بالتنبيه عند عتبة الانحراف الفضائي، أى أن الإثارة المستحثة بالعقار تتدخل مع التكيف المضاد للانحرافات البصرية المستحثة. وتطلب الأمر أربعة ديوبترات خلال الحالة الطبيعية لروتين الحياة اليومية حتى ينتنى الخط الأسود الأفقى؛ أما عند ذروة مفعول العقار T^5 فيكنى ديوبتران لإحداث الأثر نفسه، أى خفض «عتبة الانحراف الفضائي» وبعبارة أخرى، فإنه في النقطة التي يبلغ فيها العقار تأثيره الأقصى، يسجل ديوبتران التوقعات المنقوسة. وفي هذه النقطة يهبط الفرق بين التفسير القشري البصري، والإثارة تحت القشرية (الشبهكية) إلى درجة الصفر، ويبدو الخط متنيا «كما هو» (الواقع أقوى من الخيال). ومع ذلك ففي الحالة الطبيعية الروتين اليومية، فإن توقع استمرار استقامة الخط (التكيف المضاد) قوى جدا (الخيال أقوى من الواقع) لدرجة أنه يلزم أربعة ديوبترات من الانحراف لإيقاف الوظيفة القشرية البصرية المتوقعة، أى إيقاف الاستقامة الهذيانية (غير الموجودة) لدى الشخص.

وملاحظة أن التكيف المضاد للانحرافات البصرية بفعل العقار المثير للهلوسة ليس مثالا متفردا، فالأحاسيس الوهمية بعد البتر - أى تشوهات صورة جسم الإنسان -

تقل أيضا وتخف (أى أن العضو المتور يرى ويحس به كما هو) تحت تأثير عقار
هلوسة آخر LSD (كرومورارو Kuromoru ١٩٦٢).

وفى الحالة المرتدة للإثارة الهازلية بفعل العقار (حالة حلم اليقظة الذى يقابل
درجة مرتفعة من الحساسية الحركية) تختبر الحقيقة المشوهة «كما هى»: فالحظ يرى
كأنه منحني، والعضو المتور، «مفقود». ومع ذلك فالحالة الطبيعية لروتين الحياة
اليومية يتضح أنها ليست إلا حالة من الهلوسة ترضى ما نتوقعه: فالحطوط تستقيم
(ولو أنها فى الواقع منحنية، والأطراف المتورة تبدو فى الشعور كما لو كانت سليمة
ولو أنها أحاسيس وهمية).

عن أنواع من الخبرات التكيفية المضادة : الصلاة، العلاج البديل، الطب النفسى

تتوقف الحالة الطبيعية للتوقعات الكبيرة، والغايات المقصودة، والروتين اليومي لما
هو «مدرك، ومعترف به» على التفسيرات الصحيحة لما «هو موجود». ومع ذلك فإن
اكتساب ذخيرة تفسيرية لها معنى ليس شيئا موهوبا، ولكنه عملية متطورة تستغرق
سنوات من التجربة.

وحيثما تجرى تجربة عملية لأشخاص ولدوا عميانا فيبصرون، فإنهم لا يتعرفون
على أشياء ألفوها باللمس. وظهرت أول ملحوظة من هذا القبيل فى عام ١٧٢٨ فى
كتاب «عملية فلسفية» لوليم ر. شيسلدين William R. Chesseden (ديفيز
Davis، ١٩٦٠)، وهو جراح مشهور أجرى عملية لولد عمره ١٣ - ١٤ سنة. وفى
هذا التقرير، أخفق الولد فى التعرف بالنظر على قطعه التى كان يعرفها باللمس قبل
أن تجرى له العملية. وعندما أممكها بيديه قال «وهكذا أيتها القطة، سوف أتعرف
عليك مرة أخرى». أما «سندن» Senden (١٩٦٠) الذى جمع عددا كبيرا من
الملاحظات من هذا النوع، فإنه استنتج أن الإدراك البصرى للأشياء فى الفضاء عملية
بطيئة تكتسب بالتدريج، وتتم فى فترة زمنية طويلة. ويعد أن تنقضى أسابيع وأشهر

انبثاق العقل من المخ

كثيرة منذ أن يبدأ الشخص الإبصار يستطيع بجهد كبير أن يميز بين الأشكال البسيطة، كالمثلث، والمربع (يونج Young ١٩٥١)؛ وقد تقضى سنة أو أكثر قبل أن يستطيع التفرقة بين إنسان وشجرة.

ومن البديهي أن القدرة على الإدراك بالرؤية هي نتيجة تعلم بطئ ينتهي بالمعرفة الإدراكية الحسية: ذخيرة تفسيرية من التوقعات - تفهم تأويلي - ذات أهمية جوهرية لتفسير الأحاسيس البصرية، والتكيف المضاد للتشوهات البصرية. والسمة الظاهرية التناقض في الإدراك الحسي هي خاصيته التأويلية والدائرية، فلا بد أن يكون للمرء توقعات محددة (قائمة على خبرة سابقة) حتى يتأثر له أن يدرك بالحس اضطرابا مثيرا؛ ولكن عليه في الوقت نفسه أن يدرك فعلا بحواسه حتى يجمع ذخيرة من التوقعات (الضرورية للإدراك).

وكما يقول كريش Krech (١٩٣٢): «الأرناب تختبر الفروض»، «الأرناب تشم ما تتوقعه، لا ما تنتشقه»، «لا بد أن تتعلم الأرناب أن تتوقع قبل أن تستطيع أن تدرك» إلخ (عن فريمان Freeman ١٩٨١). إن الفجوة بين الأحاسيس غير المفسرة، وبين الإدراكات الحسية ملأى بالشك والتوقعات.

من المفارقات أنه ينبغي للمرء أن يشك في وجود ظاهرة ما قبل أن يسمعه أن يدركها... وفي الوقت نفسه يجب أن يدركها بحسه قبل أن يشك في وجودها. هذا ما يهدى نورويتش Norwich (١٩٨٣) وهو يصمم مبدأ اللاهجد عند هايزنبرج Heisenberg، ويهدى من مستوى الجسيمات البالغة الصغر إلى كل مستويات الخبرة الإدراكية الحسية. والوعي، في رأي نورويتش غير ممكن من غير الالتباس، ومن ثم لا يستطيع المرء أن يدرك حدثا نتيجة مؤكدة (وهذا هي ظاهرة التكيف).

إن مبدأ عدم اليقين (اللاهجد) في الإدراك الحسي، أو العلاقة التكاملية بين التوقع والإثارة (التقديم) هو أيضا في أصل خبراتنا المفاهيمية (نمشر ١٩٨٥). فمعنى «أجزاء» من نص ما، على سبيل المثال، أي معنى الكلمات والجمل، لا يمكن تفسيره إلا إذا عرفنا معنى النص كله عن طريق فهم أجزائه. إن ما تحصل عليه من جملة، أو من فكرة، أو من نص يعتمد بقدر كبير على ما تدخله فيها أولا من ذخيرتك التفسيرية. هذه الذخيرة تسمى عادة «التوقعات» expectations، وتشير إلى الفهم السابق القائم على خبرة سابقة.

ويكشف الوضع الضمني المتناقض في أسلوبنا الإدراكي الحسي والمفاهيمي للمعرفة عن نظام تحكمي بيولوجي عصبي، أي دائرة تأويلية: فالسمات الفردية للعالم تصبح مفهومة بمعبارات السياق كله، في حين أن السياق بأجمعه يصبح مفهوما من خلال السمات الفردية. هذه العلاقة الدائرية والتكاملية نفسها تضيء طبيعة العلاقة المتبادلة بين المخ والعقل: فالسمات الفردية لوظائف المخ تصبح مفهومة من خلال العقل... في حين أن العقل يصير مفهوما من خلال الوظائف الفردية للمخ. وينوع خاص فإن تداخلا متبادلا (بين وظائف المخ ووظائف العقل) يجعل التكاملية متزامنة ومتعاقبة بتواتر في آن واحد. وقد اقتبس المفهوم السيبرناتي، وعبارة «التكاملية المتواترة» من كالي، وسيرادا Caley and Sewada (١٩٨٦) لتدل على انشاق عمليات المخ والعقل واتدماجها معا ورسومها. وباستخدامنا عبارات كالي وسيرادا، وتطبيقنا فكرتهما نقرر أن تزامن مظاهر التكاملية المتواترة وتعاقبها ينشاق في المخ والعقل من التفاعلات الجارية بين عمليات التغذية الإيجابية feed back السلبية، وعمليات التقنية الإيجابية بطواهر زمانية ومكانية متداخلة في بعضها بعضا، حيث يختص المخ بالبعد المكاني والعقل بالبعد الزماني.

وقد يحمل مثل هذا التأويل، أو التفسير الدائري في ذاته مشروعيته، وقد يغلق في الواقع «التفسير المشترك» الذي يرمى إلى شرحه، حتى ليصعب أحيانا التفرقة بين التفسير وبين الشيء المطلوب تفسيره. ومن ثم فإن العلاقة الدائرية بين الأجزاء وبين الكل، والحلقة المتردة من «الاستجابة للمؤثر» (في نظام تحكمي سيبرناتي)، والعلاقة التكاملية بين «الإثارة» و «التوقع» قد لا تكون سوى محاولات تشير بالتناوب - في نطاق كل زوج منهما - إلى تفسيرات، وإلى تعريف الظواهر المطلوب تفسيرها. ومع ذلك فالواقع أن كل زوج يحيل إلى سلوك عملي. فالعلاقة التكاملية بين الإثارة والتوقع، على سبيل المثال، هي علاقة عملية، لا على المستوى الإدراكي الحسي العصبي فحسب، كما في التكييف المضاد، ولكن يمكن أيضا بسهولة اعتبارها في المجال السلوكي بقوة الصلاة. فالإيمان الديني القوي، والمواظبة على الصلاة بنوع خاص قد يغهران من حلة موقف خطير. و «التوقعات» القائمة على إيمان ديني قوي يمكن أن تخفف من، أو حتى تكبح آثار التوتر الهالغ، أي الشدة، عملية التنشيط الكطري القشري والنخاعي، وتضعف الإثارة، أي الاستجابات السطحية للمصارة «التورادينية» (بنسون Benson ١٩٨٣).

ترى هل قوة الصلاة وحدها، وفضلا عن ولكن أيضا الطب النفسي، والعقاقير

المهذبة، ليست إلا أنواعا من التكيف المضاد؟ بالتأكيد. ولماذا يكون الطب النفسى مؤثرا كتأثير العلاج بالعقاقير المهذبة؟ لجيرود فرانك Jerome Frank (١٩٨٣) إجابة واضحة ودقيقة: «العقار المهذى بالنسبة لكثير من المرضى، يجمع تفرها كل المقومات الضرورية، وديا الكافية لكثير من التأثيرات النافعة لكل أشكال الطب النفسى».

والمقومات الفردية، وديا الكافية، كالإيمان، والأمل، والثقة، والاحترام، وما إلى ذلك... تنتمى إلى فئة «السلوك المتوقع» (القائم على تجربة سابقة)، أى أنها شكل من المعرفة الموجودة من قبل» كما فى «مينون» Menon لأفلاطون. وباختصار الفهم المسبق للتأويل الضرورى للتفسير الذاتى. السلوك المتوقع هو وظيفة عقلية يمكن أن تعيد توجيه بعض وظائف المخ. وفى مقد 'لعقل، من خلال أنواع السلوك التكيفى المضاد أن يهيمن على المخ، أى أن التشره الجديدة neo cortex - فى نموذج بول ماكليين Paul Mclean المعروف «المخ الثلاثى» Triune Brain - تهيمن على «جهاز الأطراف» limbic system، والجهاز المخى، أى «الحصان»، و «التساح» فينا. هذه المجموعة من «الحصان» و «الفارس» (المذكورة فى القسم الأول من هذا المقال) فى وسعها أن تؤدى ما هو أكثر وأحسن من أى جزء فردى من أجزائها. والعقل الذى يهيمن على المخ، يعرف أهدافه. والمادة الحية (المخ) يحكمها دواما الشيء الذى تسيطر هى عليه (أى العقل).

ومع ذلك يجب أن نجعل نصب أعيننا أن العقل ليس من إنتاج المخ، حتى يمكن تعيين مكانه به (كالبول الذى هو نتاج الكلى): العقل نشاط منتج، وسلوك مبدى، يتمثل شخصا بالثنائى: الإدراك الحسى والمعرفة، وموضوعيا بالحلقة الحسية.

REFERENCES

- ASBOTT, F., 1985, *J. Soc. & Biol. Struct.* 8, 311-312.
 ASHBY, W. R., 1956. *An Introduction to Cybernetics*, London, Chapman & Hall.
 ASHBY, W. R., 1960. *Design for a Brain*. London, Chapman & Hall.
 BALLARD, D. H., 1986. *Behavioral & Brain Sciences* 9, pp. 67-98, 107-120.
 BEER, S., 1966. *Decision and Control*. London, John Wiley.
 BENSON, H., 1983. *Trends in Neurosci* 6, pp. 281-284.
 BENVENISTE, E., 1971. *Problems in General Linguistics*, M. E. Meek. Translation Coral Gables, University of Miami Press.
 BOSSOM, J., 1965. *Psychonom. Sci.* 2, 45-46.
 CALEY, M. T. & SAWADA, D., 1986. *Cybernetica* 29, pp. 263-275.
 CORBIN, H., 1957. *Eranos Jambuch* 26, Zürich, Rhein Verlag.
 DAVIS, J. M., 1960. *Journal History of Ideas* 21, pp. 68-72.
 DESCARTES, R., 1976. *Descartes' Conversations with Beerman*, Oxford, Clarendon.
 DESCARTES, R., 1951. *Meditations*. Lafleur, L. J. Translation, Indianapolis, Bobbs-Merrill

- DOLEZAL, H., 1982. *Living in a World Transformed: Perceptual and Performatory Adaptations to Visual Distortions*. New York, Academic Press.
- DON, N. S., 1976. A book review of Power's, W. 1973 in *Biofeedback & Self Regulation*, pp. 140-44.
- DOFF, R. W., 1969. *Annal Review of Psychology* 20, pp. 289-320.
- EAGLETON, T., 1983. *Literary Theory*. Oxford, Blackwell.
- ECO, U., 1984. *Semiotics and the Philosophy of Language*. London, Macmillan.
- FISCHER, R., 1969. *Perspectives in Biology & Medicine* 12, pp. 259-273.
- FISCHER, R., 1971a. *Science* 174, pp. 897-904.
- FISCHER, R., 1971b. in *International Symposium on Gustation & Olfaction*, Ohloff, S. & Thomas, A. F. Eds., New York: London, Academic Press, pp. 187-237.
- FISCHER, R., 1985. *Diogenes*, Spring No. 129.
- FISCHER, R., 1986a. *Journal Soc. & Biol. Struct.* (in press).
- FISCHER, R., 1986b. in *Handbook of States of Consciousness*, Wolman B. & Ullman M. Eds., New York, Van Nostrand, pp. 3-30.
- FISCHER, R., GRIFFIN, F., et al. 1965. *Nature* 207, pp. 1049-1053.
- FISCHER, R. & KÄELBLING, R., 1967. *Recent Advances in Biological Psychiatry*, J. Wortis, Ed., pp. 183-195.
- FISCHER, R., RISTINE, L. & WEBCUP, P., 1969. *Biological Psychiatry* 1, pp. 209-218.
- FISCHER, R. & HILL, R. M., 1971. *International Pharmacopsychiatry* 6, pp. 28-37.
- FISCHER, R. & LONDON, G. M., 1972. *British Journal of Psychiatry* 120.
- FOERSTER, H. VON, 1981. *Observing Systems*. Seaside, California, Intersystems Publ.
- FRANK, J., 1983. *Behavioral and Brain Sciences* 6, pp. 291-2.
- FREEDMAN, W. J., 1981. *Perspect. Biol. Med.* 16, pp. 561-592.
- FREUD, S., 1938. *The Interpretation of Dreams*. New York, Random House.
- GADAMER, H. G., 1960. *Wahrheit und Methode*. Tübingen, W. Glyn-Doepel (translation *Truth and Method*. London, Sheed & Ward, 1975).
- GLASSMAN, R. B., 1983. *Zygon* 18, pp. 67-82.
- GORDON, G., Ed. 1978. *Active Touch*. New York, Pergamon.
- GREGORY, R., 1981. *Mind in Science*. Cambridge, Cambridge University Press.
- GWYNNE, P. H., FISCHER, R. & HILL, R. M., 1969. *Pharmakopsychiat. Neurop-Psychopharmakol.* 2, pp. 223-234.
- HABER, R. N., 1979. *Behav. & Brain Sci.* 2, 263.
- HELD, R. M., 1965. *Science* 213, pp. 84-92.
- HILL, R. M. & FISCHER, J., 1970. *Pharmakopsychiat. Neuro-Psychopharmakol.* 3, pp. 256-267.
- JEANNEROD, M., 1985. *The Brain Machine*. D. Urion (translation) Cambridge, Massachusetts and London, Harvard University Press.
- JOHNSON-LAIRD, P. N., 1983. *Mental Models*. Cambridge, Cambridge University Press.
- KOHLER, I., 1964. *Psychological Issues* 3, No. 4/ Monograph 12, New York, International University Press.
- KUGLER, J., 1981. *Sandorama IV*, pp. 21-25.
- KUROMARU, S., et al. 1952. *Psychiat. Neurol. Japan* 64, pp. 604-13; 1987. *Journal Lancet* 87, pp. 22-7.
- LACAN, J., 1977. *Écrits: A Selection*. A. Sheridan (translation) New York. Norton.
- LONDON, G. M. & FISCHER, R., 1970. in *Origin and Mechanism of Hallucinations*. W. Keup (Ed.), New York, Plenum.
- LANDY, M. S., 1986. *Behavioral & Brain Sciences* 9, pp. 101-2.
- LEVI-STRAUSS, C., 1958. *Anthropologie Structurale*, Paris. Plon.
- LIBET, B., 1981. *Philosophy of Science* 48, pp. 182-197.

- LIET, B., 1985. *Symposium. Cerebral processes and conscious functions. Abstracts II. Part 1. No. 3, 15th Annual Meeting Society for Neuroscience*, Dallas, Texas.
- LUBAC, H., de 1959-1964. *Exégèse Médiéval. Les-quatre sens de l'Ecriture*. Paris, Aubier-Montaigne, Part 1, Vol. 1.
- MARTINDALE, C., 1973. *Behavioral Science* 18, p. 148.
- MARTINDALE, C., 1975. *Romantic Progression. The Psychology of Literary History*. Washington, D.C., Hemisphere.
- MARTINDALE, C. & FISCHER, R., 1977. *Confinia Psychiatrica*. Basel. Karger, 20, pp. 195-202.
- MATURANA, H. R., 1985. *J. Soc. & Biol. Struct.* 8, pp. 308-311.
- McGONIGLE, B. O. & FLOOK, J., 1978. *Nature* 272, pp. 364-366.
- MAC,KAY, D. M., 1985. *Behavioral and Brain Sciences* 8, p. 546.
- MIKAEJIAN, H. H. & MALATESTA, V., 1974. *Perception* 3, pp. 135-139.
- NELSEN, J. M. & GOLDSTEIN, L., 1972. *Psychopharmacology* 26, pp. 347-360.
- NORWICH, K. E., 1983. *Journal of Theoretic Biology* 102, pp. 175-190.
- PEIRCE, CH., S., 1984. *Writings of Charles S. Peirce 2*. Bloomington, Indiana University Press.
- PELLONISZ, A. & LLINAS, R., 1979. *Neuroscience* 4, pp. 323-348.
- PELLONISZ, A. & LLINAS, R., 1980. *Abstracts, Society of Neuro-science*. 10th Annual Meeting. p. 510.
- PELLONISZ, A. J., 1986. *Behavioral & Brain Sciences* 9, p. 101.
- PENFIELD, W., 1968. *Proc. Roy. Soc. Med. (Canada)* 61, pp. 831-841: *Trans. Amer. Neurol. Assoc.* 85, pp. 80-84.
- POWERS, W., 1973. *Behavior: The Control of Perception*. Chicago. Aldine.
- ROTHSTEIN, J., 1968. *Lecture Notes*, The Ohio State University, Columbus, Ohio.
- ROUTTENBERG, A., 1968. *Psychol. Rev.* 75, pp. 51-80.
- RYLE, G., 1949. *The Concept of Mind*. New York, Barnes & Noble.
- SENDEN, V. M., 1960. *Space and Sight. The Perception of Space and Shape in the Congenitally Blind before and after Operation*. P. Heath (translation), London, Methuen.
- SIMMEL, M., 1962. *Journ. Neurol. Neurosurg. & Psychiatry* 25, pp. 69-78.
- STAPLEDON, O., 1983. *A Man Divided*. London, Oxford University Press.
- STRATTON, G. M., 1897. *Psychological Review* 4, pp. 341-360; 463.
- TAYLOR, W. S., 1966. *American Journal of Hypnosis* 8, pp. 153-160.
- TOWE, A. L., 1973. *Handbook of Sensory Physiology*. Iggo, A. Ed., New York, Springer.
- VARELA, F. J., 1979. *Principles of Biological Autonomy*. New York, North Holland (Elsevier).
- WALL, P. D., 1974. in *Essays on the Nervous System. A Festschrift for J. Z. Young*, Bellairs, R. & E. G. Gray (Eds.), Oxford, Clarendon Press.
- WILDEN, A., 1968. *The Language of the Self*. Baltimore, The Johns Hopkins University Press, pp. 250-1.
- WHEELER, J. A., 1974. *Amer. Scientist*. 62, pp. 683-691.
- WINSON, J., 1985. *Brain and Psyche. The Biology of the Unconscious*, Doubleday Garden City, New York, Anchor.
- WITTEICH, W. & RADCLIFFE, K., 1955. *Journal of Abnormal Psychology* 51, pp. 493-5.
- WITTEICH, W., 1961. in F. Kilpatrick (ed.) *Explorations in Transactional Psychology*, New York, New York University Press, pp. 188-221.
- YAKOVLEV, P. I., 1948. *Journal of Nervous & Mental Diseases* 107, pp. 313-35.
- YOUNG, J. Z., 1951. *Doubt and Certainty in Science PS*. Oxford. Clarendon Press.
- ZEEMAN, E. C., 1975. *Symposium in Catastrophe Theory*. Seattle. Springer Lecture Notes.

الاستدلال العقلى فى مجال البيولوجيا والطب

كرس عالم النفس السويسرى جان بياجيه حياته ليتابع خطوة بخطوة، وعن طريق خاطر، نشوء وتطور ملكية التفكير (اعمال العقل) عند الأطفال. فى مجرى المراحل المتتالية لهذا التطور تتغير طبيعة نظرة الطفل إلى العالم الخارجى. وبالمثل أخذ الطب منذ نشأته الأولى ينظر إلى الأشياء الحية بطرائق مختلفة على نحو متعاقب. وفى الحقيقة أن الطب تتداخل مراحله، حيث ربما لا تزال مرحلة تتبع مفهوما قديما وتكون مرحلة أخرى قد تفرقت بشجاعة من ذلك المفهوم. ومع هذا فمن أجل وضوح الرؤية سوف يحاول الكاتب تعريف المواقف الابهستمولوجية المتعاقبة، كما لو أنها قد مثلت قدما منتظما فى الفكر الطبى.

الذين فكروا دون ملاحظة والذين لاحظوا دون تفكير

تعود بداية الجهود التجريبية لفهم الإنسان والأمراض التى تصيبه إلى عهد بعيد جدا. وتتميز لوحة نهجور السومرية هى أقدم كتابة طبية معروفة*، وربما يرجع

* نهجور مدينة قديمة فى أرض سومر أدنى حوض ما بين نهري دجلة والفرات سكنها البابليون. واشتهرت هذه الأرض بأنها مقبى بنى إسرائيل، بعد أن دمر نبوخذ نصر ملك بابل معبدهم فى أورشليم (القدس) خلال القرن السادس قبل الميلاد (م).

ترجمة : زكريا أحمد الهادعى

تاريخها إلى سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد. ومنذ البدء اتخذت النظرة إلى الحدث الطبي خطين فكريين، لكل منهما أسلوب مختلف عن الآخر.

وهناك مخطوطات مصرية قديمة على ورق البردي، يرجع تاريخ اثنين منها إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، اشتهرت إحداها باسم بردية أدوين سميث والأخرى باسم بردية إيبرس. ولكن البردية الأولى تتسم بطابع التطبيق بالتجريب، إنها تصف ما تراه، فهي من وضع شخص من أهل الصناعة. وعلى النقيض منها البردية الثانية فإنها توحى بالأسطورة والخيال دون أن تكون الموضوعية كل ههما، فهي تضع أحكاما قاطعة. ولتحدد البردية الأولى لنفسها مجال وصف الكسور في عظام الجمجمة أو الأنف أو الذراع، كما لاحظها المؤلف المجهول من واقع ممارسته العملية. وتنادى البردية الثانية بقولة «إن الروح ضعيفة من داخل البطن»، أو القول بأن «نسمة الحياة تدخل من الأذن اليمنى، ونسمة الموت من الأذن اليسرى».

وجاء مولد الطب اليوناني في ظل وجهتي النظر هاتين واضحا ولكنه متشابك يتأرجح كثيرا بين عجرفة خيالية وتواضع تجريبي، حتى نرى المؤلف يتحرك دون ضبط ولا ربط من وجهة لأخرى.

ويمكن تصنيف أبو قراط المعروف بأبي الطب على أنه من بين المطبيين بالتجريب، فهو الذي قرر في باب الطب القديم من السداسيات: «لا حاجة للطب إلى شن فارغ مثل الأشياء الغامضة وغير المؤكدة».

وعلى الجانب الآخر، فإن أفلاطون يعطى ثقلا أكبر للخيال عنه للأشياء حين يكتب عن الحياة الطبيعية قوله «من أين تهيء الأمراض؟ أطن أي واحد يمكنه رؤية الاجابة. فهي مجرد وجود أربعة عناصر تتألف منها الأجسام (تراب ونار وماء وهواء)، فانها حين تزيد أو تنقص عما هي عليه في الطبيعة أو حين تنتقل من موضعها الصحيح إلى موضع آخر غريب تظهر الاضطرابات والأمراض».* ولكن أين يكون تصنيفنا لأرسطو؟

لم يكن أحد في تلك الأزمنة الفائرة أكثر من أرسطو مشاهدا مدققا. كان أرسطو يتأمل في الطبيعة قبل الحديث عنها. ويعتبر كتاب أرسطو عن تاريخ الحيوان أول نموذج مؤلف في علم الحيوان، تولد عن الفحص النظامي لأنواع عديدة من الكائنات

* ليس المقصود هنا بالعناصر الأربعة عند الاغريق تلك التي تتكون منها الأرض، وإلا الأخلاط الأربعة التي في جسم الانسان، وهي الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء. وهي تتميز شأن العناصر الأربعة بقدار ما فيها من الرطوبة أو الجفاف ومن البرودة أو السخونة (م).

الحية، ويحىء ما أوردته من أوصاف تشريحية لجسم الانسان صحيحا مع التقليل من الأخطاء. ومع ذلك فلم يكن بريقا من تهويمات الخيال التفسيرى. فقد كان مكبلا بشباطين ممارسته الفكرية الجامحة، فلا يمكنه غير الشروع عن الحقيقة ليخرج أشياء جميلة وليدة خياله. فهو يكتب عن الانسان قائلا:

«ان له ذراعين ويدين بدلا من الساقين الأماميتين والكفين ذواتى المخالب عند الحيوان. وهو الوحيد بين الحيوانات الذى يسك بنفسه منتصب القامة لأن جوهر عنصره إلهى مقدس. وعلى أية حال فان وظيفة الكائن اللاهوتى هى التفكير والحكمة. ولكن هذه الوظيفة لم تكن لتتحقق بسهولة لو أن نصف الجسم العلوى ثقل الوزن. ويرجع ذلك إلى أن الثقل يبطل كل ليونة فى الادراك والتمييز. وحين يسود ثقل الوزن فلا بد للجسم أن يتعنى صوب الأرض. وبناء على ذلك فان الطبيعة بدلا من أن تعطى التى تقضى على أربع أهدبا وأقداما جعلت لها سيقانا أمامية أسفل أجسامها لتستند عليها. وهذه هى الكيفية التى عليها الحيوانات ذوات الأربع، لأن أرواحها لم تكن تقدر على حمل أجسامها».

هناك تآرجح منذ الأزل بين كبرياء العقل دون المبالاة بالتحقق الموضوعى وبين اذعان العقل مع الاستعداد للاعتراف أمام حقائق المشاهدة. وسوف نجد هذه الحركة التآرججية على مر القرون التى تلت ذلك. ويريد المؤلف أن يستشهد فى ذلك بأمر التدقيق الفيلسوف رينيه ديكارت الذى نادى بصفحة بيضاء للعقل نظيفة وخالية من كل الأفكار المستوحاة، وهو بهذا يضم صوته مع الذين كانوا يناضلون فى القرن السابع عشر من أجل التخلص من نير العبودية للفلسفة اللاهوتية الكلامية التى استهدفت تطبيق الدين على العقل، ولا يزال ديكارت فى كتابه عن الانسان يقيم صرحا تكسدت فيه أشد الاتيئات يقينا، استمدها بالكامل من خياله المحسب. ومن هناك نقرأ قوله «الجمد لا شىء سوى قتال أو نظام آلى أرضى من صنع الخالق عن تصد».

ومرة أخرى يقول: «يتم هضم اللحوم فى المعدة بفعل سوائل معينة، ونظرا لأن هذه السوائل تأتى من القلب فورا عن طريق الشرايين فلا بد أن تكون ساخنة. وكما هى العادة فى اللحوم فانها تفسد وتسخن تلقائيا كما يفسد الدريس الجديد فى الجرن اذا ما تم تخزينه قبل جفافه».

ويستمر قائلا: «وتكون أكثر قطع اللحم رقة ونعافة غير متساوية، بل لا يكتمل خلطها معا، فهى تشكل سائلا قد يظل معتما ومائلا للبياض اذا لم تختلط احدى القطع بالدم».

كما يقول: «ويحتوى لحم القلب فى مسامه نوعا من تلك النيران بدون ضياء يجعله ساخنا وحارقا بحيث انه عند دخول الدم اليه يتمدد على الفور ويتسع. ولا تصلح تيران القلب لشئ سوى العمل على اتساع وتدفئة وتقليل كثافة الدم الذى يتساقط باستمرار قطرة قطرة خلال أنبوب الوريد الأجوف».

ويعبر ديكارت أن أجزاء الدم الأكثر نشاطا وقوة ورقة تذهب إلى المخ «فتحدث نوعا من نسحات الريح الرقيقة أو بالأصح لهيبا نقيا فى غاية النشاط هو ما نسميه مزاجا حيوانيا». وأما الأعصاب فان قشرتها الخارجية تشبه «أنبوبا كبيرا يحتوى على قليل من أنابيب صغيرة أخرى. ويوجد ضمن هذه الأنابيب نخاع يصل من مادة المخ. ولا يفيد هذا النخاع بالمرة فى تحريك الأعضاء، فهو لا يملأ الأنابيب الصغيرة التى تحتويه الا بالقدر الذى لا يستطيع به المزاج الحيوانى أن يجد فراغا ليتدفق بسهولة من المخ إلى العضلات. وترتب على كمية المزاج الحيوانى الداخلة والخارجة، أن يتمدد ويقصر جسم العضلة أو ينقبض ويستطيل. وإذا ما حدث للشبكات الصغيرة التى يتكون منها نخاع الأعصاب جذب شديد يكفى لتحطيمها فان الحركة التى تسببها فى المخ تجعل الروح تشعر بالألم، فمن المهم للروح أن يكون بيتها مصنونا. وإذا حدث الجذب بقوة مثل سابقتها، ولكن بدون حدوث تحطم، فان الحركة تجعل الروح تشعر بنوع من الشهوة الجسدية التى نسميها دغدغة اللذة».

«وحين يكون الدم الذى يصب فى القلب أكثر نقاء ورقة، وحين تكون مكوناته مختزجة على نحو أكثر سهولة من المعتاد، يصبح العصب الموجود هناك فى الحالة المطلوبة التى تسبب الشعور بالسور، وحين تكون صفات الدم عكس ذلك يحدث الشعور بالاكثاب».

ويشرح ديكارت فى معرض الحديث عن تكوين الجنين السبب فى لون الدم الأحمر، ويجهى الشرح غاية فى فخامة التصور. ويستعيد ديكارت ما سبق له بيانته وإثباته من أن رؤية الضوء هى نتيجة ما أسماه «كريات صغيرة من الجوهر الثانى: وعلى أية حال فانه فى «مسام الدم» قمر جانبيا وبسرعة فائقة مادة من «جوهريتين» تجعل الكريات الصغيرة المشار إليها تدور بسرعة فنراها حمراء، وإذا دارت بنحو أقل سرعة تبدو زرقاء».

والحقيقة أن الصبغة الحمراء التى تلون الدم حقا لم تكن قد اكتشفت الا بعد موت الفيلسوف الشهير بمئتي سنة.

وعلى هذا النحو فان قراءة الروح العلمية الجديدة وجدت صعوبة كبيرة فى مغادرة شرنقتها. ولم يكن ممكنا أن يولد تصاغر العقل تجاه الحقيقة، قبل الكثير من

المحاولات المخاطئة. واستمر فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الملاذ لمن يملكون عن نظريات ولادة الخيال أكثر مما هى ناتج التجريب، كما كان حال أصحاب نظريات النشاط الحيوى، سواء كان هلمونت أو بواسيه دو سولاج أو بارتيكز، ممن أكدوا فى ثقة أن المذهب الحيوى الذى اخترعوه بأكمله، وأن كان ابن الأخ العظيم لمقولة المزاج الحيوانى مما سبق أن نادى به ديكارت، هو المسئول الفعلى عن الوظائف العضوية.

وحتى اليوم لم يتأكد للكاتب الاختفاء التام للاجهادين المتطرفين السابق شرحهما. فهناك انهاء عند الأشخاص الخياليين يتدرج معه الاهتمام بالحقيقة، وهناك التقيض عند المهتمين بالمشاهدة من المدققين، ولكنهم التهييرون، فهم يحشدون بيانات علمية موضوعية، ولكنهم يزعجون من البحث عن أى نوع من التفسير لمشاهداتهم.

عصر الأسلوب التجريبي

ومع ذلك فقد تبلورت، بالتدرج وبصعوبة كبيرة، نظرة علمية جديدة فيما بين النقيضين السابقين، برهنت بسرعة على قيمتها بما حققت من نتائج مذهشة. وقد حاولت أن أوضح فى كتاب نشر لأول مرة سنة ١٩٨٣ بعنوان «يوميات هارفى»، أن مولد هذه الروح العلمية الجديدة يرجع للقرن السابع عشر عند رجال مثل وليام هارفى الذى اعتبر مكتشف النورة الدموية، وأن حقيقة وظيفة القلب هى فى كونه مجرد مضخة*.

ولكن بالنسبة للمستغفلين بالنشاط الحيوى والطب كان أول مرجع يقرر دون غموض القواعد الجديدة للعبة، هو الذى صدر سنة ١٨٦٥ يحمل اسم كلود برنار بعنوان «مقدمة فى دراسة الطب التجريبي». وفى المباشرة بين القاعل (الباحث) وبين الموضوع (جسم الانسان)، وصفت مبراهات وانفعالات بالأدريج، فى الكتاب بوضوح وفى ثقة لم يفلها أحد من قبل. فاللفظ الذى أبداه الموضوع يثير فعلا انعكاسيا عند الباحث دافعا إياه إلى أن يبتكر واحدا أو أكثر من الافتراضات التفسيرية. وعلى

* وليام هارفى ١٥٧٨ - ١٦٥٧، هو طبيب انجليزى ولد فى مدينة فولكستون عند مضيق دولر، ونشر فى سنة ١٦٦٨ كتابا هاما يعتبر أول سجل فى علم وظائف الأعضاء الحديث بعنوان: «دراسة فى حركة القلب والدم عند الحيوانات» متأثرا فيه بما سبقه إليه الطبيب العربى ابن النقيس عن دورة الدم عند الانسان (م).

الباحث أن يتصور بخياله التجربة التي سوف تبرهن على صحة الفرض أو بالعكس فقد تدحض الفرض بالحقائق وحدها. وتعمل التجربة بدورها على أحداث نوع من الآثار للموضوع مما يرغمه على أن يظهر الاستجابة لتلك الاثارة. وعلم جراً، فمن مبادلة تجربة بأخرى سوف يظهر حل اللغز. وهكذا لا يكون الحل الناتج وليد المشاهدة فقط كما قد يفعل التجريبيون، وليس فقط من روى الخيال وحده كما اشتد جدل المثاليين الذين يعتبرون الأشياء صوراً عقلية لا أجساماً مادية، ولكن يأتي الحل من وفاق بين الاتجاهين يجلب انسجام الرأي في النهاية بين ذاتية الباحث وصلابة الحقائق الموضوعية.

طرق جديدة للنظر إلى الحقيقة

على أن هذا «الطرح» لا يوصلنا مع ذلك إلى منهج محدد. وفضلاً عن ذلك فإنه يمثل نوعاً من الإيمان بحتمية كونية. فليس هناك شيء بدون سبب، وعرفرة هذه الأسباب يصبح في إمكاننا التنبؤ بكل شيء بصورة يقينية. لقد علمنا الفلاسفة من أية أعماق في الإنسان تنبعث جذور الشعور بالسببية ومفهوم الحتمية. فقد عملت الحتمية منذ وقت طويل (هو أطول من وقت ظهور كلمة حتمية) على تخصيص التطور العلمي، في حين سدد العلم هذا الدين باقتراح من خلال نجاحاته، ينص على أنه ليس هناك من خلاص خارج التصميم الحتمي. ويتضح صدق هذه المقولة حيث إن القوانين الطبيعية لا يمكن إدراك تعميلها بدون افتراض وجودها لكي يمكن الربط بين الملة والمعلوم، وفي كل الأحوال فإنه بدون المقدمة المنطقية المبنية على الحتمية لم يكن يتمسر للنشاط الحيوي والطب خبرة مواجهة التقدم الهائل الذي يصعب تصديقه منذ هارفي وكلود برنار وما بعدهما، حيث أدى إلى تطوير معرفتنا بالإنسان وبالبيئة. ويمكن وصف هذا الانفجار الزائد في المعرفة العلمية بأنه يشبه التعبير عن اقتناع بالحتمية جازم.

والحقيقة أن ذلك الاقتناع لا يزال حتى اليوم نافعا وضروريا لنا. إن دوام اشتغال الباحث شأنه دون شك شأن النشاط اليومي لكل شخص، يتطلب منا تخمين مقدار ما وراءه من إيمان متين بالحتمية. ولكن منذ مطلع القرن الحالي أخذ يحدث شيء غريب، فالحتمية لم تأخذ في فقدان شيء من قدرتها، ولكنها أخذت تسمح بظهور نهايات لحدودها. وأصبحت تلك الحدود واضحة منذ ولد مجال جديد، فسيح يغير حدود وغير

متوقع على الإطلاق، هو مجال «اللاحدود». وكانت تلك هى الإشارة لما قدر له أن يصبح، فى تصورى، نوعا من الثورة. انها الثورة الحديثة فى تاريخ الفكر العلمى، وهى التى أود تحليلها الآن.

مولد «اللاحدود»

كان علماء الطبيعة (الفيزياء) هم أول المقترين من حدود الجبرية. وكان ذلك فى القرن الماضى حين قام الأمريكى يوشع ويلارد جيبس بفتح باب الميكانيكا الاحصائية، وقدم النمساوى لود فيج بولزمان نظرية الاحتمالات فى الديناميكا الحرارية. وقد أوجدا بذلك ممرا أوليا حرجا بين النظرة الجبرية الصارمة الى العالم والنظرة الجديدة القائمة على الاحتمالات، مع التخلي فى سير العمل المنهجى عن الالتزام بنمط حتمى معين مباشر.

وعندئذ جاء الاقتحام العظيم للذرة، حيث تسود الاحتمية. وجاءت عبارة «وهو ذلك الحدث المتفرد الطبقي الدقيق غير المحدود» فى كتاب «هذه المادة الغريبة» الذى وضعه ألفريد كاستلر الحائز على جائزة نوبل والمتوفى حديثا. وظهر أشهر دليل على ذلك فى العمل المنشور سنة ١٩٢٧ للعالم وارنر هايزنبرج حيث أوضح أنه يستحيل معرفة وضع وسرعة أى من الدقائق الذرية فى وقت واحد باحكام يتعدى حد «اللاحدود». وتم ربط هذه الاستحالة بالطبيعة الذاتية للأشياء، واستبدعت تماما فكرة ارتباطها بحبيب فنى من جانب القائم بالتجربة.

وقد حاولت، فى كتاب «العقل وال عاطفة» الصادر عام ١٩٨٤، أن أدلل على أن قدرا مائلا من الاحتمية أخذ الآن فى غزو مجال البيولوجيا والطب. وقد بنيت تدليلى بوجه خاص على تحليل ظاهرتين مألوفتين لدى، وهما الحساسية الطارئة، ورفض الجسم لكليمة مزروعة. وبدون الدخول فى التفاصيل الفنية للبرهان يكفى هنا القول بأنه تحت شروط معينة لا يمكن التنبؤ بهاتين الظاهرتين بأكثر من شروط الاحتمالات ولكن ليس باليقين. ومن المؤكد أن عدم اليقين هذا فى التشخيص الذى يجرى أثناء عيادة المريض يكون بصقة عامة مؤديا إلى استخدامات واسعة جدا. وبالرغم من التقدم العظيم فى دراسة النشاط الجوى الجزيئى فإن الأمل فى تحقيق قدرة كاملة وتامة على التنبؤ بما يمكن أن يقع من أحداث اكلينيكية للمريض يتقهقر ويخبر أكثر من أن يرقى ويتقدم، وذلك لأن الحركة من مقياس متناهى الصغر الى مقياس ضخم تجلب درجة معينة من عدم اليقين. إن هناك بلايين كثيرة من الجزيئات

المختلفة في جسم الإنسان تتكامل معا حتى الوصول الى مقياس الجسم بأكمله على النحو الذى نعرفه بالمقياس الجزئى، ولكن التيقن من هذا يتطلب مستوى كامل

المشالية من المعرفة والحسابات التقديرية لم يتوفر لأى بحث أو أى جهاز حاسب. ويود الكاتب ابداء ملاحظة عابرة بأن عدم اليقين هنا لا يمنع مطلقا أى اقتراب علمى من حقائق طبيعة الأمراض، ويعود الفضل فى هذا الى ذبوع استخدام الأساليب الاحصائية فى مجال الپيولوجيا والطب وقد كتب كلود برنار يقول: «إن استخدام المتوسطات أو الاحصاء فى الطب وعلم وظائف الأعضاء أدى بالضرورة - إن جاز التعبير - إلى الخطأ، وانى أعترف بعدم فهم السبب فى تسمية النتائج المتحصلة من احصائيات بأنها قوانين، فالتانون العلمى بالنسبة لى لا يمكن تأسيسه الا على اليقين وعلى المحتمية المطلقة. اما الاحصائيات فلا تعطى حقيقة علمية».

وكان على برنار بعد انقضاء مئة سنة، أن يعتذر عن اصداره مثل ذلك الحكم. فقد أخذ الأسلوب الاحصائى يفزو بأعظم لمباح مجال البحث الجوى، مما أمكن معه تحقيق التقدم المذهل الملموس فى السنين الحديثة.

ويعتبر هذا التطور ذا أهمية مباشرة فى تاريخ الادراك البشرى، لأن الاحصاء ليس مجموعة من الأساليب الرياضية الفنية وحسب. ان الاحصاء بدلا من هذا القول هو «منهج لإعمال الفكر، يجعل من الممكن تفسير البيانات وبالأخص تلك التى فى علوم الحياة».

وسوف يكفى مثال واحد لموضح كيف أن الاحصاء يساعد على تقدم المعرفة فى المجالات الطبية والجوى. ولناخذ هنا النموذج الذى تعرضه دراسة رفض زراعة أعضاء الجسم. فهناك عدد كبير من العوامل الأولية تتضافر فى تفسير هذا الرفض، وهذا العدد المتضافر بذاته هو الذى يدخل عنصر عدم اليقين داخل النتيجة النهائية (ومازالنا مستمرين فى تسمية عدم اليقين بأنه الأمر الذى يستحيل التنبؤ به يقينا على النحو الذى يبدو صحيحا). وتعتبر الشخصية الكيميائية المميزة لكل من واهب العضو المزروع والمتلقى له عاملا هاما من بين عوامل الرفض الكثيرة. فإذا قارنت هذه الشخصية كما هو الحال عند التوائم لا يحدث الرفض. وفى غير حالة التوائم يكون من المفيد الكشف عن هذه الشخصية بأسلوب تحليل كريات الدم البيضاء، الذى يوضح الرتبة المعنية للجزيئات الكيميائية الموجودة على سطح الخلايا. وهى جزيئات يشار لها بالحروف ه. ل. ا. ترمز لأولى كلمات عبارة خلية دم بيضاء بشرية مضادة فى الانجلىزية، ثم تمجد مجموعتها فى الرتبة من ا حتى د. وكانت المشكلة هى فى معرفة نتيجة المقارنة بين «ه. ل. ا» واهب العضو المزروع و«ه. ل. ا» المستفيد، وهل

تكون ذات قيمة معينة يسهل معها التنبؤ بنتائج عملية زرع العضو (وهي قيمة معينة وليست قيمة مطلقة حيث إنه من غير المؤكد معرفة أثر تداخل عوامل أخرى على النتيجة). وفي بداية تجربتنا حددنا مجموعتين فرعيتين من هـ. لـ. ا. حيث تبين من مجموع ٦٤ حالة كان فيها الواهبون والمستقبلون هم من الإخوة والأخوات وليسوا توائم أن هاتين المجموعتين الفرعيتين متماثلتان تماما في عدد ٣٣ حالة ومتماثلتان جزئيا في ٣١ حالة الأخرى. وعلى أية حال فقد لاحظنا بعد أربع سنين من زرع الأعضاء أن نسبة النجاح كانت ٩٦٪ في الحالات الباقية المتماثلة جزئيا. وربما يكون هذا الاختلاف في النسبة نتيجة الصدفة أو من باب الحظ. إن الشخص الذي يقامر في لعبة الروليت يعلم جيدا أن فرصة استقراره بلمبة الحظ على أحد اللونين الأحمر أكثر من الأسود أو العكس واحدة حتى ولو في سلسلة من ٦٤ رمية لللمبة. وبالرغم من هذا فإن التساوي بالصدفة هو أمر نظري. ولكن الحساب الاحصائي في سلسلة من عمليات زرع الأعضاء يدل على أنه من الممكن أن تقل نسبة احتمال ظهور الفرق بالصدفة عن واحد في المئة، أي تكاد تكون معدومة. وبهذا استطعنا اعتبار أن قائل هاتين المجموعتين من هـ. لـ. ا. يؤثر تأثيرا حقيقيا في نجاح عمليات زرع الأعضاء المشار إليها، أو إذا شئنا القول بأن عدم تماثل المجموعتين قد يكون المسئول جزئيا عن رفض الأعضاء المزروعة. لقد مثل التاريخ المخصب لاكتشاف واستخدام هذه المجزئات من هـ. لـ. ا. نتيجة أخرى من نتائج الدراسات الاحصائية. ويمكن التذليل على قيمة مثل هذه الدراسات في كل مجالات النشاط الحيوي والطب.

مفهوم «الانقطاع»

هناك عامل استمولوجي جديد رصدت له جانبها من بحثي على مدار السنين الأخيرة، اقترحت تسميته مفهوم «الانقطاع». وأقصد بالانقطاع تشريح تقطيع الواقع إلى مناطق متميزة. إن الدنو العلمي من معرفة الحقيقة لا يسمح بأن تكون النظرة وحيدة ومتجانسة لرؤية الكون المحيط بنا. فهناك فجوات اجبارية في معرفتنا للعالم الخارجي. وهذه الفكرة بدون ريب ليست أصلية في مجموعها، فالكثير من المراجع الفلسفية القديمة قد أوردت هذا الرأي. ولكن قوة هذا المفهوم أخذت في التزايد الملحوظ في ضوء الأحداث العلمية الأخيرة.

ولكي أكون واضحا تماما أحب أولا وقبل كل شيء أن أستخدم مثالين صريحين صراحة مطلقة. ويمكن أن يحمل المثال الأول عنوان حكمة الذرة والجبل. فان الجبل

يتكون من ذرات. وأخذت دراسة الجبال تحقق تقدما ملحوظا في كل ما يتعلق بظواهر التآكل والانهيارات والثورات البركانية. وبالرغم من ذلك فإنه يستحيل التنبؤ بالثورانات البركانية أو التآكل في جسم الجبال بواسطة ما نعرفه عن ذرات الجبال. ويحتمل عدم التوصل إلى هذا أبدا. وليس الأمر بسبب استحالة فنية، ولكنه بسبب فجوة أو «انقطاع» يمنع المورد السهل من القوانين التي تحكم الذرات إلى تلك التي تحكم الجبال. ولا يمكن الاستدلال على تكوين الجبال ووصفها من مجرد النظرية الذرية، بالرغم من ثقتنا بأن الجبال مكونة من ذرات.

وليس مفهوم «الانقطاع» مقصودا على مقياس الحجم. إن هذا المفهوم يمكنه أيضا الظهور من خلال المقياس نفسه، بمجرد تغيير أسلوبينا في الدراسة. فإن طريقتين مختلفتين للنظر إلى الطبيعة يمكن أن يعطيا الشيء الواحد صورتين منفصلتين على قدر معين من استقلال إحداها عن الأخرى. ففي مدينة الهندية يوجد على واجهة كنيسة سان مارك وهي من طراز البناء الروماني مستطيل الشكل بازليك، وهو منحوت تحت بارزا، و يشار إليه عامة بأنه هرقل الجبار وذكر الوعل الأحمر. وهناك طريقتان لدراسة هذا النحت. ويقودنا الطريق الأول إلى القول بأن النحت هو على لوحة رخامية ارتفاعها ١٦٤ سنتيمترا وعرضها ٨٦ سنتيمترا، وإن الرخام يدخل في تركيبه عنصران هما الكالسيوم والكربون على شكل كربونات الكالسيوم المتبلورة، وأن عروق البلورات الملونة متمزجة مع بلورات بيضاء، وأن كل ذرة كالسيوم ترتبط بذرة كربون وثلاث ذرات أكسجين. وقد يبقى هذا التحليل التكويني ساريا زمنا طويلا.

ولكن هناك أيضا التحليل الآخر، ويقصد به بحث التعبير الإرادي المحتفى الشرس تقريبا والهادئ على الوجه ذي اللحية، وذلك الاختلاط الذي صوره النحات المجهول، حين أظهر هرقل بهاجم ذكر الوعل، مع أن الأسطورة تتحدث عن أنثى الوعل، وظهور نوع من عدم الاتقان العجيب في التناسق بين الكتل المنحوتة. وليس هناك تضارب بين التحليل الطبيعي والكيميائي في جانب وتحليل المهارة الفنية في جانب آخر، وإنما هناك مدرك الانقطاع بين التحليلين فقط. وتكون الحقيقة المستكشفة مختلفة لأن الأسلوب مختلف. فالرخام الهندى له حقيقتان متميزتان لأن هناك طريقتين مختلفتين للنظر إليه.

وأنتعش أن يسامحنى القارىء في ذكر تلك الأمثلة المبسطة. وقد اخترتها لسبب واحد هو تقديم فكرة أن أساليبنا البحثية تشبه المرايا الكثيرة وكل منها يمكن أن يعطى انعكاسا معيناً للحقيقة. ومن الطبيعي أن تختلف هذه الانعكاسات متى تغيرت المرأة. وحينئذ نعود إلى موضوعنا لنبين أن مثل هذه الانقطاعات تقسم

الاستدلال العقلى فى مجال البيولوجيا والطب

المعرفة العلمية مثل وجود فواصل كثيرة فى الحجرة الواحدة. وسوف أتناول على سبيل المثال الفرق فى رأى بين المشتغلين بعلم بيولوجيا (أخلايا العصبية وبين المشتغلين بعلم النفس. يقرر الأولون بأن التفكير خاضع لوظائف النشاط العقلى، وفى كل سنة يشرحون بتأكيد أكبر ما هية الوسائط الكيميائية التى ترتب سلوكنا. ويرى الآخرون أنها لفضيحة إذا أخذنا بفكرة أن حياتنا العقلية هى أمر بسيط من أمور الكيمياء، وأن حريتنا السلوكية هى مجرد وهم كاذب. وينظم الأولون بتكامل كل ما فى الطب النفسى والعقل مع ما هو داخل دراسة حيوية المخ، فى حين يرفضه الآخرون. وعلى أية حال فهذا دليل على وجود انقطاع يفصل اتجاه أطباء الأعصاب عن علماء النفس. وهذان أسلوبان متميزان وصورتان مختلفتان. وبصرف النظر عن الصدمة التى ربما تلحق بمبادئنا التقليدية فيما يتعلق بعملية التفكير (الاستدلال العقلى)، إلا أنه يبدو لى أن الروح العلمية ينهى أن تكون هى السائدة. وهنا أيضا يذنب علماء الطبيعة على الطريق. انهم أيضا كانوا مرغبين على قبول انتهاك حرمة رغبتهم فى التفرد بدون نظير. وحين ولدت فروع الهندسة غير التقليدية مستحدثة المفهوم المتعلق بنمط معين جديد هو الفراغات مما ساعد مثلاً على ظهور نظرية النسبية لا ينشئين، أصبح من الممكن الاعتقاد بموت الميكانيكا التقليدية لاسحق نيوتن. ولم يكن هذا هو كل ما فى الأمر. فإن الهندسة غير الاقليدية لم تعد صحيحة بأكثر من الهندسة الاقليدية. وتكون واحدة منهما ذات فاعلية تحت ظل شروط معينة والأخرى تحت شروط غيرها. وبالمثل لم يعد صحيحا القول بأن «الضوء عبارة عن موجات»، أكثر من القول بأنه مكون من دقائق. فإذا اعتبرنا الضوء من حيث انتشاره فإنه يكون موجات، وإذا نظرنا لكيفية تداخله مع المادة فإنه يكون دقائق. وحينئذ يصبح مفهوم دقائق الفوتونات أمراً ضرورياً. وتصبح كل ميكانيكا الموجات التى وضعها لويس دو بروجليه، شأنها شأن الآلهة إغرائى جانوس حارس البوابات فى الاسطورة الرومانية القديمة وهو يتمثل بوجهين أمامى وخلفى فى رأس واحد، أى أن الحقيقة فيها مزدوجة الصورة. وجاء علماء بعد نيلز بوهر أصبحوا معتادين على هذه التكاملية بين الموجة والدقيقة. وتتصالح كل حان الوقت الذى سوف يتقبل فيه المشتغلون بالبيولوجيا نفس المفهوم المتعلق بالتكاملية حتى ولو أدى الى انقلاب منطق التفرد بلا نظير المتأصل فى نفوسهم؟

إن المشتغلين ببيولوجيا الخلايا العصبية، هم حقيقة على صواب حين يؤكدون أن المواد التي تتخلق داخل الجسم بفعل هورمون الأدرينالين التي تفرزه الغدة فوق الكلوية مثل مجموعة أندو مورفين المهدئة للأنفعالات ومجموعة أنكي فالين المثيرة للأنفعالات وغيرها من الوسائط الكيميائية هي التي تكيف أمزجتنا وتسيطر على سلوكنا. وعلماء النفس لا يجانبهم الصواب حين يؤكدون حرية التفكير.

إن الصورة الواضحة عن مفهوم الانقطاع الذي يجزىء ادراكنا للحقيقة، يقينى من أن أصدم بقول بعض الناس بأن قراراتى ليست حرة فى حين يخبرنى البعض الآخر بأنها حرة تماما. فالأولون يقولون وهم على صواب بأن حياتى العقلية هي التعبير عن وظائف يؤديها المخ عتلى. ويرى الآخرون الرأى السديد بأن هروبى من فعل الخلالا العصبية العديدة في مثل هروب منظومة شعر لم يسبق التكهّن بها إلى أوراق الكتابة التي هي وسيط المعرفة، مما يجعل تفكيرى د. ١٠ عن قدر كبير من تصميمه الجبرى. ولا يكون في هذا تناقض، ولكنه ببساطة تغيير في التحليل أو تغيير في المرأة العاكسة. انى لست حرا ولست مقبنا. فاذا رجعت إلى أساليب النشاط الجبرى للأعصاب فلأجد أن أعرف حقيقة أن أحداثا طبيعية وكيميائية معينة تحد من حريتى. وإذا نظرت الى نفسى طبقا لأساليب تحليل ظواهر الفكر بعيدا عن النشاط الجبرى للخلايا العصبية فأنا حر وكامل الحرية.

الثنائى غير المنفصل.. أو الرأى والمرئى

لقد تلقى التفكير العلمى انذارا آخر للتغلى عن مكانته، فدراسة الدنيا من حولنا تفترض حتى الآن اعتبار الشئ المرئى مستقلا عن الرأى. وينهى بالضرورة أن تتجمع كل مناهج الدراسة في وصف واحد متجانس للشئ المرئى وأعنى بهذه الكلمة كل شئ يتعرض له استقصاؤنا سواء كان جسم الانسان أو مادة حية أو مادة غير حية أو الكون عند الفلكيين، أو ظاهرة طبيعية نوعية تشير ميكانيكتها فضولنا.

لقد أكدت انثومينولوجيا و«ظاهراتية» هوسرل، هذا الحدث البالغ الأهمية فيما يتعلق بفهمنا للمعرفة، معرفة عدم تغير الشئ المرئى وثبوتة. وكان هوسرل رافضا للدخول في النقاش الأزلئ عن وجود الشئ بلماته، واعترف بأننا ندرك الشئ مختلفا حسبما تكون زواية الرؤية. ولكنه وضع قاعدة بأن الشئ في ذاته لا يتغير مهما تكن كيفية اقترابنا منه.

وعلى أية حال فإن هذا بالضبط أصبح اليوم موضع التساؤل. فليس من المؤكد وجود شيء ثابت غير متغير ولا يختلف بمشاهدتنا له. وربما يكون هذا على الأقل عن أشياء مثل مقياس الدقائق الذرية، حيث قد يؤدي تدخل الرأى الى تغير الشيء المرئى. ان كل شيء يحدث كما لو لم يكن للشيء وجود دائم، وتتوقف طبيعة الشيء على أسلوب استقصائه. وسبق أن أوردت مثال الضوء وهل هو موجات أم دقائق، فلا بد أن يتوقف ذلك على الشروط التجريبية. وفى البيولوجيا لا يؤدي اختبار مقطع من نسيج حي تحت المجهر الضوئى أو الالكترونى إلى صورة مستقلة عن أسلوب الاختبار نظرا لأنه يلزم أولا قتل المادة الحيةوية بفحصها فى سوائل التثبيت. وبهذا فإن انعكاس الحقيقة التى يمكن الحصول عليها يختلف تبعاً للأسلوب الفنى المستخدم. ان الأمر هو مجرد ترجمة - ولا نقول خيانة - للمكونات الحية التى نحاول معرفتها. ويمكن أن أورد عن ذلك كثيرا من الأمثلة. أنه أمل باطل فى أن تتحقق الموضوعية العلمية مستقلة عن الرأى وعن أساليب البحث. إن العالم الواقعى ليس هو الذى يصف البحث العلمى، بل هو الذى يتحقق بالحوار بين الرأى والحقيقة، ذلك الحوار الذى يكون فيه الرأى ومناهجه على قدر من الأهمية مثل الواقع نفسه. وفى مجال البحث العلمى يعتبر أعمال تدخل الرأى نوعاً من الخطأ الفادح فى حق فن التفكير.

وعلى هذا النحو يهدد الباحث الواقع بقدر ما يكتشفه، أى يمكن القول أنه معرض دائما للوقوع فى الفخ النهائي الذى يبدو اليوم واضحا جليا أنه : خطيئة نزعة التشبيه.

خطيئة توصيف هيئة السلالات البشرية

جاء فى كتاب أندريه ليلاند طبعه سنة ١٩٧٦ بعنوان «معجم الفلسفة»، بشأن تعريف ذلك النوع من التفكير الذى يطبق، من أجل شرح ما هو غير بشرى، معلومات مستوحاة من سلوك الانسان. واليوم بلا ريب يميل الباحث العلمى الى اعطاء هذا المصطلح مجال فكر أوسع. إن عملية التفكير والاستدلال العقلى عند الانسان تعد صحيحة وسائغة بالنسبة لما يلاحظه من خلال حواسه على مستوى حياته اليومية. وعلى ان استكشاف أشياء متناهية الصغر يوحى له بعدم التمكن من أعمال الفكر فيما يتعلق بالدقائق المجهرية بنفس الكيفية التى تعمل بها فكرنا فى حالة كرات البلياردو. وبالمقارنة مع صورنا المعتادة يبدو عالم الطبيعة المجهرية مثل عالم

الصور السريالية أى ما فوق الواقع، حيث تعانى مدركات الهوية والاستمرارية والسببية تحولات غريبة. وينفس الكيفية وفى مجال الضخامة اللاهائية يقدم لنا المشتغلون بالطبيعة الفلكية عالما محدودا ولكنه بدون آخر، وهى صورة غير مقبولة بقياسنا حيث لا توجد حدود بدون أن يكون هناك شيء ما موجودا بعد هذه الحدود. ولذلك يصعب من قبيل «التشبيه» استخدام منطقنا المعتاد بمقاييس مختلفة إلى ما لا نهاية عما يحيط بنا مباشرة.

وهناك شيء آخر مشوق عن نزعة «التشبيه» هو نسيان لروض القياس المنطقى الأصلية. فالباحث يكتشف بأنونا علميا ويحققه بعناية تحت شروط نوعية من الملاحظة. ويكون قد اخترقها تماما. وبدون أن يتحقق منها فإنه يتد بهمال الاستخدام الى ما بعد التخوم المحددة للموقف الذى يقام البرهان على قانونه. انه يستكمل من الخارج. وتأخذ أقدم مثال لهذا وهو الهندسة الاقليدية: تبنى عدت لأكثر من عشرين قرنا حقيقة ثابتة حيث وضع اقليدس أساسها منذ القرن الثالث قبل الميلاد على مسلمات لا تخضع للبرهان، فنجد هؤلاء الذين كانت لديهم الجرأة على تغيير هذه المسلمات قد أمكنهم فى الوقت نفسه تغيير صورة العالم. فالحقيقة العلمية ليست أبدا حقيقة مطلقة، انها حقيقة نسبية وأسيرة الشروط سواء الصريحة منها أو الضمنية التى تأسست الحقيقة تحت ظلها.

ولقد أصبح الباحث فى نهاية القرن الحالى متيقظا لسلسلة المصادم والفخاخ التى أشرت لها من قريب. فالعلم لم يأخذ فى التقدم من خلال المشاهدات والأدوات الجديدة فقط، وإنما أيضا من خلال فن إعمال الفكر.

ومن أجل الوصول إلى «لب» ما أفكر فيه أتسائل مع نفسى عما كان يحدث لو أن كل شخص يتعقل الأمور دون أن ينتبه للفخاخ المنطقية التى أخذت تكشف عنها التجارب الحديثة. وأتسائل أيضا عما كان يحدث لو لم تجعلنا مغامرة التشبيه حريصين على الاستكمال من الخارج بدءا من المنطق والقياس المعتاد إلى مقاييس الفضاء والزمن، المختلفة تماما عن دنيانا الصغيرة العادية.

إننا نجد حقا فى أعمال كثير من الفلاسفة مثل نيتشه وستوارت ميل وآخرين، التشاؤم والتحذير من الخطر الكامن فى التطبيق الخاطئ. لعاداتنا المنطقية على مجالات لا تصلح لها. إننا منذ الطفولة وما بعدها لا نستطيع كبح جماح أنفسنا من التساؤل عن مسببات الأشياء. ويحق هذا فى الأحوال التى يكون لها دائما سبب أو أكثر. ولكن هل يحق لنا هذا السؤال مع المقاييس الكونية؟ وهل يحق لنا أن نسأل أنفسنا عن مسببات ودلالة العالم تحت زعم أن كل شيء فى حياتنا اليومية يبدو له

الاستدلال العقلى فى مجال البيولوجيا والطب

مسيب ومعنى؟ إذ أن افتراض أن العالم له دلالة أو مغزى يعنى فى حد ذاته افتراض أن مفهوم الدلالة هنا ليس متقيدا بالمنطق البشرى، فهو ينطبق على العالم ولا بد أن يستمر له معنى ولو اختلف الناس.

إننا فى هذا الطريق نلعب مع اللاتهاية المكانية، ولا نستطيع تخيل أن السؤال عن حدود العالم سؤال باطل بالصورة التى يدعوننا إليها المشتغلون بالطبيعة الفلكية. فمن الواضح أننا نلعب مع اللاتهاية الدنيوية ولا نستطيع تخيل أن العالم له تكن له بداية بالرغم من أن مسألة بداية العالم ربما تكون سخيفة وغير معقولة مثلها مثل التساؤل عن حدود العالم.

وعلى أية حال فإن يكن تطبيق كلمة بداية على العالم هو لا شيء أكثر من كونه استكمالاً من الخارج ومحظوراً شرعاً وهو وليد الحقيقة القائلة بأن كل شيء حسب مقياسنا البشرى له بداية، وليس هناك من شيء على ما يبدو إلا أن يكون مخلوقاً، فهل أكون فى حاجة إلى التساؤل عما يحدّ مثله هذا من ثورة فى عاداتنا الفكرية؟

إن هذه الأفكار المقلقة وهذا الإدراك لجوانب الضعف المحتملة فى تفكيرنا العقلانى قد لا تكون جديدة حيث استطاع كثير من الفلاسفة رؤيتها. ولكنها المرة الأولى فى تاريخ الفكر الإنسانى التى تظهر فيها هذه الحدود للمعرفة بالدليل القاطع، مما يعود مرجعه الى التقدم العلمى الحديث. إن العلم بتجاربه الثمينة يسمح لنفسه أن يعلن أنه لن يترك المفتاح فى قفل التقصص.

والى من قد يشعرون بالاحباط يمكن أن نجيبهم بأن المعرفة العلمية للعالم ليست وحدها قطعاً هى المسلك الوحيد لتفكيرنا. انه توجد أشياء أخرى للفكر، مثل الشعور بالحاجة إلى الجمال والعاطفة والايمان ومبادئ الأخلاق والتعطش للمعادلة، مما يعتبر بملكة الباطن التى لم تعد تصلح فيها لزمومات وحدود المعرفة العلمية.

الهوية القومية في أدب أمريكا اللاتينية

(١)

إذا سلمنا بأن أدب أمريكا اللاتينية جزء مما يسمى بالثقافة الغربية جاز لنا أن نسأل: لماذا عجز هذا الأدب عن التأثير في أي أدب من الآداب الكبرى في الغرب، فيما عدا الأدب الإسباني؟ وأقول بمهارة أدق إنني عندما أتحدث عن التأثير لا أشير إلى تأثير ثقافة أمريكا اللاتينية وتاريخها في الغرب، وإنما أشير إلى تأثير الأدب على وجه التحديد، أعني تأثير الكتابة والكتاب واللغة ومحتواهما وتأثير الابداع والرموز. ولقد ظل أدب أمريكا اللاتينية - كالأدب اليوغوسلافي أو البلغاري أو الأيسلندي - ظاهرة هامشية، على الرغم من فوز إيفو أندريتش بجائزة نوبل. والدليل على ذلك أن إنتاج هذا الأدب يدور في دائرة مغلقة، وليس له أي صدى حقيقي إلا في إسبانيا. هذا إلى جانب أنه يعاني من الشعور بالثقب لسببين: أحدهما عجزه عن مجاراة التيارات الأدبية المعاصرة، والآخر عجزه عن التعبير عن الواقع الاجتماعي.. وبسبب هذا الشعور بالثقب يتظاهر هذا الأدب بالتجديد، واتباع النماذج الأجنبية، أو بتمجيد هوية قومية لم تنتج أي شكل من الأشكال الأدبية

المترجم : أمين محمود الشريف

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

الجديدة، وكل ما أنتجته لا يغلو أن يكون فنا ضئيل القيمة من فنون الدعاية. وتجنح هذه القومية إلى المحاكاة والاقتراس، أو تترد إلى الورا. وهى إما تحاول مجازاة التيارات الأدبية الحديثة، وإما تهتدع نوعا من القومية الأمريكية العنيدة بطريقة حمقاء تدل على الغباء. وإما تقبل الأشكال الشعبية التقليدية التى تتيج لها إنتاج أعمال أدبية مثل العمل الأدبى المسمى Martin Fierro الذى لا تنكر قيمته بالنسبة لأهل أمريكا اللاتينية، وإن كان محدود المجال.

وجدير بالذكر أن الرغبة الواضحة فى تحويل طرق التعبير فى أمريكا اللاتينية إلى لغة عالمية تظهر على المسرح الدولى لم تتحقق إلا قليلا. ذلك أن الاندفاع الأدبى فيها لم يشجع على إيجاد حركات أدبية جديدة قوية، كالرومانسية، والرمزية، والحركة الجمالية، فى نهاية القرن التاسع عشر، والنادية، والسريالية، والبنيوية. بل يلاحظ أن كل جديد يأتى من أوروبا، كما يأتى من الولايات المتحدة، وهو الأمر الذى يجرح كبرياء أمريكا اللاتينية. ويلاحظ أيضا أن إنتاج أندريه بيلو، لا يحظى بالانتشار الواسع على الصعيد الدولى، وإن كان ذلك لا يعنى أنه إنتاج لا قيمة له، ولا غناء فيه. والواقع أن تأثير أدب لايتنى إنسانى مثل خوسيه إنريك دودو، محدود فى أدينا، وكذلك تأثير الحركة المعاصرة المسماة Modernismo، وهى حركة إن كانت قد أثرت فى الأدب الأسبانى فلا صدق لها فى البرازيل، وقلما يعرفها أساتذة الجامعات فى أوروبا وأمريكا، أو رجال التعليم. مثال ذلك أن روبرت داريو، يُجِل قدر الشاعر الفرنسى فيولن الذى يخاصره، ولكن هذا الأخير لا يعرف شيئا عن داريو، بل لا يدري أموجود هو أم غير موجود!

كما أن داريو، الذى لعب دورا حاسما فى أدب أمريكا اللاتينية لا يزال مجهولا فى أوروبا والولايات المتحدة، عدا أقسام اللغة الأسبانية فى الجامعات، وذلك خلافا للشاعر الأمريكى بُو. (إدجار ألان بو ١٨٠٩ - ١٨٤٩) الذى أثرت أعماله فى الشاعر والكاتب الفرنسى بُو ديلير (١٨٢١ - ١٨٦٧). وجدير بالذكر أن كلا من داريو وبُو أمريكى، ولكن بينما الأول لا يهم سوى أمريكا اللاتينية وإسبانيا، إذا الثانى يتمتع بشهرة عالمية تتجاوز نطاق الأدب الغربى. وإذا قصرنا النظر على الدائرة الأمريكية وحدها وجدنا أن بعض الشخصيات مثل فرانكلين، وأيرفنج، وهرمان، وثورود، وإيزنسون، ولونج فيلو، وهرمان، وتوين، تمتعوا بشهرة دولية أكبر مما تمتع به بيلو، ومونتالكو، وسارمينتو، ومارمول، وبومبو، وإيزاك، وميستوس، وترفو. هذا فيما يتعلق بالقرن التاسع عشر.

أما فيما يتعلق بالقرن العشرين فإنني لا أرى أن اتجاه الرياح قد تحول لصالح أدب أمريكا اللاتينية وفكرها. على الرغم من ازدهار فن الرواية فيها، ومنح جوائز نوبل لكل من جيريل مسترال، وميجويل أنجيل أسترياس، ويابلو نيرودا، وجيريل جارنيا ماركيث. صحيح أن إنتاج هؤلاء الكتاب قد تُرجم إلى عدد من اللغات كما تُرجم إنتاج جاليجوس، وكورتازار، وغيرهما، ولكن يجب التسليم بأن هؤلاء الكتاب يحتلون مكانا ثانويا، ولم يشهروا من الاهتمام لدى النقاد، وفي السوق، إلا أقل بكثير مما أثاره هيمنجواي، وفوتجيرالد، وميلو، ودويس باسوس (في عصره)، وشتاينبك، وفوكتر، وواوند، وأونيل، وتينيسي وليامز، وسارويان. ولا أذكر هنا ملفيل صاحب خرافة، «موسى ديك»، وهو كاتب جدير بالتقدير تم اكتشافه حديثا، على الرغم من أنه ولد في ١٨١٩ وتوفي في ١٨٩١، أعني أنه ينتمي للقرن التاسع عشر، ويعاصر الروائيين من أهل أمريكا اللاتينية الذين طوأمهم النسيان، مثل الأديب الشيلي ألبرتو بلست جانا، الذي تأثر بالأديب الفرنسي بلزاك، ومثل أديب أرجواي المسمى البخانديرو صجارينوس سرفانتس مؤلف رواية «كرامورو»، وهي رواية من روايات رعاة البقر، نُشرت على «حلقات»، ومثل الأديب المكسيكي فيسانت ريفا بلاتيو، والأديب الأرجنتيني لوفيو فكتور ياتو مانسيلا. وفي فنزويلا ولد الكاتب خوسيه هيريرتو جراثيادي كريفيدو، في سنة ١٨١٩ وهي السنة نفسها التي ولد فيها هيرمان ملفيل. وعاش خوسيه في فرنسا عدة سنين وشهد الانفجار التاريخي الذي أصاب «كومبون» باريس (حكومة باريس الاشتراكية من ١٨ مارس إلى ٢٧ مايو عام ١٨٧١ ثم قضى عليها جنود الجمعية الوطنية التي ادعت أنها الحكومة الشرعية). ولم يؤلف خوسيه كتابا مثل موسى ديك، وإنما ألف قصصا صغيرة قصة «أمور دي إينا يتنا» إلخ.

ولم يكن ملفيل معروفا في عصره حين نشر رواية «موسى ديك» في ١٨٥١. ولم يدرك النقاد في عصره القيمة الكبرى لهذا الكتاب الذي حول الحقيقة إلى خرافة بإدخال سلسلة من التفسير والتعديل ولكن النقاد المحدثين اكتشفوا مكانة المؤلف، وروا في «الحوت الأبيض» رمزا للفوضى والاضطراب في هذا العالم المعقيم. ورمزا للشعور بالرهب إزاء الحقيقة المطلقة، وروا في الكاهن «أهاب» رمزا للارادة الصلبة التي تهزم كل الكائنات الوحشية الضخيفة، وتقاوم الهواجس النفسية التي تؤرق فؤاد الإنسان. بيد أن هذه الرمزية النموذجية تركز على لغة تمزج بين أسلوب الكتاب المقدس والعاطفة المتأججة، كما تركز على أشخاص غريبة وجلابة. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يتسم بالرومانسية الواضحة فإنه عمل أدبي يتسم بروح العصر بسبب ما يشوبه من الفموض، وما يحفل به من الرموز والتراكيب المعقدة، وما يحتميه من

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

الأروام والخيالات: فالبحر فى هذا الكتاب هو «مملكة» كل ما هو مجهول ومهول، والإنسان يواجه ما يزعج به هذا البحر من الغار وأسرار. وبالإضافة إلى العناوين السابق ذكرها نستطيع أن نذكر هاتين الروايتين المعاصرتين لرواية ملفيل، وهما رواية «ماديا» بقلم جورج ايزاك التى نشرت فى ١٨٦٧، ومن الأفضل أن نضرب عن ذكرها صفحا، ورواية «أماليا» بقلم غوسيه مارمول، التى بدأ نشرها على حلقات فى السنة نفسها التى ظهرت فيها رواية موبى ديك. ولكن أحدا لا يهتم سواء برواية ماديا أو أماليا اللهم الا الطلبة الذين شاء لهم سوء الحظ أن تكون مقروءة عليهم فى برامج الدراسة

وعندما نشر غوسيه إنترك رودو كتابه «أديل» فى ١٩٠٠ - وهو يتضمن نقلا مُقتبعا للعالم المادى الذى تعيش فيه أمريكا الشمالية، وديمقراطيتها الضئيلة القدر، وإن كانت ضخمة الحجم، والمفتقرة إلى رقة أمريكا اللاتينية وبراعتها فى معالجة المواقف الصعبة، والمجردة من المثل العليا، والبعيدة كل البعد عن روح أمرسون أو تشاننج - كان فيما يبدو لا يعرف شيئا عن أدباء أمريكا الشمالية فيما عدا الشاعر يو الذى يبدو أنه قرأ فيما ترجمه الشاعر الفرنسى بوديلير. ويبدو أن غوسيه كان يعرف بعض الكتاب مثل ثنائيل هوثورن، وإميلى دكنسون، ومارك توين، وهنرى جيمس، والأديب الشعبى جيمس فينيمور كوبر، والشاعر الذحل والت وتمان. ولكن يبدو أن النزعة الديمقراطية الفاضحة التى تعبر عنها قصيدته «أوراق العشب» البعيدة عن الأسلوب الرقيق فى كتابه «أديل» لم تحجب رودو، ولذلك لم يعرها اهتماما على عكس ما فعل روبن دايو الذى نظم رسالة «أديل» شعرا وتفننى بأمجاد «السلالات اللاحقة والغزيرة الإنتاج التى انحدرت من أسبائها الخصب»، وقارن بأسلوب بليغ وقومى بين أديل الأمريكى اللاتينى، وبين كاليبان الأتفهلو سكسونى (أديل شخصية «طبيبة» فى حين أن كاليبان شخصية شريرة ورد ذكرهما فى مسرحية «العاصفة» لشكسبير)؛ وبعبارة أخرى قارن بين مثالية الهنود الحمر والأمريكيين اللاتين، وبين النفعية الامبرهالية الخسيسة عند اليابانكيين (اسم لأهل أمريكا الشمالية) ويهدد داريو بتزوير وزفقت (رئيس أمريكا الشمالية) ويصفه بأنه «صياد مفترس» مذكرا بإياه أن «أمريكا - أمريكتنا - قد أنجبت شعراء فطاحل منذ عصر الشاعر الهندى الأحمر القديم نتراهوكو يوتل، وأنها - أى أمريكا اللاتينية - قد اقتفت أثر باخوس العظيم (إله الخمر عند الرومان)، وتعلمت أبجدية الإله بان (إله الغابات والمراعى والأنعام عند الاغريق).

إن هذا الشاعر الغنائى، السخى الكريم، سليل الهنود الحمر، وسليل الأغارقة والرومان فى الوقت نفسه - وهؤلاء الشعراء الآف شبل من أشبال الأسد الاسبانى. سوف يقدفون الرعب - بمعون الله - فى قلب روز فلت "الكاليبان" (الشهير) حتى ترتعد قرائضه وترجف برأده ١

وهكذا رفع داريو شعارا ناجحا استلهمه من صورة «المتوحش الطيب» (رمز للهندي القديم) - صورة العصر الذهبي والمضى الفردوسى الذى يعرض أهل امريكا اللاتينية عن العديد من مظاهر الاحباط الاجتماعى والتاريخى والاقتصادى والثقافى. وانك لتجد الكتاب الواقعيين - سواء منهم من يتظاهر بتقليد غيره والنقل عنه، أو من يحاول تفسير الواقع الاجتماعى - كلهم يبحث دائما عن الهندي الأحمر القديم محاولا بعشه إلى الحياة من جديد، سواء فى الذاكرة أو فى قصة خيالية. ويتخذ هؤلاء الكتاب من الهندي القديم مبررا للثورة على الأوضاع المحاضرة التى تعجز على أنفاس الناس. ولهذا الهندي القديم دور كبير فى البحث المحموم عن هوية أمريكا التى يقدح الأمريكيون اللاتين زناد أفكارهم لمعرفتها والوقوف على حقيقتها. وقد عالج الكتاب موضوع الهندي القديم بأكثر الأساليب الأدبية تنوعا سواء بتصويره بصورة المثل الأعلى بأسلوب رومانسى رمزى أو باستخدام المصطلحات واللاتات أو بالصورة الجدارية والتماثيل. ومن ذلك أيضا أنك تجد أنطونيو أريز يهدى كتابه الهام «أشبهو» إلى «الموتى العظام» وللرأى الأمجاد من نسل النسر «ستنج بل» والأمير مكتوزوما، والشاعر «تنزاهو كويوتك»، والنمر «كواهتوميكتزين»، إلخ. ومن العبارات الرنانة التى يجد فيها أريز أسلاقه الهنود ما افتتح به كتابه حيث قال: «إننى أتغنى بأصجاد أمريكا العذراء. أتغنى بأمرىكتى الهندية الخالية من الأسبان والمسيحية». وظهرت هذه العبارات فى الوقت الذى اكتشفت فيه أمريكا عندما أعلن كولومبس، وقسبوتشى، وكهرال، براعة الهنود الحمر وطبيب سريرتهم. وهذه هى الروح التى ألهمت موتينى، وغلث روسو، وألهت مشاعر شاتوبريان. ولكن توماس مور سبقهم جميعا حين جعل سفر (يوتويا) «الدينة الفاضلة» فى أمريكا، وبارك الأب لأمس كاساس، هذا الاعتقاد فى براعة «المتوحش الطيب» (الهندي القديم). وكان من سوء حظ أمريكا اللاتينية أن أصبحت منذ اكتشافها هدفا لمختلف الأفكار والأسماء التى طافت فى أذهان الأوربيين فوصفوها بالعالم الجديد، وقالوا إنها موطن «المتوحش الطيب» وإنها جنة الله فى أرضه، وإنها الموطن الاسطورى للثراء والرخاء، وإنها ينبوع الشباب، وأرض التوابل، والنجم الخرافى للذهب والفضة. ثم جاءت الطامة الكبرى فى النهاية حين فقدت أمريكا أوروبا، وتقطعت أواصر الاتصال الروحى بينهما. وكان

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

الاضطراب الناشئ عن هذا الغموض واللبس هو مصدر الأثقال والأسئلة، التى لا أساس لها، ولا جواب عنها، والتى تدور حول أصل العالم الجديد، وهوية أمريكا ثم اختلفت الأجناس البشرية فى أمريكا بصورة كثيفة، وازداد هذا الاختلاط فى مناطق شاسعة بتدفق الزواج على أمريكا، وزاد ذلك كله من أسباب الاضطراب واللبس بشأن هوية أمريكا. وكان فقدان البراهين العقلية الدالة على هذه الهوية، والراجعة إلى هذا الاضطراب واللبس من جهة، وآلى التراث الاسبانى من جهة أخرى، من الأمور التى دفعت المثقفين الأوربيين ليقواوا لنا: «من نحن» بعبارات صريحة دون مواربة، ودون أن يلودوا بالصمت.

إن فقداننا لأوروبا وانفصالنا عنها، والاضطراب الناجم عن الشتات الداخلى فى أمريكا، والنكسات التاريخية والاجتماعية، والدمار الشامل الذى حل بها مما يذكرنا بالتصريح الرهيب الذى أدلى به هوليفار حيث قال: «إن الاستقلال هو الثمرة الوحيدة التى جنيناها من وراء التضحيات التى بذلها الآخرون»، كل ذلك يوضح لنا التفسيرات المعقدة والغالطة للمناقشة - وإن كانت تتسم بكثير من بعد النظر - كتلك التى أشار إليها هكتور مورينا فى مقال له بعنوان «الخطيئة الأصلية لأمريكا». وإنى لأذكر مما قرأته فى هذا المقال الجريء إصراره على الإشارة إلى أن الأمريكى اللاتينى يكرر - بطريقة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ - تجربة الحياة فى عالم يخيم عليه شبح «الوحدة والموت»، ويحاول تحقيق ذاته (استخدام طاقاته وأمكاناته وقدراته الكامنة إلى أقصى حد) فى بيئة استحكم فيها التخلف، بعد أن فقدت مقومات الحياة.

ويتضح من هذا القول أن «خطيئتنا الأصلية» (تعبير مستعار من الكتاب المقدس وهو يطلق على خطيئة آدم الأصلية حين أكل من الشجرة المحرمة) نحن معشر الأمريكيين اللاتين هى أننا طردنا من أوروبا (يريد أنهم طردوا كما طرد آدم من الجنة) - التى هى فى نظر مورينا مركز القيم الروحية، وبعبارة أخرى مركز التنمية العضوية - لنصل إلى بيئة موحشة مقفرة محرومة من القيم الروحية الأصلية، واضطربنا إلى الاعتماد على أنفسنا بلا معين ولا نصير. وهكذا يث مورينا فى البيئة الأمريكية روح الشك والتشاؤم ونشر فكرة التشرد وعدم الاستقرار، والوجود فى مكان ليس لنا أى اختيار للإقامة فيه - وهى حالة نفسية أجاد سيزر فاليجو فى وصفها حين قال: إن أغلبية شعبنا تعيش فى آلام «لا نهاية لها» لأنه كُتِبَ علينا أن نولد هكذا بلا سبب ولا مبرر.

نستطيع أن نفهم مما تقدم أنه إذا كان هناك اتصال روحي بين البريطانيين المستعمرين الذين عمروا الساحل الأطلسي من أمريكا الشمالية من ولاية فرجينيا إلى ولاية مين، وبين الوطن الأم (بريطانيا)، فلأنهم لم يكونوا متشبعين بالحرافات الوثنية القديمة كتلك التي سوت في أفئدة الغزاة الأسبانين للمكسيك وميرو، والذين كانوا في الأغلب يتألفون من الجنود المرتزقة الماطلين بعد سقوط غرناطة. ولذلك عانت أمريكا الإسبانية الأمرين من أمرين متناقضين: أولهما المذهب العقلي الذي تأثرت به النهضة الأوروبية الحديثة والذي لا يُقر إلا ما يتفق مع أحكام العقل؛ وثانيهما المذهب اللاعقلي السائد في العصور الوسطى، والمثل بالروى والرمز، والشخص المملوك والشيطنية، ورواسب الحرافات ومظاهر الرعب الغامضة، وخلال الأجيال المتعاقبة أدى اختلاط الأجناس البشرية إلى زيادة حدة ظواهر التناقضات، كما أدى إلى ظهور تناقضات أخرى. وحدثت الروابط مع أوروبا، وحتى إذا لم تسلم بما ذكره «مورينا» من فقدان أوروبا فمن المؤكد أن الغزاة الأسبان بدأوا حياة جديدة إذ وجدوا أنفسهم متفهمين في بلاد يراد فتحها. ولا شك أن «لوب دى أجويرى» هو خير مثال لهذا الشعور «بالوحدة والموت» في البيئة المفقرة التي تحدث عنها مورينا في القسم السابق.

وجدير بالذكر أن المستعمرين الهولنديين (المتطهرين)، وهم طائفة دينية متزمتة في إنجلترا) لم يكونوا - فيما يبدو - يهيمنون في بدء الحيايات والأوامر، لأنهم هاجروا إلى العالم الجديد (أمريكا) مع أسرهم لهذا محددا، ألا وهو العثور على الثروة في إطار مجتمع تسوده روح الإخاء والمحبة. ونحن نعرف أنه كان من بين المهاجرين الذين غادروا إنجلترا على ظهر السفينة «ماي فلاور» ٣٤ رجلا، و٢٩ امرأة، و ٢٠ ولدا، و ٨ بنات. وكان من بين ال ٣٤ رجلا راشدا ١٨ من أرباب الأسر، وفي صحبتهم ٣ خادمات، و ٥ خدم في سن الشباب، و ١٩ رجلا من الحرفيين والبحارة والخم الخصوصيين. ويؤخذ مما رواه جون سميث أنهم استمعوا لما تصيحهم به وهو استغلال مصائد الاسماك وتجارة الفراء. ولذلك لم يكونوا يتطلعون إلى جبال من البلور أو القضة أو إلى مدن ذهبية، أو إلى رؤية ملوك يلبسون الذهب، أو إلى ينباع الشباب، وغابات التوابل. ولم يخشوا مواجهة الهولالت (الكائنات الموهلة) أو رؤية رجال من نوع آخر. ولم يكن هؤلاء المتطهرون وكذلك المهترزون، (جماعة دينية أسسها

الهجرة القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

واعظ دينى اسمه جورج فوكس كان يأمرهم أن يهتروا عند ذكر اسم الرب) يشبهون الغزاة الاسيان المتوحشين الذين لم يكونوا من أرباب الأسر، ولذلك كانوا يقتصبون النساء الهنديات، وينهبون القرى، ويؤمنون بخرافات القرون الوسطى، ويحرصون على جمع المال، ويعتقدون بوجود كنوز خفية. ولكن لقد كان رجلٌ انجليزى اسمه «سير والترالى» من رجال عصر النهضة هو الذى نشر حكايات غريبة عن حيوانات وكائنات بشرية غير معروفة، وذلك فى أثناء حديثه عن رحلته بين قبائل نهر «الأوريونكو» واسمهم «المونوسيلوس»، وقال إن أقدامهم كبيرة جدا، وقبائل «المانتكوراس» الذين قال عنهم إن رؤسهم تشبه رؤوس البشر ولكن كل فك فى أفواههم به ثلاثة صفوف من الأسنان، وأن جسمهم يشبه جسم الذهب، وأن لهم أنياب الأسد، وذيل العقرب. وقبائل «إيوايها توماس» الذين توجد وجوههم فى وسط صدورهم ناهيك عن «الأمزونيات» (جيل من النساء المحاربات المشبهات بالرجال) اللاتى خيل اليه أنهن يوجدن فى كل مكان. ولكن كل هذه الخيالات لم تمنع «والترالى» من رؤية إمكانيات الثروة الزراعية فى هذه الأقاليم.

وكان البريطانيين الذين استعمروا الساحل الأطلنطى لأمريكا الشمالية من رجال الإصلاح الدينى، أما غيرهم فكانوا أشياخ الحركة المضادة للإصلاح الدينى. ويقول بروكر آدمز: «لقد كانت حركة الإصلاح الدينى حركة اقتصادية فى المقام الأول. ويتجلى ذلك بأجلى مظاهره فى المجلترا التى أرادت أن تصيح سوقا مالية للعالم بأسره» وكانت حركة الإصلاح الدينى تطالب بإعادة توزيع الثروة، ووضع المجلترا على الطريق المؤدى إلى التوسع الرأسمالى، والثروة الصناعية.

لذلك انتفتحت المجلترا على العالم والطرق البحرية والمؤسسات التجارية فى كل البحار. وأدى هذا التوسع إلى إنتاج لوبن عالمى من الأدب، لا أدب شكسبير ومارلو فحسب، بل أيضا أدب بن جونسون، وملتون، ودون. وأصبحت المجلترا ومستعمراتها عالما واسع النطاق يشر بالتمز والازدهار فى المستقبل. وشهدت فترة هذا الازدهار تألق أعمال الشاعر ولیم هليك (١٧٥٧ - ١٨٢٧) والشاعر يوب الذى برع فى النقد الأدبى، ودانيل ديفو الذى ذاع كتابه «دوين سن كروزو» فى أنحاء العالم، و«سويفت» صاحب الأدب الخيالى الذى تجلّى فى كتابه «أسفار جلفر». وهكذا ذاع الأدب الانجليزى فى أنحاء العالم، ولم يقتصر على جزيرته وحدها لأنه أبى أن يكون أدبا انجليزيا محضاً.

وعلى تقيض ذلك أدت الحركة المضادة للإصلاح الدينى التى أبدتها محاكم

التفتيش والحكم الإمبريالى (الاستعماري) المطلق إلى انفلاق إسبانيا على نفسها وكانت بمثابة الوطن الأم لامبراطورية لا تغرب عنها الشمس. وكان آل هابسبورج على رأس الحركة المضادة للانطلاق الاقتصادي والفكرى الذى تزعمه الأنجلو سكسونيون، فرفضت اسبانيا العلم التجريبي والنقد الفلسفى، والاجتماعى، والنقد الذاتى، والنهضة الصناعية والتجارية، وحافظت مستعمراتها على الأوضاع السياسية السارية فى الوطن الأم. وما إن انجلت غياهب عهد الأوهام الخرافية حتى أصبحت الثروة قائمة على نظام الاقطاعات الكبيرة المعتمدة على أعمال الأرقاء والأقنان (جمع قن بكسر القاف، عهد الأرض يعمل على أرض سيد اقطاعى ثم تنتقل ملكيته إلى وراث الأرض).

عاش فيليب الثانى متحصنا فى صومعة ديره كالأرهاب، وعكف فى إصرار جنونى على إصدار كل القرارات الخاصة بامبراطوريته الضخمة، وتولى بنفسه حل المشكلات كغيرها وصغيرها. وكانت قراراته تستغرق عدة سنوات، ولكن الزمن لم يكن يهم ذلك الرجل الذى انتابته هواجس الاكتئاب النفسى ونوبات الاضطراب العصبى واستحوذت عليه عقدة نفسية من الحب والكراهية معا نحو أبيه حسبا قرر الطبيب النفسانى يوهان كرميوس الذى فحص حالته، تلك العقدة التى دفعته إلى تنفيذ خطط أبيه إلى حد التطرف الذى قضى على هذه الخطط نفسها. ذلك أن أفكار أبيه ومشروعاته ورغباته السياسية التى شارك فيليب فى تنفيذها لم تتجاوز مدة حكمه الذى استمر ٤٢ عاما، فما إن تولى حتى تقرر إلغاؤها بعد أن تبين أنها غير عملية، وانقلبت إلى نقيضها تماما.

وعكف هذا الملك على ملفاته، وسن قوانين ولوائح وتنظيمات ومراسيم، وأشرف على وظائف الدولة الرسمية بل على الملابس الرسمية، حتى أصيبت اسبانيا بالشلل. ولما لم يكن يمدن استمرار اسبانيا برغم كل شيء تكونت اسبانيا أخرى تتوج بالأوغاد والمتشردين والمحتالين والمتسولين والثوادين (جمع قواد وهو الذى يجلب النساء وييسر الحصول عليهن لاغراض الدعارة) والعاهرات الفاجرات والموظفين المشبعين والسوق السوداء والفساد الادارى والبطالة والكسل وسوء استعمال السلطة، ودب ديبب الفساد فى الحكم المطلق العقيم من الداخل، وتفاقم الإفلاس فى عهد الملوك الذين جاؤا بعد ذلك.

ويلخص كرميوس ما أصاب اسبانيا من تدهور وانحطاط فى فقرة طويلة لا تستطيع نقلها هنا بحذافيرها وإنما نقلها هنا بايجاز مع توخى الدقة، قال:

«ما إن تولى العرش شارل السادس آخر ملوك أسرة هابسبورج حتى بدأ على

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

وجه السرعة آخر فصل من قصة تدهور اسبانيا لئسدل عليه الستار نهائيا. لقد تردت اسبانيا فى مهواة الوهن والعجز وضآلة الشأن. وظلت تطف فى سباتها العميق مئة عام حتى عجزت عن ملاحظة التطور العظيم الذى ظهر فى كل ما أحاط بها من بلدان أوروبا، فلم تقم أى صناعة على ترابها، وانتقلت تجارتها إلى الدول البروتستانتية الواقعة فى الشمال. وفقدت العلوم فى اسبانيا صلتها بالمشكلات والقضايا الموجودة خارج اسبانيا، ولذلك فقدت هذه العلوم أهميتها. ولم تجد مبادئ النهضة الأوروبية الحديثة ولا الفلسفة الانسانية (التي تؤيد العقل) أى تربة صالحة لها فى اسبانيا، وتوقف تيار التاريخ عند أبواب بلد تحولت إلى قلعة محصنة. وبدأ فى اسبانيا عهد من الآراء البالية المتحجرة القائمة على التأمل فى الماضى والتمسك بالتقاليد العتيقة، وجعلت على أنفاس البلاد أوضاع دينية وسياسية متطرفة أصابت البلاد بالمقم تحت وطأة المواقف والعقائد المتشددة. صحيح أن الدين المسيحى قام بمجهود أخير تعوزه الحركة والحياة لاصلاح الحال (تريزا دي أفيللا)، ولكن إذا كان الفجر قد أحيط بهالة من الأمل فى بعث اسبانيا فإن هذا الأمل لم يلبث أن خبت جذوته أمام الصيغ والشعارات الفارغة من المضمون، فقد اتسعت مسافة الخلف بين الدين والأخلاق. وكان من الأمراض الهامة للمرض الخطير الذى أصاب البلاد اختفاء كل لون من ألوان الفنون نتيجة الإخفاقات فى ابتكار أساليب جديدة ومضامين جديدة، وآية ذلك أنك ترى «كالدرون» يتجه بكليته إلى الماضى، ويتغنى بأجساد زمن مضى وانقضى»^١ .

وليس هذا مقام الإفاضة فى أسباب تخلفنا السياسى والاقتصادى، ولكننا بصدد الكلام عن أسباب تخلفنا فى مجال الأدب، صحيح أن بعض آراء كريغوريوس محتاج إلى تقويم، ولكن ذلك لا يقنح فى صراب أحكامه الأساسية. ذلك أن الأدب الاسبانى قد توقف عن الانتشار وعلم التوسع، ليهبط فى أرض التقاليد أو ليصعد إلى مستوى يتلاشى فيه ويهيم فى فراغ يعشى الأبهصار أو تتردد فيه الأصوات. فقد افتقر نشاط هذا الأدب على رواية المغامرات، ثم خاض فى تصوير حياة المتشردين والأفاقين. وكذلك جنح هذا الأدب إلى الانغلاق على نفسه، وعلى لغته، وعلى الواقع الاسبانى متمسكا دائما باللغة الاسبانية الاقليمية (الفشتالية)، على الرغم من تأسيس الامبراطورية الأسبانية، وبهذا انحصر فى دائرته المحلية الاقليمية، على عكس الأدب الانجليزى الذى لم ينحصر قط فى دائرة الجزيرة البريطانية، بل سار مع جلفر وديفو، كما سار مع شكسبير ومارلو، ولم يتقيد بالسمات العرقية واللغوية. أما الأدب الاسبانى فإنه جنح إلى الواقعية أى تصوير الواقع الاجتماعى الشعبى. وعلى الرغم من أن اسبانيا بسطت سلطاتها السياسى على العالم فإنها لم تفعل ذلك فى الأدب.

وهذا هو السبب في أن هذا الأدب اختنق بالتدريج بعد القرن السادس عشر، فُغِضَ نهائياً على عالمية سرغانتس في سجن الباروك (أسلوب شاذ في الأدب وقرن العبارة). ويقول مريانو بيكون سلاس في دراسته الرائعة بعنوان «من الفوز إلى الاستقلال» التي نشرها بالمكسيك في ١٩٤٤: «إن الباروك من الأسلحة الدفاعية الهائلة التي تذرعت بها اسبانيا في القرن السابع عشر لمحاربة النزعة العصرية الحديثة». والحق أن الباروك ليس مزيجاً من الآراء من الأشكال الثقافية المتنوعة كما يفهم من بعض الآراء الأدبية في الوقت الحاضر، ولكنه فن يتسم بالاقتراف في التأنيق والتكلف، دون أي مضمون، كما يتسم بالزخارف السطحية التي تحجب العيون عن رؤية ما خفى من العميق. إنه لغو فارغ، وعمل أدبي شكلي محض، وهو غلو فاحش واسراف زائف لا يرى الإنسان في نهايته سوى الوهم والموت كما قال بيكون سلاس، حيث أن الباروك ينكر الحياة في النهاية.

وفي عهد شارل الثاني الذي حكم من ١٦٦٥ إلى ١٧٠٠ استنفد الأدب الإسباني أغراضه. وقرن الثامن عشر دون نجاح باهر، في حين بدأ على الجانب الآخر من جبال البرانس تطور فكري هائل في فرنسا وألمانيا وإنجلترا بالإضافة إلى «فلسفة التنوير» (حركة فلسفية ظهرت في القرن الثامن عشر تقول إن العقل والعلم - لا الدين - يساعدان على تقديم الجنس البشري) التي عملت على صبغ المسيحية بالصيغة العقلانية والعلمانية (النبوية وفصل الدين عن الدولة) لتعيد إليها قوتها. ونحن نتحدث عن حدوث «نهضة حديثة» في الأدب الإسباني خلال القرن التاسع عشر، ولكن يكفي أن نفكر في الحال التي كانت عليها رومانسية هذا الأدب لكي نرفض هذا القول. وكانت أمريكا اللاتينية تطف أيضاً في سبات عميق، وتسير في طريق التدهور والاحتفاظ، فلم تنجب أديبا مثل سرغانتس أو «لوب دي فوجا» وإنما أُنحِيت بعض الأدياء الذين استلهموا الروايات الإسبانية المعالجة لموضوع التشرد والفقير، من أمثال الأديب كُنكو لونكرتو، وفرنانديز دي ليزاردي، وذلك باستثناء كاتب واحد اسمه «سورجوانا إنيس دي لا كروز».

وواصل الأدب الإنجليزي مسيرته وتقدمه في المستعمرات الأمريكية علي ساحل الأطلسي. ولم يَحُلْ استقلال هذه المستعمرات دون استمرار هذه العلاقة الروحية والثقافية. مثال ذلك أنه ظهر في هذه المستعمرات من يضارع سوفت، وملقب. أما الولايات الإسبانية فإنها ظلت تطف في السبات الفكري الذي عاش فيه الوطن الأم، ولم تستطع الأسرة المالكة الجديدة من آل بوربون أن توقظها منه برغم ما بذلته من

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

مجهود نسبي. ولقد أصاب «مورينا» المحرّ عندنا أكد أننا معشر الأمريكيين اللاتين كنا نساكن أرضا تسمى أوربا مهد القيم الروحية ولكننا طردنا منها فجأة، وهبطنا أرضا أخرى مقفرة من الروح أطلق عليها اسم أمريكا بالصدفة. وفى رأى مورينا أن الهجرة من أوربا إلى أمريكا كانت بمثابة خروج آدم من الجنة

على أن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه. ذلك أن أمريكا كان فيها ثقافات محلية ذات حظ كبير من القيم الروحية، ولكن المسيحية الامبريالية حطمت هذه القيم. وتفسير ذلك أن العزلة الثقافية والأدبية فى جزر الهند الغربية الاسبانية نجت عن العزلة التى تردت فيها اسبانيا بعد أن أدارت ظهرها لأوربا وللنهضة الأوروبية الحديثة وللحركة النقدية الكبرى المتولدة عن حركة الاصلاح الدينى. والمتغيرات العميقة المترتبة على اكتشاف أمريكا. حقا لقد أثرت أمريكا فى أوربا، ولكن تأثيرها كان ضعيفا فى اسبانيا. ذلك أن مدة الحكم المطلق فى عهد آل هابسبورج، والأربعين عاما التى عاشتها حكومة فيليب الثانى الامبريالية، هى التى قضت على الطابع الروحى لهذه الثقافة كما قضت على ثرائها الفكرى. وكانت الصحوة الروحية التى حدثت فى اسبانيا ابان العصر الذهبى (فى القرن ١٥) قوية ولكنها كانت منعزلة. وكانت شعلتها قوية ولكنها لم تلبث أن انطفأت، وساعدت العزلة التى تردت فيها اسبانيا ابان حكم فيليب الثانى على انطفائها. أما أمريكا اللاتينية فقد عانت الأمرين من أحقاد المغامرين، ووحشية الجنود العاطلين، والرغبة المادية فى جنى الثروة بلا عمل، بالإضافة إلى مظالم محاكم التفتيش. وفيما يتعلق بالأدب فقد اقتصر دوره على تدوين الأخبار. ولما استيقظت الولايات الاسبانية من سباتها، وسعت للحصول على استقلالها، تطلعت إلى الولايات المتحدة، والمهلترا وفرنسا، وتأثر الأدب فيها بالأدب الفرنسى لما كان لفرنسا من نفوذ عظيم فى القرن التاسع عشر. أما الأدباء الذين عجزوا عن محاكاة النماذج الأدبية الرفيعة، فقد لجأوا إلى محاكاة الرومانسية الاسبانية القديمة. وصفة القول أن الأدب فى أمريكا اللاتينية كان قد بدأ، أو كان على وشك أن يبدأ، إذ لم تكن الحياة قد دبت فيه بعد. وهذا هو السبب فى أن النجاح الذى أحرزه لم يكن له سوى صدى ضعيف فى الخارج، كما كان السبب فى أن هذا الأدب عمل فى نطاق دائرة مغلقة هى الدائرة التى دار فيها الأدب الاسبانى ابان تدهوره. وحاول أدباء أمريكا اللاتينية توثيق صلتهم بالأدب الفرنسى، وأحيانا بالأدب الانجليزى سكسونى أو الألمانى، وأن يسيروا على نهج هذه الآداب وينتحلوا أساليبها وطرقها وخطوطها. ولكن إذا كان الإحتياج الأدبى قد تغير من حيث الشكل فإن محتواه لم يتغير كثيرا، إذ لم يحدث أى تجديد فى الأساليب والتراكيب واللغة والرموز، بل

لم ينشأ أدب صحيح بمعنى الكلمة.

(٣)

لقد أدى التمسك باللغة القشتالية (لغة مقاطعة قشتالة القديمة التي هي أساس اللغة الإسبانية) إلى إضعاف الأدب الإسباني الذي أخذ الآن ينتحل الصبغة الأوروبية. ولا ريب أن هذا الارتباط العاطفي بالأرض والتمسك باللغة الوطنية المحلية التي بنيت في إقليم قشتالة، والحرص الشديد على نقاء اللغة والأدب من الدخيل، كل ذلك عاد على الأدب الإسباني بأبلغ الأضرار. وبينما تخلت الآداب الأوروبية عن ألوانها المحلية، وتخلصت من العادات الشعبية والتقاليد المحلية والإقليمية، بغية الاتصال بالعالم الخارجي، والانفتاح عليه، والانتشار فيه، إذا بالأدب الإسباني يدعم أسوار عزلته، ويغلق عليه حدود دولته ويعكف باستمرار على البحث في موضوع الهوية. ومن هنا تأخرت الحركات الأدبية الأوروبية، الرومانسية، الرمزية، والسريالية، وأدب الطليعة^(١)، في الوصول إلى أسبانيا، وتأخرت أكثر من ذلك في الوصول إلى أمريكا اللاتينية. وقاومت إسبانيا انتحال الصبغة الأوروبية، وواصلت باستمرار العودة إلى جذورها. وتأثرت أمريكا اللاتينية، أو على الأصح أدب أمريكا اللاتينية، بهذه الأفكار التي تسلطت على الأذهان وبخاصة فكرة الهوية، إذ كان أهل أمريكا اللاتينية يرون واجبا عليهم أن يبحثوا عن هويتهم التي كانوا يتوقون إلى معرفة سرها وأصلها: من نحن؟ ولماذا نحن؟ متى كنا؟ من نتألف نحن؟ هل نحن أصلاء؟ ويرفعون عقيرتهم صائحين: فلنحارب التهمية، فما من أدب يعتمد على النماذج الأدبية في أوروبا وأمريكا الشمالية أكثر من أدبنا نحن؟ ولنحارب التبادل الثقافي، فما ثقافة أمريكا اللاتينية سوى ثمرة التبادل الثقافي؟ وواضح أن شك المرء في هويته هو من الظواهر المرضية.

وقال «أرثورو أسلر بيترى» في إحدى الندوات: «وبما كنا نحن العالم الجديد، وإذا لم نكن فقد أسهمنا - على الأقل - في ميلاد عصر جديد. ولا شك أن الميزة التي تتمتع بها الآن تجعلنا في عداد بناة العالم الجديد الذي يأتي به الغد». وهذا القول هو

(١) أدب الطليعة أو الرواد الذين يتكبرون غاذج وأفكارا أدبية جديدة (المترجم).

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

- بلاشك - أهم ما ذكره ذلك الرجل الخيالى الذى يدعى «سيمون ردة رجوين» القائل: «إن أمريكا الاسبانية أصيلة. ويترتب على ذلك أن تكون حكومتها ومؤسساتها أصيلة، وأن تكون وسائل إقامة هذه المؤسسات والحكومة أصيلة»

ولكننا نقول إن أمريكا اللاتينية ليست أصيلة. وبذلك تنهدم النتيجة التى رتبها سيمون على مقرله، ذلك أن ماضينا الحافل بالأفكار الخيالية والوهمية ومظاهر الانحطاط والتدهور، والفشل وخيبة الأمل، من شأنها أن تؤثر فى مصيرنا. وإذا قيل إن الدليل على أصالة أمريكا اللاتينية هو اختلاط السلالات البشرية فيها فإننا نقول إن هذا ليس دليلا على الأصالة، لأن أمريكا اللاتينية ليست فريدة فى هذا الباب. ولو أنك قلمت صفحات التاريخ لوجدتها حافلة باختلاط السلالات البشرية وتألفها وتناورها. ومن الواضح أن ثقافتنا معشر الأمريكيين اللاتين امتداد للثقافة الاسبانية التى امتزجت بثقافة السكان الأصليين، وامتداد ثقافة الزنوج الإفريقيين فى بعض المناطق. وجدير بالذكر أن موضوع أصالة أمريكا اللاتينية شائع بين المثقفين. فمنذ الاستقلال إلى اليوم يتسائل المثقفون عن ماضيهم، ويدرسون بلا ملل العوامل الثقافية التى أثرت فيه، ويبحثون عن خصائصه وأحواله، ويناقشون التاريخ. ويقف المثقفون حيارى أمام صورتهم، وهم يترددون بين الابتكار والتصديق ويتابعون التعريفات التاريخية والاقتصادية والسيكولوجية التى تسمح لهم بمعرفة أنفسهم وحقيقة هويتهم. والحق أنهم يفتقدون البقين، ولهذا يفتقدون هويتهم.

إن مسألة الهوية القومية والثقافية لها أهميتها فى الميدان السياسى، وهى تعود بفائدة على الدارس المتخصص، ولكنها لا تعود بفائدة على من يستعين بها فى توجيه وتحديد الإبداع الفلسفى أو الفنى الذى نعر عن قيمه بلمعة لا صلة لها بالمسائل الخارجية مثل مسألة الهوية القومية. ذلك أن الاندفاع مسألة داخلية تتعلق بذات المرء وملكانه الباطنية وأحواله النفسية ولا صلة لها بالمظاهر الخارجية.

إن رجال أمريكا الشمالية حين يكتبون ويفكرون لا يتسألون عن هويتهم: انهم أعجلو سكسونيون مع بعض الفروق الثقافية. أما نحن فإننا - على العكس - ننكر ذاتنا الاسبانية، بل أقول، بمهارة أدق، إننا لم نعد اسبانين بسبب عزلتنا التى تردنا فيها عندما أقل نجم آل هايمبورج. وكانت حرب الاستقلال التى خضناها حربا ضارية بين الابن وأبيه، لقد دمرت هذه الحرب طرق الاتصال بيننا وبين اسبانيا، وفقدت اللغة نفسها طابعها الاسبانى، وأصبحت اللغة السياسية فى عهد الاستقلال بالطابع الفرنسى إلى أقصى حد كما نرى فى بوليفار، وسار الأدب فى هذا الطريق أى سار

فى طريق التحول والتجديد، وهذا ما حرص عليه الأدب «بيلو».

كانت مهمة «بيلو» هى إضفاء مظهر من مظاهر الجدة على الأدب فى «المساحات الشاسعة» التى يمكن أن تكون مصدر إلهام لأدب جديد أصيل كما قال «سارميتو». ولكن الأدب لم يكتسب طابع الأصالة والابتكار، كما لم يستطع الاستمرار فى طريق الأدب القديم، لأن هذا الاستمرار معناه امتداد التدهور أو الفقر الأدبى حين انغلق الأدب على نفسه بقوة وحماسة، قاما كما يقول المثل الاسبانى السائر: «عندما تمنع المرأة الاسبانية قبلة فإنها تمنع هذه القبلة بحرارة وحماسة». ثم جنح الأدب إلى تقليد فرنسا خاصة، فرنسا التى لا تعرف شيئا عن أمريكا، فأصبحت باريس هى قبلة الطبقة المثقفة خلافا لكل التوقعات. ولا تزال هى قبلة الكثيرين منذ قرن مضى.

ثم جاءت الرومانسية، والواقعية، والطبيعية، والوضعية، وأدب الطليعة أو الرواد، وحركة «الأدب فى خدمة المجتمع»، ففقرت كلها أ. ب. فى موجات متلاحقة. ولكن قلما تجلبى الإبداع إلا فى تصوير الوقائع التاريخية، وتصوير الواقع الاجتماعى، مع البحث دائما عن الهوية، هوية أمريكا اللاتينية، البعيدة النال، والعزيرة المرجى، والصعبة المفتى. وسرى هذا البحث عن الهوية، وتصوير الواقع التاريخى والاجتماعى فى كل أساليب التفكير والتعبير. وبالحلقة أن الأدب جنح إلى التصوير لا الإبداع، تصوير أمريكا الكريولية (الحلاسية: المكونة من مزيج من الهنود الحمر، والاسبان)، وتصوير المناظر الطبيعية الشاسعة، وتصوير اختلاط السلالات البشرية، وتصوير الوقائع التاريخية والصراعات الاجتماعية. وهذا الاصرار من جانب أدباء أمريكا اللاتينية على التصوير لا الإبداع - وهو امتداد لعمل المؤرخين الاخباريين أيام الغزو الاسبانى - يدل على افتقارنا إلى القدرة على الخلق والإبداع، واعتمادنا على خرافة القومية و«أمة» واحدة. وهذا هو السبب فى أن الأدباء والكتاب، بدلا من تأليف الروايات، يدونون الأخبار ويؤلفون سير الأبطال وقطاع الطرق فى منظور سياسى وتاريخى. هل فى وسعك أن تتصور أن مالرو أو مالمكوم لورى، أو فوكتر، أو دوريل، أو هكسلى، يكتب سيرة والتر رالى، أو الملكة إليزابيث الأولى أو واشنطن؟

(٤)

لقد آن لنا أن نفهم - مرة واحدة وإلى الأبد- أن الإبداع الأدبى لا يمكن أن يتصور إلا لذاته، لا لفائدة ترجى منه، أو لأى غرض من الأغراض السياسية أو

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

الاجتماعية أو التاريخية. ولا يمنع هذا أن نستفيد منه بعض الدروس التاريخية. أو الاجتماعية، ولكن بشرط أن يكون هذا نتيجة لا أمراً واجباً. ولو أنك أتعمت النظر فى أدبنا نحن لوجدت أنه كان يهدف ولا يزال إلى أن يكون تاريخياً أو اجتماعياً أو مقيداً أو أن يصور هويتنا القومية والأمريكية قبل أن يكون أدباً محضاً. وهذا الهدف المحدود لوظيفة الأدب التى لا يتفادها سوى قليل من الأدباء، مثل بورجيس، وراموس سوكر، وماسيلثير فرنانديز، والكاتب المغمور خوان إيمار، لا يمنع الأدب من القوة الروحية فحسب، بل يحول دون رواجه فى السوق العالمية، أى سوق الكتب العالمية الكبرى. فترى الكاتب منا - نحن الأماركة اللاتين - يعلن منذ البداية عن نفسه: «أنا أمريكى لاتينى». والنتيجة المباشرة لهذا الاعلان هى ضعف تأثيره، لأن الأثر الذى يحدثه مثل هذا الاعلان لا يتجاوز الأثر الذى يحدثه عصفور نادر فى قفص تربية الطيور، كان يسلى الجمهور لحظة من الزمن، أو يساعد على دراسة الطيور. والكاتب الذى يفعل ذلك يضع نفسه على هامش الأدباء، حين يجعل من نفسه متحدناً باسم أمريكا اللاتينية. ونحن لم نسمع قط أن سوفيت، أو ملقيل، أو بَر، أو إليوت، أو إيسن، أو فلوبر، علّق لافتة على جبينه تعلن أنه إنجليزى أو أمريكى، أو إسكند نافى، أو فرّسى!

إن القومية تلازم المرء طول حياته. هذا أمر مفهوم، ولكنها تصبغ الأدب بالصبغة المحلية لا بالصبغة العالمية، فمثلها كمثل المناخ المحلى لا كمثل جواز السفر الدولى. ولا يستطيع المرء أن يكتب، وعينه مسلطة على هويته القومية. إن للكتابة مقتضياتها/خصائصها، وتزداد قيمة محتواها متى اتسع نطاق انتشارها. وكلما ابتعدت عن القومية اقتربت من العالمية. هذه حقيقة معروفة. ولا يمكن أن يصل الكاتب إلى العالمية متى استحوذت عليه فكرة القومية.

إن الخواتين (جمع خوات، وهو صائد الحيتان) فى رواية ملقيل ينتمون إلى مختلف بلاد العالم، وإنك لتجد الخرافات المعروفة فى زماننا شائعة فى بعض الروايات مثل رواية وذرنج هايتس (المرتفعات العاصفة)؛ ورواية دكتور جيكل ومستر هايد، تلك الرواية الرائعة بقلم الكاتب الانجليزى المشهور ستيفنسون التى عرضتها السينما بصورة مشوهة؛ ورواية «أليس فى بلاد العجائب» التى أدهشت رمزيتها الفنانين والعلماء النفسانيين، ومثل رواية فرانكشتاين وهولته (الهول مخلوق مخيف غريب الشكل)، ورواية «الرومانى الأسود» للكاتبة الانجليزية ماري جلدوين زوجة الشاعر شيلى. ناهيك عن روايات الخيال العلمى بقلم فيرن، والأدب من عهد «أوفيد» إلى

عهد «هودجس» بما فى ذلك سيرانودى بيرجواك (كاتب مسرحى فرنسى)، وألف ليلة وليلة. وربما كانت قصة «دكتور «فارست» (موضوع قصة أسطورية لرجل باع نفسه للشيطان فى نظير معاونة الشيطان له على أن يعيش ٢٤ سنة) خير مثل يجسد الرغبة فى القوة وغلور الحضارة. وقد قدم لنا الأدب الأسبانى نموذجين عالميين هما دون كيشوته، وسلستينا. كل ما سبق ذكره نماذج عالمية. أما أبطال أمريكا اللاتينية فهم على وجه العموم شخصيات اجتماعية لا نماذج عالمية. ويحاول مؤلفوها دائما أن يعلنوا عن هويتهم القومية وطروفتهم الإقليمية. والآن نسال: هل يخطر ببال أحد أن يبحث عن نموذج الرجل الأمريكى فى أشباح الشاعر الأمريكى بُو؟ إن الكاتب الأمريكى (وهو من أهل الجنوب فى أمريكا الشمالية) لم يكتب بوصفه من أهل الجنوب الأمريكى لسكان الجنوب الأمريكى. ولم يكتب بقصد تصوير جنوب الولايات المتحدة. والحق أن الإبداع يجب أن يتجاوز الأفق القومى. وإن كان هذا لا يعنى إنكار الجانب القومى أو إخفاؤه. ذلك أن الشعور القومى جزء من التجربة الحية، ولذلك فإنه لا حاجة إلى إعلائه.

إن الإصرار على تصوير القومية يحد من آفاق العمل الأدبى. ولقد وقعت أحداث قصة «تحت البركان» فى المكسيك وقعت أحداث «الاشودة الرباعية» للكاتب دوريل فى الاسكتلندية. ولم يذكر هكسلى المكان الذى وقعت فيه أحداث قصته والعالم الجديد الجرى». ويكرر لورنس رسائله فى المجلدات، وأستراليا، والمكسيك، وإيطاليا. وينقل «مالرو» تحقیقاته إلى الأحوال الانسانية فى الصين. وليس معنى ذلك بالطبع أن تفهم «العالمية» على أنها بمثابة «دليل سياحى». وإنك لتجد كثيرا من الروائيين يستعملون أماكن غريبة فى رواياتهم.

إن الذى أريد أن أنبه الأذهان إليه هو ضرورة تخلص الأمريكى اللاتينى من بعض المفاهيم الثابتة التى تحد من قدرته على الإبداع كرهبته فى تصوير أمريكا اللاتينية وإصراره على أن يعكس هويته، وخضوعه للمادة التاريخية، واعتقاده أنه من أهل عالم سحرى أصيل. ناهيك عن تضعيفته بالخيال على منبج الحقيقة. ولا يرى أحد ماكنه هذه الحقيقة، لأنها قد تكون حقيقة جغرافية أو اجتماعية أو سيكولوجية أو تاريخية أو سحرية أو باروكية أو شعبية أو ثورية أو سياسية أو فولكلورية. والحق أن الواقعية فى الأدب لا تعنى أى شىء، وكانت هذه الواقعية ولا تزال هى المدرسة الرئيسية والسبيل الوحيد لفهم الأدب فى بلدان أمريكا اللاتينية. وكان هذا التعلق بأهذاب الواقعية هو ضريبة أخرى دفعناها للبحث عن هويتنا.

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

وعندما يريد أى جيل من الأجيال أن يؤكد ذاته فإنه يسعى إلى تعميم لغته وجعلها لغة عالمية لكي يكون معاصرا لبقية العالم. ولذلك يؤكد الروائيون فى عهد ازدهار الرواية أكثر مما كونه الأجيال السابقة أنهم استطاعوا بفضل قرائهم العالميين أن يتجاوزوا الحدود المعتادة لأدب أمريكا اللاتينية، وبخاصة المذهب الواقعى فى الأدب، لكي ينتقلوا إلى حقيقة أخرى هى حقيقة «الأدب فى ذاته»، وحقيقة الأسلوب والكتابة. على أن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه، لأنهم يكررون الخطط القديمة، أى يتبعون طرقا جديدة للبحث الأبدى عن هوية أمريكا الجنوبية. وهذا هو السبب فى أن «سفر ساردوى» قادى فى الباروك الكوبى إلى غايته، ومال رأى مقابرا لأراء «كارتيتير» الذى هو أقل الكتاب الكوبين الكبار تمسكا بأهذاب الباروك. واقترح أدها جديدا خلاسته التكلف المفرط، ورفض الساجا Saga (وهى القصة الزاخرة بأعمال البطولة)، والفن المصنّى الأمريكانستى (نسبة إلى سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر)، والتجارب الأمريكانستية، والهجوت الكونية، والواقعية السحرية (التصوير الدقيق والواقعى للصور الخيالية) التى يفسرها بأنها اختيار زائف بين الساجا وتجسيد التجربة الداخلية، ويصوب إلى سيادة الكلمة المكتوبة، وتحورها من القيود معتمدة على الرموز المحضة الخالصة.

وأنا لا أشارك «ساردوى» فى رأيه هذا، وأعتقد كما يعتقد «بلاشوت» أن مثل هذا الأدب ماله إلى الزوال، لأنه إذا وجب أن يقوم على الكتابة وعلى طبيعته وحقيقته الخاصة فاننا نجد أن ساردوى يغذى هذا الأدب بما هو خارج عن هذه الطبيعة والحقيقة. والحق أن ساردوى نموذج صارخ للانحياز الشائع فى وقتنا هذا، وهو «الكتابة البعيدة عن الأدب لا عن الحياة». ويبلغ الباروك الشائع فى الكتابة الكوبية ذروته فى شخص «سفر ساردوى»، وهو «الباروك» الذى فسرهُ هو نفسه بأنه ليس عودة إلى الطبيعة البانعة، إلى الغاية «الأمزونية» (نسبة لنهر الأمزون فى أمريكا اللاتينية) - كما قال «كارتيتير»، وإنما العودة إلى التهكم على الطبيعة والسخرية منها. إن ساردوى يضع نفسه فى الطرف الأقصى من حركة «أدب الطبيعة» الشائع الآن لدى يهرب من الأحابيل التقليدية التى تاهت فيها - كما قال - حركة ازدهار الرواية. ويبقى بعد ذلك أن ننظر: هل ينجح ساردوى فى الخروج من ذلك الأمريكانستى، ويصل إلى جمهور دولى من القراء، كما وصل «بورجيس» الذى تناول كل هذه الموضوعات بذلكاء فائق وتهكم لاذع.

والواقع أن فكرة «ساردوى» عن الباروك صحيحة، والذى يميز الأدب الكوبى الراهن

ليس هو الباروك «الأمزوتي» عند كارتير، ولكن الذي يميزه هو تكلف ساردوي وصنعتة، إنه الباروك الذي عرّفه ماريانو بيكون سلاس فيما سبق، ولقد فكرت كثيرا في سبب هذا الاتهام الباروكي الذي انتضح بكل جلاء منذ ظهور مجلة «أفانس» (١٩٢٧ - ١٩٣٠) التي دافعت عن «النقاء» الأدبي بوصفه أديا رائدا من أدب الطليعة، وعرّفته على النحو التالي: «ممارسة الجمال والتأمل بعيدا عن الحقيقة الانسانية المباشرة». وكان شعر «ماريانو برون» في ذاته بداية لممارسة الباروك.

وكانت كوبا حتى نهاية القرن التاسع عشر مستعمرة اسبانيا وفضلا عن ذلك كانت مستعمرة جزّرية (نسبة للجزيرة). وكان الأدب في اسبانيا إذ ذاك مغمورا غير مشهور، فاخضعت المستعمرة الكوبية الصغيرة وانكثت على نفسها، وظلت تغط في سباتها العميق على صوت الموسيقى الكوبية الراقصة المعروفة باسم «سونز ودانوزز»، في حين انصرف السكان الأفروكوبيون إلى ابتداع الأساطير والحرفات الغريبة. وكان الأدب الناشئ خائفا أيضا يستمد وحيه من ثقافة قوامها النباتات الاستوائية الرخصة، وحقول قصب السكر، والروم (شراب سكر)، والسكر. وكانت السورات (البرافانات) المطرزة بالحزب تعلمها نوافذ ملونة صغيرة. وهذا يذكرني بالزخارف العربية (الأرابيسك) في الصور الزيتية الداخلية من عمل «أماليا بيليز» و «بيرو كارو»، والزخارف الباروكية من عمل «ليزاما ليما» التي تزدان بها أركان الحجرات، كما يذكرني بالكتاب «سفر ساردوي» وأبرز ما في هذا المشهد الشامل (الباتروما) هو الكتاب «ألهو كارتير».

(٥)

وفي ختام هذا المقال أرى من المناسب أن نعترف بالعلاقة الوثيقة بين التقدم الأدبي والتقدم في حد ذاته، فليست مشكلة الأدب هي مشكلة السوق والقراء فحسب، بل هي مشكلة الإبداع الذي تنهيا أسبابه وتفتتح آفاقه أمام الكاتب الذي يعيش في أمة قوية متقدمة قادرة على ابتكار الأساليب التقنية المتطورة، وذلك خلافا للكاتب الذي يعيش في بلاد متخلفة كأمريكا اللاتينية التي يساعد تخلفها على إضعاف ملكة الإبداع. ولأضرب لك مثلا يوضح ذلك، فأقول: إن شعرا متوسط الجودة مثل شعر الشاعر الروسي «إتشوشكو» ما كان ليجد له قارئاً لو كان هذا الشاعر يعيش في هندوراس بدلا من روسيا. وفي وسعي أن أضرب أمثلة أخرى عديدة، يضاف إلى ذلك أن آليات الصناعة الثقافية الكبرى لها شأن كبير في هذا المجال، ولكن مراكز هذه الصناعة لا توجد في أمريكا اللاتينية، بل توجد في أوروبا، واليابان، والاتحاد

الهوية القومية فى أدب أمريكا اللاتينية

السوفيتى، والولايات المتحدة.

وهذا النقد الذى ذكرته هو نقد ذاتى فى الوقت نفسه، لأن الحاسة النقدية القوية هى وحدها التى تؤدى إلى التغلب على المشكلات. ومن هنا أقول إن أدبنا اليوم فى موقف يكتنفه الغموض. فمن جهة أدرك أدباؤنا العيوب ومواطن القصور الناجمة عن التمسك الأعمى ببعض المفاهيم الضارة مثل الواقعية النفعية، وتمجيد القومية، وتشجيع النزعة الشعبية، والتفسيرات الساذجة التى تحملُ الامبريالية الأمريكية المسئولية عن كل عيوبنا، حتى عيوبنا الروحية. يضاف إلى ذلك ابتذال فن الدعاية عندنا. ومن جهة أخرى فإن ارتقاء فن الرواية عندنا، والفوز بجوائز نوبل، وازدهار عهد الفن الروائى (الذى انتفضى الآن) ورواج سوق الأدب بفضل الطباعات الاسبانية، كل ذلك قد يغرينا بالرضا عن أنفسنا، ويوهننا أن مثل هذا الارتقاء يرجع إلى ارتقاء ملكاتنا، ونظن أننا قد اكتشفنا هويتنا فى النهاية. وكل هذه الاتجاهات شديدة الخطر، لأننا إذا اعتقدنا ذلك انصب اهتمامنا عندئذ على الأدب الوظيفى، وأسطورة الأصالة فى أمريكا اللاتينية. ولذلك لا يسعنا إلا أن ندعو الكاتب الأمريكى اللاتينى أن يمارس النقد والنقد الذاتى، وأن يبنى الأدب على جودة الأسلوب، والكتابة، ومراعاة مقتضياتها وأن ينسى ملكة الخيال التى يفتقر إليها الأدب المكتوب باللغة الاسبانية، وأن يدرك أن هويته الفردية والقومية انما هى ثمرة تجارب - ربما تكون عشوائية وفوضوية - تظهر بالتدرج واحدة بعد أخرى خلال الحياة. تجارب تدور داخل نفسه ولا حاجة إلى تمحيدها، ثم ندعوه إلى أن يكتسب رؤية وروحا تسمو على الحدود القومية، والتاريخ القومى.

خوان لسكانو
(كراكاس)

هل الكون فى تغير ؟

أولاً : مقدمة

سيكون موضوع هذا المقال ما أصبحنا نعلمه من أن الكون فى تطور بل فى ثورة مستمرة وهى ملاحظة لم تكن لتأتى الا فى الآونة الأخيرة. فقد كان لوا ما علينا أن ننتظر الأوصاد التى أتت من المجرات البعيدة فيما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٥٠ على يد أدوين هايل ذلك الفلكى الذى كان أول من كشف لنا عن أن الكون ككل فى حالة تمدد مستمر. وأصبحنا نعلم الآن أيضا أن شكل الأبراج أو التجمعات النجمية الأقرب إلينا مثل الدب الأكبر قد تعدل خلال الألف سنة الأخيرة. فلقد تصور الفلكيون القدامى ومعهم بقية البشر فى ذلك الوقت أن الكون أزلى غير متغير. ثم اقتنع علماء الطبيعات الفلكية اليوم أن الكون قد مر منذ عشرين مليون سنة بمرحلة متفردة كان خلالها شديد الحرارة عظيم الكثافة، وأطلقوا على هذه الظاهرة اسم التفجر الأصلى أو المبدئى^(١). واعتقد البعض كما سترى بعد

(١) نجد فى الكتابات العلمية باللغة الإنجليزية إشارة إلى عبارة "big bang" أى الفزعة العظيمة، ويرى زميلى ميشيل كاسى أن هذه العبارة تعبير تصويرى ليس لها معنى. لأن الظاهرة لم تكن انفجارا حدث بالفعل بل تمددا سريعا.

هل الكون في تغير ؟

أن الكون سوف يمر مرة أخرى بمثل هذه الحرارة العظمى التي ستتولد من متناقضات مستقبلية، ويتوقع آخرون مزيدا من التجمد ومستقبلا فارغا للكون.

وفيما بين ذلك الماضى العظيم والمستقبل الذى لا يعرف عنه شيء، مؤكدا يكشف لنا الكون فى كل يوم المزيد من عظمته بفضل التوصل إلى تقنيات حديثة فى الرصد وبداية غزو الفضاء. والفرض من هذا المقال هو أن تقدم صورة موجزة عن الطريقة التى ينظر بها الفلكيون إلى الكون اليوم، وهذا من دراسة وضع الإنسان فى الكون وعلاقته به التى بدأنا نفهمها بصورة أفضل.

مر العلم والتكنولوجيا بعامة وعلم الفلك بصفة خاصة بتطورات واضحة خلال الفترة الأخيرة من هذا القرن. وتعدلت نظرتنا للسموات وما تحويه بشكل واضح بفضل ذكاء الإنسان الذى اخترع مستقبلات ضوئية أكثر حساسية أو محسن أجهزة الاستشعار الذاتية للفضاء. هكذا كانت هذه الثورة التى حدثت فى تقنيات الأرصاد الحديثة نتيجة للأجهزة الأرضية الهامة سواء البصرية منها أو الفلكية اللاسلكية ثم نتيجة لبلوغ عصر الفضاء. ويستفيد علم الفلك الذى يعد من أقدم العلوم التى عرفها الإنسان من التقدم الحالى فى الطبيعيات وبخاصة التناهى فى الصغر. والكون كما سنعرف فيما بعد هو أعظم معمل أو مختبر يمكن أن نجد، إذ يوفر لنا الأحوال الطبيعية التى لا يمكن لنا أن نحققها فى الأرض من المواد العظيمة الكثافة مثل النجوم النيوترونية التى تعرف باسم «الحفافة»، والمواد الشديدة الحرارة التى مازالت فى المرحلة الأصلية، والمواد المتفجرة مثل تلك التى تتكون فيها النجوم اللامعة مثل العماليق.

ومع استخدام نظرية بلانك الكمية، ثم نظرية بوهر الذرية، وأخيرا نظرية اينشتاين فى النسبية، استطاع الإنسان منذ بداية القرن العشرين أن يتعرف على طبيعيات الأشياء المتناهية فى الكبر التى تتحكم فيها الجاذبية. ومن جهة أخرى بدأنا نتفهم، بفضل الطبيعيات الذرية، بنية الذرة التى تتكون من نواة والكروونات تدور حولها، وبفضل الطبيعيات النووية عرفنا بنية نواة الذرات وامكانية تعديلها، والآن تضع طبيعيات الجزيئات الأولية أمامنا حقيقة أن العالم ملىء بالجزيئات التى تتكون منها المادة التى تتكون نحن منها بل والجزيئات المتعددة التى تملأ الكون. بهذا الفهم الجديد الامتياهي فى الصغر أصبح بإمكاننا أن نتعرف على ملامح الكون ككل من حيث تاريخه وبنيته.

أمكننا بواسطة منظورنا للكون الذى استخدمت فيه تقنيات جديدة فى رصد وإدراكنا لأدق مكوناته أن نتابع تطوره، وأصبحنا الآن بفضل ثلاثة تقنيات مختلفة هى امتداد الكون وعمر أقدم النجوم وقدم العناصر الكيماوية الطويلة العمر مثل اليورانيوم أن نتعرف على عمر الكون، وأصبحنا قادرين على أن نصف تاريخ كل جزء من مكونات الكون مثل تجمعات المجرات (مثل سكة التبانة أو الطريق اللبنى الذى تقع فيه أرضنا) والنجوم، وتجمعاتها والنظام أو النظم الشمسية.

ويبلغ عمر الكون نحو عشرين بليون عام، وتكونت المجرات بعد بليون سنة من مولد الكون، ويبلغ عمر الشمس نحو 4,6 بليون سنة، ونحن نعلم ان الشمس سوف تتمدد بعد خمسة بلايين من السنين وسوف تحتوى الأرض فى قعرها هذا لتصبح واحدا من النجوم العماليق الحمر. وفى هذه الحالة تصبح الأرض كلا واحدا مع الشمس، ثم بعد ذلك بليون عام سوف تفقد الشمس طبقاتها العليا وتصبح سديها كوكبيا ثم تتحول إلى نجم قزم وتصبح بعد ذلك شديدة الكثافة نظرا لأن قطرها سيصبح مساويا لقطر الأرض ولن تزيد حرارة سطحها عن 0.0000 درجة كلفينية. وبينما هى تبرد أثناء تحول الشمس من قزم أبيض إلى قزم أسود سوف تتحفر أو تتصلد تماما، وبذلك لا تظهر الا من خلال تأثيرات الجاذبية التى تستطيع أن تؤثر بها على المواد المحيطة بها.

ونستطيع أيضا فى الوقت الحاضر أن تتنبأ بمستقبل كوننا، فاما أن يمر الكون بمرحلة جديدة شديدة الحرارة وهى مرحلة التقلص التى قد تحدث خلال مئة بليون عام أو أنه سيمر بمرحلة جليدية. وفى أى من الحالتين ستكون قادرين على تكوين أفكار تكون غالبا واضحة، عما ستكون عليه الأوقات المقبلة سواء شديدة الحرارة أو شديدة البرودة. لذا يمكننا أن نتبنى آراء المؤرخين أو علماء الطبيعة التى تجيب عن الأسئلة المتعلقة بالكون. وسوف نتناول بالدراسة هذه الآراء المختلفة فى كل جزء من أجزاء هذا المقال، وننتهى بأن نتذكر أن الكون ما هو الا معمل كبير، وأننا مجرد تراب من أتربة النجوم. فالإنسانية لا تنفصل عن الكون كله، وسيصبح بإمكاننا أن نفهم الكون إذا ما عرفنا أنفسنا.

ثانياً: رصد الكون

منذ قديم الزمان أخذ الإنسان يرصد السماوات ففى كتابات البابليين وغيرهم من أهل الحضارات القديمة نجد آثارا تدل على ذلك العمل الفتن، وتعرف أهل الحضارتين

هل الكون في تغير ؟

الآغريقية والرومانية على الطبيعة المميزة للكواكب، وكذا المصريون والفينيقيون. بيد أنه لم يكن لدى الإنسان حتى بداية القرن السابع عشر سوى جهاز واحد يستخدمه هو عينيه والحقيقة أن زميلي ألفريد فيرال مادجار قد لاحظ في الأطلس الفلكي الكبير (١٩٨٣) أن الجهاز الحقيقي الذي استخدمه الإنسان في الرصد هو عقله، ذلك أن جميع تقنيات الرصد في الأرض أو السماء، بما سنشير إليه في هذا المقال، ما هي الا مجرد توصيلات تضاف إلى عين الإنسان وعقله.

تخضع عملية الرصد من الأرض لأحوال جونا التي تتميز بامتصاصها للأشعة فوق البنفسجية (مما ساعد لحسن الحظ على تطور الحياة)، وذلك بفضل طبقة الأوزون (وهي الأوكسجين الثلاثي الجزيئات الذرية) التي توجد في طبقة الهواء العليا (الطخورية stratosphere). ولا تسمح طبقة الهواء الأرضي إلا بمرور موجات الاشعاع الضوئي^١ التي يتراوح طولها بين ٠.٤ و ٠.٨ ميكرون (جزء من الألف من المليمتر)!! وموجات الراديو^٢ التي يتراوح طولها بين ١ مم و ١٠٠ م والتي تصل إلى الأرض من الخارج. وترى في الأرض أيضا بعض من الاشعاعات تحت الحمراء. وللتوصل إلى الأشعة فوق البنفسجية وغيرها من الاشعاعات الأكثر طاقة (وهي الاشعاعات السينية كالتي تستخدم في أجهزة الاشعة) واشعاعات جاما، ولكي تختبر الأشعة تحت الحمراء لابد من استخدام تقنيات فضائية للتغلب على تأثيرات امتصاص الهواء الجوي.

لم يبدأ الرصد الفلكي حقيقة الا في القرن السابع عشر مع اختراع جاليليو لأول منظار فلكي (تلسكوب) وهو المنظار الذي يحمل اسمه. وبدأت المناظير الفلكية تتطور على يد كل من كاسبرين ونيوتن، وبفضل هذه المناظير استطاع أحد فلكيي القرن الثامن عشر من اكتشاف أجرام سماوية مثل كوكب أورانوس. وظهرت خلال القرن التاسع عشر آلتان رئيسيتان، أولاها: اللوحة الفوتوغرافية التي تميزت بشيئين: الاحتفاظ بالصورة الفلكية، والقدرة على تغطية مساحة كبيرة من السماء بلمعة واحدة. وارتبط الاختراع الثاني بتطور الطيفيات النووية التي أدت إلى اختراع المطياف الذي أمكن به تحليل الضوء إلى اشعاعات بسيطة بملاحظة حزم الأشعة إما الأشعة التي تتخلل العناصر الكيميائية المختلفة أو تقتص فيها. ولقد أمكن من خلال الأعمال التي قام بها كل من فراونهوفر وكير شكوف تحديد مكونات سطح الشمس، وكانت هذه التحليلات ذات أهمية كبيرة لأنها أدت إلى اكتشاف الهليوم الذي يكاد يكون معدوما على سطح الأرض رغم أنه أكثر العناصر انتشارا بعد

الهيروجين. ويعتبر هذا بمثابة ادراك للظواهر الرئيسية لكل التركيب الكيماوى للكون.

كان للتقدم العلمى والتقنى فى القرن العشرين قائمة كبرى للفلكيين ولعلماء الطبيعة الفلكية، إذ أقيمت مناظير ضوئية كبيرة خلال العقد الثالث. وظهر الفلك الاشعاعى بعد الجهود الرائدة التى بدأها جانسكى منذ عام ١٩٣٥، وبخاصة ما تم بعد الحرب العالمية الثانية، مما أدى إلى تطوير الرادار وما تبع ذلك من المناظير الاشعاعية الكبيرة. ويرجع تاريخ النفوذ إلى الفضاء إلى بداية القرن حينما قام نيس V.Ness النمساوى بالصعود بالبالون عام ١٩١٣ ومعه منظارا كهريى، واكتشف طبيعة الاشعاع الكونى خارج نطاق الأرض. وبعد البالون طوبت الصواريخ التى تحمل أجهزة حساسة للاشعاع فوق البنفسجى، ولكن كان الذى فتح الباب نحو عصر جديد من اكتشافات السماوات هو اطلاق القمر الصناعى سبوتنيك فى أكتوبر سنة ١٩٥٧ الذى تبعه اطلاق أقمار أخرى أمريكية وسوفيتية وأوروبية ويابانية وصينية وهندية. وأصبح باستطاعتنا اليوم أن نرقب باعجاب شديد نجاح رحلات أبولو التى مكنت الإنسان من أن يمشى فوق القمر، ورحلتى قوايجر الأولى والثانية التى مكنتنا من أن نرى كوكب المشترى بكوكباته ودوائره، وزحل بألاف الحلقات المحيطة به، وأصبح أورانوس الآن يرى غائما من خلال المنظار. وسوف يوضع فى خلال عامين من الآن، تلسكوب ضوئى فى مدار حول الأرض على ارتفاع نحو خمسمئة كيلو متر، سوف يسمح بالتغلب على الصعوبات التى تنسب عن جو الأرض مما يجعل القدرة على الرؤية من خلاله تصل إلى لمجهر أقل فى لمعانها مئة مرة مما تصل اليه حدود الرصد الحالية بأكبر المناظير فى العالم. وبلغت براعة العلماء والمهندسين والفنيين درجة أصبحت معها المناظير الاشعاعية، التى ركب بعضها فى أوروبا والبعض الآخر فى أمريكا، قادرة على أن ترصد فى وقت واحد جسما سماويا واحدا بدقة تصل إلى درجة بالغة (تتراوح بين مئة مرة وألف مرة أكثر مما يمكن تحقيقه بالرصد الفلكى). ويطلق على هذه التقنية اسم قياس التداخل الضوئى ذى القاعدة الشديدة البعد (Inferometry).

اما فيما يتعلق بالكاشفات فان الفلكيين لم يصبحوا محددين فى اطار الطرق القديمة بالتصوير الفوتوغرافى أو تحليل الطيف بالمشور أو الشبكة، بل إن الأجهزة التى اشتقت من المصورات التلفازية قد مكنت من اجراء حصر عددي لمزنيات الضوء أو وحدات الكم الضوئى (photons) أو غيرها من الوسائل. وفضلا عن ذلك فان

هل الكون في تغير ؟

حاجتهم إلى جمع الصور وتحليل نتائجها انتهت إلى حقيقة هامة هي أن علم الفلك قد أصبح له في الغالب تطبيقات عملية. فالمعطيات المستخدمة في الأشعة الطيفية ما هي إلا جهاز مشتق من الفلك الإشعاعي، وأجهزة الاستقبال التلفازي المستقبلية توجد الآن في شكل نماذج أمكن عملها في المختبرات والمراصد.

باختصار يمكن لعلماء الطبيعيات الفلكية الآن أن يلتقطوا أي إشعاع كهرومغناطيسي خارج الأرض من أي ترددات (أو أطوال موجات) مهما صغرت أو كبرت باستخدام أجهزة استقبال كبيرة للغاية وتتزايد دقتها وحساسيتها.

إن كل تردد وكل طول لموجة يعطينا معلومات عن الكون. ويمكن في عالم المراتب أن نرى الكواكب والنجوم والسدم والمجرات وأن نحدد تركيبها الكيميائي حيث أنه من الممكن أن يكتشف امتصاص الإشعاع، أو تخلله عن طريق تلك المركبات الكيميائية المختلفة في مجال طول الموجة. أما بالنسبة للنجوم فالمعروف أنه من المستحيل أن نحقق درجة عالية من الدقة من الأرض، وقد ابتكر الفلكي الفرنسي أنطوان لافيير طريقة فلة هي قياس التداخل الضوئي للبقع فكانت الخطوة الأولى المباشرة نحو تحديد قطر النجوم.

ينبعث الإشعاع ذو الموجات القصيرة (فوق البنفسجي، والأشعة السينية وأشعة جاما) من أجسام حارة مفعمة بالطاقة. تفتيمز النجوم الشديدة الحرارة والبيئات النجمية بالإشعاعات فوق البنفسجية. وتنبعث الإشعاعات السينية من الغازات الشديدة الحرارة التي تقلأ التجمعات السديية ومن النجوم المتفجرة (العماليق والعماليق الكبرى) ومن المادة قبل أن تحتلها النجوم التي يصل حجمها إلى حجم البقع أو الثقوب السوداء. أما أشعة جاما فأنها تأتي من التفاعل الكوني والبيئات بين النجمية وكذلك من العماليق الكبرى.

ومن الواضح أن إشعاع الموجات الطويلة (تحت الحمراء والمليمترية وإشعاعات الراديو) تنبعث من الأجسام الباردة أو الأجسام ذات الطاقة الضعيفة. فالأشعة تحت الحمراء تميز النجوم الباردة والغبار الواقع بين النجوم. وتعود في فلك المناظير الاشعاعية أو الفلك الإشعاعي بخط الهيدروجين النووي البالغ ٢١ سم مما يمكن معه رسم خرائط للمناطق الواقعة بين النجوم. ولقد اكتشفت معظم النويات بين النجمية في عالم من موجات ذات أطوال تقاس بالمليمترات والمستيمترات وتعتبر السدم والنجوم

الثوابت أيضا مصادر أشعاع قوية مثلها مثل النجوم الخفاقة التي لا تخرج عن كونها نجوما شديدة الكثافة يطلق عليها أيضا النجوم النيوترونية.

ولا يعتبر الشعاع الضوئي أو الشعاع الكهرومغناطيسي هو المصدر الوحيد للمعلومات التي تتوافر لعلماء الفيزياء الفلكية. ولقد أشرنا فعلا إلى الإشعاع الكوني الذي يتكون من نويات الترات ذات الطاقة العالية، فبعض الجزيئات من هذا النوع تتكون ذات طاقة قوية بدرجة تجعلها تولد رنجات من الجزيئات الثانوية تنبعث إلى الهواء الجوي. ولقياس تركيب هذه الإشعاعات الكونية أقام علماء الفيزياء الفلكية مختبرات قاتل تماما تلك المستخدمة في الفيزياء النووية، ووضعوا بعد ذلك في أقمار صناعية. ويحاول الفيزيائيون أيضا أن يهتموا المظاهر الأخرى لوجود الجزيئات أو الطاقة في الكون، مثل قبض النيوترونات من الشمس أو موجات الجاذبية المنبعثة من النجوم الهائلة الكثافة والنيوترونات عبارة عن جزيئات عديمة الكتلة أو ذات كتلة ضئيلة تنتمي إلى عائلة الألكترونات التي تنبعث أثناء تحول البروتونات إلى نيوترونات (والعكس لتكوين مضادات النيوترونات). وفي أثناء اندماج الهيدروجين لتكوين الهليوم وهي العملية التي تعتبر المصدر الرئيس للطاقة المنبعثة من الشمس، تنبعث الطاقة، لا في شكل نيوترونات أو وحدات ضوئية فقط بل أيضا في شكل نيوترونات والمشكلة هنا هي أن هذه النيوترونات تكون صعبة وندرة التفاعل مع المادة العادية، وهذا هو السبب الذي جعل الزعماء الأمريكيين ينشئون خزانا يحتوى على أربعمئة ألف لتر من نترات كلوريد الكربون في أحد مناجم الذهب الكبيرة في داكوتا الشمالية. وجعل الاتحاد الأوربي يخطط لتخزين ثلاثين طنا من الجاليوم (وهي كمية تساوي ثلث إنتاج العالم) في نفق جراندي ساسو للكشف عن هذه الجزيئات. ويعتبر الكشف عن النيوترونات الشمسية من الأهمية بمكان لأنه سوف يكشف لنا عن البنية الداخلية للشمس التي لا يمكن الوصول إليها عن طريق الرصد المباشر. وسوف ينقى أيضا معلوماتنا عن النيوترونات نفسها. والجزيئات التي تنتشر في الكون مثل انتشار الوحدات الضوئية. وبالمثل هناك جماعات متعددة في أنحاء العالم تهدف إلى إقامة أجهزة حساسة لانبعاث موجات الجاذبية التي ثبت وجودها الآن منذ بدأ رصد النظام المزدوج للنجوم النيوترونية.

وهناك تجارب أخرى مثل البحث في الفترة المعربة للبروتون التي ربما كانت أهم نتائج توحيد قوى الطبيعة أو اكتشاف بوسونات W and Z في تجربة C.E.R.N، وكان لهذه التجارب مضامين رئيسية فيما يتعلق ببنية وتطور الكون. ويمكن القول

هل الكون في تغير ؟

بدون مبالغة إنه من خلال المختبرات المدفونة في المناجم أو تحت الجبال للكشف عن الجزيئات الخفية التي لا ندركها سوف نستطيع في النهاية أن نفهم الكون بصورة صحيحة.

ثالثا: الكون في نظر علماء الطبيعة: العلاقة بين العالم والمتناهي في الكبر والمتناهي في الصغر.

يعتبر الدور الرئيسي الذي تؤديه الجسيمات الأولية في تطور الكون ككل نتيجة لسلطان قوى الطبيعة على الكون. ويجد كل التطورات الحديثة في الطبيعيات - سواء طبيعيات المتناهي في الصغر أو بمعنى آخر الطبيعيات الذرية والطبيعيات النووية وطبيعيات الجسيمات، وثلاثتها مشتقة من ميكانيكا الكم، أو طبيعيات المتناهي في الكبر والنسبية العامة تجدد كل هذه التطورات تطبيقات مباشرة لها في بنية الكون ككل.

هناك أربعة تفاعلات رئيسية تمثل الأصول الظاهرة لتأثير الطبيعيات على الكون. اثنان منها هما: الجاذبية، التي جاء وصفها أول الأمر في قانون نيوتن ثم أصبحت توصف في ضوء العلاقات التي جاءت في نظرية اينشتاين في الحالات التي تزداد فيها السرعات وتصبح الأجسام بالغة الضخامة.

والثانية هي الكهرومغناطيسية التي جاء وصفها في قانون كولب، وهما تأثيران طويلا المدى. فقد يكون البعد بين الأجسام المتفاعلة كبيرا مثل الكواكب التي تدور حول الشمس. وتعتبر الجاذبية والكهرومغناطيسية هما المؤثران الطبيعيان اللذان اعتدناهما، واللذان يعدلان من حياتنا (كالإتارة والاتصالات وغيرها). أما فيما يتعلق بالمتناهي في الصغر (الذرة والنواة والبروتون والنيوترون أو حتى الجسيمات الأولية مثل الكوارك) فلا تخلو من التفاعل بعضها مع البعض الآخر. فللجسيمات الأولية شحنة كهربية وكتلة، ولكنها معرضة لقوتين أخريين ذاتى مدى قصير (١٠-١٣ سم للقوة الأقوى و ١٠-١٦ سم للقوة الضعيفة). يطلق على القوة القوية هذا الاسم لأنها أقوى المؤثرات الأربعة، فهي أقوى من القوة الضعيفة، وأقوى بمقدار ٣٩١ مرة من قوة الجاذبية. وتعمل هذه القوة بالغة فيما بين الجسيمات التي نسمى هادرون والتي هي نويات (بروتون ونيوترون) وميزونات. ويعتبر التفاعل النووي الحرارى مثلا لهذا النوع مثل: بروتون + كربون ١٢ ينتج نيوترونين ١٣، أو تفاعل

الامتصاص النيوترونى مثل: كرون ١٣ + نيوترون ينتج كرون ١٤. وتتضمن القوة الضعيفة جسيمات تسمى ليبتونات، وهى ألكرونات وميونونات ونيوترونات. يعتبر تحلل النيوترون إلى بروتون + الكترون + انتينيوترن مثالا لهذا النوع، وهى عملية تتطلب زمنا يصل إلى نحو عشر دقائق. والقوة الضعيفة أكثر احتمالا الأمر الذى يفسر بصفة خاصة السبب فى أن النيوترونات الشمسية يصعب الكشف عنها.

تبحث هذه القوى الأربعة موجات هى الموجات الكهربية أو موجات الاشعاع الكهرومغناطيسية (وهى بالذات خفيفة) للكهرباء المغناطيسية وموجات الجاذبية للجاذبية، وإشعاعات جاما لنوعى القوى النووية الدقيقة. وتنتج هذه الموجات بواسطة التبادل بين جسيمات معينة قد توجد بأعداد متوسطة، ويسمى هذا تبادل البوسونات. وتأتى كلمة بوسونات Bosons من حقيقة أن هذه الجسيمات تسير وفق القوانين الاحصائية لبوس اينشتاين. ويمكن أن تتواجد الـ π اذ المتوسطة فى نفس المكان وينفس حالة الطاقة. وبوسونات الكهرومغناطيسية هى فوتونات، وبوسونات الجاذبية هى الجرافيتونات أو الجاذبات التى لم يثبت حتى الآن وجودها بالتجربة. وتكون هذه تفاعلا ضعيفا مع جسيمات W و Z التى اكتشفت عام ١٩٨٣ فى CER.N على يد روبا وفان ديرمرش الفائزين بجائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٨٤، ومساعديهما. أما بالنسبة للتفاعل القوى فقد كان يظن حتى وقت قريب أنها كانت تنسب عن تبادل ميزونات π والآن هناك افتراض بأن دور متجهات التفاعل القوى يرجع إلى الجلبونات التى هى جسيمات تكشف عن الكواركات. (Quarks) والكواركات هى جسيمات شحنات $\pm 2/3$ أو $\pm 1/3$ التى توجد فى نفس العدد من الليبونات المعروفة (الالكترون والميون والمطاو ونيوتروناتها الثلاث) ومجموعها ستة. وبالإمكان عمل بروتون أو نيوترون بثلاثة كواركات، بينما يحتاج الأمر إلى اثنين فقط لإنتاج ميزون π . ولا تعتبر الكواركات نتاجا بسيطا لخيال علماء طبيعة مجازين إذ أنه قد أمكن الكشف عن خمس منها تجريبيا أولها المسارع الخطى فى جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة.

تكفى هذه القوى الأربعة لى نفهم كل التفاعلات الطبيعية، فى الكون. فالشمس تستمد طاقتها من التفاعلات النووية القوية (تمثل التفاعلات الضعيفة بالنيوترونات فقدان الطاقة من الشمس، والحياة ما هى الا تتابع فى التفاعلات الكيميائية والبيولوجية التى تخضع أساسيا لتحكم الكهرومغناطيسية وتخضع ثانويا للجاذبية.

هل الكون في تغير ؟

يعتبر اكتشاف هذه القوى الأربعة من أهم اكتشافات الطبيعيات الحديثة. وإذا تهلل هذه القوى من أول وهلة غير متشابهة فإنها ظاهريا نتاج أو فروع لقوة واحدة هي نفسها التي تتحد فيها القوى الأربعة لو أن الطاقة المتوافرة كافية. بدأت مغامرة توحيد التفاعلات هذه بنظرية جلاشو - واينبرج - سلام الذين تصوروا أن القوة الكهرومغناطيسية والقوة الضعيفة كفتلتان بالتوحد إذا كان متوسط الطاقة في كل جزيء 100 GeV أو تصل إلى مئة مثل كتلة البروتون والا كانت مرتبطة بدرجة حرارة تبلغ 10^{10} K ولقد تم الكشف عن الاتحاد هاتين القوتين بالتجربة باكتشاف Z^0 و W^{\pm} .

ويطلق علماء الفيزياء على نظرية طبيعيات الجسيمات القادرة على توحيد القوى القوية مع القوة الكهربائية الضعيفة اسم نظرية الاتحاد الأكبر. والجسيمات القادرة على التبادل أثناء توحيد هذه القوى الثلاث، في هذه النظرية لابد أن يكون لها كتلة تبلغ على الأقل 10^{10} GeV تساو مليون مرة كتلة البروتون المرتبطة بحرارة تبلغ 10^{10} K تقريبا. ويسمى علماء طبيعيات الجسيمات باسم جسيمات X و W ويقتضى وجودها أن البروتون، الذي هو أحد القوالب التي يتكون منها الكون الظاهر (وأنفسنا على وجه الخصوص) لها عمر محدد ذو نهاية تبلغ نحو 10^{31} سنة. ولكي يتمشى هذا بطريقة ما مع مقاييسنا، حيث متوسط وزن الإنسان 70 كيلو جراما، تحدث ثلاث تغيرات في كل عشر حالات قد تتحلل البروتونات أثناء عمر الإنسان المقدر بنحو 10^{25} عاما. ولقد قام نحو عشر مجموعات من العلماء ببحث هذه الظاهرة النادرة (بالنسبة لنا لحسن الحظ) بنشاط في كل أنحاء العالم، واستخدموا في بحثهم وسائل كشف هائلة هي مكعبات ضخمة مليئة بالماء في أعماق تصل إلى آلاف الأمتار تحت سطح الأرض. ولتنتج هذه التجارب أهميتها بالنسبة لعلماء طبيعيات الجسيمات، ولها كذلك أهميتها بالنسبة لعلماء الطبيعيات الفلكية كما سنرى بعد. ويبدو اليوم أن البروتون أكثر مقاومة للتحلل مما تزعمه نظريات الاتحاد.

وهذا هو السبب (إلى جانب أسباب أخرى عديدة خارجة عن نطاق هذا المقال) في أن علماء الطبيعيات، دون أن ينقصهم الخيال، اخترعوا نظريات «التناسق العالي» "supersymmetry" التي لا يقتصر أمرها على أنها كفيلة بتوحيد قوتين ميكروسكوبيتين مع قوة كهرومغناطيسية بل تستطيع أيضا توحيد قوة الجاذبية مع القوى الأخرى الثلاث.

كان لابد من دفع الثمن (لأنه في علوم الطبيعات تقاما كما هو الحال في الحياة لابد أن يكون هناك ثمن للأشياء). يتمثل هذا الثمن في أن المطلوب منا اليوم أن نفترض وجود عدد كبير من جسيمات أولية جديدة. وربما لم يكن لهذا الوضع خطورته لو أن التغيرات في الكشف عن هذه الجسيمات كانت ذات أهمية. ولكن للأسف نجد أن الوضع مختلف فكل هذه التطورات غير ظاهرة وغير معروفة وبالتالي غير كاملة من وجهة النظر العلمية.

عند هذه النقطة سوف يسأل حتى القارئ الصبور: لماذا يهتم عالم الطبيعات الفلكية (الآن الموضوع هنا يتناول الكون ككل) بكل هذه التطورات في مجال الطبيعات الميكروسكوبية التي يبدو أن بعضها منها متخصص للغاية. هناك سببان لذلك الاهتمام أولهما يأتي من حقيقة أن لكل تلك الجسيمات دورا رئيسيا في العديد من أحوال الطبيعة الفلكية. فالنجم الشديد الكثافة يصبح نجما نيوترونيا (أي خفاقا) نظرا لأنه في كثافة مثل الكثافة النووية، تتحد البروتونات مع الإلكترونات لاحتاج النيوترونات التي تصبح فيما بعد مستقرة ونيوترونات. لابد لنا من تحديد بداية الكون، أو إذا فضلت أن نسميها المرحلة الأولية، لأننا نسينا إلى أن نرى من التفكك المتكرر المتتابع للقوى الأساسية أن ديناميكيات السدم ونجمعات السدم تبدو وكأنها ترجع إلى أنه يوجد كثير من الجسيمات ذات كتلة متواضعة بصفة عامة. وتختلف بطبيعتها اختلافا كبيرا وفقا للمادة التي تكونت منها. بهذه القوى الأربعة والجسيمات التي جعلتها تلك القوى تعمل أصبح لدينا الوسائل والدوافع للعمل التي كان من نتيجته تطور الكون وتاريخه.

رابعاً: عالم الطبيعات الفلكية مؤرخ وأثرى ومخير

والآن سوف نتراجع مع الزمان في خطوات عريضة من تاريخ الكون ككل، ونشير إلى اللحظات الحاسمة في تاريخ سديم أو نجم، أو حتى في تاريخ النظام الشمسي. وهنا نحن نضع أنفسنا في إطار النظرية الكونية التي يأخذ بها معظم علماء الطبيعات الفلكية وهي التي تسمى نظرية «الدوي الأعظم» التي اكتشفها أ. بانزاس وس. ويلسون عام ١٩٦٥ من الإشعاع المنتشر عند ٣ ك والذي يملأ الكون كله ويعطى للنظرية أداة توثيقها الكامل. لابد إن هذا الحدث الأولي - كما قلنا - قد حدث منذ عشرين مليون سنة. ويقسم تاريخ الكون إلى ست فترات، الأولى فقط هي التي استمرت. ولكنها كانت غنية بالأحداث لأن درجات حرارة الكون التي كانت

هل الكون في تغير ؟

مرتفعة في تلك الفترة كانت تتراوح بين 10^{11} ك و 10^{10} ك واستمرت الفترة الثانية نحو ثلاث دقائق فقط، وعنها أخذ من واينبرجر عنوان كتابه «الدقائق الثلاث الأولى»، وفى خلال تلك الفترة الثانية شهد الكون تكوين أكثر العناصر خفة مثل الديوتيريوم الذى يعتبر نظيرا ثقيلا للهيدروجين ونظيرين من الهليوم (بكتلة ذرية ٣ و ٤) والليثيوم (بكتلة ذرية ٧). وكانت درجة حرارة الكون آنذاك تتراوح بين 10^{11} ك و 10^8 ك أما المرحلة الثالثة فقد استمرت مليون سنة وانتهت حينما وصلت درجة حرارة الكون إلى 10^{10} ك. فعند هذه الحرارة بدأت البروتونات تتحد مع الإلكترونات لتولد ذرات الهيدروجين، ولم يعد الكون معتما (٢) وكانت الفوتونات التى تكونت فى لحظة تكوين الهيدروجين هى تلك التى يمكن أن تبرد بسبب تقدم الكون وتعطى الانتشار الاشعاعى ٣ ك. وهو الحد الأقصى الذى وجد فى مجال الموجات المليمترية. ويوجد فى كل سنتيمتر مكعب من الكون 10^{11} فيتون من الخلفية المنتشرة التى أتت من هذا التكوين الهيدروجينى، وعلى ذلك شهدت المليون سنة الأولى كذلك نهاية العصر الاشعاعى الذى كان الاشعاع فيه يسود المادة. وهو الذى سبق ما يسمى العصر النجمى الذى نعيش فيه الآن. ويمكن تقسيم العصر النجمى نفسه إلى ثلاث مراحل مثل ما قسمنا العصر الأزلوى. البليون سنة الأولى التى شهدت مولد السدم والتجمعات السديمية، والعصر الذى نعيش فيه الآن ويتميز بمولد النجوم وحياتها وموتها، وأخيرا المستقبل البعيد للكون الذى يرتبط اما بموت البروتون أو بالثقوب السوداء التى ستكون فى النهاية هى الشكل الوحيد للمادة المتحجرة.

الثانية الأولى من حياة الكون

تميزت اللحظة الأولى للكون بالحرارة العالية والكثافة الشديدة التى ساعدت بلاشك على تولد الكثير من الجسيمات التى سبق أن أشرنا إليها وبخاصة تلك التى تنبأت بها نظريات الاتحاد، وأدت بعضها إلى الاختفاء.

وبسبب استخدام مبدأ «اللاتحد» الذى قال به هايزنبرج والذى اشتق مباشرة من ميكانيكا الكم، فإن مقدار الاتحاد بالنسبة للزمن مضروبا فى الطاقة المحتواة فى الكون لا يمكن أن يقل عن «ثابت بلاتك». وتبعا لذلك لا يمكننا تحديد الزمن عند أقل من

(٢) حينما ننظر بعيدا نرى النجوم خلال أوقات بعيدة للغاية. وتفترض نظرية الكبرى الأعظم أنه لا يمكننا أن نرى لأبعد من الفترة التى كان الكون خلالها معتما. والتى تكون ما يسمى بالأفق الكونى.

١٠-٤٣ من الثانية، وهى ما أطلقنا عليه اسم زمن يلاتك للكون.

ولنذكر فى هذا الصدد بأن التساؤل حول ما الذى وجد قبل مولد الكون؟ يصيح تساؤلا غير ذى معنى. فلا يوجد ما يسمى «قبل» لأن الزمن يكون له تحديد حقيقى حينما تتواجد المادة.

على ذلك تكون اللحظات الحرجة فى هذه الثانية الأولى للكون عند ١٠-٢٥ من الثانية حيث تتوقف قوة الجاذبية والقوة القوية عن الاتحاد مع القوة الكهربائية الضعيفة ويسود فى هذه اللحظة الجسيمات x و y التى تُمسك حينما تظهر الكواركات والليبتونات. وخلال الوقت ١٠-٢٣ و ١٠-١٠ من الثانية بقيت القوة الكهربائية الضعيفة موحدة. ولم تعد الكواركات محددة فى اطار الجلوونات بل أصبحت حرة ومتعايشة مع جسيمات W و Z .

واللحظتان اللتان توقفت فيهما القوى عن أن تكون متحدة وهما ١٠-٢٩ من الثانية لكل القوى الأربعة أو الثلاثة (لأن مسألة قوة الجاذبية مازالت غامضة) و ١٠-١: من الثانية بالنسبة لقوة الكهربائية الضعيفة تتصلان بما يسميه علماء الطبيعيات مرحلة الانتقال كمقابل لمرحلة التحول فى الماء من حالة السيولة إلى حالة التجمد أو حالة التبخر. ويعتقد العديد من علماء الكونيات مثل أ. جوت و ب ستليفهاردت و م تيرنر و أ ليند أنه عند اللحظة ١٠-٢٥ من الثانية تعرض الكون لتسارع كبير فى تمده بسبب مرحلة الانتقال هذه، ويسمون ظاهرة التسارع هذه باسم «تضخم الكون». ولفرضية التمدد الشنيع هذه فائدتها فى ازالة الصعوبات المفهومية التى يتضمنها تخيل الكون بدون أى أشعة فى تلك الفترة بخاصة نظرا لأن التضخم قد أزال الماضى من الكون (إن كان له ماضى).

كذلك جعلت الكون سببيا حيث إن النموذج الكلاسيكى لنظرية الدوى الأعظم لا يستطيع أن يفسر السبب فى أن يتماثل إقليمان مختلفان متباعدان فى الكون فى الخواص الطبيعية.

فى لحظة ١٠-١٠ من الثانية حدثت مرحلة تحول أخرى. وهى التى ينسب علماء الطبيعة إلى جسيمها الاسم الخفى «كرومودينا ميكا الكم وهى اللحظة التى أتت بتحديد الكواركات وتوحيدها فى π وفى النوكليونات والبروتونات والنيوترونات. وفى

هل الكون في تغير ؟

هذا الوقت وحتى نهاية الثانية الأولى كان الذى ساد الطبيعة هو الليبتونات والأكترونات والبوزيترونات، الفوتونات (الوحدات الضوئية) التى كان عليها أن تنتظر حتى الثانية التالية.

ونحن ندين بالفضل لعالم الطبيعيات الروسى أندريا سخاروف المعروف فى كل أنحاء العالم لأسباب أخرى - ندين له باكتشاف أن الكون أصبح غير متناسق بسرعة منذ الثانية الأولى له، ولم يعد له كمية من مضادات المادة تساوى كمية المادة، ففى نهاية الثانية الأولى التى هى بداية لمرحلة الاشعاع كان الكون مكونا من وحدات ضوئية (فوتونات) أكثر بملايين المرات من النوكليونات (البروتونات والنيوترونات).

الثانى الثلاث الأولى من حياة الكون

بينما انتهت الثانية الأولى. كان التوازن قد تم بين البروتونات والنيوترونات وتوقفت الأكترونات السلبية والموجبة نيوتريوناتها وبدأت النيوترونات الأولية تتحلل. بيد أن الحرارة آنذاك أصبحت مناسبة لتكوين العناصر الأخف وزنا، فقد كانت الحرارة عالية بدرجة كالية (أكثر من 10^8 ك) ولذا أمكن لجسيمات الديتريوم أن تتكون بعد امتصاص البروتونات للنيوترونات، وتولدت من الديتريوم هليوم 3 وهليوم 4 وليثيوم 7 ولم تكن الحرارة المرتفعة بدرجة (أقل من 10^8 ك) تؤدى إلى أن تقضى الفوتونات على ما تخلفه تفاعلات الاندماج.

ويشون الدخول فى تفاصيل تقنية لا مكان لها هنا يمكننا إثبات ذلك لكى نشرح قيمة كل من الديتريوم والهليوم 4 اللذين تكونا فى ذلك الوقت، لاهد من أن كثافة الكون فى شكل مادة عادية كانت أقل من تلك المادة التى تقلص إليها الكون تحت تأثير جاذبيته الذاتية بعد أن اتسع (٣). ومن جهة أخرى لاحظنا فى الوقت نفسه ثلاثة أنواع مختلفة من الليبتونات (هى الأكترون والميون والطار) فى ارتباطهما مع النيوتريونات (التي تضعها نظرية الاتحاد فى موضع علاقة وثيقة مع الأنواع الستة من الكواركات ولا يوجد مكان للأسرة الجديدة من الليبتونات التي لو وجدت لأدت إلى تسارع فى قدد الكون. وقد تؤدى إلى زيادة فى إنتاج الهليوم 4.

(٣) يمكن للكون أن يتسع بصفة مستمرة إذا لم تكن جاذبيته الذاتية عالية جدا، أو يقتلص فى مرحلة تالية بالطريقة التى تستطيع بها الأنهار الصناعية أن تغلب على الجاذبية الأرضية للدرجة كبيرة، وهى حالة تختلف عن حالة قلائف المدافع مثلا.

يمكننا من هذا أن نقيس القيمة الكلية لهذه العمليات التي تجري في التحلل النووي الأولى الذي يؤدي إلى نتائج غير موثوقة. ولو أننا وجدنا عائلات أخرى من الليبتونات فسوف يتعين إحلال نظرية أخرى محل نظرية ألدي الأعظم، نظرية تأخذ في اعتبارها وجود هذه الليبتونات الجديدة.

المليون سنة الأولى

هناك القليل مما يمكن أن يقال عن المليون سنة الأولى. إذا عرفنا أن الفوتونات كانت لها السيادة خلالها وأنه حدث في خلال هذه الفترة بالتأكيد أن الليبتات في الكشافة التي تولد السدم وتجمعات السدم قد تكونت. وقد سبق أن أشرنا إلى التحول من العصر الاشعاعي إلى العصر النجمي من خلال اتحاد البروتونات والالكترونات وتحرر أو انبثاق الفوتونات الكونية.

البلليون سنة الأولى

يبدو أن السدم كانت قد تكونت خلال هذه الفترة (ها فيها الطريق اللبني وهو سدينا) وهي التي كونت فيما بعد التجمعات السديية من تلك الليبتات الأولية. وبهذا الصدد هناك نظريتان مازالتا تتنافسان: النظرية السوفيتية التي تسمى نظرية «الفطيرة المسطحة» (أو ربما كانت تسمى نظرية بيليبي) وهي تفترض أن الخلق في أول الأمر كان من أبنية ضخمة، أكبر بكثير من تجمعات السدم، ثم انقسم بعد ذلك إلى مجموعات من السدم ثم بعد ذلك إلى سدم. بينما يعتقد أصحاب النظرية الأنجلوسكسونية أن الليبتات تزايدت مع مرور الزمن، وأنها انتقلت من تجمعات نجمية إلى سدم ثم إلى مجموعات من السدم. ويبدو لنا اليوم أن النظرية الأنجلوسكسونية قد أخذت في اعتبارها ملاحظات أفضل قليلا في مجال ديناميكية البنىئات الكبيرة.

ويمكن أن نذكر بأن تكوين العناصر الخفيفة للغاية تقيم حنا علويا لكثافة الكون في شكل مادة عادية، وهذا الحد يساوي ما يتراوح بين ١٠ في المئة و ٢٠ في المئة من الكثافة الحرجة التي سيعيد بناء نفسه في المستقبل خارج نطاقها.

وبدراسة ديناميكية البنىئات الكبيرة (تجمعات السدم مثلا) يبدو واضحا أن الكتلة الكلية للكون قد تكون حوالي ٦٠ في المئة من حد الكثافة الحرجة. ولذلك فإن التفكير في أن الكون قد ينكمش مرة أخرى تفكير سابق لأوانه. ومن ناحية أخرى يبدو أن هناك مواد غير مرئية أو مدركة باللمس مكونة من جسيمات مختلفة

هل الكون في تغير ؟

تماما عن النويات (البروتونات والنيوترونات) التى تتكون نحن منها، فربما كانت هذه الجسيمات بالأحرى ذات كتلة منخفضة ولكنها تتحرك أيضا بسرعات يطيشة (وهى حالة مخالفة لحالة النيوترونات). إن تخيلات علماء الطبيعة الجامحة عن الجسيم لا ينقصها، الافتراضات، فهناك الأحبال والأحبال العليا وهناك شذرات الكواوك، إلى غير ذلك.

يبدو أنه كانت هناك سدم معينة / نشيطة للغاية فى سطحها (وعقديتها)، ولذا كانت أكثر لمعانا بكثير فى هذه العقدة من لمعانها فى الأجزاء الخارجية ويبدو أنها أصبحت خفافة لا تخرج عن كونها سدما ذات مراكز شديدة النشاط والحركة واللمعان.

المحاضر

نحن نعيش الآن فى عصر تسود فيه المادة العادية فى فيزياء الكون ويتميز بحياة النجوم وتطورها وموتها. وعلى ذلك تتكون السدم، من عدة مئات من الهلايين من النجوم، والشمس وهى واحدة منها لها دورها الهام بالنسبة لنا، لأن الأرض تدور حولها، ولأننا نستخدم الطاقة التى نحتاج إليها من أشعاعها.

ومن خلال التأريخ بالنظائر فى المذنبات نعرف أن عمر الشمس بالتحديد يرجع إلى وقت يتجاوز الوقت الذى به تحدد العوامل الفلكية الأخرى. ولدت الشمس من سحابة فى فضاء بين النجوم منذ 4,555 مليون سنة. وبعد أن تقلصت بتأثير جاذبيتها الذاتية لمدة عشرة ملايين من السنين، كان لها فى خلالها توهج ضوئى ثابت نسبيا. ودرجة حرارة سطحية، وهذا ما يشتهه ظهور الحياة المبكرة فى الأرض. وفى أثناء تقلصها تركت أجزاء صغيرة من كتلتها أدت إلى تكوين المجموعة الشمسية. وتدور الشمس ببطء شديد حول محورها فى دورة طولها ٢٨ يوما، ويتركز دوران المجموعة الشمسية على كوكب المشترى وكوكب زحل. وتستخدم الشمس طاقتها من تحول الهيدروجين إلى هليوم فى وسطها حيث تصل الحرارة إلى عشرة ملايين درجة. وفى خلال خمسة بلايين سنة يصير الهيدروجين الموجود فى قلب الشمس غير كاف، وعندئذ يقع حادث درامى، فسوف يحدث تقلص فى المناطق المركزية حتى يتحول الهليوم إلى كربون، وتتمدد المناطق المركزية حتى يتحول الهليوم إلى كربون، وتتمدد المناطق الخارجية. وفى خلال خمسة بلايين سنة سوف تصبح الأرض مرة أخرى جزءا من الشمس. وينتهى تواجد الشمس كسحابة كوكبية ثم تصبح نجما قزما ذا أشعة ضعيفة

ثم تتحول إلى قزم معتم خلال بضعة ملايين من السنين^(٤).

مستقبل الكون

هناك إكسكتان يمكن التنبؤ بهما أولهما: إذا ما كانت الكثافة أكبر من الكثافة الحرجة التي لا يمكن أن تكون مستحيلة كما قد تجعلها تطورات الاجرامات، فإن الكون سوف يمر بمرحلة تقلص جديدة خلال خمسين مليون سنة تقريبا، وسوف يؤدي هذا إلى مرحلة أخرى شديدة الحرارة، وهكذا ومن ناحية أخرى لو أن البروتون تعرض للهلاك في حوالي ٣٧١ سنة فسوف تبقى في الكون ألكترونات واشعاع فقط.

وإذا ما كانت كثافة الكون أقل من الكثافة الحرجة وإذا ما قاوم البروتون بصورة أفضل مما يصوره الفيزيائيون فسوف تستمر في التمدد بمعنى أن الكون سيبرد. وسيصبح الاشعاع ٣ ك ٢ ك ثم ١ ك (الضوء المطلق حد لا يمكن الوصول إليه كما هو الحال عند لحظة ١٠-٢٣ من الثانية). ويرى عالمان طبيعيان هما في ديسون وجون اسلام أن ما سيبقى بالكون هو البقع السوداء فقط وهي أشياء شديدة الكثافة لدرجة تجميس معها إشعاعها^(٥). وهناك أسباب معقولة للاعتقاد بوجود بقع سوداء في وسط معظم السدم (وبخاصة العماليق) وتجذب هذه البقع سائر مادة السدم وتبتلعها أثناء التسخين، وتساعد على تنشيط عقدياتها.

وفي زمن بعيد للغاية لن يبقى سوى البقع السوداء فقط وسوف تتبخر بواسطة الاشعاع عن طريق التفاعل بين أزواج الجسيمات ومضاداتها التي تولدها اللهببات الكمية للتفريغ. ويعتقد اسلام أن البقع السوداء تحتاج إلى ١٠-٣١ سنة كي تختفي تماما من تأثير هذا التبخر البطيء، وهذا زمن غير مقنع لنا، بيد أنه ليس لا نهائيا.

وبالطريقة التي ولد بها الكون في أحداث منفردة سوف يختفي عن طريق الاشعاع على مدى زمن طويل.

(٤) القزم الأبيض أشبه تساري في الواقع إشعاع الأرض (١/١٠٠٠ من أشعة الشمس) لأن هناك تناسبا في الكتلة مع كتلة الشمس.

(٥) هذه النجوم التي تتكون خراسها الطبيعية كنتيجة للنسبة العامة قد دأبت خيال لابلان منذ زمن بعيد. فهناك الكثير من الأجرام المساوية سوف تصبح بقعا سوداء نجمية وسلبية.

هل الكون في تغير ؟

خامسا: رأى عن تطور الكون والإنسانية:

من الواضح أن كل ما قيل عن رصد الكون وقوانين الطبيعة التي تتحكم في تطوره وتاريخه قد وردت في شكل جزئي متفرق في هذا المقال. بيد أننا نرى كيف أن نظرتنا للكون وتفهمنا له قد تطورا حديثا، فمعظم نظريات طبيعيات الأشياء الصغرى لا يزيد عمرها عن سنوات قليلة، وبالمثل لم تكن نعرف عن زحل الا ثلاثة أشياء حتى عام ١٩٨١ حينما كشفت لنا رحلة سفينة الفضاء فوياجر عن الجمال الذي يحتويه نظام الحلقات المتعددة التي تدور حول هذا الكوكب وسرعان ما تطورت نظرتنا للعالم وأصبحت ثرية للغاية سواء من خلال الأرصاد التي تزداد وضوحا ودقة، وكذلك من خلال المعارف الأفضل عن الامتاهى فى الصفر.

ولعل من الخلاصات الضرورية لهذا التحليل التخطيطى لتطور الكون أن اللامتاهى فى الصفر يتحكم فى تطور اللامتاهى فى الكبر.

واعتمادا على تواجد الجسيمات النسبية من علمه لابد لنا أن نعدل فكرتنا عن بشية وديناميكية مجموعات السلم. وإن دراسة الثانية الأولى للكون فى حد ذاتها مشكلة خالصة من مشاكل طبيعيات الجسيمات (فيما عدا مسألة الجاذبية الكمية). ولقد أصبح واضحا الآن أن الكون هو أفضل معمل وأتينا نتفهم الجاذبية المتنامية التي يمكن أن يجتلبها للزملاء المشتغلين فى الميدان نحن لا يقضون أوقاتهم ناظرين باعجاب إلى السماوات.

وهناك اعتبار آخر هو أن ما لم نستطع أن نوغل فيه فى هذا المقال هو الحقيقة بأننا أنفسنا جزء لا يتجزأ من الكون الذى لا يمكننا أن نعتبره مستقلا عن مصيرنا. فالمعروف جيدا أن العناصر الكيميائية التي نتكون منها تأتي من أجيال من النجوم سابقة لمولد الشمس. ولعل أحدث توبة فى ذراتنا ترجع إلى خمسة بلايين سنة مضت، وطبقا لصورة خيالية نحن نتكون من تراب نجمى، ووجودنا قد اعتمد على عدد كبير من الظروف المحسنة، ومعظمها يدخل مرة أخرى ضمن عالم طبيعيات الأشياء المتناهية فى الصفر. ولو أننا حددنا أنفسنا فى إطار أقدم الأمثلة فإن ظهور الحياة على الأرض يرجع إلى حقيقة أن اندماج الهيدروجين فى الهليوم عملية بطيئة للغاية، ويرجع هذا البطء إلى حقيقة أن النويات ذات الكتلة الذرية ٥ و ٨ غير مستقرة. واندماج الهليوم فى الكربون يمكن فقط لأن نظام النويات الثلاث فى الهليوم يتنى من ناحية الطاقة إلى مستوى مستثار من الكربون . وقد تضاعف أمثلة المصادفات النووية

المناسبة لنشأة النويات مثل الكربون والتريجين والأركسوجين الكفيلة بتخليق الخلايا الحية.

فلا يعتبر الكون شيئا متعزلا عنا، فهو سر غامض وسوف يظل دائما كذلك، ولكن كل يوم يمر يتأتى لنا فهمه بصورة أفضل ويزداد تقديرنا له.

بعض المراجع

1. AUDOUZE, JEAN, *Aujourd'hui l'univers*. Belfond, Paris 1981
2. AUDOUZE, JEAN and ISRAEL, GUY, *Le Grand Atlas d'astronomie*. Encyclopedia Universalis, Paris 1983.
3. BARROW, JOHN and SILK, JOSEPH, *La Main gauche de la création*, Paris 1985.
4. ISLAM, JAMAL N., *Le Destin ultime de l'univers*, Belfond-Sciences, Paris 1984.
5. PECKER, JEAN-CLAUDE, *Astronomie*, Flammarion, Paris 1985.
6. REEVES, HUBERT, *Patience dans l'azur*, Le Seuil, Paris 1981.
7. WEINBERG, STEVEN, *Les Trois premières minutes de l'univers*, Le Seuil, Paris 1979.

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

أولا يسطر الدعوى

١: منحنى الفكر الأرسطى

كان النصف الثانى قبل الميلاد زمان أزمة بالنسبة لدولة المدينة الاغريقية(*)، وقد عاش أرسطو خلالها وبدأ يمين الفكر فى التنظيم المثالى للمدينة، وفى تحليله للاخلاق (Nicomachean Ethics:NE) والسياسة (politics:P) يمكن تلمس الإطار المفاهيمى للتنظيم الاقتصادى - الاجتماعى للمدينة فى ضوء «أزمة التنمية» الخاصة بها، وفى هذه النصوص يبذل أرسطو ممارسى الاقتصاديات السياسية (مثل ايزوقراطيس وزينوفون على سبيل المثال) باعلان ما يمكن تسميته بالصيغة أو النموذج التحليلى للاقتصاد الاجتماعى الخاص بمنظّر صاحب مدرسة فكرية.

لقد كان لأهد لفروا فيليب المقدونى ثم ابنه الإسكندر الأكبر أن تقلب هذا العالم

هذا المقال هو النص الذى قدم فى مؤتمر الفرد والمجتمع: تأثير أرسطو فى عالم البحر المتوسط، استانبول ٥ - ٩ يناير ١٩٨٦.

الصغير لدولة المدينة، وهذه البنية النمطية للمستاجيرايت(*) The Stagirate رأساً على عقب، وأن تضع حدا لاستقلال دولة المدينة الاغريقية كنتيجة لاندماجها فى العالم الهيلينستى. وأدى هذا التغير التاريخى الهام إلى احتجاب فكر أرسطو فى الاقتصاد الاجتماعى مدة ترمى على ألف عام. ان الامبراطورية الهيلينستية ثم الامبراطورية الرومانية من بعدها أيضاً لم تعرفا ماذا تصنعان بالكليستاترى -Klein staaterei (الاكتفاء الذاتى) الخاص بالمدينة الذى وضعه أرسطو كمثال أعلى. إن هذه الامبراطوريات التى تخطت حدود القومية قد استلهمت مدارس أخرى فى الأخلاق وفى الفكر الاقتصادى الاجتماعى، مثل الكليين، والأبيقوريين، وبخاصة الرواقيين الذين صنعوا المفاهيم الاساسية التى أدت إلى اضافة الشرعية على مدن المواطنة العالمية (cosmopolis).

لقد حظى أرسطو بتجديد فكره للمرة الأولى فى الوقت الذى ازدهرت فيه مدارس الفلسفة الاسلامية، ففى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد انتقل مركز الاسلام على نحو متزايد فيما وواء موطنه فى جزيرة العرب، الأمر الذى أثار مشكلات جديدة بالنسبة للفالحين. فقد اتصل مفكرو الاسلام بالتقاليد الثقافية الإبيزنتية فى سوريا (تحت حكم بنى أمية) والفارسية (تحت حكم العباسيين). وفى مستهل الأمر بدأ فلاسفتهم (الكندى والفارابى وابن سينا) فى محاورة الفكر الافلاطونى والأرسطى.

بعد ذلك بقرنين من الزمان مرر الفلاسفة فى جنوب اسبانيا (ابن رشد بصفه خاصة) المشعل إلى الإسكولائيين الأكاديميين (المدرسين) الذين نظموا بدورهم الإحياء الثانى لفكر أرسطو Aristoteles Latinus . ومنذ القرن الثانى عشر حتى الخامس عشر كان العالم الاقطاعى فى الغرب يقاسى أزمة تنمية شبيهة بتلك التى مرت بها دولة المدينة الإغريقية، كانت فترة ازدهار التجارة وتأكيد نموذج «عُثم الثروات chrematistic» فى العالم الاقطاعى المسيحى، وكان على الفلاسفة المدرسين انتاج مئات التعليقات والشروح على «الأخلاق NE,V.5 وعلى السياسة P,1,8-11».

إن عالم أرسطو عالم يشكل الاقتصاد فيه نسقا تابعاً للسياسة، التى تشكل بدورها جزءاً من النسق الأخلاقى، فالاقتصاد لا يعتمر نسقا محمداً مستقلاً. وتقرر

(*) stagira: مدينة على الساحل الشرقى لشبه جزيرة تشاليسيديس chalicidice ولد فيها أرسطو (وشار إليها أحيانا The Stagirate) وقد هدمها فيليب المقدونى فى عام ٣٤٨ ق . م . ولكنه أعاد بنائها تكريماً لأرسطو. (الترجم).

الصفة التحليلية الأرسطية أن أداء الاقتصاد يخضع للأداء المتميز للمدينة. وهذا يعنى أن الاقتصاد خاضع للأخلاق السياسية. وهذا التسلسل للقيم قد توافقت جيدا مع العالم الإسلامى والإسكولائى، واستطاع المفكرون الإسلاميون والفلاسفة اللاهوتيون أن يضيفوا إلى الاقتصاد أنه خاضع أيضا للقوانين السماوية.

٧- تغير السيطرة والصفة التحليلية.

حتى القرن السابع عشر عاش العالم الغربى تحت السيطرة السياسية والمادية لحضارات البحر المتوسط، إسلامية ومسيحية. وفتحت أزمة الامبراطورية الأسبانية والاتسحاب البطىء للإسلام من أوروبا الباب لعصر جديد.

ومع القرن السابع عشر بدأت منطقة البحر المتوسط في التآكل، وأخذت الأمم الجديدة في الشمال (فرنسا، إنجلترا، والأراضي الواطئة) مكانها، وبدأ العالم الغربى فى التآكل، وكان لابد أن تصطبغ صيغة الاقتصاد الاجتماعى فى هذه الدول الاطلسية الفتية «بالروح التجارية» أو (المركنتلية mercantilism)، وفى هذا النسق يتميز الاقتصاد بكونه عنصرا هاما من عناصر السياسة، واعتبرت الدول الحديثة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تنمية التجارة والصناعة غاية رئيسية، كما أصبحت هدفا عاما للحاكم أو الأمير. وفى القرن التاسع عشر تدعم «تأطلس» العالم بظهور ألمانيا والولايات المتحدة على مسرح الأحداث.

وفى عالم الفكر غيرت المركانتلية (التي يدعوها أرسطو الروح الكريماستيكية chrematistic spirit، من طبيعتها، فبدلا من أن تكون شغل الدولة والأمير وحدهما، صارت هما للفرد أيضا.

وكان مولد مذهب المنفعة تحت القوة الدافعة التى عززها الفلاسفة المهيمنون حينذاك امثال لوك، وهبوم، وسميث، وبنثام، وآخرين.

لقد مضت أطلسة العالم، وانتصار الروح الكريماستيكية كلتاهما مع تغير الصيغة التحليلية على المستوى النظرى، وتعمرت العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من رقة علم الأخلاق وأعلنت استقلالها، وكان هذا مولد علم الاجتماع والاقتصاد الحديثين كما كانت نهاية النموذج الأرسطى (البحر أوسطى) وتنصيب الصيغة الأطلسية.

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

٣- انتصار الصيغة الأطلسية

فى قرننا الحالى تصدر توظيف الاقتصاد جميع مجالات الأنشطة الأخرى فى المجتمع. وفى مجتمعاتنا حيث صار تنظيم الحياة المادية شيئا مهما جدا، فان علم الاقتصاد قد حَبَّر التطور وحطى بالاحترام على غير سابقة فى التاريخ.

وينبغى أن نلاحظ تطورين هامين عبر الجبل الماضى

أ - حَسُمَ علم الاقتصاد إلى العلوم الأكاديمية: أصبح الفكر الاقتصادى مهنة أساتذة الجامعات وحطى بذلك بالتقدير الأكاديمى.

ب - جعله عاما أو كليا: أصبحت معرفة مبادئ النظرية الاقتصادية فى مجتمعنا سمة من سمات الشخص المتعلم، وصار الإلمام بالمبادئ التى تحكم توظيف الاقتصاد الآن جزءا من التعليم العام للإنسان الحديث.

ج - وهناك أيضا اتجاه ثالث أكثر لفتا للنظر وهو اطراح البعد الأخلاقى من التفكير الاقتصادى، وهذا الاطراح قد رَدَّ علم الاقتصاد إلى شكلية منطقية ورياضية خالصة بالنسبة للبعض، وإلى وضعية ساذجة (تجريبية احصائية ساذجة بمساعدة الحاسبات الآلية) بالنسبة للبعض الآخر، وقد أدى ذلك لا إلى الاقتدار العقلى والأخلاقي فى علم الاقتصاد لحسب، بل إلى لا محدودية مقلقة فى الخيارات فى دنيا السياسة الاقتصادية أيضا.

إن الأزمة الاقتصادية فى الغرب التى نقاسيها منذ منتصف العقد الثامن قد أتت بأزمة الفكر الاقتصادى (الأطلسى) إلى دائرة الضوء، ولعل قراءة جديدة لأرسطو ولندريس الفكر التى غناها عبر عالم البحر المتوسط يمكن أن تساعدنا فى إعادة إحياء العلوم الاقتصادية فى هذا الوقت المصيب.

ثانيا: أرسطو اقتصادى إغريقى

١ : الأزمة فى المدينة

فى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م كانت مدائن إتيكا تمر بأزمة تنمية نتيجة لعوامل عديدة، ومن بين هذه العوامل يمكن أن نلاحظ ما يلى:

- فقدان سيطرة المدائن الكبرى: اثينا، اسبرطة، وطيبة، على التوالي.

- ومع أقول الاقتصاد المنزلى Oikos التقليدى وظهر اقتصاد مدنى يقوم على الاستيراد والتصدير، ظهر نموذج نام جديد تعاطف فيه تراكم أعمال التجارة kremata وظهرت طبقات اجتماعية جديدة، شكل اكتساب الثروة وتراكمها بالنسبة لها قيمة فى حد ذاتها. وكان هذا تأكيدا للروح الكريماستيكية chrmatistic spirit^(١).

- التوترات الاجتماعية الاقتصادية فيما بين الجماعات التى تشكل المدينة: التناقض الاجتماعى وتآكل الانسجام فيما بين أعضاء المجتمع. وحظيت الشؤون الخاصة بالأسبقية على الانسجام العام. وبجانب المواطن وجد الانسان الذى له حرمة الشخصية. وأصبح الرأى العام. أكثر حساسية للمشكلات الاجتماعية الاقتصادية، ويمكن أن نلاحظ فى كتابات هذه الفترة بداية فكر اقتصادى جديد. وتحرك الرأى العام فهذا المفكرون يناقشون الركود stasis كما بدأت الفرق المختلفة والخيارات الاستراتيجية تلوح فى الأفق.

أ- العودة إلى نموذج الماضى (من العصر الذهبى) كما فى ال patiros politeia.

ب- رأى البرجماتيون (النفعيون) الذين جابههم اخلاق المدن المختلفة فى السيطرة، أن الخلاص يكمن فى سياسة اجتماعية واقتصادية جديدة:

- فاوصى ايزوقراطيس بالهجرة، ووجد الحل فى هيلينية شاملة (انضواء اليونانيين فى وحدة) قد تيسر انشاء مستعمرات فى آسيا الصغرى.

- نشر زينوفون كراستين مؤثرين، الأولى «الاقتصاد Economics» وهى كتب وجيز يستهدف إدارة أكثر فاعلية للاقتصاد التقليدى oikos والثانية «الدخل Revenues» وتشتمل على برنامج اقتصادى مصغر^(٢). لقد رفض زينوفون

(١) بأى مصطلح Krematistike من Kremata (الجمع kremata). ومع أن المصطلح يشكل واحدا من المفاهيم الأساسية فى كتابات الاغريق الاقتصادية فى هذه الفترة، إلا أنه ليس من السهل ترجمته للغة حديثة. فقد كانت Kremata تعنى الملكية، والمقارنات، والأعمال، وكل ما يمكن استخدامه مباشرة فى الشراء أو مقابل خدمات مؤداة، أو تسوية دين، وهذا يعنى كل ماله قوة شرائية كالدال تماما، وتعنى الروح الكريماستيكية طريقة إدارة حياة الإنسان وشؤونه المنفوعة بالرغبة فى اكتساب وتراكم ال Kremata.

(٢) تُرجم كتاب زينوفون «مقارن الإدارة» فيما بعد إلى اللاتينية بواسطة شيشرون، وصار هذا النص فيما بعد دليلا للمشرفين على الضخام فى الامبراطورية الرومانية.

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

الاجمريالية كحل ونشر برنامجا لاصلاح الاقتصاد والمالية.

جـ - الفلاسفة وخاصة افلاطون وأرسطو هم المنظرون الذين ادرکوا بجلاء - وفى حنين إلى الماضى إلى حد ما - أن النسيج التقليدى للمدينة قد بدأ ينحل، ورأوا أن الحل فى إحياء القاعدة الأخلاقية والسياسية، وأوصوا بإعادة التسلح بالخلق بهدف انسجام أفضل فى العلاقات الاجتماعية، وخلق مؤسسات أكثر قدرة على صيانة هذا الانسجام.

٢ - فكر أرسطو «الاجتماعى والاقتصادى»

إن ما يطلق عليه بحق الكتابات «الاجتماعية والاقتصادية» إنما يمثل جزءاً يسيراً من مجمل كتابات أرسطو، وقضلا عن هذا فإن قراءة هذه النصوص ليست أمراً سهلاً، إن «الأخلاق النيكوماخية» The Nicomachean Ethics " وخاصة النص (NE,V,5) تعتبر عملاً جوهرياً، ولكنه عمل جُمع بعد وفاته بواسطة ابنه نيكوماخوس ويفتقر إلى الدقة فى بعض الأحيان، وفى نص آخر وهو «السياسة» (P,1,8-11) فإن أرسطو يتبنى مرة أخرى أفكاراً معينة سبق أن صيغت فى الأخلاق، كما أن تعريفات كثيرة قد استخدمت مرة أخرى ولكن بتأكيدات مختلفة، وهو ما لا يجعلها سهلة القراءة أو يفسرها.

وقبل الخوض فى التفاصيل من المفيد أن نجلو الصيغة التحليلية الأساسية وأن نحدد السمة الجمهورية الخاصة بها. لقد كان علاج أرسطو - إلى حد ما - عندما جوبه باحتياج القطاع الاقتصادى لشؤون المدينة وتدهور القيم التقليدية، ضرباً من نشاط معاكس يمكن أن يسمى «مضاد الكريماستيكية»^(٣). لأن اقتصاديات أرسطو لم تكن سوى وسائل لتأكيد الأسس الضرورية للتطور الأخلاقى الكامل للمواطنين، وعندما يتم احكام تخطيط الاقتصاد فإنه يصبح أيضاً وسيلة للانسجام السياسى والتماسك الاجتماعى. إن السعى وراء الكريما kremata وتراكمها لم يكن فى سبيلها من أجل ذاتها بل لغاية أخرى خارجة عنها. لان الهدف النهائى هو الايودايوتيا eudai- monia (العيش جيداً)، التى تؤلف النهاية الأسى، وينتسب الاقتصاد إلى تنظيم الوسائل، وهو ليس الا أداة لاشباع الوسائل الطبيعية (المادية). ولا يتعارض مع

(٣) لم ينفرد أرسطو بأن يكون مضاداً للكريماستيكية، فقد سبقه لهذا أفلاطون فى كتاباته الاجتماعية السياسية، وخاصة فى «الجمهورية» و «القوانين» عندما استبعد ديناميكيات الربح من مجتمعه المثالى.

أنظمة هذه الغايات. فالاقتصاد لدى أرسطو ليس إلا فنا اضافيا.

إن التمييز الأرسطي بين «العيش» و «العيش جيدا» يتقرر بجلاء في النص التالي من السياسة (P.1,9) : «من هنا فإن أناسا يعينهم يرون في هذا التراكم البسيط للسلع هدفا للإدارة المنزلية، وهم يصرون على التفكير بأن المرء لابد أن يهتفى على حاله الاصلية أو أن يزيد ثروته من الأشياء بلا محدودة. إن سبب هذه النزعة هو الانشغال الشديد بالعيش لا بالعيش جيدا، ولما كانت هذه الرغبة لا حدود لها فإن المرء يرغب في اشباعها بوسائل لا حدود لها هي الأخرى».

وهكذا فإن الفرق بين «العيش» و«العيش جيدا» يبدو واضحا تماما، ومن وجهة النظر الاقتصادية هناك بالضرورة جانبان:

- تراكم السلع والثروة اللازم لاشباع الحاجات الأساسية، وهي السلع التي لا غنى عنها للحياة الجيدة وتلك التي تنفع المجتمع.

- التراكم الذى يهدف إلى البحث غير المحدود عن الثروة كما هو الحال غالبا في التجارة على سبيل المثال. وذلك هو «غنى الثروة». *krematistike* المرفوض.

٣ - تفسير السياسة I,8-11 politics

في هذه النصوص يتبنى أرسطو أفكارا سبق أن صاغها أفلاطون، ولكنه أضاف إليها أفكاره، وقد لنا تحليلا مترابعا لتطور المجتمعات، وتشمل هذه التحليلات:

- تطور الاقتصاد التقليدى (المنزلى) *oikos* من مرحلة بدائية للعيش إلى مرحلة للتجارة أكثر صقلا، ولذلك فإن لكل شيء استخدامين (استخدامه لذاته واستخدامه للمبادلة، وله من ثم قيمتان: القيمة الاستعمالية، والقيمة التبادلية.

- أصل ووظائف النقود (وسيلة للتبادل ومقياس للقيمة "metron"). وفي هذا يعتبر أرسطو النقود وسائل أو وسائط للتبادل مقبولة بواسطة اصطلاح اجتماعى. وهي تأكيد للقيمة التبادلية المتعارف عليها، وأن المجتمع الذى يؤسس قيمة نقدية يعرف جماعى يستطيع أيضا أن يغير هذه القيمة إن عدّ هذا مناسبا.

- نماذج التبادل والتراكم، وقد رأينا أرسطو يميز جوهريا بين نموذجين: أحدهما مؤسس على الاحتياجات الطبيعية (الكريماتستيكية المقبولة). والآخر مدفوع

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

باغراض الكسب (الكرياتستيكية المرفوضة).

إن الانحياز فى السلع والخدمات، كما هو الحال فى النقود (خدمات البترك)، تقوم إيجابيا عندما تطابق أو تساوى الحاجات الطبيعية للمنزل oikos وللمدينة، وهذا يعنى عندما تأخذ المقايضة والتبادل طريقهما على أساس التكامل، ويعترف أرسطو بأن الاقتصاد التقليدى فى زمانه لم يعد قادرا على إنتاج جميع السلع والخدمات اللازمة لغيره ورفاهته على نحو فعال، ولهذا السبب فإن التبادل الموازى لهذه الحاجة الطبيعية يكون منتجا. ولكن مد هذا التبادل من أجل الربحية وحدها، فإنه يقوم بالسلب إلى حد بعيد.

إن الاعتبارات الخاصة بتراكم السلع تسرى أيضا على النقود. فالنقود تعرف بدورها كوسيط للمبادلة ولكنها فى حد ذاتها عقيمة مجدبة^(٤)، وأن الاهتمام بها يشبه نوعا من الكرياتستيكية المرفوضة.

٤ - تفسير الأخلاق النيكوماخية Nicomachean Ethics, V, 5

فى هذا النص يصوغ أرسطو أفكاره الأساسية حول المبادلات فى إطار أخلاقى وهو العدالة. وهذا التحليل يمثل تطورا رئيسيا فى النظرية الاقتصادية.

فى هذا النص يتم أرسطو لنا تحليلًا:

- للنقود

- للقيمة الاقتصادية

- لشروط المبادلة

- لعدالة التوزيع والتصحيح

أ - النقود

إن أرسطو فى مفاهيمه المتعلقة بالنقد لجده وظيفيا (Functionalist) واسميا

(٤) يعود البرتوس ماجتوس إلى هذه الفكرة عندما كتب بأسلوبه اللغوى بالمحستات. "Pecunia non Parit" أى بالنقود لا يمكنها أن تتوالد.

(Nominalist) فى آن واحد، والفقرة التالية من الأخلاق (NE,V,5) التى تدور عن النقود تؤلف جماع أفكاره بجملاء.

ولقد أصبحت النقود بفضل الاتفاق الجماعى أو العرف، إذا جاز التعبير، وسيلة للمبادلة على شيء نفتقر إليه، وهذا هو السبب فى أننا نسميها Nomisma لأنها ليست طبيعية وإنما عرفا شرعيا يجب قبوله، كما أنه ليس بمقدورنا أن نغيرها أو أن نقرر وقف استخدامها.

إن الاسمىة النقدية لأرسطو قد تفرقت هنا بوضوح، فالسلطات السياسية فى المدينة (قانون: nomos) تسمح أهميتها على النقود، وهكذا فإن أرسطو لم يكن معنينا (عندما تكون قيمة النقود قائمة على المعدن) كما يرمى فى بعض الأحيان.

ولكن النقود ليست وسيلة عرفية للتبادل فحسب، ولكنها أيضا معيار (Metron) للسلع والخدمات الأخرى، وهذا الجانب المياري يوضح فى فقرة أخرى من الأخلاق. «إنها (النقود) التى تعابر جميع الأشياء، من القيمة الكبرى لاحداها إلى أصغر قيمة للأخرى، مثل كم يقدر من الأحذية كى يعادل منزلا أو يكفى لإطعام فرد».

ب-المبادلة:

ولكن الفقرة الرئيسية فى الأخلاق (NE,V,5) هى دون شك النظرية الأرسطية عن القيمة الاقتصادية للسلع والخدمات وشروط تبادلها. ولدى أرسطو أن القيمة الاقتصادية للسلع والخدمات تتركز على قدرتها على إشباع الحاجة (keria) وشدة الحاجة (المنفعة؟) هى معيار قيمة السلع أو الخدمات. لقد أسفر التطور التاريخي والتنظيم الاجتماعي - بوجه عام - فى الحقيقة عن عجز الاقتصاد التقليدي oikos عن إنتاج جميع السلع والخدمات اللازمة لإشباع حاجاته، ومن هنا كانت المبادلة هى وسيلة الحصول على السلع والخدمات الناقصة من أجل فائض فى السلع والخدمات، ولكن الحاجة أيضا فى المبادلة على أساس نقدي (بالنقود كوسيط) هى أساس القيمة. فالنقود تمثل الحاجة بطريقة عامة ومحايدة^(٥).

وحتى يسود الانسجام المدينة من الضروري أن تأخذ الأنشطة التبادلية سبيلها

(٥) إلى النص Upallagma tès kreia

طبقا لمعايير العدالة، فمن الحقنى أن يحصل كل فرد على حقه لقاء إسهاماته^(٦)، وطبقا لأرسطو ينتهى أن يفهم مصطلح العدالة بمعنىين:

أ - فهناك أولا عدالة توزيع أو عدالة شاملة تضبط توزيع غنائم الحرب أو الجزية، التفضيحات والتكليفات، المناصب، الألقاب والأوسمة.. إلخ. وهنا يقر أرسطو التفاوت الاجتماعى (بل الطبيعى) فيما بين الرجال، ومن ثم يقر التفاوت فى توزيع الامتيازات كذلك.

ب - ثم هناك العدالة التصحيحية، وهى المعايير التى تضبط «الوسط العادل Just middle فيما بين خسارة فرد وكسب آخر» فى موقف مبادلة^(٧). والعثور على هذا «الوسط العادل» - الذى هو الثمن العادل - هو المشكلة النظرية الأساسية التى يبحث أرسطو عن حل لها، فلكى يمكن تقدير القيمة العادلة لاسهامات كل فرد (فى موقف يشتبك فيه أناس مختلفون، مثل حرفيين يبادلون منتجات غير متشابهة) من الضرورى أن نجد معيارا موضوعيا يجمع العلاقات متكافئة وعادلة، وهكذا فإن نظرية "تحكم شروط المبادلة تبدو ضرورية.

إن المعيار الأرسطى للقيمة التبادلية للسلع أو الخدمات هو الحاجة (kreia) فى موقف المقايضة، وهو النقود التى تعبر عن الحاجة أو تمثلها (upallagma tès kreia) فى موقف مبادلات السوق أو المبادلات النقدية وشدة الحاجة التى يحسها هؤلاء الذين يقرمون بالمبادلة هى المعيار المتكافئ لقيم السلع والخدمات غير المتشابهة أو المتباينة.

فعندما يتبادل اثنان من الحرفيين منتجاتهم يكون من الضرورى أن يعى القائمان بالمبادلة أن ما يعطى وما يأخذ ذو قيمة متساوية نسبيا، وهذه الفكرة تعبر عن المتطلبات الوظيفية لنظام التبادل، ولكن هناك أيضا مطلب الوسط العادل (من العدالة) للنظام. وهذا يعنى أن الانسجام الاجتماعى تتم كفايته عندما تقدر الأشياء المتبادلة بواسطة القائمين بالمبادلة (من وجهة نظرهم ومن موقفهم بالنسبة للحاجة) على نحو متكافئ نسبيا، وهذا الموقف الذى لا يحس فيه أحد من شركاء المبادلة بأنه

(٦) إن المصطلحان "equitable"، "just" يتصلان إيتيمولوجياً etymologically «علم أصول الكلمات وتاريخها» للجنر (dikaion مقسم إلى قسمين): NE, V.3. (٧)

مغبون أو مهضوم خليق بأن يكفل استمرار العرض والطلب، أما في الوضع المخالف فإن حرفا معينة سوف تختفي.

وكي يوضح أرسطو نظريته في المبادلة وشروطها يقدم مثالا باثنين من الحرفيين، أحدهما صانع أحذية والآخر مهندس معماري، يرغبان في مبادلة منتجاتهما؛ أحذية مقابل منزل. وفيما يلي نستشهد بهذه الفقرة من كتاب الأخلاق N.E,V,5 عن المبادلة. وهي تكشف عن منظور جديد للتفسير غير ذلك المؤسس على الحاجة (keria) «لا بد أن يتلقى المعمارى من صانع الأحذية ثمار عمله، وعليه بدوره أن يمنح صانع الأحذية ثمار عمله هو الآخر. فإذا تمت هذه المساواة النسبية قبل كل شيء، وإذا حدثت المبادلة بعد ذلك، فإن الأمور ستبقى حسبا قلنا آنفا، إما إذا افترق الأمر لذلك فستهدم المساواة ولن تستمر هذه الصلات طويلا. لأنه ما من شيء يستطيع أن يمنع عمل إنسان من تجاوز عمل إنسان آخر. فينتفى المساواة بينهما، ويوجد هذا أيضا في الحرف الأخرى، إنها سوف تختفي إذا كان ما يصنعه الفريق الذي يبدل الجهد - في الكم والكيف - لا تتم مساواته بواسطة الفريق السلبى بالشروط نفسها».

لقد صار هذا المثل بصانع الأحذية والمعمارى شهيرا في الكتابات الاسكولائية (المدرسية) حيث استخدمها معظم المفكرين وأحلوها موضعها من خلال منظور زمانهم. ولكن النظرية الأرسطية في شروط المبادلة ليست مثالا للوضوح التحليلي، وقد اعطى هذا الفرصة لمختلف المدارس (منذ العصور الوسطى حتي يومنا هذا) لأن تقرأها بطريقة تتطابق مع اطار مرجعهم الايدلولوجي.

ومنذ الفترة الاسكولائية حايبت مدرستان كل منها الأخرى:

- شروط المبادلة (Justum pretium) المبنية على التكاليف: القيمة الاقتصادية الموضوعية

- شروط المبادلة القائمة على المعايير الشخصية (المنفعة)، وفيها تتحكم ظروف السوق في المبادلة.

ان النص الأوسطى عن المبادلات يستسلم في حقيقة الأمر لقراءة مزدوجة.

أ - القراءة التي يرى فيها هؤلاء المتبادلون كفاعليات اقتصادية تقايض أو تبادل لاشباع حاجاتها، وهذا هو الفهم (التجاري) للسوق، ويمكن لهذه النظرة أن تقوده إلى تقويم شخصى لكثافة العرض والطلب.

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

ب - القراءة التى يُرى فيها هؤلاء المتبادلون كحرفيين، وهذا من وجهة نظر الانتاج، وفى الفقرة الأخيرة التى استشهدنا بها نرى أن أرسطو لا يركز على حاجة (kreia) صانع الأحملة بل على عمله (ergon) . ان استخدام المصطلحات على نحو «منتج» و «عمل» تشير إلى جوانب الانتاج وهذا يقود إلى الناحية الموضوعية لتكلفة الانتاج. أيلمع أرسطو هنا بفطرته الى نظرية اقتصادية عن التوازن فيما بين أجل قصير (الحاجات والسوق) وأجل طويل (تكاليف الانتاج)، الأمر الذى لم يكن معنيا به؟ ولم هذه الملاحظة: «هذه الحرفة سوف تختفى؟».

إذا ظل سعر السوق القائم على شدة الحاجة لدى هؤلاء المبادلين (يمكن أن نقول اليوم على العرض والطلب) بالنسبة لمنتجات معينة أقل من تكلفة الانتاج، فى أحيان كثيرة فإن الوسط العادل لن يتحقق، حينئذ يعلن أرسطو أن هذه الحرفة أو الفن (هذا المنتج) سوف يختفى، وهاتان القراءتان تزودان بالمادة الأولية (التي لم يستخدمها أرسطو نفسه) للتركيبة أو الجمعية (الجمع بين عناصر مختلفة) التى صيغت فى نهاية العصور الوسطى، والتى سوف تقود إلى نظرية التوازن: القصير الأجل الذى تحكمه شدة الحاجة (المنفعة الشخصية) والطويل الأجل الذى تحكمه تكاليف الانتاج (المعيار الموضوعى).

5 - التقويم

على خلاف ايزوقراطيس وزيغوفون وغيرهما من الاقتصاديين الذرائعيين - العمليين - فإن أرسطو لم يضع خطة ملموسة لاصلاح ظروف المدينة الاجتماعية والاقتصادية فى أزمتها، وفى النصوص الاجتماعية الاقتصادية التى تعرضنا لها بالتعليق توأ، نجد بنأى بنفسه ولا يخلق على التفسيرات التى أحدثها فيليب المقدونى والاسكندر، ان هذا الستاجيرايتى *stagirite* يقدم نفسه كمحلل يرتفع بنفسه عن حمأة الصراع مثل مؤسس مدرسة، إن النموذج التحليلى الأرسطى فى الاقتصاد له نفس السمات التى لنظامه الأخلاقى:

- انه عالم يحظى فيه العيش جيدا بالأسبقية على التراكم.

- وهو عالم تشكل فيه العدالة ضمانا الانسجام والتماسك «الاجتماعى - السياسى» ويزكى المبادلة بأسعار طبيعية هى الوسط العادل Just middle.

* يقصد بالمصطلح أرسطو الذى ولد بمدينة ستاجيرا stagira (الترجم).

لقد مرَّ أرسطو في أيامه بعدد كبير من الابتكاسات في حياته الخاصة والعامة، وتميز عالمه بحكم الصفة التي يهزها شوق جارف لماضٍ لن يعود، ولقد قدمت المدينة الاتيكية خلال تطورها منذ عام ٣٧٠ إلى ٣٢٢ ق م كثيراً من التحديث كي ترضى أرسطو، كما كانت صلتها بالجماعة المقدونية في أثينا سبباً في اضطراب سنواته الأخيرة، وبعد موته توارث أفكاره الاقتصادية والسياسية مدداً طويلة، ولكن نظراً لكونه مؤسساً لمدرسة فإن عبقريته الفلسفية مرت بالعديد من فترات الانتعاش، وكذلك في عالم الفكر الاقتصادي.

وحتى أيامنا هذه فإن إسهامات أرسطو كاتصادى لم تزل مدار نقاش ومحل جدل، ويعتبره بعض مؤرخي الفكر الاقتصادي كـ «جيه. سكمبتر J. Schumpeter» أول المنظرين الاقتصاديين، بينما يعارض البعض الآخر مثل موسى فينلى Moses Fin-ley هذا التكريم الذي خلغ عليه دوغما استحقاق، ولقى قائمة المراجع التي أدرجناها في نهاية هذا المقال فإن الجدال يأخذ غالباً طابعاً أيديولوجياً ويصبح محلاً للجدل فيما بين مختلف المدارس (قيماً بين الماليين، واقتصادى المذهب التقليدى الحديث. والمؤسسين).

ثالثاً: أرسطو: مصدراً للفكر الاقتصادي في البلاد الإسلامية

لما الاسلام سريعاً بعيداً عن قاعدته في بلاد العرب، وامتد إلى بلاد الثقافات القديمة، مثل آسيا الصغرى وشمال أفريقية وجنوب اسبانيا، وكانت هزة الاصطدام بالفكر الشرقى في إيران والاتصال بميراث الاغريق هو ما طبع التطور العقلى للدين الجديد.

وأثار الفوز مشكلات جديدة تشمل المشكلات الاجتماعية الاقتصادية. وكان الاسلام ديناً ينتمى رجاله الأوائل للبرجوازية التجارية في بلاد العرب، وكان النهى عليه السلام على دراية مباشرة بدورات الحياة الاقتصادية، ولم يكن للاسلام نصيب في التقويم السلبى للتجارة والاقتصاد بوجه عام كما كان الحال في العصور القديمة وفى العصر المسيحى.

ومن جهة ثانية احتفظ الإسلام بمبدأ أساسى موروث عن اليهودية الكتابية (سفر تثنية الاشتراع) ومن الفلاسفة القدماء (افلاطون وأرسطو). وهو مبدأ تحريم الفوائد أو طلب الربا على القروض. وقاعدة اجتماعية أخرى هي الزكاة

أو الهبات من أجل الفقراء.

ومنذ القرن التاسع بعد الميلاد أصبح أرسطو الإلهام الرئيسى للفكر الاقتصادى فى البلاد الاسلامية خلال الفترة الكلاسيكية. وانحاز المفكرون المسلمون لفكرة إدخال التحليل الاقتصادى، والتحليل الاجتماعى السياسى فى نظرية الأخلاق العملية. ويعرف هذا العلم فى الاسلام باسم علم تدبير المنزل الذى يعنى علم تنظيم البيت Oi-kos وهى فكرة اغريقية.

ان غزو اقاليمة شاسعة تشتمل على العديد من المناطق الغنية قد أتى بهجزة طائلة وتجارة هائلة. وخلال زمن قصير جدا تشكلت برجوازية فائقة الغنى، ولم تجد هذه الطبقة أية غضاضة فى تراكم الثروات الضخمة، ولجئوا لهذا التيار فى عالم الفكر، فقد صاحب النمو الاقتصادى فى العصر العباسى جهدا اسلاميا لاضفاء الشرعية على الربح^(٨)، وتعتبر مجموعة النصوص الواردة فى كتاب الكاش للشيبانى (حوالى ٨٠٠م) مثالا على هذا الجهد.

«ان اكتساب المال بالتجارة لهر أفضل من أن يكون المرء ديوانيا أو حتى جنديا»، ولكن المسلمين البررة وقادتهم الروحانيين ظلوا دوما لا يقرّون اجتناء الثروات الطائلة. وسوف تشير على الترتيب فيما يلى إلى المؤلفين الاسلاميين فى العصور الوسطى الذين نشروا نصوصا اقتصادية.

فالبيرونى الاجتماعى الاقتصادى الإيرانى (٩٧٣ - ١٠٤٨) كان مفكرا ذا معرفة موسوعية، ولم يزل كتابه عن الهند ذا قيمة كبيرة بالنسبة للقارئ المعنى بمقارنة الحضارات^(٩).

ويعتبر البيرونى لدى بعض القراء ارهاصا بالمتموس، فقد أوصى فى الحقيقة بنمو سكاني معتدل، بينما يرى البعض الآخر فى كتاباته إطارا لنظرية الكمية للنقود. ولكن آثار المنهجية الاغريقية وآثار أرسطو تبدو حاضرة على الدوام.

c. cahen, "A propos et autour de Ein arabisches Handbuch der Handelswissenschaft", Les peuples musulmans dans l'histoire Médiéval, Damascus 1977.

(٩) كتب البيرونى كتابه باللغة العربية، ونشر إى.سى. ساتشو E.C. Sachau ترجمة إنجليزية له فى لندن عام ١٨٧٩م

وطبقا لـ جيه. دى. سوموجى J.De. Somogyi فإن المُعلم على الدمشقي كان أول اقتصادى عربى بفضل دراسته وكتاب الاشارة إلى محاسن التجارة» (١٠). وهو ليس نظرية اقتصادية بقدر ما هو وصف جيد للحياة الاقتصادية. ويبدو التأثير الأرسطي غامرا، وهناك نص فى الاقتصاد هام هو الآخر كتبه الحريري (١٠٥٤) - (١١٢٢).

أما أشهر الأسماء فى العالم العربى فهو ابن خلدون (١٣٢٢ - ١٤٠٦)، وفى زمانه ظل المؤلف شخصية هامشية إلى حد ما، ولكن ابن خلدون أمدنا بقدر هائل من التاريخ ومن التحليلات الاجتماعية الاقتصادية التى خطيت بالشهرة بناء على ذلك، والنصوص النظرية فى الاقتصاد نجدها فى الجزء الخامس من مقدمته تحت عنوان والمقدمة Muqaddima.

ولكن الفيلسوف العربى الذى صاغ أكثر الأحكام أهمية بالنسبة للنظرية الاقتصادية هو «ابن رشد»، وشروحه الميتافيزيقية التى تصوب الإسمية النقدية لأرسطو ظلت آتية الأهمية إلى درجة كبيرة لحين الأذعان لنظام برتون وود Bretton Wood (١٩٧٣) الخاص بمعدلات الصرف الثابتة فيما بعد. فإذا كانت النقود - بين أشياء أخرى - معيارا للقيمة (metron) كما نادى أرسطو، فينبغى أن تكون معيارا ثابتا حسبما يقول ابن رشد، لأن معيار جميع السلع والخدمات لا يمكن أن يكون خاضعا لقانون السوق وإلا أصبحت قيمته متغيرة. لأن هذه القيمة ستصبح تقلبات العرض والطلب... إلخ.

إن فكرة ثبات معايير القيمة تعتبر اسهاما أساسيا لابن رشد، انها قدنا بتعزيز للإسمية الأرسطية. لقد كان ابن رشد ضد تقلب النقود ومعدلات الصرف لسبب جوهرى واحد، وتعنى به «جوهرى» أن ابن رشد أشار إلى الجوهر أو الماهية (الميتافيزيقية) للحاجة. ووفقا للفلسفة العربية فإن المعيار (النقود) لا يمكن أن يكون له قيمة متغيرة، وإلا كان معيارا «غير متكافى» وجوهر المعيار أن يكون ثابتا، وإلا أدى هذا إلى محدودية شاملة لما تحجب معيارته (السلع والخدمات).

لقد ظلت الكتابات الاسلامية فى الاقتصاد وصفية إلى حد بعيد ولم توفر أى تطورات نظرية، باستثناء ابن رشد فى شروحه التى كانت مختصرة - ولكنها جلية -

J.De Somogyi, "Economic, Theory in Classical Arabic Litcr ature", (١٠.) studies in islam, Vol.2, 1965,p.1-6..

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

عن الخاصية الجوهرية للتقود، ولكن يبدو لى أن مزيدا من البحوث ضرورى فى هذا المجال، وحتى الآن فان معظم المشتغلين بالعلوم الاسلامية يتوجهون لبحوث ققة اللغة والفلسفة وعلوم الدين. ولعل قرادة اقتصادية جديدة لهذه النصوص تتكشف عن كنوز أخرى خبيثة.

لقد كانت الحضارة الأندلسية فى جنوب إسبانيا الوريث لتيارات الفكر الاسلامى الشرقى، فعمقت هذا الفكر وكان لها هى الأخرى أثرها كمرحلة ثقافية، إن القوة الثقافية للأندلس تخضت عند النقل البطيء - اعتبارا من القرن الثانى عشر وما بعده - للمعرفة العربية إلى العالم الغربى الذى كان مهيا لاستقبالها.

رابعا: أرسطو، ملهم النظرية الاقتصادية الاسكولائية (المدرسية).

خلال العصور الوسطى المتأخرة كانت النظرية الاقتصادية للقيمة وتطبيقاتها العملية فى تثبيت الأسعار وفى إعارة المنقولات mutuum... إلخ محصورة فى نطاق المشرعين والمحامين الاكليركيين. وكانت القواعد والمعايير المستخدمة فى المعاملات الاقتصادية مشتقة من القانون المدنى أو القانون الكنسى. لقد أحدث وصول «السياسة» و «الأخلاق النيكوماخية» إلى الغرب اللاتينى تغييرا جوهريا. فمنذ هذا الوقت وفيما بعد أصبح اللاهوتيون (المدرسيون) هم الذين يقررون هذه المعايير، مستخدمين فلسفة أرسطو وأخلاقه، ولما كان هؤلاء اللاهوتيون يكتبون أيضا الدلائل المرجعية للمعتزفين، فانهم بهذه الطريقة صاغوا الضمير المسيحى وسيطروا عليه. بما فى ذلك ضمائر التجار والحرفيين. ونتيجة لهذا وجد المعلمون الاسكولائيون أنفسهم فى موقع السيطرة الاجتماعية والأخلاقية، أما الفلاسفة المسلمون من ناحية أخرى فقد ظلوا على هامش القوة الدينية تقريبا.

(١) السمات الجوهرية للتعاليم الإسكولائية.

ان كبار المعلمين الاسكولائيين قد استلهموا أساسا «الأخلاق النيكوماخية» N.E.V,5 «والسياسة» P.I,8-11 فى تحليلاتهم الاقتصادية، ولكن أرسطو اللاتينى لم يكن دائما هو أرسطو الأثينى تماما.

أ- فقد كانت هناك مشكلة إعادة غرس الأفكار فى عالم مختلف اجتماعيا واقتصاديا. ان العالم الغربى فى القرن الثالث عشر الذى ظهرت فيه نصوص

«الأخلاق» و«السياسة» كاملة كان مجتمعاً إقطاعياً، وكانت التجارة في مدنه لم تزَل بعد تتطور في وجل شديد، كان عالم اقتصادٍ للتميش، وكان تحويل الصلات الاقتصادية إلى نظام نقدي في بدايته، مما كان سبباً في إثارة المشكلات بالنسبة لكلمتي «متكافئ» equitable و«عادل» Just كمصطلحات للمبادلة (Justum Pretium).

ب - كذلك فإن ترجمة النصوص إلى سياق تاريخي وثقافي جديدين يصنع كثيراً من المشكلات، فنحن لا نستطيع أن نفعل حقيقة أن المفاهيم الأساسية في التحليل الاقتصادي الإسكولائي (المرسي) مثل "Just" و"equitable" و-Commensurable" able" بمعنى متكافئ، أو قابل للقياس الكمي، "usus"، "Laesio enormis"، "utilitas" .. إلخ. قد ابتدعت في اللاتينية من تقاليد الفكر القانوني الروماني (corpus, Juris, civilis) ومن التقاليد الكارولنجية (*) ومن القانون الكسي.

ونستطيع أن نوضح هذه المشكلة بواسطة واحد من مصطلحات «الأخلاق» Ne, V,5 «وإعني، Keria، فالترجمة الأولى (Translatio Lincolniensis) ترجمت فيها Kreia على التعاقب ب-opus, nesessitas, utilitas, indigentia، وهذه المصطلحات بدلالاتها المختلفة أثارت غموضاً منذ البداية الأولى للحقبة الاسكولائية (١١١). وكانت النتيجة أن ظهرت اتجاهات مختلفة في منات الشروح والتعليقات التي عثت الترجمة الأولى.

- فاختار ثوما الاكروني المصطلح indigentia بدلا من المصطلح utilitas
- كما كتب أوزم Oresme على التعاقب «human indigence أو -necessity»
- وفي النصوص الإيطالية الحديثة نجد Mancamento أو bisogno
- والنصوص الفرنسية المعاصرة تستخدم المصطلح besoin
- والنصوص الإنجليزية الحديثة تستخدم demand و want و need

* نسبة إلى أسرة تأسست عام ٦١٣ م وحكمت فرنسا خلال المدة من ٧٥١ م إلى ٩٨٧ م وألمانيا من ٧٥٢ إلى ٩١١ وإيطاليا من ٧٧٤ إلى ٩٦١. (المترجم).

(١١١) من أجل تفصيلات إضافية انظر:

O. Langholm, Price and Value in the Aristotelian Tradition, Oslo, 1979.

- وفى الترجمات الألمانية نجد *Bedurfnis* ولكننا نجد أيضا *Bedarf* التى تعبر
إلى الدلالة الاقتصادية الحديثة لكلمة *Nachfrage* (بمعنى الطلب).

إن الشراح المحدثين يمرضون أنفسهم لخطر قراءة النصوص الأرسطية السابق تفسيرها
بواسطة الاسكولائيين، بالمفاهيم الحديثة السائدة مثل السوق، والطلب، والتلاحم أو
الترايط بين العرض والطلب، والتوازن العام... إلخ، وهذا هو خطر التفسيرات
التلفيقية *hineininterpretieren* من الأطر المفاهيمية المعاصرة.

٢ - روافد التقاليد الأرسطية فى الإسكولائية

تسببت هذه المصطلحات المختلفة فى الاسكولائية (من القرن الثالث عشر إلى
السادس عشر) فى ظهور ضروب مختلفة من التفسير، وقد أراد البعض أن يرى فى
هذا مسألة خلاف مدرسى بين الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان على سبيل المثال.

فى مجال القيمة قيزت مدرستان:

أ - نظرية القيمة الموضوعية المبنية على تكاليف الإنتاج، وفى هذا كان البرتوس
ماجنيوس Albertus Magnus محددا واضحا فى فكرته عن *Labor et expen-*
sae، فى نصه المعروف *De Bono* كما فى شروحه للأخلاق (N.E.V.5) يتبنى
فكرة أرسطو عن استمرار الحرف، فبالرغم من تقلبات السوق التى ترجع إلى اختلاف
شدة الحاجة فإن الثمن ينهض أن يغطى تكلفة الإنتاج، وإلا فإن فنونا (حرفا) يعينها
سوف تختفى (١٢).

ب - نظرية القيمة الشخصية المبنية على الحاجة (*utilitas*) وعلى الندرة
(*rarity*) أيضا، ويتحكم فيها قوانين السوق الخاصة بالعرض والطلب.

ولقد جمع الكاثبان الفرنسيان بتروس جيه. أوليفي Petrus. olivi
(١٢٨٤ - ١٢٩٨) أو جي. اودونيس G. Odonis (١٢٩٠ - ١٣٤٩) فيما بين
المدرستين مع مقدمة بشأن الاختلاف النوعى فى العمل المنتج. وهذا هو اسهام
الفرنسيسكان فى النظرية الاقتصادية، فمن خلال التدريب الإنسانى والتقى يصبح
العمل أكثر غلة ويستحق تعريضا أكبر لأن الحرفيين الذين وهبوا كفاءة خاصة يعدون

(١٢) فى النص: *artes destruentur... si non faciet... quantum ad expensaa et quantum ad laborem.*

شيئا ثميناً وتادراً: *Pauci et rari sunt*. ويعتبر هذا إرغاصاً بنظرية توزيع الأجور طبقاً لدرجة كفاءة العامل.

٣ - تقويم نظرية النقد

أ- فكر أرسطو في التقاليد الوظيفية أو الدالية: في عالم القيمة كان أرسطو اسماً؛ فقيمة النقد تحدد باصطلاح اجتماعي (أو سياسي).

ب - صاغ الذكائرة الأوائل (توماس الاكوينى على سبيل المثال) نظرية سياسية للنقد تناسب تقاليد المجتمع الإقطاعي: نظرية *Valor impositus* بواسطة الأمير.

ج - ساهم بوريدان Buridan وأوزم Oresme في إجراء شيء من التعديل. فقدموا فكرة القيمة التي تضع في الاعتبار مصالح المجتمع بأسره (الناس والهرجالية.. إلخ)، فالأمير لا يستطيع تغيير قيمة النقد حسبما يهوى ولهيبته الخاصة. فتلاعب الأمراء بالنقد لم يكن محل تقدير الهرجاليين أو اللاهوتيين مثل جيه بوريدان تلميذ أوزم.

د - كانت الإسكولائية الإسبانية في القرن السادس عشر تمثل نظرية لاهوتية حذيفة، فأنشأت أول نظرية اقتصادية في النقد حتى قبل جيه. بودين Bodin - J فاعتبرت النقد مثل السلع ذات قيمة سوقية متغيرة. ان التطور تجاه التضاد التام مع تفسيرات أرسطو قد استمر بواسطة ابن رشد، فقيمة النقد تعتمد على مقدار ما يتداول منها، وهذه هي بداية النظام النقدي.

خامساً: تفسيرات القرن التاسع عشر

بحلول القرن الثامن عشر بدأ تأثير أرسطو الخصب في عالم الفكر الاقتصادي في الانحدار، وبدأ نموذج التجارة العامة والتجارة الفردية (مذهب المنفعة ومذهب المتعة) في السيادة.

ولكن نهاية القرن التاسع عشر طُبعت بالخلاف بين الفكر الاقتصادي المستلهم من الماركسية (نظرية القيمة الموضوعية) وبين الفكر الاقتصادي الحدي (نظرية القيمة الشخصية).

لقد ظن الكتاب الماركسيون أن بمقدورهم أن يجدوا في نصوص أرسطو وبعض

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

الاسكولائيين الناهيين (مثل توما الاكوينى) دعما لنظريتهم فى التكاليف، وهى نظرية القيمة الموضوعية. وهكذا يكون ماركس اسكولائيا أو حتى أرسطيا بالنسبة لمسألة القيمة الاقتصادية، وهذا الخلاف الايديولوجى الحى أثار اهتماما جديدا بالنصوص الاقتصادية الأرسطية (انظر قائمة المراجع).

ومع نهاية القرن التاسع عشر نشب نقاش حى فى ألمانيا بين المتخصصين فى الآثار اليونانية وبين الاقتصاديين المنتمين للمدرسة التاريخية، وكان موضوع النقاش هو معرفة هل كان المواطنون فى المدينة اليونانية على قدر من «الوعى» الاقتصادى أم لا، وهل كانوا سلفا ذوى عقلية رأسمالية أم - بالنسبة للجماعات الأكثر فقرا - على وعى طبقي؟ ومن اللعش أن نلاحظ أن واحدا من أفضل المختصين بالآثار (فى فقه اللغة) قد دافع عن فكرة «يونان بمقلية معاصرة» بينما أطلق الاقتصاديون من جهة أخرى على شعب القرن الرابع قبل الميلاد «ما قبل الحديثة Pre - modern». وكنتيجة لهذا الخلاف قرئت نصوص أرسطو مرة أخرى وأعيدت قراءتها أثناء إصدار كلتا المدرستين الفكريتين لتفسيراتهما.

سادسا: أرسطو والتفسيرات المعاصرة

إن التفسيرات المعاصرة للفكر الاقتصادى الأرسطى (انظر قائمة المراجع) تتركز فى النقاط التالية:

١ - ادخال الاقتصاديات فى المجتمع ككل. والعلاقة بين معايير الاقتصاد والمعايير الأخرى الخارجة عن نطاقه: اجتماعية وسياسية وأخلاقية.

٢ - نظرية القيمة

٣ - آليات تحديد الأسعار (السوق.. وعوامل أخرى)

٤ - الحدود «الطبيعية» للنمو الاقتصادى

٥ - نوعية الحياة

ماذا يعنى أرسطو لعصرنا الحاضر؟

تعتبر النظرية الاقتصادية فى مأزق فى الوقت الراهن كنتيجة للتجاوزات التالية:

- الردية* إلى صورية (شكلية) منطقية ورياضية بالنسبة للبعض.

- الاقراط فى الوضعية التجريبية بالنسبة للبعض الآخر.

- - التفرغ من القيم والغايات والاهتمام كلية - فى الغالب - بالتحديد الأمثل للمؤسسات: الكفاية الأدائية.

إن القضية التى نطرحها الآن للمناقشة هى ان قراءة أرسطو يمكن أن تساعدنا فى إنعاش الفكر الاقتصادى.

١ - ان النظرية الاقتصادية الحديثة قد تغفلت عن تحليل القيمة، وقبلت النظرية التقليدية الحديثة الصيغة التحليلية القائلة بأن السعر يحدد فى الأسواق الحرة، ولكن الحقيقة مختلفة تماما: فالكثير من الأسعار (الخاصة بالعمل والسلع) تتقرر بواسطة الإدارة العمومية، أو عن طريق المفاوضات بين الاتحادات المستخدمين ومنظمات أرباب العمل. وهكذا فإن أسعار السلع والخدمات لا تقوم (نظريا) على معيار القيمة. فهى نتيجة للعلاقات بين القوى الاجتماعية والسياسية. وفى هذا ما يوضح آلية الأسعار القائمة على معطيات لا تنبع من النظام الاقتصادى.

٢ - ان نموذج التراكم الأرسطى نموذج نام ولكنه يظل تحت السيطرة، بمعنى أن يبقى داخل الحدود القياسية بواسطة الإنسان والطبيعة، إن التأكيد لا يكون على تحسين الانتاج، وإنما بالأحرى على التوزيع المتكافئ (بالمعنى الأرسطى). لقد كان أرسطو يخشى أيضا نموًا بالغ السرعة فى السكان، فإن هذا سيخلق المشكلات، والمدن لا ينبغي أن تصبح كبيرة جدًا. فمع زيادة سكانية غزيرة فإن التراكم الاقتصادى يصبح انشغالا شديدا الأهمية، وهذا النمو ينبغي تماشيه، وهكذا يصبح أرسطو مالتوسيا ولكن لأسباب أخرى غير تلك التى يصدر عنها مالتوس.

٣ - إن النموذج الأرسطى لا يضع قيودا خارجية على النمو فحسب (الموارد والمواد الأولية.. إلخ) وإنما قيودا داخلية أيضا. ان الفكرة الأخلاقية عن التوسط العادل تتعارض مع فكرة تمجيد التراكم، ومن وجهة النظر هذه فإن أرسطو يذهب إلى أبعد مما يذهب إليه «نادى روما» بوضع القيود «الأخلاقية» و «الاجتماعية

* من الردّة وهو فى اصطلاح الرياضيين والمناطقه تحويل بعض موضوعات الفكر إلى موضوعات أخرى معادلة لها (الترجمه).

أرسطو : اقتصادى بحر أوسطى

السياسية» على النمو الواسع كهدف للنظام. لقد عرف أرسطو أن الرغبات لا حدود لها، ولكنه يقول أن الحاجة الحقيقية (الطبيعية) محدودة. وينادى الاقتصاد الحديث بأن الحاجة غير محدودة، ولكن المشكلات الاقتصادية تثور من حقيقة أن الوسائل محدودة. ان فكر أرسطو يستهدف الغايات.

٤ - يولى الاقتصادى المعاصر التخصيص الفعال للوسائل أهمية كبرى، والأخلاق النيكوماخية بحث فى تعدد الغايات والغاية العليا أو الـ *eudaimonia* أى العيش جيدا، إن الاقتصاد الأرسطى اقتصاد سياسى وأخلاقى، وهو ليس ولا يمكن أن يكون اقتصادا خالصا (صوره خاوية).

٥ - اتبعت البلاد الاسلامية اتجاهها آخر، يتمثل فى اقتصاد مستقل ليس له أبعاد أخلاقية، تحول فقط إلى بحث اداتى عن فاعلية لم يكن لها جذور فى الواقع. والحقيقة أن البلاد الاسلامية ظلت أكثر تشعبا بالتقاليد الأرسطية.

- بالاعتدال فى التراكم كحافز الحياة المادية.

- بالسمو بالأخلاق والسيطرة على اقتصاد اللذة (المتعة).

ان لفرة من «الوصايا العشر» للاقتصادى الاسلامى المعاصر عيد الرؤوف تصوغ هذا الاختيار فى وضوح. «فى محيط الثقافة الاسلامية، فإن المشكلة الاقتصادية أقل ارتباطا بندرة المنتجات أو الافتقار إلى تنظيم فعال لوسائل وموارد الانتاج والتوزيع، منها بالإنسان نفسه وبجشعه. ولمواجهة هذه المشكلة فإن الاسلام يأمر كعلاج بالحد من التطرف فى الجشع الانسانى والسمو بروح الانسان، الأمر الذى يمكن احرازه بمناقشة العدالة الاجتماعية والشعور بالمسئولية المشتركة» (١٣). ان هذا الاختيار للاعتدال بالنسبة لاغراء الكسب (البرنامج المضاد للكرىماتستيكية) وللجوء إلى الارتفاع بالروح تجاه غايات سامية *eudaimonia* يمكن أن ينسب أيضا وبسهولة إلى أرسطو.

٦ - ان فكرة السيادة المطلقة للمدينة تعبر عن الفكرة المعاصرة «والصغير جميل» ولكن فى هذا الصدد مستخدمين نظامنا الذى يتخطى الحدود القومية علينا ان نقضى إلى ما هو ابعد من الـ *Kleinstaaterei* (الاكتفاء الذاتى) لأرسطو وإكماله (١٤).

Abdul Rauf "the Ten Commandment of Islamic Economics", Across (١٣) the Board, Aug. 1979.

(١٤) ربحى السؤال وهو لماذا لم يفكر ارسطو فى تخطى الحدود القومية الذى كان قد أخذ سيده عقب تكوين امبراطورية الاسكندر. ويبدو هذا بالنسبة لنا بمثابة أخفاق عبقرية.

أنا نعيش في عالم متعدد العرقية ومتعدد القومية مازال يبحث عن معايير جديدة للتضامن، وبالنسبة لنا نحن أبناء القرن العشرين «فإن العالم هو قريتنا».

إن تفسيراً لأرسطو كإقتصادي بحر أوسطى يقدم لنا منظوراً جديداً من الناحية التاريخية ومن ناحية الشكل التحليلي. ومنذ القرن الثامن عشر فإن ثقافات البحر المتوسط والدول الإسلامية قد رأت عليها الصمت العميق، وكما تُرى من الغرب الأطلسى فإنها - كما قيل - قد تدهورت وأنحلت. ومنذ هذا الوقت فإن عالم الأطلسى أصبحت له السيطرة، بهرجوازيته الضاغطة، وتقنيته، وروحه التجارية. وكانت النتائج المادية مؤثرة وبلا سابقة في تاريخ الإنسانية.

ولكن عالم الأطلسى اليوم يبدو كأنه قد استنفذ الحدود المادية لنموذجه في التنمية، فبعد استبعاد قيمه ومثله العليا تهدو جناحه وقد تجردت معنوياتها عندما جابهته أزمة مجتمعاتنا الاستهلاكية ولعل التمازج سلاذ في النموذج التحليلي الأرسطي، الذي أغنته الثقافتان الإسلامية والمسيحية قادر على أن يمنحنا قوة جديدة.

لويس بايك

جامعة لوفان الكاثوليكية

BIBLIOGRAPHY

Nineteenth-century Exegesis

- ASHLEY, W., "Aristotle's Doctrine of Barter", *Quarterly Journal of Economics*, vol. 9, April 1895.
- GELESNOFF, W., "Die ökonomische Gedankenwelt des Aristoteles", *Archiv für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik*, 1923.
- KRANS, O., "Die aristotelische Werttheorie", *Zeitschrift für die Gesamte Staatswissenschaft*, vol. 61, 1905.
- SIMEY, E., "Economic Theory among the Greeks", *Economic Review*, vol. 10, Oct. 1900.
- SOUCHON, A., *Les Théories économiques de la Grèce antique*, Paris 1848.
- ZMAVE, Z., "Die Werttheorie bei Aristoteles und Thomas von Aquino", *Archiv für die Geschichte der Philosophie*, vol. 12, 1899.
- BALDWIN, J., "The Medieval Theories of the Just Price", *Transactions of the American Philosophical Society*, vol. 49, 1959.
- BERTHOUD, A., *Aristotle et l'argent*, Paris 1981.
- CAMPESE, S., "Polis ed economia in Aristotele", *Aristotele e la crisi della politica*, Naples 1977.
- CASTORIADIS, C., *Les Carrefours du labyrinthe*, Paris 1978.
- DOGNIN, P., "Aristote, saint Thomas et Karl Marx", *Revue des sciences philosophiques et théologiques*, vol. 42, Oct. 1958.
- FINLEY, M., "Aristotle and Economic Analysis", *Past and Present*, vol. 47, May 1974.

- GORDON, B., *Economic Analysis before Adam Smith: Hesiod to Lessius*, New York 1975.
- GORDON, G., "Aristotle, Schumpeter and the Metallist Tradition", *Quarterly Journal of Economics*, vol. 75, Nov. 1961.
- HOLLANDER, S., "On the Interpretation of the Just Price", *Kyklos*, vol. 18, 1965.
- JAFFE, W., "Edgeworth's Contract Curve: its Protohistory: Aristotle and Gossen", *History of Political Economy*, vol. 6, nr. 4, 1974.
- KANDER, K., "Genesis of the Marginal Utility Theory", *Economic Journal*, vol. 63, Sept. 1953.
- KERN, W., "Returning to the Aristotelian Paradigm", *History of Political Economy*, vol. 15, nr. 4, 1983.
- LATOUCHE, S., "L'anti-économique d'Aristote", *Les Cahiers du Cerel*, nr. 1, Lille 1980.
- LEWIS, TH., "Acquisition and Anxiety: Aristotle's Case against the Market", *Canadian Journal of Economics*, vol. 1, Feb. 1978.
- LOWRY, S., "Aristotle's Mathematical Analysis of Exchange", *History of Political Economy*, vol. 1, nr. 1, 1969.
- "Aristotle's Natural Limit and the Theory of Price Regulation", *Greek, Roman and Byzantine Studies*, vol. 15, nr. 1, 1974.
- "Recent Literature on Ancient Greek Economic Thought", *Journal of Economic Literature*, vol. 17, March 1979.
- NÈME, C., "Peut-on parler de théorie économique chez Aristote?", *Revue d'histoire économique et sociale*, nr. 3, 1969.
- POLANYI, K., "Aristotle Discovers the Economy", K. Polanyi (ed.), *Trade and Market in the Early Empires*, Glencoe, 1957.
- SCHUMPETER, J., *A History of Economic Analysis*, New York 1954.
- SPENGLER, J., "Aristotle on Economic Imputation and Related Matters", *Southern Economic Journal*, vol. 21, April 1955.
- "Economic Justice: the Classical Greek Contribution", *Origins of Economic Thought and Justice*, London 1980.
- SOUDEK, J., "Aristotle's Theory of Exchange: an Inquiry into the Origin of Economic Analysis", *Proceedings of the American Philosophical Society*, vol. 96, Feb. 1952.
- TOZZI, G., *Economisti Greci e Romani*, Milan, 1961.
- WOLFF, J., "Aristote", *Les Grandes Oeuvres économiques*, vol. 1, Paris 1973.
- WORLAND, S., "Aristotle and the Neoclassical Tradition", *History of Political Economy*, vol. 16, nr. 1, 1984.
- AUSTIN, M., VIDAL-NAQUET, P., *Economie et société en Grèce ancienne*, Paris 1972.
- FINLEY, M., *The Ancient Economy*, London 1973.
- GAUTHIER, T., JOLIF, J., *L'Éthique à Nicomaque*, 3 vol., Louvain, 1970.
- HAGER, E., *Ethik und Politik des Aristoteles*, 1972.
- HARDIE, W., *Aristotle's Ethical Theory*, Oxford 1980.
- HUMPHREY, S., *Anthropology and the Greeks*, London 1978.
- KELSEN, H., "Aristotle and Hellenic-Macedonian Policy", J. Barnes (ed.), *Articles on Aristotle*, London 1977.
- KEYT, D., "Distributive Justice in Aristotle's Ethics and Politics", *Topoi*, vol. 4, 1985.
- SAMUEL, A., *Fron. Athens to Alexandria*, Louvain (studia Hellenistica) 1983.
- SCHUTTRUMPF, E., *Die Analyse der Polis durch Aristoteles*, Amsterdam 1980.
- URBAIN, Y., "Les idées économiques d'Aristophane", *L'Antiquité classique*, vol. 8, May 1939.
- WILL, E., "Trois quarts de siècle de recherches sur l'économie grecque antique", *Annales*, 1954.
- WILL, E., MOSSE, C., GOUBOWSKY, P., *Le Monde grec et l'Orient*, Paris 1975.
- WOOD, E. and WOOD, N., *Class Ideology and Ancient Political Theory*, Oxford 1978.

النقود والأسواق

سوف نتناول فى هذا المقال مجموعة من التساؤلات المتعلقة بموضوعنا حول دور النقود وطبيعتها، وعمل الأسواق، والعلاقة بين أشكال التنظيم الاجتماعى والنقد*. وسوف يتضح لنا - بالإضافة إلى أشياء أخرى - أن المحاولات التى بذلت لتخليص النظرية الكلاسيكية الجديدة حول الأسواق من ظاهرة التجارة الزائفة قد ضلت طريقها. بمعنى أن تلك المحاولات قد فشلت فى أن تأخذ فى اعتبارها اعتماد نظام السوق على وجود بعض الأنواع من هذه التجارة الزائفة.

الحاجات المتزامنة والمدفوعات غير المتزامنة :

إن الأساس الذى يبنى عليه فهمنا لاستخدامات النقود ووظائفها فى ضوء مدارسنا «لادم سميث» و«موردا» «بميل» حتى «باتتكن» هو ملاحظة أنه ما لم تقوم المجتمعات بخلق أداة فعالة فى التخزين ونقل السيطرة وتحريك الطلب على الموارد،

* أود أن أشكر ت. ك. رايز و«ايدل» على تعليقاتهما اللينة لدى إطلاعهما على البروفات الأولى لهذا المقال.

المترجم : يوسف مبخائيل أسعد

النقد والأسواق

والتبادل التجاري، وكل الأنشطة الاقتصادية الأخرى، فإنها قد تتدهور بسبب الاقتتار إلى «تزامن الحاجات»، أعنى الموازنة فيما بين العروض الحقيقية القائمة على جانبي السوق المتقابلين. ففي حالة اقتصاد يقوم على أساس المقايضة يصدق بشكل جازم أنه في غياب تزامن الحاجات فإن المبادلة لا تتم، صحيح أن التبادلات غير المباشرة وسلاسل الصفقات التجارية قد يستعان بها للحصول على سلعة نهائية، بحيث لا يكون كل اثنين من المشتركين في صفقة بحاجة إلى الدخول في تبادل نهائي^(١). ولكن في اقتصاد التبادل بالمقايضة يجب أن يقابل كل دفعة تسلم من البضائع تسليم مقابل لبضائع يمكن قبولها. وهذا يعني بالطبع تسليم البضائع تبادلياً بشكل مباشر، ولكن كما يذهب برونار ومتزر فإن التسليم المؤجل - وهو نوع من ائتمان المبادلة - يكون أمراً محتمل الحدوث^(٢).

بيد أن احتمال وجود ائتمان مبادلة هو مسألة أخرى. ويبدو في دراسات الاقتصاد أن اقتصاد المقايضة مرادف لاقتصاد السوق غير النقدية^(٣). وفي اقتصاد كهذا لا يكون من المحتمل أن ينتشر ائتمان المبادلة وذلك لأن أفراداً قليلين جداً سوف يكونون مستعدين لتوقيع عقود ائتمان مبادلة يضيئه مع شخص غير مسمى بالأسواق مع علم

(١) الواقع أن فكرة استخدام الصفقات التسلسلية في مقابل الصفقات المباشرة ليست جديدة، فمثلاً تصور معاصر لهذا تضمنه مقال K. Brunner, A.H. Meltzer, "The Uses of Money: Money in the Theory of an Exchange Economy" بيد أن هذه الفكرة لا تغلر من صعوبات. فطبعاً تبادلاً بسيطاً مكوناً من خطوتين: سلعة أ (في حوزة التاجر أ) يتم تبادلها بالسلعة ب (في حوزة التاجر ب)، وبعد ذلك يتم تبادل السلعة ب بالسلعة جـ. فالتاجر أ والتاجر جـ لا يستطيعان إتمام الصفقة مباشرة. وذلك لأن التاجر جـ لا يريد السلعة أ، ولأن التاجر ب لا يريد السلعة جـ. فلكي تبدأ هذه التسلسلات المتتالية للتجارة يتحتم أن يعرف التاجر أ أن التاجر جـ يريد السلعة ب، وأن التاجر ب يريد السلعة أ. وهذا يعني أن التاجر أ يجب أن يعلم بما هو مفضل عند التاجر الآخرين. فإذا كانت هذه الكمية من المعلومات غير متوافرة فإن التبادل غير المباشر لا يكون ممكناً، ويتحتم اقتصار التبادل بالمقايضة بصد التبادل التجاري بين شخصين فحسب. ومن الممكن التخفيف من حدة الموقف الذي يحتم أن يعرف التاجر أ ما يفضله التاجران الآخران. وذلك بأن نتخيل التاجر أ وهو مستعمر في مقابلة سلسلة من التجار إلى أن يعثر على واحد منهم مستعد لشراء السلعة أ في مقابل سلعة لا يريدها التاجر أ. وعند هذه النقطة يصير مضارباً يحوّل سلعة ليست في نطاق ما يتسلط به من التجارة.

(٢) المرجع نفسه ٤، صفحة ٧٨٥.

(٣) انظر على سبيل المثال: J. Nieghans, "Money and Barter in General Equilibrium with Transactions Costs", American Economic Review, December, 1971, p. 773; or Don Patinkin, Money, Interest, and prices, New York, Harper and Row, 1965, pp. 3-12.

توافر وسيلة لمقارنة القيم موضوعيا تكفل تنفيذ العقود، أعنى عدم توافر وحدة نقدية، ناهيك عن عدم توافر نظام لقانون التعاقد^(٤). ولذا فبينما قد يوقع الأصدقاء عقودا، فإنه ما لم يميل الاقتصاد إلى الحد الذي تستخدم فيه وحدة نقدية تعبر عن القيم التبادلية فإن المقايضة يجب أن تقتصر بوجه عام على الصفقات التبادلية المباشرة.

إذا صح هذا فيجب أن يتمم اقتصاد السوق غير النقدية بغلبة التبادلات المباشرة للسلع.

ويتبع نظام كهذا أن تكون المدفوعات (التفقات والإيرادات) متزامنة بشكل قاطع. وهكذا لا يمكن لنظام المدفوعات غير المتزامن الذي كثيرا ما يقال إنه أحد أسباب استخدام النقود أن يسود منطقيا في غياب النقود. والواقع كما يقول برونار وملنيز فإن استخدام النقود هو الذي مهد السبيل لقيام نظام تكون فيه المدفوعات غير متزامنة، وليس العكس^(٥).

وليس معنى قولنا هذا أنه لا يتبع ذلك أن عشوائية المدفوعات لا يمكن أن يستعان بها لالقاء الضوء على حياة الأفراد لموازين النقود. فعلى مستوى المجتمع تتأني المدفوعات غير المتزامنة «عن استخدام» المجتمع للنقود. ذلك أن الفرد في مجتمع يستخدم النقود، تكون المدفوعات غير المتزامنة فرضا علميا وتكون حياة النقود هنا استجابة منطقية. وعلى هذا علينا أن نميز بمثابة بين حياة الأفراد للنقود وبين استخدام المجتمعات لها.

ثانيا - المبادلة والأسواق حسب نظرية فالراس

كما قررنا قديما فإن النمط السائد لاقتصاد المبادلة هو ذلك النمط الخاص باقتصاد السوق غير النقدية. والواقع أن السؤال الخاص باستخدامات ووظائف النقود، في ضوء

(٤) ويتعبر آخر فإن التبادل لأجل غير مضمون المراقبة. فالمرء يقبل على مخاطرة إذا ما اشترى شيئا من غير أن يراه أو أن يعرف قيمته، وذلك عندما تكون البضائع التي يراد تبادلها غير واضحة للعيان. وكلما كانت التبعيات التي لا يمكن تجنبها بالمعقود بدقة أكبر عدا زادت المخاطرة المتعلقة بالتبادل الموجه. على أن الوحدة النقدية لا تعمل على محو جميع هذه المخاطر، ولكنها تقلل من احتمالات المضاعفات حول ما إذا كانت البضائع التي تحدد تسليمها بالمقد سوف تسلم بالفعل. وهكذا بدلا من أن يذكر في تسليم البضائع الموجه «قصص من التفاح» مثلا فإن المرء إن يذكر تسليم عشرة دولارات قيمة التفاح. والواقع أن نظم الموازين والملايين ومعايير الوزن وتدرجه إلخ تعمل جميعا على التقليل من تلك المخاطر. وبهذا الصدد انظر : John C. McManus, "The Costs of Alternative Economic Organizations", Canadian Journal of Economics, August, 1975, pp. 334-50.

K. Brunner, A. H. Meltzer, op. cit., p. 800.

(٥)

النقد والأسواق

خصائص ذلك النمط، قد لقي عناية كاملة. وعلينا أن نتناول هذا السياق باستفاضة بعدما وأكثر مخالفاته مجردا، أعني المزاد العلني عند فالراس.

لقد برهن باتنكين على أنهم في تناولهم لمضمون حالات التوازن بالأسواق وجدوا أن أصحاب نظريات الكلاسيكية الجديدة قد فشلوا في تقديم تفسير للعملية التي بواسطتها يمكن التوصل إلى التوازن، وبالطبع فإن الاستثناء اللافت للنظر لهذا هو «فالراس» الذي كانت نظريته الخاصة بالتلمس *tatonnement* هجوما مباشرا على مشكلة كيف تتحرك الأسواق نحو حالة من التوازن^(٦).

وفي مركز التلمس، الذي يتحسس طريقة بإيمان نحو تحقيق التوازن على نحو دؤوب، نجد خبير مزاد «فالراس» وهو الذي يمثل دوره في إعلان أسعار السلع، مقارنا عروض الشراء والبيع التي يقدمها المشتركون في السوق، مع مراجعة السعر بحيث يجعل مجموع عروض الشراء والبيع متساوية. وبينما نجد أن هذه العملية وسيلة كشف ناجحة فإن مزاد فالراس لا يحمل أوجه شبه بالأسواق في الحياة الواقعية^(٧). ولكي يتسنى توصلها إلى حالة من التوازن فلا بد من التغلّي عن الواقع واتخاذ موقف تعاقدى جديد.

ونحن نقصد بالموقف التعاقدى الجديد ببساطة أنه ليست هناك بضاعة بحاجة إلى أن تنتقل من شخص لآخر إلى أن يحدد خبير المزاد السعر عند إغلاق السوق، وأن أي عقود للشراء والبيع قبل إعلان سعر الإغلاق يمكن أن تلغى دون دفع تعويضات. وكما هو معروف جيدا فإن النتيجة الأولية لإعادة التعاقد هي الحيلولة دون قيام تجارة زائفة.

ثالثا - الأسواق الحقيقية، وأسواق فالراس، والنقد :

إن التجارة الزائفة تشير بالطبع إلى الصفقات التي تتم بأسعار مخالفة لسعر السوق المتوازن. وبالرغم من أن المحاولات التي بذلت للقضاء عليها

(٦) Patinkin, op. cit., pp. 531-40, especially pp. 536-7.

(٧) للوقوف على دراسة تجريبية لفاعلية التلمس عند فالراس انظر : W. D. Cook, E. C. H. : Veendorp, "Six Markets in Search of an Auctioneer", Canadian Journal of Economics, May, 1975, pp. 238-57.

والخلاصة التي انتهيا إليها من تجاربهما هي أن النتائج لا تقدم سوي دعم قليل لفرض التوافق عند فالراس" (ص ٢٣٨). ويبدو أن كوك وويندروب قد فاتها روح نظرية "فالراس" وفحواها. فمشكلته بالإجمال هي ما إذا كانت أسواق العالم الحقيقية تعمل على نحو مشابه بدرجة كافية للمزاد، الأمر الذي يجعل منطق نظمه المتعلقة بالمعادلات قائما وثابتا. وكان من الضروري إثبات أن الأسعار تتراكم في العالم الواقعي بالقواعد التي تشيع بالمزاد.

كثيرة^(٨)، فأننا نستطيع أن نزعّم بحق أن التجارة الزائفة غير المقيسة بالقوة الشرائية موجودة بالفعل فى السوق الحقيقية. وتتميز الحالات التى توجد بها هذه التجارة إلى أن المشتركين فى الأسواق الفعلية لا يعرفون من خلال خبير مزاد ما، أو من خلال غير ذلك من وسائل هل السعر المقدم هو السعر النهائى بالنسبة لهم، أعنى هل هناك سعر أفضل. إذن فعليهم أن يحكموا فى ذلك بأنفسهم وعلى مسئولياتهم.

والواقع أن أساس أى حكم كهذا هو تلك المعلومات ذات القيمة. ولقد حدد «ستيجلر» فى معالجته الممتازة لهذه المشكلة تكلفة الفرصة البديلة للحصول على المعلومات، أعنى الموارد التى تتحول لها والتى يمكن استخدامها بطريقة أخرى^(٩). بيد أنه لم يأخذ فى اعتباره احتمال عدم توافر المورد لدى أحد الأفراد أو عدم قدرته على احراز الموارد التى يمكن تخصيصها سعياً للحصول على المعلومات وبعيداً عن الاستهلاك أو الانتاج القائم بغض النظر عما يترتب على تلك المعلومات من فوائد.

ولكى يوجه البحث توجيهها وإتقيا فلابد أن يكون لدى الأفراد قائمة جرد بالموارد التى يمكن مبادلتها بالسلع الاستهلاكية ووسائل النقل والصحف أو أى شيء آخر يرتبط بالبحث^(١٠).

والسؤال المحير الذى يجابه المشتغل بالأعمال التجارية هو ببساطة: ما هى قوائم الجرد المقصودة؟ ليس من الممكن تصور أن المرء يستطيع أن يحوز قوائم الجرد المتعلقة بجميع السلع المطلوبة. فالبعض منها مثل صفح الغد لا يمكن الحصول عليها، فى حين أن البعض الآخر من السلع لا يمكن التنبؤ به.

وما يحتاج إليه المرء هو الوقوف على قوائم جرد شيء يمكن أن يستبدل بسهولة بمجموعة كبيرة من الأشياء، أو وسيلة دفع فى المقابل أو النقود وهى الأكثر شيوعاً. ومن الناحية التقليدية فإن هذه الحاجة قد حملت الكثير من الكتاب على افتراض أن وسيلة معينة للدفع قد بزغت فى معرض تطور التبادل لأسباب تتعلق بانتشارها الواسع أو زيادة الطلب عليها، إن المشكلة التى بين أيدينا توحى بأن المطلوب - فضلاً عن ذلك هو شيء تسمح معدلات صرفه بالنسبة للبضائع بوجه عام بتقديم شيء

(٨) انظر على سبيل المثال J. R. Hicks, Value and Capital, 2nd ed., Oxford, The Calrendon Press, 1946, p. 129.

(٩) G. Stigler, "The Economics of Information", Journal of Political Economy, June, 1961, pp. 213-25.

(١٠) إن افتراض أن أحد الأفراد قد يتبع من الاشتراك فى البحث عن المعلومات بسبب نقص الموارد يعنى بالطبع أن الأسواق الرئيسية غير سليمة. فإذا لم تكن سليمة فيكون من الممكن بالنسبة للفرد من خلال النظام المصرى تحويل توقعات الدخل المستقبلى إلى موارد جارية.

من الحماية للشخص الذى يحوزه ضد تقلبات الأسعار التى تعجل لعملية البحث فى الدرجة الأولى. وهذا يعنى بتعبير آخر وجود أصول يكون معدل تبادلها بهضائع أخرى معرضا لتغير أقل عما قد يحدث لأى معدل تبادل آخر لأى سلعة ممكنة بهضائع أخرى. والواقع أن هذه هى الخصيصة التى قام كتاب مختلفون ابتداء من «ريكاردو» إلى «تورتون» إلى «كينز» بتحديدنا باعتبارها الخصيصة التى تميز وسيلة الدفع فى عملية المبادلة^(١١)، (١٢).

والواقع أن عدم معرفة هل السعر المقدم هو سعر نهائى فى سوق حقيقية مكافئ لعدم معرفته إذا ما وجدت أنواع من التجارة الراضية فى عالم المقايضة. ففى كلتا الحالتين فإن توفر معلومات أكثر يعطى الفرص لتجنب الاختلافات فى السعر أو استغلالها، وإذا ما سيطر الأفراد على التوازنات النقدية فسوف يكونون أكثر قدرة على الوقوف على المعلومات الخاصة بالأسعار أكثر مما كانوا وهم غير مسيطرين على تلك التوازنات، ونتيجة لذلك - جريا وراء متجمل - فإن الاختلافات فى الأسعار سوف تلتشى، بحيث إن الأسعار سوف تقبل إلى التجمع حول ما نستطيع أن نطلق عليه اسم سعر التوازن السوقى^(١٣). والواقع أن الأسعار الفعلية سوف تقترب من أسعار «الزاد» بحيث قد نقول إن مزاد «فالراس» الخاص بإعادة التعاقبات ويوجد خير مزاد يذبح المعلومات المتعلقة بالأسعار، إما هو اقتراب مفيد من السوق

(١١) إن هذا الموضوع الرئيسى للفصل السابع عشر بعنوان الخصائص الرئيسية للثابتة بكتاب ج م كينز J. M. Keynes, The General Theory of Employment, Interest and Money, London, MacMillan, 1936. وللقام بمداينة مستغنية لهذا الجانب من عمل كينز انظر T. M. Rymes, "Keynes and the Essential properties of Interest and Money".

وهو بحث مقدم إلى اجتماع الجمعية الاقتصادية الكندية فى يونيو ١٩٧٤ تورتون بكتنا، كما أن رايز قد رأى أن حيازة المال تسمح للمرء بتأجيل إصدار القرارات عندما تكون المعلومات المتاحة له غير كافية. والواقع أن الأستاذ رايز يعارض بهذا وجهة نظر كينز المتعلقة بالانتظار لعنى الامتناع عن الاتفاق إلى أن يمين المين جنباً مع وجهة النظر التقليدية المتعلقة بالانتظار. أما موقفنا فهو أكثر انجساجاً مع موقف رايز الذى نلدر بحق تعليقاته ونأمل عدم إساءة شرحها.

(١٢) إذا كان هذا التصور للمال دقيقاً، فإنه يكون مع ذلك برهانا ذا أثر رجعى بحيث يأخذ المشتغلون بالعمليات التجارية الأسعار النقدية فى اعتناهم، وإلا فكيف يصبر شئ واحد «معياراً للقيمة». وأكثر من هذا لكى يتسنى إقامة معيار للموقف القيسى ومراعاته فلا بد من تحديد أسعار معينة للتقريب ويبرهن على أنها أسعار ثابتة. فإذا كان ذلك كذلك فإن التوصل إلى توازن عام يجب أن يكون بديلاً وليس عملية متزامنة. وبهذا الصدد فإنى برهنت على أن التحديد العام للأسعار يتطلب فى الواقع أن يحدد مفتاح معين للأسعار أما فى ضوء سابقة تاريخية، وأما بواسطة سلطات مركزية: انظر A. K. Kelly, "A Comment on the Price Level in Classical Monetary Theory" Canadian Journal.

(١٣) إن هذه العملية غير معقدة. فإذا نحن وإقنا على أن هناك سلعا قليلة جدا تتعرض أسعارها

الحقيقي الذي يحقق فيه التعاملون فاعلية إعادة التعاقد وذلك بالاهتمام بالبحوث المتعلقة بالأسعار. وهم لكي يسطعوا بذلك يكونون بحاجة إلى السيطرة على التوازنات النقدية ولكنهم في سوق «فالراس» ليسوا بحاجة إلى ذلك ولا يفعلون ذلك.

يبد أن غياب النقود في اقتصاد «فالراس» لا يعنى أنه يوصف بحق بأنه اقتصاد مقايضة، ما لم تكن على استعداد لأن نحرف معنى هذا اللفظ. فكل من سوق «فالراس» وأى سوق نقدية يتضمنان وسائل معينة للتخلص من الانحجار الزائفة أو التقليل منه على الأقل. وفي المقابل فإن اقتصاديات المقايضة الحقيقية ليست في حاجة إلى تلك الوسائل.

رابعاً - النقود وأشكال التنظيم الاقتصادي:

إننا باستخدامنا لفكرة أن المقايضة هي مجرد نشاط السوق دون وجود نقود، فإننا نكون قد نسينا حقيقة هامة هي أن المقايضة هي إحدى وسائل تنظيم النشاط الاقتصادي، وإن السوق شيء آخر تماماً، وأن الإطار التنظيمي للمقايضة يختلف اختلافاً أساسياً عن إطار اقتصاد السوق، وأن من بين الاختلافات الكثيرة سيطرة الأفراد في اقتصاد السوق ميزان النقد.

والواقع أن اقتصاديات المقايضة نادرة حيث إنها تقتصر على مجتمعات بدائية معينة كانت موجودة في العصور القديمة. فإذا ما استهدينا بالأنثروبولوجيا فإننا نجد في تلك الاقتصاديات أن تبادل البضائع وجهها لوجه الذي يشكل المقايضة كان محاطاً بهجو معقد من الطقوس والتقاليد التي تحدد سلفاً ماذا وكيف ومع من تتم مبادلة الأشياء؟. وفي العادة كانت عمليات الإنتاج والتوزيع محصورة في نطاق أنماط محددة من القرابة، وفي نطاق علاقات اجتماعية ثابتة بصفة عامة، وطالما ظلت هذه الترتيبات ثابتة، فلم يكن هناك سوى دور ضئيل للسلوك المالى الذي تشارك فيه الأفراد في اقتصاد سوق. والواقع أنه لا توجد - على وجه الخصوص - في الاقتصاديات المبانية

حالة من القرض بين المشتري والبائع، وعلى ما هو أكثر من هذا إن أسعار السلع يحددها البائعون (بمصر السعر عليها)، إذن فإن ما يتجهه البائعون من تصرفات إما في الواقع بمثابة رد فعل على أنشطة المشتري التي تسمح للأسعار بالتغير. فالمشترون الذين يراقبون ارتفاع الأسعار ويتصرفون عنها أو يتزاحمون على السلع ذات الأسعار المنخفضة سوف يتسببون في مبيعات منخفضة أو عالية بشكل لا يتوقعه البائعون الذين يحددون أسعاراً عالية أو منخفضة على التوالي. فالبايعون الذين يحددون أسعاراً مرتفعة سوف يخفضون أسعارهم، والذين يحددون أسعاراً منخفضة سوف يرفعون أسعارهم. وكما هو الحال في عالم فالراس فإن التباينات الكيفية سوف تنتج توافقات في الأسعار. فجميع الأسعار في مجموعات بدلاً من سعر واحد بأحد الأسواق يمكن أن يفسر بتقليل التوائد على السعر الذي يسمى

لاقتصاديات السوق بوجه عام حاجة لدى الأفراد للتفكير فى المستقبل ولأن يعانون اذا ما اخطأوا التقدير. ذلك أن المجتمع البدائى الذى لا يسير وفق اقتصاديات السوق مجتمع لا يكون المستقبل فى نظره سوى صورة طبق الأصل من نمط الانتاج الراهن المتعلق بحضارته (بما فى ذلك تقسيم العمل والتوزيع)، كما أن المخاطرة تكون فيه جماعية^(١٤).

وكذا فانه فى الاقتصاديات الاشتراكية الحديثة يتم تحميل المخاطرة جمعيا بأكثر منها فرديا. ومرة أخرى وهناك جهاز لتحديد أنماط الانتاج والتوزيع. وتصنع الدولة فى مثل هذه المجتمعات ما يتم انجازه بواسطة التقاليد فى مجتمعات المقايضة وبواسطة الأفراد فى مجتمعات السوق.

وكلا النمطين من المجتمع فى حاجة إلى النقد بشكل أو آخر، ولكن ليس ضروريا أن يكون فى نفس الصيغة. فكما يتباين نمط التنظيم الاقتصادى يتباين كذلك صيغة النقد.

وفى عالم «فالراس» لا تكون ثمة حاجة الا إلى وحدة محاسبة على الأكثر، وحتى تلك الوحدة يمكن الاستغناء عنها إذا كانت السلع الضرورية متوافرة. وبالرغم من أن هذا كما هو واضح يعد خيالا لدى مقارنته باقتصاديات السوق الأوربية التى يعرفها «فالراس» جيدا، فإن وجود «وحدة محاسبة فقط» كصفة للنقد لا يمكن أن تتخيل أنها تناسب سوى اقتصاديات معينة هى الاقتصاديات المقروضة كما كان حال مجتمع العبيد بمصر القديمة.

أما فى اقتصاد اشتراكى حديث فثمة حاجة إلى كل من وحدة المحاسبة ووسيلة المبادلة. الأولى للقيام بالمحاسبة المعروفة والتصدى لمشكلات التسعير. والثانية للتغلب على مشكلات الامدادات المتعلقة بتوزيع السلع. وحيث يكون من الممكن توزيع السلع بايصالها مباشرة إلى المنازل وفق خطة توزيع محددة فانه يكون من الأنجع بالنسبة للأفراد أن ينتقوا السلع التى يريدونها من المحال التجارية بأنفسهم ويسددوا

إليه المشترون ومراجعة الأسعار من جانب البائعين. ولا يتضمن هذا اعتداء على مبدأ تسعير التكلفة الهامشية، بل بالأحرى قون التكاليف والايادات يصاد بتحديدها فصيها.

(١٤) هذه الأراء قدمها كارل بولاتى فى تعبير بلخ. انظر -Our Obsolete Market Mentality", in George Dalton, ed., primitive Archaic and Modern Economies, وهذه المحاضرة الأخيرة للمجتمعات البدائية قام بولاتى بوصفها على النحو التالى: «الواقع أن الفرد ليس فى خطر أن من يجرع ما لم يتعرض المجتمع المحلى بأجمعه لنفس الخطر. ولا شك أن عدم وجود خطر يهدد الفرد بالفاقة يجعل المجتمع البدائى. أكثر إنسانية من مجتمع القرن التاسع عشر، كما يجعله فى الوقت نفسه أقل مستوى من الناحية الاقتصادية».

ثمنها نقداً. وأكثر من هذا فإن هذه الطريقة توفر الرفاهة الاجتماعية عن طريق توفير فرصة الاختيار، والتقليل من الأسواق السوداء، كما أنها تمد المخططين بشواهد مباشرة حول ما يفضلته الناس من السلع.

وفي اقتصاد كهذا لا يوجد (من حيث المبدأ) مكان للنقود كمخزن للقيمة يتجاوز بواسطته فترات السداد من الدخل العادي. وفي المقام الأول لا تكون ثمة حاجة لدى الأفراد لادخار ما يكفيهم في سن الشيخوخة أو حالات الطوارئ، في هذا الشكل الاقتصادي، كما أن المؤسسات لا تكون في حاجة إلى تكديس مدخراتها لتغطية خسائرها في المستقبل أو للقيام باستثمارات جديدة. ومن جهة أخرى فإن السماح باستخدام النقود على هذا النحو قد يعمل على تهديد أى نمط محدد للتوزيع.

وهذا قد يوفر وبصفة خاصة وسيلة قد يستخدمها بعض الأفراد الحاصلين على معلومات أفضل من غيرهم لتكديس السلع لبيعها والحصول على أرباح، وبالتالي قانهم يقيمون في توزيع الدخل.

والواقع أنه في اقتصاد السوق الذي يتصف بعدم وجود ترتيبات اجتماعية يوجد ما يجعل المخاطرة جماعية، وفيه تكون قرارات التوزيع صادرة عن أفراد غير محددين بدلا من حصرهم في تلك التنظيمات الاجتماعية التي تتطلب وجود النقود للاضطلاع بالوظائف الثلاث الأساسية، أعنى وجود وحدة للمحاسبة، ووسيلة للتبادل، ومستودع للقيمة. فبزوغ النقود في صيغتها الحديثة والمألوفة هو في الوقت نفسه بزوغ لصيغة اجتماعية تاريخية محددة. فالنقود كما نعرفها هي مؤسسة اقتصادية غير منفصلة عن تنظيمات وأعمال اقتصاد السوق، ولا يستطيع هذا السوق أن يوجد دون النقود. وأكثر من هذا ليس أى منهما ضروريا أو ممكنا بدون بزوغ التنظيمات الاجتماعية التي تستلزم اضطلاع الأفراد بتلك الأشياء التي تمت في أزمنة أخرى أو ظروف أخرى بواسطة المجتمعات بكاملها.

خامسا - المال وتوزيع الدخل :

لقد كانت النقود جزءا من الوجود الاجتماعي المنظم لحوالى ثلاثين قرنا. وكما أن الصيغ الاجتماعية قد تباينت، كذا فإن النقود أيضا قد تباينت. وعلى الرغم من هذه الحقائق فإن علماء اقتصاد النقود واطبوا على محاولة شرح استخدامات النقود بمصطلحات المنطق الخاص بصيغة اجتماعية تاريخية حديثة فحسب، أعنى اقتصاد السوق. وأكثر من هذا أنهم يفعلون ذلك وهم يعتقدون بوضوح أن من الممكن تجاهل التغيرات في الصيغة التي تمرضت لها النقود في مجتمعات يتركز اقتصادها على السوق. وعندما تقوم بتحليل الدور الذي تضطلع به النقود في الأسواق فعاداً عسى أن تكون النقود التي نتحدث عنها؟ وهل يستطيع البنك الحديث أن يقبل ودائع الصانع.

النقد والأسواق

أو الدولار الفضي، أو المسكوكات الرمزية التجارية، وكل ما يصنف تحت لفظ نقد؟ فإذا ما استطاعت البنوك عمل ذلك فانه يعنى الموافقة على معنى هذا اللفظ على مستوى من العمومية، وهو ما لا وجود له ببساطة.

وللتغلب على هذه الصعوبة ابتكر أصحاب نظريات النقد تفسيراتهم الخاصة حول النقد، وقد حظى أحد هذه التفسيرات بمكانة مرموقة فى نظرية الأسواق، أعنى العملات الرمزية الموجودة فى كل مكان.

والواقع أن المسكوكات النقدية شبيهة بالأوراق المالية الحديثة من بعض الجوانب، ولكنها تختلف عنها من حيث إن مواردها تأتى من الخارج. والواقع أنها قد وجدت بواسطة عوامل غير معروفة للبشرية حتى الآن، بحيث لا تتطلب موارد لإنتاجها ولا شراء أو بيعا للأصول الأخرى^(١٥). ومنشأها الخارجى يسمح لنا بأن نستبعد آثار التوزيعات المتباينة للموازن النقدية، وهو شيء لا نستطيع أن نعمله عندما يكون المورد النقدى صادرا من الداخل.

وعندما يكون المورد النقدى داخليا فان المشاركين فى الصفقات التجارية يستطيعون تغيير ما يسيطرون عليه من موازين نقدية بأن يشتروا ويبيعوا الأصول للنظام المصرفى. وما لم تكن مستعدين للاعتقاد فى أن جميع المشاركين فى الصفقات التجارية قادرين على قدم المساواة على زيادة موازينهم النقدية بهذه الوسيلة، فان علينا أن نقبل نتيجة حتمية هى أن المورد المالى الداخلى سوف يكون توزيعا غير متساو للموازنات المالية التى تصل إلى توزيع غير متساو للمعلومات المتعلقة بالسعر إلى الحد الذى يسمح بإحراز المال بتسهيل عملية البحث عن المعلومات وذلك إذا ظلت جميع الأشياء والعوامل والعناصر الأخرى من غير تغيير^(١٦).

وعندما يكون المشتركين فى الصفقات التجارية غير متساوين فى قدرتهم على الحصول على تلك المعلومات فسوف يكون بعض المشاركين فى الصفقات التجارية قادرين على الربح بسبب تباينات الأسعار، فى حين يكون الآخرون سيئى الحظ. ولن يتسنى ملاشاة التباينات فى الأسعار كما لن يتسنى ملاشاة التجارة الزائفة بما يرتبط بها من دخل، ومن آثار تتعلق بإعادة توزيع الثروة.

وفى بعض الأسواق سوف يظهر متخصصون فى المعلومات بالأسعار، وسوف ننحو الاختلافات فى الاسعار نحو الاختفاء. وأكثر من هذا فان هذا لن يحدث اعتباطا عبر

(١٥) فضلا فى إعادة الصياغة الجديدة لعمل باتكين لجد أن للمشتغلين بالأعمال التجارية مجرد توازنات مالية متوزلة من الأسرع السابق (Patinkin, op. cit. p.14).

(١٦) ونحن نضمن الفروق الفردية فى تلك الأشياء كالكلاء مثلا فى إطار ثبات جميع الأشياء والعوامل والعناصر الأخرى بدون تغيير.

الأسواق. وبدلاً من ذلك فإنه سوف يتحدد في السلع المتجانسة (الموحدة النمط) أو السلع التي يتسنى اكتشاف التباينات بينها بسهولة. والأمثلة على ذلك هي أولاً المنتجات مثل الحبوب وكثير من الأصول المالية. وحيثما تنحو السلع إلى تباين كفي كبير فإن المتخصصين في المعلومات الخاصة بالأسعار وموازنة سعر الصرف لن يحتمل ظهورهم، وسوف توجد الاختلافات في الأسعار وتستمر^(١٧). وفي الحالة الأخيرة يجب أن تستكمل المعلومات حول الأسعار بمعلومات كيفية، وهي المعلومات التي سوف تكون أكثر تكلفة في سبيل الحصول عليها. ومن ثم فإن ثمة مصدراً للربح والخسارة سوف ينشأ عن التجارة المزيفة.

وثمة جانب آخر للاحتجار المزيف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتوزيع حيازات النقود، كما يرتبط بشكل أكثر عمومية بتوزيع المعلومات قد حدده «ليجونهوفد» في إعادة صياغته لنظرية «كينيّز» حول الأسواق^(١٨).

ومن الناحية النظرية قد ينهار التنسيق بين المصالح والهيئات المطلوب لنظام الأسواق. والواقع أن هذا الانهيار وبخاصة في سوق العمالة يتصف بذيوع التجارة الزائفة، أعنى التبادلات التجارية بأسعار غير متوازنة مع تقديم زيادة في الأيدي العاملة لا تتماشى مع زيادة الطلب في مكان آخر، وهو ما يتعارض مع قانون «فالراس»^(١٩).

ولقد وصف «ليجونهوفد» فشل سوق «كينيّز» كظواهر لنقص السيولة، وهي الحالات لا يقوم فيها نظام السوق بنقل المعلومات حول اتجاهات اتفاق الأسر، وذلك لأن قطاع الأسر يفتقر إلى أصول سائلة عندما تكون ثمة حاجة إليها لمساندة الاستهلاك خلال فترات البطالة. والواقع أن الأشخاص العاطلين خلافاً لبعض أنواع المقترضين يجدون من الصعب عليهم أن يحيلوا ما يمتلكونه من أصول جارية أو الدخل المتوقع إلى نقدية سائلة. وإذا افترضنا أنهم يستطيعون ذلك فإن «ليجونهوفد» يزعم أن عليهم إذن أن يضطلعوا بسعى مدقق في سوق الوظائف بأذنين الجهد للعثور على

(١٧) إن هذه الفروض التي تلحظ إلى أن نفقات إحراز المعلومات المتعلقة بالسلع ترتبط بخصائص السلع، وأن المتخصصين في المعلومات المتعلقة بالسلعة سوف يظهرون وجود الشبه بين الفروض الأولى التي استخدمها برنر وملتزر لشرح ظهور أداة التبادل التجاري. Brunner and Metzger, op. cit., p. 786).

Axel Leijonhufvud, on Keynesian Economics and the Economics of (١٨) Keynes.

R. Clower, "The keynesian Counter-Revelation: A Theoretical Ap- (١٩) praisal", in F. Brechling, F. Hahn, eds., The Theory of Interest Rates,

النقد والأسواق

وظيفة تتفق مع أفضل تقديراتهم لقيمتهم الشخصية «كرأس مال بشرى». فإذا لم يتسن لهم ذلك يكون عليهم إما أن يظلوا عاطلين وأما أن يقبلوا ما يعرض عليهم من وظائف قد تقتضى أو لا تقتضى «تحمل خسارة» كما يقول «ليجونهوفود». وإلى الحد الذى يكون عنده إعادة التوظف متضمنًا خسارة فئمة إعادة توزيع للدخل لصالح هذه المؤسسات التى أن كان هناك تبيد في معدلات الرواتب للوظائف المنفصلة، فإنها تتقدم بشروط أقل من سابقتها. ونحن نستطيع أن نزعّم أنه بسبب الكثيرين من المشاركين في سوق العمل يعال بينهم وبين بحوث السعر المؤثرة، وذلك للاقتدار للأصول السائلة، ومن ثم يحدث التبيد.

سادسا - ضرورة التجارة الزائفة

لقد تدارسنا فيما أسلفناه دور النقد في الأسواق، وانتبهنا إلى أن نظام الاسواق لا يمكن أن يعمل بدونها. فنقص النقد ومبادئ السوق يجب أن يتم السيطرة عليهما بالتجارة الزائفة. وفي نظام منحاى بأخلاقياته إلى الفرد، لا للمخاطرة الجمعية، يكون هذا أمرا لا يمكن احتماله. فالأفراد سوف يبحثون عن ترتيبات بديلة لإدارة الانتاج والتوزيع اللذين يشران بتحديد توزيع للدخل أكثر انتظاما وعدلا.

بيد أن ما نسميه بالتجار الزائف ضرورى في الوقت نفسه لصيانة النظام. والنتيجة الطبيعية لأخلاقيات تحمل المخاطرة الفردية هي أن الأفراد قد يحصلون على مزايا على حساب الآخرين، إلى حد لا يمكن تقريره، وإن لم يزل محدد الهوية تقريبا. فكون المرء يشتري السلع بثمن رخيص ويبيعها بسعر مرتفع يشير إلى حد ما إلى أنه رجل أعمال جيد ويستحق الثناء ولكن إذا زاد السعر عن الحد المعقول فإن نشاطه يكون مناهضا للمجتمع، ويتهم بأنه نشاط جشع واستلاب أو طمع لا يليق. والواقع أن القوة المحركة لاقتصاد السوق كانت دائما هي السعى للحصول على ربح استثنائى، ولقد كانت المشكلة دائما هي الحفاظ على هذا الدافع في نطاق محدود بحيث أن هؤلاء الذين يتم الحصول على ذلك الربح على حسابهم لا يهجرون السوق ويبحثون عن ترتيبات بديلة (٢٠).

والواقع أن التحول من نظام الاقتطاع إلى الرأسمالية في أوروبا الغربية، بما اشتمل عليه من انهيار للالتزامات والمسئوليات التقليدية والمعتادة، وغو الأسواق وظهور النظم

London, Macmillan, 1965.

(٢٠) يرون جابريل كولكو في كتابه The Triumph of Conservatism على أن نمو التنظيم الحكومى للاقتصاد الذى ميز الحقبة التقدمية بالولايات المتحدة الأمريكية كان في الواقع جهدا من جانب الحكومة لصالح التجارة الأمريكية للحفاظ على الوضع القائم في مجابهة تهديدات التنافس الأكثر حدة، والرايديكالية المتنامية للحركة العمالية والقوى السياسية الشعبية (ص ٢٨٥ - ٦).

المصرفية الحديثة، يتمشى مع هذه النظرة. وإذا كانت التجارة الزائفة جزءاً ضرورياً في عمل اقتصاد السوق، وإذا كان التزامن الكامل للتوازن العام في اقتصاد نقدي بالكامل غير ممكن، فإن وجهات نظر حديثة معينة حول دور السياسة الاقتصادية تستحق إعادة المداورة. وبصفة خاصة فرضية التوقعات الرشيدة التي قدمها «مورث» و«سارجنت» و«الاس» والتي أصبحت موضع شك (٢١).

وتتطلب نظرية التوقعات الرشيدة أن تكون توقعات المشتغلين في الصفقات التجارية هي نفس النظرية الاقتصادية المرتبطة بها، وإلا فإن الفرص غير المستغلة أو الأرباح الناتجة عن التبادل التجاري سوف توجد... (٢٢). وذلك لأن غلط «الاقتصاد الحقيقي» الذي يشكل أساسه لا يسمح بتلك الفرص غير المستغلة للاستمرار في حالة توازن. بيد أنه إذا كانت التجارة الزائفة هي ملمح مستمر لاقتصاد السوق فإن الغموض الذي يكتنف النظرية يعني أن عائدات نشاط السوق التي يفترض أن الأفراد يعرفونها لا يمكن معرفتها في الواقع. وليس هناك ١٠ ببرد بالطبع توقع أن تكون معرفة السلطات النقدية خالية من هذا الخطأ، ولكن النتيجة المحتملة التي يقرها منظروا التوقعات الرشيدة والتي تذهب إلى أن السياسة النقدية والسياسة العامة الأخرى ليس لها تأثير، نتيجة لا يمكن مؤازرتها.

أ ك كيللي

(جامعة ريجينا)

J. F. Muth, "Rational Expectations and the Theory of Price Movements" *Econometrica*, 1961, vol. 29, pp. 315 - 35.

T. K. Rymes, "Money, Efficiency and Knowledge", *Canadian Journal of Economics*, November, 1979, p. 579.

السياسى المتشكك (أو السياسة المرفوضة)

ملاحظات على الوضع السياسى فى فلسفة ديكرت

١ - إنكار السياسة

لم يعالج ديكرت، إلا فى القليل النادر، مسائل سياسية بحتة؛ وحتى إن فعل ذلك فإنه يفعله دائما من باب الإنكار ليبر رفضه «الانغماس» فى السياسة^(١) وتدل النصوص كلها على أن هذا الاتجاه برفض السياسة لا قلبه أولا الفطنة التى كانت القاعدة الشائعة فى ذلك القرن الذى يتسم بالتعصب، ولكن بنوع من الاهتمام بالترابط الفلسفى: فهذا الامتناع، كما نحاول أن نثبت، يبدو لنا مشروطا بالاختيارات الأساسية التى تفرضها الفلسفة الدكارتية، حسينا الآن أن نبين الآثار النظرية لهذا الرفض، ورفض الكتابة فى السياسة، اللهم إلا بإنكارها: هذه الآثار تبدو الآن من جهة أنها تتمثل فى استبعاد السياسة عن حقل المعرفة؛ ومن جهة أخرى أنها تتضمن الأخلاق، تضمينا مشكوكا فى صحته. وإذا كان البعض قد ارتأى له أن يتحدث عن «ديكرت السياسى»^(٢) فذلك دون ريب يكون خلافا لإرادته الصريحة: فالمقصود به أكيدا هو «ديكرت سياسى بالرغم عنه». وعلى ذلك فإن هذه المعالجة لا بد أن تتمثل فى تفسير سياسى لهذا الإنكار وفى قراءة سياسية للنصوص التى تلغى

المترجم : أحمد رضا

السياسي المتشكك (أو السياسة المرفوضة)

السياسة، أو في الكثير من الأحيان تمسك عن ذكرها. وعلى الرغم من أن قراءة من هذا القبيل لا بد أن تنطوي على شيء من الجراءة فإننا لا نحاول أن نتناقص صحتها^(٣)؛ ذلك أنه في الوسع حقا تأكيد أن أعمال ديكارت تتخلها وتحركها مسألة سياسية (فالحقيقة أن كل فكر فلسفي يواجه الواقع السياسي، بطريقة أو بأخرى)، ولكن الأمر لا يخلو من أهمية، ومن ثم نبدأ بملاحظة أن هذه الأعمال لا تقسها السياسة إلا بصورة منحرفة، غير مباشرة، في مناسبة نصوص نظرية غايتها ليست سياسية، وهي في معظم الأحيان مسائل ينظر إليها في سياق أخلاقي، كمسألة التزام الفرد في المجتمع^(٤)؛ مسائل تفضي بديكارت رغما عنه إلى حدود السياسة، في تلك الساحة المتضاربة التي تصادم عندها كل نظرية تمس السلوك الأخلاقي بمتطلبات السياسة العملية. غير أن ديكارت لا يعترف للسياسة بأية حجة حقة، أو نظام وضعي ثابت، حتى لتبدو السياسة في أعماله، لا بمثابة مجال غر: عن علم الأخلاق، ولكن بمثابة مجال يبدي مقاومة ويثُل إشكالا في صميم الأخلاق نفسها.

١ - «البيوطوبيا» السياسية، باعتبارها نظرية للفلسفة

وهكذا فالمجال السياسي مدفوع بقوة خارج حقل الاهتمامات الفلسفية، وبالأحرى البحوث العلمية، ومع ذلك فهذا المجال يتخلله ضمنا وبمعه مسا غير مباشر خطاب هدفه المعلن عنه غريب تماما عن السياسة. وثمة مثال يمتنع للغاية لهذا اللبس في النصوص يتهدى في كتاب «رسالة في المنهج»^(٥)؛ فإنكار الجانب السياسي يتمثل فيه بتأمل نقدي في التماثل، مقتبس من علم السياسة، ومتنقى خصيصا لإثبات الضرورة الملحة لإصلاح المعرفة إصلاحا جذريا. وبالأخص لإيضاح أن هذا الإصلاح ليس إلا ثمرة مشروع فردي. هذا التماثل السياسي مستمد في النص من المجاز المعماري، الحاضر في كل أعمال ديكارت، ويعتبر الفلسفة «عملا» يتوقف كماله على متانة الأسس (فالفلسفة عمارة مثالية حقة، أساسها فكر من تصورها): «نرى من ذلك أن المباني التي شرع مهندس معماري واحد في إقامتها، وأتم بناؤها، تكون عادة أكثر جمالا، وأحسن تنظيما...»^(٦). وهكذا فإن ديكارت، في غضون هذا التفكير التماثلي الطويل في نزعتة الخاصة، نزعة الفيلسوف، ومن ثم في طبيعة مشروعه الفلسفي، ينتقل من صورة المهندس المعماري إلى صورة المهندس المدني الذي يصمم مدنا بأكملها، وينتهي أخيرا إلى النموذج الأصلي المثالي لمؤسس دولة. والمدن الجديدة التي

صممها مهندس واحد أكثر انتظاما وأقرب إلى الصواب من «المدن القديمة» التي يبدو أن الارتجال وحده هو الذي رسم خططها؛ وكذلك فإن «الشعوب.. المتمدنة... شيئا قشينا.. لا يمكن أن تكون محكومة حكما جيدا مثل الشعوب التي اتبعت منذ نشأتها دساتير وضعها مشرع حصيف»^(٧). ويرجع ديكرت، توضيحا لمقاله إلى «دولة الدين الحق» التي أسسها الله وحده؛ وفي مجال الحديث عن البشر، إلى أسطورة التي تلقت منذ نشأتها من «ليكرج» دستورها الثابت^(٨).

واعتبارا بهذا التماثل المزدوج، الحضري والسياسي، يبدو لنا من الجائز أن نستخلص أن ديكرت يتطلع إلى مجتمع مثالي، على النمط «اليوطوبى» والاستبدادى الذى تحكمه قوانين ثابتة لا تتغير، يسنها بصفة نهائية مشرع واحد. وبوضع هذا المجتمع فى سياقه التاريخي نجد أن المقصود فى الواقع هو نوع من الحكم المطلق المثالى العقلانى الراسخ آنذ فى جميع أنحاء أوروبا الذى يبدو أن بعض المدن المحصنة التي أقيمت فى ذلك العصر فى فرنسا^(٩) تشكل نموذجا حضريا له. وقد يتبين لأول وهلة أن مفهوم «يوطوبيا» للسياسة مترابط مع العلم الديكرتى والمبادئ التي تكفل صحته؛ ذلك لأن العلم الحديث كما يتصوره ديكرت هو نوع من «اليوطوبيا»، ونظام مستقل قائم على الشخص المفكر، وأن إثبات صحته بالفكر عن طريق العلوم الرياضية يجعله فى مأمن من الأحداث، أسوة بالقوانين التي يسنها المشرع المثالى «اليوطوبى» والتي تتيح حفظ الدولة المثالية من كل ضروب التعديل، ومن ثم من كل ما يمسها من الناحية التاريخية^(١٠). ولقد يبدو على هذا الوجه مشروعا لمن قرأ «رسالة فى المنهج» أن ينظر نظرة ضيقة إلى هذه «اليوطوبيا» الفلسفية التي هى فى الواقع غشيل لها، ومن ثم يخضع هذه السياسة ليوطوبيا العلم. بعبارة أخرى، هناك بالتأكيد ما يفرى بهذا التماثل، وبأن ينسب إلى المؤلف قصده فى ضم السياسة إلى العلم، والارتقاء خلسة بسيادة الفيلسوف السياسية.

غير أن ديكرت يهتم، بعد سطور قليلة، بمنع مثل هذه القراءة، فهو يرجع فى الواقع عن هذا التماثل فيؤكد أجمالا أنه من المستحيل استخلاص سياسة جيدة من العلم الحقيقى، وأنه لا يوجد فى مجال السياسة ما هو أكثر رداة من «اليوطوبيا»؛ وباختصار أن الفلسفة والسياسة، مهما كانت ضروب التقارب بينهما، غير قابلتين للقياس^(١١). فالبيوطوبيا «كشفية» باعتبارها من قبيل القياس، وتتيح الإسهام فى إعطاء العلم هذا النظام الجديد الذى يتخله لدى ديكرت. إلا أن ديكرت ينه قارئه إلى أن «اليوطوبيا»، إذ تُرد إلى السياق السياسى الذى انبثقت منه، ليست سوى

السياسى التشكك (أو السياسة المرفوضة)

حلم خطر وغير معقول. ويجب أن نفهم جيدا أن هذه الرجعة المخرجة لمست ثقلها أو انتهباضا فى الرأى؛ ذلك أن ديكاوت يحاول أولا أن يتدارك هنا خطأ فى القراءة، أى قراءة سياسية لكتاب «رسالة فى المنهج».

غير أننا قبل أن نبحث عن السبب فى أن الإصلاح الفكرى الذى يعتبر ديكاوت نفسه الداعى له هو متعارض بالفعل مع الإصلاح السياسى (بالمعنى الأصلى الذى يقصده) لا يبدو لنا عدم جدوى الرجوع عن المهمة التى يشغلها القياس فى النص، إذ تبدو لنا - فيما وراء ديكاوت - أنها توضح بعض الجوانب الأساسية للعلاقات التى يوثقها العلم الحديث منذ نشأته بالسياسة.

وفى بنية النص الديكارتى يتيح السياق عن طريق القياس «اليوطوى» تقديم العلم على أنه «يوطوى»، وفى الوقت نفسه إبعاد السياسة خارج العلم، وخارج اليوطوى، فى المجال الحقيقى للممارسات الاجتماعية. غير أنه يحسن أن نلاحظ بذلك أنه فى سياق العملية «المثالية» التى تؤدى بديكاوت إلى ذكر قواعد منهاجه التى تستخدم تعريفا جديدا للعلم على أنه ينطبق لا على مادة المعرفة، وإنما على موضوعها (انقلاب المعرفة الكوبرنيكى)، يلجأ ديكاوت عمدا إلى نموذج سياسى، وبالذات إلى السياسة فى شكلها الأمثل، أى الأكثر بعدا عن السياسة التى تقاسر بالفعل، كما يدل على ذلك القسم الثانى من النص^(١٢). إن مثل هذه الإشارة إلى اليوطوى، من نص يتناول نظام العلم الحديث، لا يمكن أن تكون عارضة، وتظل بلا أثر. فالرسالة الفلسفية تهيم حيزا لليوطوى السياسية على أنها نظير صحيح للعلم، ومن ثم فهى إحدى النتائج المحتملة دائما للعلم، حتى ولو كان حيز اليوطوى السياسية فى النص الديكارتى قد طمس، وأنكر تحت ستار يوطوى العلم. وتبقى اليوطوى المرفوضة واحدة من الإسقاطات الكامنة فى العلم الديكارتى؛ أولا لأنها جزء لا يتجزأ من الأدوات الإسنادية التى تحصل فلسفة العلوم الحديثة من خلالها على تعريفها. اليوطوى، بعبارة أخرى، هى أسطورة من الأساطير التى أنشأت العلم. وما إن نشأ العلم حتى نبذ الصور والأوهام التى ولد منها (والنص الديكارتى مثال نموذجى لهذه الفكرة). إلا أن اليوطوى تعود إلى الظهور، منتمة إلى التاريخ، على أنها مشروع سياسى يجد فى العلم مبررا له. ولما كانت اليوطوى السياسية هى نفسها نموذج من نماذج العلم الناشئ، فإنها بالتالى تتخذ العلم المنتصر نموذجا لها؛ وفى كل مرة ترجع اليوطوى إلى العلم لتحصل على إقرار بشرعيتها ثمجد نفسها خميرة نشيطة، وأسطورة مكبوتة للعلم الحديث. وبشهد بأسطورة العودة هذه كثرة ظهور اليوطويات السياسية ذات الأسانيد العلمية، منذ أواخر القرن السابع عشر، وبالأكثر

فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر^(١٣). هذا الجدل فى اليوطوبيا السياسية الذى يعود إلى الظهور عن طريق العلم الذى يمثل واحدا من نماذجه يؤدى بنا إلى التفكير فى أن الموقف الديكارتى الصحيح يتفيا أولا ورفض اليوطوبيا، ومعها كل أشكال السياسة، على أنها نتاج العلم، هذا الجدل ليس الا نموذجاً مثالياً للنزعة العلمية الحديثة. ذلك لأن يوطوبيا العلم الحقيقية ربما تتكون أولا فى إرادتها الخفية فى أن تجعل محل السياسة، كما قد يوحى بذلك النص فيما كتبه ديكارت فى بعض النواحي. والعلم الحديث منذ نشأته يغذى الإدعاء بأنه يوفر سعادة الجنس البشرى، دون أية مساعدة من جانب السياسة، ولا من علم الأخلاق، وذلك بفضل تقدم التقنيات والعلوم الطبية. وديكارت شديد الفطنة، ويغض من شأن السعادة (من حيث إنها لا تتوقف الا على «أشياء خارج أنفسنا»؛ والسعادة التى توفرها منتجات العلم التقنية تنطبق تماما على هذا التعريف، لصالح «الغيطة» التى هى «راحة نفسية كاملة، وقناعة داخلية»^(١٤). ومع ذلك، وعلى مستوى العلم وحده، يظل فى الإمكان تفسير هذا الابتكار للسياسة. الذى يصحبه نشأة العلم، على أنه التعبير المخفف عن الرغبة فى تجاوز السياسة على أنها شىء قديم باطل، أو استيعاب السياسة وإذابتها فى التماثل الكسمى لكتلتها الرياضية^(١٥). فما حاجته إذن إلى التفكير فى السياسة والانشغال بها فى مملكة اليوطوبيا العلمية؟ إن ارتقاء يوطوبيا العلم يتزامن بالضرورة مع انتهاء السياسة، ولاتشك أن هذا يمثل فى نهاية المطاف معنى للظهور المفاجئ. والمستبعد فى الحال، لليوطوبيا السياسية فى كتاب «رسالة فى المنهج» كنموذج للمعلم، وبوجه أعم لفلسفة تتحول، فلسفة لابد من القول بأنها لا تهاوى بالسياسة.

غير أننا، بعد أن أقدمنا، انطلاقاً من هذه الفكرة القياسية لليوطوبيا السياسية فى النص الديكارتى، ومن العرض التاريخى للفكر العلمى على أنه يوطوبيا لنهاية السياسة، يتحتم علينا أن نحاول، فى النطاق المحدود للفلسفة الديكارتية، معرفة الأساس الذى يقوم عليه هذا الرفض للسياسة.

٢- لاسياسية الموضوع

يصير ديكارت قبل كل شىء على أن الإصلاح السياسى يشغل المجتمع بأسره، فلا بد من ثمة أن يكون مشروعاً جريئاً وخطيراً للغاية، فى حين أن الإصلاح الفلسفى لا يشغل الا الفرد وحده، بغض النظر عن بيئته الاجتماعية السياسية، وباعتباره كائناً مستقلاً، وحرّاً، وله عقل. وديكارت لا يصبو إلى تغيير علاقات الأفراد فى

السياسى التشكك (أو السياسة المفروضة)

نطاق الجماعة، ولكنه يريد تحويل صلته بنفسه تحويلا جزئيا: «لم يتقدم قصدي البتة قبل أن أعمل على ترتيب أفكارى من جديد على قاعدة تخصنى بأكملها» (١٦). ومشروع الإصلاح الفلسفى هذا محدود بالفرد وحده، ولا يقوم إلا عليه؛ ويجب معرفة الأساس الميتافيزيقى الذى ينطوى عليه هذا الإصلاح، والذى يعمل ديكارت جاهدا على استخلاصه. وتجد الفلسفة الديكارتية مبدأها الأول فى النشأة الذاتية للشخص المفكر، وليس فى الإمكان فهم هذا التماثل بين الفكر وبين الكائن إلا فى الشخص نفسه، فى تأمل الفرد فى ذاته: أنا أفكر، إذن فأنا موجود. إن مناقشة كل حقيقة متلقاة من الغير مناقشة منهجية (هنا الأسوار المرجحة، أسوار السلطة والرأى العام) لصالح العقل الفردى وحده، هى المقدمة لتأسيس بنية المعرفة تأسيسا ميتافيزيقيا.

الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان (١٧) «أمر غير مستطاع، اللهم إلا بفض النظر عن كيانه الاجتماعى؛ فلكى يمكن إدراك طبيعة الإنسان الحقيقية، وهى التفكير، يتعين البدء بعزله عن تلك العواض التى هى بالنسبة إليه التاريخ، والسياسة، والتراث الثقافى، والحياة الاجتماعية، أى تخليصه من كل سمات المعاشة. فبالإنسان الاجتماعى غير طبعى من الناحية الميتافيزيقية، وغير جوهري بالنسبة إلى الفرد المفكر. والآخرين فى رأى ديكارت «يعزلوننى غالبا عن نفسى»؛ إنهم يقيمون حاجزا بين الفرد وبين طبيعته العقلانية؛ ويعرف ديكارت الفكر المشترك الذى يبدأ بمناقشة المشروع الفلسفى بأنه استلاب الشخص فى الجماعة. وطريق المنهاج وحده هو الذى يؤدي حتما إلى الحقيقة.

وفى هذه الرؤية يتطلب ديكارت من قارئه تخصصا تقنيا لفكره، هذا الفكر الذى يتيح له وحده اكتساب حريته الفكرية والخلقية (١٨). وفى مستهل كتابه والبحث عن الحقيقة «يحدد يكارت على هذا الوجه هدفه، وأن يتيح لكل إنسان الوسائل الكفيلة بأن يجد فى ذاته، ودون أن يستعير شيئا من الغير، كل العلم الضرورى لهدايته فى حياته» (١٩).

وهكذا يبقى «الآخر»، ذلك الذى مثله الأعلى «أن لا يستعير شيئا»، فلا أرجع إليه إلا إذا شئت؛ ذلك لأنى لست فى حاجة إليه لكى أكون موجودا، ولكن لكى أفكر فى أتى أفكر. وحتى إذا تقاسمت مع الغير شمولية العقل ولا نهائية الحرية (وهما شرطان لتبادل المعرفة، والممارسة الأخلاقية) فإن الغير غريب عنى من الناحية «الانطولوجية» (علم الوجود): فكل إنسان «يستطيع وهو يفكر أن يستبعد من ذاته.. كل شيء آخر، يفكر، أو لا يفكر» (٢٠). وفصل الأشياء المفكرة هنا يبدو لأول

وهلة أنه يجعل من المستحيل وضع نظرية متماسكة للعمل الجماعى الذى يجب - حتى ينمو ويتسع - أن يفرض - بمثابة مصادرة (مسلمة) - تعذر اختزال الكائن الجماعى إلى كائن فردى، وبعبارة أخرى يتطلب ذاتية متبادلة يمنحها بوجه خاص مفهوم الذاتية الديكارتية. فالشخص المفكر، إذ يتصور ذاته جوهراً منفصلاً، ينقطع عن عالم البشر، كما ينقطع فضلاً عن ذلك عن العالم الطبيعى^(٢١). وتنتج الميتافيزيقا الديكارتية بين الأفراد صدعاً «أونتولوجياً» (خاصاً بالطبيعة الأولية للوجود - المترجم) يجعل من المستحيل إنشاء نظرية خاصة بالعمل السياسى.

ولما كانت السياسة مجالاً من المجالات التى تتداخل فيها الإرادات الحرة لدى الأفراد الغريباء بعضهم عن بعض فإن مصيرها فى رأى ديكارت إلى غموض لا حل له، من وجهتى الأونتولوجيا وفلسفة العلوم: إنها هذا العالم، عالم والظروف الخاصة^(٢٢)، العرضية، والاحتمالية، عالم الأحداث المسرحية^(٢٣) الانقلابية والتاريخية التى لا تنتمى فى غالبيتها إلى العقل، ولا صلة لها بأى علم.

وعلى ذلك فلنا أن نقدر كم ان الإصلاح الفردى، الميتافيزيقى والعلمى والأخلاقي الذى ورد ذكره فى «رسالة فى المنهج»، غريب عن علم السياسة، لا لأن الإصلاح الديكارتي عن طريق المنهاج «من أجل حسن التصرف، والبحث عن الحقيقة فى العلوم»^(٢٤). ليس له هدف شامل، ولكن لأن شمول العلم هذا يطفو فوق ظروف الحياة الاجتماعية الواقعية التى تنزع إلى لا معقولية الطوارئ والعرف. ولما كان الأفراد مشتركين فى اتباعهم دواعى العقل، ومن ثم فى إدراكهم الحقيقة، فإنهم يجدون شخصيتهم الميتافيزيقية فى «الحياة المدنية» حيث لا يتسنى للمرء أن يرتب أموره ليحسن التصرف إلا عن فجأة، لا بالعقل، وحيث يكون «مرغماً بالمخاطرة والخضوع لسلطة القدر»، ويكون الغير غريباً عنه^(٢٥).

وفى هذه الرؤية يندد ديكارت بتلك «النزوات المشوشة والقلقة»^(٢٦) التى يطيب لها أن تخطط إصلاحات اجتماعية وسياسية «طوباوية» (مثالية، غير عملية). فلو اهتم هؤلاء بالأحرى بإصلاح عقولهم المشوشة، وتهذيب أنكارهم، لكان فى وسعهم بالتأكيد أن يتخلصوا من قلقهم. فإصلاح الذات إصلاحاً يتيح اكتساب الحكمة والعقل هو وحده الكفيل بتوفير الطمأنينة والسعادة. بعبارة أخرى لو أصبح هؤلاء «الطوبويون» فلاسفة فإنهم سوف يهملون السياسة، ويجهتدون فى متابعة المبدأ الأساسى الذى اتخذه ديكارت فى كتابه «رسالة فى المنهج»، وينصح فيه بالعمل دواماً على أن يغير المرء رغباته بدلاً من تغيير نظام العالم^(٢٧). وهذا عدول مطلق عن

السياسى المتشكك (أو السياسة المرفوضة)

كل ما لا يتوقف على إرادة الفرد وحده، مثل تقويم المجتمع. ذلك لأن الأخلاق الديكارتية فى مجال الإرادة تمجد تلك القدرة التى عندنا على رفض ما لا يتوقف امتلاكه علينا دون غيرنا، ولكن على ظروف خارجية؛ والسعادة الممنوحة للفرد عن طريق إصلاحات اجتماعية وسياسية هى بالتأكيد من هذا النوع (٢٨).

وممارسة الفلسفة ومراعاة الأخلاق الحميدة تبدوان هنا بنوع أساسى بعديين عن المشاغل السياسية (٢٩)، بل إنهما فى نهاية المطاف متعارضتان معها (٣٠)، فهذه المشاغل تتمثل فى اهتمامات فكرية تتجه نحو تنظيم الأفراد فى مجتمعات متحضرة، ورغبتهم فى العمل بجهد على تحسين المدينة وتحسينها.

ويبدو واضحا من قراءة «رسالة فى المنهج» أنه لا يوجد فى رأى ديكارت أية صلة محتملة بين الفلسفة والسياسة، وبين إصلاح الذات وإصلاح المدينة، سواء كان إصلاح المدينة مشروعا جرى فى مخيلة واحدة أو أنفذ بالفعل رئيس دولة. على أن ديكارت لا يناقش مشروعية مهنة السياسة (٣١)، وأن من يمارسها قد دعاه إليها «نشأته» أو حتى «عامل الصدفة». وسوف نرى فى رسالته المطولة لماكيافيللى أنه يجتهد فى تبرير هذه المشروعية.

وفى موضع آخر (٣٢) لا يتردد ديكارت فى أن يستخلص من السلطة السياسية تقنين الأخلاق الاجتماعية، ومن ثم يصير موضوع الأخلاق من اختصاص الأمير. ويتبين لنا فى هذا الانقطاع بين الفلسفة والسياسة احتمال وجود أزمة صامتة فى الفلسفة الديكارتية، حيثما تتهدى فيها صعوبة التوافق بين الحرية الخلقية (التأكيد الحر لذاتية الإنسان) وممارسة السلطة السياسية. فالحرية «الانطولوجية» لدى الشخص المفكر، إذ تتعارض مع الاعتراف بكائن اجتماعى، فإن السياسة التى تستبعدا المتنافذين تعود إلى الظهور أمام الفلسفة الأخلاقية كمشكلة داخلية حين تصطبغ بالواقع السياسى.

٢ - تهذيب الخلق السياسى

لا يحترف ديكارت للسياسة بأية طبيعة استقلالية، وينتقد من وجهة نظر أخلاقية فلسفات هرز وماكيافيللى السياسية، وذلك فى بضع الصفحات التى خصصها لهما (٣٣). ففى حين يجتهد ماكيافيللى فى استخفافه أن يصف العمل السياسى، فيجرى بالأخص تحليله على الأمير الذى ينشئ دولة بالقوة (ويرفض التمييز بين الاستيلاء الشرعى على السلطة وبين تملكها غير الشرعى)، يندد ديكارت بالرياء،

والخائنات، والجرائم التي تصاحب الممارسة المعتادة للسلطة، فهو يتبنى موقفا مزدوجا من نقد الماكيافيلية السياسية، والتبرير الأخلاقي للسياسة الماكيافيلية. إنه بمثابة أخرى يجري تهذيبها أخلاقيا للسياسة، كما تتجلى في كتابه الوزير الفلورنسى اللاذعة. وهكذا، فبينما هو يحتج على لا أخلاقية الأمير - لدى ماكيافيلي - إذا هو يجتهد في أن يضفي شرعية أخلاقية على ضروب الظلم الصارخة التي ترتكبها السلطة السياسية.

والتضارب بين ديكرات وبين فلاسفة السياسة في هذه النصوص هو أولا تضارب منهجي وعقدي، فديكرات يقابل المصادرة السياسية بأن الإنسان خبيث في عقيدة ماكيافيلي وهوبز، يقابلها بالمصادرة الأخلاقية الخاصة بعدالة الأمير. وعلى هذا النحو يكون مقصوده أن يمنع كل تحرر سياسي، وأن يتشارك التهديد بعلاقة التبعية التي يرى أنها بطبيعة الحال تجعل السياسة تابعة للأخلاق.

٩ - اقتراض الحث

في بضعة السطور التي يكرسها ديكرات لـ De Cive يتبنى على مؤلفه افتراضه أن «الناس خيلاء»، كما أنه «يستهن» عند ماكيافيلي المبدأ السياسي الذي يعتبر أن «العالم كله فاسد» وبذلك يوصي الأمير بالحث «كلما اقتضى الأمر ذلك» (٣٤). ولعل ديكرات يقصد بهذا أكثر من مجرد فرض، بل مبدأ حقيقيا يقوم على أساسه كل البنين النظرى لدى هوبز، وكذا كل تحليلات ماكيافيلي الذي يعتبر في الواقع خبث الإنسان بمثابة عقيدة راسخة (٣٥). واقتراضا «تكتيكيا» و «براجماتيا»: ففي رسائله عن العقد الأول لتيتي ليني Discours sur la premiere decade de Tite live يصرح بأنه «من الضروري لكل من ينشئ دولة ويسن لها قوانين أن يفترض أن الناس كلهم خيلاء، وأنهم دوما على استعداد لإظهار خبثهم كلما سنحت لهم الفرصة» (٣٦). وما يصدق على الأمير الذي يريد إنشاء دولة. يصدق بالمثل على الفيلسوف الذي يريد وضع نظرية عن السياسة المتحررة من الإلهيات، ومن الأخلاق». ويرى هوبز أن الحث الذي يمثل الطبيعة الهدامة في الأهواء البشرية المنطلقة بئانتها (دون أن يكون في المصطلح أية دلالة أخلاقية أو دينية) يؤدي دوره كمبدأ أنثروبولوجي (٣٧). فالحث في مذهب هوبز هو أول كل شيء فرض نظري يتعلق بوضع الإنسان في حالة الطبيعة، وضع يتميز بالحرب التي يشنها الجميع ضد الجميع. ولكنه أيضا حقيقة تجريبية، ويكنى لذلك ملاحظة سلوك الناس بعضهم مع بعض في المجتمع المتحضر حيث تكون طبيعتهم العاطفية، رغم أنها خاضعة للسلطة الحاكمة،

السياسى المتشكك (أو السياسة المفروضة)

طبيعة حاسمة.

وأخيراً فإن الخبيث يفدو أمراً مجرداً حين تنهار السلطة السياسية، وتنشب الحرب الأهلية. الخبيث باختصار وباعتباره من طبيعة الإنسان فرض نظرى تثبته التجربة السياسية، ومن ثم يكتسب قوة المبدأ الأثنولوجى.

ويرى ديكارت، من وجهة النظر الأخلاقية التى هى نظرية، أن التسليم بالخبيث الطيبى لدى الإنسان مبدأ «وردى» وخطر» (٢٨) من حيث إنه يبدى أسباباً وجمية للازدراء بالأخلاق: فانعدام الأخلاق، كمبدأ نظرى، هو ضمان للفجور الحقيقى. وكما تأتى لهوبز أن يكتب بمزيد من «المدبح والقوة» فى صالح النظام الملكى «اعتباراً» مبادىء فاضلة» كان حقيقاً لماكيافيللى أن يبدأ بالتمييز بين «الأمراء الذين حصلوا على دولة» بالطرق العادلة، وبين الأمراء الذين اغتصبوا دولة بوسائل غير مشروعة. ولا تنعدم التفرقة لدى الوزير الفلورنسى بين ما هو عادل وما هو جائز، بين الحق والقوة الغشوم، فإنه يذكر «مبادئ» مستعدة للغاية» كالمبادئ التى تدعو إلى السطر، والحيانة، والنفاق. بعبارة أخرى يرى ديكارت أن الاستعداد ينجم عن اللامبالاة الأخلاقية لدى ماكيافيللى. وانعدام خلقه السياسى، فالسياسة لا يمكن أن تكون طيبة على حساب الأخلاق.

٢ - العدالة المفترضة لدى الأمير

يعتبر ديكارت إجمالاً صواب تحاليل ماكيافيللى، والملازمة «البراجماتية» لغالبية مبادئه. والحقيقة الفعالة (٢٩) للسياسة هى تلك التى وصفها ماكيافيللى: من يريد أن يحكم يجب أن لا يتردد فى استخدام الكذب والعنف، وأن يجمع بين «الثعلب والأسد»، ويقرن الدهاء بالقوة (٤٠). ومع ذلك لا يشغل ديكارت نفسه بتقيد أخلاقى لأليات السلطة، ولا يضع نفسه موضع الرقيب على الأمراء، أو الزدى إياهم، بل على العكس يجتهد فى أن يضمنى شرعية أخلاقية على الظواهر السياسية التى يصفها ماكيافيللى، من قبيل اغتصاب السلطة، وقاعدة مذاهنة الوزراء أو استغلالهم بلا حياة، وكلها أمور تبدو أنها تهبط بالأخلاق إلى مستوى النفاق (٤١). وفى حين يندد ديكارت بلا أخلاقية ماكيافيللى فإنه يعتقد واقعته، ولكن بأن يحاول أن يجد لها معنى أخلاقياً. ولكن ينجح فى هذا السبيل فإنه يتبع التقيض المتهاجى لأصحاب النظريات السياسية بأن يفترض عدالة الأمير حيثما يرى ماكيافيللى وهو ز عملاً

سياسيا يحتا يبرره فى نهاية المطاف طبيعة الإنسان العاطفية، أى خيشه الفطرى. «لتدريب أمير طبيب، حتى ولو كان حديث عهد بالدولة، يبدو لى أنه يجب أن يفرض عليه مبادئ متعارضة تماما، ويفترض أن الوسائل التى استخدمها ليستقر كانت عادلة» (٤٧). ويطرح ديكارت، ضد ماكيافيللى، بمثابة مصادرة، أخلاقية الأمير، حتى ولو استولى هذا الأمير على السلطة عنوة. هذا الاقتراض محير بلاشك، ولكن من الخطأ تفسيره بأنه مدح مقنع للقوة التى فضلا عن ذلك تقيم العدل فيما بعد. إن غايته، على العكس من ذلك، أن يؤكد أولوية الأخلاق فى كل مجالات العمل، بما فيها السياسة. ففى كل الظروف، كما يقول ديكارت فيما بعد، يجب على المرء أن يحاول أن يكون «إنسانا صالحا» (٤٨). أما ماكيافيللى فإنه يحاول على العكس من ذلك أن يثبت أن السياسة تملك قواعد خاصة بها، لا تخضع لسلطان الأخلاق. إن اقتراض ديكارت هو - من ناحية ما - على النقيض تماما من مصادرة ماكيافيللى بخصوص فساد الناس. فماكيافيللى يلقن الأمير أنه لن يستطيع الاحتفاظ بمركزه دون ظلم وفساد. وأن عليه أن يفترض أن الناس كلهم خبيثاء، إلى درجة أنه لو وجد إنسانا واحدا صالحا لكان من الضروري أن يعامله كما لو كان خبيثا. أما ديكارت فإنه على العكس من ذلك يرى أن على مرئى الأمير الجديد أن يفترض فيه العدالة، حتى ولو ثبت أنه كان ظالما حين استولى على السلطة بالقوة، ولعله تصرف فى الواقع ضد العدالة. فالتعليم الذى يمتدحه ديكارت لتعليم أخلاقى للغاية لأنه يقدم للأمير صورة مثالية له هو نفسه، صورة تستبعد الظلم: فليكارت يعتبر الأمير كما ينبغي أن يكون بالفعل.

ويبدو لنا أن هذا الاقتراض التعليمى يستتير بفكرة المروءة التى يعرضها ديكارت فى كتابه «اهواء النفس» والتى تهلو آخر موضوع فى أخلاقياته. فالمروءة هى النيل وسمو الأخلاق (٤٤)، ومن شأنها أن يحترم الإنسان نفسه بأسمى مراتب الاحترام المشروح (٤٥)، باعتباره إنسانا كامل الحرية. وتمثل المروءة فى «العزم الوطيد الثابت على استخدام المرء إرادته استخداما طيبا» (٤٦)، ويعبارة كائنا بالنية الخلقية الصافية. أما ديكارت فإنه على العكس من ماكيافيللى (الذى يقول عنه إن بعضا من مبادئه ينقصها المروءة) (٤٧) يبدو أنه يضافى على الأمير، بالثقة التى يوليها إياه، مروءة طبيعية. ويختار، باعتباره مرهبا أن يؤكد أخلاقية أعماله السياسية التى تتسم بالعنف والاعتصاب. وتمثل أصول التربية الكريمة لدى ديكارت فى أن يحترم الأمير «الذى يتولى السلطة فى الدولة» (٤٨) كما ينبغي أن يحترم هو نفسه، ومن ثم

السياسى التشكك (أو السياسة المرفوضة)

يدعوه لأن يظل عادلا، كما ترشده مروءة مريه، أو أن يصير كذلك إذا أخطأ فعلا فى حق العدالة.

ومع ذلك يظل العمل السياسى الذى يتسم بالاغتصاب، وارتكاب «الجرائم الشنيعة»، أو إلقاء المشولية الجنائية على الوزراء، وباختصار أعمال سياسية عديدة يسلم ديكارت بفاعليتها ومشروعيتها السياسية^(٤٩)، تظل بهذا الاعتبار أعمالا جائرة، يصعب توافيقها مع المروءة. فالواقع أن السياسة كما تبدو لديكارت من خلال قراءته لبعض أصحاب النظريات المحدثين، مثل هيز وماكيافيللى، تواجه كل محاولة لتهديب الأخلاق بمقاومة شديدة^(٥٠). وينتهى ديكارت بعقيدته المحافظة بإبعاد ذلك الخطر الذى يتهدد كمال الأخلاق، وكذا استبعاد الإشكالات السياسية فى فلسفته، بأن يجعل من السياسة تطبيقا عمليا يختص به الملوك فقط، باعتبار أنهم يستفيدون من تدخل العناية الإلهية لتدخلا مباشرا. والسياسة إذ تغدو مجرد «برامجيات» للسلطة، متأسلة بالحق الإلهى الممنوح لها، تستبعد نهائيا من العلم والفلسفة.

٣ - مصادرة السياسة

يذكر ديكارت مرة بعد أخرى أن السياسة امتياز للملوك مقصور عليهم، ولا يحق للأفراد أن يتدخلوا فى شؤون الدولة، سواء بصفة الفاعل، أو مستشار الأمير، أو المراقب، أو واضح النظريات^(٥١). وفى رأى ديكارت وكثير من معاصريه^(٥٢) أن هناك فجوة عميقة تفصل بين الملك ورعاياه (تفصل الدولة ومثلها الملك عن المجتمع الذى يحكمه). السياسة يملكها الأمير، أما الرعايا، إذا لم يدعوا للمشاركة فيها، بحكم نشأتهم، ويطلب أميرهم، فإنهم يخضعون بالكلية لصاحب السياسة. وهم فى الوقت نفسه غرياء عنه^(٥٣). والسياسة مجال محجوز، ومحاط بأسرار الدولة، بعيدا عن حكم الأفراد، وفى منجى من الفلسفة. ولكن لا معنى ذلك الإقرار لها باستقلال واقعى، أو منحها تفوقا حقيقيا على العلم والأخلاق. ومع أن السياسة وقف على الأمير فإنها ليست علما رفيعا، إنما هى على العكس مجرد أثر من آثار السلطة، ملحق بعلم الأخلاق. وعلى ذلك فإن ديكارت، وهو يحاول إضفاء الشرعية على الأعمال السياسية التى تبدو أكثر مخالفة للشرعية يكتب أن «العدالة بين الملوك لها حيود غير حدودها بين الأفراد»، ولا يقصد بذلك التأكيد بأن عدالة الملوك تختلف فى جوهرها عن عدالة الأفراد. إن لها فقط «حدودا أخرى». السياسة لا تفلت من الأخلاق، إلا أن ممارستها تنطوى على نقل حدود الأخلاق العامة

وتوسيعها. وهكذا فإن الحكم يظلم الأمراء هو أولاً خطأ فى الرؤية، يتمثل فى الحكم على السياسة من وجهة نظر علم الأخلاق الفردية، ووضعها فى أطر الأخلاق الضيقة. وتقتضى الوظيفة السياسية ارتكاب مخالفات للأخلاق العامة دون أن تكون من ثمة «عدية الأخلاق» أو «لا أخلاقية». وعلى ذلك فالمصلحة العليا للدولة، التى يبدو أن ديكارت يشير إليها ضمناً مرة بعد أخرى فى رسالته^(٥٤) ليست متحررة من المصلحة الأخلاقية، إنها بدورها السياسية. ووظيفة الأمير، بخلاف الأفراد الذين لا يتصرفون إلا فى شؤون حياتهم الخاصة (وعلم الأخلاق لدى الفيلسوف لا هدف له سوى مساعدتهم على ذلك)، هى حكم الدولة، ويجب عليه فى كل الظروف أن يأخذ فى اعتباره مصالح الجماعة، لا الأفراد. إلا أن أسرار الدولة لا يتسنى النفاذ إليها وتفهمها، ومن المستحيل على الأفراد الذين يجهلون الظروف والتفاصيل السياسية أن يعرفوا هل الأمير يعمل لصالح الجماعة أو ضد مصلحتهم. وديكارت، على نقيض ما كيافىلى الذى يؤكد فى مقدمة كتابه أنه «لا بد أن يكون للمرء وضع خاص حتى يعرف قامة مهمة الأمير»، ويؤكد (أى ديكارت) أن «البواعث الأساسية لتصرفات الأمراء هى فى الكثير من الأحيان ظروف خاصة للغاية، حتى إنه إذا لم يكن المرء نفسه أميراً، أو شارك زمناً طويلاً فى أسرارهم، فإنه لن يستطيع أن يتصور هذه الأسرار»^(٥٥). وفى رأى ما كيافىلى أن وضع المراقب يتيح له بعد نظر وحيداً يصعب على وظيفة القائم بالعمل السياسى، إن لم يكن من المستحيل عليه أن يتصف بهما. فالمختص فى العلوم السياسية يعرف من مشكلات السياسة أكثر مما يعرف عنها محترف السياسة. وعلى العكس. يعتبر ديكارت السياسة عويصة فى نظر الأفراد. ولا قبل لهم بتحليلها. فمصلحة الدولة هى سر العاهل الذى يتصرف تبعاً لمعطيات معقدة غير عادية، هو وحده الذى يعرفها.

يضاف إلى سر الدولة سريرة الأمير التى يستحيل كبداً معرفتها، وإلى تتيح الحكم بمقتضى على عدالة تصرفاته. ومصلحة الدولة (وتعنى الأمير) ليست معصومة من الخطأ، فقد تضل، ومع ذلك تبقى صائبة. وقد يخفف الأمير فى مشروعاته، ويعرض بلاده وعرشه للخطر، ويتصرف تصرفاً يضر بالصالح العام، ويبقى مع ذلك غير ملوم من الناحية الأخلاقية، كما كتب ديكارت للأميرة إليزابيث: «إننا غير مسئولين إلا عن أفكارنا، وعن صواب إرادتنا»^(٥٦).

وأخيراً فإن هذه الأسرار، أسرار الدولة، و «ضمير الحاكم»، تشترك مع سر آخر، يسمو عليها، وتنبثق هى منه: ذلك هو السر الإلهى. والواقع أنه ليس بكثير على

السياسى المتشكك (أو السياسة المرفوضة)

الله أن ينشئ افتراض العدالة الذى يؤخذ به رغم تكذيب الوقائع حسب الظاهر. وفى رسالة ديكارت عن ماكيافيللى، يبنى ديكارت مصادرة (مسلمة) العدالة، عدالة الأمير المقتصب، بينها على الحق الإلهى: «للعادلة بين الملوك حدود غير حدودها بين الأفراد، ويبدو أن الله فى هذه الشؤون يعطى الحق لمن يمنحهم القوة» (٥٧). وفى هذه الشؤون، أى فى أعمال السياسة العليا التى تتصدرها إقامة الدولة، يكفل الإله عدالة الملك، وذلك حين يبدو أن السياسة تزدرى الأخلاق، وتتحرر منها. تتجلى السياسة على هذا النحو مجالا متميزا فى الاخلاق، يمنح الله فيه القوة والحق معا. بهارة أخرى يتيح الرجوع إلى الله تخفيف العار الأخلاقى الذى تحدته ممارسة السلطة السياسية التقديرية. ومع ذلك ينبغى أن نرى أن هذا الوضع الخاص لا يحرم السياسة تحميرا كاملا من الأخلاق؛ ذلك لأن المعيار الأخير لعدالة ما يظل هو نزاهة العاقل. ويهادر ديكارت بعد إشارته إلى الحق الإلهى فيضيف أنه مهما كان العون الذى يقدمه الإله للأمرء فإن «أكثر الأعمال عدالة تغدو أكثرها ظلما إذا أراد فاعلوها أن تكون كذلك». هذا القول المأثور يصح مع كل إنسان، ويوجه إلى الملك كما يوجه إلى أذى وعيابه. وفى هذا يتأكد مرة أخرى قائل السياسة والأخلاق. بهارة أخرى لا تنتزع العناية الإلهية شيئا من الحرية المطلقة المتاحة للفاعل السياسى، وبالتالي من مسؤوليته الأخلاقية. هذا التحديد للحق الإلهى يمنع فى السياسة كل فلسفة «ديونية» (إلهية)، وكل تبرير لاهوتى للأخلاقيات السياسى؛ فإن استخدام ملك القوة التى منحها الله إياه فى التصرف بما يخالف ضميره (وتعطيه حريته المطلقة القدرة على ذلك) فإنه يخرج من الوضع القانونى ويفقد ظالما. وليس للأمير الحق فى استخدام قوته الا لنشر العدالة. وعلى ذلك لا نجد لدى ديكارت تلك الفلسفة «الكلبية» السياسية (التي تقول باحتقار العرف والتقاليد والرأى العام، والأخلاق الشائعة - المترجم) إلى تميز نظريات «الكليروسية» الدولة (٥٨) (التي تقول بتدخل الإكليروس فى الشؤون الزمنية - المترجم): فليس للعاقل الحق الإلهى الا إذا أرضى الأخلاق السوية (إذا كان مدفوعا بالعدالة، وصادق العزيمة).

ومع ذلك فإن هذه العملية الثنائية، التى توسع مجال الأخلاق بما يوافق الأمرء، مع الاستعانة بالعناية الإلهية، إنما تنتزع السياسة نهائيا من تقدير الشعب، وتحريات الفيلسوف. وإذا ظهر الفيلسوف مشغولا عن أعماله من الناحية الأخلاقية فليست مسؤوليته هذه أمام سائر الناس، ولكنها مسئولية إنسان أمام ضميره وحده، وأمام الله ، حيشما ينبغى للملك أن يكون جديرا بالحق والقوة الممنوحين إياه. ومن المهم أخيرا أن نبين أنه يمكن بهذا الرجوع إلى الحق الإلهى تقريب وضع

السياسة فى الفلسفة الديكارتية من وضع إشكالى أيضا، وضع العلم الاهوتى^(٥٩). فعلم اللاهوت باعتباره مجال الكشف (الإلهى) يخرج عن نطاق العقل، ويتبع نطاق الايمان، ومن ثم لا يمكن أن يكون موضوعا للمعرفة. وعلم اللاهوت ينم عن لا معقول ذى مكانة سامية، فالإله ليس بخاضع للحقائق الثابتة، وبالتالي ليسا خضاعا لقوانين العقل التى سنّها بارادته^(٦٠). والسياسة تتجاوز العقل، حينما يكون القائم بشؤونها - أى الأمير - هو بنوع ما يمثل الإرادة الإلهية فى تنظيم الناس فى شكل مجتمع ومع كل ذلك فالسياسة - وهنا يمكن ما فيها من غموض - تظل ممارسة تجريبية، دون العقلانية، من حيث إنها مجال الأحداث والوقائع والظروف الخاصة، حيث لا يمكن التصرف الا تقشبا مع ما هو راجع ومحتمل، وإبراعة الفطنة والحذر، وفى غيبة كل يقين. والسياسة، بطابعها التجريبى، وإندراجها تحت الأسرار الإلهية الخفية، هى فى آن واحد شديدة الغموض، وشديدة الوضوح، ووضيعة ورفيعة للغاية، بدرجة لا يمكن معها أن تكون موضوعا لعلم، ويكون لها حق الانتماء إلى الفلسفة.

السياسة، إذ يحتجزها الأمير، والإله الذى يصدر عنه حق الأمير وقوته، وتتحول إلى تقنية من تقنيات السلطة تابعة لغايات أخلاقية، السياسة وهى مادة محترمة للغاية، وفى الوقت نفسه مهملة من وجهة نظر علمية، هى موضوع لا يمكن فى نهاية المطاف أن يقول المرء عنه شيئا، لا باعتباره من رعايا صاحب الجلالة، ولا باعتباره فيلسوفا.

جان يبيركافيه
(المعهد الجامعى الأوربى، فلورنسا؛
معهد الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية باريس)

السياسي المتشكك (أو السياسة المفروضة)

مذكرات

(١) رسالة في المنهج (الأعمال الكاملة، آدم وتاتري، الجزء السادس، ص ١٥) «وإذا تراعى لى أن هناك فى هذا الكتاب أقل شيء يمكن أن يبعث على الشك فى وجود هذه الحماقة (الا وهى عرض إصلاح سياسى) لأصفت كل الأصف على نشر هذا الكتاب». وإلى اليزابيث، فى مايو ١٦٤٦ (من أعمال فرديناند الكييه، الجزء الثالث، ص ٦٥٣): «... كنت على الدوام بعيدا كل البعد عن إدارة الأعمال، حتى لا أكون فى مثل وقاحة ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يلقن وإجبات قائد جيش فى حضور هانيبال إن أقدمت هنا على كتابة المبادئ التى يتعين على المرء مراعاتها فى الحياة المدنية». وفى المرجع نفسه، فى سبتمبر ١٦٤٦ (FA III 111): «... إننى لأستحق السخرية، إذا تراعى لى أن فى وسعى أن ألقن سمومكم شيئا فى هذا الموضوع».

(١١) Antonio Negri, Descartes Politico, o, della ragionevole ideologia, Feltrinelli, Milan 1970.

٣ - أتاح فكر ديكارت حديثا العديد من الأحداث السياسية. ونذكر فى المجال الفرنسى وحدة كتاب ب جوينانسيا P. guenancia : «ديكارت والنظام السياسى» (P.U.F.1983) حيث يتجلى ديكارت من بعض النواحي بمثابة رائد لحقوق الإنسان. راجع على سبيل المثال صفحة ٢٢٨: «ولا مجال للشك فى ذلك، ففكرة المساواة التى تفترضها غالبية النظريات السياسية الحديثة ليست هى الفكرة النابعة من العقلانية، وبالأخص الديكارتية، والتى تصلح من ثمة لإعداد بروتوكولات للدفاع عن الحقوق الفردية والجماعية ضد تعديت السلطة السياسية».

وفى اتجاه مقارب كتب ف. جورج F. Georges «تأكيد الفكر» مقال ظهر فى صحيفة «حرية الفكر» عدد أكتوبر ١٩٨٤، بالان Balland ، ص ٤٦، كتب ما يلى: «تفترض المؤسسة عما يوجد فى خارجى، وتعلمنى ما ينهى أن أصدقه فى هذا الخصوص. إنها مسئولة عن الحقيقة، وتضمن الملاسة، وحسن الإدراك... وتقدم على استبعاد «الكوجيتو» أما بيليجرين B.pelegrin فإن له رأيا مغالفا تماما فى:

Figures du Baroque, Colloque. de Cerisy, P.U.F. 1983, p.21 فهو يهاجم «غضب» و «مفاسد» مذهب ديكارت، ويرعد ويهرق بعنف ويسطحية ضد «القاعدة الاعباطية»، ذات النية الحسنة المخيفة، والتى تشك فى

كل شيء فيما عدا الذات (العقل هو أنا، إذن فأنا على صواب)، هذه القاعدة التي وضعتها كميذاً للحكم سلطة مركزية مطلقة متمسكة بامتيازاتها، وتواطىء على التحكم فى العقليات».

(٤) إلى اليزابيث، فى ٤ أكتوبر ١٦٤٥ (FA III 619) : «اعترف بأنه من العسير أن نقدر تقديرها صحيحاً إلى أى مدى يقرر العقل أن نهتم بالشعب»، وإلى اليزابيث أيضاً فى ١٥ سبتمبر ١٦٤٥ (FA III 607) : «...إذا كان إنسان يساوى بذاته وحده أكثر مما تساوى بلدته كلها، فلا حق له فى أن يضحى بنفسه فى سبيل انقاذها»

AT VI 11 - 15. (٥)

(٦) المرجع نفسه، ١١.

(٧) المرجع نفسه ١١ - ١٢.

(٨) المرجع نفسه ١٢.

(٩) انظر أ. جيلسون: F Gilson «مذكرات وتعليقات على: رسالة فى المنهج» Vrin, 1967 ص ١٦٢. وبخصوص هذه الفقرة DM انظر أيضاً جوينانسيا Guenancia، المصدر نفسه ص ٤٤ - ٤٨.

(١٠) فى خصوص السمات العامة لليوطوبيا السياسية، راجع ج. لايوج: اليوطوبيا والحضارة: G.Lapouge, Utopie et Civilisation, Weber, Paris 1973.

AT VI 14 - 15. (١١)

(١٢) AT VI 13: «حقاً، إننا لا نشهد البتة من يهدم كل بيوت مدينة ما، بقصد واحد، أن يبنئها بشكل آخر؛ «وفى صفحة ١٤»... إنها (أى عيوب «الهيئات السياسية الكبرى») دائماً محتملة، وأفضل من تغييرها...».

(١٣) قارن لايوج G. Lapouge ، المرجع السابق ذكره.

(١٤) إلى اليزابيث، فى ١٤ أغسطس ١٦٤٥. 588 - FA III 587

(١٥) راجع مشروع اللغة العالمية لعام ١٦٢٩ (٢٠ نوفمبر FA I) الذى علقه ديكارت على ظهور الفلسفة الحقيقية، واعتبره ممكناً، ولكنه بعيد الاحتمال. والواقع أنه ما إن أعلن عن هذا المشروع حتى استبعدته الحصافة الديكارتية واعتبرته من نسخ الخيال، ويقول ديكارت: «يجب أن لا يكون العالم بأسره سوى فردوس أرضى، وهذا لا يصبح إلا فى بلد الأنفاسيص». غير أنه من المفترض هنا، تبعاً لإبتكار اليوطوبيا، أن الإقرار العالمى للفلسفة الحقيقية لابد أن يحول

السياسى التشكك (أو السياسة المرفوضة)

عالم البشر إلى جنة، إلى مجتمع فردوسى، فى صورة هذه اللغة المستوحاة من الرياضة العالمية؛ فالمجتمع المثالى، مجتمع العلم، يوطوبيا العلم التى تحققت، هى يوطوبيا مجتمع بلا سياسة. وفى خصوص لغات اليوطوبيا، راجع: A. Pons, Critique, n° 387 - 388, août - sept. 1979.

DM AT 15. (١٦)

(١٧) انظر عنوان الكتاب البديع لألكسييه: «الاكتشاف الميتافيزيقى للإنسان عند ديكارت» F. Alquie: La Decouverte metaphysique de L'homme chez Descartes, P.U.F. 1966.

(١٨) «البحث عن الحقيقة»: FA II DM At 4; Recherche de la verite, FA II 1139.

FA II 1106. (١٩)

(٢٠) «مبادئ الفلسفة» III, art. 60, I Principes de la philosophie, I art. 60, III FA III 128.

(٢١) وفى الحركة ذاتها، يقطع الإنسان الحديث صلاته بالطبيعة وبالفير؛ وباختصار، قد أهملت التعريفات الأرسططالية للإنسان على أنه حيوان «عاقِل»، وكأنه حتى سياسى (Zoon Politikon). إن فصل الفكر عن الجسم، فضلا ميتافيزيقيا يعنى انتزاع الفرد من بيئته الاجتماعية السياسية، فالحقيقة أن الغير كان حاضرا فى جسمى أول الأمر حضورا جوهريا.

(٢٢) إلى الزبايث، سبتمبر ١٦٤٦، FA III 670

(٢٣) هذا المجاز للمسرح العالمى: (Preambules FA I 45, DM AT VI 28; passions de l'ame, art. 147).

وهو موضع مشترك لثقافة الباروك والكلاسيك، يولد لدى ديكارت مفهوما سلبيا عن السياسة. «فأنا فى عالم البشر، ممثل على مسرح». فالروابط الاجتماعية وهى ليست جهرية للموضوع الميتافيزيقى، غريبة عنه، وتصدر عن الخيال، مثل أداء الممثلين على المسرح. «الذاتية» حاضرة فى مشهد العالم، وتشارك فيه، ولكنها لا تظهر فيه أبدا جهارا، بوجه مكشوف. ثم كيف يتأنى لها ذلك، مادام من طبيعتها أن تكون منفصلة عن كل شىء. وعن الجميع، فى عزلتها الداخلية الصافية؟ فى الهند ٢٠٦ من كتاب «اهواء النفس» Passions de l'ame ينصح ديكارت باتباع «آراء الشعب الكاذبة» فيما يتعلق «بظواهر أعمالنا». والسياسة هى ذلك المجال الخارجى للأعمال: المجال المسرحى. والمجال الخارجى يصدر عن المجال الداخلى الأخلاقى (فهو أثر من آثار الإرادة الحرة

للإنسان العاقل)، ولكن قسما كبيرا (من المجال الخارجي) يفلت منه، حين يظل الآخر مختلفا اختلافا جوهريا. وفي المسرح تتجلى حرية الإنسان المفكر، الا أن أفعاله تبقى غريبة عنه. أفعالي، في الحقيقة الواقعة، تصبح أفعالا أخرى، تصبح من قبيل ما يفعله الآخرون، بل تصبح أفعال الآخرين، ولم تعد تنتمي إلى، إنها تدخل في التاريخ (إنني أدخل في التاريخ، باعتباري شخصية، على أكثر تقدير). والسياسة هي مسرح الأخلاق، ولكن في الرؤية الديكارتية لا يعني ذلك أن تعرك السياسة على أنها المكان الذي تتم فيه الأخلاق وتحقق، ولكنها المكان الذي تضع فيه (الأخلاق)، وتصير أوهاما لا تتحقق، حيث تصبح مظهرا بين المظاهر، حسب الإثبات «الانطولوجي» للحرية.

٢٤ - العنوان الكامل لكتاب «رسالة في المنهج».

٢٥ - راجع: إلى اليزابيث، مايو ١٦٤٦ (I·A III 654) : من الأفضل الاعتماد في ذلك على التجربة، لا على العقل، إذ قلما يتعامل الإنسان مع أشخاص ذوي عقول راجحة...».

راجع أيضا DM 14.

٢٦ - DM 14

٢٧ - DM 25.

٢٨ - DM 26 : «... لنفكر في كل الأموال التي ليست لنا على أنها كذلك بعيدة عن قدرتنا...».

راجع ن. جريمالدي N. Grimaldi : «تجربة الفكر في فلسفة ديكارت» : L'Experience de la pensee dans la philosophie de Descartes, Vrin, p.204 - 211. «تتمثل ممارسة هذه القاعدة الثالثة إذن في أن نواجه وقضا نهائيا لما قدمناه».

٢٩ - وهكذا لا يتردد ديكارت في أن يصرح بشيء من العنف لكريستين ملكة السويد في ٢٠ من نوفمبر ١٦٤٧ (I·A III 747) «ولكن فيما يخص ثقتي بأن جلالتك تهتمين بالفضيلة أكثر من اهتمامك بالعرش، فإنني لا أتردد هنا في القول بأنه لا يبدو لي أن هناك شيئا خلاف هذه الفضيلة التي امتدحها الكافة بحق».

٣ - مجمل القول أن الأمير، وهو على أية حال «أمير» ماكيافيللي، يستحق «الشفقة» كما كتب ديكارت لاليزابيث (أكتوبر - نوفمبر ١٦٤٦) بعد أن أسرت إليه أنها تفضل «حالة أفقر فلاح في هولندا» على حالة هذا الأمير أو وزرائه. الا

أن كلا منهما يعترف بأن الأمراء كلهم ينزعون إلى التصرف كما ينصح به ماكيافيللى، على وجه التقريب. وفى هذا فصل بين الأخلاق والسياسة، ويبدو الأمير أخيرا شبيهاً بمن تقوم وظيفته السياسة عاتقا لوصائته الأخلاقية.

٣١ - وكما يقول ن. اوكيوهان N. O'Keohane (الفلسفة والدولة فى فرنسا، مؤسسة نشر جامعة برنستون، ١٩٨٠ ص ٢٠٣) إن من رأى ديكرات أن «السياسة هى من شأن الملوك، لا الأفراد». وفى هذه النقطة يتفق فكر ديكرات مع فكر «الأحادية المطلقة» (أو الحكم المطلق)، absolutisme، وما يقصده لويس الرابع عشر بعبارة «مهنة الملك» (انظر مذكراته فى تعليم ولى العهد).

٣٢ - خطاب إلى شانو Chanut سفير فرنسا فى السويد (FA III 749) : «... ليس من حق أحد، سوى الملوك، ومن يرخصون لهم، أن يشترك فى تهذيب عادات الآخرين وأخلاقهم. والملاحظ أن ديكرات يرى إذن أن الهيئات الدينية لا يجوز لها أن تتدخل فى التربية الأخلاقية للشعب، على الأكل بمبادرتها الشخصية. وهذا الطابع العلماني للأخلاق يتوافق تماما مع روح الفلسفة الديكارتية إلا أنه يبدو أن كون الملوك، أى السلطة السياسية، هم الذين يضطلعون بهذه المهمة، يتعارض مع الفكرة الديكارتية الخاصة باستقلال الأخلاق وقلب علاقة التبعية التى تجعل السياسة تابعة للأخلاق. ويجب دون شك التمييز بين العادات والأخلاق. وبين أعراف (تقاليد) مجتمع ما وبين واجبات الأفراد الأخلاقية، الشيء الذى لم يفعله ديكرات فى هذا النص: والسلطة القانونية التى للملك لا تتعلق إلا بالأمور الأولى (أى عادات الشعب وتقاليد)، أما الفيلسوف الذى يعالج الأخلاق بتعمق فلا يتسنى له من ثمة أن يناقش الأمير. ولكنه يبدو بخاصة، عند قراءة هذه السطور أن الأخلاق الديكارتية، ولو أنها ديموقراطية فرضا (لأن على كل إنسان أن يعمل على الفوز باستقلاله)، فإنها مازالت أخلاقا أرستقراطية: فأصحاب النفوس الكبيرة هم أضعاب المروءة، ومن واجب السلطة السياسية أن تمنح الأفراد الآخرين، الذين يراعون التقاليد دون أن يسموا بها أخلاقيا، قواعد جيدة للسلوك الحسن.

٣٣ - لم يذكر إلا القليل من الملاحظات عن «دو سيف» لهرىز De Cive de (Au p 1643? FA III 61) ولكنّه أفرد، على العكس من ذلك، رسالة مطولة عن «الأمير» ماكيافيللى (إلى أليزابيث، فى ١٦ من سبتمبر ١٦٤٦، FA III 665 - 671). ويعود أخيرا بإيجاز إلى ماكيافيللى فى رسالة لاحقة حيث ينوه بقراءته ال Discorei (إلى أليزابيث، أكتوبر - نوفمبر ١٦٤٦).

(FA III 680 - 681

٣٤ - على التوالي، إلى P. (انظر البند السابق) وإلى أليزابيث:
(FA III 669, citation du ch. 15 du prince)

٣٥ - يذكر ماكيافيللي هذا الرأي مرارا وتكرارا. انظر على سبيل المثال كتابه
«الأمير» (Gallimard, "Pleiade", ch. XVII, p. 339) : الناس
«جاحلون، ومتقلبون، وكثومون.. الناس خبثاء».

Discorsi, LI ch III - ٣٦

٣٧ - أنها تلك النزعة الطبيعية لدى الناس، التي تجعلهم يلحقون الأذى بعضهم ببعض
(De Cive, I ere section).

٣٨ - إلى FA III 61, p

٣٩ - لمراجعة أحد المفاهيم الرئيسية في الأنتولوجيا السياسية لدى ماكيافيللي،
انظر «الأمير» (ch. XV du prince (pleiade 335).

٤٠ - FA III 667 يرجع ديكارت إلى المبدأ الماكيافيللي (ch. XVIII du prince, pleiade 341)
«مع قصر تطبيقه على الأعداء
فقط: «يجب أيضا التفرقة بين الرعايا، والأصدقاء أو الحلفاء، والاعداء، ذلك لأنه
بالنسبة إلى هؤلاء الآخرين يباح للمرء أن يفعل بشأنهم كل شيء...»
٤١ - «الأمير» (ch. XVIII (pleiade 342) : «ليس من الضروري إذن لأى
أمير أن يتصف بكل الخصال الحميدة... ولكن ... ينبغي أن يبدو كأنه يتصف
بها».

٤٢ - FA III 666

٤٣ - يعرف ديكارت في رسالته الرجل الصالح كما يأتي (ص ٦٦٩): «إنه ذلك
الذى يفعل كل ما يملكه عليه العقل الراجح...» والعقل الراجح هنا له المعنى
الأخلاقي الخاص الذى يقصده ديكارت في ذلك الحين. انظر رسالته إلى أليزابيث
فى أول سبتمبر ١٦٤٥ (FA III p. 602) «مهمة العقل الحقيقية تتمثل فى
البحث عن القيمة الصحيحة للأشياء النافعة الي بتوقف الحصول عليها بنوع ما
على سلوكنا». وبخصوص مختلف تعريفات العقل عند ديكارت، انظر:

Alquie, op.,cit, p. 326 - 329.

PA art. 161 - ٤٤

٤٥ - Ibidm., art. 153 فى الموضوع نفسه.

Ibid. (٤٦)

٤٧، الخطاب الثانى (FA III 681). «البارع» Virtuoso الماكيافيللى، من وجهة النظر هذه قد يبدو بمثابة الصورة المناقضة لصاحب المروءة genereux الديكارتي؛ فهو، فى نطاق الأخلاق عند ديكارت، شخص يتصف بزهو (خيلاء، غطرسة، عجرفة...) مفرط؛ والزهو هو ذلك الهوى الفاسد (المعيب) لدى أولئك الذين يقدرون أنفسهم تقديراً تغذيه الرغبة المشبعة فى الاستمتاع بالأموال التى لا يتوقف الحصول عليها على إرادتهم وحدها. والمتعرجون هم «أولئك الذين يبدلون ما فى وسعهم للحط من قدر الآخرين، وهم عبيد رغباتهم... وبذلك تجيش نفوسهم دواما بالحق، والحسد، والغيرة، والغضب» (PA art. 157). ويبدو لنا أن تحليل الزهو (العجرفة) هذا ينطبق على «البارع» الماكيافيللى، كما يبدو على أية حال فى ضوء النقد الذى يوجهه ديكارت «للأمير». إن الزاوية بالغير، وافترض خبثه يؤديان بطبيعة الحال إلى السخرية (الكليبية) السياسية، والطفيان.

FA III 666 (٤٨)

FA III 668 (٤٩)

(٥٠) راجع هـ جوييه H. Gouhier : «المذهب الانسانى الجديد فى رأى ديكارت والسياسة» (in Cristianesimo e Ragion di Stato: Atti del Secondo Congresso Internazionale di Studi Umanistici, fratelli Bocca . Rome - Milan (19٥٥) : «يفشل المبدأ الأخلاقى لضرورة واقعية ص ٨٤).

FA III 653. (٥١) 14 - 13 DM AT VI : إلى الزباييث، فى مايو ١٦٤٦.

FA III 670، إلى سبتمبر ١٦٤٦.

(٥٢) راجع ن. أوكيوهان N.O' Keohame . المرجع السابق، فصل ٨: «نظرية الحكم المطلق التقليدية، ومهنة الملك»

(٥٣) من المسلم به أن مثل هذا الانفصال، والاحتجاز للسياسة ينتميان بنوع خاص للمناهج الاستبدادية (المؤيدة للحكم المطلق)

FA III 669 (٥٤)

FA III 668 (٥٥)

(٥٦) إلى الزباييث، فى سبتمبر ١٦٤٦. FA III 612

(٥٧) إلى الزباييث، فى سبتمبر ١٦٤٦. FA III 666

- P. Mesnard, Barbosa Homem et la conception baroque de la raison d'Etat (in Cristianesimo e Ragion di Stato, op. cit).
- (٥٨) راجع ب - ميسنار: H.Gouhier «الفكر الديني عند ديكارت» (Vrin 1979) راجع هـ. جوييه وبخاصة صفحة ٢١٧. انظر أيضا أرموجات J.R. Armogathe «اللاهوتى الديكارتي».
- Theologia Cartesiana (Nijhoff, La Haye, 1977).
- انظر أيضا ماريون J.L. Marion «اللاهوت الأبيض عند بكارت»:
- la Théologie blanche de Descartes (P.U.F., 1981).
- (٦٠) - مذهب خلق الحقائق الأبدية. راجع: رسائل الربيع:
- lettres du printemps 1630, FA 111 254-269.

التعريف بالكتاب

خوان لسكانو من مواليد كارا كاس سنة ١٩١٥. مدير خدمات البحوث الوطنية في الفنون الشعبية، ومؤسس مجلة Zona Franca ، ومدير دار نشر مونت أفيلا من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ ثم مديرا لمطبوعات ماندورلا.

جيان أودونى من مواليد عام ١٩٤٠. يعمل رئيسا للبحوث في المركز الوطنى للبحوث العلمية، ويدير هذا المركز. ويعمل في معهد الطبيعيات الفلكية بهاريس ويدرس في المدرسة الفنية. مؤلف (أو مشترك في تأليف) عدة كتب منها: الكون اليوم، والأطلس الفلكي الكبير (دائرة معارف العالم) والطبيعيات الفلكية النووية، ومقدمة

وولاند فيشر الأستاذ السابق للعلاج النفسى والصيدلة (جامعة جورج تاون، وجامعة جورج واشنطن ومدرسة جون هوكينز الطبية). من بين الكثير من انتاجه في مجال العلاقات بين العلوم في مجلة: Perspectives in Biology and Medicine, 8,1965 and مجلة Science, 174, 1971.

جان هامبورجر من مواليد عام ١٩٠٩. يعمل أستاذا للطب في جامعة باريس ورئيس قسم أمراض الكلى في مستشفى تيكر. ومدير معمل بحوث المناعة وعضو المعهد الفرنسي (أكاديمية العلوم الفرنسية). ولقد ترجم كتابه: إلى أربعة عشر لغة.

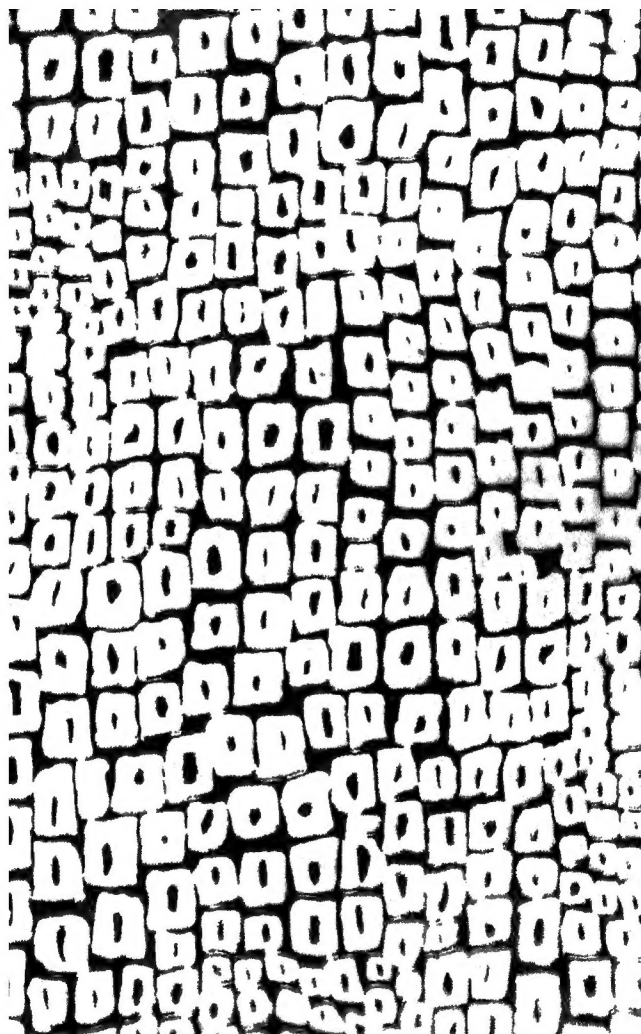
فى الطبىعيات النووية الفلكية.. إلخ.

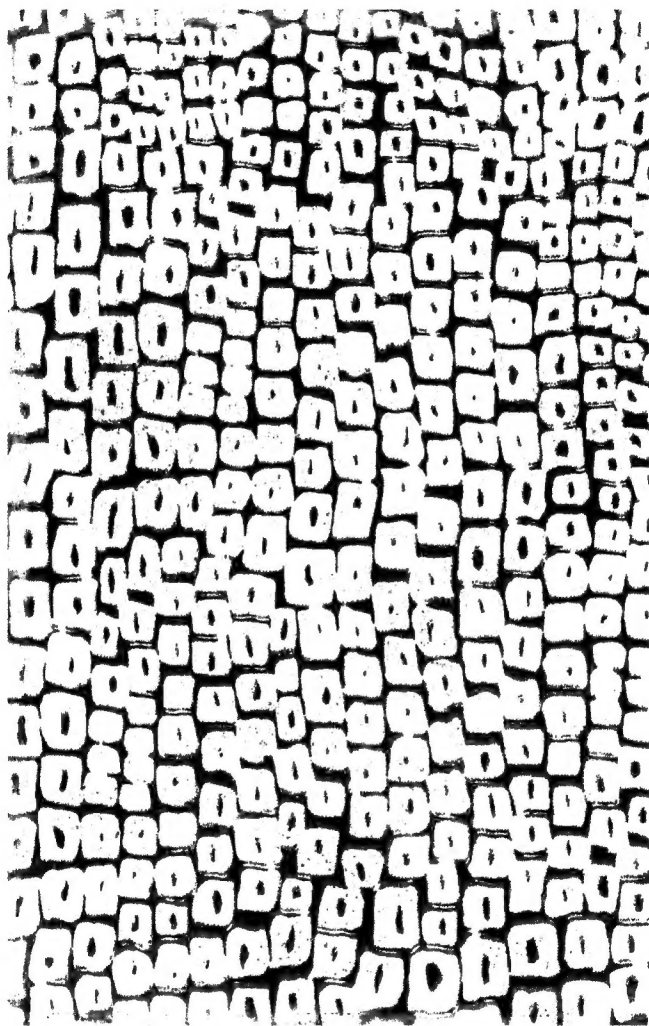
لويس بىلك من مواليد عام ١٩٢٦، قام بدراسة علم الاقتصاد وعلم الاجتماع والعلاقات الدولية فى الجامعة الكاثوليكية فى لوفين بباركلى عمل استاذاً فى جامعة لوفانيون (كينشاسا). له مؤلفات عديدة (باللغة الهولندية) حول التنمية الدولية، وتاريخ الفكر الاقتصادى منها كتاب: أوروبا محاطة بأمريكا، والقوة المضادة.. وغيرها.

ألكسندر كهنيث كيملى من مواليد عام ١٩٤٠، حاصل على درجة العالمية فى الاقتصاد، أستاذ بجامعة ريجينا فى

سككتشوان. متخصص فى النظرية الاقتصادية واقتصاديات النقود. وله اهتمامات بالمسائل الدولية (مستشار الاتحاد الهندى فى سككتشوان) له مقالات حول الحسابات المالية. وكتاب الاقتصاد ومبادئه تطبيقاته.

جان بيير كافاييه - Jean-Pierre Cavallé : ولد عام ١٩٥٩، باحث فى المعهد الجامعى الأوربي، فلورنسا، ومعهد الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية، باريس. إخصائى فى فلسفة القرن السابع عشر وثقافته، نشر مقالات متنوعة فى فلسفة ديكارت، وكذا فى ثقافة الباروك الأوربية.







Biblioteca Alexandrina



0536997